

# المستطرف

## في كل فنٍّ مستطرف



تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد الأبهشي

تحقيق

محمد خير طعمه الحلبي

دار المعرفة

بيروت - لبنان



المستطرف  
في كل فن مستطرف



# المستطرف في كلفِ مستطرف

تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد الأبيهي  
المتوفى ٨٥٠ هـ

تتبع

محمد خير طعمه الحلي

دار المعرفة  
بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية  
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright© All rights reserved  
Exclusive rights by Dar Al-Marefah  
Beirut - Lebanon

ISBN 9953-446-74-1

الطبعة الخامسة  
1429 هـ - 2008 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع  
**DAR AL-MAREFAH**  
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٢٤٣٣٢-٨٢٤٣٠١  
فاكس: ٨٢٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان  
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332  
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon  
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة المحقق

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه الميامين الغرر.

أما بعد: فإن الكتاب الذي بين أيدينا وهو كتاب (المستطرف) لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبيهي من أمتع وأظرف الكتب الأدبية والدينية والتاريخية... جمع فيه مؤلفه كل ما أسعفته به فإكرته من نوادر الأخبار والأشعار والخطب والكلام الحسن، وقد وصفه حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون) خير وصف فقال:

«وهو يشتمل على كل فن ظريف وفيه الاستدلال بآيات من القرآن، وأحاديث صحيحة، وحكايات حسنة عن الأخيار، ونقل فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في ربيع الأبرار، وابن عبد ربه في العقد، وفيه لطائف عديدة من متخبات الكتب المفيدة، وأودعه من الأمثال والنوادر الهزلية والغرائب والدقائق والأشعار والرقائق وجعله مشتملاً على أبواب عدتها أربعة وثمانون»<sup>(١)</sup>.

ولما كان هذا الكتاب على هذا القدر من الفائلة والأهمية، رأيت أن أتأوله بالاعتناء والتحقيق. فكان عملي وفق الخطة التالية:

- ١ - قابلت الكتاب على عدة نسخ مطبوعة فوجدت الكثير من النقص فأبدته.
  - ٢ - ضبطت النص ضبطاً تاماً ووضعت علامات الترميم ليسهل على القارئ الاستفادة منه.
  - ٣ - شرحت الألفاظ الغريبة.
  - ٤ - خرّجت الآيات القرآنية ووضعتها بين قوسين مزهرين، هكذا: ﴿﴾.
  - ٥ - نسبت بعض الآيات الشعرية إلى قائلها.
  - ٦ - علّقت على بعض المسائل التي رأيت أنها تحتاج إلى تعليق.
- وإتماماً للفائدة رأيت أن أقدم للقراء الأعزاء نبذة يسيرة عن المؤلف. والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

المحقق أحمد طعمه حلبي

## الأبشيبي (١)

شهاب الدين محمد بن أحمد، أبو الفتح الأبشيبي المحلي الشافعي، واعظ أديب من أدباء مصر في القرن التاسع الهجري. ولد في أبشوية وهي قرية تقع في غربي مصر وإليها يتسب، وكانت ولادته سنة ٧٩٠ هـ. وانتقل إلى القاهرة، وحضر دروس الجلال البليقيني، وولي خطابة بلده. وحج سنة ٨١٤ هـ، وله كتاب (أطواق الأزهار على صدور الأنهار). توفي سنة ٨٥٠ هـ.

(١) اعتمدنا في ترجمته على: معجم المؤلفين لكحالة (٩ : ٢٢). والضوء اللامع (٧ : ١٠٩) وكشف الظنون: ١٦٧٤. والأعلام للزركلي.

## مقدمة المؤلف

الحمد لله الملك العظيم العليّ الكبير، الغني الحميد اللطيف الخبير، المنفرد بالعرز والبقاء، والإرادة والتدبير، الحيّ العليم الذي ليس كمثلته شيء، هو السميع البصير. تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير، وأشكره على ما أعان عليه من قصد، ويسّر من عسير. وأشهد أن لا إله إلاّ وحده لا شريك له ولا مشير، ولا ظهير له ولا وزير. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله: البشير النذير، السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غني وفقير، وأمور وأمير. صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير، وينجو بها في الآخرة من عذاب السعير. وحسبنا الله ونعم الوكيل، فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد: فقد رأيت جماعة من ذوي الهمم، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب، والمواعظ، والحكم. وسطوا مجلدات في التواريخ، وال نوادر، والأخبار، والحكايات، وال لطائف، و رقائق الأشعار، وألفوا في ذلك كتباً كثيرة، فرد، كل منها بفرائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة. فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف، وسميته (المستطرف في كل فن مستظرف)، واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة، من أحاديث النبي الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار)، وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه (المقد الفريد)، ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة، من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة، وأودعته من الأحاديث النبوية. والأمثال الشعرية، والألغاز اللغوية، والحكايات الجديّة، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرقائق، ما تشف<sup>(١)</sup> بذكره الأسماع وتقر برؤيته العيون، وينشرح بمطالعة كل قلب محزون.

من كل معنى يكاد الميت يفهمه      حُناً ويعشقه القرطاسُ والقلمُ

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين باباً، من أحسن الفنون، متوّجةً بألغاز كأنها الدرّ المكنون كما قال بعضهم شعراً في المعنى:

ففي كل باب منه دُرٌّ مؤلّف      كنظّم عقود زينتها الجواهرُ  
فإن نظّم العقد الذي فيه جوهرُ      على غير تاليفٍ فما الدرُّ فاخرُ

وضمته كل لطيفة، ونظمتها بكل ظريفة، وقرنتُ الأصول في بالفصول، ورجوت أن ييسر لي ما رُمته من الأصول، وجعلتُ أبوابه مقدمة، وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج

(١) تشف بذكره الأسماع: تطرب له وترتاح إليه.



إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى في بابه إن شاء الله تعالى. والله المسؤول في تيسير المطلوب. وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب. إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهون للمصعب.

الباب الأول: في مباني الإسلام، وفيه خمسة فصول.

الباب الثاني: في العقل، والذكاء، والحق، والذم، وغير ذلك.

الباب الثالث: في القرآن العظيم، وفضله، وحرمة، وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم، والأجر

الجسيم.

الباب الرابع: في العلم، والأدب، وفضل العالم والمتعلم.

الباب الخامس: في الآداب، والحكم، وما أشبه ذلك.

الباب السادس: في الأمثال السائرة، وفيه فصول.

الباب السابع: في البيان، والبلاغة، والفصاحة، وذكر الفحصاء، من الرجال، والنساء، وفيه فصول.

الباب الثامن: في الأجوبة المكتبة، والمستحسنة، ورشقات اللسان، وما جرى مجرى ذلك.

الباب التاسع: في ذكر الخطب، والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد.

الباب العاشر: في التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم، والقناعة، وذم الحرص، والطمع وما أشبه ذلك،

وفيه فصول.

الباب الحادي عشر: في المشورة، والنصيحة، والتجارب، والنظر في العواقب.

الباب الثاني عشر: في الوصايا الحسنة، والمواظب المستحسنة، وما أشبه ذلك.

الباب الثالث عشر: في الصمت، وصورن اللسان، والنهي عن الغيبة، والسعي بالنميمة، ومدح العزلة، وذم

الشهرة، وفيه فصول.

الباب الرابع عشر: في الملك، والسلطان، وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما

يجب لهم عليه.

الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان، والتحذير من صحبته.

الباب السادس عشر: في الوزراء وصفاتهم، وأحوالهم، وما أشبه ذلك.

الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب، والولاية، وما فيها من الفرز، والخطر.

الباب الثامن عشر: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة، والهدية على الحكم، وما يتعلق

بالديون، وذكر القصاص، والمتصوفية، وفيه فصول.

الباب التاسع عشر: في العدل، والإحسان، والإنصاف وغير ذلك.

الباب العشرون: في الظلم وشؤمه، وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك.

الباب الحادي والعشرون: في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال، ومسيرة السلطان في استجلاء الخراج، وأحكام أهل الذمة، وفيه فصلان.

الباب الثاني والعشرون: في اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء حوائج المسلمين، وإدخال السرور عليهم.

الباب الثالث والعشرون: في محاسن الأخلاق ومساوئها.

الباب الرابع والعشرون: في حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة، وما أشبه ذلك.

الباب الخامس والعشرون: في الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشفاعة، وإصلاح ذات البين وفيه فصلان.

الباب السادس والعشرون: في الحياء، والتواضع ولين الجانب، وخفض الجناح، وفيه فصلان.

الباب السابع والعشرون: في العجب، والكبر، والخيلاء وما أشبه ذلك.

الباب الثامن والعشرون: في الفخر، والمفاخرة، والتفاضل، والتفاوت.

الباب التاسع والعشرون: في الشرف والسؤدد، وعلو الهمة.

الباب الثلاثون: في الخير، والصلاح، وذكر السادة الصحابة، وذكر الأولياء، والصالحين رضي الله عنهم أجمعين.

الباب الحادي والثلاثون: في مناقب الصالحين، وكرامات الأولياء رضي الله عنهم.

الباب الثاني والثلاثون: في ذكر الأشرار، والفجار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة، والسفاهة.

الباب الثالث والثلاثون: في الجود، والسخاء، والكرم، ومكارم الأخلاق، واصطناع المعروف، وذكر الأمجاد، وأحاديث الأجواد.

الباب الرابع والثلاثون: في البخل، والشح، وذكر البخلاء، وأخبارهم وما جاء عنهم.

الباب الخامس والثلاثون: في الطعام، وآدابه والضيافة، وآداب المضيف، والضيف، وأخبار الأكلة، وما جاء عنهم، وغير ذلك.

الباب السادس والثلاثون: في العفو، والحلم، والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار، وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك.

الباب السابع والثلاثون: في الوفاء بالوعد، وحسن العهد، ورعاية اللمم.

الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه.

الباب التاسع والثلاثون: في الغدر، والخيانة، والسرقة، والعداوة، والبغضاء، والتخسد، وفيه فصول.

الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها، والحروب وتديورها، وفضل الجهاد، وشدة البأس، والتحريض على القتال، وفيه فصول.

الباب الحادي والأربعون: في ذكر أسماء الشجعان، وذكر الأبطال وطبقاتهم، وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن.

الباب الثاني والأربعون: في المدح، والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفيه فصول.

الباب الثالث والأربعون: في الهجاء، ومقدماته.

الباب الرابع والأربعون: في الصدق، والكذب، وفيه فصلان.

الباب الخامس والأربعون: في بر الوالدين، وذم العقوق، وذكر الأولاد، وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقربات، وذكر الأنساب، وفيه فصول.

الباب السادس والأربعون: في الخلق، وصفاتهم، وأحوالهم، وذكر الحسن، والقبح، والطول، والقصر، والألوان، واللباس، وما أشبه ذلك.

الباب السابع والأربعون: في ذكر الخُلِي، والمصوغ، والطيب والتطيب، وما جاء في التختّم.

الباب الثامن والأربعون: في الشباب، والشيب، والصحة، والعافية، وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك، وفيه فصول.

الباب التاسع والأربعون: في الأسماء، والكنى، والألقاب، وما استحسن منها.

الباب الخمسون: في الأسفار، والاغتراب، وما قيل في الوداع، والفراق، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن، والحنين إلى الأوطان.

الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى، وحب المال، والافتخار بجمعه.

الباب الثاني والخمسون: في ذكر الفقر، ومدحه.

الباب الثالث والخمسون: في ذكر التلطف، في السؤال، وذكر من سُئل فجاد.

الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا، والتحف، وما أشبه ذلك.

الباب الخامس والخمسون: في العمل، والكسب، والصناعات، والحرب، والعجز، والتواني، وما أشبه ذلك.

الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان، وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلي عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول.

الباب السابع والخمسون: فيما جاء في اليسر، بعد العسر، والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك.

الباب الثامن والخمسون: في ذكر العييد؛ والاماء، والخدم، وفيه فصلان.

الباب التاسع والخمسون: في أخبار العرب، وذكر غرائب عوائدهم، وعجائب أمرهم.

الباب الستون: في الكهانة، والقيافة والزجر، والعرافة والقأل، والطيرة، والفراسة، والنوم، والرؤيا.

الباب الحادي والستون: في الحيل، والخدائع المتوصلة بها إلى بلوغ المقاصد، والتيقظ، والتبصر، ونحو ذلك.

الباب الثاني والستون: في ذكر الدواب، والوحوش، والطيور، والحشرات، مرتباً على حروف المعجم.

الباب الثالث والستون: في ذكر من عجائب المخلوقات، وصفاتهم.

الباب الرابع والستون: في خلق الجن وصفاتهم.

الباب الخامس والستون: في ذكر البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار، والآبار وفيه فصول.

الباب السادس والستون: في ذكر عجائب الأرض، وما فيها من الجبال، والبلدان وغرائب البنيان، وفيه فصول.

الباب السابع والستون: في ذكر المعادن، والأحجار، وخواصها.

الباب الثامن والستون: في ذكر الأصوات، والألحان، وذكر الغناء، واختلاف الناكس، ومن كرهه واستحسنه.

الباب التاسع والستون: في ذكر المغنين، والمطربين وأخبارهم، ونوادير الجلساء في مجالس الخلفاء.

الباب السبعون: في ذكر القينات، والأغاني.

الباب الحادي والسبعون: في ذكر العشق ومن بلي به، والافتخار به، والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما

في معنى ذلك وفيه فصول.

الباب الثاني والسبعون: في ذكر رقائق الشعر، والمواليا، والدوييت، وكان كان، والموشحات، والزجل،

والقومة، والألغاز، ومدح الأسماء، والصفات وفيه فصول.

الباب الثالث والسبعون: في ذكر النساء وصفاتهم، ونكاحهن، وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهن،

وفيه فصول.

الباب الرابع والسبعون: في ذم الخمر وتحريمها والنهي عنها.

الباب الخامس والسبعون: في المزاح، والنهي عنه. وما جاء في الترخيص فيه، والبسط، والتنعم، وفيه فصول.

الباب السادس والسبعون: في النوادر، والحكايات، وفيه فصول.

الباب السابع والسبعون: في الدعاء وأدابه، وشروطه، وفيه فصول.

الباب الثامن والسبعون: في القضاء والقدر، وأحكامهما، والتوكل على الله تعالى.

الباب التاسع والسبعون: في التوبة وشروطها، والندم والاستغفار.

الباب الثمانون: في ذكر الأمراض والعلل، والطب، والدواء، من السنة، والعبادة وثوابها، وما أشبه ذلك، وفيه

فصول.

الباب الحادي والثمانون: في ذكر الموت وما يتصل به من القبر، وأحواله.

الباب الثاني والثمانون: في الصبر، والتأسي، والتعازي، والمراثي، ونحو ذلك، وفيه فصول.

الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا، وأحوالها، وتقلبها بأهلها، والزهد فيها ونحو ذلك.

الباب الرابع والثمانون: في فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو آخر الأبواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد.

## الباب الأول: في مباني الإسلام وفيه خمسة فصول

### الفصل الأول: في الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا نذ له، أبدي دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته، قيوم لا يفنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، منزّه عن الجسمية ليس كمثل شيء وهو فوق كل شيء، فوقيته لا تزيد بعداً عن عبادته، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، وهو معكم أينما كنتم، لا يشابه قربه قرب الأجسام، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام، منزّه عن أن يحلّه زمان، مقلّس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار، في دار القرار على ما ذلت عليه الآيات والأخبار. حيّ قادرٌ جبار قاهر لا يعتره عجز ولا قصور، ولا تأخذه سنة<sup>(١)</sup> ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت. خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وأجالهم، لا تحصى مقدراته، ولا تنهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب<sup>(٢)</sup> عنه مقال ذرة في الأرض ولا في السموات. يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وخفيات السرائر، مريد للكائنات، مدير للحادثات، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، خير أو شر، نفع أو ضرر إلا بقضائه وقدره وحكمه، ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد من معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته، إلا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين، على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا، سميع بصير، متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه، وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث، أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٣)</sup> الآية، وقال أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يعصى الإلّ  
وفي كل شيء له آية  
والله في كلّ تحريكو  
به أم كيف يجعده الجاحد  
تدلّ على أنه الواحد  
وتسكينو في السورى شاهد

وقال غيره:

- (١) سنة: فتور يسبق النوم.
- (٢) يعزب: يغيب ويعد.
- (٣) سورة: البقرة، الآية: ١٦٤.

كل ما ترتقي إليه بوهم      من جلال وقدره وسناء  
فالذي أبدع البرية<sup>(١)</sup> أعلى      منه سبحانه مبدع الأشياء

وقال علي رضي الله عنه في بعض وصايا لولده: اعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأنتك رسله ولرايت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد لا يضاده في ملكه أحد. وعنه عليه الصلاة والسلام كل ما يتصور في الأذهان، فإله سبحانه بخلافه. وقال لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل      وكل نعيم لا محالة زائل  
وكل ابن أنثى لو تطاول عمره      إلى الغاية القصوى فلقبر آيل  
وكل أناس سوف تدخل بينهم      دويبة<sup>(٢)</sup> تصفر منها الأنامل  
وكل امرئ يوماً سيفرف سعيه      إذا حصلت عند الإله الحصائل

وروي أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: إن أشعر كلمة قالتها العرب: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد، الإقرار بالشهادة بأن محمداً رسول الله بعثه برسالته إلى الخلائق كافة، وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريته الشرائع، وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: مَنْ ربك وما دينك ومَنْ نبيك؟ ويؤمن بعذاب القبر، وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراف حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله تعالى يُدخل الجنة من يشاء بغير حساب، وهم المقربون، وأنه يُخرج عصاة الموحدين من النار، بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم مَنْ في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويؤمن بشفاعة العلماء، ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ويحسن الظن بجمعهم، على ما وردت به الأخبار، وشهدت به الآثار، فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً فهو من أهل الحق، والسنة، مُفارق لعصابة الضلال، والبدعة. رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها، ووقفنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب، فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

## الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

(١) البرية: الخلق.

(٢) دويبة: تصغير داهية وهي المصيبة.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٨.

وَأَتُوا الزَّكَاةَ<sup>(١)</sup>. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾<sup>(٢)</sup> واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مِمَّ هو؟ فقيل هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاءً معروفة في كلام العرب، فَسُمِّيَت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء، وقيل سميت بذلك من الرحمة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾<sup>(٣)</sup> فهي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء، قال ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى، أَيِ أَرْحَمِهِمْ» وقيل سميت بذلك من الاستقامة، من قولهم: صليت العود على النار إذا قَوْمْتَهُ.

والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته، وتنهاه عن خلافه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>(٤)</sup>. وقيل لأنها صلة بين العبد وربه، وعن رسول الله ﷺ قال: «علم الإيمان الصلاة، فَمَنْ فرغ لها قلبه، وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتمُّ ركوعها، وسجودها وخشوعها، وتواضعه وإقباله على الله فيها. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحده، فإذا حضرت الصلاة، فكانه لم يعرفنا ولم نعرفه». وقيل للحسن: ما بال المتهجدين<sup>(٥)</sup> من أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «لأنهم حلوا بالرحمن، فألبسهم نوراً من نوره» وقال بعضهم: «لا تفوت أحداً صلاة في جماعة إلا بلذبة». وكانت رابعة العدوية تصلي في اليوم واللييلة، ألف ركعة وتقول: والله ما أريد بها ثواباً، ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ، ويقول للأبياء عليهم الصلاة والسلام: «انظروا إلى امرأة من أمتي، هذا عملها في اليوم واللييلة». وقال بعضهم: صليت خلف ذي النون المصري فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: الله ثم بَهَتْ، وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا، ثم قال: الله أكبر فظننت أن قلبي انخلع من هيبته تكبيره. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتي، وإذا جنَّ عليه الليل نام عني، أليس كل محبٍ يحبُّ الخلوَّةَ بحبيبه؟ ولعبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه:

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوه      فيسفرُ عنهم وهم ركوعُ  
أطارَ الخوفُ نومَهُم ققاموا      وأهلُ الأمنِ في الدنيا هجوعُ

وكان سيدي الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم التحريوي - رحمه الله - كثيراً ما يتمثل بهذه

الآيات:

يا أيها الراقِدُ كم ترقدُ      قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ  
وخذُ من الليلِ ولو ساعةً      تحظي إذا ما هجعَ الرُقُودُ  
مَنْ نامَ حتى يقضي ليَّه      لم يبلغِ المنزَلَ لو يجهدُ

(١) سورة: البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٤) سورة: العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٥) المتهجدين: المصلين ليلاً، وتأتي بمعنى النائمين وليس مراداً هنا.



وكان سيدي أويس القرني لا ينام ليله ويقول: ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفترو؟ وقال حذيفة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. وقال هشام بن عروة: كان أبي يطيل المكتوبة ويقول هي رأس المال. وقال أبو الطفيل: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها<sup>(١)</sup>. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصلاة إلى الصلاة كثارة لما بينهما ما اجتبت الكبائر». وجزأ محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه، وعلى أخته الليل اثلاثاً، فماتت أخته، فجزأه عليه وعلى أمه، فماتت أمه فقام الليل كله، وكان مسلم بن بشار، إذا أراد أن يصلي في بيته يقول لأهله: تحدثوا فليست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام، فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا. ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفئ. وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعاً منصوباً لطول انتصابه في الصلاة، وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط. وختم القرآن في ركعة واحدة من الأئمة: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهم. ورأى الأوزاعي شاباً بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: «عند الصباح يحمد القوم السرى»<sup>(٢)</sup> فقال: يا ابن أخي لك ولأصحابك لا للجمالين. وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: بلغني أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور، وأنا بين يدي ربي، أفلا أصبر على ذباب يقع علي؟ وقال أبو صفوان بن هوانة: ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلي في القمر كأنه يشبه الملائكة. وقال الحسن: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ كانت تقوم بالأسحار، حتى تورمت قلعها. وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قلعها، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وكانت دموعه تقع في صلاة كوكف المطر<sup>(٣)</sup>. وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغيلان. هنا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام، فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام. وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له: ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة، فقال: «أعني على نفسك بكثرة السجود». وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى: فاتتني صلاة الجماعة مرة فمزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لكرزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا. وكان السلف رضي الله تعالى عنهم، يعززون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، وسبعاً إذا فاتتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه. وأنشد بعضهم:

وأبى متاداً صالحاً ومآباً  
أضحى برئك كافراً مُرتاباً  
غطى على وجه الصواب حجاباً  
إن لم يُتَبِ حدَّ الحام عقاباً  
بجميع تاديب يراه صواباً

خبر النبي ترك الصلاة وخاباً  
إن كان يجحدُها فحبُّك أنه  
أو كان يتركها لنسوع تكاسل  
فالشافعي ومالك رأيا له  
والرأي عندي للإمام عذاب

(١) لأن الصلاة تلج صدر الإنسان وتجمعه مرتاح البال.

(٢) السرى: السير ليلاً.

(٣) وكف المطر: هطله.

اللهم أعنَّا على الصلاة، وتقبَّلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شيء من فضل السواك والأذان.

أما السواك، فقد قال الرسول ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» وقال أيضاً: «صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك». وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاحس فاه بالسواك. وقال ﷺ: «السواك مطهرة للفهم، مرضاة للرب»، وعنه ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في السواك لبات مع الرجل في لحافه». وقال أيضاً: «أفواهمكم طرقاً لكلام ربكم فنظفوها». والاختيار في السواك أن يكون بعود الأراك، ويجزي بغيره من العيدان وبالسعد والاشنان، والخرقه الخشنة، وغير ذلك مما ينظف ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فيه، وينوي به الإتيان بالسنة، والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان. وقال الأصحاب: يقول عند السواك: اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين. ويستاك في ظاهر الأسنان وباطنها، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه، وسقف حلقة إمراراً لطيفاً، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليوسة، ولا شديد اللين، فإن اشتد يسه لينة بالماء. وقد قيل إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت، ويسهل خروج الروح.

وأما الأذان فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾<sup>(١)</sup>. نزلت في المؤذنين. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للمؤذن مدى صوته، ويشهد له ما سمعه، من رطب ويابس». وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين». رواه البخاري ومسلم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»، رواه البخاري، والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

### الفصل الثالث: في الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة في مواضع شتى من كتابه قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿رَجُلًا لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَامَةِ﴾<sup>(٤)</sup>. وعن بريدة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطرة»<sup>(٥)</sup>. وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «ما خالطت الزكاة مالا قط

(١) - سورة: فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) - سورة: البقرة، الآية: ٤٣.

(٣) - سورة: النور، الآية: ٣٧.

(٤) - سورة: البينة، الآية: ٥.

(٥) - القطر: المطر.

إلا أهلكته». وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَا يَزْكِي، وَلَمْ يَزْكِهِ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَا يَحِجُّ، وَلَمْ يَحِجْ سَأَلَ الرَّجْعَةَ»، يعني قوله تعالى: «رَبِّ أَرْجِعُونِ \* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ»<sup>(١)</sup> وَلِنَلْحَقَ بِهَذَا الْفَصْلَ ذَكَرَ شَيْءًا مِنَ الصَّدَقَةِ وَفَضْلِهَا، وَمَا جَاءَ فِيهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُتَصَدِّقِينَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَدَفَعُ الْبَلَاءِ.

قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ»<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: «وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ»<sup>(٣)</sup> الآية. والآيات الكريمة في ذلك كثيرة، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة. وروى الترمذي في جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»، وفي صحيح مسلم وموطأ مالك وجامع الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعُ عَبْدٌ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى».

ودخلت امرأة شلاء<sup>(٤)</sup> على عائشة رضي الله عنها فقالت: كان أبي يحب الصدقة وأمي تبغضها، لم تصدق في عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة. فأريت في المنام كأن القيامة قد قامت، وكأنت أُمِّي قد غطت عورتها بالخلقة، وفي يدها الشحمة تلحسها من العطش. فذهبت إلى أبي وهو على حافة حوض يسقي الناس، فطلبت منه قدحاً من ماء فسقيت أُمِّي، فنوديت من فوقني ألا مَنْ سَقَاهَا فَشَلَّ اللَّهُ يَدَهَا. فانتبهت كما ترين.

ووقف سائل على امرأة وهي تتمشى، فقامت فوضعت لقمعة في فيه، ثم بكرت إلى زوجها في مزرعته، فوضعت ولدها عنده، وقامت لحاجة تريد قضاءها فاخترت الذئب فوقفت وقالت: يا رب ولدي. فأناها آتٍ فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر. فقال لها: هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل.

وعشش ورشان في شجرة في دار رجل، فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مراراً، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه. فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال: يا رسول الله أردت أن يكون لي أولاد يذكرون الله تعالى من بعدي فأخذ الرجل بأمر امرأته، ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان للشيطانين: إذا رأيتما يصعد الشجرة فشقاه نصفين، فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام، فقال للشيطانين: ألم تفعلما ما أمرتكما به فقالا: اعترضنا ملكان فطرحانا في الخاققين.

وقال النخعي: كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء وكان الرجل يضع الصدقة في يد الفقير ويتمثل قائماً بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائل. وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة تسد سبعين باباً في الشر». وعنه ﷺ قال: «ردوا صدمة البلاء، ولو بمثل رأس الطائر من طعام». ورؤي عنه ﷺ أنه قال: «ردوا

(١) سورة: المؤمنون، الآيات ٩٩ - ١٠٠

(٢) سورة: يوسف، الآية: ٨٨.

(٣) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٤) شلاء: مشلولة اليد.

مذمة السائل ولو بظلف<sup>(١)</sup> محرق» وعنه أيضاً ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: مَنْ رَدَّ سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام. وكان نينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده. وعنه ﷺ: «ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً، إلا كان في حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة». وقال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق. والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه. وعن الربيع بن خيثم أنه خرج في ليلة شاتية وعليه برنس خز<sup>(٢)</sup> فرأى سائلاً فأعطاه إياه وتلا قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾<sup>(٣)</sup> وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلى البر، وإن سوء الخلق شوم، وحسن الملكة نماء، والصدقة تدفع ميتة السوء»، قال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة ترن جبال الدنيا إلا من الصدقة. وعن عمر رضي الله عنه: إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تداركوا الهموم والغموم بالصدقات، يدفع الله ضرركم وينصرمكم على عدوكم». وعن عبيد بن عمير قال: يحشر الناس يوم القيامة أجور ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم الله أشبعه الله، ومن سقى الله سقاه الله، ومن كسا الله كساه الله. وقال الشعبي: مَنْ لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه.

وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره ما يتسع به، فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلًا أو أخرج إبرة وخيطاً فرقع بهما ثوب السائل. ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خير فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم، فلما كان بعد سنة، رجع ابنه سالماً رابحاً، فسأله أبوه: هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر، وغرقت في جملة الناس وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط وقالا لي: قل لوالدك هذا برغيفين، فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟ وقال علي رضي الله عنه وكرّم الله وجهه: إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به بحيث تحتاج إليه فاغتنم حمله إياه والله در القاتل حيث قال: ﴿

يكي على الزاهب من ماله وإنما يقى الذي يذهب

وحكي أن رجلاً عبّد الله سبعين سنة فينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسأته أن يفتح لها، وكانت ليلة شاتية، فلم يلصقت إليها وأقبل على عبادته. فولّت المرأة فنظر إليها فأعجبته فملك قلبه وسلبت له فترك العبادة وتبعها، وقال: إلى أين؟ فقالت: إلى حيث أريد. فقال: هيهات صار المراد مريداً والأحرار عبيداً، ثم جلبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام فبكى حتى غشي عليه. فلما أفاق قالت له: يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري، وأنا ما عصيت الله مع غيرك، وإنني أرى في وجهك أثر الصلاح فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني. قال: فخرج هائماً على وجهه فأواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب بيعت إليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة، فجاء غلام الراهب

(١) الظلف: للمواشي ما يقابل القدم البشرية.

(٢) خز: حرير.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

على عادته بالخبز، فمد ذلك الرجل العصي يده فأخذ رغيفاً فبقي منهم رجلاً لم يأخذ شيئاً فقال: أين رغيفي. فقال غلام: قد فرقت عليكم العشرة فقال: آيت طاوياً<sup>(١)</sup>، فبكى الرجل العصي وناول الرغيف لصاحبه، وقال لنفسه: أنا أحق أن آيت طاوياً لأنني عاص وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك. فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل قر من ذنبه وجاء طائعاً؛ وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاصٍ فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة، بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة، فأوحى الله إليهم أن زنوا بمعصية السبع ليال بالرغيف الذي آثر به على نفسه، فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته.

وحكي أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية، فوقف سائل بياه فخرج إليه وانتهره فلهب، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها في بعض الأيام، وبين أيديهما دجاجة مشوية وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته: إُدعي إلي هذه الدجاجة. فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول فدفعت إليه الدجاجة، ورجعت وهي باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكر له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول، فقال لها زوجها: أنا والله ذلك السائل.

وذكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال: ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه. فقال له: ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع وأسرع إجابة. قال: بلى. قال: تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه. فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل بلدهم وقال: هذا لخلاص ولدي وسلامته وما معه. فنادى في تلك الساعة ناد في البحر: ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث، فما قد سأله أبوه عن حاله فقال: يا أبت لقد رأيت في البحر عجباً يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا - وهو اليوم تصدق فيه والده عنه بالدرهم - وذلك أننا أشرفنا على الهلاك والتلف كسمعنا صوتاً من الهواء: ألا إن الفداء مقبول، وزيد مغاث، وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين. والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والله أعلم.

### الفصل الرابع: في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(٢)</sup> قيل: الصوم عموم وخصوص، وخصوص الخصوص. فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة. وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان، واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وصوم خصوص الخصوص، هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية.

قال رسول الله ﷺ: «زكاة الجسد الصيام». وعنه ﷺ: «للصائم فرحتان فرحة عند افطاره وفرحة عند لقاء ربه».

(١) طاوياً: شديد الجوع.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٨٣.

وقال وكيع في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾<sup>(١)</sup> إنها أيام الصوم، تركوا فيها الأكل والشرب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أفطر يوماً في رمضان من غير رخصة رخصها الله لم يقض عنه صيام الدهر». وروى في صحيح النسائي عنه أيضاً ﷺ أنه قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين». وروى الزهري أن تسيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسيحة في غيره. وروى عن قتادة أنه كان يقول: مَنْ لَمْ يُفْطِرْ لَه فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلَنْ يُفْطِرَ لَهُ فِي غَيْرِهِ. وقال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمي أن يكون رمضان السنة كلها، ولو أذن الله للسَّموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة»، وقال ﷺ: «ليس من عبد يصلي في ليلة من شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفاً وخمسمائة حسنة، وبنى له بيتاً في الجنة من ياقوته حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصراعان من ذهب، وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام»، وقال ﷺ: «إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن تقبل فليقل في كل ليلة عند فطره يا واسع المغفرة اغفر لي».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيّوم ولدته أمه، فإذا تسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. وقال بعضهم: الصيام زكاة البدن، ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى. وروى في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر». وعنه ﷺ أنه قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر، كصيام الدهر، وهي الأيام البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر، والخامس عشر، من كل شهر».

في صحيح البخاري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله تعالى بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: مخبراً عن ربه عز وجل: «كل عجل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» وقد يكفى في فضله بهذا الحديث الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

### الفصل الخامس: في الحج وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾<sup>(٢)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «ومن خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً. وفي الحديث: إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة. وفيه: أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم في الدنيا. وفي الخبر: أن الحجر الأسود ياقوته من يواقيت الجنة وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عيتان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق. وجاء في الحديث الصحيح: أن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيه الملائكة فقالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك

(١) سورة: الحاقة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ٩٧.

بألقي عام. وقال مجاهد إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركباني الإبل، وصافحوا ركباني الحمر، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وكان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، ويستقبلوا الحجاج، ويقبلوهم بين أعينهم، ويسألوهم الدعاء لهم ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام. وعن النبي ﷺ: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فإن نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة، فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها، حتى تدخل الجنة فيدخل معها».

وحكي أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان، حجت سنة ست وثمانين وثلثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً قيل: إنها سقت أهل الموسم كله السويق بالطبرزد والثلج. واستصحبت البقول المزروعة في المراكب على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمتقطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، ولم تستصحب فيها وعندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبد، وماتت جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين. ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت قال: يا رب إن لكل عامل أجراً فما أجر عملي؟ قال: إن طفت به غفرت لك ذنوبك. قال: زدني. قال: جعلته قبلة لك ولأولادك، قال: يا رب زدني. قال: أغفر لك من استغفرتني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يا رب حسبي. وفي الحديث: الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. وأول من كسا الكعبة الديباج<sup>(١)</sup> عبد الله بن الزبير وكانت كسوتها المسوح والانطاع<sup>(٢)</sup> وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم.

وكانت حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة، ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه. ورؤي الحسن بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول: عَيْدُكَ بِيَابِك، حُورُيَدُكَ بِيَابِك، سَائِلُكَ بِيَابِك، مُسْتَكِينُكَ بِيَابِك. يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضي الله عنه فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام فجلس معهم وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم، ثم قال: قوموا بنا إلى منزلي. فتوجهوا معه فاطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم.

وحج عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفاً وقال: أعصتتم الله تعالى لعله يمتحنني من النار. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: إنني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته. فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة. ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حيان الضمير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً:

كَأَنَّ الْحَجِيجَ الْآنَ لَمْ يَقْرَبُوا مِنِّي

وَلَمْ يَحْمِلُوا مِنْهَا سِوَاكَ وَلَا نَعْلًا

أَتَوْنَا فَمَا جَادُوا بَعُودَ أَرَاكُو

وقال غيره:

حَرَامًا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمَحْرَمِ

يَحْجُونَ بِالْمَالِ الَّذِي يَجْمَعُونَهُ

(١) الديباج: كلمة فارسية، تطلق على نوع من النسيج الحريري الفاخر.

(٢) المُسوح: ج مسح، أمشة من الشعر وهي أمشة زهيدة القيمة وكذلك الأنطاع.

يخطئ ولكن فوقه في جهنم

ويزعم كل منهم أن وزره

وقال آخر:

حج فيهما وأحرما  
زكما راح مؤخرما  
ما توقي مؤخرما

حج في الدهر حجة  
وأنا من الحجا  
فهو ذو الحجة الذي

وتخاصم بدوي مع حاج عند منصرف الناس فقيل له: أتخاصم رجلاً من الحجاج فقال:

ويرجع فقد خطت عليه ذنوب

يحج لكيفا يغفر الله ذنبة

وقال أبو الشمقم:

فما حججت ولكن حجت العير<sup>(١)</sup>  
ما كل من حج بيت الله مبرور

إذا حججت بمال أصله ذنن  
ما يقبل الله إلا كل طيب

والله سبحانه وتعالى أعلم.



## الباب الثاني: في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومترل خطابه الوجيه على شرف العقل وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها وبين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له: أذير، فأدير. فقال عز من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز عليّ منك، بك أخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب». وقال أهل المعرفة والعمل: العقل جوهر مضيء خلقه الله عز وجل في الدماغ وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما. فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء، وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع. وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلاً، وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة. ولهذا قيل من بيضت الحوادث سواد لمته، وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأفضيته، كان جديراً برزاة العقل ورجاحة الدراية. وقد يخص الله تعالى بالطاقة الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزاة عقل، وزيادة معرفة، تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>. فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرفت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الاصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث، وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرآ على سليمان عليه السلام وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك فقال: غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود عليه السلام، وقال له ما قاله ولده سليمان عليه السلام. فدعاه داود عليه السلام وقال له ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث - وكان الحرث كرمياً قد تدلت عناقيد في قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها ويتضع بدها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه، سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها، وتسلم

(١) سورة: النحل، الآية: ١٢.

(٢) سورة: مريم، الآية: ١٢.

كرمه كما كان بعناقيده وصورته. فقال له داود: القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام.

في هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت إذ نَفَسَتْ فِيهِ حَمَمٌ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَهَمَّتْهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّأَ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾<sup>(١)</sup> فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية، وألطف إلهية. وإذا قذف الله شيئاً من أنوار مواهبه في قلب مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوي التجارب الاكساب في كثير من الأسباب. ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته. فإن المشاهدة من خصائص الأجسام.

فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمر متعددة منها ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه غاراً<sup>(٢)</sup>، ويورثه سوء السمعة. وقد قيل لبعض الحكماء: يم يُعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، وقيل له فإن كان غائباً؟ فقال: بإحدى ثلاث: إما برسوله، وإما بكتابه، وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان هيمته فيقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها. وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه. فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق. وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه. وقال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس». وقال علي بن عبيدة: العقل ملك والخصال رعية فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابي قال: هذا كلام يقطر عسله. وقيل: بأيدي العقول تمسك أجنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص، إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شيء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج. واختلفت الحكمة في ماهيته، فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة في القلب كالنور في العين، وهو يزيد وينقص، وينهب ويعود، وكما يدرك بالصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور. وعمى القلب كعمى البصر قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾<sup>(٣)</sup> وقيل منجل العقل الدماغ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما روي عن الشافعي رحمه الله تعالى، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾<sup>(٤)</sup> ويقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾<sup>(٥)</sup> أي عقل. وقالوا التجربة مرآة العقل ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم منهم، ولا يسقط لهم فهم، وعليكم بآراء الشيخ فإنهم إن عدوا ذكاء الطبع، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة. قال الشاعر:

ألم تر أن العقل زين لأهله      ولكن تمام العقل طول التجارب

(١) سورة: الأنبياء، آيات: ٧٨ - ٧٩.

(٢) العار: الشيء الشنيع المستجيب الذي يُمَيِّرُ به الإنسان الذي يأتي مثل هذه الأفعال السيئة.

(٣) سورة: الحج، الآية: ٤٦.

(٤) سورة: الحج، الآية: ٤٦.

(٥) سورة: ق، الآية: ٣٧.

وقال آخر:

إذا طال عمرُ المرءِ في غير آفةٍ      أفادت له الأيامُ في كَرها<sup>(١)</sup> عَقْلاً

وقال عامر بن قيس: إذا عَقَلَك عَقْلُكَ عما لا يعينك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل، ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان، كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرءِ عقلٌ فإنَّهُ      وإن كان ذا بيتٍ على الناس هَيِّنُ  
ومن كان ذا عقلٍ أجَلَ لعقلِهِ      وأفضل عقلٍ عقلٌ مَنْ يتدَيَّنُ

وقالوا: العاقل لا تطره المتزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الرياح، والجاهل تطره أدنى متزلة، كالحشيش يحركه أدنى ريح. وقيل لعلي رضي الله تعالى عنه: صِفْ لنا العاقل. قال: الذي يضع الشيء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل. قال: فقد فعلت، يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه. وقال المنصور لولده: خذ عني اثنتين؛ لا تَقُلْ من غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير. وقال اردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة؛ الحساب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدي إلى أربعة؛ العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير. وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه، كان حظه من أغلب الخصال عليه. وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه، وقيل ثلاثة هُرُّ رأس العقل؛ مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: من أعجب برأي نفسه، بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذري العقول مات عقله. وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صفاراً، وأرحمهم كباراً. وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المزروق. وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعاماً حتى يستمرته، ولا يشق بخليل حتى يسترضه. وقيل: طول اللحية أمان من العقل. وسئل بعضهم: أيما أحمد في الصبا، الحياء، أم الخوف؟ قال: الحياء، لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الجبن. وقيل: غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عويمر ازدد عقلاً تَزِدَّ من الله تعالى قرباً» قلت: بأبي وأمي ومن لي بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى، وأدِّ فرائض الله تعالى تكن عاقلاً ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً، وتزدد من الله قرباً وعزاً». وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إن المكارمَ أخلاقٌ مطهَّرةٌ      فالعقل أوَّلُها والدين ثنائها  
والعلم نائلُها والحلمُ رابعُها      والجودُ خامسُها والعرفُ سادها  
والبرُّ سابعُها والصبرُ ثامنُها      والشكرُ تاسعُها واللينُ عاشيها  
والعينُ تعلمُ من عَيْنِي محدثُها      إن كان من حزبها أو من أعاديها  
والنفسُ تعلمُ أنني لا صدَّقُها

(١) الكَر: الرجوع وهنا بمعنى التعاقب.

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله في إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم، ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته، وتسريح لحيته، وكثرة صلفته ونظافة بزته، إذ كم من كنيف<sup>(١)</sup> مبيض، وجلد مفضل. وقد قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله فسلمت عليه وقلت له: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجته ودخله. وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرقوماً بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله، وتشهد عليه بقلته عقله واختلاله.

وقيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه، وشهدت له بالعقل الراجح، والفكر القادح، أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب، ثم حج. فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره، وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقص عليه القصة فقال القاضي: هل أخبرت بذلك أحداً غيري قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلي؟ قال: لا. قال انصرف واكتب أمرك ثم عد إلي بعد غد. فانصرف، ثم أن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال له: قد حصل عندي أموال كثيرة، ورأيت أن أودعها عندك، فاذهب وهيء لها موضعاً حصيناً. فمضى ذلك الرجل. وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضي إياس: امض إلى خصمك، واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له امض معي إلى القاضي إياس، أتحاكم أنا وأنت عنده. فلما جاء إليه دفع وديعته، فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعاً في تسليم المال فسهب القاضي وطرده. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها، فقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكنا الغرة منهم، والوثبة عليهم. وعقدوا لذلك المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائباً عنهم، فقالوا: من الحزم عرّض الرأي عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً، فسألوه عن علة ذلك، فقال: في الغد أخبركم إن شاء الله تعالى. فلما أصبحوا أتوا إليه. وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عرّنا عليه، فقال: سمعاً وطاعة وأمر بإحضار كلين عظيمين، كان قد أعدهما ثم حرش بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر، فتأثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغ الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلين ذنباً كان قد أعده لذلك، فلما أبصره تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مَنَّكُمْ مع المسلمين، مثل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو، فاستحسنوا قوله، واستصوبوا رأيه. فهذه صفة العقلاء.

وأما ذم الحمق فقد قال ابن الأعرابي: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت، فكأنه كاسد العقل والرأي

(١) الكنيف: السائر أو الحظيرة، وهنا جاءت اسماً للمرحاض.

فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور. والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة، وهو داء دواؤه الموت. قال الشاعر:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يستطبُّ به      إلا الحماقَةَ أعيَتْ مَنْ يداويها

والحمق مذموم قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى، إذا حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل». ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة، بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قل دماغه، ومن قل دماغه، قل عقله، ومن قل عقله فهو أحمق. وأما صفته من حيث الأفعال، فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب، وكثرة الكلام، وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات، والخلو من العلم، والعجلة، والخفة، والسفه، والظلم، والغفلة، والسهو، والخيلاء، إن استغنى بطر، وإن افتقر قنطر، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق. قال عيسى عليه السلام: عالجت الأبرص والأكمة فأبرأتها، وعالجت الأحمق فأعياني. والسكوت عن الأحمق جوابه. ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر، فقال: حجر على حجر.

وحكي أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمرَّ على الله، فإن الطريق تقطع بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أتضع بلينها، وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذناب أرسلها على غنمك، حتى لا تترك منها شيئاً. قال: ويحك أهدأ من حق الصعبة، وحرمة العشرة؟ فتصايحا، وتخاصما، واشتدت الخصومة حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا، على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما فطلع عليها شيخ بَخِمَار، عليه زَقَان<sup>(١)</sup> من عسل، فحدثاه بحديثهما فتزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، ثم قال: صبَّ الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء وأعشبت الأرض فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال: يا رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهِمَّ أن يدعو عليه فأوحى الله إليه لا تدعُ عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم. ويقال فلان ذو حمق وافر، وعقل نافر، ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه. وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمَّته<sup>(٢)</sup> فقال:

وما هَوَجسي يا هند إلا سجية      أجزَّ لها ذيلسي بحسن الخلائق  
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوبه<sup>(٣)</sup>      ولاطمعت في البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب، هو من بقر الجنة لا ينطح، ولا يرمح، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الزُق: وعاء جلدي للعسل والخمر وغيرهما.

(٢) حمَّته: نَسَبَه إلى الحمق.

(٣) القلوب: المركوب من فتي الإبل.

## الباب الثالث: في القرآن وفضله وحرمة وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى: ﴿ولقد يئسنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾<sup>(١)</sup> وسمى الله تعالى القرآن كريمة فقال تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم﴾<sup>(٢)</sup> وسمّاه حكيماً فقال تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾<sup>(٣)</sup> وسمّاه مجيداً فقال تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد﴾<sup>(٤)</sup> أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته، وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾<sup>(٥)</sup> وقال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾<sup>(٦)</sup> فهو النور المبين والحق المستبين، لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه، ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته، ولا أكثر من إفادته ولا ألدّ من تلاوته. قال رسول الله ﷺ: «القرآن فيه خير من قبلكم، ونبأ من بعدكم، وحكم ما بينكم». وقال أيضاً ﷺ: «أصفر<sup>(٧)</sup> البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى». قال الشعبي: الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل. ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة. قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: فما فعلت بإيلك؟ قال: أذهبتها النواذب وزعزعتها الحقوق. قال: ذلك خير سبها. ثم قال له: يا أبا الأخطل<sup>(٨)</sup> من هذا الذي معك؟ قال: ابني وهو شاعر. قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر. فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة. وفي ذلك قال:

وما صبَّ رجلي في حديد مجاشع<sup>(٩)</sup> مع القيد إلا حاجة لي أريدها

وقال أنس رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت فإن القرآن يحيي القلب الميت وينهى عن الفحشاء والمنكر». وحكى الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار قال: ومن حكايات

(١) سورة: القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة: الواقعة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة: يس، الآية: ١.

(٤) سورة: ق، الآية: ١.

(٥) سورة: البقرة، الآية: ٢٣.

(٦) سورة: الإسراء، الآية: ٨٨. وظهيراً: معيناً ونصيراً.

(٧) أصفر البيوت: أخلاها.

(٨) هذا وهم من المؤلف ولعله: يا أبا همام.

(٩) مجاشع: أحد أجداد الفرزدق.

الحشوية<sup>(١)</sup> ما قيل إن إبراهيم الخواص مَرَّ بمصرع فأذن في أذنه فناداه الشيطان في جوفه: دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق. وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن. وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن. وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفرّ من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة في المصحف، وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان في رمضان ستين ختمة. وقال علي رضي الله تعالى عنه: مَنْ قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً. وقال الشعبي: اللسان عدل على الأذن والقلب فاقراً قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله». وعنه ﷺ أنه قال: «إن القلوب لنصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت». وقال عمر بن ميمون: مَنْ نشر مصحفاً حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية، رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا. وقال علي كرم الله وجهه: مَنْ قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، وَمَنْ قرأ وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة، وَمَنْ قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسون وعشرون حسنة، وَمَنْ قرأه على غير وضوء، فعشر حسنتاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآك عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كله هلزمة<sup>(٢)</sup>. وقال رسول الله ﷺ: «أقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»، وعن صالح المزني قال: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟ وكان عثمان رضي الله عنه يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائة، وليلة السبت بالأنعام إل هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين ببطه إلى طسم نبأ موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صر، وليلة الأربعاء بتزليل إلى الرحمن، ويختتم ليلة الخميس.

وعن علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبّر فيها. وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه ولعن أباه إذا نشر المصحف أغمي عليه ويقول هو كلام ربي. وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة فقال: ما حبسك؟ قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمي مثله، وقال ابن عيينة: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله قد اختلفت عليّ القراءات فعلى قراءة من تأمرني؟ فقال عليّ قراءة أبي عمرو. وعن أبي عمرو: إنني لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فقرأت عليهم (فاشدد بها يدك). فبينني للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً سراً أو حضراً. وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار: «قد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه فكانت جماعة منهم يختمون في كل شهر ختمة، وآخرون في كل عشر ليال ختمة، وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة. وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة، وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين، وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمانين ختمة، أربعاً في الليل وأربعاً في النهار. وروي أن مجاهداً رحمه الله تعالى كان

(١) الحشوية: قوم ينسبون إلى حشو الكلام ولغو.

(٢) هلزمة: سرعة في القراءة.

يختم القرآن في شهر رمضان فيها بين المغرب والعشاء. وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم. وروينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته وإتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي. قال الدارمي: هذا حديث حسن عن سعد.

وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهة في وقت من الأوقات، ولا في أوقات النهي عن الصلاة، ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة.

وقيل إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه، ويستحب الدعاء عقب الختم استجابةً مؤكداً تأكيداً شديداً.

ويجب على القارئ الإخلاص في قراءته، وأن يريد بها وجه الله تعالى، وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شيء، سوى ذلك وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه أنه يتاجي ربه سبحانه وتعالى، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه.

وينبغي للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبير، والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب، وبه تشرح الصدور ويتيسر المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. وقد كان الواحد من السلف رضي الله عنهم يتلو آية واحدة، ليلة كاملة يتدبرها، ويستحب البكاء، والتباكي لمن لا يقدر على البكاء، فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلذَّقَانِ يَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾<sup>(١)</sup>. وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضي الله عنه: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عن السحر، ومجالسة الصالحين.

وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار. قال العلماء: إن أراد القارئ بالإسرار بُغْد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذي غيره من مصل، أو نائم، أو غيرهما. والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة، ومن أراد الزيادة فلينظر في كتاب «التيان في آداب حملة القرآن» لشيخ مشايخ الإسلام محيي الدين النووي قدس الله روحه ونور ضريحه. وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة.

وروي في فضل قراءة سورة من القرآن في اليوم واللييلة فضل كبيرة منها يس، وتبارك الملك، والواقعة، والدخان. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاه وجه الله تعالى غفر له» وفي رواية له: «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له». وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي



الله عنهم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة» وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ «ألم تنزيل الكتاب» «وتبارك الملك». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: من قرأ في ليلة «إذا زلزلت الأرض»، كانت له كمدل نصف القرآن، ومن قرأ «قل يا أيها الكافريون»، كانت له كمدل ربع القرآن، ومن قرأ «قل هو الله أحد»، كان له كمدل الثلث.

والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا إلى المقاصد منها والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الرابع: في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾<sup>(٢)</sup> وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة، ودراسته تسييح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قرية، لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة والمحدث في الخلوة، والجلس في الوحدة والصاحب في الغربة، والدليل على السراء والمعين على الضراء، والزين عند الإخلاء والسلاح على الأعداء، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار، في الدرجات العلى ومجالسة الملوك في الدنيا، ومراقبة الأبرار في الآخرة، والفكر في العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبالعلم يعرف الله ويوحده، وبالعلم يطاع الله ويعبد». قيل: العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً. وقال النبي ﷺ: «خير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل». وعنه عليه الصلاة والسلام: «يوزن مداد العلماء، ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، وَلَغَدْوَةٌ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مِائَةِ غَزْوَةٍ، وَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، إِلَّا وَمَلِكٌ مَوْكَلٌ بِهِ يَشْرُهُ بِالْجَنَّةِ، وَمَنْ مَاتَ وَمِيرَاثُهُ الْمَحَابِرُ وَالْأَقْلَامُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ». وقال علي كرم الله وجهه: أقل الناس قيمة أقلهم علماً. وقال أيضاً رضي الله عنه: العلم نهر، والحكمة بحر، والعلماء حول النهر يطوفون، والحكماء وسط البحر يفوصون، والعارفون في سفن النجاة يسبرون<sup>(٣)</sup>. وقال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَالِمٌ يَطْلُبُ عِلْمًا. وقال بعض السلف رضي الله عنهم: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان. وقيل: العالم طيب هذه الأمة، والدنيا داؤها، فإذا كان الطيب يطلب الداء فمتى يرى غيره. وسئل الشعبي عن مسألة فقال لا علم لي بها. فقيل له: ألا تستحي؟ فقال ولم أستحي مما لم تستح الملائكة منه حين قالت لا علم لنا. وعن النبي ﷺ: «فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم» وروي «كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». وقال علي كرم الله وجهه: من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته، قبل تأديبه بلسانه. وقيل: مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالأجلال من مؤدب الناس ومعلمهم. وأنشدوا<sup>(٤)</sup>:

هَلْ لِنَفْسِكَ كَانَ التَّعْلِيمُ  
كَيْمَا يَصْحُ بِه وَأَنْتَ سَقِيمُ

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَعْلَمُ غَيْرَهُ  
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى

- (١) سورة: فاطر، الآية: ٢٨.
- (٢) سورة: المجادلة، الآية: ١١.
- (٣) يسرون: يقيسون ولعل الأصوب: يعبرون.
- (٤) تنسب الأبيات لأبي الأسود الدؤلي.

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا  
فابدأ بنفسك فأنهها عن غيرها<sup>(١)</sup>  
فهناك يقبل ما تقول ويهتدي  
لا تنة عن خلق وتأتي مثله  
أبدأ وأنت من الرشاد عديم  
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم  
بالقول منك وينفع التعليم  
عاز عليك إذا فعلت عظيم

وقال بعضهم:

إني رأيت الناس في عصرنا  
إلا مباهاة لأصحابه  
لا يطلبون العلم للعلم  
وعدة للنفس والظلم

نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة في السلم فقال لها: أنت طالق إن سعدت، وطاق إن نزلت، وطاق إن وقتت. فرمت نفسها إلى الأرض فقال لها: فذاك أبي وأمي، إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم. وقال النبي ﷺ: «هلاك أمي في شيتين: ترك العلم، وجمع المال». وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «العلم بالله والفقه في دينه» وكررها عليه فقال: يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل». وقال عيسى عليه السلام: مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ عُدَّ فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْظَمِ عَظِيمًا. وقال الخليل عليه السلام: العلوم أفعال، والأسئلة مفاتيحها. وعنه عليه السلام: زلة العالم مضروب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل. وقال الحسن: رأيت أقواماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلباً لا يضرُّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم.

وقال يزيد بن ميسرة: مَنْ أَرَادَ بَعْلِمَهُ وَجِهَ اللَّهُ تَعَالَى أَقْبَلَ اللَّهُ بِوَجْهِهِ وَوَجَّهَ الْعِبَادَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَرَادَ بَعْلِمَهُ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ، صَرَفَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَوَجَّهَ الْعِبَادَ عَنْهُ. وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَجُودِ الْأَجُودِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «اللَّهُ أَجُودُ الْأَجُودِ وَأَنَا أَجُودُ وَلَدِ أَدَمَ، وَأَجُودُ مِنْ بَعْدِي رَجُلٌ عِلْمٌ عَلِمًا فَتَشْرَهُ، يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَرَجُلٌ جَادَ بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى قَتَلَ». وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: كَانَ يُقَالُ: الْعِلْمُ الْفَاجِرُ فَتَّةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ. وَعَنِ الْقُضَيْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ أَكْرَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَعَزَّوْا هَذَا الْعِلْمَ، وَصَانُوهُ وَأَنْزَلُوهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِذَا لَخَضَعَتْ لَهُمْ رِقَابَ الْجَبَابِرَةِ، وَاتَّقَادَ لَهُمُ النَّاسَ، وَكَانُوا لَهُمْ تَبَعًا، وَلَكِنَّهُمْ أَذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ وَبَدَلُوا عِلْمَهُمْ لِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَهَانُوا وَذَلُّوا: إِنَّا اللَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَأَعْظَمَ مَصِيبَةَ اللَّهِ أَعْلَمَ. وَلِلْقَاضِي الْعَلَامَةِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَرَجَانِيِّ وَقَدْ أَحْسَنَ كُلَّ الْإِحْسَانِ، كَأَنَّمَا طَرَزَتْ فِي خَلْعِ حَسَانٍ:

ولم أقضِ حقَّ العلم إن كنت كلما  
ولم أبتذل في خلمة العلم مهجتي  
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلّةً  
فإن قلتَ زنُدُ العلم كَابٍ فإِنَّمَا  
بدا طمعاً صيرته لي سلماً  
لأخلم من لاقيت لكن لأخلماً  
إذا فاتباغ الجهل قد كان أسلماً  
كبا حين لم نحرس حماه وأظلماً

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم  
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا  
ولو عظموه في النفوس لعظما  
محياه بالأطماع حتى تجهّموا<sup>(١)</sup>

وقيل: مَنْ لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره. وقال الفضيل: شر العلماء من يجالس الأمراء وخير الأمراء من يجالس العلماء. وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء. وقيل: من عرف بالحكمة لاحظه العيون بالوقار: وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالب العلم قال: مرحباً بكم بنابيع الحكمة، ومصاييح الظلمة، خلقان الثياب، جدد القلوب، رياحين كل قبيلة. وقال علي رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه مَنْ لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة<sup>(٢)</sup> أن يترأ منه من هو فيه ويفضّب إذا نسب إليه. عن النبي ﷺ: «ما أتى الله أحداً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً». ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله، وعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كلدي النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن والحليب، والناس عطاش»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ تعلّم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً». وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ويل لأمتي من علماء سوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم».

العلم أنفسُ شيء أنت داخره  
أقبل على العلم واستقبل مقاصده  
من يدرس العلم لم تدرس مفاخره  
فأول العلم إقبال وآخره

قال الشعبي: دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألني عن اسمي فأخبرته ثم قال: يا شعبي كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عني يؤخذ. قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إليّ فيها المتتهي، قال: كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفيصل فيها. قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه، قال: لله أبوك. وفرض لي أموالاً وسودني على قومي فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعايك همدان وخرجت وأنا سيدهم. قال البستي.

إذا لم يزد علمُ الفتى قلبه هدئ  
فتبؤره أن الله أولاه فتنة  
وسيرته عدلاً وأخلاقه حسناً  
تغشيه حرماناً وتوسعه حزنأ

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري. وقال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من تنز ریح الكفار فأوحى إليها: بطون علماء سوء أتنن مما أنتم فيه. وقال علي رضي الله عنه: من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض. ولصالح اللخمي:

تعلّم إذا ما كنتَ لست بعالم  
تعلّم فإنّ العلمَ أزيّن للفتى  
فما العلمُ إلا عند أهل التعلّم  
من الحلو الحسناء عند التكلّم

(١) تجهّم: عيب في وجهه وكلم.

(٢) الضعة: الذل الهوان والصغار.

ودخل عبد الله بن المسلم الهذلي على المهدي في القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك، ثم دخل في القصاص فأخذ كذلك، فقال المهدي: «لم أر كالذي أجمع لما يجمع الله في أحد منك». ومثل جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت، فرقي السطح، وجعل يستمع من كوة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله له ذلك فجعله إمام الحكماء، لا يختلفون في شيء إلا صدورا عن رأيه، وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصي، فأنشأ يقول<sup>(١)</sup>:

شكوتُ إلى وكيع سوءَ حفظي      فأرشدني إلى تركِ المعاصي  
وذلك أن حفظَ العلمِ فضلٌ      وفضلُ الله لا يؤتى لعاصي

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب، أو المصحف، أو ابتداء القراءة في كل شيء أردت: بسم الله وسبحانه الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عدد كل حرف كتب ويكتب أبدأ الأبدان ودهر الدهارين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. قيل: وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة: اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام. وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف صلاة مكتوبة: أمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه. ومن فوائد سيدي الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى في الحفظ: يقرأ في كل يوم عشر مرات ﴿قَهْمُنَا سَلِيمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حَكْمًا وَعِلْمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> يا حي يا قيوم، يا رب موسى وهارون، يا رب إبراهيم ويا رب محمد ﷺ، أُرزقني الفهم، وارزقني العلم، والحكمة والعقل، برحمتك يا أرحم الراحمين. وعن أبي يوسف قال: مات لي ولد فأمرت مَنْ يتولى دفنه، ولم أدع مجلس أبي حنيفة خوفاً أن يفوتني منه يوم. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري، حتى كان يقال إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث. وقال البخاري رحمه الله تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومأتي ألف حديث غير صحيح. وقال: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين، وقال: أخرجته من ستمائة ألف حديث وصفتها في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى. وقال مجاهد: أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه، وكان يقال: الليث بن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته، ولهذا قال الشافعي لما قدم مصر بعد موته: والله لأنت أعلم من مالك، وإنما أصحابك ضيعوك. وقال الليث بن سعد: ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثاً علمه ولو حرص الناس. ويقال: إذا سئل العالم فلا تجب أنت فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسؤول. وقالوا: مَنْ خدَم المحابر خدَمته المنابر.

لا تدخر غير العلوم      فإنها نغم الذخائر  
فالمرء لو ربح البقاء      مع الجهالة كان خابراً

(١) الآيات للإمام الشافعي ووكيع هنا أستاذه المشهور.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٧٩.

وللشافعي رضي الله عنه تعالى عنه:

أخي لن تنالَ العلمَ إلا بسنةٍ      سأنيك عن تفصيلها بيان  
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغه<sup>(١)</sup>      وصحبة أستاذ وطول زمان

وقال الزهري. العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام. وقال بعضهم: العلماء سُرُج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره. وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندامة؟ قال: أما في الدنيا فصانع المعروف إلى مَنْ لا يشكره، وأما في الآخرة فعالم مفرط.

كن عالماً وارضَ بصفِّ النعال      ولا تكن صدراً بغير الكمال  
فإن تصدّرت بلا آلو      صيّرَت ذاك الصدرَ صفِّ النعال

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام وقال: يا نبي الله إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمك الله لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله، لا تعلمه أنت، ولا الخضر. وما علمي، وعلم الخضر في علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر. قال الله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾<sup>(٣)</sup> قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: خلق الله تعالى أربعين ألف عالم، الإنس والجن عالمان، والبواقي لا يعلمها إلا هو. وقال موسى عليه السلام: يا رب قد قلت للسّموات والأرض اتّيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين، فلو لم تطلعك السّموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهم. قال: يا موسى كنت أمر دابة من دوابي أن تتلّهما. قال موسى: يا رب وأين تلك الدابة؟ قال: في مرج من مروجي. قال موسى: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال: في علم من علمي لا يعلمه إلا أنا. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة فقال: فقيم تفكرون، تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، فإن الله خلق من جانب الغرب أرضاً يقال لها البيضاء تقطعها الشمس في أربعين يوماً فيه خلق ما عصوا الله طرفة عين. فقال ابن عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: «ما علموا بإبليس خلق، أم لا؟ قال: أمن بني آدم؟ قال: «ما علموا بآدم خلق، أم لا؟ فهذه كلها مما أعدّها الله في علم غيبه ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ ف سبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾<sup>(٤)</sup> وقال قتادة لو كان أحد منا مكتفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذا قال: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾<sup>(٥)</sup>.

وقال الحكماء: أفضل العلم وقوف العالم عند علمه. وقال بعضهم: ليس العلم ما خزنته الدفاتر، وإنما العلم ما خزنته الصدور. وقيل: العلم يؤدي إلى التصدير، وقيل: مَنْ تواضع للعلم ناله، ومن لم يتواضع له لم ينله.

- (١) البليغة: القناعة بالقليل.
- (٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٥.
- (٣) سورة: المدثر، الآية: ٣١.
- (٤) سورة: يس، الآيتان: ٨٢ - ٨٣.
- (٥) سورة: الكهف، الآية: ٦٦.

وقيل: مَنْ بَرِقَ علمه، بَرِقَ وجهه، وَمَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ بِالْعِلْمِ مَالاً اِكْتَسَبَ بِهِ جَمَالاً، وَالْعِلْمُ نُورٌ وَهَلَى، وَالْجَهْلُ غِيٌّ وَرَدَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَالِمُ يَعْرِفُ الْجَاهِلَ، وَالْجَاهِلُ لَا يَعْرِفُ الْعَالِمَ، لِأَنَّ الْعَالِمَ كَانَ جَاهِلاً وَالْجَاهِلَ لَمْ يَكُنْ عَالِماً. وَقِيلَ: أَرْبَعَةٌ يَسُودُونَ الْعَبْدَ: الْعِلْمُ، وَالْأَدَبُ، وَالصَّدْقُ، وَالْأَمَانَةُ. وَقِيلَ: أَهْلُ الْعِرَاقِ أَطْلَبُ النَّاسَ لِلْعِلْمِ. وَقَالَ حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ: مِثْلُ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَدِيثَ وَلَا يَعْرِفُ النَّحْوَ كَمِثْلِ الْحِمَارِ عَلَيْهِ مَخْلَاةٌ لَا شَعِيرَ فِيهَا. وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ خَلْفٍ الْمَهْرَانِيُّ:

النحو يصلح من لسان الألكن  
وإذا طلبت من العلوم أجلها  
والمرء تكرمه إذا لم يلحن<sup>(١)</sup>  
فأجلها منها مقيم الألسن

وقال علي بن بشار:

رأيت لسان المرء آية عقله  
ولا تعدُّ إصلاح اللسان فإنه  
ويعجني زئج الفتى وجماله  
وعنوانه فانظر بماذا تغنون  
يخبر عما عنده وييسن  
فيقط من عيني ساعة يلحن

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون؟ وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال: لم لا تنظر في العريية؟ فقال: بلغني أن مَنْ نَظَرَ فِيهَا قَلَّ كَلَامُهُ. فقال: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب، خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ. وكان يقال: مجالسة الجاهل مرض للعاقل، وقال أبو الأسود الدؤلي: إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً. وقال الشاعر:

جهلت ولا تدري بأنك جاهل  
ومَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي

وقال رجل للحسن: أنا أفصح الناس. قال: لا تقل هذا. قال: فخذ علي كلمة واحدة. قال هذه واحدة. أبو جهل كناه المسلمون بذلك، كانت قريش تكتبه أبا الحكم فقال حسان رضي الله تعالى عنه:

الناس كَنَوْهُ أبا حَكِيمٍ  
والله كَنَّاهُ أبا جَهْلٍ

وأما ما جاء في الأدب فقد قال بعض الحكماء: العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام. وقال علي كرم الله وجهه: الأدب كثر عند الحاجة عون على المرأة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة تعمر به القلوب الواهية<sup>(٢)</sup> وتحيا به الأبواب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا. وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح. وحكي أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين. قلن: نعم النسب انتسبت إليه. ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت، لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد. قال الشاعر:

كن ابنَ مَنْ شئتَ واكتسبَ أدباً  
إنَّ الفتى مَنْ يقولُ ها أنا ذا  
يفنيك محمودُه عن النسبِ  
ليس الفتى مَنْ يقولُ كان أبي

(١) اللحن: الغلط في الكلام ولها معانٍ عدة لعل أهمها إبعاد الكلام عن وجهه (التورية).

(٢) الواهية: المفضنة - المتعبة.

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه، كثر شرفه، وإن كان ضيعاً، ويعدّ صيته وإن كان خاملاً، وساد إن كان غريباً، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً. قال بعض الشعراء:

لكلّ شيء زينةٌ في الورى      وزينةُ المرء تمامُ الأدبِ  
قد يشرفُ المرءُ بأدابه      فينا وإن كان ضيغَ النسبِ

وقال بعض الأعاجم مفتخراً:

مالِي عَقْلِي وَهَمَّتِي حِسْبِي      مَا أَنَا مَوْلَى وَمَا أَنَا عَرَبِي  
إِذَا اتَمَّتْ مُتَمِّمٌ إِلَى أَحَدٍ      فَإِنِّي مَتَمِّمٌ إِلَى أَدْبِي

وقيل: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والحسب. وقيل: المرء بفضيلته، لا بفضيلته، وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بيبائه. وقيل لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجهال قبيحاً فاجتنبته فتأدبت. ومن أدب ولده صغيراً سرّ به كبيراً. من عرف الأدب اكتسب به المال والجاه، خير الخلال الأدب، وشر المقال الكذب. وقيل لبقرط. ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق. ودخل أبو العالية على ابن عباس رضي الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعده رجلاً من قریش تحته فرأى سوء نظرتهم إليه، وخموضة وجوههم فقال: ما لكم تنظرون إليّ نظر الشحيح<sup>(١)</sup> إلى الغريم<sup>(٢)</sup> المفلس. هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير، ويرفع المملوك على المولى ويقعد العبيد على الأسرة. وقال جالينوس: إن الأبن الوضيع إذا كان أديباً كان تقص أبيه زائداً في منزلته، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائداً في سقوطه. وقيل: أحسن الأدب أن لا يفخر المرء بأدبه. وسمع معاوية رجلاً يقول: أنا غريب. فقال: كلا الغريب من لا أدب له. ويقال: إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب. ولعبد الملك بن صالح:

فِي النَّاسِ قَوْمٌ أَضَاعُوا مَجْدَ أَوْلِهِمْ      مَا فِي الْمَكَارِمِ وَالْتَصَوَّى لَهُمْ أَرْبُ  
سَوْءِ التَّأْدِبِ أَرْدَاهُمْ وَأَرَذَلَهُمْ      وَقَدْ يَزِينُ صَحِيحَ الْمَنْصَبِ الْأَدْبُ

وقيل: أربعة تسود العبد: الأدب والعلم والصدق والأمانة. وقال بعض الحكماء: خمسة لا تتم إلا بخمسة: لا يتم الحسب إلا بالأدب ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة ولا يتم الغنى إلا بالجود ولا يتم البطش إلا بالجرأة، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق. والله تعالى أعلم.

(١) الشحيح: البخيل.

(٢) الغريم: المقتضى بلدين.



## الباب الخامس: في الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء: إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وعضده باليقين فاكفى بالكفاف<sup>(١)</sup> واكتفى بالعفاف. وإذا أراد به شراً حبب إليه المال، ووسط منه الآمال، وشغله ببنياه، وركله إلى هواه، فركب الفساد، وظلم العباد، الثقة بالله أزكى أمل، والتوكل عليه أوفى عمل، من لم يكن له من دينه واعظ، لم تنفعه المواعظ، من سره الفساد ساءه المعاد، كل يحصد ما زرع ويجزيء بما صنع، لا يفرنك صحة نفسك، وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وصحة النفس مستحيلة، من أطاع هواه باع دينه ببنياه، ثمرة العلوم العمل بالمعلوم، من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعبائه لم يدخله حسد، أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه، خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه في طاعة ربه، نصرة الحق شرف، ونصرة الباطل سرف.

البخيل حارس نعمته، وخازن لورثته. من لزم الطمع عدم الورع. إذا ذهب الحياء حل البلاء. علم لا ينفع كدواه لا ينجع. من جهل المرء أن يعصي ربه في طاعة هواه، ويهين نفسه في إكرام دنياه. أيام الدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا تدري ما حاله ولا تعرف من أهله. من كثر ابتهاجه بالمواهب، اشتد انزعاجه للمصائب. لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك في صحة، ومن عمرك في فسحة. عظ المسيء بحسن أفعالك، ودل على الجميل بجميل خلاك. إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن. لا يجد العجول فرحاً، ولا الغضوب سروراً، ولا الملول<sup>(٢)</sup> صديقاً.

حسن النية من العبادة، حسن الجلوس من السياسة<sup>(٣)</sup>. من زاد في خلقه، نقص من حظه. من اتّمن الزمان خاته. أظهر الناس محبة، أحسنهم لقاء. لا يكمل للإنسان دينه، حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما في أيدي الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويتق بمواعيد الله. وإياك والحسد فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة. قيل لأفلاطون. ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقاً، قال: مدح الإنسان نفسه. أربعة تؤدي إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة. من ساء تلبيره أهلكه جده. الغرة ثمرة الجهل. آفة القوة استضعاف الخصم. آفة النعم قبح المن. آفة الذنب حسن الظن. الحزم أسد الآراء، والغفلة أضر الأعداء.

من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوّه أيقظته المكاييد. من قرب السفلة وأطرح ذوي الأحساب والمروءات استحق الخذلان. من عفا تفضل. من كظم غيظه فقد حلم. من حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظفر. من

(١) الكفاف: القليل مما يكفي الإنسان.

(٢) الملول: كثير الملل سريع.

(٣) السياسة هنا: التدبير والمدبرة.

ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار: حين يفضب، وحين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي. من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما. كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل. كل امرئ يعرف بقوله ويُوصف بفعله، فقل سديداً، وافعل حميداً. من عرف شأنه، وحفظ لسانه، وأعرض عما لا يعنيه، وكف عن عرض أخيه، دامت سلامته، وقلت ندامته. كن صموتاً وصدوقاً، فالصمت حرز، والصدق عز. من أكثر مقاله ستم، ومن أكثر سؤاله حرم، من استخف بإخوانه خذل، ومن اجترأ على سلطانه قتل. ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه. خير النوال ما وصل قبل السؤال. أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال.

من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه. من غاظك بقيق الشتم منه، فعضه بحسن الحلم عنه. من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه. إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فأنشره. من جاور الكرام أمن من الاعداد. من طاب أصله زكا فرعه. من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة. من مَنَّ بمعروفه سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط<sup>(١)</sup> أجره. من رضي من نفسه بالإساءة، شهد على أصله بالرداءة، من رجع في هبته بالغ في خسته. من رقي في درجات الهمم عظم في عيون الأمم. من كبرت همته كثرت قيمته. من ساء خلقه ضاق رزقه. من صدق في مقاله زاد في جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. من جاد بماله جل، ومن جاد بفرضه ذل.

خير المال ما أخذ في الحلال وصرف في النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف في الآثام. أفضل المعروف إغاثة الملهوف. من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك وتستصغرها من غيرك. من أحسن المكارم عفو المقتدر. جود الرجل ينحني إلى أصدقائه، ويخله يفضه إلى أودائه<sup>(٢)</sup>. لا تسيء إلى من أحسن إليك، ولا تعن على من أنعم عليك. من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه. من طال تعديه كثرت أعاديته. شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم. من حفر حجيراً لأخيه كان حفنه فيه من سل سيف العدوان أعمد في رأسه.

من لم يرحم العبرة سلب النعمة، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة. لا تحاج<sup>(٣)</sup> من ينهلك خوفاً، ويملكك سيفه. صمت تسلم به، خير من نطق تندم عليه. من قال ما لا ينبغي، سمع ما لا يشتهي. جرح الكلام أصعب من جرح الحسام. من سكت عن جاهل فقد أوسع جواباً، وأوجعه عتاباً. من أمات شهوته أحيأ مروءته، من كثرت عوارفه كثرت معارفه. من لم تقبل توتته عظمت خطيئته. إياك والبغي فإنه يصرع الرجال، ويقطع الآجال، الناس في الخير أربعة أقسام: منهم من يفعله ابتداءً، ومنهم من يفعله اقتداءً، ومنهم من يتركه حرماناً، ومنهم من يتركه استحساناً، فمن فعله ابتداءً فهو كريم، ومن فعله اقتداءً فهو حكيم، ومن تركه حرماناً فهو شقي، ومن تركه استحساناً فهو دنيء. من سالم سلم، ومن قدم الخير غنم. من لزم الرقاد عدم المراد، ومن دام كسله خاب أمله.

العجول مخطيء وإن ملك، والمتأنى مصيب وإن هلك. من أمارات الخذلان معادة الإخوان استفساد الصديق

(١) حبط: خسر.

(٢) أودائه: أصحاب وده، أصدقائه.

(٣) المحاجة: المجادلة وعرض الحجج.

من عدم التوفيق. الرفق مفتاح الرزق. من نظر في العواقب سلم من النوائب، ومن أسرع في الجواب أخطأ في الصواب. من ركب العجل أدركه الزلل. من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قلت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقي ما ساء من كثر اعتباره قل عثاره. من ركب جده غلب ضده، القليل مع التدبير أبقي من الكثير مع التبذير. ظن العاقل أصح من يقين الجاهل. قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته. من خاف سطوتك تمنى موتك. إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل. من أعجبه آراؤه غلبته أعداؤه. من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة. لا تشتك ضعفك إلى عدوك فإنك تشتمه بك وتطمعه فيك. من لم يعمل لنفسه عمل للناس، ومن لم يصبر على كده صبره على الإفلاس. من أفضى سره أفسد أمره.

الحازم من حفظ ما في يده، ولم يؤخر شغل يومه لغده. من طلب ما لا يكون طال تبعه. لا تفتح باباً يعيك سده، ولا ترم سهماً يعجزك رده. سوء التدبير سبب التدمير. اغمد سيفك ما ناب عنك لسانك. ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً ولكن العجب من عاقل يصحبه، لأن كل شيء يفر من ضده، ويميل إلى جنسه. إذا نزل القدر بطل الحذر. رب عطب تحت طلب، ومنية تحت أمنية. لا يخلو المرء من ودود يمدح، وعدو يقدح. الجوع خير من الخضوع. الكذوب متهم وإن صدقت لهجته، ووضحت حجته. من طأوعه طرفه اشتد حتفه<sup>(١)</sup>. من لم تسر حياته لم تغم وفاته. من أعظم الذنوب تحسين العيوب. الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية<sup>(٢)</sup>

إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل. من ساءت أخلاقه طاب فراقه. من حسنت خصاله طاب وصاله. بعد يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا. اللسان سيف قاطع لا يؤمن من حده والكلام سهم نافذ لا يمكن رده. من اطلع على جاره انتهكت حجب أستاره. أجهل الناس من قل صوابه وكثر إعجابه. أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ولم يأنمر بها ونهى عن المعصية ولم ينته عنها. من سلا<sup>(٣)</sup> عن المسلوب كمن لم يسلب، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب. الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراة اللدواب. من زادت شهوته نقصت مروءته. من عرف بشيء نسب إليه، ومن اعتاد شيئاً حرص عليه. عند الجدال يظهر فضل الرجال. من أكل الأكل لذ طعامه، ومن أكل النوم طاب منامه.

موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز. مقاساة الفقر هي الموت الأحمر ومسألة الناس هي العار الأكبر. حتى يضر خير من باطل يسر. كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر، ومرهوب منه ينفع ولا يضر. عثرة الرجل تزيل القدم، وعثرة اللسان تزيل النعم. المزاح يورث الضغائن. من حلم ساد، ومن تفهم ازداد. معاشره ذوي الألباب عمارة القلوب. شر ما صحب المرء الحسد. ربما أصاب الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده. اليأس خير من التضرع إلى الناس. لا تكن ضاحكاً في غير عجب ولا ماشياً في غير أرب. من سعى بالنميمة حلزته القريب ومقته الغريب. الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برأيه. أشرف الغنى ترك المنى.

من ضاق خلقه ملء أهله. الحسد للصديق من سقم المودة. كل الناس راض عن عقله. دنياك كلها وقتك الذي أنت فيه. استر سوء أخيك لما يعلم فيك. خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم. العجلة أخت الندامة. من كرم أصله

(١) الحذف: الهلاك

(٢) البالية: أي بعظام الأجداد المهترئة.

(٣) سلا يسلو: نسي وطابت نفسه بعد حزن.

لان قلبه. ومن قل ليه زاد عجبه. ربما أدرك بالظن الصواب. ليس لمعجب رأي، ولا لمتكبر صديق. سل عن الرفيق قبل الطريق. وعن الجار قبل الدار. لا تعادين أحداً فإنك لا تخلو من عدواة. جاهل أو عاقل كالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل. ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه. من قل سروره كان الموت راحته. لا تردن على ذي خطأ خطاه فيستفيد منك علماً ويتخذك عدواً. استحي من ذم من لو كان حاضراً لبالغت في مدحه، ومدح من لو كان غائباً لسارعت إلى ذمه.

وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العدواة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباداة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر<sup>(١)</sup> يوجب المقته، والتواضع يوجب الرفقة، والجدود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والتواني يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتالي تسهل المطالب، ويحسن المعاشرة تدوم المحبة، ويخفض الجانب تأنس النفوس، ويسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، ويكثر الصمت تكون الهيئة، ويعدل المنطق تجلب الجلالة، والنصفة<sup>(٢)</sup> تكثر المواصلة، وبالافضال يعظم القدر، ويصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وياحتمال المؤمن يحب السؤدد، وبالعلم على السفيه تكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة، ويترك ما لا يعينك يتم لك الفضل.

وَاعْلَمْ أَنَّ السِّيَاسَةَ تَكْسُو أَهْلَهَا الْمَحَبَّةَ. وَمَنْ صَفَرَ الْهَمَةَ الْحَسَدَ لِلصَّدِيقِ عَلَى النِّعْمَةِ. وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَاةٌ. وَمَنْ لَمْ يَحْلَمْ نَدَمًا، وَمَنْ صَبِرَ غَنَمًا، وَمَنْ سَكَتَ سَلَمًا، وَمَنْ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهَمَّ، وَمَنْ فَهَمَّ عِلْمًا، وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ ضَلَّ. وَمَعَ الْعَجَلَةِ النَّدَامَةُ، وَمَعَ التَّأَنِّي السَّلَامَةُ. وَزَارِعَ الْبِرِّ يَحْصِدُ السَّرُورَ، وَصَاحِبَ الْعَقْلِ مَغْبُوطٌ، وَصَدَاقَةُ الْجَاهِلِ تَعِبٌ. إِذَا جَهَلْتَ فَاسْأَلْ، وَإِذَا زَلَلْتَ فَارْجِعْ، وَإِذَا أَسَأْتَ فَانْدِمْ، وَإِذَا نَدِمْتَ فَاقْلَعْ. الْمَرْوَاتُ كُلُّهَا تَبِعُ لِلْعَقْلِ، وَالرَّأْيُ تَبِعُ لِلتَّجْرِبَةِ، وَالْعَقْلُ أَصْلُهُ الثَّبْتُ وَثَمَرَتُهُ السَّلَامَةُ، وَالْأَعْمَالُ كُلُّهَا تَتَّبِعُ الْقَدْرَ. وَاخْتَارَ الْعُلَمَاءُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ مِنْ أَرْبَعِ كُتُبٍ: مِنَ التَّوْرَةِ: مَنْ قَنَعَ شَبِعَ.

ومن الإنجيل: من اعتزل نجا.

ومن الزبور<sup>(٣)</sup>: من سكت سلم.

ومن القرآن: ﴿وَمَنْ يَتَّصِمِ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات: لا تحمل بطنك ما لا يطيق، ولا تعمل عملاً لا يضعك، ولا تغتر بامرأة، ولا تتق بمال ولو كثر. والله تعالى أعلم.

(١) الكبر: الغطرسة.

(٢) النصفة: الإنصاف وهو تأدية الحقوق.

(٣) الزبور: الكتاب الذين أنزل على نبي الله داود.

## الباب السادس: في الأمثال السائرة وفيه فصول

### الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم

اعلم، أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلى بجواهره كتابه، وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المتزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ منها وهو أفصح العرب لساناً، وأكلمهم بياناً، فكم في إيرادها وإصداره من مثل يعجز عن مبراته في البلاغة كل بطل، وستذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامية.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿الآن حَصَّصَ الْحَقَّ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿فِيهِ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿أَلَيْسَ الصَّاحِبِ بِقَرِيبٍ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّبْتِ الْحَسَنَةَ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾<sup>(٦)</sup> ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾<sup>(٩)</sup> ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾<sup>(١٠)</sup> ﴿فَنَمْسِي أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾<sup>(١١)</sup> ﴿وَإِنْ تَصِيبِكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾<sup>(١٢)</sup> ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيئَةٌ﴾<sup>(١٣)</sup> ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْلَنَاهُمْ بِغَتَّةٍ﴾<sup>(١٤)</sup> ﴿مَا عَلَىٰ

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢. ومعنى حصص الحق: ظهر وبان.

(٢) سورة: يوسف، الآية: ٥١.

(٣) سورة: يوسف، الآية: ٤١.

(٤) سورة: هود، الآية: ٨١.

(٥) سورة: الأعراف، الآية: ٩٥.

(٦) سورة: النجم، الآية: ٥٨.

(٧) سورة: البقرة، الآية: ٤٤.

(٨) سورة: سبأ، الآية: ٥٤. ومعنى حيل: فرَّق.

(٩) سورة: الأنعام، الآية: ٦٧.

(١٠) سورة: الإسراء، الآية: ٨٤.

(١١) سورة: النساء، الآية: ١٩.

(١٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٢٠.

(١٣) سورة: الملئط، الآية: ٣٨.

(١٤) سورة: الأنعام، الآية: ٤٤. ومعنى بغتة: فجأة.

الرسول إلا البلاغ»<sup>(١)</sup> «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله»<sup>(٢)</sup> «ما على المحسنين من سييل»<sup>(٣)</sup> «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى»<sup>(٤)</sup> «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»<sup>(٥)</sup> «ولا يبتك مثل خبير»<sup>(٦)</sup> «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم»<sup>(٧)</sup> «كل حزب بما لديهم فرحون»<sup>(٨)</sup> «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»<sup>(٩)</sup> «لا يستوي الخبيث والطيب»<sup>(١٠)</sup> «فقرت منكم لما خفتكم»<sup>(١١)</sup> «وإن كثيراً من الخلطاء لينفي بعضهم على بعض»<sup>(١٢)</sup> «يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون»<sup>(١٣)</sup> «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء»<sup>(١٤)</sup> «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تشؤكم»<sup>(١٥)</sup> «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»<sup>(١٦)</sup> «ولو ردوا لمادوا لما نهوا عنه»<sup>(١٧)</sup> «وإنهم لكانفون»<sup>(١٨)</sup> «واعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم»<sup>(١٩)</sup> «ولو رحمتناهم وكشفنا ما بهم من ضرٍ للجوا في طغيانهم يعمهون»<sup>(٢٠)</sup> «فذكر إنما أنت مذكر \* لست عليهم بمسيطر»<sup>(٢١)</sup> «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»<sup>(٢٢)</sup> «يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين»<sup>(٢٣)</sup> «فبئس القرين»<sup>(٢٤)</sup> «فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين»<sup>(٢٥)</sup> «لا يجليها لوقتها إلا

- (١) سورة: المائدة، الآية: ٩٩.
- (٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٤٩.
- (٣) سورة: التوبة، الآية: ٩١.
- (٤) سورة: الحشر، الآية: ١٤.
- (٥) سورة: الرحمن، الآية: ٦٠.
- (٦) سورة: فاطر، الآية: ١٤.
- (٧) سورة: الأفعال، الآية: ٢٣.
- (٨) سورة: الروم، الآية: ٣٢.
- (٩) سورة: البقرة، الآية: ٢٨٦.
- (١٠) سورة: المائدة، الآية: ١٠٠.
- (١١) سورة: الشعراء، الآية: ٢١.
- (١٢) سورة: ص، الآية: ٢٤. ومعنى الخلطاء: الأصحاب والشركاء.
- (١٣) سورة: الصف، الآية: ٢. ويزكي: يمتدح.
- (١٤) سورة: النساء، الآية: ٤٩.
- (١٥) سورة: المائدة، الآية: ١٠١.
- (١٦) سورة: يس، الآية: ٤٦.
- (١٧) سورة: الأنعام، الآية: ٢٨.
- (١٨) سورة: المؤمنون، الآية: ٩٠.
- (١٩) سورة: المائدة، الآية: ٩٨.
- (٢٠) سورة: المؤمنون، الآية: ٧٥. ولجوا بالغوا وأوغلوا في النبي.
- (٢١) سورة: الغاشية، الآتان: ٢١ - ٢٢.
- (٢٢) سورة: الزخرف، الآية: ٢٣.
- (٢٣) سورة: الزخرف، الآية: ٣٨.
- (٢٤) سورة: الزخرف، الآية: ٣٨.
- (٢٥) سورة: النمل، الآية: ٣٦.

هو ﴿١﴾ «فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» ﴿٢﴾ «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» ﴿٣﴾ «فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» ﴿٤﴾ «وَمَا رَيْكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» ﴿٥﴾ «وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا» ﴿٦﴾ «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا» ﴿٧﴾ «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» ﴿٨﴾ «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ» ﴿٩﴾ «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» ﴿١٠﴾ «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ» ﴿١١﴾ «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» ﴿١٢﴾ «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» ﴿١٣﴾ «لَمَثَلٌ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَامِلُونَ» ﴿١٤﴾ «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» ﴿١٥﴾ «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» ﴿١٦﴾ «أَنْسِحِرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ» ﴿١٧﴾

ومن الأمثال من الحديث النبوي: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. نية المرء خير من عمله. آفة العلم النسيان. من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. أنزلوا الناس منازلهم. اليد العليا خير من اليد السفلى. من مات غريباً مات شهيداً. مظل (١٨) الغني ظلم. يد الله مع الجماعة. الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق. من غشنا فليس منا. سيد القوم خادمهم. الحياء شعبة من الإيمان. تخيروا لنطفكم. ابدأ بنفسك ثم بمن تعول. حدث عن البحر ولا حرج. المجالس بالأمانات. كل ميسر لما خلق له. اطلبوا الخير من حسان الوجوه. إياك وما يعتذر منه. الوحدة خير من جليس السوء. استعينوا على الحوائج بالكتمان. الندم توبة. لا يكون المؤمن طعاناً ولا لعاناً. دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. من كثر سواد قوم فهو منهم. انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. انتظار القرج عبادة. كاد الفقر أن يكون كفراً. نعم صومعة الرجل بيته. الأعمال بخواتمها.

## الفصل الثاني: في أمثال العرب

إن من البيان لسحرا. إن الجواد يعثر. إن البلاء موكل بالمنطق. إن أخوا الهيجاء من يسعى معك، ومن يضمر نفسه

- (١) سورة: الأعراف، الآية: ١٨٧. ويجليها: يظهرها.
- (٢) سورة: النجم، الآية: ٣٢.
- (٣) سورة: الرحمن، الآية: ٢٩.
- (٤) سورة: المرسلات، الآية: ٥٠.
- (٥) سورة: الأنعام، الآية: ١٣٢.
- (٦) سورة: المزل، الآية: ١٠.
- (٧) سورة: الجاثية، الآية: ١٥.
- (٨) سورة: الأعراف، الآية: ١٥٥.
- (٩) سورة: الحشر، الآية: ٢.
- (١٠) سورة: الواقعة، الآية: ٧٦.
- (١١) سورة: الملك، الآية: ٣.
- (١٢) سورة: ص، الآية: ٨٨.
- (١٣) سورة: الفرقان، الآية: ٦٧.
- (١٤) سورة: الصافات، الآية: ٦١.
- (١٥) سورة: الرحمن، الآية: ٢٦.
- (١٦) سورة: آل عمران، الآية: ١٨٥.
- (١٧) سورة: الطور، الآية: ١٥.
- (١٨) المظل: التسويف والتأخير.

ليفتك. أنف في السماء وأست في الماء. إن الذليل الذي ليست له عضد. أي الرجال المهذب. إنما هو كبرق خلب<sup>(١)</sup> إذا أدير الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. إياك أعني فاسمعي يا جارة. إن لم يكن وفاق ففراق. إنك لا تجني من الشوك العنب. إذا حان القضاء ضاق القضاء. إن المناكح خيرها الأبيكار. إذا كنت مناطحاً فناطق بذوات القرون. أوي إلى ركن بلا قواعد. إياك أن تضرب بلسانك عنقك. أكل وحمد خير من أكل وذم. آفة المروءة خلف الوعد. إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن. إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقت عينه فلا تقض له حتى يأتك خصمه فلعله فقت عيناه. ترك الذنب أسير من طلب التوبة. إتق شر من تحسن إليه. الناس إخوان وشتى في الشيم. بلغ السيل الزبي. أجمع كلبك يتبعك. حافظ على الصديق ولو في الحريق. اشتدي أزمة تفرجي. اتبع السيئة الحسنة تمحها. الخيل أعرف بفرسانها. رمتي بطرفها وانسلت. رب رمية من غير رام. الرياح مع السماح. رب أكلة تمنع أكالات. استراح من لا عقل له. رب أخ لم تلده أمك. رب طمع أدى إلى عطب. ربما كان السكوت جواباً. رب ملوم لا ذنب له. رب عين أنم من لسان. رحم الله من هداني إلى عيوبي. ركوب الخنافس ولا المشي على الطنافس<sup>(٢)</sup>. سبق السيف العذل<sup>(٣)</sup> زوج من عود خير من قعود. سبك من بلغك السب. سحابة صيف، عن قليل تقشع. شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه. طاعة النساء ندامة. اطلب تغفر. طرف الفتى يخبر عن لسانه. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. عند الصباح يحمد القوي السرى. والظلم مرتعه وخيم. عند النطاح يغلب الكبش الأجم<sup>(٤)</sup>.

### العبد يقرع بالعصا والحمر تكفيه الملامة

اعقل وتوكل. العتاب قبل العقاب. عند الرهان تعرف السوابق. عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان. عند النازلة تعرف أخاك. في القمر ضياء والشمس أضوا منه. القول ما قالت حذام. لقد أسمعت لو ناديت حياً. أقلل طعامك يحمد منامك. كل فتاة بأبيها معجبة. كل كلب يباه بئاح. كاد العروس أن يكون ملكاً. كثرة العتاب توجب البغضاء. أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع. الكلام أنثى، والجواب ذكر. كل إناه يوشح بما فيه. كما تزرع تحصد. كل امرئ في بيته صبي. كل جوال خير من أسد رابض. لقد ذل من بالث عليه الثعالب. ليس الخبير كالعيان. لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة<sup>(٥)</sup>. لكل قادم دهشة. لعل لها عنراً وأنت تلوم. لكل ساقطة لاقطة. لكل مقام مقال. لك لسان من رطب ويدان من خشب. للباطل جولة ثم يضمحل. ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة. لكل غد طعام. لكل دهر دولة ورجال. لا عطر بعد عروس. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يضر السحاب نباح الكلاب. لا تقتن من كلب سوء جرواً، مقتل الرجل بين فكيه. ما حك جلدك مثل ظفرك. من عتب على الدهر طال عتبه. معاتبة الإخوان خير من فقدمهم. النفس مولعة بحب العاجل. هذه بتلك والبادي أظلم. يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة. يكسو الناس وأسته عارية. يدك منك وإن كانت شلاء.

(١) الخلب عن البروق: ما لا مطر وراءه.

(٢) الطنافس: فواره المخدات.

(٣) العذل: اللوم.

(٤) الأجم: ملتف القرون.

(٥) كبوة: سقطة وهفوة.



## الفصل الثالث: في أمثال العامة والمولدين

التسلط على الممالك ذناء. اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجبر. أجراً الناس على الأسد أكثرهم له رؤية. الحاجة تفتق الحيلة. الحاوي لا ينجو من الحيات. الحية تدور وإلى الرحي ترجع. المؤذي ردي كلما جلوته صدي. الأسواق موائد الله في أرضه. السلامة إحدى الغنيمتين. الشاة المنبوحه لا يؤلمها السلخ. الطير بالطير يصاد. اطلع القرد في الكنيف فقال هذه المرأة لهذا الوجه الظريف. العادة طبيعة خامسة. الغائب حجته معه. الخضوع عند الحاجة رجولية. الناس أتباع لمن غلب. النكاح يفسد الحب. التصح بين الملا تقريع. الحر حر وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ملك الدار. الثقل إذا تخفف صار طاعوناً. أصبح من حلي على زنجية. العمل للزربخ والاسم للثورة<sup>(١)</sup>. البخل الهرم لا يفزعه صوت الجلجل. بدن وافر وقلب كافر. تزارروا ولا تجاوروا. تعاشروا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب. ثمرة العجلة الندامة. جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة. حشما سقط لقط. خذ اللص قبل أن يأخذك. خذ القليل من اللثيم وذمه. ذُلٌّ من لا سفية له. ريق العدو سم قاتل. رب ساع كقاعد. زكاة البدن العلل. زلق الحمار وكان من سهوة المكاري. زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تنر. سلطان غشوم خير من فتنة تدم. سواء قوله وبوله. سفير سوء يفسد ذات الين. شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه. صديق الولد عم الولد. ضرب الطبل تحت الكساء. طاعة الولاة بقاء العز. طفيلي ويقترح. عناية القاضي خير من شاهدي عدل. دلت على أهلها بقاتش (وهو اسم كلبة نبحت فدلّت على الجيش قتلوهم). غش القلوب يظهر في فلتات الألسن، وصفحات الوجوه، غنى المرء في الغربة وطن، فر من الموت وفي الموت وقع. فم يسبح وقلب يذبح. فلان كالكمة يزار ولا يزور. قيل للزمار تهباً للزمر قال: الزمار في كمي، والريح في فمي. كُلاً قليلاً تمش كثيراً. كلامه ريح في قفص. كالإبرة تكسو الناس وهي عريانة. كلمة حكمة من جوف خرب. كان المريب يقول خذوني. كنت سنداناً فصرت مطرقة. كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة. كلما طار قنعوا جناحه. لو كان المزاح فحلاً لم يتج إلا شراً. لسان الجاهل مفتاح حفص لكل جديد لذة. لو ضاعت صفة ما وجدت إلا في قناه. لو كان في اليوم خير ما فات الصياد. من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم. من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً. وبالله التوفيق.

## الفصل الرابع: في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

### حرف الألف

- |                            |                                   |
|----------------------------|-----------------------------------|
| وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ | - ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ |
| فقد بطلَ السحرُ والساحرُ   | - إذا جاء موسى وألقى العصا        |
| فأبعدكن الله من شجرات      | - إذا لم يكن فيكنَّ ظلٌّ ولا خبا  |
| فأي مكان من مكانك أطفُ     | - إذا كنت في فكري وقلبي ومقلتي    |
| فليس يخفى عليه كيف ينغمه   | - إذا أراد كريمٌ منَعَ صاحبه      |

(١) نورة: خليط تستخدمه النسوة لإزالة الشعر يحتوي زربخاً.

ظلمت وإن تقصد إلى الباب تهتدي  
على طرف الهجران إن كان يعقل  
وإن كان لي مال فأنت صديقي  
بالجد يُرزق منهم من يُرزق  
هل جديد مثل ملابس خلق<sup>(١)</sup>  
والموازى حكمها أن تسترد  
إذا رأى منك يوماً غرة<sup>(٢)</sup> وثبا  
أن ترى مقلتي طلعة حر  
فدغمة فدولته ذابغة  
عليك فكن لها ثبّت الجنان  
فدولتك الجبل به فتاحتق  
فلامّة الإخبار فيها تظهر  
فأحدهما لا شك ذلك آخذ  
فلا تلم الصبيان فيه على الرقص  
سمت بجناحيها إلى الجو تصعد  
أصبّت حليماً أو أصابك جاهل  
وجاوزه إلى ما تستطيع  
ولكن حديد الثاب عند الثرائد  
أخو عامر من مسه بهوان  
عدت ذنباً قُبل لي كيف اعتلر  
فإذا افتتحت قد هوى بك من هوى  
فأيسر ما يمر به الوحول  
فيقطعها عمداً ليلى سائره  
يسوءك أبعدت الدواة عن السقم  
فإنك قد أسندتها شر مسند  
وكل زمان بالكرام يخيل

- إذا ما أتيت الأمر من غير باب  
- إذا أنت لم تصف أحمك وجدته  
- إذا لم يكن عندي نوال هجرتي  
- الناس في طلب المعاش وإنما  
- أيها السائل عما قد مضى  
- إنما أنفسنا عارية<sup>(٢)</sup>  
- إن العدو وإن أبدى مسالمة  
- أتمنى على الزمان محالا  
- إذا ملك لم يكن ذا هيئة  
- إذا ثارت خطوب الدهر يوماً  
- إذا كنت تعرضي بما قد ترى  
- إن الأمور إذا بدت لزوالها  
- إذا ضاع شيء يين أم وبتهنا  
- إذا كان رب البيت بالطبل ضارياً  
- إذا ما أراد الله إهلاك نمل  
- إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى<sup>(٤)</sup>  
- إذا لم تستطع أمراً فدغمة  
- إذا صوت المصفور طار فؤاده  
- أهن عامراً تكرم عليه فإنما  
- إذا محاسني اللاتي أتيت بها  
- إخوان صدق ما رأوك بغبطة  
- إذا اعتاد الفتى خوض المنايا  
- ألم تر أن المرة تدوي<sup>(٥)</sup> يمينه  
- إذا أنت لم تعلم طيبك كل ما  
- إذا أنت حملت الخيون أمانة  
- أكل خليل هكذا غير منصف

(١) خلق: بال.

(٢) عارية: مستعارة.

(٣) غرة: غفلة.

(٤) الخنا (وتكتب بالمقصورة أيضاً): الفحش.

(٥) الدوي: العرض والسقم.

- إذا أنت عبتَ المرءَ ثم أتيتَهُ  
- أسأتُ إذا أحسنتُ فلتني بكم  
- العادئاتُ إذا ألمَّ خطوبُها  
- الخيرُ لا يأتيك متصلاً  
- العلمُ ينهضُ بالخسيس إلى العلا  
- الكفرُ بالنعمة يدعو إلى  
- أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم  
- أقلب طرفي لا أرى غير صاحب  
- إذا ما قضيتَ الدَّينَ بالدَّينِ لم يكن

## حرف الباء الموحد

- بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلنا  
- بالملح نصلح ما نخشى تَغْيِيرَهُ  
- بني عمنا إن العداوة شأنها  
- نرى فرجاً يشفي السقام قريباً  
- فكيف بالملح إن حلت به الغير  
- صفائن<sup>(١)</sup> تبقى في نفوس الأقارب

## حرف التاء-المثناة الفوقية

- تحن إليه أفئدة البرايا  
- تلومُ على القطيعة مَنْ أتاها  
- تلجى<sup>(٢)</sup> الضرورات في الأمور إلى  
- تفرقتِ الطبائءُ على حراش  
- تجتلي الأذن منه أحسن مما  
- وتهواه الخلائق للسمع  
- وأنت ستتهها للناس قلبي  
- سلوك ما لا يليق بالأدب  
- وما يدري حراش ما يصيدُ  
- تجتلي العين من وجوه البدور

## حرف الجيم

- جنُّ له الدهر فنال الفنى  
- جرئتُ أهلي وأهليه فما تركت  
- آه لمن أغفلته الدهرُ  
- إلى التجارب في ودِّ امرئ غرضاً

## حرف الحاء المهملة

- حياك مَنْ لم تكن ترجو تحييتَهُ  
- لولا الدراهمُ ما حياك إنسانُ

## حرف الخاء المعجمة

- خفض الجأش واصبرن رويداً  
- خليلي إن الحب صعب مراسه  
- فالرزايا إذا توالثت تولث  
- وإن عزيز القوم فيه يهانُ

(١) مساو: تخفيف مساوي، ضد المحاسن.

(٢) صفائن: مفردتها صفينة وهي الحقد.

(٣) تلجى: تخفيف تلجىء: تدفع.

- خاطر بتفسك كي تصيب غنيمة  
- خيالك في عيني وذكرك في فمي  
- حن من أمنت ولا تركزن إلى أحد  
إن الجلوس مع العيال قبيح  
ومشواك في قلبي فأين تغيب  
فما نصحتك إلا بعد تجريبي

حرف الدال المهملة

- داود محمود وأنت مذمم  
- دعيني أنهب الأموال حتى  
عجاً لذلك وأنتما من عود  
أعف الأكرمين عن اللثام

حرف اللال المعجمة

- ذو العقل يشقى في النعيم بعقله  
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

حرف الراء

- رب مهزول سمين عرضيه  
- رضيت ولا أرضى إذا كان مسخطي  
- ردوا علي صحافاً سودتها  
- رب يوم بكيك منه فلما  
وسمين الجسم مهزول الحبيب  
من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر  
فيكم بلا حيق ولا استحقاق  
صرت في غيره بكيك عليه

حرف الزاي

- زعيم<sup>(١)</sup> ليس يعرف من أبوه  
بنفي الأم ذو حسي ليم

حرف السين المهملة

- سروري أن تبقى بخير ونعمة  
- سوء حظي أنالني منك هجرأ  
- سبكناه ونحبه لجينأ  
- ستذكرني إذا جرئت غيري  
واني من الدنيا بلذلك قانع  
فعلى الحظ لا عليك الغتاب  
فأبلى الكير<sup>(٢)</sup> عن حيث الحديد  
وتعلم أنني نعم الصديق

حرف الشين المعجمة

- شقيمي إليك الله لا رب غيره  
- شكرتك قبل الخير إن كنت واقماً  
وليس إلى رد الشفيح سئل  
بأنى بعد الخير لا شك شاكراً

حرف الصاد المهملة

- صخخ لنا والدة أولاً  
وأنت في حل من السوالدة

(١) الزعيم: الملحق بقوم ليس منهم.

(٢) الكير: آلة يستخدمها الحداد في المنفخ.

## حرف الضاد المعجمة

- ضاقت ولو لم تفسق لما انفرجت والعسر مفتاح كل ميسور

## حرف الطاء المهملة

- طويل عمر المعالي والندى أبداً قصير عمر الأعداء والمواعيد

- طوبى لأعين قوم أنت بينهم القوم في نزهة من وجهك الحسن

## حرف الظاء المشالة

- ظهرت خيانات الثقات وغيرهم حتى اتهمنا رؤية الأبصار

- ظلمت امرأ كلفته غير خلقه وهل كانت الأخلاق إلا غراتزا

## حرف العين المهملة

- علم الله كيف أنت فأعطاك المحل الجليل من سلطانه

- على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

- عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

- عتبت على عمرو فلما تركه وجريت أقواماً بكيت على عمرو

## حرف الغين المعجمة

- غني بلا دين عن الخلق كلهم وأن الغنى إلا عن الشيء لا به

- غلام أتاه اللؤم من شطر نفسه ولم يأتيه من شطر أم ولا أب

## حرف الفاء

- فلم أر كالأيام للمرء واعظاً ولا كصروف الدهر للمرء هادياً

- ففَسَكْ أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً

- فصبّر جميل إن في اليأس راحة إذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره

- فما أكثر الأصحاب حين تعلمهم ولكنهم في النائبات قليل

- فإن كانت الأجسام منا تباعدت فإن المدى بين القلوب قريب

- فلو كان حمداً يخلد المرء لم يمت ولكن حنفاً المرء غير مخلد

- فإن تفسق الأنعام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الفزال

## حرف القاف

- قد يجمع المال غير أكله ويأكل المال غير من جمعه

- قد زال ملك سليمان فعاوده والشمس تحط في المجرى وترتفع

- قد يدرك المتأني نجع حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلزل

- قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه  
خلقٌ وجيبٌ قميصه مرقوع  
حرف الكاف

- كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا  
كفى زاجراً للمرء أيام دهره  
- كنت من كبريتي أفرُّ إليهم  
- كانوا بني أم ففرقَ شملهم  
- كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتى  
- كأنك من كل النفوس مركب  
- كالكلب إن جاع لم يمنعك بصصة  
فإن على الخلاق رزقكم غدا  
تروح له بالواعظات وتفتدي  
فهم كبريتي فأين الفرار  
عدمُ العقول وخفة الأحلام  
فتهونُ غير شماتة الأعداء  
فأنت إلى كل الأنام حبيبٌ  
وإن يئُلُ شعباً ينبح من الأشر<sup>(١)</sup>

#### حرف اللام

- لعمرك ما يدري الفتى كيف يتحى  
- لعمري ما ضاقت بلادٌ بأهلها  
- للموت فينا سهامٌ وهي صائبةٌ  
- لو إن خفةَ عقله في رجله  
- لو كان ما بي في صخرٍ لأنحله<sup>(٢)</sup>  
- لعمرك ما الأيامُ إلا معارة  
- لكل امرئ حالان بؤس ونعمة  
إذا هو لم يجعل له الله واقياً  
ولكن أخلاق الرجال تضيّق  
من فاته اليوم سَهَمٌ لم يفته غدا  
سبق الغزال ولم يفتقه الأرنبُ  
فكيف يعمل به خلقٌ من الطين  
فما استطعت من معروفها فتزود<sup>(٣)</sup>  
وأعطفهم في الثابتات أقاربه

#### حرف الميم

- من يحمي الناسَ يحمده  
- من لم يعدنا إذا مرضنا  
- متى يبلغُ البيانُ يوماً تمامه  
- من كان فوق محل الشمس رتبته  
- من الناس من يفتى الأبعاد نفعه  
- ما كان في المخدع من أمركم  
- ما قام عمرو في الولا  
والناس من عابهم يعاب  
إن مات لم تشهد الجنائز  
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم  
فليس يرفعه شيء ولا يضع  
ويشقى به حتى الممات أقاربه  
فإنه في المسجد الجامع  
بنة قائماً حتى قعد

#### حرف النون

- نسود أهلها وتأبى أصولها  
وليس إلى ردّ الشباب سبيل

(١) الأشر: البطر.

(٢) أنحله: أمزله.

(٣) الشطر الثاني فيه خلل فظير.

- نحن بنو الموتى فما بالناس  
- ندمت ندامة الكُتبي لما  
نعاف ما لا يد من شربه  
رأت عيناؤه ما صنعت يَدَاهُ

## حرف الهاء

- هناكم الله بالدينا ومثعكم  
- هل بالحوادث والأيام من عجب  
- هب الدنيا تُقاد إليك عفواً  
- هنيئاً لمن لا ذاق للدهر لوعة  
- هم يحسدوني على موتى فواحزني  
بما نُحِبُّ لكم منها ونرضاه  
أم هل إلى ردِّ ما قد فات من طلب  
أليس مصيرُ ذاك إلى الزوال  
ولم تأخُذِ الأيامُ منه نصيباً  
حتى على الموت لا أخلو من الحسدِ

## حرف الواو

- ولم أر كال معروف، أما مذاقُه  
- وإذا خشيت من الأمور مقدرًا  
- والرزق يخطيء باب عاقل قومه  
- ولا يَفْرُزُكَ طول الحلم مني  
- ولا خير فيمن لا يوطن نفسه  
- وإذا أتتكَ مذُنِّي من ناقصٍ  
- وما للمرء خيرٌ في حياة  
- وما المرء إلا كالهلال وضوئِهِ  
- وقد تسلبُ الأيام حالاتِ أهلها  
- ومن يأمن الدهر الخؤون فيأتي  
- وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد  
- ومن يَكُنِ الغرابُ له دليلاً  
- ومن يَكُ مثلي ذا عيال ومقترًا  
- ولربما منع الكريم وما به  
- ولا بات يسقينا سوء الماء وحده  
- ومَن عاش في الدنيا فلا بد أن يرى  
- ولو دامتِ الدولاتُ دامتْ لغيرنا  
- واحسِنْ فإن المرء لا يدُ ميت  
- ولا تريمِن الناس إلا تجملاً<sup>(٣)</sup>  
فَحَلُّوْهُ وَأَتَا وَجْهَهُ فَجَمِيلُ  
وهربت منه فحواه تتوجه  
ويبت بواباً يباب الأحمق  
فما أبداً تصادفتي حلماً  
على نائبات<sup>(١)</sup> الدهر حين تنوبُ  
فهي الشهادةُ لي بأنني كاملُ  
إذا ما عدُّ من سقط المتاع<sup>(٢)</sup>  
يوافني تمام الشهر ثم يغيبُ  
وتعدو على أسدِ الرجالِ الثعالبُ  
برأي الذي لا يأمن الدهر أتدي  
ذخراً يكون كصالح الأعمال  
يمر به على جيف الكلاب  
من الزاد يطرح نفسه أي مطرح  
بخل ولكن سوء حظ الطالب  
وهذا جزاء من بات ضيف الضفادع  
من العيش ما يصفو وما يتكدر  
رعايها ولكن ما لهن دوام  
وانك مجزئ بما كنت ساعياً  
وإن كنت صفر الكف والبطن طاوياً

(١) النائبات ج نايبة: المصيبة.

(٢) سقط المتاع: مردفوله وحقيقه.

(٣) التجمُّل: الجلد والتصمير.

- وما لامرئ طرولُ الخلود وإنما  
- ولربُّ نازلةٍ يضيق بها الفتى  
- وكان رجائي أن أعود ممتعاً  
- وتجلدي للشامتين<sup>(١)</sup> أريهمُ  
- ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة  
- وهونٌ حزني عن خليلي أنني  
- ويومٌ علينا ويومٌ لنا

### حرف اللام ألف

- لا تنظرن إلى الجهالة والحجى  
- لا تسأل المرأة عن خلاقه  
- لا يصبر الحر تحت ضيم  
- لا تنة عن خلقتي وتأتي مثله  
- لا تنظرن إلى امرئ ما أصله  
- لا يبالي الثتم عراض  
- لا يسكن المرأة في أرض يهان بها  
- لا يقبلون الشكر ما لم ينعموا  
- لا أسأل الناس عما في ضمائرهم

وانظر إلى الإقبال والإدبار  
في وجهه شاهد من الخبر  
وإنما يصبر الحمار  
عازاً عليك إذا فعلت عظيم  
وانظر إلى أفعاله ثم احكم  
كألسنة شتم وذم  
إلا من العجز أو من قلة الجيل  
نعماً يكون لها الثناء يبعثها  
ما في ضمير لهم من ذلك يكفيني

### حرف الباء المثناة التحتية

- يفر من المنية كل حي  
- يريك الرضا والغل<sup>(٢)</sup> حشوه جفونه  
- يهمهم للشمير إذا رآه  
- يفارقني من لا أطيق فراقه  
- يزيد تفضلاً وأزيد شكراً  
- يواسي الغراب الذئب في كل صيده  
- يهون علينا أن تصاب جسوتنا  
- يغز الفنى مرّ الليالي سليمة  
- يغيظني وهو على رسله  
- يريك البشاشة عند اللقا

ولا يُنجي من القدر الحذاق  
وقد تنطق العينان والفم ساكت  
ويعبس إن رأى وجه اللجام  
ويصحبني في الناس من لا أريده  
وذلك دأبه أبداً ودأبي  
وما صارت الغريان في سعف النخل  
وتسلم أعراض لنا وعقول  
وهن به عما قليل غواتر  
والمرء في غيظ سواه حليم  
ويريك في السرّ بزّي القلم

(١) الشامت: الفرح بيلة عدوه.

(٢) الغل: الحقد والفضيحة.



## الفصل الخامس: في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

### حرف الألف

إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك. إذا أبغضك جارك حول باب دارك. إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله. المستعجل والبطيء عند المعديّة<sup>(١)</sup> يلتقي. ألف ذقن ولا سلام عليكم. ألف ذقن ولا ذقني. إذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبه فعله. إذا وصلت وسلم الله يع بما قسم الله. إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش. إذا كان النبيل وردّي، والعشيق كردي، والبقل فول حار، والعشاء بيسار، أيش يكون الحال. إذا كان القطن أحمر والمغسل أعور، والدكة مخلعة، والنعش مكسر أعلم أن الميت من أهل سقر والوادي الأحمر. أيش ينفع الضراط عند طلوع الروح، قال تعريف للحاضرين وتفریق للملائكة. القشر والنشر والعشا خبيزة. أكل الدقة والنوم في الأزقة، ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة. أيش أنت في الحارة يا منخل بلا طارة<sup>(٢)</sup>. الرجم بالطوب ولا الهروب. إذا وقعت يا فصيح لا نصيح. أفرع يقول لأفرع: امش بنا نزرع في بركة القرعان أيش ما طلع يطلع، النصف لي، والربع لي، والثلث لي، والثلث الآخر لك ولي. العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طيب. اقعدا يا حمار حتى يثبت لك الشعير. أي موضع راح الحزين يلتقى جنازة.

قال الشاعر:

إن دام هذا السير يا معبود      لا جمل يبقى ولا قعود

وقال غيره:

إذا لم تكن لي والزمان شرم برم      فلا خير فيك والزمان ترللي

وقال غيره:

إذا قبلت كادت تقاد بشمرة      وإن أدبرت كادت تقدّ السلاسلا

### حرف الباء الموحدة

بينما يتروّى البخيل قضى الكريم حاجته. بينما يسعد المعتر فرغ عمره. بينما أصل قبره نسيت همه. بينما يعدل المعتر حاله جاء الموت شاله. بينما يخلص ربنا حقي اتفرقت جوزة حلقي. بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد. بينما يجيء الدرياق<sup>(٣)</sup> من العراق يكون الملسوع مات. بين حانه وبانه حلقت لحانه. بدوي مقروح لقي التمر مطروح، أين يخلي وروح. بدال لحمك وقلقاسك هات لك شد على رأسك. بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان. بدال لحمك التلاته هات لك شد يا شماته. بقي للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية. بقي للخرا مرا ويحلف بالطلاق. بعد الجوع والقلة بقي لك حمار وبقلة.

(١) المعديّة: مركب تنقل بين شاطئين لنهر واحد.

(٢) الطارة: الإطار الخشبي الدائري المحيط بالمنخل.

(٣) الدرياق: هو الترياق نفسه وهو مضاد للسموم.

### حرف التاء المثناة فوق

تموت الحدادي وعينها في الصيد. تعالوا بنا تقتبح ونزجع غداً نصطلح. تدحرج الخرا لعند البحر قال له أيش أنت قال له بزم قردش. ترك الفضول من حزم العقول. تراب العمل ولا زعفران البطالة. تسكر وتخانق ما هو شيء موافق. تجارة الأحمق على أهل بيته. تضارب الريح مع الموج جاء الهم على النواتية<sup>(١)</sup>. تراوروا ولا تجاوروا. تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها.

### حرف التاء المثناة

ثوب العيرة ما يدفي. ثقيل واسمه صخر بن جبل. ثور علقوه أغمي عليه قال حتى يطلع شيء يرشوه عليه. ثور عاجز ما يدور ساقيه. ثقيل من أولاد الزنا مرّ العنا. ثوب عليه وثوب على الوتد، قال: أنا اليوم أحسن من كل من في البلد.

### حرف الجيم

جور القط ولا عدل الفار. جمل موضع جمل ييرك. جهد المقل دموعه. جمل بحبه قال وأين المحبة. جيت اصطاد صادوني. جار له حق وجار ما له حق وجار لا صحبته عافية. جارك مرآك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك. جا كتاب من عند خاله قال كل من هو في حاله. جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهي بهمه. جاؤوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها. جوزوها له ما لها إلا له. جوزوا مشكاح لريمه ما على الاثنين قيمة.

### حرف الحاء المهملة

حاجة لا تهملك وصي عليها زوج أمك. حول حبيبي ما عونته وقدرته مع كانونه. حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت. حلينا القلوع وأرسينا وأصبحتنا على ما أمسينا. حب ووارى وكره وداري. حدثني ونصحتني عايرتي وفرحتني. حط فليساتك في كمك واشتر أبوك وأمك. حبة قرض تخرب أرض.

### حرف الخاء المعجمة

خذيبي وارغبني فيه أنا حصاد ملوخية، وعند الخبز أكل فيه، وعند الشغل ما لي نية. خبثت لي وصلحت لك. خذ ذا الصبي فوق صبيانك تمام لأحزانك. خزينة في جره وملحة في صرة. خبزة بلا أدام ويعزم على الجيران.

### حرف الدال المهملة

دار الظالم خراب ولو بعد حين. درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك. دواء ما لا تشتهي النفوس تعجيل الفراق.

### حرف الذال المعجمة

ذا درب ما يسد ريع. ذي ما هي رمانة إلا قلوب ملاتة. ذالي وذأ أيدي عليه. ذي مائدة ما يقعد عليها طفلي.

(١) النواتية: البحارة.

ذا الخبز ما هو من ذا العجين. الولد خراة من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه. ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها. ذكروا المدن جاءت القرى تحجل.

### حرف الراء المهملة

راح ذاك الزمان بناسه وجاه هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا رأسه. رأواه الحجاج راكب حيط. قالوا إلى أين يا حجاج، قال مسافر، قالوا من كانت هذه المطية مطيته لا يشرق ولا يغرب. رأوا سكران يقرأ قالوا عن تشاكل روحك. رأوا شيخاً يتعجى قالوا يختم على الصراط. رأوا وردانه على سنداس، قالوا ما لذي الفسيه إلا ذي البلطية. رأوا على قبر مكتوب يا سعادة ساكنة قالوا أبصر من يزاحمه. راكب بلاش ويناغش مرات الرئيس. ركبتك وراي، حطيت يدك في الخرج. راح الجندي وخلي خلقه عندي. رزق الكلاب على المجانين. راسين في عمامة ما يكون. راحت على جمل وجات على قطة قال: ما لذي الشيله إلا ذي الحطة. قال الشاعر:

راح السندي كني نعي      ش بفضلته بين السورى  
ويقي الذين حياتهم      ووجودهم مثل الخبرا

### حرف الزاي المعجمة

زفروق على بركة يضحك وهو ضحكة. زاوية بلا عيش بيت ليش. زوج القصيرة يحسبها صغيرة. زوجت بتي أقعد في دارها جاتي وأربعة وراها. قال الشاعر:

زوجت بتي تنسـر      ويمتلبي يتي قمـاش  
جاء غزلها في أكلها      ونيكها طلـع بلاش

زنبور زن على حجر مسن، قال له: أيش تريد، قال: ألحك، قال: أنا ألحس البولاد. زنبور زن على فلس جحش، قال له: أيش تطلب؟ قال له: عسل. قال له: قصدت معدن يا دندن.

### حرف السين المهملة

سل المعجب ولا تنس الطيب. سموك مسحر قال فرغ رمضان. سموك جبل قال وطولت. سموك راجح قال إن شاء الله تجي الحق. سبع وزر ولا استر. قال الشاعر:

سيغني الله عن بقراط دن      ويأتي الله باللبن الحليب  
وقال آخر:

سيغني الله عن زيد وعمرو      ويأتي الله بالفرج القريب

### حرف الشين المعجمة

شره ووضع ويفضب سريع. شيء ما نابه وتقطعت ثيابه. شعر يحلق وشعر ما يحلق. شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفلى. شمعي ولا تدعكني. شيء ما يجي على القلب عنايته صعبة. شراء العبد ولا تربيته. شمخت بغلة عامت زيلة. ركبت خنضة زمر زنبور. قال ما ذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل.

### حرف الصاد المهملة

صام سنة وفطر على بصلة. صبري على الحبيب ولا قلده. صاحب يضر عدو ميين. صباح الفوال ولا صباح المطار. صباحك يا أعور قال ذي خنافة بايته. صباح الخير يا جاري أنت في دارك وأنا في داري.

### حرف الضاد المعجمة

ضرب الحبيب كأكل الزبيب. ضربتين في الرأس تعمي. ضرب وبكي وسبق يشتكي. ضربة على كيس غيري كأنها في عدل حنا. ضمنوا حداية لغراب قال الكل يطيروا. ضربوا بياح الكسبرة خري بياح التوم قال ذي داهية جات على الخضرية.

### حرف الطاء المهملة

طارت الطيور بأرزاقها. طفيلي ويجلس في الصدر. طفيلي ويقترح. طويل الكم خطار قليل الفرح في الدار. طبق وجارية على صحن بسارية. طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام. طعامك ما جاني ودخانك عماني. طار طيرك وأخذه غيرك. طول ما أعيش يكفيني رعي الحشيش. طول الغيبة وجانا بالخيبة.

### حرف الظاء المعجمة

ظهرك عندي نصف الليل.

### حرف العين المهملة

عنقود مدلى في الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى. عشق بداله لا أباله. عاشق ما يسمع بكا صغير. عاشق ما يسمع كلام مفارق. عاشق مقل شيء ما زرع ايش جا يستغل. عزومه حسبت عليك كُلِّ وَيَخْلِقُ عَيْنِكَ. عند المخاضة بيان القليلط. عند الطعان بيان الفارس من الجبان. عريان التينة وفي حزامه سكينه. عريان وفي كفه ميزان.

### حرف الغين المعجمة

غابت السباع ولعبت الضباع. غربة وكرهه ما يحمل الحال. غطاس وقلقاس نحسين في قدره. غالي السوق ولا رخيص البيت.

### حرف الفاء

فرجة بلا كسر تعمي البصر. فقير ونقير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يخني. فوق الشراطة ملح أودانه. فارس خرا ويسوق في الوحل. فارس خرا واسمه عتر. فارس خرا ويسابق الخيل. فرد ضربة في الرأس تكفي. فصلدوا فرد شرط قالوا به دم زائد. فرغت الرعاية يا جانم.

### حرف القاف

قالوا للأعمى زوّق عصاتك قال هو أنا محب فيها. قالوا للحمار اجتر قال مضغ المنحال ما ينظلي. قالوا للقرود

شب قال أيادي ملاح وتمسك الماصول. قالوا للقرد أطلب من ريك قال هو أنا عنده بوجه ييسط. قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملمومة ولا أيادي مفرودة. قالوا للدبة طرزي قالت ذي خفة أيادي. قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة. قالوا للغراب ما لك تسرق الصابون قال الأذى طبعي. قالوا لبقر الديوان إذا تمم يكفنوكم في حرير اشتبهينا نروح بجلودنا. قالوا للغزاة ارحلي حركت ذنبها. قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف.

### حرف الكاف

كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع، كشكار دايم ولا علامة مقطوعة. كل كرهاً واشرب كرهاً ولا تعاشر كرهاً. كل هم كاري عند همي ياوي. كل كل شيء لا يشبه قانيه حرام. كل مائة عصفور ما يجو حداية. كل ألف مصة ما يجو بغصه. كل ألف بوسة ما يجو ببوسة. كملت يا لحمان بالشعرة والصنان. كمل حبيبي كل المعاني أعرج وقيليط ومعجابني. كمل حبيبي وأكمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا. كأنه خان للفجر لا يوحشه من غاب ولا يوانسه من حضر. كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار. كأنه عصفور ينك بلاش ويأوي في الأعشاش.

### حرف اللام

لولاك يا كمي ما أكلت يا فمي. لولاك يا لساني ما انكسبت يا قفاني. لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد. لولا أختك ما صرت ابن عمك. لو قلياتها بليه ما جات هكنا. لو كان فيها خير ما رماها طير. لك وعليك ما يصعب عليك. لك أسوة بغيرك. لقمة بدقة ولا خروف بزقة. لقمة تحت حيطه ولا خروف بعيطة. لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه. لو تقطع يده وتدليها من فيه صنمه ما يخليها. لو عمل لي من الذهب وليمة هو عندي بتلك العين القديمة. لو شال رأسه إلى السما كأنه عصيدة بما. لو نظر الجمل لسنمه كان كدمه. لولا الكشط والبراية ما كانت أولاد الخرا كتاب.

### حرف الميم

مجة بلا حبة ما تساوي حبة. ما شلتك يا دمعتي إلا لشدتي. من عاشر غير جنسه دق الهم صدره. من قدم النحاس تعب في تأخيره. من عاشر الحداد احترق بناره. من عاشر الزيداني فاحت عليه روايحه. من ركب في غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه. من لا يحط يده لزنده ما يعرف حره من برده. ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون. ما لي على فراقكم جلد إلا هجاجي من البلد. ما كفانا هم أبونا قام أبونا جاب أبوه قال خذوا جدكم ربوه. من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به. من يكلم القبح يروح عرضه ويفضح. ما تغدوهم زغليه ما فيهم من يعجب التقاد.

### حرف النون

نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير. نفسك أتلفت أي شيء أخلقت. نصف البلا ولا البلا كله. ناقص ونحاس. ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أي ورقة. نيتك مطيتك. نسبت يا فلاح ما كنت فيه، كعبك المشقق والوحل فيه. نيك حتى تبقى ديك.

### حرف الهاء

هانت الزلاية حتى أكلها بنو وائل. هان المسك وانتشر. هدية تمر<sup>(١)</sup> قومها تخليتها ولا لومها. هدية الأحباب على ورق السداب. قال هو أعمى عن ورق الموز. هو عرس تأكل وتنسل. أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردها. هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل.

### حرف الواو

واحد نضه وآخر لقفه وقال آخر يا قريب الفرج. واحد يبخطوا له وهو قائم عليه، قال أنا في حاجتك. واحد جائر رأى فرد يجرش ترمس قال ما لذي الفاكة البدرية إلا ذي الصورة القمرية. واحد سموه عنبر وصنعتة سرباتي قال الذي كسبه في الاسم خسره في الصنعة. وحش ويكش ويقعد في الوش<sup>(٢)</sup> ويغني بلينا بكم. وقت أكل الدجاج ما يتكروني وفي وقت شيل التراب هات يدك. وايش قام على تومة بفصل الحكومة. وقت الشوا أو اليخني ما قلت يا أخي الحقني، ووقت ضرب الدرّة قلت اصفعوا واصفني.

### حرف اللام ألف

لا تعيرني ولا أعيرك الدهر حيرني وحيرك. لا أصل شريف ولا وجه ظريف. لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على أيش. لا عاشق بليق. لا حراس ولا دراس لا عاش العار ولا بني له دار. لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه. لا في الفراق نجد راحة ولا في الوصل. لا تشكرون فتى حتى تجربه. لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجي. لا يضر السحاب نبج الكلام. لا يغرك تطريفي الأصل في ريفي.

### حرف الياء

يا شب مليح ما أحسن وصفك لا في يدك ولا في طرفك. يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه، يموت وفي قلبه من الهم واجس. يا طارق الباب بعد العشي لا تطرق الباب ما تم شي. يا من ملنا ما كان حلنا لسا ما لنا في العشرة سنة. يهنيكم قدمه قد جاكم بشومه. يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا. يا ويل من كان عشيّه من بيت خيه. يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر.

## أمثال النساء

### حرف الألف

أحبك يا سوارى، مثل معصمي؟ الذي في قلب أم حنين تحلم به في الليل. إن كنت حرة لا تضيي تقابك برة. إن لم عملي وتفتخري وإلا اقعدي وانغفري. إن كانت الداية أحن من الوالدة قال ذي داهية عيارة. الكلام لك يا جارة إلا أنت حمارة. إيش تعمل الماشطة في الوجه المشووم. إيش قام على الحزينة بالنقش والزينة. إيش ينفخ النخ في الوجه الأصم. أرملة علس ومتزوجة علس اقعدي بعد سمي. اسم الزوج ولا طعم الترمل. العاقلة فينا تزني بيقطينا.

(١) تمر: تجلب العار.

(٢) الوش: الوجه.

إذا كان زوجي راضي إيش فضول القاضي . استعارت الرعة<sup>(١)</sup> شيء حسبته لها أخذت المقص، دارته لها . اقعدي في عشك حتى يجي حد ينشك .

### حرف الباء الموحدة

بعد أن كتتي لي وحدي بقيت اسمع أخبارك . بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين . بعد أن كان زوجها بقي طباخ في عرسها . بعد مشيك في الحلقة بقي لك سلالم وغرفة واسمك ستيتة . بعد أمي وأختي الكل جيرانني . بينما تنتقب الحولة انصرف القاضي . بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف . باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من دري بك قبله . بدال ما تمشي وتهزي كضك رقعي فردة خفك . بخرا<sup>(٢)</sup> وتزاحم بالبوس . بقي لام سيسي برقع وللصفدة زمارة . بعد مشيك في الحلافي لبستي الصافي . بعيد على الحزينة تستعمل الزينة .

### حرف التاء

تابت القجة يوم وليلة قالت ما بقي في البلد حكام . تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعة من حقا . تضارب وتتعري وتصيح يا قلة رجالي . تأخذوا أبونا وتكابرونا . ترتانة وبيانة ومفاتيح الخزانة . تباث الرعة بشعر بنت أختها . تخلوني وإلا استحل بجاننا قالت إذا كان ذا في قلبك خذية بلا استحلال بجاننا قالت إذا كان ذا في قلبك خذيه بلا استحلال . تتغنى بالخرج ولا تخلي الفنج . تقعد عيوشة في ديارتها ما لأحد حاجة في زيارتها .

### حرف الثاء

ثوب سيدي، ثوب حبيبي، ثوب ستي، ثوب فجه .

### حرف الجيم

جارة بجارة والعداوة خسارة . جاني عدولي ورتالي ما هي محبة إلا شماتة لي . جارية وزيدية على باذنجانة مقلية . جاتنا العدو مكحلة قطران لا غيره وقلها فرحان . جاب ثيابه يفسلهم بلا صابونة معهم .

### حرف الحاء المهملة

حولة وتنتقب بنخ . حزاني ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق . حزاني ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية . حزينة وواعية . حلة ومرضعة، وعلى كضها أربعة . وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل . حولة ونصرانية لا مليحة ولا أصل طيب . حزينة ما لها مملوك سمت زنبورها خوشكلام . حزينة ما لها ملك اكرت لها بواب . حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية .

### حرف الخاء المعجمة

خطبوها تعززت وكان زمان البوار . خلثت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب . خذي قطيفة، واكتمي سري، قالت ما يطاوعني قلبي، خلثت ما يعينها واتبع حك رجلها .

(١) الرعناء: قليلة العناية .

(٢) البخراء: ذات رائحة فم كريهة .

حرف الدال المهملة

دري زوجك بكتبك تمي نهارك مع ليلتك. دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب.

حرف الذال المعجمة

ذكرت العجوز أطلالها.

حرف الزاء

رقصتي ما أحسّتي كان قعادك أجمل. رحنا يضحكوا بها وهي تضحك تساعدهم. رأوا جاموسة متعبة بحصير قالوا ما لهذا الشكل الوضع إلا ذا القماش الرفيع. راحت تبيع ريمة غابت جمعة. راحت رجال الهية وبقيت رجال الخية. راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفساس. رأوا خنفسة على مكنتة قالوا ما لذي الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر<sup>(١)</sup>.

حرف الزاي

زمر بالزيميرتبان لك العاقلة من المجينية. زوجي ما حكم علي قام لي عشيقني بشمعة. زوجوا بنت نشاردي<sup>(٢)</sup> لسريالي<sup>(٣)</sup> قالوا قليلات الخرا تتدحرج لبعضها.

حرف السين المهملة

سودا وتتقش بسباخ. سواد متعبة قفل على خزاة. سألوها عن أيها قالت جلدي شعيب.

حرف الشين المعجمة

شدي قرطاسك من عند موسى قالوا دا شي ما فرحتي به وانتي عروسه. شامته ومعزوة.

حرف الصاد المهملة

صارت القحبة واعظة. صارت القويقة شاعرة.

حرف الضاد المعجمة

ضحك ابن سنة غمي على أمه قالت ما أخف دمه.

حرف الظاء المهملة

طلعت ترحم نزلت تتوحم.

حرف الظاء المعجمة

ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة.

(١) الحمار الأزعر عند العوام: مقطوع الذنب.

(٢) نشاردي: ربما المشتغل بمادة النشار ذات الرائحة الكريهة.

(٣) سريالي: لعله الحداد صانع السراويل وقد عيّرت العرب الحداد بفساد الريح.



## حرف العين المهملة

عميا تحفف مجنونة وتقول حواجبك سود مقرونة. عاقلة وجابت طفلة وجاتها خطر<sup>(١)</sup> واشتروا لها قلقاس دكر وحطب أخضر في نهار مطر وقالوا لها اطبخي. على قدر لمحة تقع الصلحة. عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام. عجوزة وخرفانة دي داهية كمانه.

## حرف الغين المعجمة

غيرك يقوم مقامك عيش قلبي أعذبه.

## حرف الفاء

فرحت حزينة خربت مدينة.

## حرف القاف

قالوا للمغاني اتزوقوا قلبوا عصايهم. قعبة ما كنت بيتها كنت المسجد قالوا دي قعبة تطلب الثواب.

## حرف الكاف

كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها. كبرتي يا برقوقة وبقي لك دبوقة. كانوا مغاني صاروا ملاهي. لا راحت ولا جات كما هي. كلي قلبه ويأتي هنيه. كأنها من الباسطية قماش على جريدة. كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر. كأنها من عمائم اليهود صفرا طويلة رقيقة. كأنها من بيت الوالي ما يتحدث فيها سوى الحاشية. كأنها ضبة جميدي مخلوطة ولا تأخذ شيء

## حرف اللام

لو كان ما ينقش إلا السمان<sup>(٢)</sup> بارت المواشط من زمان. للساعة ما جيلت جابت المرسين. لولا المعابر ما كانت الحرارير.

## حرف الميم

ماشطة وتمشط بتها. من افتكرنا يياسمينا ما نسينا.

## حرف النون

نواية تسند الجرة وقال وتسند الزير الكبير.

## حرف الهاء

هش يا دبانة أنا جيلي من مولانا.

(١) خطر: زؤلر - ضيوف.

(٢) السمان: البديئات.

حرف الواو

وجه لا يرى بالذهب يشتري.

حرف اللام ألف

لا أنت مليحة ولا تغني بايش تدلى.

حرف الياء

يعيش المدلل بلا مكلل. يا غزاة الأعمار أين كتي بالنهار. يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية - يا من ملنا ما كان حلنا، للساعة ما لنا في العشرة سنة.

## الباب السابع: في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول

### الفصل الأول: في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾<sup>(١)</sup> وقال ﷺ: «إن من البيان لسحراً». قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حله فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك من المعنى، وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾<sup>(٢)</sup> وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّعْنَةِ﴾<sup>(٣)</sup> أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية، وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندي: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندي: يجب للبلغ أن يكون قليل اللفظ، كثير المعاني. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص: مَنْ أبلغُ الناس، فقال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة، ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول: «نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأَوْتِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ»، وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة.

وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمت العامة، ورضيت به الخاصة. وقال البحري: خير الكلام ما قل وجل<sup>(٤)</sup> ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان. وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نَشَأَتْ بِهِ  
مَهْدٌ لِي العنذر في نَظْمٍ بَعَثَتْ بِهِ  
وكُنَّا بقصور<sup>(٥)</sup> عنك نَعْتَرِفُ  
مَنْ عنده الدرُّ لا يُهْدَى له الصَّدْفُ

وروي أن ليلي الإخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام إذهب إلى فلان فقل له يقطع لسانها. قال: فطلب

(١) سورة: الرحمن، الآيات: ١ - ٤.

(٢) سورة: الطلاق، الآية: ٢.

(٣) سورة: القلم، الآية: ٣٩.

(٤) جَلَّ: عَظُمَ.

(٥) قصور: عجز وتقصير.

حجماً فقالت: ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فلولا تبصرها بأنحاء الكلام، ومذاهب العرب، والتوسعة في اللفظ، ومعاني الخطاب لثم عليها جهل هذا الرجل. وقال الثعالبي: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالي، ويخطط الألفاظ على قدر المعاني، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكرةً. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه في حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارة كنه ما في قلبه، مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شُعبٌ وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

## الفصل الثاني: في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه: إعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم أفصح للبن، إذا أخذت عنه الرغوة، وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشينين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ، ولفظ صحيح. وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني. وقد اختلف الناس في الفصاحة فمنهم من قال إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال إنها لا تخصُّ إلا الألفاظ وحدها. واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قاتلاً يقول هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني. وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف في كلام الناس. والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً. ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنت كنت كمت الحب كنت كما      كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن<sup>(١)</sup>  
وكقول بعضهم أيضاً:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه      ولا ضعف الضعف بل مثله ألف<sup>(٢)</sup>  
وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر      وليس قرب قبر حرب قبر<sup>(٣)</sup>

قيل إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلاً في النطق به. وقيل من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر، وملك زمام الأمور، واطلمه ملكها على الخفي من أمره والمستور. قال الشاعر:

(١) البيت في الغالب مصنوع وهو مثال لفساد اللفظ بسبب توالي حرف الكاف فيه.

(٢) شأنها شأن سابقها في فساد التركيب.

(٣) نفس المصدر السابق.

لسان الفتى نصفٌ ونصفُ فؤادهُ ولم يَسَقْ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك، أي فصاحتك. وعرضت على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء يستجيزها: أحمد الله كثيراً، فقالت: حيث أنشاك ضريراً. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف: كما إن الآنية تمتحن بأطنانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه. وقال المبرد: قلت للمجنون أجزني هذا البيت.

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه وإبراقه فالיום لا شك ماطرٌ

فقال:

وقد حجبت فيه السحابُ شمسَهُ كما حجبت وُزْدَ الخدودِ المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت. يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وقال الشعبي: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة، فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك. فيقول: والله لحديثك أحب إليّ منها، وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته ولا منام إلا بتيقظ، ولا يقظة إلا بتمام. قال ابن المبارك.

وهذا اللسانُ بريدُ الفؤادِ يدلُّ الرجالَ على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت أستمكم هلاً قلت لا ورحمك الله. ومنه ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكنم عن شيء فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين. فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان صاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداع. ويقال اللسان سبع صغير الجرم. وقال بعضهم شعراً:

سحبان<sup>(١)</sup> يقصرُ عن بحورِ بياضِهِ عجزاً ويفرقُ منه تحت عباب  
وكذاك قس<sup>(٢)</sup> ناطقٌ بعكاظه يعيا لديه بحجوةٍ وجوابِ

وقيل؛ إنه حج مع ابن المنكدر شابان فكانا إذا رآيا امرأة جميلة قالوا: قد أبرقتنا وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يظن فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة. وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر: بل صاعقة. وكان أصحاب أبي علي الثقفى إذا رأوا امرأة جميلة يقولون حجة<sup>(٣)</sup>، فعرضت لهم قبيحة فقالوا: داحضة<sup>(٤)</sup> وكتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل من تجنبك الألفاظ السفلى. ويقال: القول على حسب همة القائل يقع، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع. وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى

(١) سحبان وائل: رجل ضرب به المثل في الفصاحة.

(٢) قس بن ساعدة: من أشهر خطباء عكاظ.

(٣) الحججة: الآية والبرهان.

(٤) الداحضة: نقيض الحججة أو الباطلة منها، وهاتان من ألفاظ أهل الكلام كما ترى.

مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم. لا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة. وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقت.

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الزمر وهو من الذكاء، والفصاحة، ما حكى أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا نرسله إلا بحضرتنا لثلاثتهم وتحذرهم، فجاؤوا بعبد أسود فقال له: أتعتل ما أقوله لك؟ قال نعم: إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلا عاقلاً. ثم ملاً خفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير. قال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كلٌّ كثير. فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بني بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا، وشكت النساء، وأمرهم أن يعرّوا ناقتي الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب، بأمانة ما أكلت معكم حياً<sup>(١)</sup>، واسألوا عن خبري أخني الحارث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملاً أصهب. ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم؛ أما قوله قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلاموا ولبسوا السلاح، وأما قوله شكت النساء، أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله أعروا ناقتي الحمراء، أي ارتحلوا عن الدهناء<sup>(٢)</sup> واركبوا الجمال الأصهب، أي الجبل، وأما قوله أكلت معكم حياً، أي إن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والإقط، فامتثلوا لأمره، وعرفوا لحن الكلام، وعملوا به فنجوا.

وأسرت طيء غلاماً من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا<sup>(٣)</sup> عليه، أبوه: والذي جعل الفرقدين يسميان ويصحبان على جبل طيء ما عندي غير ما بذلته، ثم انصرف وقال: لقد أعطيتك كلاماً إن كان فيه خير فهمه. فكانه قال له: الزم الفرقدين، يعني في هرويك على جبل طيء، ففهم الابن ما أراد أبوه وقيل ذلك فتجا. وكانت عليّة بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طلّ، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة ﴿فإن لم يصبها وابل﴾<sup>(٤)</sup> فالذي نهى عنه أمير المؤمنين. ومن ذلك قولهم تركت فلاناً يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أي يأمر بالوصية، وينهى عن النوح.

ويقال: ما رأيت فلاناً أي ما ضربته في رثته ولا كلمته، أي ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ريباً، فالريبع حظ الأرض من الماء، والريبع النهر، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً فالكافر السحاب، والفاسق الذي تجرد من ثيابه، وما رأيت فلاناً راعياً ولا ساجداً ولا مصلياً، فالراعي العائر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة البراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً، فالبقرة العيال الكثيرة، يقال جاء فلان يسوق بقره أي عياله، والشور القطعة الكبيرة من الإقط<sup>(٥)</sup>.

(١) الحيس: من الحواصة: الأخلاط من الناس، وتأتي لأخلاط من الطعام.

(٢) الدهناء: الأرض المنبطة.

(٣) اشتطوا: غالوا واصعبوا.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٥.

(٥) الإقط: هذه ضروب من الثوريات التي أوردها ابن دريد في كتابه «الملاحن»، ويقصد بها إلى اليمين غير الحائنة.

وحكي أن معاوية رضي الله عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس، فيهم الأحنف بن قيس، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لهم، فأتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك علياً رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه، الطاهر ثوبه، العظيمة مصيئته. فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدنَّ على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبداً. فقال: قم فاصعد. قال: أما والله لأنصفنك في القول والفعل. قال: وما أنت قائل إن انصفتني؟ قال: أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلي على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: يا أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً ألا وإن معاوية وعلياً اقتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه، وعلى فته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كبيراً آمنوا<sup>(١)</sup> رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية: إذا تعفيك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن علياً قد قطعك، وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعه على المنبر قال: أفعل. فصعد المنبر ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله. ثم نزل فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم.

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقال: يا أمير المؤمنين أقر الله عينك، وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت. فقال لها: مَنْ تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما تراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾<sup>(٢)</sup> وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ تَقْضُؤُهُ      تَرَقَّبَ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَائِمُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾<sup>(٣)</sup> فتعجبوا من

ذلك.

وحكي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له: أطال الله بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومي قبل

(١) آمنوا: قولوا آمين.

(٢) سورة: الأنعام، الآية: ٤٤.

(٣) سورة: الجن، الآية: ١٥.

يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه وأجازه على دعائه وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه. لأن معنى قوله: أطال الله بقاءك، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية؛ وأما قوله: وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها، أي أعماها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة، قبل يومك الذي تدخل فيه النار؛ وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرك، فإن العافية تسره كما تسره الآخرة. فانظر إلى الاشتراك وفائدته. ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد، ولا سلم له في التخلص قياد.

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعاً من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾<sup>(١)</sup>، بالغين المعجمة والسين المهملة وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَلْنَا إِيَّاهُ﴾<sup>(٢)</sup> بالباء الموحدة ﴿ليكون لهم عدوًّا وحزنًا﴾<sup>(٣)</sup> بالباء الموحدة. ﴿وما يجعلدُ بآياتنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾<sup>(٤)</sup> بالميم والياء الموحدة. ﴿هم أحسنُ أمثالًا ورِثِيًّا﴾<sup>(٥)</sup> بالزاي وترك الهزمة. ﴿عذابي أصيبُ به منَ أشاء﴾<sup>(٦)</sup> بالسين المهملة ﴿صيفةً الله ومنَ أحسنُ من الله صيفةً﴾<sup>(٧)</sup> بالنون واليمين المهملة. ﴿سلام عليكم لا نبني﴾<sup>(٨)</sup> بإسقاط التاء. ﴿بئسَ الدين كُفروا في حرِّو وشقاقٍ﴾<sup>(٩)</sup> بالغين المعجمة، والراء المهملة، قرن الشقاق بالقرعة وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

وحكي أن المأمون وأبى عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحته، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين، عنده علم منه، فأكرم نزله، وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة. فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين، أما بعد: فقد قدمنا على فلان فوجدناه أخذاً بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وسأوى في أفضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم من منازل الأولاد. وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمر المؤمنين، يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله أخذاً بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال، وقوله قد عدل بين رعيته وسأوى في أفضيته، أي أخذ كل ما معهم؛ حتى سأوى بين الغني والفقير، وقوله عمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني أن الكل صاروا فقراء، لا يملكون شيئاً من الدنيا، ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره.

(١) سورة: النحل، الآية: ٦٨

(٢) سورة: التوبة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة: القصص، الآية: ٨.

(٤) سورة: لقمان، الآية: ٣٢. الختار: الغدار.

(٥) سورة: مريم، الآية: ٧٤. ووثياً: مظهراً.

(٦) سورة: الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٧) سورة: البقرة، الآية: ١٣٨.

(٨) سورة: القصص، الآية: ٥٥.

(٩) سورة: ص، الآية: ٢.



ومن ذلك ما حكى: أن القاضي الفاضل كان له صديق خصيص به، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهمَّ بقتله، فتسَّبَّ إلى بلاد التتر، وتوصَّل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه. فلما بلغه ذلك نفر منه، وقال للفاضل اكتب إليه كتاباً عرَّفه فيه أنني أرضى عليه، واستعطفه غاية الاستعطاف، إلى أن يحضر فإذا حضر قتله واسترحت منه. فتحير الفاضل بين الاثنين، صديقه يعزُّ عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ، وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشَدَّ «إن»، ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال، وما فهم إن، وكان قصد الفاضل «إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ»<sup>(١)</sup> فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً، وأراد بذلك «إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا»<sup>(٢)</sup> فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك.

وحكى: أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يفرج فلاحته منه الثغاة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤون أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها: لمن هذه، فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فتزل الملك وقد خامره جها، وشغف بها فاستدعى فيروز وقال له: يا فيروز، قال: ليك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلاد الفلانية واتني بالجواب. فأخذ فيروز الكتاب وتوجَّه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهد أمره وبات ليلته، فلما أصبح ودَّع أهله وسار طالباً لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك. وأما الملك فإنه لما توجه فيروز، قام مسرعاً وتوجه مخضياً إلى دار فيروز فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: مَنْ بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا. فقال: زائرأ. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزياوة، وما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتني، فقالت: بل عرفتك يا مولاي ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

وذلك لكثرة السوراد فيه  
رفقتُ يلبني ونفسي تشتهيهِ  
إذا كان الكلابُ ولَقِّنَ فيه  
ولا يَرْضَى مساهمةَ النَّفِيهِ

سأترك ماءكم من غير وريد  
إذا سقط الذبابُ على طعام  
وتَجَتَّتِ الأَسْوَدُ وروود ماء  
ويرتجع الكريم خيمصَ بطني

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

وصاحبُ الغديرِ غيرُ مصحوبٍ  
قد أكل الليثُ فضلةَ الذيبِ

قل للذي شَفَّهُ الفرامُ بنا  
والله لا قال قائلُ أبداً

(١) سورة: القصص، الآية: ٢٠.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٢٤.

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شُرْبِ كلبك تشرب منه. قال: فاستعيا الملك من كلامها، وخرج وتركها فسي نعله في الدار.

هذا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه في رأسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفارة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار. فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهياً هدية حسنة وأتى إلى زوجته فسلم عليها وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذلك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرني لأهلك ذلك. قالت: حباً وكرامة. ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها، ولا ألمَّ بها فأتى إليه أخوها وقال له: يا فيروز، إنا أن تخبرنا بسب غضبك، وإنا أن تحاكمنا إلى الملك، فقال إن شتم الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضي إذا ذلك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستاناً، سالم الحيطان، بيثر ماء معين عامرة، وأشجار مشرة، فأكل ثمره وهدم حيطانه، وأخرّب يثره. فالضقت القاضي إلى فيروز وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان. فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان، قال: نعم. ولكن أريد منه السبب لرده، قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد فخنفت أن يقتالني فحرمت دخول البستان إكراماً للأسد.

قال: وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال: يا فيروز إرجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان، ولم يؤثر فيه أثراً، ولا التمس منه ورقاً، ولا ثمرأ، ولا شيئاً ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بلس، والله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره. قال: فرجع فيروز إلى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك. والله أعلم.

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكتابات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المتشر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعارض مندوحة عن الكذب. كما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بداراً فلقبهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبي ﷺ من ماء، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء، من ماء، يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ بأصحابه وكان قصده أن يكتم أمره. وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله فإن الله عز وجل قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ \* خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾<sup>(١)</sup> وكما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار وهو رجل يهيني السيل، وقد صدق فيما قال رضي الله عنه فقد هداه وهدانا السيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام. وكما حكى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد: ما تقول في القرآن؟ قال الشافعي: إياي تعني، قال: نعم، قال: مخلوق، فرضي خصمه

لمنه بذلك ولم يرد الشافعي إلا نفسه، وكما حكى عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر، وتحت جماعة من ممالك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية، وقوم شيعة فقيل له: من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، أم علي رضي الله عنهما؟ فقال: أفضلهما بعد من كانت ابته تحته فأرضى الفريقين، ولم يرد إلا أبو بكر رضي الله عنه لأن الضمير في ابته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه وهي عائشة رضي الله عنها وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعة ظنوا أن الضمير في ابته يعود إلى رسول الله ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها، وكانت تحت علي رضي الله عنه، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وستة. والله أعلم.

### الفصل الثالث: في ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم فزجوه وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبياً، فلست بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: ﴿أَحَطُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾<sup>(١)</sup> ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبير لكان داود أولى. ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك. فقال الصبي:

يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت فتكلم. فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي من علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا، ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك. فتحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضي الله عنه: عطني يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرهم حلم الله، وثاء الناس عليهم، فلا تكن ممن يفره حلم الله وثاء الناس عليه فترل قدمك، وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنا عشرة سنة فأنشدته من عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلم فليس المرء يولد عالماً      وليس أخو علم كمن هو جاهل  
فإن كبر القوم لا علم عنده      صغيراً إذا التفت عليه المحافل

وحكى أن البادية تحطت في أيام هشام فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرأ وطياً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بشره فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال له: انشره لله درك. فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عبادة، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين. فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً فأمر للبوادي بمائة ألف

(١) سورة: النمل، الآية: ٢٢.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢١.

دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال هل: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره<sup>(١)</sup>، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة، على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وتقصه فقال: مهلاً أيها الملك، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجان، ثم أنشأ يقول:

يا أيها الملك المرجو نائله      اني لمن معشر شمم الذرى زفر  
فلا تغرنك الأجسام إن لنا      أحلام عاد وإن كنا إلى قصر  
فكم طويل إذا أبصرت جثته      تقول هذا غداة الروع ذو ظفر  
فإن ألم به أمر فأنظعه      رأيت خاذلاً للأهل والزمر

فقال: صدقت فهل لك علم بالأمور؟ قال: إني لأتقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجبلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تزول، وليس للدر بصاحب، من لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة. وقال له: يا سعد إن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إلي من الدنيا وما فيها. فأنعم عليه وأذناه وجعله من أخص نعماته.

وحكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء، ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها له، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة، ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس، وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر. فقيل لمعاوية: لست هناك، ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل، فكتب إليه فأجاب: أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾<sup>(٢)</sup> وأما لا شيء فإنها الدنيا، تبيد وتفتنى، وأما دين لا يقبل الله غيره فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله ويحمد، وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، فأدم، وحواء، وناق صالِح، وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا لب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له فأدم عليه السلام. وأما القبر الذي جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر، وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الفرق. وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر. حين انقلب لبني إسرائيل، وأما الظعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان

(١) عيل صبره: نفذ وانتهى.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٣٠.

بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطار الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم، وإلا ألقىته عليكم فأخذوا التوراة معذرين. فرده الله تعالى إلى موضعه فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>. وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء فشجرة اليفطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى: ﴿وَالصَّبْحُ إِذَا تَنَفَّسْتُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وأما اليوم فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمس، وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾<sup>(٣)</sup> ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال: تمم الله عليك، ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

وحكي أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القبيش عن مسائل يمتحنه فيها، من جملتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقههم في الدين، وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهاتين، وأطمعهم للمساكين، قال: فمن ألام الناس؟ قال: المعطي على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحييف. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف، المتقبض عن الزخوف، المرتعش عند الوقوف، المحب لظلال السقوف، الكاره لضرب السيوف. قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتضن في ثيابه، المضمين<sup>(٤)</sup> بالسلام، المهذار<sup>(٥)</sup> في الكلام، المقبب<sup>(٦)</sup> على الطعام، قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحساناً. وأقومهم ميزاباً<sup>(٧)</sup>، وأدومهم غفراناً، وأوسعهم ميداناً، قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسب هو، أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير، إن الرجل الحسيب يملك أدبه، وعقله وشمائله، وعزة نفسه، وكثرة احتماله وبشاشته، وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهره، فتتله كمثل الدرة، إذا وقعت عند من لا يعرفها، ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة، فقال الحجاج: لله أبوك فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هنراً، ولا ينظر شزراً، ولا يضمر غدرأً، ولا يطلب غدرأً، والجاهل هو المهذار في كلامه، المتأن بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه، قال: لله أبوك فما للحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بآرائه، الملتصق إلى ورائه، قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمر إني بشأنهن خير، إن شاء الله تعالى؛ إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الاصلاح، إن عدلتها انكسرت، ولهن

(١) سورة: الأعراف، الآية: ١٧١.

(٢) سورة: التكويد، الآية: ١٨.

(٣) سورة: الإسراء، الآية: ١٢.

(٤) الضنين: البخيل.

(٥) المهذار: كثير الكلام في غير نفع.

(٦) المقبب على الطعام: الذي يجتمع فوق الطعام بكتفه.

(٧) الميزاب: قناة للماء والأولى أن تكون: ميزان بالنون.

جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن، وقرت عينه، ومن شاورهن، كدرن عيشه، وكدرت عليه حياته وتنفست لذاته، فأكرمهن أهنهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها، فهن أنتن من الجيفة. فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وأفداً فماذا أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يريد به ويؤذيه ويضنيه. فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت، وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجره في ميداني.

قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان. فما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه، أي جاسوساً وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث، قال له: إن الحجاج قد همّ بخلمك، وعزلك فخذ حذرك، وتغدى به، قبل أن يتعشى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنوية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعاً فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرمضاء فضرب قبه فيها، وحط عن رواحله، فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر، وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظمى ظمأ شديداً فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها، وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟ قال: أصابتي الرمضاء، وشدة الحر والظما، فتيمنت بقبتك أرجو بركتها. قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتها تعني؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث، قال: تلك لا يوصل إليها، قال: إن هذه أمتع منها، فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ. فقال: وما تعطي. قال: أكره أن يكون لي اسمان، قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض، قال: فأين تريد؟ قال: أمشي في منابها. فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة. فقال يا هذا إنذني لي أن أدخل قبتك. قال: خلفك لوسع لك. فقال: قد أحرقتني حر الشمس. قال: ما لي عليها من سلطان. فقال الرمضاء أحرقت قدمي. قال: بل عليها تبرد. فقال إني لا أريد طعامك ولا شرابك. قال: لا تعرض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك. فقال الأعرابي: سبحان الله. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك. فقال الأعرابي: ما عندك غير هذا؟ فقال: بلى هراوة أضرب بها رأسك. فاستغاث الأعرابي: يا جار بني كعب. قال الغضبان: بشن الشيخ أنت هراوة ما ظلمك أحد فتستغيث. فقال الأعرابي: ما رأيت رجلاً أفسى منك، أتيتك مستغيثاً فنجبتني وطردتني هلاً أدخلتني قبتك وطارحتني القريض. قال: ما لي بمحادثتك من حاجة. فقال الأعرابي: بالله ما اسمك ومن أنت؟ فقال: أنا الغضبان بن القبيشري. قال: اسمان منكران خلقاً من غضب. قال: قف متوكئاً على باب قبتي برجلك هذه العوجاء. فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنماء. قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة، ورجلك في الرمضاء قائمة. فقال الأعرابي: إني لا أظنك حرورياً. قال: اللهم إجعلني ممن يتحرى الخير ويربده. فقال: إني لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما أقدرني على إصلاحه. فقال الأعرابي: لا أرضاك الله ولا حياك. ثم ولى وهو يقول:

لا باركَ اللهُ في قومِ تسودهم  
إنسي أظنك والرحمن شيطاننا  
أتيت قبتَهُ أرجو ضيافتهُ  
فاظهرَ الشيخُ ذو القرنين حرماننا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي، قال له

الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا، وإن قتلوا ضاعوا. فقال له الحجاج: أأنت صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الأشعث تَعَدُّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك، فوالله لأحبسك عن الوساد ولأنزلتك عن الجياد، ولأشهرتك في البلاد. قال: الأمان أيها الأمير فوالله ما ضرت من قيلت فيه، ولا نفعت من قيلت له. فقال له: ألم أقل كأنني بصوت جلالك تجلجل في قصري هذا، اذهبوا به إلى السجن. فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله. ثم إن الحجاج ابنتي الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة، قليل عيبها كثير خيرها. قال: لِمَ لَمْ تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان. فبعث إلى الغضبان فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك، لا لك ولا لولدك، لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بياق. فقال الحجاج: قد صفق الغضبان رده إلى السجن، فلما حملوه قال: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾<sup>(١)</sup>. فقال: أنزلوه. قال: ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾<sup>(٢)</sup>. قال: اضرخوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض، قال: ﴿منها خلقتكم وفيها نعيديكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾<sup>(٣)</sup>. فقال: جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾<sup>(٤)</sup> فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثاً، ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلقى سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أخذت. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له في الكلام؟ فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ونستمع الله لحياطة ديننا ودينانا، ورعاية أدياننا وأقناننا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيل الأذى بأسماعتنا وأبصارنا، فإن الحق لا تغفو آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا يبتت حبله ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده والأمين على بلاده.

يا أمير المؤمنين، هذا المقام مقام العائد بظلك، الهارب إلى كتفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من تعاود النوائب، وسهام المصائب، وكلب الدهر وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفاد منها نعم آياته الطيبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامي هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين، وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور من كل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً<sup>(٥)</sup> إليك بالطاعة التي أفرغ عليها غصني واحتنكت<sup>(٦)</sup> بها سني، وريش بها جناحي متعوذاً من شماتة الأعداء وحلول البلاء ومقارفة الشدة بعد الرخاء.

(١) سورة: الزخرف، الآية: ١٣.

(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ٢٩.

(٣) سورة: طه، الآية: ٥٥.

(٤) سورة: هود، الآية: ٤١.

(٥) مزدلفاً: مقرباً.

(٦) احتنكت: من الحنكة والخبرة.

يا أمير المؤمنين، قد مضى جلدك المنصور، وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، أن الدهر ذو اغتيال قد يقلب حالاً بعد حال، فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والمعجزة الكبار الذين سقاهم الدهر كدرأ بعد صفو، ومرأ بعد حلو، وهبنا نعم آباتك اللاتي غدتنا صغاراً، وكباراً، وشباباً، وأشياخاً، وأمشاجاً<sup>(١)</sup> في الأصلاب، ونطقاً في الأرحام، وقدمنا في القرابة، حيث قدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابتنا قد ذلت لسخطك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عشرتنا.

يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهل بك الوعور، وجلا بك الديجور<sup>(٢)</sup> وملا من خوفك القلوب والصدور، بل يردع الفاسق، ويقمع بك المناق، فارتبط نعم الله عندك بالعمو والإحسان، فإن كل راع مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها.

يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر، وقد قال الله جل ثناؤه وتعاليت قدرته: ﴿وليمفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾<sup>(٣)</sup> أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي، ومنعه الكافي ثم أشد يقول:

أمر المؤمنين أتاك ركب	لهم قريى وليس لهم تلاًد
هم الصدر المقدم من قريش	وأنت الرأس تبعك العباد
لقد طابت بك الدنيا ولذت	وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عيّن	وكيف يقلل سوددك البلاد

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة، والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه، وقرب منزله وأدناه ودفع إليه من المال ما أغناه.

ومن حكايات الفصحاء ونوادير البلغاء: ما حكى أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرتة فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه، وله علي ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين أنف. بطن. ترقوة. ثغر. جمجمة. حلق. خد، دماغ. رقة. زند. ساق. شفة. صدر. ضلع. طحال. ظهر. عين. غيب. فم. قفا. كف. لسان. منخر. نغونغ. هامة. وجه. يد. وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين. فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين. فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمع ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير لنا أقولها ثلاثاً. فقال: هات ولك ما يتمناه. فلبتاً يقول: أنف، أسنان، أذن. بطن، بنصر، بزة، ترقوة، تمر، تبة. ثغر، ثنايا، ثدي، جمجمة، جنب، جبهة. حلق، حنك، حاجب. خد، خنصر، خاصرة، دبر، دماغ، درادير. قن، ذكر، ذراع. رقة، رأس، ركة. زند، زردمة، زب. فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه. ساق، سر، سبابة. شفة، شفر، شارب. صدر، صدغ، صلعة، ضلع، ضفيرة، ضرس. طحال، طرة، طرف.

(١) الأمشاج: الأشياء المختلطة.

(٢) الديجور: الظلمة.

(٣) سورة: النور، الآية: ٢٢.



ظهر، ظفر، ظلم. عين، عتي، عاتق. غيب، غلصمة، غنة. فم، فك، فؤاد. قلب، قفا، قدم. كف، كف، كعب. لسان، لحية، لوح. منخر، مرفق، منكب. نغزغ، ناب، هن. هامة، هيئة، هيف. وجه وجنة، ورك. يمين، يسار، يافوخ. ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعدتها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازته وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه<sup>(١)</sup> وإسرافه جواداً، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خوان<sup>(٢)</sup> وكان يطوف على الموائد، ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لثلاث يعمود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم، وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامي، فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم: الشمس إذا طلعت، وعند المساء إذا غربت.

وحكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته، وأولي النجدة من جنده، وقال: أيها الناس إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عندها<sup>(٣)</sup> وعظم خطبها، وظهر صرامها<sup>(٤)</sup>، وعسر إخماد نيرانها، فهل من م مهد لهم سيف قاطع، وذهن جامع وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلاتها، وينصف مظلومها ويداري الجرح حتى ينمل فتصفو البلاد، وتأمين العباد. فسكت القوم ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزير الهشام، أنا الحجاج بن يوسف، قال: ومن أين؟ قال: من تقيف كهوف الضيوف، ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك فلست هناك، ثم قال: مالي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقة؟ فلم يجبه أحد. فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجتدل الفساق ومطفئ نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف، معدن العفو العقوبة، وآفة الكفر والريية. قال: إليك عني، وذلك فلست هناك، ثم قال: مَنْ للعراق فسكت القوم وقام الحجاج، وقال: أنا للعراق. فقال: إذن أظنك صاحبها، والظافر بفنائمها، وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاعتذار، والبسط والازورار، والإدناء والإبعاد، والجفاء والبر، والتأهب والحزم، وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعت، ومن نازعني قصمت، ومن خالفني نزعته، ومن دنا مني أكرمت، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني، فإن كنت للأعتاق قطاعاً، وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك في الأشياء نفاعاً، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن مَنْ يقوم بهذا الأمر قليل. فقال عبد الملك: أنت لها فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال. فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هنيء له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحلزمهم مخالفته. ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق.

(١) العتو: الإسراف في الجبروت.

(٢) الخوان: ما يوضع عليه الطعام.

(٣) املولح عندها: تكدر وصار مالحاً.

(٤) الصرام: القطيعة.

قال عبد الملك بن عمير: بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة، إذا أتانا أنت، فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق. فتناولت الأعناق نحوه، وأخرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء، متلثماً بها، ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة، وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته، ومواليه وأتباعه عليهم الخبز، والديباج. قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: أكف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون، ويستعملون مثل هذا على العراق، وضبح الله العراق حيث يكون هذا أميراً. فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء. والحجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً. فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئاً، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير. فكشف عن لثامه ونهض قائماً، فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطانها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء تفرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم<sup>(١)</sup> عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلها مكسراً فرماكم بي، لأنكم طالما أترتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات<sup>(٢)</sup> والجماعات، وقيل قال، وكان ويكون. يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها غداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوقروا واستقيموا، واعملوا ولا تملوا، وتابعوا ويابعوا، واجتمعوا واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار، إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم. ثم إني وجدت الصدق مع البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين بعد إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني لأقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين. قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم. فلم يرد أحد شيئاً، فقال الحجاج: أكف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه، هذا أدبكم الذي تأدبتم به، وأما والله لأؤدبكن أدباً غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام. قرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم، فجمعوا يأخذونها، حتى أتاه شيخ يرعش فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار، أفضله بدلاً مني؟ فقال: تقبله أيها الشيخ. فلما ولي قال له قاتل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا عمير بن صابئ الذي يقول:

هممت ولم أفعل وكسدت وليتني      تركت علي عثمان تبكي حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطيء في بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه. فقال

(١) عجم: اختير.

(٢) الزرافات: التجمعات.

الحجاج: ردوه، فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمر المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار، إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين، يا سياف اضرب عنقه، فضرب عنقه. وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر.

ومن حكايات الحجاج: ما حكى أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق<sup>(١)</sup> عليه وكتب إليه: أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقود<sup>(٢)</sup>، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه، فإن كنت أردت الناس لي فما أغثاني عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغثاك عنهم، وسيأتيك عني أمران، لين وشدة فلا يؤمنك إلا الطاعة، ولا يوحشك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر، فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها	وتطلب رضائي بالذي أنا طالبة
فإن ترمني غفلة قرشية	فيا ربما قد غص بالماء شارب
وإن ترمني وثبة أموية	فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمّة	فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه
فلا تعد <sup>(٣)</sup> ما يأتيك مني وإن تعد	يقمن به يوماً عليك نوابه
فلا تمنعن الناس حقاً علمته	ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك إن تعطي الحقوق فإنما	النوافل شيء لا يثيبك <sup>(٤)</sup> واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلي العصاة إسرافاً، وإعطائي المطيعين تبذيراً، فليضمن لي أمير المؤمنين ما سلف. والله ما أصبت القوم خطأ فأديهم، ولا ظلمتهم عمداً فأقاد بهم، ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي	أذاك فليلي لا تُوازي <sup>(٥)</sup> كواكبنة
وما لامرئ بعد الخليفة جنة <sup>(٦)</sup>	تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة	لقامت عليه بالصباح نوابه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصح	واقصي <sup>(٧)</sup> الذي تسري إليّ عقاربه

(١) شق عليه: عزّ عليه وصعب الأمر.

(٢) القود: القصاص.

(٣) تعد: تحدى وتتجاوز.

(٤) يثيبك: يوجرك، يجازيك.

(٥) توازي: تخفى.

(٦) جنة: وقاية وستر.

(٧) اقصي: أبعد.

وأعطى المواسي في البلاء عطية  
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي  
وأمرني إليك اليوم ما قلت قلته  
ومهما أردت اليوم مني أردته  
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه  
وإلا فدعني والأمور فلإنني  
لرد الذي ضاقت عليّ مذاهبه  
ويخشى غدا والدهر جم نوابه  
وما لم تقله لم أقل ما يقاربه  
وما لم ترده اليوم إنني مجانبه  
مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه  
شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك. قال: خاف أبو محمد صولتي ولن يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فلمن يلومني على محبته. يا غلام أكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك. وفي مروج الذهب للمسعودي: أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام ولدته مشوهاً لا دبر له، فقتب له دبر، وأبى أن يقبل الثدي، وأعيامهم أمره فيقال إن الشيطان تصور له في صورة الحارث بن كلدة حكيم العرب، فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله. فقال لهم: اذهبوا له تيساً، وألقوه من دمه وأولغوه فيه ثم أطلوا به وجهه. ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه، أن أكبر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحارث بن كلدة، فدخل عليها يوماً في السحر فوجدها تخلخل أسنانها، فطلقها فسألته لم فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرمة، وإن كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة. فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك. فقال: قضي الأمر. فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج.

وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات له ثلاث وخمسون سنة وكان من عطف السياسة، وثقل الرطاة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل، على ما لا يبلغه وصف. أحصي من قتله الحجاج بأمره، سوى من قتله في حروبه، فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد. وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت. وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وفاسقها، وجننا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم.

وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم، وما أعان الله تعالى عليه واستحضرت من أخبارهم، وأنا قائل، إن شاء الله تعالى ما استحضرت من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان.

### ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكى عن أبي عبد الله النيمري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية<sup>(١)</sup> القد، قاعدة النهر كأنها القمر ليلة تمامه، ويدها قرية قد ملأها ماء وحملتها

(١) خماسية القد: طويلته (أي خمسة أشبار حوالى ٦٥ سم).

على كنفها وصعدت من حافة النهر، فأنحلت وكاؤها<sup>(١)</sup> فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاهما، قد غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القرية من يدها. فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب. قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام، غير لثام يقرون<sup>(٢)</sup> الضيف، ويضربون بالسيف. ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم، قال لها: أنا من مضر الحمراء. قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حساباً، وخيرها أمأ وأباً، ممن تهابه مضر كلها. قالت: أظنك من كنانة. قال: أنا من كنانة. قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً<sup>(٣)</sup>، وأطولها في المكرمات بدأ ممن تهابه كنانة وتخافه. فقالت: إذن أنت من قريش. قال: أنا من قريش. قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم. قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه. قال: فعند ذلك قبلت الأرض وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً، وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاقته العساكر فتزل هناك وأنفذ خلف أيها وخطبها منه فزوجه بها، وأخذها وعاد سروراً. وهي والدة ولده العباس والله أعلم.

وحكي أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حُسْنُها فأنفذ إليها يخطبها ويذل لها مالاً جزيلاً وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم، ودخل بها. ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة، وكانت هند فصيحة أدبية، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرأة وتقول:

وما هندُ إلا مهرة عريية      سليلة أفراس تحلُّها بغلُ  
فإن ولدت فحلاً فله دؤها      وإن ولدت بغلاً فجاء به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به. فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه. وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا ترد عليهما. فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنت قبنت<sup>(٤)</sup> وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله. فقالت: اعلم يا ابن طاهر، إنا والله كنا فما حمدنا، وبتنا، فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها، بشارة لك بخلاصي من كلب بني قتيب.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف لها جمالها، فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه الكلب. فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك

(١) الوكاه: ما يشد به رأس القرية.

(٢) القرى: إكرام الضيف.

(٣) المحتد: الأصل.

(٤) بنت: بنتت ويقصد طلاقها.

من قولها وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناه أحدكم فليغسله سبعاً، إحداهن بالتراب فاغسلي الإناء يحل الاستعمال. فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه: يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحلبته التي كان فيها أولاً. فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك. فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب، وامتل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت وسار الحجاج في موكبته حتى وصل المعرة ببلد هند. فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواربها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها، فجعلت هند تتواغد<sup>(١)</sup> عليه، وتضحك مع الهيفاء دابتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي لي سجن<sup>(٢)</sup> المحمل<sup>(٣)</sup> فكشفته، فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة      تركت فيها كالبقاء المفرج<sup>(٤)</sup>  
فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت      بما فقدناه من مالٍ ومن نسبٍ  
فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ      إذا النفوس وقاها الله من عطبٍ

لم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة. فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم، قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله ديناراً، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان، وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا، ولكن اقتصر على القليل منه، إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملها وقال لمولاها: خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها، وخسب أنفها لاشتريها. فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول. فقال: قولني. فأنشدت تقول:

ما سلم الظبي على حسنه      كلا ولا البدر الذي يوصفُ  
الظبي فيهِ خنسٌ يئسُّ      والبدر فيهِ كلفٌ يُعرفُ  
قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها.

وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة في الجمال، فاتفق في الكمال غير أنها كانت تخرج برجلها، فقال لمولاها: خذ بيدها وارجع، فلولا عرج بها لاشتريتها. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

(١) تتواغد: تقوم بحركات هازئة.

(٢) السجن: الطرف. وهو هنا قريب من السائر.

(٣) المحمل: الهودج.

(٤) البقاء المفرج: الثوب مشقوق الطرف.

ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوماً تحت جوسق<sup>(١)</sup> ببستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار له، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة في جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز: هذا جواب رقعة، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباه متحيراً في ذلك. قالت له: يا أبت أنا علمت معناه قال: ما هو الله درك؟ قالت:

أهدت لك العنبرَ في جوفه      زرّ من التبرِ خفيّ اللحم  
فالزرُّ والعنبرُ معناهما      زر هكذا مختفياً في الظلام

وحكى إن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل. فقال: لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون<sup>(٢)</sup>. فقالت: ولم لا نكتني وكسرت الفعل. فضحك عليها وقال: أفعال إن شاء الله: فخرجت من قوله، وتغير وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض. قال نعم. قالت قطع لي:

حولوا عتاً كنيتكم      يا بني حمالة الحطب

فقطعه فوقف على عن، ثم ابتداء بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت بشارك.

وحكى أن شاعراً كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق، إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له: يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا قتلتني امض إلى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البتان إن أباكما. فقال سمعاً وطاعة. ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال: ألا أيها البتان إن أباكما. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البتان إن أباكما. أجابته بغم واحد، قتيل خذا بالثار ممن أتاكما<sup>(٣)</sup>. ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره، فأقر بقتله، فقتله والله أعلم.

وقيل بينما كبير عزة ماراً بالطريق يوماً، إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها: تنحي عن الطريق. فقالت له: ويحك، ومن تكون؟ قال: أنا كبير عزة، قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحي له عن الطريق، قال: ولم؟ قالت: ألسنت القاتل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى      يمجُ الندى جثجاها وعرارها<sup>(٤)</sup>  
بأطيب من أردان<sup>(٥)</sup> عزة موهنا      إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

(١) الجوسق: القصر.

(٢) تكتنون: تتخلون الكواتين (الأفران).

(٣) هذا شطر البيت الذي بدأه والدهما كما ترى.

(٤) الجثجاها والعرار: من نباتات طيبة الريح.

(٥) الأردن مفرداً ودرن: الكم.

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ربحها. لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس:  
وكننت إذا ما جئت بالليل طارقاً  
وجللت بها طيباً وإن لم تطيب  
فقطعته ولم يرد جواباً.

وقيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت  
الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزراءك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبي؟ قالت: فرعون، استشارهم  
في موسى عليه السلام فقالوا ارجعه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها:  
الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه. فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

وحكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله  
عنه الخلافة بلغه أن أصدقة<sup>(١)</sup> أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على علي بن  
أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم. فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق  
البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها. فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهور  
النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين. فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في  
يدها طول فقالت له: كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول: ﴿وَأْتِمُمْ أَعْدَابَكُمْ قُنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾<sup>(٢)</sup> فقال عمر  
رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وقيل جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت: يا أمير  
المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل. فقال لها: نغم الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً  
قال: يا أمير المؤمنين إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباحته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها أحكم  
بينهما. فقال كعب: علي بزوجها. فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك. قال: أفني أمر طعام أم شراب؟ قال: بل  
في أمر مباحته إياها عن فراشك. فأنشأت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيم أنشد  
نهاره وليله لا يرقده  
ألهي خليلي عن فراشي مسجده  
فلمت في أمر النساء أحمده  
فأنشأ الزوج يقول:

زهدني في فرشها وفي الحلل  
في سورة النمل وفي السبع الطول  
ألني أسروا أذهلني ما قد نزل  
وفي كتاب الله تخويف يجمل  
فقال له القاضي:

إن لها عليك حقاً لم يزل  
في أربع نصيها لمن عقل  
فماطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثني، وثلاث، ورباع أفلك ثلاثة أيام بلياليهن. لها يوم ولية. فقال

(١) مفردتها صداق: وهو المهر.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٢٠.



عمر رضي الله عنه: لا أدري من أيكم أصعب، أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟ أذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلمة بالقرآن: قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق، إذ أنا بسواد على الطريق فتميزت ذلك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف، وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقالت: «سلامٌ قولاً من رب رحيم»<sup>(١)</sup> قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: «مَنْ يَضِلُّ اللهُ فلا هاديَ له»<sup>(٢)</sup> فقلت أنها خالة عن الطريق. فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: «سبحانَ الذي أمرني ببيته ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»<sup>(٣)</sup> فقلت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس. فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: «ثلاث ليالٍ سوياً»<sup>(٤)</sup> فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين. قالت: «هو يطعمني ويسقين»<sup>(٥)</sup> فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: «فلم تجلوا ماءً فتجمؤا جميعاً طياً»<sup>(٦)</sup> فقلت لها: إن معي طعاماً فهل لك في الأكل؟ قالت: «ثم أتوا للصيام إلى الليل»<sup>(٧)</sup> فقلت: ليس هنا شهر رمضان، قالت: «مَنْ تَطَوَّعَ خيراً فإن الله شاكراً عليهم»<sup>(٨)</sup> فقلت: قد أبيع لنا الإفطار في السفر. قالت: «وأن تصوموا خيراً لكم إن كنتم تعلمون»<sup>(٩)</sup> فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلمك. قالت: «ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد»<sup>(١٠)</sup> فقلت فمن أي الناس أنت؟ قالت: «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»<sup>(١١)</sup> فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل. قالت: «لا تريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم»<sup>(١٢)</sup> فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة. قالت: «وما فعلوا من خير يعلمه الله»<sup>(١٣)</sup> قال: فأنخت ناقتي. قالت: «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم»<sup>(١٤)</sup> فنفضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: «وما أصابكم من مصيبةٍ فيما كسبت أيديكم»<sup>(١٥)</sup> فقلت لها: اصبري حتى أعقلها. قالت: «فقهمناما سليمان»<sup>(١٦)</sup> فقلت الناقة وقلت

- (١) سورة يس، الآية: ٥٨.
- (٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.
- (٣) سورة الإسراء، الآية: ١.
- (٤) سورة مريم، الآية: ١٠.
- (٥) سورة الشعراء، الآية: ٧٩.
- (٦) سورة النساء، الآية: ٤٣.
- (٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
- (٨) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.
- (٩) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.
- (١٠) سورة ق، الآية: ١٨.
- (١١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
- (١٢) سورة يوسف، الآية: ٩٢.
- (١٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
- (١٤) سورة النور، الآية: ٣٠.
- (١٥) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
- (١٦) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

لها: اركبي. فلما ركبت، قالت: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾<sup>(١)</sup> قال: فأخذت بزمام<sup>(٢)</sup> الناقة وجعلت أسمى وأصيح. فقالت: ﴿واقصد في مشيك وأغضض من صوتك﴾<sup>(٣)</sup> فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: ﴿فاقرعوا ما تبغى من القرآن﴾<sup>(٤)</sup> فقلت لها: لقد أوتيتم خيراً كثيراً ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾<sup>(٥)</sup> فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾<sup>(٦)</sup> فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة. فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾<sup>(٧)</sup> فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج؟ فقالت: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾<sup>(٨)</sup> فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب، والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾<sup>(٩)</sup> ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾<sup>(١٠)</sup> ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾<sup>(١١)</sup> فتأديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأعمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فلبسوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم بوزق منه﴾<sup>(١٢)</sup> فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾<sup>(١٣)</sup> فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها. فقالوا: هذا آمناء، لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء. فقلت: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾<sup>(١٤)</sup> والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

- (١) سورة: الزخرف، الآية: ١٣ - ١٤.
- (٢) الزمام: المقود.
- (٣) سورة: لقمان، الآية: ١٩.
- (٤) سورة: المزمل، الآية: ٢٠.
- (٥) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٩.
- (٦) سورة: المائدة، الآية: ١٠١.
- (٧) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.
- (٨) سورة: النحل، الآية: ١٦.
- (٩) سورة: النساء، الآية: ١٢٥.
- (١٠) سورة: النساء، الآية: ١٦٤.
- (١١) سورة: مريم، الآية: ١٢.
- (١٢) سورة: الكهف، الآية: ١٩.
- (١٣) سورة: الحاقة، الآية: ٢٤.
- (١٤) سورة: الجمعة، الآية: ٤.

## الباب الثامن: في الأجوبة المسكنة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله:

معنُ بنُ زائدةَ الذي زادَتْ به      شرفاً على شرفِ بنو شيان  
فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً      بالسيفِ دون خليفةِ الرحمنِ  
فمنعتُ حوزته<sup>(١)</sup> وكنت وقاءه<sup>(٢)</sup>      من وقحِ كلِّ مهتدٍ وسنان<sup>(٣)</sup>

فقال: أحسنت والله يا معن، وأخر له بالجوائز والخلع. ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيباً فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا متُّ فادفني إلى جنب كرمة      تروي عظامي بعد موتي عروقها  
ولا تدفنتي في الفلاة فإنتي      أخافُ إذا ما متَّ أن لا أذوقها  
قال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته      وسائل الناس ما جودي وما خلقي  
أعطي الحسام غداة الروح<sup>(٤)</sup> حصته      وعامل الرمح أرويه من العلق  
وأطمئن الطعنة النجلاء<sup>(٥)</sup> عن عرضي      وأكتم السرَّ فيه ضربةَ الثُّنقي  
ويعلمُ الناسُ أنني من سراتهم<sup>(٦)</sup>      إذا سما بصرُّ الرعيدِ بالفرقي<sup>(٦)</sup>

فقال له معاوية: أحسنت والله ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شيبب الحارثي فقال له: ألت القاتل:

ومنا شريدٌ والبطيئُ وقعنِبُ      ومنا أميرُ المؤمنين شيبُ

- (١) حوزته: ناحيته وما ضم.
- (٢) السنان: الرمح أو الحاد من رأسه.
- (٣) الروح: الخوف وهنا المعركة.
- (٤) النجلاء: الكيرة الواضحة.
- (٥) سرة القوم: أشرافهم ونبلاؤهم.
- (٦) الرعيد: الجبان، والفرق: الخوف.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداة لك فكان ذلك سبباً لتجأته. ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً فقال له معاوية: إنك لدميم، والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور، والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت، فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب، والسلام خير من الحرب، وإنك لابن أمية، وما أمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين ثم خرج وهو يقول:

أَيْشْتُمْنِي مَعَاوِيَةَ بِنُ حَرْبٍ      وَسَيْفِي صَارَ مَعِي لِسَانِي  
وَحَوْلِي مَن ذَوِي يَزْنَ لِيوْتُ      ضَرَاغِمَةٌ تَهْتَشُّ إِلَى الطَّعَانِ  
يَعِيرُ بِالدَّمَامَةِ مَن سَفَاهِ      وَرِيَاةُ الْحِجَالِ<sup>(١)</sup> مَن الْغَوَانِي

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج، على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج. فقال له سليمان: قبح الله رجلاً أجرك رسنه<sup>(٢)</sup>، وأولاك أمانته. فقال: يا أمير المؤمنين رأيتني، والأمر لك، وهو عني مدبر. فلو رأيتني وهو عليّ مقبل، لاستكبرت مني ما استصغرت، واستعظمت مني ما استحققت. فقال سليمان: أترى الحجاج استقر في جهنم. فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذل لكم الجبابرة، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك، وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

وقال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلى خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم؟ قال علي كرم الله وجهه: ولم أنتم لم تجفأ أقدامكم من البلل حتى قلتم ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>. ووجد الحجاج على منبره مكتوباً. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾<sup>(٤)</sup> فكتب تحته: ﴿قُلْ مَاتُوا بِنَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾<sup>(٥)</sup> ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم فقال له عقيل: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم<sup>(٦)</sup>.

وقيل: اجتمعت بنو هاشم يوماً عند معاوية فأقبل عليهم وقال: يا بني هاشم، إن خيرني لكم لمنوح، وإن بابي لكم لمفتوح، فلا يقطع خيرني عنكم، ولا يرد بابي دونكم، ولما نظرت في أمري وأمركم، رأيت أمراً مختلفاً، إنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم، قلتم أعطانا دون حقنا، وقصّر بنا عن قدرنا. فصرت كالمسلوب لا حمد له، هذا مع إنصاف قائلكم، وإسعاف سائلكم. قال: فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك، فخير الله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا باباً لنكفرن أنفسنا عنك، وأما هذا المال، فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين، ولو لاحقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف، ولا حافر، أكفأك أم أزيدك؟ قال: كفاني يا ابن عباس. وقال

(١) ربات الحجال: النساء،

(٢) الرسن: ما يقاد به الدواب.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٤) سورة: الزمر، الآية: ٨.

(٥) سورة: آل عمران، الآية: ١١٩.

(٦) البصيرة: البصر القلبي أو الذهني.

معاوية يوماً: أيها الناس إن الله حبا<sup>(١)</sup> قريشاً بثلاث فقال لنييه ﷺ ﴿وأنذر عشيرتک الأقرین﴾<sup>(٢)</sup> ونحن عشيرته الأقرين. وقال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾<sup>(٣)</sup> ونحن قومه. وقال تعالى: ﴿لإيلاف قريش \* إيلافهم﴾<sup>(٤)</sup> ونحن قريش. فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول: ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾<sup>(٥)</sup> وأنتم قومه. وقال تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾<sup>(٦)</sup> وأنتم قومه. وقال تعالى ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾<sup>(٧)</sup> وأنتم قومه، ثلاثة بثلاثة ولو زدنا لزدناك. وقال معاوية أيضاً لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، فقال: أجهل من قومي قومك الذين كانوا حين دعاهم رسول الله ﷺ ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾<sup>(٨)</sup> ولم يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

وقال يوماً لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية. فقال: ما كان أهونك على قومك إذا سموك معاوية، وهي الأنثى من الكلاب قال: اسكُتْ لا أم لك. قال: أم لي ولدتي، أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة<sup>(٩)</sup>، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيتنا سمعاً وطاعة، فإن وفيت لنا، وفينا لك، وإن نزعت إلى غير ذلك، فإننا تركنا وراءنا رجلاً شداداً، حداداً<sup>(١٠)</sup> فقال معاوية: لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية. فقال له: قل معروفاً فإن شر الدعاء محبط بأهله.

وخطب معاوية يوماً فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾<sup>(١١)</sup> فعلام تلوموني إذا قصرت في عطايكم. فقال له الأحنف: وأنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله، ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلّت بيننا وبينه. وقيل دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام وكان بغير منترز، فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، وكان في الحمام فغمض عينيه، فقال له المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يوماً متترهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال: كيف ترون عمالكم. قال: شر عمال،

- (١) حبا: أعطى ومسح.
- (٢) سورة: الشعراء، الآية: ٢١٤.
- (٣) سورة: الزخرف، الآية: ٤٤.
- (٤) سورة: قريش، الآيتان: ١ - ٢.
- (٥) سورة: الأنعام، الآية: ٦٦.
- (٦) سورة: الزخرف، الآية: ٥٧.
- (٧) سورة: الفرقان، الآية: ٣٠.
- (٨) سورة: الأنفال، الآية: ٣٢.
- (٩) عنوة: إخضاعاً بالقوة.
- (١٠) حداداً: حادين شليبين.
- (١١) سورة: الحجر، الآية: ٢١.

يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: كيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولي العراق شر منه، قبحه الله، وقبح من استعمله. قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج. قال: جعلت فداك، أو تعرف من أنا؟ قال: لا. قال: أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل، أصرع في كل يوم مرتين. قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

وقال رجل لصاحب منزل: أضلِّحْ خشب هذا السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح. قال: إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد. وقالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنعم، وأما طيب فلا. وقال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به. قال: فإن عدمه؟ قال: أدب يتحلى به. قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره. قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد. وتبأ رجل في زمن المنصور، فقال له المنصور: أنت نبي سفلة، فقال: جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله.

ومن الأجوبة المسكنة المستحسنة، ما ذكر أن إبراهيم مغني الرشيد غنى يوماً بين يديه فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يحسن الله إليّ بك فأمر له بمائة ألف درهم. وقال رجل لبعض العلوية: أنت بستان، فقال العلوي: وأنت النهر الذي يسقى منه البستان. وذبحت عائشة رضي الله عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كسفاً فقال لها النبي ﷺ: «ما عندك منها» فقالت: ما بقي منها إلا كسف، فقال: «كلها بقي إلا كسفاً»<sup>(١)</sup>. وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء: كيف الحال؟ قال: أنت الحال، فانظر كيف أنت لنا. فأمر له بمال جزيل، وأحسن صلته. وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون فخرج المأمون ليلة، يتفقد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال عمرو، عمرك الله، ابن سعد، أسعدك الله، ابن سالم سلمك الله. قال: أنت تكلؤنا الليلة، قال: الله يكلؤك يا أمير المؤمنين وهو «خير حافظاً وهو أرحم الراحمين»<sup>(٢)</sup> فقال المأمون:

إن أخوا الهيجاء من يسعى معك      ومن يضمر نفسه ليتمعّبك  
ومن إذا ربُّ الزمان صدعك      شئت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار. وقال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت. قال المعصم للفتح بن خاقان وهو صبي صغير: رأيت يا فتح أحسن من هذا الفص<sup>(٣)</sup>، لفص كان في يده. قال: نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو فيها أحسن منه. فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة. وقيل: إن رجلاً سأل العباس رضي الله عنه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله. وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي: أنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين سعيد، وأنا ابن أنس. وقال الحجاج للمهلب، وهو يماشيه: أنا أطول، أم أنت؟ قال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة، أراد الطول، وهو الفضل.

والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها، ولكني اقتصر على هذا، وأوجزت، وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية.

(١) أي في سجل الحسنات.

(٢) سورة: يوسف، الآية: ٦٤.

(٣) الفص: حجر يزين الخاتم، ويطلق عليه كله.

## الباب التاسع: في ذكر الخطب والخطباء والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله، وأنتم في مهل بادروا الأجل، ولا يغرنكم الأمل، فكأنني بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيث أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي، بجسده البالي، فهو في التراب عفير<sup>(١)</sup>، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحداً يخطيء إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطيء، ما خلا زياداً فإنه لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً.

وخطب علي رضي الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجا النجا والوفا الوفا<sup>(٢)</sup>، فإن وراءكم طالباً حثيثاً وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان، ألا وإن وراء ذلك اليوم، يوماً أشد منه، يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، ﴿تَلَحُّلُ كُلِّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾<sup>(٣)</sup> ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه، فيه نار تسعر، حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة. قال فبكى المسلمون بكاء شديداً. ثم قال وإن وراء ذلك اليوم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٤)</sup> أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

وخطب: الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث أحلام.

قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع، فاخترط من سيفه شيراً، ثم قال: أمير المؤمنين هذا. وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبي فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

(١) عفير: ملطخ بالتراب.

(٢) الوفا: السرعة والبدار.

(٣) سورة: الحج، الآية: ٢.

(٤) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٣.

## فصل: في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي، وقيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يوماً، فلم ينطق بالشعر ثم إن بني جعدة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام<sup>(١)</sup> الشعر فذل له ما استعصب عليه فقال له قومه: والله لنخنُ بإطلاق لسان شاعرنا أسراً منا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء، وليلى، فما ظنك بالرجال. وقال الخليل: الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤوا، جائر لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده. وقيل: وقد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرضت القريض<sup>(٢)</sup>؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال لا. فكتب إلى عبد الله. أبا زياد بارك الله لك في ابنك، فأروه الشعر. فقد وجدته كاملاً، وإني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، وبقي مساوئها. وتعلموا الأسباب، فرب رَجِمَ مجهولة قد وضفت بعرفان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتني إلا قول<sup>(٣)</sup>.

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي<sup>(٤)</sup>

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، وكان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، ويذل له بعض الملوك مالا جزيلاً، على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، فقيل له في ذلك. فقال: خير ما لك ما وقيت به عرضك. وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة، قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله، فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً. ولم ينطق به مؤزناً. فقال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشهد أنك رسول الله حقاً. وتلا قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾<sup>(٥)</sup>.

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأرس وشجاعها:

ما المائل والأخلاق إلا معارةً فما استطعت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

لَعَمْرُكَ ما الأيامُ إلا معارةً فما استطعت من معروفها فتزود

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب<sup>(٦)</sup>:

(١) رام: أراد وطلب.

(٢) القريض: من أسماء الشعر.

(٣) الشعر لمعرو بن الإطابة.

(٤) رواية البيت في كتب الأدب: وقولي كلما جشأت...

(٥) سورة: يس، الآية: ٦٩.

(٦) لعلة عبدة بن الطيب.



فما كان قيس هلِكْه هلك واحد      ولكنّه بيان قوم تهلّمَا  
أخذه من قول امرئ القيس:

فلو أنها نفسي تموتُ شريتها      ولكنها نفسٌ تَنَاقَطُ أنفاسا

ويقال: من سرق شيئاً واسترقه فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همّه      حصان<sup>(١)</sup> عليها عقد دُرّ يزيناها  
أخذه من قول الحطيئة، ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همّه      حصانٌ عليها لؤلؤ وشنوف

وجريز على سعة تبجره وقدترته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قوم      عيسى قوم لكان لنا الخلود

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النوان وهو:

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت      ولكن حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ:

وأمر ترجى النفس ليس بنافع      وآخر تخشى فيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجي النفس الشيء لا تستطيعه      وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدترته على الكلام يقول:

وأحسن متن نُور<sup>(٢)</sup> نغمته الصبا      يياض المطايا في سواد المطالب<sup>(٣)</sup>

أخذه من قول الأخطل:

رأيت يياضاً في سواد كأنه      يياض المطايا في سواد المطالب

ومن سقطات الشعراء ما قيل: أن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط. روي أنه لقي محمد بن مبادر بمكة فمآزحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، هنا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية. فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

(١) حصان: عصفرة.

(٢) النور: الزهر الأبيض للشجر.

(٣) الشطر الأول فيه خلل بالنظم أو تصحيف بالكتابة.

أموت الساعة الساعه

ألا يا عتبة الساعه

لقلت كثيراً ولكني أقول:

هَدَّ ركناً ما كان بالمهندود  
ما على التعش من عفافٍ وجودٍ

ابن عبد الحميد يوم توفى  
ما دَرَى نعثه ولا حاملوه

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بمشرة آلاف درهم. فكاد أبو العاتية يموت غماً وأسفاً.

وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره

ومع ذلك قال:

قصب السكر لا عظم الجمل  
غلب المسك علي ریح البصل

إنما عظم سليمى حنبي  
وإذا أدنيت منها بصلاً

هذا مع قوله:

كأن عظامها من خيزرانٍ

إذا قامت لمشيها تثنث

ومع قوله في الفخر:

وأسيافنا ليل تهاري كوايئة

كان مشارِ التمع<sup>(١)</sup> فوق رؤوسنا

ومع قوله أيضاً:

ظمنت وأبي الناس تصفو مشارية

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى<sup>(٢)</sup>

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور، وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعاني، وعلى ما في شعره من

الحكم والأمثال السائرة يقول:

إذا رأى غير شيء ظننه رجلاً

وضاقت الأرض حتى صار هارياً

وغير شيء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله ويكاد أن تمجه<sup>(٣)</sup>

الأسماع قوله:

قلاقل عيش كلهن قلاقل

تقلقت<sup>(٤)</sup> بالهم الذي لقلل الحشا

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

فبرئت حيثي من الإسلام

إن كان مثلك كان، أو هو كائن

(١) التمع: غبار المعركة.

(٢) القذى: عكر الماء وعدم صفائه.

(٣) مجته الأسماع: أنفه وعاقته.

(٤) القلقلة: ضد السكون.

ومن معانيه المروقة قوله:

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همها يوم الكريهة في الملوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع رواية جرير، ورواية كثير، ورواية جميل، ورواية الأحوص، ورواية نصيب، فافتخر كل منهم وقال صاحبي أشعر، فحكموها السيدة سكينه بنت الحسين، رضي الله تعالى عنهما، بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم. فقالت لرواية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرتك<sup>(١)</sup> صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق، قبح الله صاحبك وقبح شعره، فهلاً قال فادخلي بسلام. ثم قالت لرواية

كثير: أليس صاحبك الذي يقول:

يقر بعيني ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قررت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح أحب صاحبك أن ينكح، قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لرواية

جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلائها لِمَا فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لرواية نصيب: أليس صاحبك الذي

يقول:

أهيم بدعد ما حيث فلان أمث فواحزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا من يتمشقا بعده، قبحه الله وقبح شعره. هلاً قال:

أهيم بدعد ما حيث فلان أمث فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لرواية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ليلاً إذا نجم الشربا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلاً قال تعانقا. فلم تن على واحد منهم، وأحجم روايتهم عن جوابها، رضي الله عنها.

وروى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن العزيز، وفدت إليه الشعراء كما كانت تقد على الخلفاء

من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول، حتى قدم عدي بن أرطاة عليه، وكان منه بمكانة فتعرض له جرير

وقال:

(١) الطروق: الإتيان ليلاً.

يا أيها الرجل المزجي<sup>(١)</sup> مطيئة  
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية  
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة  
هذا زمانك إنني قد خلا زمني  
أنني لدى الباب كالمشود في قرن  
قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

قال: نعم يا أبا عبد الله. فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألستهم مسمومة، وسهامهم صائبة. فقال عمر رضي الله عنه: ما لي وللشعراء. فقال يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم. قال: صدقت فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي، قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القاتل:

ألا ليتني في يوم تلدنو منيتي  
وليت طهوري كان ريقك كله  
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي  
شممت الذي ما بين عينيك والقم  
وليت حنوطي<sup>(٢)</sup> من مشاشك<sup>(٣)</sup> والدم  
هنالك أو في جنة أو جهنم

فليت عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحاً، والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: جميل بن معمر العذري، قال أليس هو القاتل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمت  
فما أنا في طول الحياة براغب  
أظلم نهاري لا أراها وتلتقي  
يوافي لدى الموت ضريحي ضريحا  
إذا قيل قد سوى عليها صفيحها<sup>(٤)</sup>  
مع الليل روحي في المنام وروحها

والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القاتل:

رهبان مدين والذين عهدتهم  
ريسمعون كما سمعت حديثها  
خروا لعزّة ركعاً وسجوداً  
يكون من حذر الفراق قعوداً

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت، قال الأحوص الأنصاري، قال أبعده الله، والله لا دخل عليّ أبداً، أليس هو القاتل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيدها  
يفر مني بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القاتل يفتخر بالزنا في قوله:

هما دلياني من ثمانين قاماً  
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا  
كما انقضّ بأزّ لئن الريش كاسرّة  
أحبي، فيرجى أم قتيلاً نحايزة

(١) أزوجت المطية: دُفعت وسُيرت.

(٢) الحنوط: طيب للأموات.

(٣) المشاش: العظم لا مخ فيه.

(٤) الصفيح: أحجار ترصف فوق الدفين.

فقلت ارفعوا الأحراس لا يفتنوا بنا  
والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغليبي. قال: أليس هو القاتل:

ولست بصائم رمضان عمري  
ولست بزاجر عيساً بكوراً  
ولست بقائم كالعبد يدعو  
ولكنني سأثر بها شمولاً<sup>(١)</sup>

ولست بأكمل لحم الأضاحي  
إلى أطلال مكة بالنجاح  
فَيَسَّلُ الصبح حيّ على الفلاح  
واسجدُ عند منبج الصبح

أبعده الله عني، فوالله لا دخل عليّ أبداً، ولا وطىء لي بساطاً، وهو كافر. فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القاتل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا  
فإن كان ولا بد فهذا، فأذن له. قال عدي بن أرطاة: فخرجت فقلت: ادخل يا جرير. فدخل وهو يقول:

إن النبي بعث النبي محمداً  
وسع الخلائق عدله ووقاره  
إنني لأرجو منه نفعاً عاجلاً  
والله أنزل في الكتاب فريضةً

وقت الزيارة فارجمي بسلام  
جعل الخلافة في الإمام العادل  
حتى ارعوا<sup>(٢)</sup> وأقام ميل المائل  
والنفس مولعة بحبّ العاجل  
لابن السيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه، قال: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقاً فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثة أرملة  
ممن بعدلك يكفي فقد والده  
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت  
إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا  
إن الخلافة جاءتته على قدر  
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها<sup>(٣)</sup>

ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر  
كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر  
أم قد كفاني ما بلغت من خبري  
من الخليفة ما نرجو من المطر  
كما أتى ربه موسى على قدر  
فمن حاجة هذا الأرملة الذكر  
بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب ما لي اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: وما ورايك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء وإني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

(١) الشمول: من أسماء الخمر.  
(٢) أرعوى: ارتدع.  
(٣) حاجتها: يستقيم الوزن بإبدالها به (حواجها).

رأيت رقي الجن لا يستغزه وقد كان شيطاني من الجن راقياً<sup>(١)</sup>

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف: الشريف من عُدَّتْ سَقَطَاتِهِ وَقَلَّتْ عَشْرَاتِهِ: وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو. وكان الأحنف بن قيس حليماً سيداً يضرب به المثل، وقد عُدَّتْ له سَقَطَةٌ. وهو أن عمرو بن الأَهم دسَّ إليه رجلاً يسفهه، فقال: يا أبا بحر، ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم. فرجع إليه ثانياً ففطن أنه من قبل عمرو بن الأَهم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة، ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أَهم سلاجاً<sup>(٢)</sup>.

وقال سعيد بن المسيب: ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد.

وقال قتادة: ما نسيت شيئاً قط. ثم قال: يا غلام ناولني نعلي، قال: النعل في رَجلك.

وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم وقد عدت له سَقَطَات، منها أن الحادي<sup>(٣)</sup> حدا به يوماً فقال:

إنسي عليك أيها النجسي أكرم من يمشي به المطي

فقال هشام: صدقت. وذكر عنده سليمان، وأخوه فقال: والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولي الخلافة قال: الحمد لله الذي أبقني من النار بهذا المقام. قال النابغة: أي الرجال المهلب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أي لم تؤثر فيه شياطين الشعر.

(٢) سلاجاً: أكولاً.

(٣) الحادي: المنشد الذي يقود الإبل.

## الباب العاشر: في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول

### الفصل الأول: في التوكل على الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾<sup>(٣)</sup> وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام افتدتهم مثل أفئدة الطير»، رواه مسلم. قيل: معناه يتوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً<sup>(٤)</sup>، وتعود بطائناً». وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود منْ دعائي أجبتُهُ، ومنْ استغاثني أغثتُهُ، ومنْ استصرني نصرتُهُ، ومنْ توكلَ عليَّ كفيتُهُ، فأنا كافي المتوكلين، وناصر المستصرين، وغياث المستغيثين ومجيب الداعين».

حكى أنه كان في زمن هارون الرشيد، قد حصل غلاء سعر وضيق حال، حتى اشتد الكرب<sup>(٥)</sup> على الناس اشتداداً عظيماً، فأمر الخليفة هارون الرشيد بكثرة الدعاء، والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب. ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال: إن سيدي عنده خزائن<sup>(٦)</sup> وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها، فلهذا أنا إذا لا أبالي، فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى، فسلم الناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

وحكى أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل. فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً، ويدعو لكم، ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً، ونحن على ما ترى من

(١) سورة: الفرقان، الآية: ٥٨.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢.

(٣) سورة: الطلاق، الآية: ٣.

(٤) الخمص: ضمور البطن.

(٥) الكرب: الغم.

(٦) برّ: قمح.

الفاقة<sup>(١)</sup> فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له، ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء فإنه تناول الرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك. فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا، انطلق حيث أحببت. فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم، كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة، ويقولون: لو سكت ما تكلمنا. فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك، وأنت لا تضيعهم، فلا تخيهم ولا تخجلني معهم.

فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: الأمير يبابكم يستقيكم. فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانه، البارحة بتا جياً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستقينا، ثم إنها أخذت كوزاً<sup>(٢)</sup> جديداً وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمر، فقال: لا والله، بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به. فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياً. فقال الأمير: ونحن أيضاً قد نقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن ينقل مثلنا على مثلهم. ثم حل الأمير منقطة من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: مَنْ أحبني فليأتني منقطة، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا. فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بشمن هذه المناطق، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً، واستردّها منهم. فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديداً فقالوا لها: ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحي، فإن الله وسع علينا. فقال: يا أم، والله إنما بكائي كيف بتا البارحة جياً، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبنينا ودبره بأحسن التدبير.

هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرماً، ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طيباً فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح؟ فدلّ على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب. فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقاه أولاده فعانق الصبية الصغيرة ويكي ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين وإن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه، فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء: مَنْ أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع<sup>(٣)</sup>، ومن علم أن مولاة خير له من العباد فقضه كفاه همه، وجمع شمله. وفي

(١) الفاقة: شدة الفقر والحاجة.

(٢) كوزاً: وعاء صغير للشرب.

(٣) الجزع: الخوف والفرع.



الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، وإذا استعنت بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفكك بشيء لم ينفكوك إلا بشيء قد كبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كبه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بني أمية، عظيم المال والجاه، كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة، قال منارة خادم الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام، واتني بفلان الأموي، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك، فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه، وما يتكلم به، واذكر لي حاله وماله، وقد أجلتك لذهابك ستاً، ولمجيتك ستاً، ولإقامتك يوماً. أفهمت؟ قلت: نعم، قال: فسر على بركة الله. فخرجت أطوي المنازل ليلاً ونهاراً، لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموي، فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة وغللمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا وسألوا عني، فقيل لهم إن هذا رسول أمير المؤمنين. فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواماً محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم. فسألت عنه، فقيل لي هو في الحمام، فأكرمني وأجلسوني وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر، وأنا أتقذ<sup>(١)</sup> الدار، وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان، وحفلة وغللمان، فسلم عليّ وسألني عن أمير المؤمنين، فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كلُّ معنا. فتأملت تأملاً كثيراً، إذ لم يكنتي فقلت: ما أكل، فلم يعاودني ورأيت ما لم أراه إلا في دار الخلافة، ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيباً ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة فكلُّ قلت: ليس لي به حاجة، فلم يعاودني، ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندي فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندي، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني وقال: ما أقدمك يا منارة، فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضع على رأسه ثم فضه وقراه. فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه، وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلي وما شككت أنه يريد القبض عليّ. قال: الطلاق يلزمه، والحج، والعق، والصدقة، وسائر أيمان البيعة، لا يجتمع اثنان منكم في مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحریم، ثم استقبلني وقدم رجله، وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده، وحمل حتى وضع في المحمل، وركبت معه في المحمل وسرنا.

فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتداء يحدثني بانبساط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لي وفيه غرائب الأشجار، وطيب أثمار كذا وكذا، وهذا المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألسنت تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أفنذني خلفك وهو بالكوفة يتظرك وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك، ومن بين أهلك، ونعمتك وحيداً فريداً، وأنت تحدثني حديثاً غير مفيد ولا نافع لك،

(١) أتقذ: أتقذ وأنضحس.

ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك. فقال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾<sup>(١)</sup>، لقد أخطأت فراستي فيك، يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة، إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي، الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى عليّ بأمر فلا حيلة لي بدفعه، ولا قدرة لي على منعه، وإن لم يكن قد قدر عليّ بشيء، فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لي ذنب فأخاف، وإنما هذا واشي وشي عند أمير المؤمنين بيهتان<sup>(٢)</sup>، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعليّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جواباً. ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة.

وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض. فقال: هات يا منارة، أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليّ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة، والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلماؤه وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدني لأصحابي، فلم أجد منهم أحداً أسود وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجليه، اسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وساتينه وما قلت له وما قال لي قال: هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه. وقد أزعجناه وأرعبناه، وشوشتنا عليه، وعلى أولاده وأهله، أخرج إليه واتزع قيوده، وفكه وادخله عليّ مكرماً. ففعلت:

فلما دخل قبل الأرض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي، قال: فسل غيره. قال: عدل أمير المؤمنين في عماله، ما أحوجني إلى سؤال، قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معي حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه. قم في حفظ الله وودائعه ورعايته، ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك. فانظر إلى حسن توكله على خالقه، فإنه من توكل عليه كفاه، ومن دعاه لباه، ومن سأله أعطاه ما تمناه.

وروي أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبداً. يا ابن آدم لا نخش من ضيق الرزق ما دامت خزائني ملآنة وخرائني لا تنفد أبداً. يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك، فإن طلبتني وجدتي، وإن أنست بغيري فأنك، وفاتك الخير كله. يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وقسمت رزقك فلا تتعب، وفي أثر منه فلا تطعم، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندي محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر، ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي مذموماً. يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع، ولم أع بخلقهن، أييميني<sup>(٣)</sup> رغيب أسوقه من غير تعب. يا ابن آدم أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً، يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد، كما لا أطلبك بعمل غد، فإني لم أنس من عصاني، فكيف من أطاعني، وأنا على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) بيهتان: زور وكذب.

(٣) أييميني: من الإعياء وهو التعب الشديد.

وما نَمَّ إلا الله في كل حالة  
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى  
ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

توَكَّلْ على الرحمن في الأمر كُلِّهِ  
وَكُنْ واثقاً بالله واصبِرْ لحكمه  
فما خاب حقاً مَنْ عليه توكلأ  
تَقَرَّبَ بالذي ترجوه منه تفضلاً

### الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾<sup>(١)</sup> أن المراد بها القناعة. وقال عليه السلام: «القناعة مال لا ينفد». وقيل: يا رسول الله ﷺ ما القناعة؟ قال: «الإيأس مما في أيدي الناس». وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة. قال الكندي:

العبد حرٌّ ما قنع      والحرُّ عبدٌ ما طمع

وقال بشر بن الحرث: خرج فتى في طلب الرزق بينما هو يمشي فأعيا، فأرى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هي:

إنني رأيتك قاعداً مستقبلي  
هوِّنْ عليك وكن برئك واثقاً  
فعلمتُ أنَّكَ للهمومِ قرينٌ<sup>(٢)</sup>  
فأخو التوكل شأنه التهوينُ  
طرح الأذى عن نفسه في رزقه  
لما يتَّخَنَ أنه مضمونٌ

قال: فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل. وقال: اللهم أدبنا أنت. قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليقوق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك، والسياسة، والتجارة، والفلاحة، وفي ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعاش. فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلفاً، قال: ويلك يا حجام، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سبيلاً للائتملاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعه خيش معمد بعظام الجيف، كلبه معه في بيته، لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل، وطيبه القطران وعر الطباء، وحلي زوجته الودع، وثماره المقل<sup>(٣)</sup>، وصيد اليربوع<sup>(٤)</sup> وهو في مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة وعواء ذئب، وهو قانع بذلك مفتخر به؟

(١) سورة: النحل، الآية: ٩٧.

(٢) قرين: خليط وصاحب.

(٣) المقل: ثمر شجرة اللّوم.

(٤) اليربوع: من أنواع الزواحف.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فإنها مال لا يتفد، ولياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تياس من شيء إلا أغناك الله عنه. وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه، وقال: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه. فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبقتها تعظيماً للميت، وإكراماً للحي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة. وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح<sup>(١)</sup>، واخرجوا من الدنيا بسلام. وأنشد المبرد:

إِنْ ضَنَّ زَيْدٌ بِمَا فِي بَطْنِ رَاحَتِهِ      فَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ وَالرِّزْقُ مَبْسُوطٌ  
إِنَّ الَّذِي قَلَّرَ الْأَشْيَا بِحَكْمَتِهِ      لَمْ يَنْسِنِي قَاعِدًا وَالرَّحْلُ مَحْطُوطٌ

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة. قيل له: متى يكون العبد راضياً عن ربه. قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة. وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يوماً فقاتته الصلاة، فجاءته جارية له بجمره فوضعتها على رجله فانتبه مذعوراً. فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة، فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه. وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فإذا تحت رأسه لبتة وما تحت جنبه شيء، فقالا له إنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه الله منه بديلاً فما عوضك عما تركت له، قال: الرضا بما أنا فيه. وقال الثوري: ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذلَّ له. وقال الفضيل: مَنْ رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس في الشتاء جلالي، ونور القمر سراجي، ويقل البرية فاكهتي، وشعر الغنم لباسي، أبيت حيث يدركني الليل، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذي كبيت الدنيا على وجهها:

إِن الْقِنَاعَةَ مَنْ يَحْلِلُ بِسَاحَتِهَا      لَمْ يَلْتَقَ فِي ظِلِّهَا هُمًّا يَؤُورِقُهُ<sup>(٢)</sup>

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح، ليس معها شيء من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يزرعها. فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يزرعها. وقيل وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته<sup>(٣)</sup> فقال له: أأنت القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي      أَنْ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي  
أَسْعَى إِلَيْهِ فَيُعِينِي تَطَلُّبُهُ      وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَيْسَ يُعِينِي

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال: يا أمير المؤمنين لقد عظمت فابلغت. وخرج فركب ناقته وكرَّ إلى الحجاز راجعاً. فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه: رجل من قريش قال حكمة ووفد عليّ ورددته خائباً، فلما أصبح وجه إليه بألفي دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام، وقل له كيف رأيت قولي: سمعت فأكدت فرجعت. فأتاني رزقي في منزلي.

(١) القراح: البارد الصافي.

(٢) يؤورقه: يحرمه النوم.

(٣) الخلعة: الخلق والصفة في الإنسان.

ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له: أنصاري، وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني، فوفد الثقفي وقال: أحوز الحظين. فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصاري قال: رجع إلى أهله فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصاري، بشمانية آلاف فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حرص الحرص بنافع  
خرجنا جميعاً من ماقطِ روساً  
فلما أنخنا الناجعاتِ بيابه  
وقال ستكفيني عطيةً قادر  
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر  
فقلت خلا لي وجهه ولعله  
فلما رأني سأل عنه صابئةً  
فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعاً  
فيغني ولا زهدُ القنوعِ بضائر  
على ثقة منا بجود ابن عامر  
تخلف عني الشريبي ابن جابر  
على ما يشاء اليوم للخلق قاهر  
لربي الذي أرجو لسدِّ مفارقِي<sup>(١)</sup>  
سيجعل لي حظ الفتى المتزاوِر  
إليه كما حنت ظوار الأباعر<sup>(٢)</sup>  
ولا ضائراً شيء خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه. أتدري لِمَ رزقتُ الأحق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال. ولبعض العرب:

ولا تجزغ إذا أعزرت يوماً  
ولا تظنن برئك ظنَّ سوء  
وإن العسر يتبعه يسار  
فلو أن العقول تسوق رزقاً  
فقد أيسرت في الزمن الطويل  
فإن الله أولى بالجميل  
وقول الله أصدق كل قيل  
لكان المال عند ذوي العقول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض. فنظر إليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها طعام. فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك وأنت نبي، وابن نبي. ودخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد: أمسك علي بغلتي. فأخذ الرجل لجامها ومضى، وترك البغلة، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافئه بهما الرجل على إساكه بغلته واقفة بغير لجام، فركبها ومضى ودفع لثلامه درهمين يشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال علي رضي الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قدر له. وقيل الراهب. من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه، وقال: الذي خلق هذه الرحي يأتيها بالطحين. وقال سليم بن المهاجر الجيلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانته  
فما عشت لم أت البخيل ولم أقم  
وإن قليلاً يسترُ السوجة أن يرى  
به والله عن غشيان كل بخيل  
على بابيه يوماً مقام ذليل  
إلى الناس مبدولاً لغير قليل

(١) مفارقِي: حاجاتي.

(٢) الأباعر: أي كما عطف على أولاد غيرها.

وصلّى معروف الكرخي خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف: من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك. قال: ولم؟ قال: لأن من شك في رزقه، شك في خلقه. وقال أبو جازم: ما لم يكتب لي، لو ركب الريح ما أدركته. وقال عمر بن أبي عمر اليوناني:

غلا السمرُ في بغدادَ من بعد رخصه  
فلسْتُ أخافُ الضيقَ والله واسعُ  
وإني في الحاليتين بالله واثقُ  
غناه، ولا الحرمانَ والله رازقُ

وقال القهستاني:

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم  
وإن الغنى الأعلى عن الشيء لا به

وقال منصور الفقيه:

الموتُ أسهلُّ عندي  
والخيالُ تنجري سراعاً  
بين القنا والأستنة  
مقطعات الأعنة  
عليّ فضلٌ ومثابة<sup>(١)</sup>  
من أن يكون لئذ

وأشد أعرابي:

أيا ملك لا تسأل الناس والتيمين  
ولو تسأل الناس التراب لاوشكوا  
بكنيتك فضلَ الله، فإله أوسعُ  
إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: عليك بالياس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر. وقيل: إذا وجدت الشيء في السوق فلا تطلبه من صديقك. وقيل لأعرابي: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم، لم نعش. وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرك معها من فوقك. وقال المعري:

إذا كنت تبغي العيشَ فابغِ توسطاً  
توفى البذور النقص وهي أهلة  
فعدت التناهي يقصر المتناولُ  
ويدركها النقصانُ وهي كواملُ

وقال آخر:

انفع بأيسر رزقٍ أنت نائله  
فما صفا البحرُ إلا وهو متقصرُ  
واحدٌ ولا تمعرض للإراداتِ  
ولا تعكّر إلا فسي الزياراتِ

وقال أعرابي: استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جانبته عن كراهة  
ولي في غنى نفسي مراد ومذهب  
لإغلاق بابٍ أو لتجديد حاجتِ  
إذا انصرفت عني وجوة المذهب

وقيل: ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن آتته صحيفة تناولها، وإن لم تأت له لم يرصدها، ولم يطلبها. وقال شقيق بن إبراهيم البلخي. قال لي إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أخبرني عما أنت عليه. قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت، قال. هكذا تعمل كلاب بلخ. فقلت: كيف تعمل أنت. قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت. وقال بعضهم:

هي القناعة فالزَمَها تَعِشْ ملكاً  
وانظُرْ لَمَنْ مَلَكَ الدنيا بأجمعها  
ولو لم يكن منها إلا راحة البدن  
هل راحَ منها بغير القطن والكفن  
وقال آخر:

وإن القناعة كنزٌ الغنى  
فلا ذا يراني على بائٍ  
فصرتُ غنياً بلا درهم  
فصرتُ بأذيلها ممتكاً  
ولا ذا يراني له منهمك  
أمرٌ على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئاً للعشاء، ووجدهم بغير سراج فجلس ليك يبي من الفرح ويقول: بأي يد كانت مني، تركت مثلي على هذه الحالة. والله تعالى أعلم.

### الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿الْهَائِكُمُ التَّكَاثُرُ \* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾<sup>(١)</sup> وروي أن النبي ﷺ قرأ ﴿الْهَائِكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قال: يقول ابن آدم مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت؟ وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلفي ثوباً حتى ترقعيه». وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل، والأمل». وقيل: الحرص يتقص من قدر الإنسان، ولا يزيد في رزقه. وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب. وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعتَ حرصك كنت عبداً  
لكل دنيسة تُدعى إليها  
وقال آخر وأجاد:

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يَسِبْ  
إن الحريصَ على الدنيا لقي تعب

وقيل للإسكندر: ما سرّ الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمّها؟ قال: الحرص عليها. وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) سورة: التكاثر، الآيتان: ١-٢.

«ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر، أن أسامة لطويل الأمل». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول، ثم يمسح بالتراب. فأقول إن الماء منك قريب. فيقول: ما يدريني لعلني ما أبلغه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه «لا يزال الكبير شاباً في اثنين حب المال وطول الأمل» وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل. وقيل: مَنْ جرى في عنان أمله كان عاثراً<sup>(١)</sup> بأجله، لو ظهرت الآجال لانتضحت الآمال. ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حرصٍ تراه يلم وفتراً  
ككلب الصيد يمكُّ وهو طائر  
ولقد أحسن مَنْ قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً  
ولا تحرص ليوم أنت فيه  
ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن مَنْ ألهاه أمله أخزاه عمله. قال عبد الصمد بن المعذل:  
ولي أمل قطعته به الليالي

وقال الحسن: إياكم وهذه الأمانى فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط في الدنيا، ولا في الآخرة. قال قس بن ساعدة:

وما قد تولى فهو لا شك فائت  
وقال آخر:

ولا تتعلل<sup>(٢)</sup> بالأمانى فإنها  
وقال آخر وأجاد:

الله أصدق، والآمال كاذبة  
وقال آخر:

شط المزار بسعدي وانتهى الأمل  
إلا رجاء فما ندري أنلركه  
وقال أبو العتاهية:

لقد لعبت وجدد الموت في طلبي  
لو شمرت فكرتي فيما خلقت له

(١) عاثراً: زالاً.

(٢) أسك الثانية: تقيض غذك.

(٣) التعلل: التسلي والتلهي.



وله أيضاً:

أَذَلَّ الْحَرَصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ  
أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

تعالى الله يا سلم بن عمرو  
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً

وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:

وأفنى العمرَ في قيلٍ وقالٍ  
وجَمَعَ من حرامٍ أو حلالٍ  
أليس مصير ذلك للزوال

أيا مَنْ عاش في الدنيا طويلاً  
وأتمَّ بِنَفْسِهِ فيما سيفنى  
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً

ومما جاء في الطمع وذمه: قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. وقال رضي الله عنه: ما الخمر صرفاً<sup>(١)</sup> بأذهب لعقول الرجال من الطمع. وفي الحديث: «إياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رق وعبد شهوة. وعبد طمع. وقال بعضهم: مَنْ أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع. وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب: يا ابن سلام مَنْ أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به. قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه وقال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوايج إلى الناس. واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال: الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع. وقيل، لما خلق الله آدم عليه السلام، عجن بطيبته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد. فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة فالعاقل يخفيها، والجاهل يديها. ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه. قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

ما الذُّكُّ إلا في الطَّمَعِ  
عن سوء ما كان صَنَعِ  
إلا كما طائر وارْتَمَعِ

حسبي بعلمي إن تَقَعِ  
من راقبَ الله نَزَعِ  
ما طائرَ طير وارْتَمَعِ

وقال سابق البربري:

سفاهاً وريبُ الدهر عنها يخادعة  
وكم من حريصٍ أهلكته مطامعة

يخادع ريبَ الدهر عن نفسه الفتى  
ويطمعُ في سوفٍ ويهلك دونها

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري، فأفثُ خيزي. وقال أيضاً: ما رأيت رجلين يتسازان في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله. وما زفت عروس إلا كنت بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليّ. قال بعضهم:

لك مانعٌ ما في يديه  
عَاك تطلب ما لديه

لا تغضبِني على امرئ  
واغضبِ على الطمعِ استد

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

## الباب الحادي عشر: في المشورة والتَّصِيحة والتَّجَارِب والنَّظَر في العَوَاقِب

قال الله تعالى لنيبهِ ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾<sup>(١)</sup> واختلف أهل التأويل في أمره بالمشورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه، أحدها: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه. وهذا قول الحسن. ثانيها: أنه أمره بالمشورة لما علم فيها من الفضل. وهذا قول الضحاك. ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن<sup>(٢)</sup> به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم. وهذا قول سفيان. وقال ابن عينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين والخالق مدير أمره، ولكنه تعليم منه، ليشاور الرجال الناس، وإن كان عالماً. وقال ﷺ: «ما خاب من استخاره، ولا ندم من استشاره، ولا افتقر من اقتضد» وقال ﷺ: «مَنْ أعجب برأيه ضلَّ، ومن استغنى بعقله زلَّ». وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة. وقال حكيم: المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأي. وقال الحسن: الناس ثلاثة: فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل. فأما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة. وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأي، ولا يشاور. وأما الرجل الذي ليس برجل فالذي ليس له رأي ولا يشاور. وقال المنصور لولده: خذ عني اثنتين: لا تقل في غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير. وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإني لأستشير حتى هذه الخبثية الأعجمية. وقال أعرابي: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة. وقيل: من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه. وقيل: الرأي الشديد أحمى من البطل الشديد. قال أبو القاسم النهروندي:

وما ألف مطرور السنان مدد  
يعارضُ يومَ الروع رأياً سيداً  
وقال عليّ رضي الله عنه: خاطر من استغنى برأيه. وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ  
فإن فسادَ الرأي أن يتردداً  
فأضاف إليه قول:

وإن كنتَ ذا عزمٍ فأنفذه عاجلاً  
ولمحمد بن إدريس الطائي:

ذهبَ الصوابُ برأيه فكأنماً  
فإذا دجا خطبُ تبلج رأيه<sup>(٣)</sup>  
أراه أشعثٌ من التأييد  
صبغاً من التوفيق والتسديد

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) يستن: يأخذه سنة.

(٣) تبلج: أشرق.

ولمحمد الوراق:

إن اللبيب إذا تفرَّق أمره  
وأخو الجهالة يستبدُّ برأيه

فَقَى الأمور مناظراً ومشاروا  
فتراه يعتسفُ الأمورَ مخاطِرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون في العهد:

لقد بانَ وجهُ الرأيِ لي غيرَ أنني  
فكيف يُردُّ الدُّرُّ<sup>(١)</sup> في الضرعِ بعدما

عدلتُ عن الأمرِ الذي كان أحزما  
توزَّعَ حتى صار نهياً مقسماً

وأخاف التواءَ الأمرِ بعد استوائه  
وأن يتقض الجبل الذي كان أبرما

وقال آخر:

خيلِي ليس الرأي في جنب واحدٍ  
أشيرا عليَّ اليوم ما تَرَيانِ

ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين وفم، فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب. وقال اردشير بن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال: لا تستحق الرأي الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرّة لا يستهان بها لهوان غائصها. وقال جعفر بن محمد: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأي الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرنَّ على مستبدِّ برأيه، ولا على متلون، ولا على لحوح. وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأي، فليس كل عالم يعرف الرأي الصائب، وكم ناقد في شيء ضعيف في غيره. قال أبو الأسود الدؤلي:

وما كل ذي نصح بمؤتيك نصحه  
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد

وما كل مؤبٍ نصحه بلييب  
فحقّ له من طاعةٍ بنصيب

وكان اليونان، والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشرونهم فيه، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى، منها لثلا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرأي، لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس والطعن من بعضهم في بعض، وربما سبق أحدهم بالرأي الصواب فحسدوه وعارضوه. وفي اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للإذاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه بالإبهام، فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له. وقيل إذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته، فلا تجعلن ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت. فهذا كله ضجر ولوم وخفة. وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوته إلى موالاتك. وقيل: من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره، فهو كمن بذل في السباح<sup>(٢)</sup>. قال الشاعر يمدح من له رأي وبصيرة:

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنما  
يخاطبه من كل أمر عواقبه

(١) الدرّ: كثرة اللبن وسيلانه.

(٢) السباح: مفرد ما سبغت، ما لا يزرع من الأرض لعله فيه.

وقال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك. وقال الأحنف: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل<sup>(١)</sup> حتى يجد.

ولما أراد نوح ابن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته استشار جاراً له مجوسياً. فقال: سبحان الله الناس يستفتونك، وأنت تستفتيني. قال: لا بد أن تشير عليّ، قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسك محمد، كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي، وكان يقال من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً: من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال: إذا استخار الرجل ربه، واستشار صحبه، وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضي الله تعالى في أمره ما يحب. وقال بعضهم: خمير الرأي خير من فطيره، وتقديمه خير من تأخيره. وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعي غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها. ولا خائفاً ولا حاقداً وقيل: سبعة ينبغي لصاحب لب أن يشاورهم: جاهل، وعدو، وحسود، ومراء، وجبان، وبخيل، وذو هوى. فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة، والمراخي واقف مع رضا الناس، والجبان من رأيه الهرب. والبخيل حريص على جمع المال، فلا رأي له في غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

وحكي أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمي قال: ركبني دين أثقل كاهلي<sup>(٢)</sup>، وطالبني به مستحقوه، واشتدت حاجتي إلى ما لا بد منه، وضاعت عليّ الأرض ولم أمتد إلى ما أصنع، فشاورت مَنْ أتق به من ذوي المودة والرأي فأشار عليّ بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق. فقال له: تمنعني المشقة وبعد الشقة، وتيه المهلب. ثم أتني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأول، فأريت أن قبول المشورة خير من مخالفتها. فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير إنني قطعت إليك الدهناء، وضربت أجداب الإبل من يثرب فإنه أشار عليّ ببعض ذوي الحجى<sup>(٣)</sup> والرأي بقصدك لقضاء حاجتي فقال: هل أتيتنا بوسيلة، أو بقرابة وعشيرة؟ قلت: لا ولكني رأيتك أهلاً لقضاء حاجتي فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وإن يحل دونها حائل، لم أذم يومك، ولم أياس من غدك. فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما في خزائنه ما لنا الساعة، فأخذني معه فوجدت في خزائنه ثمانين ألف درهم فدفعها إليّ. فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً، ثم عاد الحاجب بي إليه مسرعاً فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ قلت: نعم أيها الأمير وزيادة. قال: الحمد لله على نجاح سعيك واجتثاثك جني مشورتك، وتحقق ظن مَنْ أشار عليك بقصدنا. قال الأسلمي: فلما سمعت كلامه، وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه:

يا مَنْ على الجود صاعَ اللهُ راحتهُ  
فليس يحسنُ غيرَ البذلِ والجودِ  
عَمَّتْ عطايك أهْلَ الأرضِ قاطبةً  
فأنتَ والجودُ منحوتانِ من عودِ  
من استشار فبابُ النجحِ مفتوحٌ  
لديه فيما ابتغاه غير مردودِ

(١) المقل: ذو الفاقة.

(٢) الكاهل: ما بين الكتفين.

(٣) الحجى: العقل، أو الحجج العقلية.

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني، ووسعت على أهلي، وجازيت المشير علي، وعاهدت الله تعالى ألا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت.

وحكي عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده. ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي، وكان والياً على الكوفة، ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميله إليه عنه. فتألم المنصور من ذلك، وساء ظنُّه، وتأرق جفنه، وقلَّ أمه، وتزايد خوفه وحزنه، فأذته فكرته إلى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره. واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته، وأقبل على عيسى وقال: يا ابن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي. فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين، ونفسي طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سرّاً، ثم سلّمه إليه. وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص، وسلّمه إلى أعمامه، إخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً، فيكون قد استراح من الاثنين، عبد الله وعيسى.

قال عيسى: فلما أخذ عمي وفكرت في قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته مَنْ له رأيي عسى أن أصيب الصواب في ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لي حسن ظن في رأيه، وعقيدة صالحة في معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إليّ عمه عبد الله وأمرني بقتله، وإخفاء أمره، فما رأيك في ذلك وما تشير به. فقال لي يونس: أيها الأمير احفظ عمك، وعم أمير المؤمنين، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك، وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالتي وأبواباً، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلت، وأنفذت أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأنني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره، أنكر أمره لك، وأخذك بقتله، وقتلك.

قال عيسى بن موسى: فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لأمير المؤمنين إني أنفذت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أنني قد قتلت عمّه عبد الله، دس إلى عمومته إخوة عبد الله وحشهم على أن يسألوه في أخيهم، ويستوهبوه منه فجاؤوا إليه وقد جلس، والناس بين يديه على مراتبهم. فسألوه في عبد الله. فقال: نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم، كيف وفيها صلة رحم، وإحسان إلى مَنْ هو في مقام الوالد، ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي. فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: قد سألني فيه عمومتك، وقد رأيت الصفح<sup>(١)</sup> عنه، وقضاء حاجتهم، وصلة الرحم بإجابة سؤلهم فيه، فائتنا به الساعة.

قال عيسى: فقلت: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم أمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى مَنْ هو بصدد ذلك. ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته: قد أقر بقتل أخيكم، مدعياً أنني أمرته بقتله، وقد كذب عليّ. قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به، ونقتص منه. فقال: شأنكم به.

(١) الصفح: الإعراض عن الذنب.

قال عيسى: فأخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس عليّ، فقام واحد من عمومتي إليّ وسل سيفه ليضربني به فقلت له: يا عم أفاعل أنت؟ قال: إي والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي؟ فقلت لهم: لا تعجلوا ودوني إلى أمير المؤمنين، فردوني إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلي بقتله، والذي دبرته عليّ، عصمني الله تعالى من فعله، وهذا عمك باقٍ حتى سوي، فإن أمرتي بدفعه إليهم دفعته الساعة. فأطرق المنصور وعلم أن ربح فكره صادفت إحصاراً، وأن انفراد بتدبيره قارف<sup>(١)</sup> خساراً، ثم رفع رأسه وقال: اتنا به. فمضى عيسى وأحضر عبد الله. فلما رآه المنصور قال لعمومته: أتكرهه عندي، وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً. قال عيسى: فتركته وانصرفت وانصرف إخوته فسلمت روحي، وزالت كربتي، وكان ذلك بركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته، والعمل بها. ثم إن المنصور أسكن عبد الله في بيت أسسه قد بني على الملح، ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام، وسلم عيسى من هذه المكيدة، ومن سهام مراميها البعيدة.

ومما جاء في النصيحة: اعلمو أن النصيحة للمسلمين، وللخلاق أجمعين من سنن المرسلين. قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه الصلاة والسلام. «ولا يضعكم نضحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ويكم وإليه ترجعون»<sup>(٢)</sup> وقال شعيب عليه السلام: «ونصحتُ لكم فكيف آسي على قوم كافرين»<sup>(٣)</sup>. وقال صالح عليه السلام: «ونصحتُ لكم ولكن لا تحبون النصيحة»<sup>(٤)</sup> وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولبكاتبه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، ولعامةهم.

فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتزيهه عما ليس له بأهل والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهراً، وباطناً، والرغبة في محابه، والبعد عن مساخطه، وموالة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهاد في رد العصاة إلى طاعته، قولاً وفعلاً. والنصيحة لكتابة إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهم ما فيه والذب<sup>(٥)</sup> عنه من تأويل المحدثين، وطمع الطاعنين وتعليم ما فيه للخلاق أجمعين. قال الله تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»<sup>(٦)</sup> والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنة بالطلب لها، وإحياء طريقته في بث الدعوة، وتأليف الكلمة، والتخلُّق بالأخلاق الطاهرة، والنصيحة للأئمة معاوتهم على ما كلفوا القيام به بتسيبهم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم، وسيرتهم في الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ورد القلوب النافرة إليهم. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كربهم، وتوقفي ما يشغل خواطرهم، ويفتح الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مرّة لا يقبلها إلا أولو العزم. وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز رضي

(١) قارف: خالط وارتكب.

(٢) سورة: هود، الآية: ٣٤.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٩٣.

(٤) سورة: الأعراف، الآية: ٧٩.

(٥) الذب: الدفاع عنه.

(٦) سورة: ص، الآية: ٢٩.

الله عنه: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره. وفي مشور الحكم: وَذَكَ مَنْ نصحك، وقلاك<sup>(١)</sup> مَنْ مشى في هواك. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن شتمت لأنصحكم لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذي يحبون الله تعالى إلى عبادته، ويعملون في الأرض نصحاً. ولورقة بن نوفل:

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم  
لا شيء مما ترى تبقى بشائتُهُ  
لم تُننِ عن هرمز يوماً ذخائِرُهُ  
والخلدُ قد حاولتُ عادًةً فما خلدوا  
إنسي النذيرُ فلا يفرركم أحدُ  
إلا الإلهُ ويردِّي المألُ والولدُ

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إني قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، وبدأ مبسوطة لطاعتك، وسيقاً مجرداً على عدوك. وأنشد الأصمعي:

النصحُ أرخصُ ما باحَ الرجالُ فلا  
إن النصائحَ لا تخفي مناهلُها  
ولمعاذ بن مسلم:

نصحُك والنصيحةُ إن تَعَدَّتْ  
فخالقتَ اللي لك فيه حظُّ  
هوئى المنضوحِ عزَّ<sup>(٢)</sup> لها القبولُ  
فَنَالَكَ دُونَ مَا أَتَلَّتْ غَوْلُ

وقيل أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج، فلم يقبل منه وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتُك أمراً حازماً فقصيتني  
فما أنا بالباكي عليك صباةً  
فأصبحتُ مملوكاً للإمارَةِ نادماً  
فمنسك أزل اللوم إن كنتَ لائماً  
وما أنا بالداعي لترجعَ سالماً

ويقال: مَنْ اصفرَّ وجهه من النصيحة أسودَّ لونه من الفضيحة وقال طرفة:

ولا ترفدن<sup>(٣)</sup> النصيح من ليس أهله  
وإن أمراً يوماً تولّى برأيه  
وكن جين تستغني برأيك غانيا  
فدعةً يصيبُ الرشد أو يكُ غاوبا

وفي مثله قال بعضهم:

من الناس من إن يشترك فتجهد  
فلا تمنحنَ الرأي من ليس أهله  
له الرأي يستغشك ما لم تباينة  
فلا أنتَ محمودٌ ولا الرأي نافية

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) قلاك: كرهك.

(٢) عز: عثر وصعب.

(٣) الرفد: العطاء.

## الباب الثاني عشر: في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(١)</sup>. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ بِعَظْمِكُمْ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٣)</sup>. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾<sup>(٥)</sup> والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمّة مشهورة.

وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعف الإيمان». وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمه الله تعالى عليه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾<sup>(٦)</sup> إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين، ويحملونها على غير وجهها، بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة مَنْ ضل. ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾<sup>(٧)</sup>. وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جند الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر. ومن كلام علي رضي الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة، إلا إذا بالغت في إيلاسه، فإن العاقل يعظ بالأدب، والبهائم لا تعظ إلا بالضرب، وأنشد الجاحظ:

وليس يزجرُكم ما توَعظُون به      والبهم يزجرُها الراعي فتزجر<sup>(٨)</sup>

وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد فَعِظِ النَّاسَ بِفَعْلِكَ وَلَا تَعْظُهُمْ بِقَوْلِكَ، وَاسْتَحْ مِنْ اللَّهِ بِقَدْرَقِرْبِهِ مِنْكَ، وَخَفْهُ بِقَدْرَتِهِ عَلَيْكَ. والسلام. وقيل: من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ. وقال لقمان: الموعظة تشقُّ على السفه كما يشقُّ صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَنِي بَعْدَ

(١) سورة: النحل، الآية: ١٢٥

(٢) سورة: النحل، الآية: ٩٠.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة: التوبة، الآية: ٧١.

(٥) سورة: آل عمران، الآية: ١١٤.

(٦) سورة: المائدة، الآية: ١٠٥.

(٧) سورة: المائدة، الآية: ٩٩.

(٨) الزجر: المنع والنهي.



أَبَقَ<sup>(١)</sup> كَتَبْتُكَ عِنْدِي حَمِيداً، وَمَنْ كَتَبْتَهُ عِنْدِي حَمِيداً لَمْ أَعْذِبْهُ بَعْدَهَا أَبَداً. وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تَسِيءَ إِلَى مَنْ تَحِبُّ فَافْعَلْ. وقال النبي ﷺ في بعض خطبه: «أَيُّهَا النَّاسُ الْيَوْمَ تَطْوِي، وَالْأَعْمَارُ تَفْنَى، وَالْأَبْدَانُ فِي الثَّرَى تَبْلَى، وَإِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَرَاكِضَانِ تَرَاكِضَ الْبَرِيدِ، وَيَقْرَبَانِ كُلُّ بَعِيدٍ، وَيَخْلُقَانِ كُلَّ جَدِيدٍ. فِي ذَلِكَ عِبَادَ اللَّهِ مَا أَلْهَى عَنْ الشَّهَوَاتِ، وَرَغَبَ فِي الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ». ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعضني. فقرأ الحسن البصري: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ»<sup>(٢)</sup> «أَفَرَأَيْتَ أَنْ مَتَعْنَاهُمْ سِنِينَ \* ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ \* مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَمُونَ»<sup>(٣)</sup>. فقال: عليك السلام أبا سعيد، لقد وعظتني أحسن موعظة. ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضي الله عنه دخل منزله فاعتزته غشية<sup>(٤)</sup>، ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وقال: أوصيكما بتقوى الله تعالى والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان، افعلوا الخير وكونوا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً. ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإنني أوصيك به، وعليك بير أخويك وتوقيرهما، معرفة فضلهما. ولا تقطع امرأ دونهما. ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأجابه، ثم قال: يا بَنِي، أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا لله في الشدة والرخاء. يا بَنِي، مَنْ أَبْصَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ بُتْراً وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ أَخِيهِ هَتَكَ عَوْرَاتِ بَنِيهِ، وَمَنْ نَسِيَ خَطِيئَتَهُ اسْتَغْطَمَ خَطِيئَةَ غَيْرِهِ، وَمَنْ أَعْجَبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ، وَمَنْ اسْتَعْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ<sup>(٥)</sup>، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنْ خَالَطَ الْأَنْدَالَ احْتَقَرَ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ أَتَاهُمْ، وَمَنْ جَالَسَ الْعُلَمَاءَ وُقِّرَ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثَرَ كَلَامَهُ كَثَرَ خَطْوُهُ، وَمَنْ كَثَرَ خَطْوُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ. يا بَنِي، الْأَدَبُ مِيزَانُ الرَّجُلِ وَحَسَنُ الْخَلْقِ خَيْرٌ قَرِيبٌ. يا بَنِي، الْعَاقِبَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ، تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ إِلَّا عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَاحِدٌ فِي تَرْكِ مَجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ. يا بَنِي، زِينَةُ الْفَقْرِ الصَّبْرُ، وَزِينَةُ الْغِنَى الشُّكْرُ. يا بَنِي لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا كَرَمَ أَعَزَّ مِنَ التَّقْوَى، وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَا لِبَاسَ أَجْمَلَ مِنَ الْعَاقِبَةِ. يا بَنِي، الْحَرَصُ مِفْتَاحُ التَّعَبِ وَمَطِيَّةُ النَّصَبِ<sup>(٦)</sup>.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله ليكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يفر الله له. وقال الأوزاعي

(١) أَبَقَ: تارك لدينه.

(٢) سورة: الجاثية، الآية: ٢٣.

(٣) سورة: الشعراء، الآيات: ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٤) اعترته غشية: إغماءة.

(٥) زلَّ: عثر وأخطأ.

(٦) النصب: الوهن.

للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريده يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي بيدك؟ ألقدها، لا تملأ قلوبهم رعباً، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم يا أمير المؤمنين. إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين لو أن ذنباً من النار صب ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها. فكيف بمن يتمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها ويرد فضلها على عاتقه.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان والي المدينة: اجذر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أخطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئه به نسبه. وروى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس، وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأوماً إلينا أن اجلسا فجلسنا فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور<sup>(١)</sup> في حكمه» فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. قال مالك: فضمنت ثيابي مخافة أن يتأله شيء من دم ابن طاوس. ثم قال: يا ابن طاوس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله في ذلك اليوم.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: ياكعب خَوْفْنَا. قال: أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خَوْفْنَا. فقال: يا أمير المؤمنين، اعمل فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً لأزدريت<sup>(٢)</sup> عملهم مما ترى. فنكس عمر رضي الله عنه رأسه وأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال: يا كعب خَوْفْنَا. فقال: يا أمير المؤمنين، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها. فنكس عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب زدْنَا. فقال: يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، يقول يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكرمني إكراماً جزيلاً، أمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً علياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، ومملك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك. فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان وإنما هو بالفعل والإحسان، قال الله تعالى: ﴿اعملوا

(١) الجور: الظلم والاعتداء.

(٢) الأزدياء: الاحترار.

آل داود شكراً<sup>(١)</sup> واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتَّقِ الله فيما حَوَّلَكَ من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن القتل، والتقىير والقطمير<sup>(٢)</sup>، قال الله تعالى: ﴿فَورِكَ لِنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* مِمَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾<sup>(٤)</sup> واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطيور والوحش والبهائم وسَخَّرَ له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع. فقال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٥)</sup> فوالله ما عدتها نعمة كما عدتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدارجاً من الله تعالى ومكراً به فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾<sup>(٦)</sup> فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم وأغث المهلوف أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفياً للمهلوف، وأماناً للخائف، ثم أتممت المجلس بأن قلت: قد جبت البلاد شرقاً وغرباً فيما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذت لي الإقامة فيها غير هذه المملكة ثم أشدته:

وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا حَتَّى يَسْرُوا عِنْدَهُ أَنْوَارَ إِحْسَانِ

وقال الفضل بن الربيع: حجج هارون الرشيد سنة من السنين فينما أنا نائمٌ ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب فقلت: مَنْ هذا؟ قال: أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعاً. فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال: ويحك قد حاك<sup>(٧)</sup> في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم فانظر لي رجلاً أسأله عنه. فقلت: ههنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه فأتيناه، فقرعت عليه الباب فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله: فقلت: ههنا عبد الرزاق بن همام. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال: جد لما جئنا به فحادثه ساعة. ثم قال له: أعليك دَينٌ قال: نعم فقال: يا أبا العباس اقض دَينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله: فقلت: ههنا عبد الرزاق بن همام. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددّها، فقرعت عليه الباب فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله أما تجب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال: أوَاه من كلِّ ما أَلْبَيْتَهَا إن نجت غداً من عذاب الله تعالى. فقلت في نفسي:

- (١) سورة: سبأ، الآية: ١٣.
- (٢) القطمير: شق النواة وهو دلالة الصغار.
- (٣) سورة: الحجر، الآية: ٩٢ - ٩٣.
- (٤) سورة: الأنبياء، الآية: ٤٧.
- (٥) سورة: ص، الآية: ٣٩.
- (٦) سورة: النمل، الآية: ٤٠.
- (٧) حاك: اعتمل.

ليكلمته الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال: جُدْ لما جئنا له رحمك الله تعالى فقال: وفيم جئت حملت على نفسك وجميع مَنْ معك حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصةاً<sup>(١)</sup> من ذنب ما فعلوا، ولكن أشدهم حياً لك، أشدهم هرباً منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ. فقد الخلافة بلاء وعدتها أنت وأصحابك نعمة. فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصُصْ عن الدنيا، وليكن افطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أباً. وأوسطهم عندك أخاً. وأصغرهم عندك ولدأ. فبر أباك. وارحم أخاك. وتحزن على ولدك. قال رجاء بن حيوة: إن لردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك. واکره لهم ما تكره لنفسك. ثم متى شئت مت. وإني لأقول هذا. وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم مَنْ يأمرك بمثل هذا؟ فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً حتى غشي عليه فقلت له: ارفق بأمر المؤمنين فقال: يا ابن الربيع قلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا. ثم أفاق هارون الرشيد فقال: زدني فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكاً إليه سهراً. فكتب له عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار. واخلود الأبدان. فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك، ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه. فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك، ولا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل. فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال: زدني. قال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه فقال: يا رسول الله، أمرني إمارة. فقال له النبي ﷺ: «يا عباس نفس تحيها خير من إمارة لا تحيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة. فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً. ثم قال: لا زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيك، فإن النبي ﷺ قال: مَنْ أصبح لهم غاشاً لم يرح (٢) رائحة الجنة فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دَيْن لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل لي إن سألتني، والويل لي إن لم يلهمني حجتني. قال هارون: إنما أعني دَيْن العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، وإنما أمرني أن أصلق وعده، وأطيع أمره، قال تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون \* ما أريدُ منهم من رزق وما أريدُ أن يطعمون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (٣) قال له هارون: هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك، وتَقَوَّ بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله أنا ذلكت على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا، سلمك الله ووقفك. ثم صمت فلم يكلمنا. فخرجنا من عنده. فقال لي هارون: إذا دللتني على رجل فدلتني على مثل هذا فإن هذا سيد المسلكين اليوم.

(١) الشقص: الجزء.

(٢) يرح: يتسم ويشم.

(٣) سورة: الذاريات، الآيات: ٥٦ - ٥٨.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات. قال سليمان الخواص: مَنْ وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الإشهاد فإنما بكته<sup>(١)</sup>. وقالت أم الدرداء رضي الله تعالى عنها: مَنْ وعظ أخاه سرّاً فقد سره وزانه، وَمَنْ وعظه علانية فقد ساءه وشانه. ويقال: مَنْ وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وسره، وَمَنْ وعظه جهراً فقد فضحه وضره. وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره، ويؤجر في نهيه. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: إذا رأيتم أحاكم ذا زلّة فقوموه، وسلّوّه، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

(١) بكته: أنه وقزعه.

## الباب الثالث عشر: في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول

### الفصل الأول: في الصمت وصون اللسان

قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَيْكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾<sup>(٢)</sup> واعلم أنه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد يجزئ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة لا يعادلها شيء. وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمِتْ». قال الشافعي رضي الله تعالى عنه في «الأم»: إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر. وروينا في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله أي المسلمين أفضل؟ قال: «مَنْ سَلَّمَ النَّاسَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ». وروينا في كتاب الترمذي عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أَمْسَكَ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلِيَسْعَكَ بَيْتَكَ وَإِنَّكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ» قال الترمذي: حديث حسن. وروينا في كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه الله تعالى.

أما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها. فما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر. وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان. وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها. وقال بعضهم: مثل اللسان مثل السبع إن لم توقفه عدا عليك ولحقك شره. ومما أشدوه في هذا الباب.

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ      لَا يَلِدْغَنُكَ أَنَّهُ ثَعْبَانُ  
كَمْ فِي الْمَقَابِلِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ      كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشَّجَمَانُ

(١) سورة: ق، الآية: ١٨.

(٢) سورة: الفجر، الآية: ١٤.

وقال الفارسي:

لَعَمْرُكَ إِنَّ فِي ذَنْبِي لَشَغْلًا      لِنَفْسِي عَنْ ذُنُوبِ بَنِي أُمَيَّةٍ  
عَلَى رَبِّي حَسَابُهُمْ إِلَيْهِ      تَنَاهَى عِلْمَ ذَلِكَ لَا إِلَهِي

وقال علي رضي الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام وقال أعرابي: رب منطق صدع جمعاً<sup>(١)</sup>، وسكوت شعب صدعاً. وقال وهب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس. وقال علي بن هشام رحمه الله تعالى عليه:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْحِلْمَ زَيْنٌ لَأَهْلِهِ      وَمَا الْحِلْمُ إِلَّا عَادَةٌ وَتَحَلُّمٌ  
إِذَا لَمْ يَكُنْ صَمْتُ الْفَتَى عَنِ نَدَامَةٍ      وَعَيٌّ فَإِنَّ الصَّمْتَ أَوْلَى وَأَسْلَمٌ

وقال ابن عيينة: مَنْ حرم الخير فليصمت. فإن حرمه فالموت خير له. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: «عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك». ومن كلام الحكماء: مَنْ نطق في غير خير فقد لغأ، وَمَنْ نَظَرَ فِي غَيْرِ اعْتِبَارٍ فَقَدْ سَهَا، وَمَنْ سَكَتَ فِي غَيْرِ فِكْرٍ فَقَدْ لَهَا، وَقِيلَ لَوْ قَرَأْتَ صَحِيفَتَكَ لِأَعْمَدَتِ صَفِيحَتَكَ، وَلَوْ رَأَيْتَ مَا فِي مِيزَانِكَ لَخْتَمْتَ عَلَى لِسَانِكَ. ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته فقيل له: ألا تتكلم. فقال: الكلام صيرني في بطن الحوت. وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم. وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام، لأن السفيه إذا سكت عنه كان في اغتنام. وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف فوالله ما كان بأجركم سناً، ولا بأكثركم مالاً. فقال: بقوة سلطانه على لسانه. وقيل: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فإذا تكلم بها صار في وثاقها. وقيل: اجتمع أربعة ملوك فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما لم أقل مرة، وندمت على ما قلت مراراً. وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتني. وقال ملك الهند: العجب بمن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرت، وإن لم ترفع لم تنفع. وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه. فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر، والإنسان لو حفظ لسانه ما هلك. وقال علي رضي الله تعالى عنه: بكثرة الصمت تكون الهيبة. وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه. الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع. وإن أكثرته منه قتل. وقال لقمان لولده: يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك. يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن فيقلن بخير إن تركتنا. قال الشاعر:

أَحْفَظُ لِسَانَكَ لَا تَقُولُ فَيَتَلَى      إِنْ الْبَلَاءُ مَسَّكَ كَلَّ بِالْمَنْطِقِ

### الفصل الثاني: في تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس، وهي ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه، سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته،

(١) صدع: أصابهم وفرقهم.

أو خادمه، أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك، أو بكتابتك أو رمزت إليه بعينك، أو يدك، أو رأسك، أو نحو ذلك. فأما الدين فكقولك سارق، خائن، ظالم متهاون بالصلاة متساهل في النجاسات، ليس بازاً بوالديه، قليل الأدب، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة. وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج، أو أعمش أو قصير، أو طويل، أو أسود، أو أصفر، وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الأدب، متهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم كثير الأكل، وما أشبه ذلك، أو كقولك فلان أبوه نجار أو إسكاف، أو حداد أو حائك، تريد تنقيصه بذلك، أو فلان سئء الخلق متكبر مراء معجب، عجول، جبار ونحو ذلك، أو فلان واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب، ونحو ذلك.

وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أندرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: وإن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبت، وإن لم يكن فيه فقد بهته». قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وروينا في سنن أبي داود، والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفة كذا وكذا. قال بعض الرواة، تعني قصيرة فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نيتها». وروينا في سنن أبي داود عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليزني فيتوب، فيتوب الله عليه؛ وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «مَن اغتاب المسلمين، وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان جيء به يوم القيامة، مزقة عيناه، ينادي بالويل والثبور، يعرف أهل ولا يعرفونه». وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً، وأقلهم غيبة. وقال الأحنف: فَي خصلتان لا اغتاب جليبي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه. وقيل للربيع بن خثيم: ما تراك تعيب أحداً. فقال: لست عن نفسي راضياً فأنفرغ لدم الناس، وأنشد:

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها  
لنفسى من نفسي عن الناس شاغلٌ  
وقال كثير عزة:

وسعى إليّ بعيبِ عزةٍ نسوةٌ  
جعلَ الإلهُ حدودَهُنَّ نَعَالَهَا

وقال محمد بن حزم: أول من عمل الصابون سليمان. وأول من عمل السويق ذو القرنين. وأول من عمل الحيس يوسف. وأول من عمل خبز الجرداق نمرود. وأول من كتب في القراطيس الحجاج. وأول من اغتاب إليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن أصر، فهو أول من يدخل النار. ويقال: لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك. وقيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه: إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب. فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إلي. فقال الحسن: أهديت إلي حسناتك فأردت أن أكافئك. وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال: لو كنت مغتاباً أحداً، لاغبت والدني، لأنهما أحق بحسناتي، إذا حاكى إنساناً بأن يمسي



متعارجاً، أو متطاطناً<sup>(١)</sup> أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام. وبعض المتقهيين والمتعبدلين يعرضون بالغيبة تعريضاً، تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا. الله يفر لنا. الله يصلحه. نسأل الله العافية. نحمد الله الذي لم يبتلينا بالدخول على الظلمة نعوذ بالله من الكبر. يعافينا الله من قلة الحياة. الله يتوب علينا. وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها. فيجب على مَنْ يستمع إنساناً يتدبى بغيبة أن ينهأ، إن لم يخف ضرراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها، فإن قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك، قال بعض العلماء إن ذلك نفاق. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾<sup>(٢)</sup> ومما أنشدوه في هذا المعنى.

وَسَمِعَكَ صُنْ عَنِ سَمَاعِ الْقِيحِ	كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ التُّطُقِ بِئِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقِيحِ	شَرِيكَ لِقَائِلِهِ فَاتِّبِ
وَكَمْ أَرْعَجَ الْحَرَصُ مِنْ طَالِبِ	فَوَاقِي المَيْثَةِ فِي مَطْلِبِ

### الفصل الثالث: في تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِغْ كُلَّ حَلَاظٍ مَهِينٍ \* هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيٍّ﴾<sup>(٣)</sup> الآية وحسبك بالنمام خسة ورذيلة، سقوطه وضعته، والهزاز المغتاب الذي يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم. وقال الحسن البصري: هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، وهو الهمة للزمة. وقال علي والحسن البصري رضي الله عنهما: العتل الفاحش السيء الخلق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العتل الفاتك الشديد المناق. وقال عبيد بن عمير: العتل الأكل الشروب القوي الشديد، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة. وقال الكلبي: هو الشديد في كفره، وقيل: العتل الشديد الخصومة بالباطل، والزنيم هو الذي لا يعرف مَنْ أبوه قال الشاعر:

زنيماً ليس يعرف من أبوه      بغيبى الأم ذو حسبٍ لئيم

وروي في صحيح البخاري ومسلم عن حديفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام»، وروي أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخرة فكان لا يستتره من بوله». قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمة الله تعالى عليه: النميمة إنما تطلق في الغالب على مَنْ ينم قول الغير إلى المقول فيه، كقوله فلان يقول فيك كذا، فينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس، إلا ما في حكايته، فائدة لمسلم، أو دفع معصية، وينبغي لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا، أن لا يصدق مَنْ نَمَّ إليه، لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر، وأن ينهأ عن ذلك وينصحه، ويقبح فعله، ويبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله، والبغض في الله واجب وأن لا يظن بالمقول عن سوء لقول الله تعالى: ﴿اجْتنبوا كثيراً

(١) متطاطناً: مخفضاً رأسه.

(٢) سورة: الأنعام، الآية: ٦٨

(٣) سورة: القلم، الآيتان: ١٠ - ١١.

من الظَّنُّ إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ<sup>(١)</sup>. وسمى رجلاً إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له: انصرف حتى اكتشف عنك. فكشف عنه فإذا هو ابن بغي، يعني ولد زنا. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لا ينم على الناس إلا ولد بغي، وروي أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ. قال: «شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب». وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ملعون ذؤ الوجيهين. ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شغاز، ملعون كل قنات، ملعون كل نمام، ملعون كل منان». والشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة، والقنات النمام، والمنان الذي يعمل الخير ويمن به، وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة فهي المهكلة، والحالقة<sup>(٢)</sup> لأنها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة، وشؤم النميمة، والتغريب بالنفوس، والأموال في النزول، والأحوال، وتسلب العزيز عزه، وتحط المكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أرافه سعي ساع، وكم حريم استبيح بنميمة نمام. وكم من صَفَتَيْنِ<sup>(٣)</sup> تباعدا، وكم من متواصلَيْنِ تقاطعا، وكم من محيَيْنِ افتراقا، وكم من الفين تهاجرا، وكم من زوجين تطلقا. فليتبَّ الله ربه عز وجل رجلاً ساعده الأيام وتراخت عنه الأقدار، أن يصغي لساعٍ أو يستمع لنمام.

ووجد في حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل يسمى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه، وأخاه، وإمامه، وقال بعض الحكماء: احتذروا أعداء العقول، ولصوص المودات، وهم السعاة والنمامون، إذا سرق للصوص المتاع، سرقوا المودات. وفي المثل السائر: مَنْ أطاع الواسي ضيَع الصديق. وقد تقطع الشجر فتنتبت، ويقطع اللحم السيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه. ودفع إستان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتييم، وكان مالا كثيراً فكتب إليه على ظهرها: النميمة قبيحة، وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وروينا في كتاب أبي داود والترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ومن الناس مَنْ يتلون ألواناً، ويكون بوجهين ولسانين فيأتي هؤلاء بوجه، وذو الوجيهين لا يكون عند الله وجيهاً». قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

قُلْ لِلَّذِي لَسْتُ أَدْرِي مَنْ تَكَلَّمْتَهُ	أَنصَحْ أُمَّ عَلِيٍّ غِشْرٌ يَنَاجِينِي
إِنِّي لِأَكْثَرِ مِمَّا سَمْتَنِي عَجَباً	بَدُّ تَشَجُّعٍ وَأُخْرَى مِنْكَ تَأْسُونِي <sup>(٤)</sup>
تَغْتَابِنِي عِنْدَ أَقْوَامٍ وَتَمْدُخُنِي	فِي آخِرِينَ وَكُلُّ عَنكَ يَأْتِنِي
هَذَا شَيْئَانِ قَدْ نَأَقَيْتَ بَيْنَهُمَا	فَاكْشَفْ لِسَانَكَ عَن شَتْمِي وَتَزِينِي

وقيل: لألف لحوح جموع، خير من واحد متلون، وكان يشبه المتلون بأبي براقش، وأبي قلمون. فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألواناً، وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألواناً. ويقال للطنائش الذي لا ثبات معه أبو رياح تشيهاً بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بياب

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) الحالقة: قاطعة الرحم.

(٣) صَفَتَيْنِ: خيلين.

(٤) تأسو: تداوي.

الجامع يدور مع الريح، ويمناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به. فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه، والذي يعمله الصبيان من قوطاس على قصبه يسمى أبا رياح أيضاً. ويقال: أخلاق الملوك مكلّ في التلّون قال بعضهم:

ويومٌ كأخلاق الملوك تلّوناً  
أشبهه إياك يا مَنْ صفاتُهُ  
فصخروُ وتَقَيِّمٌ وطلُّ<sup>(١)</sup> ووابل<sup>(٢)</sup>  
دنوّ، وإعراضٌ، ومُنْعٌ، ونائل<sup>(٣)</sup>

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه فأنكره الأحنف. فقال له معاوية: بلغني عنك الثقة. فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهاً. وكان الفضل بن سهل ييغض السعاية<sup>(٤)</sup> وإذا أتاه ساع يقول له: إن صدقتنا أبغضتناك، وإن كذبتنا عاقبتناك، وإن استقلتنا<sup>(٥)</sup> أقلناك. وكتب في جواب كتاب ساع: نحن نرى أن قبول السعاية شرٌّ من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء، وأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعائه صادقاً، لكان من صدقه لثيماً، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة. وقيل: مَنْ سعى بالنميمة حذره الغريب، ومقته القريب. وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودّة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جلدتها، ولا جماعة إلا بدّتها. ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه. وأنشد بعضهم:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِيهُ  
كَالسَّبِيلِ بِاللَّيْلِ لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ  
عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ  
وَالْوَيْلُ لِلرَّوْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَفْنِيهِ  
مَنْ أَيْنَ جَاءَ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ

وقال آخر:

يَسْعَى عَلَيْكَ كَمَا يَسْعَى إِلَيْكَ فَلَا  
تَأْمَنَنَّ غَوَائِلَ ذِي وَجْهَيْنِ كِيَادِ  
وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

مَنْ يَخْبُرُكَ بِشْتَمٍ عَنْ أَخٍ  
ذَاكَ شَيْءٌ لَمْ يَوَاجِهْكَ بِهِ  
فهو الشاتمُ لا مَنْ شتمَكَ  
إنما اللومُ على مَنْ أعلَمَكَ

وقال آخر:

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ أَخْضَوْهُ وَإِنْ عَلِمُوا  
شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وقال آخر:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرِحاً  
مني وما سمعوا من صالح دفنوا

(١) الطل: خفيف الغيث.

(٢) الوابل: شديد المطر.

(٣) النائل: المطاء.

(٤) السعاية: الرشاية السيئة.

(٥) استقلتنا: طلبت الإقالة من المنصب.

صُمَّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرَتْ بِهِ      وَإِنْ ذَكَرَتْ بِسُوءٍ عَنْهُمْ أَذْنُوا

وقال الحسن: ستر ما عاينت، أحسن من إشاعة ما ظننت. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: مَنْ سَمِعَ بِفَاحِشَةٍ فَأَفْشَاهَا فَهُوَ كَالَّذِي أَتَاهَا.

ومما جاء في النهي عن اللعن: ما روينا في صحيح البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «لعن المؤمن كقتله». وروينا في صحيح مسلم أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون للعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة»، وروينا في سنن أبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً سعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإذا لم تجد مساعفاً رجعت إلى الذي لعن، إن كان أهلاً لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها» ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين ونحو ذلك.

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة، والمستوصلة<sup>(١)</sup> وإنه قال: «لعن الله أكل الربا. وأنه قال: لعن الله المصورين. وأنه قال: لعن الله من لعن والديه، وأنه قال لعن الله من ذبح لغير الله. وأنه قال لعن الله اليهود والنصارى، واتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وأنه قال: لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال». وجميع هذه الألفاظ في البخاري ومسلم بعضها فيهما وبعضها في أحدهما والله أعلم.

ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة: قال رسول الله ﷺ: «الخمول نعمة وكلُّ يتبرأ، والظهور نقمة وكلُّ يتمنى». وقال بعضهم:

تَلَخَّفَ بِالْخُمُولِ تَعَشُّنٌ سَلِيمًا      وَجَالِسٌ كُلُّ ذِي أَدَبٍ كَرِيمٍ

وقال جعفر بن القراء:

مَنْ أَخْمَلَ النَّفْسَ أَحْيَاهَا وَرَوَّحَهَا      وَلَمْ يَثِّطْ طَاوِيأَ مِنْهَا عَلَى ضَجْرِ  
إِنَّ الرِّيحَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُهَا      فَلَيْسَ تَرْمِي سِوَى الْعَالِي مِنَ الشَّجَرِ

وقال أعرابي: رب وحلة أنفع من جليس، ووحشة أنفع من أنيس. وكان أبو معاوية الضريير يقول: فيّ خصلتان ما يسرنني بهما رد بصري: قلة الأعجاب بنفسي، وخلو قلبي من اجتماع الناس إليّ. وقال عمر رضي الله عنه: خذوا حظكم من العزلة. وصعد حسان على أطم<sup>(٢)</sup> من أطام المدينة ونادى بأعلى صوته: يا صباحاه، فاجتمعت الخزرج فقالوا: ما عندك؟ قال: قلت بيت شعر فأجبت أن تسمعه. قالوا: هات يا حسان. فقال:

وَإِنَّ أَمْرًا أَمَسَى وَأَصْبَحَ سَالِمًا      مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَوِيْدُ

ولما بنى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك. وأسواق الناس ونزلت

(١) المتوصلة: التي تطلب وصل شعرها.

(٢) الأطم: البيت المربع أو القصر المرتفع.

بالعقيق. فقال: رأيت أسواقهم لاغية، ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية. وقيل لعروة، أخي مرداس: لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة، فأخسر الدارين. وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضل في مرضه نعوذ: فقال: ما جاء بكم؟ والله لو لم تجيئوا لكان أحب إليّ. ثم قال: نعم الشيء المرض، لولا العيادة. وقيل للفضل: إن ابنك يقول وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه، ولا يروني. فقال ويح ابني لم لا أتمها فقال: لا أراهم ولا يروني. وقال علي رضي الله تعالى عنه، طوى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوى لمن لزم بيته، وأكل قوته واشتغل بطاعته، ويكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة. وقال سفيان: الزهد في الدنيا، هو الزهد في الناس. وقيل لراهب في صومعته: ألا تنزل؟ فقال: مَنْ مشى على وجه الأرض عشر.

والكلام في مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الرابع عشر: في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روي عن الحسن أنه قال للحجاج: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «وقرؤا السلاطين ويجلوهم، فإنهم عزُّ الله وظلُّه في الأرض إذا كانوا عدولاً» فقال الحجاج: ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولاً<sup>(١)</sup>، قال: قلت بلى. وعن عمر رضي الله عنه، قال: قلت للنبي ﷺ: أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب، وخضعت له الأجساد ما هو، قال: «ظل الله على الأرض، فإذا أحسن فله الأجر، وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر<sup>(٢)</sup>، وعليكم الصبر»، وعنه عليه الصلاة والسلام: «أبما راع استرعى رعيته ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من روائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء» وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا ألسنتكم بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم. وقال جعفر بن محمد رحمه الله تعالى: كفاة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان. وقال كسرى لشيرين: ما أحسن هذا المُلْك لو دام. فقال: لو دام لأحد ما انتقل إلينا. ومر طارق الشرطي بابن شبرمة في موكبة فقال:

أراها وإن كانت تحبُّ فإنها سحابةٌ صيفٍ عن قليلٍ تفسح<sup>(٣)</sup>

وجلس الإسكندر يوماً فيما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام مُلكي. وقال الجاحظ: ليس شيء ألد، ولا أسر من عز الأمر والنهي، ومن الظفر بالأعداء، ومن تقليد المن أعناق الرجال. لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الدهن، وقسمة النفس. وقيل: الملك خليفة الله في عبادته ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته. وقال الحجاج: سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها. وقال اردشير لابنه: يا بني الملك والدين أعوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس، والملك حارس، ومن لم يكن له أس فمهذوم، ومن لم يكن له حارس فضائع. قيل: لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدمير المملكة حتى ولد له ولد. فتملك وأغار العرب على نواحي فارس في صباه. فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرساناً، وأغار على العرب فانتكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفاً، فليل له ذو الأكتاف. وأمر العرب حيثيذ يارخاء الشعور، وليس المصبغات وأن يسكنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة.

(١) عدولاً: منصفون.

(٢) الإصر: اللنب والقتل.

(٣) تفسح: تزول.

وقيل: من أخلاق الملوك حبُّ التفرّد، كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ربحان، وإذا لبس حلة لم يُر على أحد مثلها، وإذا تختمَ بخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله. وكان سعيد بن العاص بمكة إذا عتمَّ، لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه، وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترأ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها. وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر، لم يلبس أحد مثله حتى يتزعه. وأخبرني مَنْ سافر إلى اليمن إنه لا يأكل الأرز بها أحد غير الملك. وقيل: من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فَحصَّ المرصعة عن ابنها. وكان أردشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته وأوضعهم: كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت. حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء وما ذاك إلا بتصححه وتيقظه. وكان علم عمر رضي الله عنه بمن نأى عنه، كعلمه بمن بات معه على وسادٍ واحد. ولقد اقتضى معاوية أثره. وتعرف إلى زياد رجل فقال: أتتعرّف إليّ وأنا أعرف من أبيك وأمك، وأعرف هذا البرّد الذي عليك؟ ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه. وعن بعض العباسيين قال: كلمت المأمون رحمه الله تعالى في امرأة خطبتها، وسألته النظر إليها فقال: يا أبا فلان من قصتها وحليتها، وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتني<sup>(١)</sup>.

ومما جاء في طاعة ولاة أمور الإسلام: أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾<sup>(٢)</sup> وروينا في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم. وسئل كعب الأحبار عن السلطان، فقال: ظل الله في أرضه مَنْ نصحه اهتدى وَمَنْ غشَّ ضلَّ. وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في الأرض، به يقوم الحق، ويظهر الدين وبه يدفع الله الظلم، ويهلك الفاسقين. وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتي لك؟ قال: أحسن طاعة. قال: فأطعني كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك<sup>(٣)</sup>. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، وَمَنْ عصاني فقد عصي الله، وَمَنْ أطاع أمري فقد أطاعني، وَمَنْ عصى أمري فقد عصاني»، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر، ومناصحته ومحبه والدعاء له. ولو تبعت ذلك لطال الكلام. لكن أعلم - أرشدني الله وإياك إلى الاتباع، وجنبنا الزيغ<sup>(٤)</sup> والابتداع - أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الختيفية المحررة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين، وتنظّم أمور المسلمين. وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان، وأن طاعته عصمة من كل فتنة، وطاعة السلطان تقام الحدود، وتؤدّي الفروض، وتُحقن الدماء، وتؤمن السبل. وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها، وإن الخارج عن طاعة السلطان متقطع العصمة بريء من الذمة. وإن طاعة السلطان جبل الله المتين ودينه

(١) أبهتني: أدهشني.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) العقبان: مؤخر القدمين.

(٤) الزيغ: الضلال.

القويم، وإن الخروج منها خروج من أنس الطاعة، إلى وحشة المعصية، ومَنْ غَشَّ السلطان ضلَّ وزلَّ، ومَنْ أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل.

وإن طاعة السلطان واجبة، أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم، وقد اقتصرنا في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، وأن يُعيدنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن يصلح شأننا إنه قريب مجيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



## الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستخليك<sup>(١)</sup> ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ وإني أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشين له سراً، ولا تجرين عليه كذباً، ولا تتغابن عنده أحداً. قال الشعبي رحمه الله تعالى: قلت لابن عباس: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال إي والله ومن عشرة آلاف. وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيساً، فزده إجلالاً، وإذا جعلك أخاً، فاجعله أباً، وإذا زادك إحساناً، فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا في الثناء عليه، فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة. وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك، ولا تتغير منه إذا أقصاك.

وروي أن بعض الملوك استصحب حكيماً فقال له: أصبحك على ثلاث خصال: قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لي سراً، ولا تشتم لي عرضاً، ولا تقبل في قول قائل حتى تستشيرني. قال: هذا لك، فما ذا لي عليك؟ قال: لا أفشي لك سراً، ولا أدخر عنك نصيحة، ولا أوثر<sup>(٢)</sup> عليك أحداً. قال: نعمَ الصاحب للمستصحب أنت. وقال بزرجمهر: إذا خدمت ملكاً من الملوك فلا تُطعهُ في معصية خالك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه. وقالوا: اصحب الملوك بالهبة لهم والوقار، لأنهم إنما احتجوا عن الناس لقيام الهبة، وإن طال أنسك بهم تردد غماً. وقالوا: علم السلطان، وكأنك تتعلم منه، وأشر عليه وكأنك تستشيره، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويتق بك، وإياك والدخول بينه وبين بطانته فإنك لا تدري متى يتغير منك، فيكونوا عوناً عليك. وإياك أن تعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل. وفي الأمثال القديمة: احذروا زمارة المخدرة، وفيه قيل: (٣)

ليس الشفيعُ الذي يأتيك مَسْرَراً      مثل الشفيعِ الذي يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد: إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحق.

وأما ما جاء في التحذير من صحبة السلطان: فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان. قال في كتاب كلية ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحبة السلطان، واتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة. وكان يقال: قد خاطر بنفسه من ركب البحر، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان. وكان بعض الحكماء يقول: أحقُّ الأمور بالثبُّ فيها أمور السلطان، فإن من صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس شعار الغرور.

(١) يستخليك: يختلي معك.

(٢) أوثر: أفضل.

(٣) هذا البيت ينسب للفرزدق في غمز من ابن الزبير.

وفي حكم الهند: صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر. وقيل للعتابي: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأنني رأيت يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويومي من السور في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون. وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويطش بطش الأسد. وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون احفظ عني أربعاً: لا تصحب السلطان، وإن أمرته بالمعروف ونهيتك عن المنكر، ولا تخلو بامرأة وإن أقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رجمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً، وكم رأينا ويلقنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل، والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عدوى البليد إلى الجليد سريعةً      والجمرُ يوضعُ في الرماد فيخمدُ

ومثل من صحب السلطان، ليصلحه مثل من ذهب ليقم حائطاً مائلاً، فاعتمد عليه ليقمه فخر الحائط عليه فأهلكه، قال الشاعر:

ومعاشرُ السلطان شبهُ سفينةٍ      في البحر ترجفُ دائماً من خوفِهِ  
إن أدخلت من مائه في جوفها      يغتالها مع مائه في جوفِهِ

وفي كتاب كليله ودمنة: لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم، ولا وفاء ولا قريب ولا حميم، ولا يرغبون فيك، إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقرّبوك عند ذلك، فإذا قضا حاجاتهم منك تركوك ورفضوك. ولا ود للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يغفر. وقال الحكماء: صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه يخوف. وقال محمد بن واسع: والله لست التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين. وقال محمد بن السماك: الذباب على العذرة<sup>(١)</sup> خير من العابر على أبواب الملوك. وقيل: من صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه. وقال ابن المعتز: من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة، وعنه: إذا زادك السلطان تأنيساً وإكراماً فزده تهيئاً واحتشاماً. وقال أبو علي الصغاني: إياك والملوك فإن من والاهم أخذوا ماله، ومن عاداهم أخذوا رأسه. وقيل: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر ومال. وتحت مكتوبة: كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان. وقال حسان بن ربيع الحميري: لا تتمن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة فإنه خثون، ولا بالدابة فإنه شرود. وقال عبيد بن عمير: ما ازداد رجل من السلطان قرباً، إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه، إلا كثرت شياطينه، ولا كثرت ماله إلا كثرت حسابه. وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا      ولا أراهم رضىوا في العيش بالدون<sup>(٢)</sup>  
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما است      غنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم في ولاة بني مروان:

(١) العذرة: القنطرة من الغائط.

(٢) بالدون: بالقليل الذليل.

إذا ما قطعتم ليلكم بمُدايكم  
فَمَنْ ذا الذي يغشاكم في مَلْمُؤٍ<sup>(١)</sup>  
وأفئتموا أيامكم بمنام  
بشتم غلامٍ أو بشرب مدام  
رضيتم متن الدنيا بتأيسر بُلْفُؤٍ  
بمدح كرامٍ أو بسذم لثام  
ولم تعلموا أن اللسان موكل

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا: إن الملوك يستعظمون في الثواب ردّ الجواب، ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب. وقيل: شر الملوك من أمته الجريء، وخافه البريء. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب السادس عشر: في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿وَجْعَلْ لِي وَّزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى﴾<sup>(١)</sup> فلو كان السلطان يستخني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة فقال: ﴿اشْلُذْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾<sup>(٢)</sup> دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة. ثم قال: ﴿نَسْبَحَكَ كَثِيْرًا \* وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا﴾<sup>(٣)</sup> دلت هذه الآية على أن بصحة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفوه الخيل إلى السوط، وأحد الشفار<sup>(٤)</sup> إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان<sup>(٥)</sup>: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه<sup>(٦)</sup> عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله. وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنة، ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان فشاوره في ذلك فقال له هامان: بينما أنت إله تُعبد، إذ صرت تعبد، فأنت واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً، ولبس القراء، شر قرين لشر خدين. وأشرف منازل الأدميين النبوة، ثم الخلافة ثم الوزارة. وفي الأمثال: نِعْمَ الظهير الوزير، وأول ما يظهر نبل السلطان، وقوة تمييزه، وجودة عقله، في انتخاب الوزراء، واستقاء المجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدلك على كماله، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه. وكان يقال: حلية الملوك، وزيتهم وزراؤهم. وفي كتاب كليلية ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان. وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل مَلِكٌ إلا ومعه رجل حكيم، إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، في كل صحيفة: ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة. فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه. ومَثَلُ الملك الخير، والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التماسح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحاً، وإلى الماء محتاجاً. ومَثَلُ السلطان كَمَثَلِ الطبيب، ومَثَلُ الرعية كَمَثَلِ المرضى، ومَثَلُ الوزير كَمَثَلِ السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحداً من المرضى وصف للطبيب نقيض

(١) سورة: طه، الآية: ٢٩.

(٢) سورة: طه، الآيات: ٣١ - ٣٢.

(٣) سورة: طه، الآيات: ٣٣ - ٣٤.

(٤) أحد الشفار: حد السيف.

(٥) بطانتان: الحاشية.

(٦) تحضه: تدفعه.

دائه، فإذا سقاه الطيب على وصفة السفير هلك العليل. كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك، فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقاً في لسانه، عدلاً في دينه، مأموناً في أخلاقه، بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة. وليحذر الملك أن يولي الوزارة لثيماً، فالثيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي الفضل. ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء، وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير متشداً:

يا ملكاً طاعته لازمة      وجبته مفترض واجب  
إن السني شرفت من أجله      يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى الذمي، فأسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام. وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقع، وقال لوزيره: إذا رأيتي غضبان، فادفع إلي رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى: إنك لست بإله وأنتك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضاً، وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. وفي الثالثة: أفض بين الناس بحكم الله فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك. ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك في أكف الوزراء، سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبك الوزير فتم ولا تخش الأمير. ومثل السلطان كالدار، والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج، ومن أتاها من غير بابها انزعج، وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من البصرة، فكما أن من لم ينظر في المرأة لا يرى محاسن وجهه وعبويه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير: لا يعلم محاسن دولته وعبويها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفاً بهم.

واعلم: أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وإن استغلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرأة لا تترك وجهها إلا بصفاء جوهرها، وجودة صقلها وتقائها من الصدأ، كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، وتقائه قلبه. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

## الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجاب، فقد قيل: لا شيء أضيع للمملكة، وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه: مَنْ بالباب؟ فقال: رجل أناخ<sup>(١)</sup> ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ فأذن له أن يدخل. فلما دخل، قال: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ولى شيئاً من أمور المسلمين، ثم حجب<sup>(٢)</sup> عنه، حجه الله عنه يوم القيامة». فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما روي على بابك بعد ذلك حاجب. وكان خالد بن عبد الله القسري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجبني عني أحداً، فإن الوالي لا يحتجب إلا ثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكرهه أن يسأل شيئاً. وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك، ولا شيء أهب للرعية، وأكف لهم عن الظلم من سهولتهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل<sup>(٣)</sup>؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرد به بغير قضائها. قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب اللئيم ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق. فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا. ولو اعتذر إلينا لقبولنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضى كان الحمام مطيبي      ولكن من يمشي سيرضى بما ركب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضرباً شديداً، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناساً يُسرعون تبادراً      إذا فتح البواب بابك إصبعاً  
ونحن جلوسٌ سكاتون رزانة<sup>(٤)</sup>      وحلماً إلى أن يفتح الباب أجمعاً

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي حيناً فلم يؤذن له، فكتب رقعةً وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ      فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريمٌ قليل مالٍ      ولم يعدر تعللٌ بالحجابِ

(١) أناخ: أبرك ناقته.

(٢) حجب: منع.

(٣) يندمل: يبرأ ويشفى.

(٤) الرزانة: الاتزان والتعقل.

فلا تستكرن حجاب بابي

على أنه لا بد سوف يلين  
وإن لم تكن خانت سوف تخون

لم يُعطينا إذناً ولا يستأذن  
أو كان يدفع بالتّي هي أحسن

ولم ير الحاجب أن يأذنا  
ولن تراه بغد متأذنا

فيها لحسن صنيعك التّكدير<sup>(١)</sup>  
ويباب دارك منكر ونكير

محياء من قرط الجهالة حالك  
وحاجبها من دون رضوان مالك

ولو كنت أعمى عن جميع المسالك  
وحولت رجلي مسرعاً نحو مالك

والعبدُ بالباب الكريم يلوذ  
تغيب فكل محاصر مأخوذ

على ما أرى حتى يلين قليلا  
ولا فاز من قد نال منه وُصولا  
وجئنا إلى تزك المجيء سيلا

وأبواب الملوك محجبات

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم  
خذوا حذرکم من صفوة الدهر إنها

وقال آخر:

ماذا على بواب داركم الذي  
لو ردنا رداً جميلاً عنكم

وقال آخر:

أمرت بالتسهيل في الإذن لي  
فلن تراني بعدها عائداً

وقال آخر:

ولقد رأيتُ بباب دارك جفوة  
ما بال دارك حين تدخل جنة

وقال آخر:

إذا جئت ألقى عند بابك حاجباً  
ومن عجب مغناك جنة قاصد

وقال آخر:

سأترك باباً أنت تملك إذنه  
فلو كنت بواب الجنان تركتها

وقال آخر:

ماذا يفيلك أن تكون محجباً  
ما أنت إلا في الحصار معي فلا

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه  
فما خاب من لم يأتيه متعمداً  
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قال له: إن الكرى<sup>(٢)</sup> قد خطب إليّ نفسي، وإنما هي

(١) التكلير: التمكير والشويه.

(٢) الكرى: النعاس.

هجمة<sup>(١)</sup> وأهبط<sup>(٢)</sup>. فخرج الحاجب فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلاماً لا أفهمه وهو يريد أن يأخذ لك. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه، وبذلك طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسأله». وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال:

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا	لمثلك من أميرٍ أو وزيرٍ
رجوتاهم فلما أخلفونا <sup>(٣)</sup>	تمأذت فيهم غير الدهور <sup>(٤)</sup>
فتنا بالسلامة وهي غنمٌ	وباتوا في المحابس والقبور
ولما لم نزل منهم سروراً	راينا فيهم كل السرور

وأشدوا في ذلك أيضاً:

قل للذين تحجبوا عن راغبٍ	بمازلي من دونها الحجابُ
إن حال عن لقيائكم بوابكم	فالله ليس لبابيه بواب

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه، فهتف بالبكاء. فأتى إليه الناس وفيهم كعب، فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة. فقال كعب: لا تبك فإن في الجنة قصرًا من ذهب يقال له عدن، أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله. واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لثيم فحجبه فقال:

في كل يومٍ لي ببابك وقفةٌ	أطوي إليه سائر الأبواب
وإذا حضرتُ رغبتُ عنك فإنه	ذنبٌ عقوبتُهُ على البواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم: فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾<sup>(٥)</sup> جاء في التفسير أن من أتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك حبه خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الذي أصاب سليمان ابن داود عليهما السلام، أن ناساً من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه من غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً. وروي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمامة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها». وقال معقل بن يسار رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ

(١) هجمة: رقدة.

(٢) أهبط: أستيقظ.

(٣) أخلفوا: نقضوا عهودهم.

(٤) غير الدهور: تقلبات الأزمان.

(٥) سورة: ص، الآية: ٢٦.



يقول: «ما من عبد يسترعه الله رعية فلم يحطها بنصيحته، ألا لم يجد رائحة الجنة» وفي الحديث: «من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطها بنصيحته كما يحوط... أهل بيته فليتبوا مقعده من النار».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فيتنفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفاً» فقال عمر رضي الله عنه: سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع. قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان: إي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً في وادٍ يلتهب التهاباً، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون مَنْ يأخذها بما فيها. فقال سلمان: مَنْ أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروي أبو داود في السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده. فقال النبي ﷺ: «العرافاء في النار». وروي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر»<sup>(١)</sup>. وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرّة». وقال الحسن البصري: إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال: يا رسول الله خر<sup>(٢)</sup> لي، فقال: اقع في بيتك. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً<sup>(٣)</sup>، أنجاه عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه، فجار في حكمه. فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواح، فلم ينظر إليه وقال: هذا حكم لا أتولى حكماً أبداً. وقال أبو بكر بن أبي مریم: حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء، فقال: احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً أنه لم يكن صرافاً، ولا مكائناً، ولا عريفاً، وروى ولا عرافاً ولا بريدأ، وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يميناً كما قال فدلهم على الماء. فقالوا له: أعنا على غَسَلِهِ. فقال: لا، حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً كما تقدم. فحلفوا له، فصلى عليه. ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي وإني أراك ضعيفاً فلا تأمرن على اثنين ولا تلين<sup>(٤)</sup> مال يتيم».

ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق، ما حكى أن ملكاً من ملوك الفرس، يقال له أردشير، وكان ذا مملكة

(١) الجائر: الظالم.

(٢) خر لي: أي اصطف لي.

(٣) مغلولاً: مقبلاً بالسلاسل والأغلال.

(٤) من ولي يلي: من تولّى.

متسعة، وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارح، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسير أردشير مَنْ يخطبها من أيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير وأقسم الأيمان المغلظة ليفزون الملك أبا البنت وليقتله هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أنحبث مثلة. فسار إليه أردشير في جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقدأ واعتدلاً فبهت أردشير من رؤيته إياها فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني، ملك المدينة الفلانية، وإن الملك الذي قتله أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه، قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرنى في جملة الأسرى وأتى بي في هذا القصر فلما رأته ابنتي أرسلت تخطبها أحببتي وسألت أباها: أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحدة، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند أقاربه من الملوك. فقال أردشير: وددت لو أنني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة، ثم إنه تأمل الجارية فرأها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها فأخذها للسرّي. وقال: هذه أجنبية من الملك ولا أحنت في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رأته منشرح الصدر فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك. فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك من بحر الأردن وأنا ابنته التي خطبتها منه، وإنني سمعت أنك أقمت لتقتلني فتحييت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني فلا يتها لك قتلي. فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها وخرج من عندها مغضباً وعوّل على قتلها.

ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وإنه لا يقبل فيها شفاعة شافع. فقال: أيها الملك، إن الرأي هو الذي خطر لك، والمصلحة هي التي رأيتها أنت، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب، لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأي الملك وحثته في يمينه لأجل شهوة النفس. ثم قال: أيها الملك إن صورتها مرحومة، وحمل الملك معها وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق. قال له الملك: نعم ما رأيت، خذها وغرقها، فأخذها الوزير، ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيّل إلى أن طرح شيئاً في البحر أوهم مَنْ كان معه أنها جارية، ثم إنه أخضاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على ما فعل.

ثم إن الوزير ناول الملك حقاً<sup>(١)</sup> مختوماً، وقال: أيها الملك، إنني نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم، وإن لي أولاداً، وعندني مال قد ادخرته من نعمتك فخذها إذا مت إن رأيت، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه أرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء اكتسبه منه إلا هذا الجواهر. فقال له الملك: يطول الرب في عمرك ومالك لك، ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً. فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده ودبعة. فأخذ الملك وأودعه عنده في صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولداً ذكراً جميلاً مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسماً وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم

(١) الحق: وعاء من خشب أو عاج.

يتيأ له ذلك فسماه (شاه بور) ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك ويور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم، وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذه، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط، والحكمة، والفروسية وهو يوهم أنه مملوكٌ له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ. هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعد الهرم فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أنني ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها فقال الملك: لقد ندمت على تفريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكراً، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال: أيها الملك إنها عندي حية ولقد وضعت ولدًا ذكراً من أحسن الغلمان خَلَقًا وَخُلُقًا فقال الملك: أحقُّ ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب، وفي الوالد روحانية تشهد ببنة الأبن، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً، وإني سأتي بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنه وهيته ولباسه، وكلهم ذور آباء معروفين خلا هو، وإني سأعطي كل واحد منهم صولجاناً وكرة وأمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم، وشمائلمهم فكلٌّ مَن مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو. فقال الملك: نعم التدبير الذي قلت.

فأحضرهم الوزير على هذه الصورة، ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقرت من مجلس الملك تمنعه الهيئة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها جاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذ الهيئة منه. فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً فقال له: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور. فقال له: صدقت، أنت ابني حقاً ثم ضمّه إليه وقبله بين عينيه. فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والداً بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك. ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنهما وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها. فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم. فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير، وفك ختمه وفتحته فإذا فيه ذكر الوزير واتشاه<sup>(١)</sup> مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بلبلة واحدة. قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخلعة، وشدة مناصحته فزاده سروره، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية، وإثبات نسب الولد ولحوقه به. ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به، وضح جسمه. ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير، وشاه بور يحفظ مقامه، ويرعى منزله حتى توفاه الله تعالى. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

## الباب الثامن عشر: في القضاء، وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

### الفصل الأول: في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطَطْ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَكَمَ بَيْنَ اثْنَيْنِ تَحَاكَمَا إِلَيْهِ وَارْتَضِيَاهُ فَلَمْ يَقْضِ بَيْنَهُمَا بِالْحَقِّ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ». وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه. فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد علي<sup>(٤)</sup> خليفة رسول الله ﷺ. فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال: أتاني، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سألني عنهما، وعمّا قالا وقلت. وأدعى رجل على عليّ عند عمر رضي الله عنهما وعليّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا. وانصرف الرجل ورجع عليّ إلى مجلسه، فتيين لعمر التغير في وجه علي. فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيراً أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنتي بحضرة خصمي، هلاً قلت يا عليّ قم فاجلس مع خصمك. فأخذ عمر برأس علي رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال: بأبي أنتم بكم هدانا الله، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً. وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربه بالسياط وليسجنه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب. فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقامع<sup>(٥)</sup> الحديد في الآخرة. وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكشف عن باب مغلق، فظنناه كترأ فكتبنا إلى أبي بكر رضي

(١) سورة: ص، الآية: ٢٦.

(٢) سورة: ص، الآية: ٢٢.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٤٧.

(٤) وجد علي: غضب.

(٥) مقامع: مفردا مقمعة: عمود تتخذ للضرب.

الله عنه فكتب إلينا: لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان اليتان:

إذا خَانَ الأَمِيرُ وَكَاتَبَاهُ      وقاضي الأرضِ داهنٌ<sup>(١)</sup> في القضاء  
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ      لقاضي الأرضِ من قاضي السماء

وإذا عند رأسه سيف، أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه: هذا سيف عاد بن إرم. عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ، فإذا جار، برىء الله منه، ولزمه الشيطان». وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس إليه فكان لا يجيهم، فما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك قبض<sup>(٢)</sup>. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة». وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله من مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً لأن يدخل الرجل أصبعه في عينه فيقلعها ويرمي بها خير له من أن يكون قاضياً. وقيل: أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان أمير البصرة وقاضياً فيها، وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ، فأجد أحدهما أخفّ على قلبي من الآخر فأقضي له.

وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه، فقال له يحيى: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بيعة<sup>(٣)</sup> فأراد أن يحلف المأمون، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إنني تناولتك من جهة القدرة، ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطائه. وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل. فقال أبو يوسف: قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتع يا غلام، انتهي بعمرو بن أبي عمرو النخاس، فإنه إن قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين. ثم أن الحاجب أخذه بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه، فلما انتفض الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له: لو باعك لأجزت بيبه ولم أردك إلى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم، فإن ذلك عمودُ السلطان، وقوام الأديان. والله تعالى أعلم. وقال الأبرش العكلي يمدح بعض القضاة:

رفضتَ وعطلتَ الحكومةَ قبله      في آخرين وملها روضها<sup>(٤)</sup>  
حتى إذا قام ألفٌ بينها      بالحقِّ حتى جمعت أرفاضها<sup>(٥)</sup>

(١) داهن: جامل.

(٢) قبض: أي توفي.

(٣) بيعة: دليل وبرهان.

(٤) روضها: أي ستمها مديروها.

(٥) الأرفاض: ما تفرق واختلط.

وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكى وأنشد ملة الإسلام      إذ صرت تقعد مقعد الحكام  
إن الحوادث ما علمت كثيرة      وأراك بعض حوادث الأيام<sup>(١)</sup>

وتقدمت امرأة إلى قاض، فقال لها: جاء معك شهودك؟ فسكت. فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك؟ قالت: نعم هلاً قلت مثل ما قال كاتبك، كبر سنك، وقل عقلك، وعظمت لحيتك حتى غطت على لك، ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك. وقيل: المضروب بهم المثل في الجهل، وتحريف الأحكام قاضي منى، وقاضي كسرك، وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق الصايي:

يا رب علج<sup>(٢)</sup> أعلج      مثل البعير الأهوج  
رأيتَه مطلماً      خلف باب مرتج<sup>(٣)</sup>  
وخلفه عذينة      تذهب طوراً وتجي  
قللت من هذا ترى      فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيتُ رأساً كدبنة      ولحية كالمذبنة<sup>(٤)</sup>  
قللت من أنت قل لي      فقال قاضي شلبنة

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادعت عنده فقضى لها، هذيل الأشجعي:

فتن الشعبي لما      رفَع الطرف إليها  
فتنه بينان      كيف لو رأى معصيتها  
ومثت مثيراً رويداً      ثم هزّت منكبيها  
فقضى جوراً على الخصم      ثم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطاً.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول: فتن الشعبي لما، وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقتها الشعبي وقال رفع الطرف إليها. ثم قال: أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق. وأنشد بعضهم في أمين الحكم:

تماوتن إذا مشيت تخشعاً      حتى تصيب وديعةً لتييم

(١) حوادث الأيام: نوازلهما.

(٢) العليج: الغريب.

(٣) مرتج: باب معلق بإحكام.

(٤) المذبنة: طاردة الذباب.

## الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تولوا اليهود، ولا النصراني فإنهم يقبلون الرشا، ولا يحل في دين الله الرشا. قال الشهيدي: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم. وفي نوابغ الحكم أن البراطيل<sup>(١)</sup> تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً فأهدني له قبيل، فذلك السحت<sup>(٢)</sup> فقيل له: ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم. قال: الأخذ على الحكم كفر، وانشد المبرد رحمه الله تعالى:

وكنْتُ إذا خاصمتُ خصماً كَيْتِه<sup>(٣)</sup>      على الوجه حتى خاصمتني الدارهم  
فلما تنازعنا الحكومةَ غَلَبْتُ      عليّ وقالت قُمْ فإنك ظالمٌ

وأما الدَّيْن وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال: فقد روي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من دابن بدَّيْن وفي نفسه وفاؤه، ثم مات تجاوز الله عنه وأوصى غريمه بما شاء. ومن تدابن بدَّيْن وليس في نفسه وفاؤه، ثم مات اقتصر الله لغريمه منه يوم القيامة» رواه الحاكم وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بجنائز لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دَيْنِه فإن قيل عليه دَيْن كَفَّ عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دَيْن صلى عليه. فأتى بجنائز فلما قام ليكبر سأل ﷺ: هل على صاحبكم من دَيْن؟ فقالوا ديناران يا رسول الله. فعذر النبي ﷺ عنه، وقال: صلوا على صاحبكم. فقال علي كرم الله وجهه: هما عليّ يا رسول الله وهو بريء منهما. فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه، ثم قال لعلي رضي الله عنه جزاك الله عنه خيراً، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك، أنه ليس من ميت يموت وعليه دَيْن إلا ومرتهن بدينه، ومن فكَّ رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة.

وقال بعض الحكماء: الدَّيْن هم بالليل، وذلٌّ بالنهار، وهو غلّ جعله الله في أرضه، فإذا أراد الله أن يذلَّ عبداً جعله طوقاً في عنقه. وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى دَيْناً له على رجل فقالوا: خرج إلى الغزو. فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيى، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضي دَيْنُه» وعن الزهري قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دَيْن، ثم قال بعد، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من مات وعليه دَيْن فعليّ فضاؤه ثم صلى عليهم. وعن جابر: لا همَّ إلا همُّ الدين، ولا وجعٌ إلا وجعُ العين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تزوج امرأة بصدق بني أن لا يؤديه إليها فهو زانٍ، ومن استدان دَيْناً أن لا يقضيه، فهو سارق». وقال حبيب بن ثابت: ما احتجت إلى شيء استرضه إلا استرضته من نفسي. أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة. ونظيره قول القائل:

وإذا غلّى شيء عليّ تركتُهُ      فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

(١) البراطيل: الرشاوي.

(٢) السحت: الحرام.

(٣) كَيْتِه: رمية على الأرض.

وقال بعضهم أيضاً:

لقد كان القريضُ سَمِيرَ قلبي

فألتهني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرة التميمي:

إنني لأقضي الدَّيْنَ بعدما

يرى طالبني بالدَّيْنِ أن لست قاضياً

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدَّيْنَ بالدَّيْنِ لم يكن

قضاءً ولكن ذاك عُزْمٌ على غرمٍ

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حباً وكرامة، لكن سَكَنْتُ قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه. فقال:

يا أبا سعيد أما تتق بي؟ قال: بلى وإن خليل الله<sup>(١)</sup> كان وانقأ برهه، وقد قال له: «ولكن ليطمئن قلبي»<sup>(٢)</sup>.

اللهم أوف عنا دَيْنَ الدنيا بالميسرة ودَيْنَ الآخرة بالمغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين.

### الفصل الثالث: في ذكر القصاص، والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوفة، فقد روي عن خباب بن الارت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني

إسرائيل لما قصوا هلكوا». وروي أن كعباً كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصاص. وقال ابن عمر رضي الله

عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وإنما كان

القصاص حين كانت الفتنة. وقال ابن المبارك: سألت الثوري: من الناس؟ قال: العلماء. قال: فمن الأشراف؟ قال:

المثقون. قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قلت: من الفوغاء؟ قال: القصاص الذين يتأصلون أموال الناس

بالكلام. قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة. قيل: وهب رجل لقاض خاتماً بلا فص. فقال: وهب الله لك في الجنة

غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة<sup>(٣)</sup> التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله

عنها: إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا. فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال. وسئل ابن

سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من

أوله إلى آخره، فإن صعقوا فهو كما قالوا. كان بمرور قاضي يكي بمواعظه فإذا أطلت مجلسه بالبكاء أخرج من كفه

طنبوراً صغيراً فيحركه، ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك.

فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة. فقال أكلة رقصه<sup>(٤)</sup> وعظ عيسى

عليه السلام بني إسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال: ما ذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبواها.

(١) خليل الله: سيدنا إبراهيم عليه السلام.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٣) الصعقة: شدة التأثر.

(٤) رقصه: كثيرو الأكل والرقص.



وأما ما جاء في الرياء، فقد قال الله تعالى: ﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(١)</sup> وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأن تخلو من ذلك فتحشر مع المرأيتين». وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقيح الرياء. وقيل: كل ورج يحب صاحبه أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شيء. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء». وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة<sup>(٢)</sup> على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه، وقال: إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظللني، فقال له الرجل: قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة فحوكها الله تعالى إلى ذلك الرجل. وقال عبد الأعلى السلمي يوماً: الناس يزعمون أنني مرء، وكنت أؤمن بالله صائماً، ولا أخبرت بذلك أحداً.

اللهم أصلح فساد قلوبنا واستر فضاحتنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة: النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) الغمامة: السحابة.

## الباب التاسع عشر: في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم: أرشدك الله، أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل، بل تطلب الإحسان، وهو فوق العدل. فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾<sup>(١)</sup>. الآية فلو وسع الخلاق العدل ما قرن الله به الإحسان، والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي، والمحق من المبطل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه. وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لعمل الإمام العادل في رعيته يوماً واحداً، أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاماً» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم، الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال الكعب الأخبار: أخبرني عن جنة عدن. قال: يا أمير المؤمنين، لا يسكنها إلا نبي، أو صديق، أو شهيد، أو إمام عادل. فقال عمر: والله ما أنا نبي وقد صدقت رسول الله ﷺ، وأما الإمام العادل فإني أرجو لا أجور، وأما الشهادة فأتى لي بها. قال الحسن: فجعله الله صديقاً، شهيداً، حكماً، عدلاً. وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل أيما أبلغ عندكم الشجاعة، أو العدل؟ قالوا: إذا استطعنا العدل، استغنيا به عن الشجاعة

ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان<sup>(٢)</sup> عن العدل رغب الرعية عن طاعته. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته، ويسأله مالا يرممها به. فكتب إليه عمر: قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي فحَصِّنْ مدينتك بالعدل، وتَقَّ طرقها من الظلم فإنه مرممها والسلام. ويقال إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف. فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف وقيل أكثر. وقال: إن عشتُ لا بلقنَّه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمات في تلك السنة. ومن كلام كسرى: لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون الناس، ولأمر المؤمنين المنصور. فكتب المنصور لعامله: استوف لأمر المؤمنين حقه، وفرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء. ثم كتب للمنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء. فكتب إليه المنصور: ملكت الأرض بك

(١) سورة: النحل، الآية: ٩٠.

(٢) رغب السلطان: أي زهد فيه ومال عنه.

عدلاً. وكان أحمد بن طولون والي مصر متحلياً بالعدل مع تجبره، وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم، وينصف المظلوم من الظالم.

حكى أن ولده العباس استدعى بمغنية، وهو يصطبح<sup>(١)</sup> يوماً فلقبها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عوده فكسره فدخل العباس إليه وأخبره بذلك. فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر إليه قال: أنت الذي كسرت العود؟ قال: نعم. قال: أفعلت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمت لي؟ قال: أكرمه لك بمعصية الله عز وجل، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup>، ورسول الله ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». فاطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال: كل منكر تراه فغيره وأنا من ورائك. ووقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فانصفني منه، وأذنتي حلالة العدل، فأعرض عنه. فوقف له ثانياً فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة وقال: يا أمير المؤمنين إننا نجد في التوراة المثلثة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، أن الإمام لا يكون شريكاً في ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يُرَلَّهُ فقد شاركه في الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى مَنْ ظلمه فزله وأخذ لليهودي حقه منه.

وروي أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيمة له فأتى إلى المنصور فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، أذكر حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً. فقال: بل اضرب المثل. قال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفرح إلى أمه إذ لا يعرف غيرها، وظناً منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان. وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم فإني متوجه إلى بيته وحرمه. فقال المنصور: بل تنصفك. وأمر أن يكتب إلى واليه برّد ضيمته إليه.

وكان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إليكم الله الذي في السماء نصر نوحاً بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحبّ شيئاً إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أنبت أن الله تعالى يحب العدل في عباده، ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومن ظهر منه العدل من عمالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء، وليتمنّ عليّ ما شاء فلن تخطئه أمنيته والله تعالى المجازي كلُّ بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقيل: مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سقياً<sup>(٣)</sup> ففتح، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها: هذه من حب رمان عمل في خراجه بالعدل.

(١) يصطبح: يشرب خمرة الصباح.

(٢) سورة: التوبة، الآية: ٧١.

(٣) السقيا: العلية.

وقيل: تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه إلى المأمون فقال: ما علمت في عمالي أعدل، ولا أقول بأمر الرعية، وأعود بالرفق عليه منه. فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أجد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلداً بلداً. حتى يلحق كل بلد من عدله الذي لحقنا، ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين. فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم. وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء وقال: بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه. فأشرف عليهم من غرفة فقال لواصل: مَنْ هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم. قال: رحب على رحب، وقرب على قرب. فقال: إنه يجب أن يسمع أبياتك في العدل فقال: سمعاً وطاعة وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلاً نرُبه  
ولا نرى لولاة الحق أعوانا  
ستمسكين بحق قائمين به  
إذا تلوّن أهل الجور ألوانا  
يا للرجالِ لداؤ لا دواء له  
وقائدٍ ذي عمى يقتادُ عميانا

فقال المنصور: وددت لو أني رأيت يوم عدل، ثم مت. وقيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا إلى عمه له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقاً، فلما قبض سلك أصحابه به ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ، فلما أفضى الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنّه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ، وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يوم عصيباً فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أمتنيه الله. وقال وهب بن منبه: إذا همّ الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله التقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك. وقال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي، وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته متكرراً فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثه نفسه بأخذها. فلما كان من الغد من حلبت له النصف مما حلبت بالأمس فقال له الملك: ما بال حلبتها تقص، أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا، ولكن أظن أن ملكنا وآها أو وصله خيرها فهم بأخذها فتقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همّ بالظلم ذهب البركة. فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها، ولا يحسد أحداً من الرعية، فلما كان الغد حلبت كعادتها. ومن المشهور بأرض المغرب إن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلوى، وإن كل قصبه منها تعصر قدحاً، فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك. فقالت: نعم ثم إنها عصرت قصبه فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذي كان يقال؟ فقالت: هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها. فتاب الملك وأخلص لله التبة وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبداً، ثم أمرها فعصرت قصبه منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في كتابه سراج الملوك قال: حدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فنصبها السلطان فلم تحمل شيئاً في ذلك العام، ولا ثمرة واحدة. وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد: أعرف هذه

النخلة وقد شاهدها وهي تحمل عشرة أرادب ونية<sup>(١)</sup>، وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء، وكل وية بدينار. وحكى أيضاً رحمه الله تعالى: شهدت في الاسكندرية والصيد مطلق للرعية، السمك يطفو على الماء لكثرة، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حَجَره الوالي ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكتون ضمائهم إلى الرعية، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وروى أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا: كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا: مَنْ قتل البارحة، ومن صلب، ومن جلد، ومن قطع؟ وما أشبه ذلك. وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان، والمصانع والضياع، وشق الأنهار، وغرس الأشجار. ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح، كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة، ويتغالون في المتاح والسراري<sup>(٢)</sup> ويعمرون مجالسهم بذلك. ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن، وكم وردك كل ليلة، وكم يحفظ فلان، وكم يختم، وكم يصوم من الشهر؟ وما أشبه ذلك.

فينبغي للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضي الله عنهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محال هالك. وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك مقرب. وقد قيل إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالى بشراً بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاهاً للثمرات، وروحاً للعباد. ولو تتبع ما جاء في العدل والإنصاف وفضل الإمام العادل لألفت في ذلك مجموعاً جامعاً لهذا المعنى، ولكن اقتصر على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأه السامع، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) وية: ٢٤ مُد: ٤٣٢ كيلو غرام.

(٢) مفرداً السرية: الجارية التي ينكحونها.

## الباب العشرون: في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم. وقال تعالى: ﴿إِنَّا اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا بِهَمِّ سُرَادِقُهَا﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيَعِينَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ». وقال أيضاً ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا كَانَ لِأَخِيهِ قَبْلَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عَرْضٍ أَوْ مَالٍ فَأَتَاهُ فَتَحَلَّاهُ»<sup>(٥)</sup> منها قيل أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ مَعَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ». وقال أيضاً ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَوْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا؟ قَالَ: وَلَوْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكٍ». وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ يَا أَخَا الْمُرْسَلِينَ يَا أَخَا الْمُنْتَرِينَ أَنْتَرُ قَوْمَكَ فَلَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بَيْتِي، وَلَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَظْلَمَةٌ، فإني أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا يَصِلُنِي بَيْنَ يَدَيْ حَتَّى يَرُدَّ تِلْكَ الظَّلَامَةَ إِلَى أَهْلِهَا فَكُونَ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَيَبْصُرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَائِي وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِيٍّ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ». وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى حَقَّهُ». وعنه ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلَمَ فَشَخَصَ»<sup>(٦)</sup> يبصره إلى السماء إلا قال الله عز وجل ليبيك عبيد حقاً لأنصرك ولو بعد حين». وعنه أيضاً أنه قال: «أَلَا إِنَّ الظَّلْمَ ثَلَاثَةٌ، فَظَلَمَ لَا يَغْفِرُ، وَظَلَمَ لَا يَتْرَكَ، وَظَلَمَ مَغْفُورٌ لَا يَطْلُبُ. فَأَمَّا الظَّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُ فَالشَّرْكُ بِاللَّهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»<sup>(٧)</sup> وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه. ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين. فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب في أعلى عِلِينَ، وإذا مناوٍ ينادي: حلمي على الظالمين أحلّ المظلومين في أعلى عِلِينَ. وقيل: مَنْ سَلَبَ نِعْمَةً غَيْرَهُ، سَلَبَ نِعْمَتَهُ غَيْرُهُ. وسمع مسلم بن بشار رجلاً يدعو على مَنْ ظلمه، فقال

- (١) سورة: هود، الآية: ١٨.
- (٢) سورة: إبراهيم، الآية: ٤٢.
- (٣) سورة: الكهف، الآية: ٢٩.
- (٤) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٧.
- (٥) تحلله: جمعه في حل من التزامه.
- (٦) شخص: تأمل بدعشة.
- (٧) سورة: النساء، الآية: ٤٨.

له: كِلِّ<sup>(١)</sup> الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك. ويقال: مَنْ طال عدوانه زال سلطانه. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم. ورؤي لوح في أفق السماء مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت هذا البيت:

فلم أرَ مثلَ العدلِ للمرءِ رافعاً      ولم أرَ مثلَ الجورِ للمرءِ واضعاً  
وقال الشاعر:

كنتَ الصحيحَ وكنا منك في سقمٍ      فإن سقمتَ فإننا السالمون غداً  
دَعَتْ عليك أكفُّ طالما ظلمت      ولن تردَّ يدُ مظلومةً أبداً

وكان معاوية يقول: إني لأستحي أن أظلم مَنْ لا يجد عليّ ناصرًا إلا الله. وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظَلَمَةٌ فشكوتهم إلى أحمد بن أبي دؤاد وقلت: قد تضافروا عليّ وصاروا يداً واحدة. فقال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾<sup>(٢)</sup> فقلت له: إن لهم مكرًا، فقال: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾<sup>(٣)</sup> قلت: هم فئة كثيرة. فقال: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾<sup>(٤)</sup> وقال يوسف بن أسباط من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم عليه السلام: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه». وقال مجاهد: يسلم الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذيك هذا؟ فيقولون أي والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام تراءوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه. وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه. وقال غيره: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب. وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت. وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئاً قط هبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول حسبك الله، الله بيني وبينك. وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا بالله. ويكي علي بن الفضل يوماً فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على مَنْ ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة. وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد له ناصرًا غيري». ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان اذكر يوم الأذان. فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذَنَ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٥)</sup>. قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي مكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه. وروي أن كسرى أنو شروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب، فأوجعه فحقد أنو شروان عليه، فلما ولي الملك قال للمعلم: ما حملك

(١) كِلِّ: أركله.

(٢) سورة: الفتح، الآية: ١٠.

(٣) سورة: فاطر، الآية: ٤٣.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٥) سورة: الأعراف، الآية: ٤٤.

على ضربي يوم كذا وكذا ظلاماً؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم، رجوت لك الملك بعد أهلك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم. فقال أنوشروان زه زه<sup>(١)</sup>. وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فلا تأمننَّ الدهرَ حرّاً ظلّمتَهُ      فما ليلٌ حرٌّ إن ظلّمتَ بنائمٍ

وروي أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمن إذا ما كنتَ مقتدرًا      فالظلم مصدّره يفضي إلى الندم  
تأم عيناك والمظلومُ متيبّة      يدعوك عليك وعينُ الله لم تغم

وما أحسن ما قال الآخر:

أنهزاً بالدعاء وتزديده      وما تدري بما صنع الدعاء  
سهامُ الليل نافذةٌ ولكن      لها أمدٌ وللامد<sup>(٢)</sup> انقضاء  
فئسِكُها إذا ما شاء ربي      ويرسلُها إذا نفذَ القضاء

وقال أبو الدرداء: إياك ودعمة اليتيم، ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناس نيام. وقال الهيثم بن فراس السامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان:

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر      فقبلك كان الفضلُ والفضلُ والفضلُ  
ثلاثة أملاكٍ مضوا لسيلهم      أبادهم الموتُ المشئتُ والقتلُ

يريد الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سعد. ووجدت تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها:

وحقُّ الله إن الظلمَ لؤمٌ      وإن الظلمَ مرتعبٌ وخيمٌ  
إلى ديانٍ يوم الدين نمضي      وعندَ الله تجتمعُ الخصومُ

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكفي في مصلاه رقعة مكتوب فيها:

بغى وللبغى سهام تتظفر      أنفذ في الأحشاء من وخز الإبر  
سهام أيدي القاتين<sup>(٣)</sup> في السحر

قال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليّه القضاء: ما كنت لألي هذا بعدما حدثني إبراهيم. قال: وما حدثك إبراهيم؟ قال: حدثني عن علقمة عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة، وأعوان الظلمة، وأشياخ الظلمة، حتى من برى لهم قلماً أو لاق<sup>(٤)</sup> لهم دواة فيجمعون في تابوت

(١) زه زه: لفظة استحسان ومديح.

(٢) الأمد: الغاية.

(٣) القاتنون: طائفة الله.

(٤) لاق: جعل في جوفها حبراً.



من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم. وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبي للمظالم يوماً فلما اتقضى المجلس رأى رجلاً جالساً، فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم أدنني إليك فأني مظلوم، وقد أعوزني العدل والانصاف. قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت ولست أصل إليك، فأذكر حاجتي. قال: وما يحجبك وقد ترى مجلسي مبدولاً؟ قال: يحجبني عنك هيتك، وطول لسانك، وفصاحتك. قال: ققيم ظلمتك؟ قال: في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصباً مني بغير ثمن، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لثلاثين سنة لك اسم في ملكها فيبطل ملكي. فوكيلك يأخذ غلتها، وأنا أودي خراجها، وهذا لم يسمع بمثله في المظالم. فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بيّنة وشهود وأشياء، فقال له الرجل: أيؤمتي الوزير من غضبه حتى أجيب. قال: نعم قد أمتك. قال: البيّنة هم الشهود، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر. فما معنى قوله بيّنة وشهود وأشياء، وأي شيء هذه الأشياء، إن هي إلا الجور وعدولك عن العدل. فضحك محمد وقال: صدقت والبلاء موكل بالمنطق، وإني لأرى فيك مصطنعاً<sup>(١)</sup>، ثم وقع له بردٌ ضيعة، وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعة وصيّره من أصحابه، فكان قبل أن يتوصل إلى الانصاف وإعادة ضيعة له يقال له: يا فلان كيف الناس فيقول: بشرين مظلوم لا ينصر وظالم لا يتنصر. فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعة وأنصفه قال له ليلة: كيف الناس الآن؟ قال: بخير قد اعتدلت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الاجحاف، ورددت عليهم الغصب، وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب، والفوز بكل مطلوب.

ومما نقل في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلاً من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة، وكان صياداً يصطاد السمك ويقوّت منه أطفاله وزوجته. فخرج يوماً للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها، ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله. فلقى بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العوانية خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصباً بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال: إلهي جعلتني ضعيفاً، وجعلته قوياً عنيفاً، فخذ لي بحقي من عاجلاً، فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة.

ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها، فلما شوتها قدمتها له ووضعها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فهاها ونكرته في أصبح يده نكرة طار بها عقله، وصار لا يقربها قراره. فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل بها فلما رآها قال له: إن دواؤها أن تقطع الأصبع لثلاثين يري الألم إلى بقية الكف. فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد، وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه. فقال له الطبيب: ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لثلاثين يري الألم إلى الساعد فقطعها، فانتقل الألم إلى الساعد، فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه، حتى خرج هائماً مستغيثاً إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به. فرأى شجرة فقصدها فأخذها النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلاً يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضائك، امض إلى خصمك الذي ظلمته فارضه. فانتبه من النوم وفكر في أمر فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة مما جناه، ودفع إليه شيئاً من

(١) مصطنع: مكان للنعيم وأهل لها.

ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه. ويات تلك الليلة، فرد الله تعالى عليه يده كما كانت. ونزل الوحي على موسى عليه السلام: يا موسى وعزتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبه مهما امتدت به حياته.

ومما تضمنته أخبار الأخيار: ما رواه أنس رضي الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد إذا جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ<sup>(١)</sup> بك. فقال عمر رضي الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك، فقال: سأقت بفرسي ابناً لعمر بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقتعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عمراً أباه فخشي أن أتيك فحسني في السجن فانقلت منه فهذا الحين أتيتك. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان. وقال للمصري: أقم حتى يأتيك. فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالذرة. قال أنس رضي الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم يتزع حتى أحببنا أن يتزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين: قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. قال: ضعها على ضلع عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني: قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تتزع. ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إني لم أشعر بهذا.

وقيل لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد. فكتبت رقعة وفتت بها في طريقه وقالت: يا أحمد، يا بن طولون: فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه، وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم ففسنتم، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم. هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتتموها. فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا إلى الله مستجiron، واطلموا فإننا بالله متظلمون، «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»<sup>(٢)</sup>. قال: فعدل لوقته.

وحكي أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظملاً فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعود القيامة، والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بيته وكتب في آخرها.

غداً عند الإله من الظلوم  
وما زال الظلوم هو الملوم  
أداموه وينقطع النعيم  
وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم يا نؤوم إذا التينا  
أما والله إن الظلم لؤوم  
سيقطع التلذذ<sup>(٣)</sup> عن أناس  
إلى ديان يوم الدين نمضي

(١) العائذ: المستجير.

(٢) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) التلذذ: التمتع باللذات.

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار، فنام بعد أن أكل، فانتبه متزعجاً وقال: يا خدم. فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينوني والحقوا بالشط بأول ملاح ترونه منحدرأ في سفينة فارغة فاقبضوا عليه واتنوني به، ووكلوا السفينة مَنْ يحفظها. فأسرعنا فوجدنا ملاحاً في سفينة فارغة فقبضنا عليه، ووكلنا بها مَنْ يحفظها، وصعدنا به إلى المعتضد. فلما رآه الملاح كاد يتلف، فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلها اليوم، وإلا ضربت عنقك، فتلعثم وقال: نعم كنت سحرأ في المشرعة الفلانية فتزلت امرأة لم أر مثلها، عليها ثياب فاخرة، وحلي كثيرة، وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وأغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها، ثم طرحتها في الماء، ولم أجسر على حَمَل سلبها إلى داري لثلا يفشوا الخبر عليّ فعولت على الهرب والانحدار إلى واسط. فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك. فقال: وأين الحلبي والسلب؟ قال: في صدر السفينة تحت البواري. قال المعتضد: عليّ به الساعة فحضروا به فأمر بتفريق الملاح، ثم أمر أن ينادي ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرأ، وعليها ثياب فاخرة، وحلي فليحضر. فحضر في اليوم الثاني ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها، وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم. قال: فقلت: يا مولاي مَنْ أعلمك، أو أوحى إليك بهذه الحالة، وأمر هذه الصبيّة؟ فقال: بل رأيت في منامي رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي: يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره<sup>(١)</sup> على المرأة التي قتلها اليوم ظلماً، وسلبها ثيابها، وأقم عليها الحد ولا يفتك، فكان ما شاهدتم.

فيتعين على كل ولي أمر أن يعدل في الأحكام، وأن يتبصر في رعيته، وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالصفة ويراقب الله في السر والعلانية ويعلم أن الله يجازي على الخير والشر... ويعاقب الظالم على ظلمه، ويتصر للمظلوم، ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفته. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

(١) قرره: جعله يعترف.

## الباب الحادي والعشرون: في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وسيرة السلطان في استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة فيه فصلان

### الفصل الأول: في سيرة السلطان في استجباء<sup>(١)</sup> الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى: الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل، وما استندروا<sup>(٢)</sup> بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد، تعطيل الأرضين، وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور. ومكّل السلطان إذا أجهف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مكّل من يقطع لحمه من الجوع. فهو إن شيع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع. ومكّل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون، فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، ويتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان.

وروي أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميراً يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة، وبالبصرة بومة، فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لأنها فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلني في صدق ابتي مائة ضيعة خربة. فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها، لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك. قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض، وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية. وقال أبو الحسن بن علي الأسدي: أخبرني أبي قال: وجدت في كتاب قبلي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه، من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين، أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار. من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخلجان، والإنفاق على الجسور، وسد الترع، وتقوية من يحتاج إلى التقوية، من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات. وأجرة من يستعان لحمل البذر، وسائر نفقات تطبيق الأرض، ثمانمائة ألف دينار. ولما ينصرف للأرامل والأيتام، وإن كانوا غير محتاجين، حتى لا يخلوا أمثالهم من يرّ فرعون، أربعمائة ألف دينار.

(١) استجباء الخراج: تحصيله.

(٢) استندروا: أنفروا.

ولما ينصرف لكهنتهم، ويوت صلاحهم، مائتا ألف دينار. ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا، وينادي عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير ويفرق عليهم مائتا ألف دينار. فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمتاء فرعون إليه وهنؤه بفرقة الأموال، ودعوا له بطول البقاء، ودوام المز والنعماء والسلامة وأنهوا إليه حال الفقراء، فيأمر بإحضارهم وتغيير شعثهم<sup>(١)</sup> ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه، ويشربون ويستغهم من كل واحد منهم عن سبب فاقتة، فإن كان ذلك من أفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له. ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبه في كل سنة، مائتا ألف دينار. ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك، ويجعله في بيت المال لنواب الزمان، أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار.

وقال أبو رهم: كانت أرض مصر أرضاً مدبرة حتى إن الماء ليجري تحت منازلها وأفتيتها فيحبسونه حيث شاؤوا ويرسلونه حيث شاؤوا، وذلك قول فرعون: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾<sup>(٢)</sup> الآية. وكان ملك مصر عظيماً لم يكن في الأرض أعظم منه ملكاً، وكانت الجنان بحاقتي النيل متصلة لا يقطع منها شيء عن شيء، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد، وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروا من جسورها، وحافاتهما، والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها وذلك قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون \* وزروع ومقام كريم﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره. فجعل أهل القرى يسألونه أن يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً فكان ينهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى القبلة، ويسوقه كيف أرادوا إلى حيث قصد فليس خليج بمصر أكثر عطوفاً منه. فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة، فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده، ويفيض عليهم من خزائنه، وذخائره، ولا يرغب فيما بأيديهم. ردّ على أهل القرى أموالهم. فردّ عليهم ما أخذه منهم. فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه، ولا يخاف عذابه، ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويوقن الحساب، والثواب والعقاب؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾<sup>(٤)</sup> قال هي خزائن مصر، ولما استوتق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل وصارت الأسماء إليه وأراد الله تعالى أن يعرضه على صبره، لما لم يرتكب محارمه، وكانت مصر أربعين فرسخاً في مثلها، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب، وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم. وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع. مات العزيز وتملك يوسف، وافترقت زليخا وعمي بصرها فجعلت تتكفئ الناس، قليل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك ويعينك فطالما كانت تحفظينه وتكرمينه. ثم قيل لها: لا تعلمي لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسيء إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه. فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه. فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه، وكان يركب في

(١) الشمت: الفرقة.

(٢) سورة: الزخرف، الآية: ٥١.

(٣) سورة: الدخان، الآيتان: ٢٥ - ٢٦.

(٤) سورة: يوسف، الآية: ٥٥.

زهة مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته. فلما أحست به قامت ونادت: سبحان مَنْ جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، والعبيد ملوكاً بطاعتهم. فقال يوسف عليه السلام: من أنت؟ فقالت: أنا التي كنت أخدمك بنفسِي، وأرجل شعرك بيدي، وأكرم مثواك بجهدِي، وكان مني ما كان وقد ذقت وبال أمري، وذعبت قوتي، وتلف مالي وعمي بصري، وصرت أسأل الناس فمنهم مَنْ يرحمني، ومنهم مَنْ لا يرحمني. وبعدما كنت مغبوظة أهل مصر كلها، صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين. فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديداً وقال لها: هل في قلبك من حبك لإي شيء؟ قالت: نعم والذي اتخذ إبراهيم خليلاً لَنظرةً إليك أحبُّ إليَّ من ملء الأرض ذهباً وفضة. فمضى يوسف وأرسل إليها يقول: إن كنت أيما تزوجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيك. فقالت لرسول الملك: أنا أعرف أنه يستهزئ بي، هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة. فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها. وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلي، ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم فرد الله عليها حسننها، وجمالها، وشبابها، وبصرها كهيتها يوم راودته. فواقعا فإذا هي بكر فولدت له أفراتيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما.

فينبغي للقوي أن لا ينسى الضعيف، وللغني أنه لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالباً، ومرغوب فيه يصير راغباً، ومسؤول يصير سائلاً، وراحم يصير مرحوماً، فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته، ويفطينا بفضله. ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير. فقيل له: أتجوع ويملك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن حسن سيرة العمال، ما روي أن عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له عمير بن سعد، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضي الله عنه أن أقدم علينا. فلم يشعر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً، عكازته بيده، وإداوته<sup>(١)</sup> ومزوده وقصعته على ظهره. فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير آجبتنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أما هناك الله أن تجهر بالسوء، وعن سوء الظن، وقد جئت إليك بالندى أجرها بقرابها. فقال له: وما معك من الدنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها، وأدفع بها عدواً إن لقيته، ومزود أحمل فيه طعامي، وإداوة أحمل فيها ماء لشربي ولطهورِي، وقصعة أتوضأ فيها، وأغسل فيها رأسي وأكل فيها طعامي، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي. قال: فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر رضي الله عنه فبكى بكاء شديداً، ثم قال: اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل. ثم عاد إلى مجلسه فقال: ما صنعت في عمرك يا عمير؟ فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل اللمة، عن يدي وهم صاغرون<sup>(٢)</sup>. ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل. فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به. فقال عمر: عُدْ إلى عمرك يا عمير: قال: أنشدك يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي، فأذن له فأتى أهله، فبعث عمر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له اختر لي عميراً. وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله، هل هو في سعة أم ضيق، فإن كان في ضيق فادفع إليه المائة، فأتاه حبيب فتزل به ثلاثاً، فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت. فلما مضت ثلاثة أيام قال: يا حبيب إن رأيت أن تتحول إلى

(١) الإداوة: إناه يتخذ للماء.

(٢) صاغرون: راضون بالذل.

جيراننا، فلعلمهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا، فإننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به، قال: فدفعت إليه المائة دينار، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعا بفرو خلقاً لأمراته فجعل يصر منها الخمسة دنانير، والستة، والسبعة، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها. فقدم حبيب على عمر وقال: جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهدي الناس، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير. فأمر له عمر بوسقين<sup>(١)</sup> من طعام، وثوبين. فقال: يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما، عند أهلي صاع من برّ هو كافيهما حتى أرجع إليهم.

وروي أن عمر رضي الله عنه صرّ أربعمائة دينار، وقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم ترصب عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه وقال له: يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك. قال: وصله الله ورحمه. ثم دعا بجاريته وقال لها: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال له: انطلق بها إلى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من أمره. فمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح. ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة. فرجع الغلام فأخبره عمر، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

## الفصل الثاني: في أحكام أهل الذمة

روي عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام. بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حوالينا كنيسة ولا ديراً ولا قلية<sup>(٢)</sup> ولا صومعة راهب. ولا نجدد منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل، وأن نزل من مَرَبْنَا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوي في كنايسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في دين الإسلام إن أراه، وأن نوقر المسلمين، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس. وأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة، ولا عمامة ولا نعلين، ولا نتكلم كلامهم، ولا نتكلم بكلماتهم، ولا نركب في السروج، ولا نتخذ بالسيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا نقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر. وأن نجزّ مقدم رؤوسنا، ونلزم زينة حيشنا كنا. وأن نشد الزنار على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم، ولا نضرب بالنواقيس في كنايسنا إلا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع على منازلهم. وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان. فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق.

(١) الوسق: حمل بعير.

(٢) القلية: الصومعة.

فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن أمض ما سألوه وألحِقْ فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: أن لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين، ومَنْ ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

وروي أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين: إنا قوم من العرب أفرض لنا. قال: نصارى؟ قالوا: نصارى. قال: ادعوا إليّ حججاً ففعلوا، فجَزَّ نواصيهم، وشقَّ من أرديتهم حزماً يحترمون بها، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج، وأن يركبوا على الأُكف من شق واحد.

وروي أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى، ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زبهم، وزى المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا الله به الحق، وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشا في دينهم، ولا يحل في دين الله الرشا. ولما استقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أبا موسى الأشعري رضي الله عنه: من البصرة وكان عاملاً عليها للحساب دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكتابه، وكان نصرانياً فقال عمر: قاتلك الله - وضرب يده على فخذه - وليت ذمياً على المسلمين، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخِذُوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض﴾<sup>(١)</sup>، الآية هلا اتخذت حنيفاً. فقال: يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه. قال: لا أكرمهم، إذا هانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله.

وكتب بعض العمال إلى عمر رضي الله عنه: إن العدو قد كثر، وإن الجزية قد كثرت أفنتعين بالأعاجم؟ فكتب إليه: إنهم أعداء الله، وإنهم لنا غششة<sup>(٢)</sup> فأنزلوهم حيث أنزلهم الله. ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة، فقال: إني أريد أن أتبعك، وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: ارجع فلن نستعين بمشرك. ثم لحقه عند الشجرة فقال: جئتك لأتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال فارجع فلن نستعين بمشرك. ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك، فأجابه بمثل الأول فقال نعم. فخرج به وفرح المسلمون وكان له قوة وجلد. وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر. هذا، وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ، ووراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن. فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم إن لم يكن في أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون في غيرهم.

قال أصحاب الشافعي: ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا قلائس، يميزونها عن قلائس المسلمين بالحمرة، ويشدوا الزنانيير على أوساطهم، ويكون في رقابهم خاتم من نحاس، أو رصاص، أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات<sup>(٣)</sup>. وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل فوق الإزار وهو الأولى. ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام. ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض. ولا

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) غششة: جمع غشاش (للكثرة).

(٣) الطيلسان: كساء: أخضر اختص أهل العلم والمشايخ بلبسه.



يركبون الخيل، ولا البغال ولا الحمير، إلا بالأكف عرضاً، ولا يركبون بالسروج. ولا يتصدرون في المجالس، ولا ينادون بالسلام، ويلجأون إلى أضيقت الطرق ويمنعون أن يتناولوا على المسلمين في البناء وتجاوز المساواة، وقيل لا تجوز. وإن تملكوا داراً عالية أقرار عليها، ويمنعون من إظهار المنكر، كالخمر، والخنزير والناقوس، والجهر بالتوراة، والإنجيل. ويمنعون من المقام في أرض الحجاز، وهي مكة والمدينة واليمامة، وإن امتنعوا من أداء الجزية، والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم. وإن زنى أحد منهم بمسلمة، أو أصابها بنكاح، أو آوى عيناً للكفار، أو دل على عورة المسلمين، أو فتن مسلماً عن دينه، أو قتله، أو قطع عليه الطريق، تنتقض ذمته. وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال إنها مقدرة الأقل، والأكثر على ما كتب به عمر رضي الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً، وعلى من دون أربعة وعشرين درهماً، وعلى من دونه اثني عشر درهماً. وذلك بمحض من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ولم يخالفه أحد، وكان الصرف اثنا عشر بدينار وهذا مذهب أبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأحد قولي الشافعي، ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه، ولا جزية على النساء والمماليك والسيان والمجانين. وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الإسلام، ومنع أن تجدد كنيسة وأمر أن لا تظهر عليه خارجه من كنيسة، ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء، وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك في دار الإسلام بيعة، ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة.

والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثاني والعشرون: في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾<sup>(٢)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْعَهُ فَلَهُ ثَوَابُ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ» رواه البزار، والطبراني في معجمه. ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى وهو يعولهم.

وروينا في مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ». وعن كثير بن عبيد بن عمر وابن عوف المزني عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُمْ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ أَلَى<sup>(٣)</sup> عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ بِالنَّارِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَضَعَتْ لَهُمْ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَحْدُثُونَ اللَّهُ تَعَالَى وَالنَّاسَ فِي الْحَسَابِ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَعَى لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةِ قَضِيَّتِهِ لَهُ أَوْ لَمْ تَقْضَ غُفْرَ اللَّهِ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَكُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ». وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَضَى لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ حَاجَةَ كَتَبَ وَاقِعًا عِنْدَ مِيزَانِهِ، فَإِنْ رَجِحَ، وَإِلَّا شَفَعْتَ لَهُ»، رواه أبو نعيم في الحلية.

وروينا في مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ سَبْعِينَ حَسَنَةً، وَكَفَّرَ عَنْهُ سَبْعِينَ سَيِّئَةً، فَإِنْ قُضِيَتْ حَاجَتُهُ عَلَى يَدِهِ خَرَجَ مِنْ قَتْوِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَإِنْ مَاتَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةِ فَنَاصِحِهِ<sup>(٤)</sup> فِيهَا جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ سَبْعَ خَنَادِقٍ، مَا بَيْنَ الْخَنَدِيقِ وَالْخَنَدِيقِ، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ اللَّهُ عِنْدَ أَقْوَامٍ نَعْمًا يَقْرَأُهَا عِنْدَهُمْ مَا دَامُوا فِي حَوَائِجِ النَّاسِ مَا لَمْ يَمْلُوا، فَإِذَا مَلُوا تَقَلَّهَا اللَّهُ إِلَى غَيْرِهِمْ». وراه الطبراني.

وروينا من طريق الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَاسْبَغَهَا عَلَيْهِ ثُمَّ جَعَلَ حَوَائِجِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَتَبْرَمَ فَقَدْ عَرَضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزُّوَالِ». وعن أنس بن مالك رضي

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٢.

(٣) ألي: عهد وأسم.

(٤) ناصحة: أخلص له النصيح.

الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة، واحدة منها يصلح بها آخرته ودينه والباقي في الدرجات» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال... قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول الأسد في زثيره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس للناس. قيل: يا رسول الله فأبني الأعمال أفضل؟ قال: ادخال السرور على المؤمن. قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه. ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك، سره الله يوم القيام». رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن. وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة». رواه الطبراني. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدخل رجل على مؤمن من سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى، ويوحّد. فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور فيقول له أما تعرفني فيقول له من أنت؟ فيقول أنا السرور الذي أدخلتني على فلان، أنا اليوم أوانس وحشتك، وألقنتك حجبتك، وأثبتك بالقول الثابت وأشهد مشاهدك يوم القيامة، وأشفع لك إلى ربك. وأريك منزلك في الجنة». رواه ابن أبي الدنيا.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه: إذا أراد أحدكم الحاجة فليكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسي. وإنا أنزلناه في ليلة القدر، وأم الكتاب فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة وهو حديث مرفوع.

ومن كلام الحكماء: إذا سألت كريماً حاجة فدعه يفكر، فإنه لا يفكر إلا في خير. وإذا سألت لثيماً حاجة فعالجه لثلاً يشير عليه طبعه أن لا يفعل. وسأل رجل رجلاً حاجة ثم تواني عن طلبها، فقال له المسؤول: أنمت عن حاجتك؟ فقال: ما نام عن حاجته من أسهرك لها، ولا عدل بها عن محبة النجع من قصدك بها. فعجب من فصاحته، وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل. وقال مسلمة نصيب: سئني. فقال: كفك بالمعطية أبسط من لساني بالمسألة. فأمر له بألف دينار. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: فوّث الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها. وعنه أيضاً قال: لا تكثر على أخيك الحوائج فإن العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته. وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس: ما أدري ما أصنع بكثرة الطلاب. فقال: زل عن موضعك وعليّ أن لا يلقاك منه أحد. فقال له: صدقت. وجلس لهم في قضاء حوائجهم. وحدث أبو جعفر بن محمد بن القاسم الكرخي قال: عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات رقعة في حاجة لي فقرأها ووضعها في يده ولم يوقع فيها بشيء، فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبت إلى كريم حاجةً      وأبى فلا تقعدْ عليه بحاجِبِ  
فلربما منعَ الكريمُ وما به      بخُلٍّ ولكن سوءَ حظِّ الطالبِ

فقال: وقد سمع ما قلت، ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب، ولكن إذا سألتونا الحاجة فعاودونا فإن

القلوب بيد الله تعالى . فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت . وسأل إسحاق بن ريمي بن إسحاق بن إبراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون فقال لكاتبه : ضمّها إلى رقعة فلان فقال :

تأَنَّ<sup>(١)</sup> لحاجتي واشدُّ عُراها  
 قد أضحت بمنزلة الضياع  
 إذا شاركتها بلبانٍ أخرى  
 أضرتَّ بها مشاركة الرضاع  
 وقال أبو دفاقة البصري :

أضحت حوائجنا إليك مناخةً  
 معقولةً برحائبك الوصال  
 أطلق فديتك بالنجاح عقالها  
 حتى تُورَ معاً بغير عقال  
 وقال سلم الخاسر :

إذا أذنَّ الله في حاجتِ  
 أتاك النجاحُ على رسلِهِ<sup>(٢)</sup>  
 فلا تألَّ الناسَ من فضلهم  
 ولكنَّ سأل الله من فضلِهِ  
 والله درّ القائل حيث قال :

أيها المادحُ العبادَ ليعطى  
 إن لله ما بأيدي العبادِ  
 فأسأل الله ما طلبتَ إليهم  
 وارحُ فَرَضَ المقسم الجوادِ

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال : أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال : إذا كانت لك حاجة إليّ فارسل إليّ رسولاً ، أو اكتب لي كتاباً ، فإني لأستحي من الله أن يراك بياي . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً ، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في اتحداره حتى يطردها عنه كما تُطرده غريبة الإبل . وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما : يا جابر من كثرت نعم الله عليه ، كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للذوام والبقاء ، وإن لم يقم فيها بما يجب لله ، عرضها للزوال .

نعوذ بالله من زوال النعمة ، ونسأله التوفيق والعصمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

(١) تأَنَّ: اصبر وتمهل .

(٢) رسلِهِ: مثلاً .

## الباب الثالث والعشرون: في محاسن الأخلاق ومساوئها

قال الله تعالى لنيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>، فخص الله تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع، ومحاسن الأخلاق، من الحياء، والكرم، والصفح، وحسن العهد، بما لم يؤته غيره. ثم ما أتى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أتى عليه بحسن الخلق فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه. وكان الحسن رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: أكرم ولد آدم على الله عز وجل، أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله. أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى، وكان يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويقول: إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، ولا يأكل متكئاً، ولا على خوان، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب، ويقول يَرُدُّ هذا يطفىء حرَّ هذا، وكان أحبَّ الطعام إليه اللحم، ويقول هذا يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل. وكان يحب الدباء ويقول: يا عائشة إذا طبختم قدرأ فأكثروا فيه من الدباء<sup>(٢)</sup>، فإنها تشد قلب الحزين. وكان يقول: إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها، وكان يكتحل بالأنمد<sup>(٣)</sup> ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن<sup>(٤)</sup> والكحل والمرأة والمشط والإبرة يخيظ ثوبه بيده، وكان يضحك من غير قهقهة، ويرى اللعب المباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله. قالت عائشة رضي الله عنها: سابقته فسبته، فلما كثر لحمي سابقته فسبقتني فضرب بكفخي، وقال: هذه بتلك. وكان له عييد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب، ولا ملبس، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى يتيماً لا أب له ولا أم. فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أفصح الناس منقطعاً، وأحلامهم كلاماً، وكان يقول: أنا أفصح العرب. وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق نبياً ما قال لي في شيء قط كرهه، لم فعلته؟ ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته؟ ولا لأمي أحد من أهله إلا قال: دعوه كان هذا بقضاء وقدر. وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى: لا مانع من أن النبي ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية. فالنبي ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبداً له متواضعاً. فحاز المرتبتين: مرتبة العبودية ومرتبة الملكية. ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف. ويرقع ثوبه، ويخصف<sup>(٥)</sup> نعله، ويركب الحمار بلا أكاف، ويردف خلفه. ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز بدة ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى. مَنْ دعا لِبَاءه. وَمَنْ صافحه لم يرفع يده، حتى يكون هو الذي يرفعها، يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجالس الفقراء، أعظم

(١) سورة: القلم، الآية: ٤.

(٢) الدباء: القرع.

(٣) بالأنمد: حجر يكتحل به.

(٤) الدهن: أي الطيب.

(٥) يخصف النعل: يصلحه ويخرزه.

الناس من الله مخافة، وأتعبهم الله عز وجل بدنأ، وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. أما والله ما كان تغلق من دونه الأبواب، ولا كان دونه حجاب ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها، ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادماً له، ولا ضرب يده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ختر بين أمرين إلا واختار أيسرهما، إلا أن يكون إثماً أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه. وقال إبراهيم بن عباس: لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعومهم بأخلاقهم». وفي رواية أخرى فسعومهم بيسط الوجه والخلق الحسن. وعنه ﷺ: «حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير، والخير يجره إلى الجنة. وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيده الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار». وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب، والسوء الخلق اجنبي عند أهله. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلي من أن يصحبني عابد سوء الخلق، لأن الفاجر إذ حسن خلقه خف على الناس وأحبوه، والمعابد إذا ساء خلقه مقتوه.

إذا رامَ التخلُّفَ جاذبٌهُ<sup>(١)</sup> خلاقته إلى الطبع القديم

قيل: أي الله لسوء الخلق التوبة، لأنه لا يخرج من ذنب، إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون، حتى لا يفضح أحداً. وعنه ﷺ: ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق. وعنه أيضاً ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه، كن له، من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره». ثم قال: وحسن الخلق، وكف الأذى يزيدان في الرزق. وقيل: سوء الخلق يعدي، لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله. وكتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضي الله عنهم في إعطائه الشعراء. فكتب إليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وفي به العرض. فانظر إلى شرف أديبه، وحسن خلقه، كيف ابتدا كتابه بأنت أعلم مني، وكان بينه وبين أخيه كلام، قيل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك. فقال: إني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: أيما اثنين بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة، وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنة. فبلغ ذلك الحسن فجاه عاجلاً رضي الله عنهما وأشد في المعنى:

وإني لألقى المرة أعلم أنه عدلاً وفي أحشائه الضغنُ كامنُ  
فأمنحهُ بشراً<sup>(٢)</sup> ف يرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائنُ

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان، جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها. فقالوا: يا هذا فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليها وأحضر بين يدي جعفر. فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك، ألسنت يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك؟ وأقسم بالله لقد أنسيت هذا، ثم أمر للجوهري بسمتها. وقال للرجل: خلها الآن حلالاً طيباً وبها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبغ بيع خائف.

(١) جانبته: شنته.

(٢) بشراً: طلاقة الوجه.

ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعمه يده وجارية على رأسه تبسم. فقال لها المأمون: مم تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين؛ تتعجب من قبحي، وإكرامك إياي. فقال: لا تعجبي، فإن تحت هذه العمامة كراماً ومجداً قال الشاعر:

وهل ينفعُ الفتيانُ حسنُ وجوههم      إذا كانت الأعراض غيرَ حسانِ  
فلا تجعلِ الحسنَ الدليلَ على الفتي      فما كل مصقولٍ الحديدِ يمانِي

وحكي أن بهرام الملك خرج يوماً للصيد فانفراد عن أصحابه فرأى صيداً، فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بُعد عن عسكريه، فنظر إلى راعٍ تحت شجرة فتزل عن فرسه ليبول وقال للراعي: احفظ عليّ فرسي حتى أبول. فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبساً ذهباً كثيراً، فاستغل بهرام، وأخرج سكيناً ققطع أطراف اللجام، وأخذ الذهب الذي عليه، ورفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته. ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعي: قدّم إليّ فرسي فإنه قد دخل في عيني من ساني<sup>(١)</sup> الريح فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه فركبه وسار إلى أن وصل إلى عسكريه، فقال لصاحب مراجه: إن أطرف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحداً.

وذكر أن أنو شروان وضع الموائد للناس في يوم نيروز وجلس ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاؤوا بالشراب، واحضرت الفواكه، والمشموم في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه، وأنو شروان يراه، فلما قلده الشرايبي صاح بصوت عال: لا يخرجن أحد حتى يفتش. فقال كسرى: ولم؟ فأخبره بالقضية فقال: قد أخذه من لا يره، ورآه من لا ينم عليه، فلا تفتش أحداً. فأخذ الرجل اللجام، ومضى، فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه، وجدد له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك، ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له: هذا من ذاك، فقبل الأرض وقال: نعم أصلحك الله. وقال عبد الله بن طاهر: كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخادم. يا غلام، فلم يجبه أحد. ثم نادى ثانياً وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول ما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب، كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إليّ، كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ، فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه، سامت أخلاق خدمه، وإذا سامت أخلاقه، حسنت أخلاق خدمه، وإنما لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة والياً وكان وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيراً، إلا أغناه، ولا مديوناً إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلى من الجنى<sup>(٢)</sup>، ولقد شهدت منه مشهداً لو كان معاوية لذكرته. تغدينا يوماً عنده فأقبل الفراش بصحفه فعثر في وسادة فوقمت الصحيفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذفن الوليد وانكب جميع ما فيها في حجره. فبقي الغلام متمثلاً واقفاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجله، فقام الوليد فدخل فغير ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش، وقال: يا بائس ما أراتنا إلا

(١) ساني: غبارها.

(٢) الجنى: ما يجتى من الثمار.

روعتاك<sup>(١)</sup> اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى. ومرض أحمد بن أبي داود فعاده المعتصم وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار. فقال له أحمد: يا أمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة. فقال: نويت أن أتصدق بها على من ههنا، وأطلق أهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميري لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارمَ والمعروفَ أوديةً      أحلَّكَ اللهُ منها حيثَ تجتمعُ  
مَنْ لم يكنِ بأمينِ اللهُ معتصماً      فليسِ بالصلواتِ الخمسِ يتنصُّعُ

وقيل للأحف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال من قيس بن عاصم: بينما هو ذات يوم جالس في طوره إذا جاءت خادمته خادم له بسفود<sup>(٢)</sup> عليه شواء حار، فتزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته فدهشت الجارية فقال: لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى. وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحداً من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراعاة له فكان يعتقهم. فقيل له في ذلك، قال: مَنْ خدعنا في الله انخدعنا له. وروي أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة<sup>(٣)</sup> فألقى عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه ويطروا ألسنتهم في الملقى للرماد. فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئاً فإن من استحق أن يصب عليه النار، وصولح بالرماد، لم يجز له أن يغضب. وقيل لإبراهيم بن أدهم تغمدته الله تعالى برحمته: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين؛ إحداهما أنني كنت قاعداً ذات يوم فجاء إنسان فبال عليّ، والثاني كنت جالساً فجاء إنسان فصفعني. وروي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت. قال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكي أن أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك فانصرف رحمك الله. فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت، وأخذ يعتذر له، وقال احضر الساعة فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الأولى. ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال له: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه. فقال أبو عثمان: لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب فإن الكلب إذا دعي حضر وإذا زجر انزجر. وقال الحرث بن قصي: يعجبني من القراء كل فصيح مضحك<sup>(٤)</sup>، فأما الذي تلقاه ببشر، ويلقاك بوجه عبوس، فلا كثر الله في المسلمين مثله.

ومن محاسن الأخلاق، ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون فبعث، ففتحت أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينقص عليّ نومي، فرأيت وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع

(١) روعتاك: أفرعتاك.

(٢) بسفود: الحليمة يشوى بها.

(٣) الهاجرة: منتصف النهار.

(٤) مضحك: كثير الضحك.



الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان، نحو من ثلاثمائة خطوة. فأخذ منها كوزاً فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه فخطا خطوات خائفٍ لئلا ينهني حتى صار إلى فراشه. ثم رأته آخر الليل قام بيول وكان يقوم في أول الليل وآخره فقعده طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح: يا غلام تأهب للصلاة، ثم جاءني فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان ميتك؟ قلت: خير ميت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين. قال: لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك. فقلت: يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم فهناك الله بهذه النعمة وأتمها عليك. فأمر لي بألف دينار فأخذتها وانصرفت. قال: ويت عنده ذات ليلة فاتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه<sup>(١)</sup> وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسل، وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فاتبه. قال يحيى: وكنت معه يوماً في بستان ندور فيه، فجعلنا نمرُّ بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول. قال يحيى: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحوّل أنا في الظل، ويكون هو في الشمس فأمتنع حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيى والله لتكونن في مكاني، ولأكونن في مكانك، حتى أخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي. فقلت: يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أريك يوم الهول بنفسي لفعلت. فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل، وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف.

فانظر إلى أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها. نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الرابع والعشرون: في حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة وما أشبه ذلك

أعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع، وركن شديد، بها يمنع الضيم<sup>(١)</sup>، وتنال الرغائب، وتنجح المقاصد. وقد من الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء، وردّها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء فقال تعالى: ﴿واذكروا نعماً الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾<sup>(٢)</sup>، ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأولياته من الكرامة إذا جلعهم إخواناً على سرر متقابلين، وقد سنّ رسول الله ﷺ الإخاء، وندب<sup>(٣)</sup> إليه، وأخى بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم، إذا يقولون ﴿فما لنا من شافعين \* ولا صديق حميم﴾<sup>(٤)</sup> وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا في ذلك:

وما المرء إلا بإخوانه      كما يقبض الكف بالمعصم  
ولا خير في الكف مقطوعاً      ولا خير في الساعد الأجزم<sup>(٥)</sup>

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان، فإنهم معونة على حوادث الزمان، ونوابئ الحدثن وعون في السراء والضراء<sup>(٦)</sup>. ومن كلام علي رضي الله عنه وكرم وجهه:

عليك بإخوان الصفاء فإنهم      عماد إذا استجذتْهم وظهورُ  
وإن قليلاً ألف خلٌ وصاحب      وإن عُادوا واحداً لكثيرُ

وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب، إن لم تكن مثله شاتته. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة. وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة. قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء، والنظر إلى الحسن من كل شيء. قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت وهي أولاهن. وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب، ولبست اللين، وركبت

- (١) الضيم: الظلم.
- (٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٠٣.
- (٣) ندب: دعا له.
- (٤) سورة: الشعراء، الآيات: ١٠٠ - ١٠١.
- (٥) الأجزم: المقطوع جزء منه.
- (٦) الضراء: الضرر والحاجة.

الفاره، وانفضفت العذراء فلم يبق من لذاتي إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ. وكذلك قال معاوية رضي الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحافظ، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرؤه<sup>(١)</sup> وشربت الأشرية حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا، حتى اخترت بعلي، ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقي من اللذات ما تنوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا في معنى ذلك:

وما بقيت من اللذات إلا  
وقد كنا نعلمهم قليلاً  
محاذئة الرجال ذوي العقول  
قد صاروا أقل من القليل

وقال لييد:

ما عاتب المرأة الليب كفيه  
والمرء يصلحه الجليس الصالح<sup>(٢)</sup>

وقال آخر:

إذا ما آتت من صاحب لك زلة  
فكن أنت محتالاً لزلته علماً

وقيل لأبن السماك: أي الإخوان أحق ببقاء المودة. قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملك على القرب، ولا ينسك على البعد، إن ذنوت منه دناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعتت به عضدك وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله: وأنشدوا في المعنى:

إن أخاك الصديق من يسعى معك  
ومن إذا ربب الزمان صدعك  
ومن يضر نفسه ليضعفك  
شئت فيك شمله ليجمعك

وقال غيره:

وليس أخي من ودني بلسانيه  
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً  
ولكن أخي من ودني وهو غائب  
ومالي له إن أعوزته النوائب

وقال أبو تمام:

من لي بإنسان إذا اغضبته  
وإذا صبوت إلى المدام شربت من  
وجهلته كان الحلنم رد جوابه  
وقلبه ولعله أدري به

وقيل لخالد بن صفوان: أي اخوانك أحب إليك. قال: الذي يسد خلتي، ويغفر زلتي، ويقبل عثرتي. وقيل: من لا يواخي إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب، ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر:

(١) أستمرؤه: استسيفه وطيب لي أكله.

(٢) الرواية المشهورة للبيت. ما عاتب الحر الكريم كفيه.

وَمَنْ لَمْ يَغْمِضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ  
وعن بعض ما فيه يُمُتُّ وهو عاتبُ  
وقال آخر<sup>(١)</sup>:

إذا كنتَ في كُلِّ الأُمُورِ معاتباً  
صديقَكَ لِمَ تَلَقَّ السُّيِّئِ تعاتبُ  
وإن أنتَ لِمَ تَشْرَبُ مراراً على القذى  
ظلمتَ وأبغى الناسَ تصفو مشارئهُ

وقالوا: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه، أو خلة لا تحبها، فلا تقطع حبله ولا تصرم<sup>(٢)</sup> وده، ولكن داوِ كلمته، واستر عورته وابقه وابراً من عمله. قال الله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾<sup>(٣)</sup>، فلم يأمره بقطعهم وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ. وقال ﷺ: «الأرواح أجناد مجتدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن روحي للمؤمنين ليلتحيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه». وفي ذلك قال بعضهم:

هوَنُكُمْ بالسُّنْعِ قبل لِقائِكُمْ  
وَسُنْعُ الفتنى يهوى لعمري كطرفِهِ  
وَجَبْرُتُ عنكم كل جودٍ ورفعةٍ  
فلما التقينا كتتمُ فوقِ وِصفِهِ  
وقال آخر:

تبسّم الثغرُ عن أوصافكم ففدا  
من طيبِ ذكركم نشراً فأحياناً  
فمِنَ هناك عشقناكم، ولم نرُكُم  
والأذن تعشق قبل العين أحياناً

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه. ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه، ورجبة في لقائه، إلا نادته ملائكة من روائه طبت وطابت لك الجنة. وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم، وقالوا: شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة. وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقاً، ولعدو صديقك عدواً. وقالوا: أعجبُ الأشياءِ ودٌّ من يهودي، وحفظٌ من نصراني، ورياضة من دهري<sup>(٤)</sup> وكرم من أعجمي، والحذر من الكريم إذا أهته، واللثيم إذا أكرمه، والعاقل إذا أخرجته، والأحمق إذا مزحته، والفاجر إذا عاشرته. وقالوا: اصحب من الإخوان، مَنْ أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنتي جمائله، وفي شاكراً ناشراً لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل. وقال ابن عائشة: لقاء الخليل، شفاء الغليل. وقال بعض الحكماء: إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهداً. قال عبد الله بن طاهر:

خليليَّ للبغضاءِ حالٌ مينةٌ  
وللحبِّ أنارٌ تُرى ومعارفُ  
فما تُنكرُ العينانِ فالقلبُ منكرُ  
وما تعرفُ العينانِ فالقلبُ عارفُ

(١) تنسب هذه الأبيات لبشار بن برد.

(٢) صرم: قطع.

(٣) سورة: الشعراء، الآية: ٢١٦.

(٤) دهري هنا: معمر، طويل العمر.

وقال آخر:

وكنْتُ إذا الصديقُ أراد غيظي      وشرُّقني على ظمأً بريقي<sup>(١)</sup>  
غفرتُ ذنوبَهُ وكظننتُ غيظي      مخافةً أن أعيشَ بلا صديقي

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان من جلَّ همه      صبوح وإن أمسى قفضل غبوق<sup>(٢)</sup>  
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا      لضرُّ عدوٍّ أو لتفجع صديقي

وأما آداب المعاشرة فالبشاشة، والبشر، وحسن الخلق، والأدب. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا، والمصافحة إذا تلاقوا». كان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالس رجل يجعل له نصيباً من ماله، ويعينه على حوائجه، ودخل يوماً على معاوية فأمر له بألف دينار، وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس فدفعها للذي فسح له فقال:

وكنت جليساً قعقاع بن شور      وما يشقى بقعقاع جليساً  
ضحوك السن إن نطقوا بخير      وعند الشر مطراق<sup>(٣)</sup> عبوس

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لجليسي علي ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصفي له إذا حدث. ويقال: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك يناره أذاك بدخانته. وكانت تحية العرب: صبحتك الأنعمة، وطيب الأظعمة. وتقول أيضاً: صبحتك الأفالاح وكل طير صالح. ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال: إنه يصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب<sup>(٤)</sup>. وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة بأن يلاحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه، فيكون كل منهما في محله.

وقال ﷺ: «هو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق رضي الله عنه. إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر. ويتنهي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه. فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله، ولا يبتدع كلاماً لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال. وخير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولاً أن لا يقطع عليه مما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول، وعدوا ذلك من باب الأدب، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه. وقيل: ثمانية إذا أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخله فيه،

(١) أشرقه بريقه: أزمه الحجة وتغلب عليه.

(٢) الصبوح والغبوق: من أسماء أزمته شرب الخمر.

(٣) مطراق: كثير الإطراق والتكثير.

(٤) السحاب مع الجنوب: الريح الآتية من الجنوب.

والمترع لما لا يعنيه، والمتأمر على رب البيت في بيته، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان.

ويتعين على الجليس أن يراعي ألفاظه، ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليس ذا هيبة، فقد قيل: رُبَّ كلمةٍ سلبت نعمة. وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد عليّ حديثاً قط. وقيل إن أبا العباس كان يحدثه يوماً إذ عصفت الريح فأرمت طنتاً من سطح إلى المجلس فارتاع من حصر، ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح، فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي. فقال إن الله يقول: ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾<sup>(١)</sup> وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء<sup>(٢)</sup> ما أحسست بها، ولا وجمت لها. فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل، وصلة كبيرة. وكان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصني إليّ حديثي. وفي نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بانصاتك، وحنّته من وصمة الثناك. وقيل: من حق الملك إذا تباب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجله أو تمطى أو اتكأ، أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرتة. وكان أردشير إذا تمطى قام سماره. ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث، وإن طال الدهر. قال روح بن زنباع: أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثاً إلا مرة واحدة، فقال لي: قد سمعته منك. وعن الشعبي قال: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. وقال عطاء بن أبي رباح: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأنني لم أسمعه قط وقد سمعت به من قبل أن يولد.

وقيل بالمودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المسلمتين إذا التصيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت<sup>(٣)</sup> ذنوبهما كحبات ورق الشجر. وقيل: البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر. وقيل: من السنة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً. وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فالتق عدوك وصديقك بالطلاقة، ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات. وإذا جلست فلا تكبر على أحد، وتحفظ من تشييك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقتك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً، واصنع إلى كلام مجالسك. واسكت عن المضاحك، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين. ولا تلح في الحاجات. ولا تشجع أحداً على الظلم، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما. وإذا خاصمت فانصف، وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلى من وراءك، وأهدى غضبك وتكلم. وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك، وكلّمه بما يشتهي ولا يحملتك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده. وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك. ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالترم تزك الغيبة، ومجانبة الكذب، وصيانة السر، وقلة الحوائج،

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) الغبراء: الأرض.

(٣) تحاتت: تباركت.

وتهذيب الألفاظ، والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم، وإن ظهرت المودة. ولا تتجشأ<sup>(١)</sup> بحضرتهم، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم. ولا تجالس العامة فإن فعلت فأدب ذلك ترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم<sup>(٢)</sup>، والتغافل عما يجري من سوء أفعالهم. وليأك أن تمازح لبيباً أو سفيهاً فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة، ويذهب بماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الإيمان والود، ويشين فقه الفقيه، ويجريء السفيه، ويميت القلب، ويباعد عن الرب تعالى، ويكسب الغفلة والذلة. ومن بلي في مجلس بمزاح أو لفظ فليذكر الله عند قيامه. فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقول من مجلسه ذلك سبحانك اللهم ويحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

وأما آداب المساورة فقد روي أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في سفر على بعير. فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشى فيعزمان عليه أن لا يمشي، فيأبى ويقول: ما أنتم بأقدر مني على المشي، وما أنا بأغنى منكم على أجر. وقال ﷺ: لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي. وقيل: لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث: إذا ساروا ليلاً، أو خاضوا سيلاً، أو واجهوا خيلاً. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: نكته، وغيبته، ووفاته.

وأما ما جاء في الإخوان القليلي الموافاة، المديمي المكافاة ليس عندهم لصديق مصافاة، فقال وهب بن منبه: صحبتُ الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أقال لي عشرة، ولا ستر لي عورة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا كان الغدر طبعاً، فالتمة بكل أحد عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى، وحيوان غير موجود. قال الشاعر:

سَمِعْنَا بِالصَّدِيقِ وَلَا نَرَاهُ      عَلَى التَّحْقِيقِ يَوْجَدُ فِي الْأَنَامِ  
وَأَحْسَبُهُ مُحَالاً نَمَقُّوه<sup>(٣)</sup>      عَلَى وَجهِ الْمَجَازِ مِنَ الْكَلَامِ

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا أشواكاً لا ورق فيه. وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس، وأكثر من عرفت منهم، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين، وكن من الواحد على حذر. وقيل لبعض الولاة: كم لك صديق<sup>(٤)</sup>؟ قال: أما في حال الولاية فكثير، وأنشد:

الناسُ إخوانٌ من دامت له نِعَمٌ      والوسيلُ للمرءِ إن زَلَّتْ به القَدَمُ

ولما نكب علي بن عيسى الوزير لم ينظر بيباه أحد من أصحابه الذين يلقونه في ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه بيباه ثانياً فقال:

- (١) تجشأ: صوت يخرج من المعلة.
- (٢) أراجيفهم: الأخبار التافهة.
- (٣) التميقي: التحسين والترين.
- (٤) صوابها: «كم صديقاً لك؟».

فكلما انقلبَت يوماً به انقلبُوا  
يوماً عليه بما لا يشتهي وتَبُوا

لكنهم في النائبات قليلٌ

من ذي خداع يرى بشراً وألطافاً  
وسرت في الأرض أوساطاً وأطرافاً  
ولا أخاً يذلُّ الإنصاف إن صافى

فما نالني منهم سوى الهم والعنا<sup>(١)</sup>  
خيلاً يوفى بالعهود ولا أنا

خلٌّ وفيّ للشدائدِ أمطفي  
الغول والعقاة والخل الوفي

فإنني به في ودّه غير واثق

فلا تأمن خليلك أن يخوننا  
ولكن قلّما قلّقى أميننا

أودك إن السراي عنك لعنازب  
ولكن أخي من ودني وهو غائب  
وما لي له إن أهوزتة النوائب

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها  
يعظمون أحبا الدنيا فلإن وثبت

وقال آخر<sup>(١)</sup>:

فما أكثر الأصحاب حين نعلمهم

وقال البحري:

إياك تغتر أو تخدعك بارقةً  
فلو قلبت جميع الأرض قاطبةً  
لم تلق فيها صديقاً صادقاً أبداً

وقال بعضهم في المعنى أيضاً:

خليلي جرّت الزمان وأهلته  
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجذ

وقال آخر:

لما رأيت بني الزمان وما بهم  
فعلمت أن المستحيل ثلاثة

وبيت مفرد:

وكلُّ خليلٍ ليس في الله ودّه

وقال آخر:

إذا ما كنت متخذاً خيلاً  
فإنك لم يخنك أخ أمينٌ

وقال آخر:

تحبُّ عدوي ثم نزعتم أنسي  
وليس أخي من ودني بلساني  
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زوّر عنه كتاباً إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجه له، ثم إن السلطان ظهر له في بقية يومه أنه بريء مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه فأشدد يقول هذه الآيات:

(١) ينسب لأبي فراس الحمداني.

(٢) العنا: مخفف العناء.



تحالفَ الناسُ والزمانُ  
عاداني الدهرُ نصفَ يومٍ  
يا أيُّها المعرضون<sup>(١)</sup> عَنَّا  
فحيثُ كانَ الزمانُ كانوا  
فانكشفُ الناسُ ليَ ويانوا  
عُودوا فقد عادَ ليَ الزمانُ

ومثله في المعنى:

أخوك أخوك مَنْ يدنو وترجو  
إذا حازنتَ حازبَ مَنْ تعادي  
مودته إن دُعي استجابا  
وزاد سلاخه منك اقترابا

وقال أبو بكر الخالدي:

وأخ رخصتُ عليه حتى ملني  
مأ في زمانك من يعزُّ وجوده  
والشيءُ مملوؤٌ إذا ما يرخصُ  
إن رُمتهُ إلا صديقٌ مخلصُ

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا مَنْ له دين وتقوى، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة، وما أحسن ما قال بعضهم:

وكلُّ محبوبٍ في الله تبقى  
وكلُّ محبوبٍ فيما سواه  
على الحاليين من فرج وضيق  
فكالحلفاء<sup>(٢)</sup> في لهب الحريق

فينبغي للإنسان أن يجتنب معاشرَةَ الأشرار، ويترك مصاحبةَ الفجار، ويهجر من ساءت خلقته وقبحت بين الناس سيرته: قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> فأثبت الله المماثلةَ بيننا وبين البهائم، وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة؛ فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم.

ولهذا تجد أخلاق الخلاق مختلفة، فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلاقه، غليظاً في طباعته، قوياً في بدنه لا تؤمن ضغائنه، فألحِقْهُ بعالم النمورة. والعرب تقول: أجهلُ من نمر: وإذا رأيت الرجل هجماً على أعراض الناس فقد مائل عالم الكلاب. فإن دَابَّ الكلب أن يجفو من لا يجفوه، ويؤذي من لا يؤذيه، فعاملُهُ بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح، ألسنته تلعب وتتركة؟ وإذا رأيت إنساناً قد جبل على الخلاف إن قلت نعم قال لا وإن قلت لا قال نعم: فألحِقْهُ بعالم الحمير فإن دَابَّ الحمار إن أدبته بَعْدَ، وإن أبعدته قَرَّبَ، فلا تتضع به ولا يمكنك مفارقتة. وإن رأيت إنساناً يهجم على الأموال والأرواح فألحِقْهُ بعالم الأسود. وَخَذْ حَلْرَكَ مِنْهُ كَمَا تَأْخُذُ حَلْرَكَ مِنَ الْأَسَدِ. وإذا بليت إنساناً خبيث كثير الروغان فألحِقْهُ بعالم الثعالب. وإذا رأيت مَنْ يمشي بين الناس بالنميمة، ويفرق بين الأحبة فألحِقْهُ بعالم الظربان<sup>(٥)</sup>، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة: مشى بينهم ظربان ففترقوا<sup>(٦)</sup>. وإذا رأيت إنساناً لا

(١) المعرضون: المتصرفون.

(٢) الحلفاء: نبت.

(٣) سورة: الزخرف، الآية: ٦٧.

(٤) سورة: الأنعام، الآية: ٣٨.

(٥) الظربان: حيوان تن الربع.

(٦) ففترقوا: مثل للفرق بسبب النميمة.

يسمع الحكمة والعلم، وينتفر من مجالسة العلماء، ويألف أخبار أهل الدنيا فألحقه بعالم الخنافس فإنه يعجبها أكل العذرات، وملازمة النجاسات، وتنتفر من ريح المسك والورد، وإذا شممت الرائحة الطيبة ماتت لوتحتها. وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلمها، يبيض ثيابه ويمدح عمامته، وينظر في عطفه فألحقه بعالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات، فألحقه بعالم الجمال. والعرب تقول: أحقّد من جمل. فتجنّب قرب الرجل الحقود. وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومَن لا وفاء لهم، فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه، والله أعلم.

وأما الزيارة والاستدعاء إليها، فقد قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتبادلين فيّ والمتزورين فيّ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» وقال ﷺ: «مَن عاد مريضاً، أو زار أخاً، نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلاً» وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة. قال الشاعر:

رُزُّ مَنْ تَحَبُّ وَإِنْ شَعَلَتْ بِكَ<sup>(١)</sup> الدَّارُ      وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حَجَبٌ وَأَسْتَارُ  
لَا يَمْنَعُكَ بُغْدٌ مِنْ زِيَارَتِهِ      إِنَّ الْمَحَبَّ لَمَنْ يَهْوَاهُ زَوَارُ

ولكن الزيارة غيباً<sup>(٢)</sup> لقوله ﷺ: «رُزُّ غَيْبًا تَرَدَّدَ حَبَاهُ» قال الشاعر في معنى ذلك:

عَلَيْكَ بِأَغْيَابِ الزِّيَارَةِ إِنِّهَا      إِذَا كَثُرَتْ صَارَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَلَكاً  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُنَامُ دَائِماً      يُسْأَلُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَ

ويقال: الإكثار من الزيارة ممل، والاقبال منها مخل. وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إِذَا مَا تَقَاطَعْنَا وَنَحْنُ بِيَلَدٍ      فَمَا فَضْلُ قُرْبِ الدَّارِ مِنَّا عَلَى الْبَعْدِ

وقال آخر:

وَإِنْ مَرَرِي بِالْأَيْدِيِ الَّتِي بِهَا      سَلِمْتِي وَلَمْ أَلْمَمْ بِهَا لِحَفَاءِ

وقال آخر:

قَدْ أَنَا مِنْ آلِ سَعْدِي رَسُولٌ      حَبْدًا مَا يَقُولُ لِي وَأَقُولُ

وقال آخر:

أَزُورُ بِيوتاً لِاصْفَاتِ بَيْتِهَا      وَقَلْبِي فِي الْيَتِ الَّذِي لَا أَزُورُهُ

وزار محمد بن يزيد المهلي المستعين، وهب له مائتي ألف درهم وأقطعه أرضاً فقال:

وَخَصَّصْتَنِي بِزِيَارَةِ أَصْحَى لَنَا      مَجْدٌ بِهَا طَوَّلَ الزَّمَانَ مَوْثِلُ<sup>(٣)</sup>

وقضيت ديني وهو دين وانفر      لَمْ يَقْضِهِ مَعَ جُودِهِ الْمَتَوَكِّلُ

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

(١) شطت: نأت وبعدت.

(٢) الغيب: الزيارة يوماً بعد يوم.

(٣) المجد الموثل: الأصيل.

نحنُ في أفضلِ السرورِ ولكنَّ  
 عيبُ ما نحنُ فيه يا أهلِ ودِّي  
 فاجِدُوا الميْرَ بل إن قدرْتُمْ  
 أن تطيروا مع الرياحِ فطيروا  
 ليسَ إلا بكم يتمُّ السرورُ  
 أنكم غيْثُكم ونحنُ حضورُ

وقيل لفيلسوف: أي الرسل أنجح؟ قال: الذي له جمال وعقل. وقيل: إذا أرسلتم رسولاً في حاجة فاتخذوه حسن الوجه، حسن الاسم. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيماً عارفاً فكن رسول نفسك وقال بعضهم:

إذا أبطأ<sup>(١)</sup> الرسولُ فقلْ نجاح  
 ولا تفرِّخْ إذا عجلَ الرسولُ  
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبطأ: مقصور أبطأ.

# الباب الخامس والعشرون: في الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشجاعة، وإصلاح ذات البين وفيه فصلان

## الفصل الأول: في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَشَّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾<sup>(١)</sup> ووصف الله نفس لعباده فقال عز وجل: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾<sup>(٢)</sup> وقال الله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم﴾<sup>(٣)</sup> قال المفسرون: الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرفقة والالطف والكرم والمنة والحلم على الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يَصْعُ الله الرحمة إلا على رحيم قلنا: يا رسول الله، كلنا رحيم. قال: ليس للرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين». رواه أبو يعلى، والطبراني. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من لا يرحم لا يُرحم، ومن لا يَغْفِر لا يُغْفَر له» وعنه ﷺ قال: «لرحموا تُرحموا واغفروا يُغفروا لكم». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي». رواه أبو محمد بن عدي في كتب الكامل.

وروينا، من طريق الطبراني، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في تراحمهم وتواددهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» قال الطبراني: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فسألته عن هذا الحديث فقال النبي ﷺ وأشار بيده: صحيح صحيح صحيح ثلاثاً. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مسح على رأس يتيم، كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة». ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقياً على ظهره، وصيبانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه. فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ؟ وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدالاً<sup>(٤)</sup> أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس، وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين.

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة: الفاتحة، الآيات: ٢ - ٣.

(٤) أبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الأرض منهم كلما مات واحداً بده الله.

## الفصل الثاني: في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا<sup>(١)</sup>﴾ وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه، كما يسأله عن عمره، فيقول له: جعلت لك جاهاً، فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً، أو غثت به مكروباً؟» وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك مَنْ لا جاه له». وعن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تزجروا، يقضي الله تعالى على لسان نبيه ما شاء». وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان، قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة تفكُّ بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجرّ بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كربة». رواه الطبراني في المعارج. وقال علي رضي الله عنه: الشفيح جناح الطالب.

وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك، ليكون شكري لك لا لغيرك. وقيل: كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكان الناس لعظم قدره يفتخرون به في الشفاعات فتقل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك، فكلمه وقال: أعف يا أمير المؤمنين، لا تتقل عليه في الشفاعات فقبل ذلك منه. فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه إيصالها إلى المنصور فقص عليهم القصة، فأبوا إلا أن يأخذها. فقال: اقلدوها في كمي، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله. فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك وهناك ياتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام، أحسن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سمجتها<sup>(٢)</sup> في عيني خصلة، قال: وما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فتبسم. وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد اقلعتكها. فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد، كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه. ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بلبت الرقاع من كفه فجعل يردهن، ويقول: أرجعن خائبات خاسرات. فضحك المنصور، وقال: بحقي عليك ألا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع فأعلمه. وقال: ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريماً، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

لسنا وإن احسبنا كرمنا  
تنبني كما كانت أوائنا  
يوماً على الأحساب تتكل  
تنبني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها. قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت. وقال المبرد: أتاني رجل لأشفع له في حاجة فأشدني لنفسه:

إنني قصدتك لا أدلي بمعرفتي  
ولا بقرب ولكن قد فشئت نعمك

(١) سورة: النساء، الآية: ٨٥.

(٢) سمجتها: جعلها تبدو ثقيلة ممجوجة.

فبئس حيراناً مكروباً يؤرقني      ذلُّ الغريب، ويغشيني الكرى كرمك  
 ما زلت أنكب، حتى زلزلت قدمي      فأختل لثيبتها لا زلزلت قدمك  
 فلو هممت بغير العرف ما علقت      به يداك ولا انقادت له شيمك

قال: فشفت له وأنته من الإحسان ما قدرت عليه. وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شفيعي إليك الله لا شيء غيره      وليس إلى ردِّ الشفيح سييل

فأمره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم، فلما استوفى في ثلاثين ألفاً ذهب الرجل.  
 قال يحيى: والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعها عنه. وقال آخر:

وقد جتكم بالمصطفى متشفعاً      وما خاب من بالمصطفى يتشفع  
 إلى باب مولانا رفعت ظلامتي      عسى اللهم عني والمصائب تُرفع

وقال آخر:

تشفع بالنبي فكُلُّ عبدٍ      يُجار إذا تشفع بالتبي  
 ولا تجزع إذا ضاقت أمورٌ      فكَمَ لله من لطفٍ خفي

وروي أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال:  
 سقي الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وسترا للنوب على المسلمين إذا اذنبوا.

اللهم استر ذنوبنا، واقض عنا تبتعاتنا وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب السادس والعشرون: في الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان

### الفصل الأول: في الحياء

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للمصاحب، وقرى الضيف، وأسهن<sup>(١)</sup> الحياء. وقال رسول الله ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان». وقال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من كسا بالحياء ثوبه لم يرى الناس عيبه. وعن زيد بن علي عن أبيه يرفمونه: من لم يستح فهو كافر. وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه صلمي<sup>(٢)</sup> حياء من ربي. وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء. وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل: على الخوف، والرخاء، والتعظيم، والحياء، فأرفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال. قالوا سواء علينا رأيتنا أو رأنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه. ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

### الفصل الثاني: في التواضع ولين الجانب، وخفض الجناح

قال الله تعالى: «واخفضْ جناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ»<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: «تلك الدارُ الآخرةُ نجعلُها لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»<sup>(٤)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «أفضل العباداة التواضع» وقال ﷺ: «ولا ترفعوني فوق قدري فتقولوا فيّ ما قالت النصارى في المسيح، فإن الله عز وجل اتخذني عبداً، قبل أن يتخذني رسولاً» وأتاه ﷺ رجل فكلمه فأخذته رعدة. فقال ﷺ له: «هون عليك، فإنني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد». وكان ﷺ يرفع ثوبه، ويخفف نعله، ويخدم من في مهنة أهله، ولم يكن متكبراً، ولا متجبراً، أشد الناس حياءً، وأكثرهم تواضعاً. وكان إذا حدث بشيء مما أتاه الله تعالى قال ولا فخر. وقال ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا

(١) أسهن: أساسه.

(٢) الصُّلب: الظهر.

(٣) سورة: الحجر، الآية: ٨٨.

(٤) سورة: القصص، الآية: ٨٣.

عزاً فاعفوا يعزكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء، فتصدقوا يزدكم الله». وقال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية. قال: ذلك أبعد من الكبر، وأسرع في الحاجة. وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ». وقيل: التواضع سلم الشرف. ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين. فقيل له في ذلك فقال: إن أبي كان جباراً فأحببت أن أتواضع لربي لعله أن يخفف عن أبي تجبره. وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح، شمخت الجبال، وتواضع الجودي فرفعه فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس؟ قال: لا يا رب. قال: لأنني رأيتك تتمرغ بين يدي في التراب تواضعاً لي. وقيل: من رفع نفسه فوق قدره، استجلب مقت الناس، وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة: ما تاة إلا وضيع، ولا فاخر إلا لقيط. وكلُّ مَنْ تواضع لله رفعه الله.

فسبحان من تواضع كل شيء لعز جبروت عظمته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



## الباب السابع العشرون: في العجب، والكبر، والخيلاء، وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل. وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصيح، وقبول التأديب، والكبر يكسب المقت، ويمنع من التكلف. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». وقال رسول الله ﷺ: «من جَرَّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه». وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من زلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامى<sup>(١)</sup> الكبر، وتأنف منه. ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه. فقال: وددت أني مثلك في ظنك، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. ورأى رجل رجلاً يختال في مشيه. فقال: جعلني الله مثلك في نفسك، ولا جعلني مثلك في نفسي. وقال الأحنف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومرّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه. فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك. فقال: أو ما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة جيدة، أو لك نطفة مدرة<sup>(٢)</sup> وأخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه، وكف عما كان عليه. وقال: لا يدوم الملك مع الكبر، وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة، والسيادة.

وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً»<sup>(٣)</sup>. فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى: «أسأفرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق»<sup>(٤)</sup> قال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا تحول ما به، بي، يعني أتكبر عليه.

واعلم أن الكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله. والعرب تجعل جذيمة الأبرش غاية في الكبر. يقال: إنه كان لا ينادم أحداً لتكبره، ويقول: إنما ينادمني الفرقدان. وكان ابن عوانة من أقيح الناس كبراً، روي أنه قال لغلامه: اسقني ماء. فقال: نعم. فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه فصفع، ودعا أكاراً<sup>(٥)</sup> فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته. ويقال فلان وضع نفسه في درجة، لو سقط منها لتكسر. قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش، بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدي. وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً، وأنفسهم إلا أرباباً. وقيل لرجل بن بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة؟ فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي. وقيل للحجاج بن أرطاة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال أخشى أن يراحمني البقالون. وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً، وقال للمعاوية: اعرض هذه الأرض عليه

(١) تتحامى: تتباعد عنه.

(٢) مدرة: فاسدة.

(٣) سورة: القصص، الآية: ٨٣.

(٤) سورة: الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٥) أكارا: الحتمال على الحمار.

وأكتبها له. فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته، فأحرقه حر الشمس فقال له: اردفني خلفك على ناقتك، قال: لست من أرداف الملوك. قال: اعطني نعليك. قال: ما بخل يميني يا ابن سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقبال اليمن<sup>(١)</sup> أنك لبست نعلي، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفاً. وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعدته معه على السرير وحده. وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال أنا المسرور بن هند. قال: ما أعرفك. فتعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر. قال الشاعر:

فولا لأحمق يلسوي التيه أخذعاً<sup>(٢)</sup>      لو كنت تعلم ما في التيه لم تته  
التيه مفسدة للدين، منقصة      للعقل، مهلكة للعرض فانتبه

وقيل: لا يتكبر إلا كل ضييع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) ملوكها وواحدتهم: قيل.  
(٢) الأخلع: حرق في الرقبة.

## الباب الثامن والعشرون: في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾<sup>(١)</sup> نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعقبة بن أبي معيط وكانا تفاخرا وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾<sup>(٢)</sup> نزلت في أبي جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب. وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر». وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنْ أكرمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنفِقَاكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فالفخر في الإسلام بالتقوى. وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ نِيَكِمُ وَاحِدٌ. وَإِنْ أَبَاكُمُ وَاحِدٌ. وَإِنَّهُ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا بِالْقُوَى، أَلَا، هَلْ بَلَغْتَ». وقال الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا كاشفَ الضرِّ والبلوى مع السقمِ  
وأنتَ يا حيُّ يا قيومُ لم تتمِ  
فأرحمَ بكائي بحقَّ البيتِ والحرمِ  
فمَنْ يجودُ على العصيِّ بالكرمِ

يا مَنْ يجيبُ دعا المضطَّرِّ في الظلمِ  
قد نامَ وفدكَ حولَ البيتِ واتبهُوا  
أدعوكَ ربِّي حزيناً هائماً قلقاً  
إِنْ كانَ جودُكَ لا يرجوه ذو سفهِ

ثم بكى بكاءً شديداً وأنشد يقول:

شكوتُ إليكَ الضرَّ فأرحمَ شكايَتي  
فهبَّ لي ذنوبي كلِّها واقضِ حاجتي  
وما في الوريِّ<sup>(٤)</sup> عبدٌ جَنَى كجنايَتي  
فأينَ رجائي ثمَّ، أينَ مخافَتي

ألا أيُّها المقصودُ في كلِّ حاجةٍ  
ألا يا رجائي أنتَ تكشفُ كرتي  
أنتَ بأعمالِ قباحِ رديتُ  
أنحرفُني بالنارِ يا غايةَ المنى

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه. فلنوت منه فإذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. فرفعت رأسه في حجري ويكيت قطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال: مَنْ هذا الذي يهجم علينا قلت: عِيْنُكَ الأصمعي، سيدي ما هنا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾<sup>(٥)</sup> فقال: هيئات

(١) سورة: السجدة، الآية: ١٨.

(٢) سورة: فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) الوري: الخلق.

(٥) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٣.

يهيات يا أصمعي، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً  
أليس الله تعالى يقول: ﴿إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ \* فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُفْلِحُونَ \* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

والفخر وإن نهت عنها الأخبار النبوية، وَمَجَّتَهُ<sup>(٢)</sup> العقول الذكية، إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان  
طبعاً، لا تكلفاً، وجبلة<sup>(٣)</sup> لا تعلماً، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم، ولا يبه على مناقبهم سواهم. وكان  
كعب بن زهير إذا أشد شعراً قال لنفسه: أحسنت وجاوزت والله الإحسان. فيقال: له أتخلف على شعرك. فيقول:  
نعم لأنني أبصرُ به منكم. وكان الكميث إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها ويقول عند إنشادها: أي علم بين  
جنبي، وأي لسان بين فكي. وقال الجاحظ: لو لم يصفِ الطبيب مصالِح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب. ولما  
أبدع ابن المقفع في رسالته التي سماها باليتيمة تزيهاً لها عن المثل سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ولو  
لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله. وسنذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئاً من نظم البلغاء، ونثرهم في  
الافتخار، ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره.

قال أبو بكر الهذلي: سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة<sup>(٤)</sup> وعليه جبة خز وعمامة  
علنية، وفي يده سوط، يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته وسألته عن نسبه وولاده، وعن  
قومه وعشيرته، وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب فأعجبه ما رأى منه. فقال: أنشدني شعراً. فأنشده شعراً لأوس بن  
حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم، وحديثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتها صدرت      إن الأمور لها وردٌ وإصدار<sup>(٥)</sup>

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة، وأقراهم  
لضيفه، وأحوطهم من وراء جاره، اجتمعت العرب بمكاظ فكلهم أقروا له بهذه الخلال. فقال له: والله يا أخا بني تميم  
لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان:

وإني من القوم الذين همُّهم      إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبُه  
نجومٌ سماه كلما غابَ كوكبُ      بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبُه  
أضاءت لهم أحسابُهُم ووجوهُهُم      دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبُه<sup>(٦)</sup>  
وما زالَ فيهم حيث كان مسودا      تسيّر المنايا حيث سارت ركائبُه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: مَنْ ابْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ؟ فقام الحسن فحمد الله

(١) سورة: المؤمنون، الآيات: ١٠١ - ١٠٣

(٢) وَمَجَّتَهُ: لفظته وكرهته.

(٣) الجبلة: الخلقة.

(٤) الفلاة: البرية.

(٥) إصدار: أي لكل ذاهب أوية.

(٦) ثاقبه: أي أنوارهم تكفي الصائغ لقب الجزوع والجواهر.

وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين. فأنا ابن علي وأنت ابن صخر، وأمك هند، وأمي فاطمة، وجدتك قبيلة، وجدتي خديجة. فلعن الله الأماناً حسباً، وأخملنا ذكراً، واعظمتنا كفراً، وأشدنا نفاقاً. فصاح أهل المسجد: آمين آمين. فقطع معاوية خطبته ودخل منزله.

وروي أن معاوية خرج فمرّ بالمدينة. ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية: مرحباً برجل تركنا حتى نفذ ما عندنا وتعرض لنا ليخلنا. فقال له الحسن: ولم ينفد ما عندك، وخراج الدنيا يجبي إليك. فقال معاوية: إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة، وأنا ابن هند. فقال الحسن: قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة. ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا، والحسين ساكت. فأذن المؤذن، فلما قال: «أشهد أن محمداً رسول الله». قال الحسين: يا يزيد جُدْ من هذا، فخجل يزيد ولم يرد جواباً. وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتُنا من قريشٍ عصابةً      بمطّ خدودٍ وامتدادٍ أصابعٍ  
فلما تنازَعْنَا الفخارَ قضى لنا      عليهم بما نهوى نداء الصوامعِ  
ترانا سكوتاً والشهيدُ بفضلنا      عليهم جهيرُ الصوت من كل جامعِ

وله أيضاً:

إني وقومي من أنساب قومهم      كمسجد الخيف<sup>(١)</sup> من بجوحة الخيفِ  
ما علق السيف منا بابن عاشرة      إلا وهته أمضى من السيفِ

وتفاخر العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبه، وعلي بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعي مفتاحه. فقال علي: ما أدري ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بسة أشهر فنزلت: ﴿أجعلنَّ سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾<sup>(٢)</sup>. الآية وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة آباء مشركين. فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته. فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذي عدت تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم في النار، والذي انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة. قال سلمان الفارسي:

أبي الإسلام لا أب لي سواه      إذا افتخروا بقيسمر أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق: أنا ابن محيي الموتى. فأنكر سليمان قوله فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعاً﴾<sup>(٣)</sup> وجدي فدى

(١) الخيف: أي مرتفع.

(٢) سورة: التوبة، الآية: ١٩.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٣٢.

المعودات<sup>(١)</sup> فاستحيانهم فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقير. وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى المعودات وللعباس بن عبد المطلب:

إن القبائل من قريش كلها      ليرزقن أنا هام<sup>(٢)</sup> أهل الأبطح  
وترى لنا فضلاً على ساداتها      فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

أسنا بني مروان كيف تبدكث      بنا الحال أو دارت علينا الدوائر  
إذا ولد الملوذ منا تهلكث      له الأرض واهتزت إليه المنابر

وكتب إليه يهجو فيه ويسبه. فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد فإنك عرفتنا فهجرتنا، ولو عرفناك لأجيناك والسلام<sup>(٣)</sup>. وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضاً فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندي، وخالد بن صفوان بن الأهمم فخاصوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن. فقال إبراهيم بن مخرمة: يا أمير المؤمنين، إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن كابر وأخراً عن أول. منهم النعمان، والمنذر، ومنهم عياض صاحب البحرين، ومنهم من كان «ياخذ كل سفينة فصباً»<sup>(٤)</sup> وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا، وإن نزل بهم ضيف قروه، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة. فقال أبو العباس: ما أظن التميمي رضي بقولك. ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت. قال تكلم ولا تهب أحداً. قال: أخطأ المقتحم بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون لقوم ليس لهم ألسن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب، ولا جاءت بها سنة. يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر، وفتخر عليهم بخير الأنام، وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فله المنة به علينا وعليهم، فمن النبي المصطفى والخليفة المرتضى، ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم، والمقام، والحجاجة، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر. ومن الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء وينا عرفوا الدين، وأتاهم اليقين، فمن زاحمتنا زاحمتناه، ومن عادانا اصطلمناه<sup>(٥)</sup>. ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال الصنارة. قال: فما اسم الأصابع؟ قال الشناتر. قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع. قال: أفعالكم أنت بكتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال فإن الله تعالى يقول: «إنا أنزلناه قرآناً عربياً»<sup>(٦)</sup> وقال تعالى: «بلسان عربي مبين»<sup>(٧)</sup> وقال تعالى: «وما

(١) المعودات: اللاتي أعددن ليدفن أحياء.

(٢) هام: الرأس والنزوة.

(٣) المشهور في الحادثة أن الخليفة الفاطمي شتم الأندلسي وأتف هذا الأخير.

(٤) سورة: الكهف، الآية: ٧٩.

(٥) اصطلمناه: استأصلناه.

(٦) سورة: يوسف، الآية: ٢.

(٧) سورة: الشعراء، الآية: ١٩٥.

أرسلنا من رسول إلا بلسان قومهم<sup>(١)</sup> فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل. ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿والمين بالمين﴾<sup>(٢)</sup> ولم يقل الجمجمة بالجمجمة؟ وقال تعالى: ﴿والسن بالسن﴾ ولم يقل الميدن بالميدن؟ وقال تعالى: ﴿والأذن بالأذن﴾ ولم يقل الصنارة بالصنارة؟ وقال تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾<sup>(٣)</sup> ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم؟ وقال تعالى: ﴿فأكله الذئب﴾<sup>(٤)</sup> ولم يقل فأكله الكنع؟ ثم قال لإبراهيم؟ إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن فهرت، وإن جحدتهن كفرت. قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال عليكم. قال: فالمنير فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالييت لنا أو لكم؟ قال: لكم. قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم، بل ما أنت إلا سائس قرد، أو دايغ جلد، أو ناسج بُرد. قال: فضحك أبو العباس، وأقر لخالد وحياهما جميعاً. وقال بشار بن برد يفتخر:

إذا نحن صلنا صولةً مضريةً  
إذا ما أعزنا سيداً من قبيلو  
وقال السموأل بن عادياء:

فكل رداً يرتديهِ جميلُ  
فليس إلى حُسنِ الثناءِ سيْلُ  
قللتُ لها إن الكرامَ قليلُ  
شبابُ تسامى للعلا وكهولُ  
عزیزُ وجارُ الأكرينَ ذليلُ  
منيعُ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ  
إلى النجمِ فزعُ لا يزالُ طويلُ  
إذا ما رائهُ عامرٌ وسلولُ  
وتكرهُهُ آجالُهُم فتطولُ  
ولا ضلُّ منا حيث كان قتيْلُ  
وليسَتْ على غَيْرِ الطَّبَاتِ تسيْلُ  
كهام<sup>(٨)</sup> ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ

إذا المرءُ لم يدنن من اللومِ عرضهُ  
وإن هو لم يحمل على النفسِ ضيمها  
تعيرنا أنا قليلٌ عديدنا  
وما قلٌّ مَنْ كانت بقاياهُ مثلنا  
وما ضرنا أنا قليلٌ وجارنا  
لنا جبلٌ يحتلُّه مَنْ نجيرهُ  
رسا أصلهُ تحتَ الثرى وسما به  
وإننا أناسٌ لا نرى القتلَ سبةً<sup>(٦)</sup>  
يقربُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا  
وما مات منا سيّدٌ خَفَ أنفه<sup>(٧)</sup>  
تسيلُ على حدِّ الطَّبَاتِ نفوسنا  
ونحنُ كماءِ المزنِ ما في نصابتنا

- (١) سورة: إبراهيم، الآية: ٤.
- (٢) سورة: المائدة، الآية: ٤٥.
- (٣) سورة: البقرة، الآية: ١٩.
- (٤) سورة: يوسف، الآية: ١٧.
- (٥) ذرا: قمة المنبر ومرتفعه.
- (٦) سبة: لا يسوؤنا الموت قتلاً.
- (٧) أنفه: أي في فراشه.
- (٨) كهام: عبي لا غناء عنده.

ونكرُ إن شئنا على الناس قولهم  
إذا سيّدنا خلا قام سيّد  
وما خمدت ناز لنا دون طارق  
وإيماننا مشهورة في عدونا  
واسيافنا في كل شرق ومغرب  
معوّدة أن لا تسأل نصالها  
سلي أن جهلت الناس عنا وعنهم  
فلان بني الريان قطب لقولهم  
ولا ينكرون القول حين نقول  
قؤول بما قال الكرام فعول  
ولا ذمنا في النازلين نزيل  
لهاه غرر مشهورة وحجول  
بها من قراع الدارعين فلول  
فتغمد حتى يستباح قتيل  
فليس سواء عالم وجهول  
تدور رحاهم حولهم وتجول

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر فلما سكت، أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم. فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهو الزبير بن بدر فقال:

نحن الملوك فلا حي يفاخرنا  
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا  
وتحز الكوم<sup>(٢)</sup> غبطاً في أرومتنا  
تلك المكارم حزناتها مقارعة  
فينا العلاء وفينا تصبب البيع  
من العييط<sup>(١)</sup> إذا لم يؤسر الفزع  
للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا  
إذا الكرام على أمثالها اقرعوا

ثم جلس. فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم. فقام فقال:

إن الذوائب من فهر وإخوانهم  
يرضى بها كل من كانت سريرته  
قوم إذا حاربوا ضرروا عدوهم  
سجية<sup>(٣)</sup> تلك منهم غير محدث  
لو كان في الناس سباقون بعدهم  
لا يرفع الناس ما أوهت أكنههم  
فلا يضنون عن جار بفضلهم  
خذ منهم ما أتوا عفووا إذا عطفوا  
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم

فقال التميميون عند ذلك: وريكم أن خطيب القوم أخطب من خطيبنا، وأن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما تصفنا ولا قارينا. وقال شاعر من بني تميم:

(١) العييط: اللحم الطري.

(٢) الكوم: الإبل.

(٣) سجية: طبع.



وما يرعى لشدادِ فصيلُ  
غلاظاً في أناملٍ مَنْ يصولُ

أيغني آلُ شدادٍ علينا  
فإن تُعمدْ مناصلنا نجلها

وقال سالم بن أبي ابصمة:

إن التخلق يأتي دونه الخلقُ  
أحمى الذمار<sup>(١)</sup> وترميني به الحدق  
إذا الرجال على أمثالها زلقوا

عليك بالقصد فيما أنت فاعله  
وموقفٌ مثلُ حدِّ السيفِ قمتُ به  
فما زلقتُ ولا أبديتُ فاحشةً

### وأما التفاضل والتفاوت

فقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل. قال: «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي»<sup>(٢)</sup> لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله ﷺ. ومن كلام علي رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه: أما قولك إننا بنو مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب. وقال أحمد بن سهل: الرجال ثلاثة سابق، ولا حق، وماحق، فالسابق الذي سبق بفضل، واللاحق الذي لاحق بأبيه في شرفه، والملحق الذي محق شرف آبائه. وقيل إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع ورثتهما. قال أشعب: فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغابتين. وقال أبو العوائل زكريا بن هارون:

وشئان ما بين الطبائع والفعل  
عليها ويلحاه عليّ على البخل

علي وعبد الله بينهما أب  
ألم تر عبد الله يلحى على الندى

وحجّ أبو الأسود الدولي بامرأته وكانت شابة جميلة، فعرض لها عمر بن أبي ربيعة فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه يقول:

وعن شتم أقوامٍ خلانقٍ أربعُ  
كريمٍ ومثلي من يضربُ وينضغُ  
على كل حالٍ استقيمُ وتضلعُ

وانني لينهاني عن الجهل والخنا  
حياةً وإسلاماً وتقوى وانني  
فشئان ما بيني وبينك إنني

وقال ربيعة البرقي:

يزيد سليمٌ والأعزُّ بنُ حاتمٍ  
فتى الأزدي للأموال غيرُ سالمٍ  
وهمُ الفتى القيسيُّ جَمْعُ الدراهمِ  
ولكنني فضلتُ أهلَ المكارمِ

لشئان ما بينَ اليزيديين في الندى  
يزيد سليمُ سالمُ المالِ والفتى  
فهمُ الفتى الأزدي إتلافُ مالِهِ  
فلا يحسبُ القيسيُّ أنني هَجَوْتُهُ

(١) الذمار: ما عليك حمايته.

(٢) سورة: الروم، الآية: ١٩.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين:

يقولُ أنا الكبيرُ فعظُموني  
إذا كانَ الصغيرُ أعمَّ نفعاً  
ولم يأتِ الكبيرُ يوماً خيراً  
فما فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ  
ألا تكأنتك أئتك من كيرِ  
وأجلدَ عندَ نائبةِ الأمورِ

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب التاسع والعشرون: في الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً فَبَدَلَ مَعْرُوفَهُ، وَكَفَّ أَذَاهُ، فَذَلِكَ السَّيِّدُ». وقيل لقيس بن عاضم: بِمِ سُدَّتَ قَوْمَكَ؟ قال: لم أخاصم أحداً إلا تركت للصالح موضعاً. وقال سعيد بن العاص: ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً، لأنني لم أشاتم إلا أحد الرجلين، إما كريم فأنا أحق أن أجله، وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه. وقالوا: مِنْ نَعَتِ السَّيِّدَ أَنْ يَكُونَ يَمَلَأُ الْعَيْنَ جَمَالاً؛ وَالسَّمْعَ مَقَالاً. وقيل: قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس. فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه. فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردت، ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين. فقال له معاوية: حبك أيا بحر، فقد كفيته الشاهد والغائب. وقال رجل للأحنف: بِمِ سُدَّتَ قَوْمَكَ وَمَا أَنْتَ بِأَشْرَفَهُمْ بَيْتاً، وَلَا أَصْبَحَهُمْ وَجْهاً، وَلَا أَحْسَنَهُمْ خَلْقاً؟ فقال: بخلاف ما فيك. قال: وما ذاك؟ قال: تركي من أمرك ما لا يعني كما عناك من أمري ما لا يعنيك. وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي، وعلى الأعداء كالليلث العادي. وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي وسؤدده أنه قدم من سفر فجمعه والشمخ بن ضرار المزني الطريق، فتحدثا فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة يا شمخ؟ قال: قدمتها لأمتار<sup>(١)</sup> منها فملا له عرابة رواحله برأ وتمراً، وأتحفه بتحف غير ذلك. فأنشد يقول:

رَأَيْتَ عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو  
إِذَا مَا رَايَةً رُفِقَتْ بِمَجْدٍ  
إِلَى الْخَيْرَاتِ مَنْقَطَحَ الْقَرِينِ  
تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة.

وممن علت همته، وشرفت نفسه، عمارة بن حمزة. قيل: إنه دخل يوماً على المنصور وقعد في مجلسه فقام رجل وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين. قال: وَمَنْ ظَلَمَكَ؟ قال عمارة بن حمزة: غصبي ضيعتي. فقال المنصور: يا عمارة قم فاقعد مع خصمك. فقال: ما هو لي بخصم، إن كانت الضيعة له فلست أنأزعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعتني، وأقعد في أدنى منه لضيعة. وتحدث السقاح هو وأم سلمة يوماً في نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له: ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه فإن ثمنها خمسون ألف دينار فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه<sup>(٢)</sup> النفس. فوجه إليه فحضر فحدثه ساعة ثم رمت إليها بالسبحة وقالت: هي من الطرف وهي لك فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها. فقالت: لعله نسيها. فبعثت بها إليه مع خادم، فقال للخادم: هي لك. فرجع الخادم. فقال: قد وهبها لي. فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه. وأهدى عبيد الله بن السري،

(١) لأمتار: لأجلب الميرة وهي الطعام الذي يحفظ لأيام الحاجة.

(٢) النزاهة: العفة.

إلى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف، مع كل وصيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده وكتب إليه: لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهاراً ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرَ مَا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ تَفْرَحُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سئبت فنادت: وامحمداء، وامعتصماه. فبلغه الخبر، فركب لوقته وتبعه الجيش. فلما فتحها قال: ليك أيتها المنادية. وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة، وقيل له في مرضه: إن المريض يستريح إلى الأئين وإلى شرح ما به إلى الطيب. فقال: أما الأئين فهو جزع وعار والله لا يسمع الله مني أنيناً فأكون عنده جزوعاً؛ وأما وصف ما بي إلى الطيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي، إن شاء أسكها، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس ما روي عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج، فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يخبر أحداً بحاجته: ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى والذمار<sup>(٢)</sup> وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه، وحقاً واجباً تحافظ عليه. وكان أبو سفيان بن حرب، إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتني جاراً واخترت داري داراً، فجنابة يدك عليّ دونك، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله. وكان الفرزدق يجير من عاد بقبر أبيه غالب بن صعصعة، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها، فعادت بقبر أبيه، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً، ولكن قال:

عجوزٌ تصلي الخمسَ عادتْ بغالبٍ      فلا والسني عادتْ به لا أضرها  
وقال مروان بن أبي حفصة:

هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَانَمَا      لَجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاكَيْنِ<sup>(٣)</sup> مَنْزِلُ  
وقال ابن نباتة:

ولو يكونُ سوادُ الشعرِ في ذمِّ      ما كان للشَّيْبِ سلطانٌ على القممِ

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده، وسجنه فتوصل يزيد بحسن تطفه، وأرغب السجن واستماله وهرب هو والسجان وقصدا الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان. وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه، وأحسن إليه، وأقامه عنده. فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن، وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً. فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلى أخيه يقول: يا أمير المؤمنين، إني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه وأبوه وإخوته من صناعتنا، قديماً وحديثاً، ولم أجز عدواً لأمير المؤمنين. وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف درهم ظلماً، ثم طالبه بعدما بثلاثة آلاف ألف درهم، وقد صار إليّ واستجار بي فأجرته، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن

(١) سورة: النمل، الآية: ٣٦.

(٢) الذمار: ما يلزم حفظه والدفاع عنه.

(٣) سمكة سمكاً: رفعه فارتفع والسُّمك: السقف، أو أعلى البيت إلى أسفله.

رأى أمير المؤمنين أن لا يخزني<sup>(١)</sup> في ضيفي فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم. فكتب إليه الوليد: إنه لا بد أن ترسل إليّ يزيد مغلولاً مقيداً. فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب ققيده، ودعا يزيد بن المهلب ققيده، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعاً بفالين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه: أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك أبدأ بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانياً، واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام. فلما دخل يزيد بن المهلب، وأيوب بن سليمان، في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال: لقد أسأنا إلى أبي أيوب، إذا بلغنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم وليحتج لنفسه فقال له الوليد: ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عنك، وعلما ظلم الحجاج. ثم إنه أحضر حداداً وأزال عنهما الحديد، وأحسن إليهما، ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم، وردهما إلى سليمان وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم، فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك، وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل.

وحكي أن رجلاً من الشيعة كان يسعى في فساد الدولة فجعل المهدي لمن دلّ عليه أو أتى به مائة ألف درهم فأخذه رجل من بغداد فأيس<sup>(٢)</sup> من نفسه، فمر به معن بن زائدة، فقال له: يا أبا الوليد، أجرني أبارك الله. فقال معن للرجل: ما لك وما له؟ فقال: إن أمير المؤمنين طالبه. قال: خلّ سيّله. قال: لا أفعل. فأمر معن غلماناً فأخذه غضباً، وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة، فأرسل خلف معن فأحضره، فلما دخل عليه قال له: يا معن أنتجير عليّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل، هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتي، أفما تروني أهلاً أن تجيروا إليّ رجلاً واحداً استجار بي. فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرنا يا أبا الوليد. قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بي فيكون قد أجاره وجباه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم. فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلوات الخلفاء على قدر جنایات الرعية، وأن ذنب الرجل عظيم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل. قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم. فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه. وقال: لا تعرض لمساخط الخلفاء.

وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه: يا أبت أني لا أستحي أن أطعم طعاماً، وجيراني لا يقدرون على مثله. فكان أبوه يقول: أني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب. وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب، فجاء أهل الحي فقالوا نريد جارك، فقال أما إذ جعلتموه جاري، فوالله لا تصلون إليه وأجاره حتى طار، فسمي مجير الجراد، وقيل هو أبو حنبل.

والحكايات في معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) لا يخزني: لا يجلب لي العار.

(٢) فأيس: من اليأس وفقدان الأمل.

## الباب الثلاثون: في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وإني والله أحبهم وأحب من يحبهم وأسأل الله أن يميتني على محبة النبي محمد ﷺ ومحبتهم، وأن يحشرنا في زمرةهم وتحت ألويتهم أنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

إنسي أحبُّ أبا حفص<sup>(١)</sup> وشيعته  
وقد رضيتُ علياً قدوةً علماً  
كما أحبُّ عتيقاً<sup>(٢)</sup> صاحبَ الغارِ  
وما رضيتُ بقتلِ الشيخ<sup>(٣)</sup> في الدارِ  
كلُّ الصحابو ساداتي ومعتدي  
فهل عليّ بهذا القولِ من عارٍ؟

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «فمن أطعم اليوم منكم مسكيناً؟» فقال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق بشيراً ما سلكت وادياً، إلا سلك الشيطان وادياً غيره». ولما أسلم رضي الله عنه قال: يا رسول الله أسنا على الحق؟ قال: بلى. قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا نبيد الله سرّاً بعد هذا اليوم.

ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيماً لهم وقال: انظر ملك العرب فركه على فرس، وعليه جبة صوف مرقعة، يستقبل الشمس بوجهه ومخلاته في قريوس<sup>(٤)</sup> السرج، وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها، فوصفه للبطريق فقال: لا نرى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء.

وأما أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه، فضائله كثيرة ومناقبه شهيرة، فهو جامع القرآن، ومن استحيت مع ملائكة الرحمن رضي الله عنه، وقال جميع بن عمير: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أخبريني، مَنْ كان أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة. قلت: إنما أسألك عن الرجال. قالت: زوجها، فوالله لقد كان صولماً قواماً ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ في يده فردها إلى فيه. قلت: فما حملك على ما كان<sup>(٥)</sup> فأرسلت

- (١) أبا حفص: عمر بن الخطاب.
- (٢) عتيقاً: أبو بكر الصديق.
- (٣) الشيخ: عثمان بن عفان.
- (٤) قريوس: ناحية في السرج.
- (٥) يلمح إلى حادثة الجمل.

خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمر قضي عليّ. وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني، صف لي علياً، فاستعفى فألح عليه. فقال: أما إذن، فلا بدّ أنه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة يقلب كفه، ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعواناه، ونحن والله مع تقريبه لنا، وقربه منا لا نكلمه هية له. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين لا يطمع القويّ في باطله، ولا يياس الضعيف من عدله. فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ الخائف، ويكي بكاء الحزين فكأنني الآن أسمعه يقول: يا دنيا إليّ تعرّضتِ، أم إليّ تشوّقتِ هيهات هيهات، غُزّي غيري لقد أبنتك<sup>(١)</sup> ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلة الزاد، ووحشة الطريق. قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء. وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزني عليه والله حزن من ذُبِح ولدها في حجرها فلا ترقأ<sup>(٢)</sup> عبرتها، ولا تسكن حيرتها. ثم قام فخرج.

وقيل: أول من سلّ سيفاً في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضي الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح. فقال: قُتل محمد. فخرج متجرداً وسيفه معه صلّتا<sup>(٣)</sup> فلقاه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا زبير؟ قال: سمعت أنك قتلت. قال: فماذا أردت أن تصنع؟ قال: أردت والله أن أستعرض على أهل مكة، وروي: أخطب بسيفي مَنْ قدرت عليه. فضمّه رسول الله ﷺ وأعطاه إزاراً له فاستر به وقال له: أنت حواري ودعا له. قال الأوزاعي: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم، بل كان يتصدق بها. وباع داراً له بستمائة ألف درهم. فقيل له: يا أبا عبد الله غُبت. قال: كلا والله، إني لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى.

وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: مَنْ حملك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة، حتى استقل على الصخرة. قال: طلحة. قال: أقرته السلام، وأعلمه أنني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استغذته منه. من هذا الذي على يمينك؟ قال: المقداد بن الأسود قال: إن الله يحبه ويأمرك أن تحبه. من هذا الذي بين يديك يتقي عنك؟ قال: عمار بن ياسر، قال: بشره بالجنة حرمت النار على عمار. ومَرَّ أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صور دحية الكلبي فلم يسلم. فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه. فقال: أتعرفه يا جبريل؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً لهو في ملكوت السموات السبع، أشهر منه في الأرض. قال: بم نال هذه المتزلة؟ قال: يزهد في هذه الحطام الفانية.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾<sup>(٤)</sup>. الآية وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي: بِمَ

(١) أبنتك: أبعدتك وطلقتك.

(٢) لا ترقأ: لا تجف ولا تقطع.

(٣) صلّتا: حاداً.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٥١.

بلغ الحسن ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثني عشرة سنة، لم يجاوز سورة إلى غيرها، حتى يعرف تأويلها، ولم يقبل درهماً قط في تجارة، ولم يل عملاً لسلطان، ولم يأمر بشيء حتى يفعله، ولم ينه عن شيء حتى يدعه. قال السفاح: بهذا بلغ. وقال الجاحظ: كان الحسن يستني من كل غاية فيقال فلان أزهده الناس إلا الحسن، وأفقه الناس إلا الحسن، وأفصح الناس إلا الحسن، وأخطب الناس إلا الحسن. وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهده من أويس، لأن عمر ملك الدنيا فزهده فيها، وأويس لم يملكها. فقيل: لو ملكها لفعل كما فعل عمر، فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب.

وقال أنس في ثابت البناني: إن للخير مفاتيح، وإن ثابتاً من مفاتيح الخير، وكان حبيب الفارسي من اختيار الناس، وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات، بأربعين ألفاً، كان يخرج البكرة<sup>(١)</sup> فيقول: يا رب اشترت نفسي منك بهذه، ثم يتصدق بها. وكان أيوب السخيتاني من أزهده الناس وأورعهم، ذكر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال: رحم الله أيوب، لقد شهدت منه مقاماً عند منبر النبي لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدي. وقال سفيان الثوري: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر. وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهده الناس وأعلامهم نفساً، وكان الملوك يقصدونه ويذلون له الأموال، فلا يقبل شيئاً وكان يحج سنة، ويفزو سنة حتى مات رحمه الله. وقال ابن خارجة: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتباً عليه شيئاً، وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مقال لحم<sup>(٢)</sup>. وعن محمد بن الحسن، قال: كان أبو حنيفة واحداً زمانه، ولو انشقت عنه الأرض، لانشقت عن جبل من الجبال، في العلم والكرم والزهد والورع. وحج وكعب بن الجراح أربعين حجة، ورباط في عبادان أربعين ليلة، وختم بها القرآن أربعين ختمة، وتصدق بأربعين ألفاً، وروى أربعة آلاف حديث، وما رؤي واضعاً جنبه قط. ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح، وهو أسود مفلقل الشعر يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول: تلك المكارم لا قعبان<sup>(٣)</sup> من لبن. ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين، سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي، أستاذ إبراهيم بن شيبان كان عجب الشأن، لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة، وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعود أكله.

ومنهم سيدي فتح بن شحرف بن داود ويكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة. قال أحمد بن عبد الجبار: سمعت أبي يقول: صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ثم رفعها يوماً فقال: طال شوقي إليك، فعجل قدومي عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت أنساناً يقول: غسلنا فتح بن شحرف فرأينا مكتوباً على فخذه لا إله إلا الله، فتوهمناه مكتوباً؛ وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ينفد ففصلى عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحواً من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً.

ومنهم سيدي فتح بن سعيد الموصلية يكنى أبا نصر، من أقران بشر الحافي. وسري السقطي كبير الشأن في باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلية: رجع فتح الموصلية إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائماً

(١) البكرة: كيس يضم: ١٠ آلاف درهم.

(٢) مقال لحم: كناية عن نحوله.

(٣) قعبان: أقداح.



فقال: عشوني، فقالوا: ما عندنا شيء نعشيك به، فقال: ما بالكم جلوس في الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شيء نسرج به. فجعل يبكي من الفرح ويقول: إلهي مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج، بأي يد<sup>(١)</sup> كانت مني، فما زال يبكي إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفثيه فسلمت عليه فرد عليّ السلام. فقلت: إلى أين؟ فقال إلى بيت ربي عز وجل. فقلت: بماذا تحرك شفثيك؟ قال: أتلو كلام ربي. فقلت: إنه لم يجز عليك قلم التكليف. قال: رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنّاً مني. فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة. فقال: إنما علي نقل الخطأ، وعليه البلاغ. فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادي يقيني وراحلتي رجلاي. فقلت: أسألك عن الخبز والماء؟ قال: يا عماء أرايت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله؟ قلت: لا. فقال: إن سيدي دعا عباده إلى بيته، وأذنّ لهم في زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حُمل أزوداهم، وإني استبجحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيئني؟ فقلت: حاشا وكلاً. ثم غاب عن بصري فلم أراه إلا بمكة، فلما رأني قال: أيها الشيخ بعد علي ذلك الضعف من اليقين.

ومنهم سيدي أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبري، صحب شاه الكرمانني ويحيى بن معاذ الرازي. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان الجبري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله الحلاج بالشام، ومن كلامه: لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع، والعطاء، والعز، والذل. وقال: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حالٍ فكرهته، ولا نقلني إلى شيء فسخطته.

ومنهم سيدي سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين، والعباد الموصوفين سكن الشام، ودخل بيروت وكان أكثر مقامه بيت المقدس. وقيل: اجتمع حذيفة المرعشي، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط فتذكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم: الغني من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد<sup>(٢)</sup> من عيش يكفه عن فضول الدنيا. وقال بعضهم: الغني من لم يحتج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت في ذلك؟ فبكى وقال: رأيت جوامع الغنى في التوكل، ورأيت جوامع الفقر في القنوط، والغني حق الغنى من أسكن الله في قلبه من غناه يقيناً، ومن معرفته توكللاً، ومن قسمته رضاء، فذلك الغني حق الغنى، وإن أمسى طاوياً، وأصبح معوزاً، فبكى القوم من كلامه.

ومنهم سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أحد رجال الطريقة قنس الله سره. كان من أجلّ السادات وأرباب الجد في المجاهدات، ومن كلامه: من أحسن في نهاره كفي في ليله، ومن أحسن في ليله كفي في نهاره. ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له. وقال: لكل شيء علامة، وعلامة الخذلان ترك البكاء. وقال لكل شيء صداً، وصداً نور القلب شبح البطن. وقال أحمد بن أبي الحواري: شكوت إلى أبي سليمان الوسواس، فقال: إذا أردت أن يقطع عنك، فأبى وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك، لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول: يا رب إن طالبتي بسروتي،

(١) بأي يد: مكرومة وصنيع.

(٢) سداد: ما يكفي من القليل.

طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك. وقال علي بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأي شيء تعرف الأبرار؟ قال: بكتمان المصائب، وصيانة الكرامات. وروي عنه أنه قال: نمت ليلة عن وردي فإذا حوراء تقول لي: أتمام وأنا أرى لك في الخدور منذ خمسمائة عام.

ومنهم سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفي الأصل، ولكنه سكن انطاكية. ومن كلامه لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً، وله كرامات ظاهرة، وبركات متواترة.

ومنهم سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء، أصبهاني الأصل كتب عن ستمائة شيخ، ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف، وقطع البادية على التجريد<sup>(١)</sup>. وكان في ابتداء أمره يكسب في كل يوم ثلاثة دراهم وثلاثاً فيأخذ من ذلك لنفسه دانقاً، ويتصدق بالباقي. ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة في مسجده خرج إلى الجبل، إلى قريب الصبح، ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول في الجبل: يا رب إما أن تهب لي معرفتك، أو تأمر الجبل أن ينطبق عليّ، فإني لا أريد الحياة بلا معرفتك.

ومنهم سيدي يحيى بن معاذ الرازي قدس الله سره سكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريقة. كان أوحده وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه. وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال، إن لم تنفعه، فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تنمه. وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بشس الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له اذكرني في دعائك. وقال: على قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في أمرك الخلق. وقال: مَنْ كان غناه في كيسه لم يزل فقيراً، ومَنْ كان غناه في قلبه لم يزل غنياً؛ ومَنْ قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً. وروي أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس في علم الأسرار، فأته امرأة من نساها فقالت: كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ قال ثلاثون ألفاً أصرفها في دين عليّ بخراسان. فقالت: لك عليّ ذلك، على أن تأخذها وتخرج من ساعتك. فرضي بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد. فوثبت تلك المرأة فيما فعلت، فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامّة فغرت على ذلك.

ومنهم سيدي يوسف بن الحسين الرازي يكنى أبا يعقوب. كان وحيد وقته في إسقاط التصنع، عالماً أديباً صحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشي. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحق فحدثه بالمحال، فإن قبل فاعلم أنه أحق. وقال: إذا رأيت المرید<sup>(٢)</sup> يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء. وقال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحبُّ من أن ألقاه بنزرة من التصنع. وقال أبو الحسن الدراج: فصلت زيارة بن الحسين الرازي من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله، فكل مَنْ سأله يقول: أي شيء تريد من هذا الزنديق<sup>(٣)</sup>؟ فضيقوا صدري حتى عزمت على الإنصراف، فبت تلك الليلة في مسجد، ثم قلت في نفسي: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته، فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالساً في المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه

(١) التجريد: عارٍ من الثياب.

(٢) المرید: السائر في درب التصوف على هدي من شيخه وهو (المراد).

(٣) الزندق: الذي يظهر الإسلام وهو له منكر.

وسلمت عليه فرد علي السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد فقال: أتحنن من قولهم شيئاً؟ قلت: نعم وأنشدته:

رَأَيْتُكَ تَبْنِي دَائِماً فِي قَطِيعَتِي      وَلَوْ كُنْتُ ذَا حِزْمٍ لَهَدَمْتُ مَا تَبْنِي

فأطبق المصحف، ولم يزل ييكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه. ثم التفت إلي وقال: يا بني أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق؟ وما أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن، ولم تقطر من عيني قطرة، قامت علي القيامة بهذا البيت.

ومنهم سيدي حاتم بن علوان الأصم قلنس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن، من أكابر مشايخ خراسان، صاحب شقيقاً البلخي. ومن كلامه: الزم خدمة مولاك تأتاك الدنيا راغمة، والآخرة راغبة. وقال: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كاذب، ومن ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب. وسأله رجل: علام بيت أمرك في التوكل على الله عز وجل؟ قال: على أربع خصال؛ علمت أن رزقي لا يأكله غيري فأطمأنت به نفسي، وعلمت أن علمي لا يعمله غيري فأنا مشغول به. وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره. وعلمت أني لا أدخل من عين الله عز وجل حيث كنت فأنا استحي منه. وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو علي الدقاق، أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فحجلت المرأة. فقال حاتم: ارفعي صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك. وقالت: إنه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصري وأبا علي الروذباري، وكان أوحده مشايخ وقته. من كلامه: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كثروها وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتدلل عليهم وإن سترها وأنشدوا في هذا المعنى:

إِذَا مَا أَسْرَتْ أَنْفُسُ النَّاسِ ذِكْرَهُ      تَيَّنَبَهُ فِيهِمْ وَلَمْ يَتَكَلَّمُوا  
تَطِيبُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ فَتَذِيعُهَا      وَهَلْ سُرُّ مَسْكِ أَوْدَعِ الرِّيحُ يُكْتَمُ

ومن كلامه أيضاً: إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية، فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس، وقال: صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم. وقال: إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه.

ومنهم سيدي جعفر بن نصر الخلدي يكنى بأبي محمد، بغدادى المولد والمنشأ. صحب الجنيد واتمى إليه، وحب قريباً من ستين حجة. روي أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتكي بكاء بحرقه فقال لها: مالك تبكين؟ قالت: تكلى بولدي فأنشأ يقول:

يَقُولُونَ تَكَلَّى وَمَنْ لَمْ يَلْقَ      فَرَأَى الْأَجْبَةَ لَمْ يَتَكَلَّ  
لَقَدْ جَرَّعْتَنِي لِأَلِي الْفَرَاقِ      شَرَاباً أَمراً مِنَ الْحَنْظَلِ

وروي أنه كان له فص فوقع منه يوماً في الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت. فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتصفحها، وصورة الدعاء أن تقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع علي ضالتي. وقد روي أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً. ورؤي الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال: ودعت في بعض

حجاتي المزين الكبير الصوفي قلت زوّدي شيئاً. فقال: إن فقدت شيئاً أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين إنسان فقل: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا فإن الله يجمع بيننا، أو بينك، وبين ذلك الشيء أو الإنسان.

ومنهم سيدي معروف بن فيروز الكرخي قدّس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ. مجاب الدعوة، وهو أستاذ السري، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤديهم وهو صبي. فكان المؤدّب يقول له قل: هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدّب على ذلك ضرباً موجعاً فهرب منه فكان أبواه يقولان ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافق عليه. فرجع إلى أبويه فشق الباب فقيل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل: على أي دين؟ فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه. وكان مشهوراً بإجابة الدعوة. ومن كلامه رضي الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل<sup>(١)</sup>. وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكي، وتندب. أخلص تخلص. وقال سري: سألت معلوماً عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل. قال: بخروج حب الدنيا من قلوبهم، ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشاداته:

الماء يغسل ما بالشوب من درن<sup>(٢)</sup> وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال إبراهيم الأطروش: كان معروف قاعداً يوماً على الدجلة ببغداد، فمر به صبيان في زورق يضربون بالملاهي ويشربون. فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم. فرفع يده إلى السماء وقال: إلهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة. فقال له أصحابه: إنما سألتك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم. فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم ذلك. وقال سري: رأيت معلوماً في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب. قال: هذا معروف الكرخي سكر بحبي، لا يفيق إلا بقلاتي. وقيل له في مرضه: أوصي. فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرباناً كما دخلتها عرباناً. وقال أبو بكر الخياط: رأيت في المنام كأنني دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويجيء، فقلت: يا أبا محفوظ ما فعل الله بك، أو ليس قد مت؟ قال: بلى، ثم أنشد يقول:

موتُ التقيِّ حياةٌ لا نفاذَ لها قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي، يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره، وكان من أقران السري الحارث المحاسبي، وكان أبو تراب النخشي يصحبه. ومن كلامه: مَنْ أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي، ومَنْ أسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي. وقال: السلامة كلها في اعتزال الناس، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل. وسئل عن التوبة، فقال: التوبة رد المظالم، وترك المعاصي، وطلب الحلال، وأداء الفرائض. وقال لأصحابه: أوصيكم بخمس؛ إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مُدحتم فلا تفرحوا، وإن دُمتم فلا تحزنوا، وإن كذبتم فلا تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا. وقال محمد بن الفرغ: سمعت قاسم ابن عثمان

(١) الفترة والكسل: الإنكسار والضعف.

(٢) درن: قلارة.

يقول: إن الله عبادةً قصدوا الله بهمهمهم، فأفردوه بطاعتهم، واكتفوا به في توكلهم، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرّة عين إلا فيما قرب إليه. وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلق بشيء أفضل من المعرفة.

وروي عنه أنه قال: رأيت في الطواف حول البيت رجلاً، فتعربت منه فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض. فقلت له: ما لك لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك؛ كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى، غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا، فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا، فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة، عليها سبع جوار، من الحور العين، في كل باب جارية، فقدم رجل منها فضربت عنقه فأريت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، فضربت أعناق الستة وبقيت أنا، وبقي باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقي استوهني بعض خواص الملك، فوهني له فسمعتها تقول: بأي شيء فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب. فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني، قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه لا رأى ما لم يروا، وترك يعمل على الشوق.

ومنهم سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، كان جليل القدر مالكي المذهب، عظيم الشأن، صحب الجنيد ومن في عصره، وكان يبالي في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جَدَّ في الطاعات. يقول هذا شهر عظّمه ربي، فأنا أولى بتعظيمه. وسئل عن قول النبي ﷺ «خير عمل المرء كسب يمينه» فقال: إذا كان الليل فخذ ماء وتبهاً للصلاة وصل ما شئت، ومُدَّ يديك وسل الله عز وجل فذلك كسب يمينك. ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشياً عليه. فلما أفاق أنشد يقول:

هذه دارهم وأنتَ محبٌّ ما بقاء الدموعِ في الآفاق<sup>(١)</sup>

وروي أنه قال: كنت يوماً جالساً فجرى في خاطري أنني بخيل، فقلت: مهما فتح الله عليّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني. قال: فينما أنا متذكر، إذ دخل عليّ شخص ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعل هذه في مصالحك، فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكثوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقال لي: ادفعها للمزين، فقلت له: إنها دنائير، فقال: إنك لبخيل. قال: فناولتها للمزين، فقال المزين: إن من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً. قال: فرميتها في الدجلة، وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى.

ومنهم سيدي زرقان بن محمد، أخو ذي النون المصري صاحب سياحة<sup>(٢)</sup>، كان بجبل لبنان. حكى عن يوسف بن الحسين الرازي قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذي النون المصري جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه، وجلست من ورائه فالتفت إليّ وقال: ما حاجتك؟ فقلت: بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذي النون المصري أعرضهما عليك، فقال: قل، فقلت: سمعت يقول:

قد بقينا ملبنيين حيارى نطلب الوصول ما إليه سبيل

(١) الموق: طرف العين.

(٢) سياحة: أسفار.

فدواعي الهوى تخفُّ علينا  
وخلافُ الهوى علينا ثقبُلُ  
فقال زرقان ولكني أقول:

قد بقينا مذهلين حيارى  
حشما الفوزُ كان ذاك منانا  
حَبَّبْنَا رِيًّا وَنَفَمَ الْوَكِيلُ  
وإليه في كل أمرٍ نميلُ

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسي فقال: رحم الله ذا النون المصري، رجع إلى نفسه فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري، وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب، وكان من أقرانه ورققاته.

ومنهم سيدي أبو عبد الله النباجي سعيد بن بريد، كان من أقران ذي النون المصري، ومن أقران استاذي أحمد بن أبي الحواري، له كلام حسن في المعرفة وغيرها. روي عنه أنه قال: أصابني ضيق وشدة فبت وأنا مفكر في المسير إلى بعض إخواني، فسمعت قائلاً يقول لي في النوم: أيجمل بالحر المرید إذا وجد عند الله ما يريد أن يعيل بقلبه إلى العبيد؟ فانتبهت وأنا من أغنى الناس.

ومنهم سيدي بشر بن الحرث قلّس الله روحه، يكنى أبا نصر، أحد رجال الطريقة، أصله من مرو، وسكن بغداد، وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين، صحب الفضيل بن عياض، وروى عن سري السقطي وغيره. ومن كلامه: لا تكونُ كاملاً حتى يأمنك عدوك، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك. وقال: أوّل عقوبة يُعاقبُها ابن آدم في الدنيا مفارقة الأحباب. وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على المتكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل فقال: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقي رجلاً سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدي يا أبا نصر، وبشر لا يدفعه عن نفسه، فلما ولي الرجل تفرغرت<sup>(١)</sup> عينا بشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا، والمحبوب لا يدري ما حاله. وروي أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت: إني امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه، ولا أبين غزل الليل من غزل النهار، فهل عليّ في ذلك شيء؟ فقال: يجب أن تبيني. فلما أنصرفت قال أحمد لابته: اذهب فانظر أين تدخل. فرجع فقال: دخلت دار بشر. فقال: قد عجبت أن تكون هذه المسائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذي مات فيه قال له أهله: نرفع ماءك<sup>(٢)</sup> إلى الطيب. قال: أنا بعين الطيب يفعل بي ما يريد. فألحوا عليه فقال لأخته: ادفعي إليهم الماء، فدفعته إليهم في قارورة، وكان بالقرب منهم طيب نصراني فدفعوا إليه القارورة، فقال: حرکوا الماء. فحرکوه. فقال: ضعه فوضعه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا، قال: ماذا وصفت لكم؟ قالوا: وصفت بأنك أحلق أهل زمانك في الطب. قال: هو كما وصفت لكم. إن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو ماء راهب قد فُتت الخوف كبده، وإن كان ماء مسلم فماء بشر الحافي، لأن ما في زمانه أخوف منه. قالوا: هو ماء بشر. فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما رجعوا إلى بشر، قال لهم: أسلم الطيب، قالوا له: ومن أعلمك بهذا، قال: لما خرجتم من عندي نوديتُ: يا بشر ببركة مائك أسلم الطيب. توفي سنة سبع وعشرين ومائتين.

(١) تفرغرت: امتلأنا دموعاً.

(٢) نرفع ماءك: لعله يقصد إلى تحليل بوله.

ومنهم سيدي أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، من أجل المشايخ، كبير الشأن، ومن كلامه: ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسي وهي تبكي، إلى أن سقتها وهي تضحك، وسئل: بأي شيء وجدت هذا المعرفة؟ فقال: بطن جائع، وبدن عار. وقيل له: ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم. دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني، فمعتها الماء سنة<sup>(١)</sup>. وقال: الناس كلهم يهرون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له: لِمَ؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدي. فأقول لبيك، فقله لي يا عبدي أحب إلي من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء. وقال له رجل: دُلّني على عمل أتقرب به إلى ربي. فقال: أحبّ أولياء الله ليحبوك، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليّ فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيك. توفي سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري شيخ وقته، وفريد عصره، أصله من نهاوند، ومولده ومنتزه ببغداد صحب جماعة من المشايخ، وصحب خالد السري، والحرث المحاسبي<sup>(٢)</sup>، ودرس الفقه على أبي ثور، وكان يفتي في مجلسه بحضوره وهز ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضي الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد، أن يشغله بما لا يعنيه. وقال: الأدب أديان، أدب السر، وأدب العلانية، فأدب السر تطهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤي في يده يوماً سبحة، فقيل له: أنت مع تمكّنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة. فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا تركه أبداً. وقال الحسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس في منامي وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحي من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك من الناس! لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندي ثلاثة نفر. فقلت: ومن هم؟ قال: في مسجد الشونيزي قد أضنوا<sup>(٣)</sup> قلبي، وأنحلوا جسمي كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عزّ وجل، فأكد أن أحرق. قال الجنيد: فانتبهت من نومي، ولبست ثيابي، وجئت إلى مسجد الشونيزي بليل فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل، قيل إن الثلاثة الذين كانوا في المسجد الشونيزي: أبو حمزة، وأبو الحسن الثوري، وأبو بكر الدقاق رضي الله عنهم. وقال محمد بن قاسم الفارسي: بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي يقول:

بحرمة غرّيتي كم ذا الصدودُ  
سروُرُ العيدِ قد عمّ النواحي  
فإن كنتُ اقتَرَفْتُ خِلَالَ سَوْءِ  
ألا تحنوا عليّ ألا تجودوا  
وحزني في ازديادٍ لا يبيدُ  
فعلدي في الهوى أن لا أعودُ

توفي الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد، وصلى عليه نحو ستين ألفاً رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) منعها الماء سنة: يقصد الامتناع عن الاستحمام.

(٢) الحرث المحاسبي: لعله الحرث بن عبد الله المحاسبي.

(٣) أضنوا: أتعبوا.

وممن صحبته وانضعت بصحبته وفاضت الخيرات عليّ بيركته سيدي الشيخ الإمام العالم أبو المعالي وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريفي المالكي، قدس الله سره وروحه ونور ضريحه، كان أوحد زمانه في الزهد والورع قامعاً لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة، وبركات متواترة، قد أطاع أمره بالخلافتين عجمياً وعربياً، وانتشر ذكره في البلاد شرقاً وغرباً، وأنت الملوك إلى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرّج الله كربته، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظاً على النوافل، ملازماً للفرض، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يتمتع نفسه في الدنيا بالمأكّل والمشرب اللذيذة، بل قيل إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة، وكان رضي الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه، نصحواً لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى عدوه، فيقبل بيشره ويژه عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه كما قال بعضهم:

وانسي لألقى المرة أعلمُ أنه      عدويّ وفي أحشائه الضمّنُ كامنُ  
فأمنحُه بشري فيرجع قلبُه      سليماً وقد ماتتْ لديه الضفائِنُ

وكانت جملة أهل زمانه عليه، وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيراً ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:

وما حَمَلُونِي الضَّيْمَ إِلَّا حَمَلْتُهُ      لأنني محبٌّ والمحبُّ حَمُولٌ<sup>(١)</sup>

وكان رضي الله عنه كثير المصافاة، عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر، لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد في أمرٍ إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبته رضي الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكأنها من طيبها كانت سنة، ما قطع برّه يوماً واحداً عني، حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة بيض الله وجهه في القيامة، ويلغى من فضل ربه مآربه. وكان رضي الله عنه فقيهاً في مذهب الإمام مالك. إمام كبير لم ير له في زمانه من شبيهه ولا نظير، وله في علم الحقيقة أقوال. وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال، ولو تتبعته مناقبه لاتسع الكلام ولكني أقول كان أوحد عصره والسلام. عاش رضي الله عنه نيفاً وستين سنة، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية وأحوال حسنة. وكان رضي الله عنه كثير الأمراض والأسقام، حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذي الحجة الحرام، فلما كانت ليلة الحادي عشر اشتد به الأمر واحتضر ولم يزل في النزح<sup>(٢)</sup> إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفي رحمه الله تعالى، سعيداً حميداً في ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ولما أخبر الناس وفاته عظم مصابه على المسلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان. حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم، وصاروا يكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه، وكيف لا وهو إمام العصر علامة الدهر حق فيه قول القائل:

حلفَ الزمانُ ليأتينُ بمثلِهِ      خَتَّتْ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكَفَّرِ<sup>(٣)</sup>

رضي الله عنه، ورضي عتاه، ونفعنا بركته في الدين والدنيا والآخرة. فشرعوا في تجهيزه وغسله فكنت ممن حضر غسله، ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقدته. كيف لا؟ وقد كان لي والداً

(١) المحبُّ حمولٌ: أي المحب كثير الاحتمال للجور.

(٢) النزح: طلوع الروح.

(٣) فكفر: أي لم يف يمينه فوجت الكفارة.



شفاقاً وباراً محسناً عشوقاً. فلما انتهى غسله رضي الله عنه جاء القضاة، والنواب، والكشاف والولاية، وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاقت بهم الجامع على سعته، وضافت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس، فلم يرَ أكثر جمعاً، ولا أغزر دعماً من ذلك اليوم. وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه. قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز، يريد بذلك اجتماع الناس. والله أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم، وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيلبي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزاورته التي أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطريني المالكي في قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة مقبله ومثواه، وحشرنا وإياه في زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. ونسأله لنا التوفيق والإعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

## الباب الحادي والثلاثون: في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء

### رضي الله عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر، ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية: قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة، فخرجنا نستقي مراراً فلم نر للإجابة أثراً، فخرجت أنا وعطاء السلمي، وثابت البناني، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السخيتاني، وحبيب الفارسي، وحسان بن ثابت بن أبي سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزني حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب<sup>(١)</sup> ثم استسقين فلم نر للإجابة أثراً، حتى انتصف النهار، وانصرف الناس، وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح، رقيق الساقين عليه جبة صوف. قومت ما عليه بدرهمين. فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي إلى كم ترّد عبادك فيما لا يفعلك، أفند ما عندك، أم نقص ما في خزائنك؟ أقسمت عليك بحبك لي إلا ما أسقيتنا غيثك الساعة. قال: فما أتم كلامه حتى تغيّمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب. قال مالك: فترضت له، وقلت له: يا أسود أما تستحي مما قلت؟ قال: وما قلت؟ قلت: قولك بحبك لي وما يدريك أنه يحبك. قال: تتع<sup>(٢)</sup> عني يا من اشتغل عنه بنفسه، أفتراه بداني بذلك إلا لمحبه إياي؟ ثم قال: محبه لي على قدره، ومحبي له على قدري. فقلت له: يرحمك الله أرفق قليلاً، فقال: إني مملوك على فرض من طاعة مالكي الصغير.

قال: فانصرف وجعلنا نقفو<sup>(٣)</sup> أثره على البعد، حتى دخل دار نخاس، فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت: يرحمك الله عند غلام تبعه لنا للخدمة؟ قال: نعم عندي مائة غلام للبيع، فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً فلم ألقى حبيبي فيهم. فقال: عودا إليّ في غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده، دخلنا حجرة خربة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلي. فقلت: حبيبي ورب الكعبة، فجئت إلى النخاس فقلت له: يعني هذا الغلام. فقال: يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة في الليل إلا البكاء، وفي النهار إلا الخلوة والوحدة. فقلت له: لا بد من أخذه منك ولك الثمن، وما عليك منه. فدعاه فجاء وهو يتناحس فقال: خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلها. فاشتريته منه بعشرين ديناراً، وقلت له: ما اسمك؟ قال يمون، فأخذت بيده أريد المتزل

(١) مفرداً مكتب: مكان تعليم الصبية (الكتاتيب).

(٢) تتع: ابتعد.

(٣) نقفو: نتبع.

فالتفت إليّ، وقال: يا مولاي الصغير لماذا اشتريتي وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين؟ فقلت له: والله يا سيدي إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي. قال: ولم ذلك؟ فقلت: ألسنتُ صاحبنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى وقد اطلعت على ذلك. قلت: نعم وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشي حتى أتى إلى مسجد فاستأذنتني ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي سر كان بيني وبينك، اطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشي؟ أقسمت عليك بك إلا ما قبضتني إليك الساعة. ثم سجد فانتظرت ساعة فلم يرفع رأسه فجئت إليك وحركته فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه. قال: فمددت يديه ورجليه فإذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد، ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أعظم الله أجورنا وأجوركم من أخينا ميمون، هاكم الكفن، فتاولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط، فضلتاه، وكفناه بهما، ودفناه. قال مالك بن دينار: فقبيره نستقي إلى الآن، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكي عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه، وكان قد خدم إبراهيم الخواص، رضي الله عنه وصحبه مدة فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة فأورنا إلى مسجد خرب فنظر إليّ إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع. فقلت: هو كما ترى. فقال: عليّ بدواة وفرطاس فأحضرتهما إليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكِرٌ أنا ذاكرٌ	أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عاري
هي سئةٌ وأنا الضمينُ لنصفِها	فكن الضمينَ لنصفِها يا باري
مدحي لغيرك لهبٌ نارٍ خضتها	فأجز عيبك من لهيبِ النارِ

قال حذيفة: ثم دفع إليّ الرقعة وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك. فخرجت فأول من لقيني رجل على بغلة فتاوتك الرقعة فأخذها فقرأها ويكي، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو في المسجد الفلاني. فدفع إليّ صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلاً فسألته: من هذا الراكب على البغلة؟ فقال: هو رجل نصراني. قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمس الدراهم فإن صاحبها يأتي الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بغلته، فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً، وقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. الصلاة والسلام.

وحكي أن بعضهم كان ملاحاً بينهر النيل المبارك بمصر. قال: كنت أعدي من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، ومن الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي. فبينما أنا ذات يوم في الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة. فقال: السلام عليكم. فرددت عليه السلام: فقال: أتحملني إلى الجانب الغربي لله تعالى؟ فقلت: نعم. فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربي، وكان على ذلك الفقير مرقعة، ويده ركوة<sup>(١)</sup> وعصا، فلما أراد الخروج من

(١) ركوة: وعاء للماء والسوائل.

الزورق قال: إني أريد أن أحملك أمانة. قلت: وما هي؟ قال: إذا كان غداً وقت الظهر تجدني عند تلك الشجرة ميتاً، وستنسى فإذا ألهمت فأتني وغسلني وكفّني في الكفن الذي تجده عند رأسي، وصلّ عليّ وادفني تحت الشجرة، وهذه المرقعة، والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك فأدفعها إليه ولا تحتقره.

قال الملاح: ثم ذهب وتركتني. فتمعجت من قوله وبثّ تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذي قال لي فلما جاء وقت الظهر نسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتاً؛ ووجدت كفناً جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك ففلسته وكفّته. فلما فرغت من غسله حضر عندي جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد إليّ، ثم عدت إلى الجانب الشرقي وقد دخل الليل. فتمت فلما طلع الفجر وبانت الوجوه إذا أنا بشاب قد أقبل عليّ، فحققت النظر في وجهه فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رفاق، وهو مخضوب الكفين وطاردة<sup>(١)</sup> تحت إبطه. فسلم عليّ فرددت عليه السلام فقال: يا ملاح، أنت فلان بن فلان؟ قلت: نعم. قال: هات الوديعة التي عندك. قلت: ومن أين لك هذا؟ قال: لا تسأل. فقلت: لا بد أن تخبرني. فقال: لا أدري، إلا أنني البارحة كنت في عرس فلان التاجر فسهرنا نرقص ونغني إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فتمت لأستريح وإذا برجل قد أيقظني وقال: إن الله تعالى قد قبض فلاناً الولي، وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق إن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت. قال: فدفعتها له فخلع أثوابه الرفاق ورمي بها في الزورق، وقال: تصدق بها على من شئت، وأخذ الركوة والعصا، ولبس المرقعة وسار وتركتني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك. وأتمت يومي ذلك أبكي إلى الليل، ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم فقال: يا عبدي، أتقلّ عليك إن متتُ على عبد عاصي بالرجوع إليّ؟ إنما ذلك فضلي أوتيته من أشاء من عبادي، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصعلوكي قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا في البادية تائه، وقد جُرّ الليل<sup>(٢)</sup>، وكانت ليلة مقمرة إذا سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم، قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة، منها ما أعرف، ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت؟ ومن أين أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة، فطالبتني نفسي بالغربة والعزلة، فخرجت وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقبض لي ولياً من أوليائه، وأرجو أن تكون أنت هو. فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لي والدة وإخوة وأخوات. فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم فهيمت أريدهم فاحتوشنتي<sup>(٣)</sup> السباع والهوام ويكين معي، وحملوا إليّ هذه الرياحين التي تراها. قال أبو إسحاق: فينما أنا معه يرقّ له قلبي، وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة فقال: دع ولي الله تعالى، فإن الله يغار على أوليائه. قال: فغشي عليه وغشي عليّ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله. قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة يبدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأته نادى: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريباً؟ فإني متظرتك منذ كذا، فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها: أشم ريحهم، فصاحت أواه

(١) وطاردة: ليست في المعاجم ولعلها آلة دائرية يعزف عليها (محرقة عن الإطار).

(٢) جُرّ الليل: أدلهم ظلامه.

(٣) احتوشنتي: اجتمعت حولي.

أزاه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها، فخرج إليها بنات أتراب عليهم مرقات ومروط فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع.

يا نسيماً هبّ من واديّ قبا<sup>(١)</sup>      خبريني كيف حال الغريبا  
كم سألتُ الدهرَ أن يجمَعنا      مثلَ ما كُنّا عليه فابى

ويحكى أن رجلاً كان يعرف بدینار العیار، وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظماً فضنت في يده ففكر في نفسه. وقال: ويحك يا دينار كأنني بك وقد صار عظمك هكذا رفاناً، والجسم تراباً فندم على تفریطه، وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ألقيت إليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني. ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال: يا أماه، ما يصنع بالعبد الأبى إذا أخذه سيده؟ قالت: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه. فقال: أريد جبة من صوف، وأقراصاً من شعر وغلّين واقعلي بي كما يفعل بالعبد الأبى، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد، فكان إذا جُنَّ عليه الليل، أخذ في البكاء والعويل، ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار؟ ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بني ارفق بنفسك. قال: دعيني أتعب قليلاً لعلني أستريح طويلاً، يا أماه إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل، ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل، أو إلى شر مقيل<sup>(٢)</sup>؟! قالت: يا بني خذ لنفسك راحة. قال: لست للراحة أطلب كأنك يا أماه غداً بالخلاق يساقون إلى الجنة، وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ في بعض الليالي: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين \* عما كانوا يعملون﴾<sup>(٣)</sup> ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه، فجاءت أمه إليه فنادته فلم يجيبها، فقالت له: يا حبيبي وقرة عيني أين الملتقي؟ فقال بصوت ضعيف: يا أماه إن لم تجديني في عرصات<sup>(٤)</sup> القيامة فأسألي مالكاً خازن النار عني. ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى. ففسلته أمه وجهازته وخرجت تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم. فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر في الجنة، وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين \* عما كانوا يعملون﴾ ويقول: وعزته وجلاله سألتني، ورحماني، وغفر لي، وتجاوز عني، ألا اخبروا عني والدي.

وحكي عن الحسن البصري قال: نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه. فقال الله تعالى لملك الموت: اتبص روحه فإنه جائع، فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتاً فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه. فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوباً عليه: هذا الكفن مردود عليكم، بشن القوم أنتم، استطعمكم فقير فلم تطعموه، حتى مات جوعاً من كان من أحببنا لا نكله إلى غيرنا.

وحكى أبو علي المصري قال: كان لي جار شيخ يفسل الموتى فقلت له يوماً: حدثني بأعجب ما رأيت من

(١) قبا: اسم موضع بفرغانة.

(٢) مقيل: لا معنى للجمله إلا إذا كانت مقيل.

(٣) سورة: الحجر، الآيات: ٩٢ - ٩٣.

(٤) عرصات: ساحاتها.

الموتى. فقال: جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه، حسن الثياب فقال لي: أتغسل لنا هذا الميت؟ قلت: نعم. فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها. فقالت: أنت الغاسل؟ قلت: نعم. قالت: باسم الله أدخل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فدخلت الدار، وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات<sup>(١)</sup> الموت وروحه في لبت<sup>(٢)</sup>، وقد شخص بصره، وقد وضع كفته وحنوطه عند رأسه فلم أجلس إليه حتى قبض. فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته، فأخذت في غسله وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته، وقالت: أما أني سألحق بك عن قريب. فلما أردت الانصراف شكرت لي وقالت: أرسل إلي زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت. فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت: باسم الله تدخل زوجتك. فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت ففلسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما.

أجَابْنَا بَتَمَ عَنِ الدَّارِ فَاشْتَكَّتْ	لِعَبْدِكُمْ أَصَالَهَا وَضَحَاهَا <sup>(٣)</sup>
وَفَارَقْتُمُ الدَّارَ الْأَيْبَةَ فَاسْتَوَتْ	رِسُومَ مَبَانِيهَا وَفَاحَ كَلَاهَا <sup>(٤)</sup>
كَأَنَّكُمْ يَوْمَ الْفِرَاقِ رَحَلْتُمْ	بِنُومِي فَعَيْنِي لَا تَصِيبُ كَرَاهَا
وَكُنْتُ شَجِيحاً مِنْ دَمُوعِي بِقَطْرَةٍ	فَقَدْ صرْتُ سَمْحاً بَعْدَكُمْ بِلِمَاهَا
يِرَانِي بِسَاماً خَلِيلِي يَظُنُّ بِي	سُرُوراً وَأَحْشَايَ السَّقَامَ مَلَاهَا
وَكَمْ ضَحِكَةٍ فِي القَلْبِ مِنْهَا حِرَارَةٌ	يَشِبُّ لَهَا لَوْ كَشَفْتُ غَطَاهَا
رَعَى اللهُ أَيَّاماً بِطَيْبِ حَدِيثِكُمْ	تَقَضَّتْ وَحْيَاهَا الحَيَا وَسَقَاهَا
فَمَا قُلْتُ إِيَّهَا بَعْدَهَا لِمَامِرٍ	مِنَ النَّاسِ إِلَّا قَالَ قَلْبِي آهَا

وحكى سري السقطي رحمه الله تعالى قال: أرقت ليلة، ولم أقدر على النوم، فلما طلع الفجر صليت فلما أصبحت دخلت المارستان<sup>(٥)</sup> فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول:

تَقُلُّ بِي إِلَى عُنُقِي	وَمَا خَانَتْ وَمَا سَرَقَتْ
وَيِينُ جِوَانِحِي كِبْدٌ	أَحْرُ بِهَا قَدْ احْتَرَقَتْ

قال: فقلت للقيم: من هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختلَّ عقلها فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت:

مَعشَرَ النَّاسِ مَا جِئْتُ وَلَكِنْ أَنَا سَكْرَانَةٌ وَقَلْبِي صَاحِي

- (١) سكرات: نزعات الروح.
- (٢) لبت: منخره.
- (٣) أصالها وضحاها: أي أطراف اليوم.
- (٤) وفاح كلاها: صارت مستوية فيحاء.
- (٥) المارستان: المشفى وكما يبدو المخصص للأمراض العقلية.

لِمَ غَلَّتْكُمْ يَدِي وَلَمْ آتِ ذَنْبًا      غير هتكى في جبه وافنصاحي  
أنا مفتونةٌ بحبِّ حبيبٍ      لستُ أبني عن بابه من براح<sup>(١)</sup>  
ما على مَنْ أَحَبَّ مولى الموالى      وارتمسأه لفسيه من جناح

وقال: فلما سمعت كلامها بكيتُ بكاءً شديداً فقالت: يا سري، هذا بكائك: من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها فلما رأني عظمي. فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم فلم فعلت بها هذا؟ قال: لتصيرها في الخدمة، وكثرة بكائها، وشدة حنينها وأينها كأنها ثكلى، لا تام ولا تدعنا ننام، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة.

وحقك لا نقضتُ الدهر عهداً      ولا كدرت<sup>(٢)</sup> بعد الصفر ودًا  
ملأت جوانحي والقلبَ وجداً      فكيف أفرُّ يا سكني وأهدا  
فيا مَنْ ليس لي مولى سواه      تراك رضيتني بالباب عبداً

فقلت لسيدها: اطلقها وعلني ثمنها، فصاح: واقراء من أين لك عشرون ألفاً يا سري. فقلت لا تعجل علي. فقال: تكون في المارستان حتى توفي ثمنها، فقلت: نعم. قال سري: فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها. فبت طول ليلتي أتصرع إلى الله تعالى. فإذا بطارق يطرق الباب ففتحت ودخل علي رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر، فقال: أتعرفني يا سري؟ قلت: لا. قال: أنا أحمد بن المشي كنت نائماً، فهتف بي هاتف وقال لي: يا أحمد، هل لك في معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى مني بذلك؟ فقال: احمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية، فإن لنا بها عناية. قال سري: فسجدت لله شكراً، وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول:

قد تصبَّرتُ إلى أن      عيل من جبك صَبْرِي  
ضاقَ مِن غلي وقيدي      وامتھاني منكَ صَنْدْرِي  
ليس يخفي عنكَ أمرِي      يا مُنى قلبي وذُخْرِي  
أنتَ قد تعتقُ رَقِي      وتفقُّ اليَوْمَ أنْصْرِي

قال سري: فبينما أنا أسمعها، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكي. فقلت: لا بأس عليك قد جئت بك برأس مالك وربع عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك، قلت: نزيك، قال: والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت، وهي حرة لوجه الله تعالى. قال: فتعجبت من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس. فقال: حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبخ كفاني، وأشهدك أنني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى، وأنني هارب إلى الله تعالى، فبالله لا تردني عن صحبتك. فقلت: نعم. ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه، ورد علي ما بذلت. أشهدك أنني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى. قال سري: فقلت: ما أعظم بركك يا جارية. قال: فترعنا

(١) براح: مغادرة.

(٢) كدرت: عكرت.

الغفل من عنقها، والقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان فزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خماراً من صوف ومدرعة من شعر، وولت. قال سري: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نطوف إذا سمعنا صوتاً فتبعناه فإذا هي امرأة كالخيال، فلما رأتي قالت: السلام عليك يا سري. فقلت لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مَنْ أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله، وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتها فإذا هي الجارية. فقلت لها: ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت: أنسي به، ووحشتي من غيره. ثم توجهت إلى البيت وقالت: إلهي لِمَ تخلفني<sup>(١)</sup> في دار لا أرى فيها أنيساً، قد طال شوقي إليك، فمجل قدومي عليك، ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها. فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خر إلى جانبها ميتاً رحمة الله عليه فدفنهما في قبر واحد.

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم  
ولا تحرموني نظرة من جمالكم  
فوالله ما يهوى فؤادي سواكم  
مَنْ السوء إلا ما رجعتم إلى وصل  
فلن تجدوا عبداً ذليلاً لكم مثلي  
ولو رشقوه بالأسنة والنبل<sup>(٢)</sup>

وحكي أنه كان في زمن بني إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه فتور<sup>(٣)</sup> في بعض الأيام، فأزال الله عنه سحابته، وحجب إجابته، فكثر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمده وأبينه وما زال يشاق إلى زمن الكرامة ويكي، ويتأسف، ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله، وبكى وتضرع، ودعا الله تعالى ونام. فقيل له في المنام: إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فأت الملك الفلاني في بلد كذا، واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك. قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلدة التي ذكرت له في المنام فدخلها، وسأل مَنْ يرشده إلى قصر الملك، فجاها إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر، مرصع بالدر، والجوهر، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس. فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام: من أين أنت؟ وما حاجتك؟ فقال: من بلاد بعيدة وقصدي الاجتماع بالملك. فقال له الغلام: لا سبيل لك إليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك أن استطعت. قال: إن حاجتي لا يقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم، فانصرف الرجل إلى مسجد دائر<sup>(٤)</sup> وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس، فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر فوجد خلقاً كثيراً عند الباب يتظرون الإذن فوقف مع جملة الناس، فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحباً بصاحب السحابة. اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وانظر في أمرك، قال: فتحير صاحب السحابة في أمره. فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به في دهليز القصر فلم يجد في طريقه إلا مملوكاً

(١) تخلفني: تجعلني خليفاً لك.

(٢) النبل: السهام.

(٣) فتور: كسل.

(٤) دائر: منح.



واحداً، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهديم، وحيطان مائلة، وبيت خرب فيه برش<sup>(١)</sup>، وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم إلا سجادة خلقة، وقدح للوضوء، وحصير رثة، وشيء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك، ولبس مرقعة من صوف، وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى: يا فلانة قالت: لييك. قال: أتدرين مَنْ هو الليلة ضيفنا. قالت: نعم هو صاحب السحابة، فدعا بها لحاجة فخرجت، فإذا هي امرأة كالشن<sup>(٢)</sup> البالي عليها مسح من شعر خشن وهي شابة صغيرة. قال الرجل: فالتفت إليّ الملك وقال: يا أخي نطلعك على حالنا أو تقضي حاجتك وتتصرف. فقلت: والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم، إنه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كبراً عن كابر، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إليّ بغض الله إليّ الدنيا وأهلها فأردت أن أسبح في الأرض، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين، والشرائع، وتبديل شمل الدين فبايعوني وأنا والله كاره. فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته، والحراس على حالها، والممالك على دأبها، ولم أغير شيئاً، وأعدت الممالك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور، وردعاً عن أهل الخير، وتركت القصر مزيناً على حاله، وفتحت له باباً وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأضفر الخوص<sup>(٣)</sup> وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتها وهي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدني، واجتهدت حتى صارت كالشن البالي، والناس لا يعلمون ما نحن فيه، ثم إنني أقمت لي نائباً ينوب عني طول الجمعة<sup>(٤)</sup> وعلمت أنني مسؤول، فجعلت لي يوماً في الجمعة أبرز للناس فيه، وأكشف عن مظالمهم كما رأيت. وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا، ونباع من ثمنها طعاماً ونفطر معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تتصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى. فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر فأخذ ما عملاه من خوص، وسار به إلى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً، واشترى بياتي ثمنه خوصاً، فلما كان عند الغروب أظفرا وأظفرت معهما ويت عندهما. قال: فقاما في نصف الليل يصليان ويكيان فلما كان السحر قال الملك: اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته، وإتاك قد دللته علينا، اللهم ارددنا عليه إتك على كل شيء قدير، والمرأة تؤمن على دعائي، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لي: لك البشارة بقضاء حاجتك، وتعجيل إجابتك، قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئاً إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما.

ولازم البابَ حتى تلبغ الأملأ  
واحمل لمرضاتيه في الحب كل بلا<sup>(٥)</sup>  
صب لثقل الهوى والوجد قد حملا  
فانهض وكن رجلاً بالسعي قد وصلا

استعمل الصبرَ تجن بعده الملا  
ومرغ الخد في أعتابه سحراً  
فما يفور بوصول يا أخي سوى  
هذا الحبيب ينادي في الدجى سحراً

(١) برش: لُطع.

(٢) كالشن: القرية.

(٣) الخوص: ورق النخل.

(٤) الجمعة: أي الأسبوع.

(٥) مقصور: بلاء.

وحكي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجاً فبينما أنا سائر، إذ رأيت شاباً ساكتاً لا يذكر الله تعالى. فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء، وقال: يا من لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصي، هب لي ما لا يسرك، واغفر لي ما لا يضرك، ثم رأيت بني الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلثون، وهو لا يلبس. فقلت: هذا جاهل. فدنوت منه فقلت له: يا فتى، قال: ليك. قلت: لِمَ لا تلي، فقال: يا شيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات؟ والله إنني لأخشى أن أقول، ليك فيقول لا ليك، ولا سعديك، لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك. فقلت له: لا تقل ذلك، فإنه حلِيم، إذا غضب رضي، وإذا رضي لم يغضب، وإذا وعد وفِّي ومتى توعد عفا، فقال: يا شيخ أتشير عليّ بالتلبية؟ قلت: نعم. فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب، وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه، وقال: ليك، اللهم ليك قد خضعت لك وهذا مصرعي بين يديك. فأقام كذلك ساعة ثم مضى، فما رأيت إلا بمعنى وهو يقول: اللهم إن الناس قد ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي، فقبلها مني. ثم شهق شهقة وخر ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي، وكان شيخاً لكل من بالعراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات. فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلي: فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى، إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار. فطلبنا ماء تنوضاً به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس، وبها شمامسة وقساوسة، ورهبان وهم يعبدون الأصنام، والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية، وإذا نحن بجوارٍ يستقي الماء على البئر، وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفي عنقها قلائد الذهب. فلما رأها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه ابنة من؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فَلِمَ لا يدلُّها أبوها ويكرمها ويدعها تستقي الماء، فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمه، وخدمته ولا تعجبها نفسها. فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل، ولا يشرب، ولا يكلم أحداً غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون.

قال الشبلي: فتقدمت إليه وقلت له: يا سيدي إن أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام، وأنت ساكت لم تكلم أحداً. قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلموا أن الجارية التي رأيتموها أمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبي، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض. قال الشبلي: فقلت له: يا سيدي أنت شيخ العراق، ومعروف بالزهد في سائر الآفاق، وعدد مريدك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضحنا وإياهم، بحرمة الكتاب العزيز. فقال: يا قوم جرى القلم بما حكم، ووقعت في بحار العدم، وقد انحلت عني عرى<sup>(١)</sup> الولاية، وطويت عني أعلام الهداية. ثم إنه بكى بكاء شديداً، وقال: يا قوم انصرفوا فلقد نفذ القضاء والقدر. فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقاءه، ومريدوه في جملة الناس فلم يروه، فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس يكون،

(١) عرى: فُكَّت مقاليدها.

ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم، وغلقت الرباطات<sup>(١)</sup> والزوايا والخواتق<sup>(٢)</sup>، ولحق الناس حزن عظيم. فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره، فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا إنه في البرية يرعى الخنازير. قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أيها فأبى أن يزوجه إلا ممن هو على دينها. ويلبس العباءة، ويشد الزنار، ويخدم الكنائس، ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله. ها هو في البرية يرعى الخنازير. قال الشبلي: فانصدعت قلوبنا. وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رأنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة التصاري، وفي وسطه زنار وهو متوكئ<sup>(٣)</sup> على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه، فرد علينا السلام فقلنا: يا شيخ ما ذاك؟ وماذا؟ وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخواني وأحبائي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في. كيف شاء وحيث أراد أبعذني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجناء. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي ما كان ظني فيك هذا. ثم جعل يستغيث ويكي ونادي: يا شبلي اتَّعِظْ بغيرك. فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان، وأنت المستغاث، وعليك التكلان<sup>(٤)</sup> أكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهنا أمر لا كاشف له غيرك. قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم، وجعل تمرغ وجهها بين أيديهم، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال.

قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديداً، قال الشبلي: قلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك، وقد استرعت الخنازير، بعد أن كنت أرى القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأه بالسبع، فهل بقيت تحفظ منه شيئاً؟ فقال: نسيته كله إلا آيتين. فقلت وما هما قال: قوله تعالى: ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾<sup>(٥)</sup> والثانية قوله تعالى: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل﴾<sup>(٦)</sup> فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه».

قال الشبلي: فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر، وطلع وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه. فلما رأناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فظفر إلينا وقال: يا قوم أعطوني ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً قلبسه، ثم صلى وجلس فقلنا له: الحمد لله الذي ردك علينا وجمع شملنا بك، فصِفْ لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك. فقال: يا قوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم، وقلت له: يا مولاي أنا المذنب الجاني، فعفا عني بجوده، وبستره غطاني. قلنا له: بالله نسألك هل كان لمحتك من سبب؟ قال: نعم، لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس، قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي، وأنا مؤمن موحد،

(١) الرباطات: مدرسة أو مسجد يجتمع فيها أهل العبادة.

(٢) مفردا خاتقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاح من الصوفية.

(٣) متوكئ: مستند.

(٤) التكلان: الاتكال والاعتماد.

(٥) سورة: الحج، الآية: ١٨.

(٦) سورة: البقرة، الآية: ١٠٨.

فنوديت في سري ليس هذا منك، ولو شئت عرفناك، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الإيمان.

قال الشبلي: فرحنا به فرحنا شديداً وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً وفتحت الزوايا، والرباطات والخواتق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعمائة ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك. فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود. فقلت له: ما الذي تريد؟ فقال: قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرّفت الشيخ فاصفر لونه، وارتعد، ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً. فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك ومن أوصلك إلى هنا؟ قالت: يا سيدي لما وليت من قرينتنا جاءني من أخبرني بك، فبت ولم يأخذني قرار، فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعي ذلك الشيخ، وادخلي في دينه. فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام. قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقلت: كيف لي بالوصول إليه؟ قال: اغمضي عينيك واعطيني يدك ففعلت، فمشى قليلاً ثم قال: افتحي عينيك. ففتحتهما فإذا أنا بشاطئ الدجلة. فقال: امضي إلى تلك الزاوية واقربي الشيخ مني السلام، وقولي له إن أخاك الخضر يسلم عليك. قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدي ههنا. فكانت أعبد أهل زمانها، تصوم النهار، وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت: قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت. فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رآته بكت. فقال لها: لا تبكي. فإن اجتماعنا غداً في القيامة، في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى. فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قال الشبلي: فرأيت في المنام وقد تزوج بسبعين حوراء، وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثاني والثلاثون: في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن، ويبقى شرار الخلق يتهارجون<sup>(١)</sup>»، تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين. وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر، هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفىء الشر الخير، كما يطفىء الماء النار. ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عربي من حلة التقوى، ومحى عنه طابع الهدى، لا تشبه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع، ولدواعي شيطانه مطيع.

كَأَنَّهُ التَّيْسُ قَدْ أودى بِهِ هَرَمٌ      فَلَا لِحْمٍ وَلَا صَوْفَ تَمْرٍ

وقيل: من فعل ما شاء، لقي ما ساء، وقيل: زنى رجل بجارية فأجلها. فقالوا له: يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت. قال: قد بلغتني أن العزل مكروه. قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟ وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال: فمن لي إذا ذاك بلذة الخلصة، ولقاء المسارقة، وانتظار الموعد؟ وقال أبو العيئة: رأيت جارية مع النخاس، وهي تحلف أن لا ترجع لمولائها فسألته عن ذلك، فقالت: يا سيدي، إنه يواقعني من قيام، ويصلي من قعود، ويشتمني بإعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلي الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله في المسلمين مثله. وكانت ظَلَمَةُ القوادة<sup>(٢)</sup> وهي صغيرة في المكعب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك: إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً، خلا ملك قمار. قال الزمخشري رحمه الله: أقمتم بقمار سنين فلم أر ملكاً أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل، وقمار ينسب إليها العود القمار كما ينسب إلى مندل. قال مسكين الدارمي:

وَلَا ذَنْبَ لِلْعُودِ الْقَمَارِيِّ إِنَّهُ      يَحْرِقُ إِنْ نَمَسَتْ عَلَيْهِ رَوَائِحُهُ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عهدت الناس وهواهم لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وفي ذلك قيل:

(١) يتهارجون: يتلاغظون.

(٢) القوادة: صاحبة تربيات للزنا (احترافاً).

إذا لم تَصُنْ عَرَضاً ولم تَخْشَ خالِقاً وتَسِحْ مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب، والأحمق شجاع الوجه. وذم الرجل قوماً فقال: وجوههم وأيديهم حديد، أي وقاح بخلاء، ووصف رجل وقحاً فقال: لو دق الحجارة بوجهه لردّها، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لو أنّ لي من جلدِ وجهِكَ رقعةً لَجَعَلْتُ منها حائراً للأشهب<sup>(١)</sup>

وقال آخر:

إذا رُزِقَ الفتى وجهاً وقاحاً<sup>(٢)</sup> تقلّبَ في الأمورِ كما يشاء

وقال أنو شروان: أربعةٌ قبائح، وهي في أربعةٍ أقيح، البخل في الملوك، والكذب في القضاء، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء، ويقال: من جسر أيسر ومن هاب خاب، قال الشاعر:

لا تَكُونَنَّ في الأمورِ هيوباً فالسى خيوةً يصير الهيوبُ

وقال علي رضي الله عنه: إذا هبت أمراً ففَعَّ فيه، فإن شراً توقيه<sup>(٣)</sup> أعظم مما تخاف منه. وقال رضي الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضرروا وإذا افرقوا نفعوا. فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افرقهم. قال: يرجع أهل المهن إلى مهنتهم فيستغنى الناس بهم، كرجوع البتاء إلى بئانه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخيزه. وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل، أراد السفه. قال الشاعر<sup>(٤)</sup>:

ألا لا يجهلن أحداً علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل: الجاهل من لا جاهل له، أي من لا سفه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذا جاء أعرابي فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو فجلد به الأرض.

فقال عمر: ليس بعزيز، من ليس في قومه سفه. وقال الشاعر:

ولا يلبثُ الجهالُ أن يتَهَضَّموا أخوا الحلم ما لم يتَّوَعَّنْ بجهولِ

وقال صالح بن جناح:

إذا كنتَ بين الجهل والحلمِ قاعداً

ولكن إذا أنصفتَ من ليس منصفاً

وقال الأحنف بن قيس:

(١) الأشهب: هو الخيل.

(٢) وجهاً وقاحاً: أي وقحاً قليل الحياء.

(٣) توقيه: تجتبه.

(٤) عمرو بن كلثوم التغلبي.

وذي ضغين أَيْسَتْ القولَ عنه  
بحلمٍ فاستمَرَ على المقالِ  
ومَنْ يحلُمَ وليس له سفيهُةٌ  
يلاقِ المعضلاتِ من الرجالِ

وقال آخر:

فإن كنتَ محتاجاً إلى الحلمِ إنني  
إلى الجهالِ في بعضِ الأحيانِ أحوجُ  
ولي فرسٌ للخيرِ بالخيرِ ملجَمٌ  
ولي فرسٌ للشرِّ بالشرِّ مسرَجُ  
فمَنْ رامَ تقويمِي فإني مقوِّمٌ  
ومن رامَ تعويجي فإني معوِّجُ

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلتُ للحلمِ موضعٌ  
وحلمُ الفتى في غيرِ موضعٍ جهلٌ

اللهم إنا نعوذ بك أن نجعل، أو يُجعل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثالث والثلاثون: في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

أعلم أن الجود بذلك المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾<sup>(١)</sup> قيل: إن الجود، والسخاء، والإيثار بمعنى واحد. وقيل: مَنْ أعطى البعض وأمسك البعض، فهو صاحبُ سخاء، وَمَنْ بذل الأكثر فهو صاحب جود، وَمَنْ آثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصلُ السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخياً، إذا كان لا يستصعب العطاء.

فَمَنْ الإيثار ما حكى عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى، ومعى شيء من الماء، وأنا أقول إن كان به رمق<sup>(٢)</sup> سقيته، فإذا أنا به بين القتلى. فقلت له: أسقيك. فأشار إليّ أن نعم. فسمع برجل يقول آه، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه. فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرور ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم. فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعاً فيها القطع، والجلد، والقتل. ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها. فوَقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالي لولا أم لي. وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: في رقعتي الجلد، وليس لي أم، فخذ أنت رقعتي وأعطني رقمتك ففعل. فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل. وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحرها. وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال: شأنكم. فقلنا: ما أكلنا من التي نحرنا البارحة إلا القليل. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعتنا مائة دينار في بيته. وقلنا للمرأة اعتنري لنا إليه ومضيئا. فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا. فقوا أيها الركب اللثام، أعطيتمونا ثمن قرانا. ثم إنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعتمكم برمحي هذا. فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام. وجميع خصال الخير من فروعه. وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي، فإن الله أخذ

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) رمق: بقية من روح.



بيده كلما عثر، وفتح له كلما افتقر». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا. وعنه ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجَاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عابدٍ بخيلٍ». وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾<sup>(١)</sup> وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفاً. وقال أكرم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكأ. وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير قلب اللفظ، واستوفى المعنى. ووجد مكتوباً على حجر: انتهِزِ القرضَ عند إمكانها، ولا تحمل نفسك همًّا ما لم يأتك، واعلم أن تقتيك<sup>(٢)</sup> على نفسك توفيرٌ لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليته. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك، فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: مَنْ أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالآ، وأكرمهم طباعاً، وأجلهم في النفوس قدراً؟ فسكت القوم. فقام فتى فقال: آيت اللعن، أفضل الناس مَنْ عاش الناس في فضله. فقال: صدقت. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحبُّ أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه، أو لثيماً أصون عنه عرضي. وكان مروق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البدرة ويقول له: أمسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل. وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضاً بسبعمئة ألف درهم، فلما جاءه المال قال: إن رجلاً يبيت هذا عنده، لا يدري ما يطرقه، لغريز<sup>(٣)</sup> بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين. ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتنى فاقة. فقالت: ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد، فأرسلت بها إليه في أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشتري جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم محمد، وأبو بكر، وعمرو بنو المنكدر.

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه. فقال: هذا حاطي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إليّ بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس، وإنه ليخيظ ازواره بيده.

وذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي أن رجلاً جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه، فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي. فقال له معاوية: أمين قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأبي رجم بيني وبينك قال: رجم آدم عليه السلام. قال: رجم مجفوة والله لاكون أول من وصلها. ثم قضى حاجته.

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيدها فارغة، وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد. ولم يتناول أحداً شيئاً، وإنما كان

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٢) تقير: الشح والتوفير.

(٣) الغريز: قليل الثقة، مفتر بشكل فاسد.

يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض. وكان يقول الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى، وقد قال النبي ﷺ: «اليد العليا، خير من اليد السفلى». وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم عن الكرم، فقال: هو التبرع بالمعروف، قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر، وأضرَّ به المرض. فقال له: يا هذا أعنا على الدهر. فقال لغلامه: ما بقي معك من التفقة فدفعه إليه. فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهُمْ ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقلت ما دفعناه إليك، فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني. وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فلقَّ عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته. فقال: علي دين كذا وكذا. فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلاً تعللت حيث شقت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله، حتى احتاج إلى أن يسألني.

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريق فاستقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذ بعض غلمانكم، فإني امرأة عذب<sup>(١)</sup> مات زوجي منذ أيام فشرب عبد الله الماء، وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم. فقالت: سبحان الله أنسخري بي؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً، فما أمست حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه وأربعين خلفه، ويبحث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله عنه. ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله ما لا يمنع عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل، فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود، وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة فيفرقها في الناس ولا يرى إلا وعليه دين. وسمن رجل بهيمة، ثم خرج بها لبيعها فمر بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه. فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً وإذا بالحمامي على بابه عشرين نفراً، عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة وتقلداً، وواحد يحمل مالا فأعطاه جميع ذلك واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه. ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه وقد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك، فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت. فقال: ولهذه ألف ألف. فقال: أما أني لا أقولها لأحد بعدك. فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد. فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم، لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين.

وخرج رضي الله تعالى عنه، هو والحسان وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم، من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فلبح لهم الأعرابي

(١) عذب: بلا زوج، وهي لفظة للمذكر والمؤنث.

فأصابتهم السماء بمطر، فلجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فنجح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة فسل عنا. فاحتاج الأعرابي بعد سنين. فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة فلفت أولئك الفتيان. فقال: قد نسيت أسماءهم. فقالت: سل عن ابن الطيار. فأتى المدينة فلقى سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها وورعاتها. ثم أتى الحسين رضي الله تعالى عنه فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل. فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال: كفاني إخواني الإبل والشيء. فأمر له مائة ألف درهم، ثم أتى أبا حذيفة رضي الله تعالى عنه فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن اتسني يبيلك فأوقرها لك تمرأ. فلم يزل اليسار في عقب الأعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: إنك قد أسرفت في بذل المال. فقال: بأبي أنتما، إن الله عز وجل عودني أن يتفضل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده. فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني المادة. وامتدحه نصيب فأمر له بخيل، وأساس ودنانير، ودرهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا لمال. فقال: إن كان أسود فإن ثنائه أبيض. ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيتاه إلا ثياباً تبلى، ومالاً يفنى، وأعطانا مدحاً يروى، وثناء يبقى. وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام ثم رمى إليه بالثاني، والثالث فأكلهما، وعبد الله ينظر إليه. فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فليم آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جاعاً، فكرهت أن أرد. قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي<sup>(١)</sup> يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: الألام على السخاء؟ وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات. واشترى الغلام، ثم أعتمه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لي، فهو في سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يجود هذا، وأبخل أنا، لا كان ذلك أبداً.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال: يا ابن عباس إن لي عندك يداً، وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره فلم يعرفه. فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفاً بفناء زمزم وغلامك يمنح<sup>(٢)</sup> لك من مائتها والشمس قد صهرتك فظلمت بك بفضل كسائي حتى شربت. فقال: أجل إنني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده. وقدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة فأهدى إليه من هدايا النوروز حلالاً كثيرة ومسكاً، وآنية من ذهب وفضة. ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه، نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها. فقال له: هل في نفسك منها شيء. قال: نعم. والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب بن يوسف عليهما الصلاة والسلام. فضحك عبد الله وقال: خذها قهي لك. قال: جعلت فداءك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد عليّ. قال: فاختمها بخاتمك، وسلّمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً. فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم، أكثر من الكرم.

(١) أطوي: أجمع.

(٢) يمنح الماء: رفعه.

إذا عصفت، وأسخرى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلته عنه، وضيع حاله، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويحك يا معاوية أصبحت لين المهادر رفيع العماد<sup>(١)</sup> والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال. ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب، وفضة، ودواب، وأخبره أنني شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني. فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ثقلت والله على ابن عمي، وما حسب أنه يسمح لنا بهذا كله. رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، فقال له: يا ابن عم محمد، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميت به باسمك تيركاً منك، وإن أمه ماتت. فقال له: بارك الله لك في الهبة، وأجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار ليشفقها على تربيتي، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يسر، وفي المال قلة. فقال الأنصاري: جعلت فداك لو سبقت حاتماً يوماً ما ذكرته العرب. وقال أبو جهم بن حذيفة يوماً لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين، كما قال ابن عبد كلال:

يقيناً ما نخافُ وإن ظننا  
بِوِ خيراً أرائناه يقيناً  
نميلُ على جوانبه كأننا  
إذا مِلنا نميلُ على آيينا  
نقلبُه لنخبرَ حباتيهِ  
فنخبرَ منهما كرمأً وليناً

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بلوتُ الناسَ قرناً بعد قرنٍ  
فلم أرَ غيرَ ختالٍ<sup>(٢)</sup> وقال<sup>(٣)</sup>  
ولم أرَ في الخطوبِ أشدَّ وقعاً  
وأَمْضَى من معاداةِ الرجالِ  
وذقتُ مرارةَ الأشياءِ طرّاً<sup>(٤)</sup>  
فما شيءٌ أمراً من السؤلِ

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعدته عند رجله. وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؟ تزعم أنني لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعاً. فقال الحسن: أو عجباً مما قالت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجلك. فاستحيا معاوية، واستوى جالساً. ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتني كم عليك ديناً؟ قال: مائة ألف درهم فقال: يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم، مائة ألف يقضي بها دينه، ومائة ألف يفرقها على مواليه، ومائة ألف يستعين بها على نواتبه وسوغها إليه الساعة.

وكان معن بن زائدة من الأجواد، وكان عاملاً على العراق بالبصرة. قيل إنه أتى إليه بعض الشعراء فأقام بيباه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك. فقال يوماً لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان فعرفتي، فلما دخل أعلمه

(١) رفيع العماد: سيد مرفه.

(٢) ختال: مخادع.

(٣) وقال: كاره.

(٤) طرّاً: جميعاً.

بذلك. فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالساً على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودُ مَعْنٍ نَاجٍ مَعْنًا بِحَاجَتِي      فليَسَ إِلى مَعْنٍ سِوَاكَ شَفِيعُ

فقال: مَنْ الرجل صاحب هذه؟ فأني به إليه. فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطة فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال عليّ بالرجل صاحب هذه. فأني به. فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال: عليّ بالرجل صاحب هذه فأني به إليه. فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها. وتفكر في نفسه، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده. فقال معن: لقد ساء والله ظنك، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار وفيه يقول القائل<sup>(١)</sup>:

يقولون معنٌ لا زكاةَ لمالِهِ      إذا حال حوُلٌ لم تجذُ في ديارِهِ  
نراه إذا ما جنتهُ متهللاً      كأنك تعطيه الذي أنت نائلُهُ  
عمودٌ بَنَطُ الكفِّ حتى لو أنه      أرادَ انقباضاً لم تُطغهُ أناملُهُ  
فلو لم يكن في كفه غيرُ نفسه      لجادَ بها فليَنقُ الله سائلُهُ

ومن قول معن:

دَعِينِي أَنهَبِ الأموالَ حتى      أعفَ الأكرمينَ عن اللثامِ

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط، أتته فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط فأنت إن شاء الله تعالى. فسافر وأقمت. فقال لي بعض إخواني: اذهب إليه. فقلت: كان جوابه فيه ضعف. قالوا: أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال. قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدثت القوم حتى ذكروا الجوارى. فالتفت إليّ يزيد وقال: إيه يا عقيل فقلت:

أفاضَ القومُ في ذكرِ الجوارى      فأما الأعزبون فلم يقولوا

قال: إنك لن تبقى عزياً. فلما رجعت إلى منزلي، إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت، وبدرة عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك. فمكثت عشرة ليال وأنا على هذه الحالة. فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت: أيها الأمير قد والله أغيت وأقنت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكتب عدوي، وأسر صديقي. فقال: إنما أخيرك بين خلتين، وإما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أو لم تغتني أيها الأمير؟ قال: إنما هذا أثاث المتزل، ومصلحة القدم. فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقاً يخلق رأسه، فجاءوه بحلاق فخلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم. فتحير الحلاق ودعش، وقال: أخذ هذه الخمسة آلاف وأمضي إلى أم فلان، وأخبرها أنني قد استغنيت. فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى. فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. وقيل: إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه، مقدار مائة ألف ألف درهم، فجمعت له وهو في السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لي عليه. فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لما هو فيه، ولم آت ممتدحاً فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالدٍ ضاقت خراسانُ بعدكم      وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ  
فما قطرتُ بالشرقِ بعدك قطرةً      ولا أخضرتُ بالمروزيْن بعدك عودُ  
وما لسرورُ بعد عزك بهجةً      وما لجوادٍ بعد جودك جودُ

قال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف ألف درهم، التي جمعت لنا، ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء. فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لئلا منعك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف. ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عتراً فقال لابنه: ما معك من الثقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها. فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي. وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر: أمر لي بمائة وعشرين ألفاً، وخمسين ثوباً، ورواحل كثيرة. فقلت أبياتاً في شكره فلما بلغت قولي:

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزُدْ      فقد خفتُ أن أطفئني وأن أتجبراً

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، وأمر له بضياع بألف ألف. وقال أبو العيناء: تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدول العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعاً وأفضل. وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد. وفي يحيى يقول القائل:

سألتُ الندى هل أنتَ حرٌّ فقال لا      ولكنني عبدٌ ليحيى بن خالدٍ  
فقلتُ شراءً قال لا بل وراثتُ      توراثني من والدٍ بعد والدٍ  
وفي الفضل يقول القائل:

إذا نزلَ الفضلُ بنُ يحيى يلبدةً      رأيتُ بها غيثَ السماحةِ ينبتُ  
فليس بسعالٍ<sup>(١)</sup> إذا سبيلُ حاجةٍ      ولا بمكبٍ<sup>(٢)</sup> في ترى الأرضِ ينكتُ  
وفي محمد يقول القائل:

سألتُ الندى والجودَ ما لي أراكما      تبذلُّتما عزاً بذلُّ مؤيدٍ

(١) يسعال: يتنحج ويسعل في غير راحة للعطاء.  
(٢) بمكب: مطرق يلهي.

وما بال ركنُ المجدِ أمسى مهتماً      فقالا أصبنا بابين يحيى محمداً  
قللتُ فهلاً ثمناً بعدَ موتهِ      وقد كتما عبديه في كلِّ مشهدٍ  
فقالا أقمنا كي نُعزِّي بفقديه      مسافةً يومٍ ثم تلووه في غدٍ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: من كانت له إليّ حاجة فليرفعها إليّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، الحياء يمني أن أذكرها. فقال خطها في الأرض فكتب: إني فقير. فقال: يا قنبر، أكبه، حلتني. فقال الأعرابي:

كسوتني حلةً تبلى محاسنها      فسوف أكسوك من حسن الثنا حلاً  
إن نلتَ حسنَ الثنا قد نلتَ مكرمةً      وليس تبغي بما قد نلتَهُ بدلاً  
إن الثناء ليحيي ذكرَ صاحبه      كالغيثِ يحيي نداء السهل والجبل  
لا تزهد الدهرَ في عرفٍ بدأت به      كلُّ امرئٍ سوف يُجزى بالذي فعلاً

فقال يا قنبر: زده مائة دينار. فقال: يا أمير المؤمنين لو فرقتهما في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضي الله تعالى عنه: صه يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ولعبد الله بن جدعان:

إنسي وإن لم ينل مالي مداختي      وقاب ما ملكت كفي من المال  
لا أحبسُ المالَ إلا حيثُ أنفقهُ      ولا يغيّرني حالٌ إلى حالٍ

وقال بعض العرب لولده: يا بني لا تزهدي في معروف، فإن الدهر ذو صروف؛ فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُدُّ من الرحمنِ فضلاً ونعمةً      عليك إذا ما جاء للخير طالبُ  
ولا تمنعن ذا حاجٍ جاء راغباً      فإنك لا تدري متى أنت راغبُ  
وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطن<sup>(١)</sup> عرياناً طاوياً      وأوترُ بالزادِ الرفيقَ على نفسي  
وأمنحه فرشي وأنترش الثرى      وأجعل ستر الليل من دونه لبي<sup>(٢)</sup>  
حذارٍ أحاديثَ المحافلِ في غدٍ      إذا ضمّني يوماً إلى صدره رمسي<sup>(٣)</sup>

وقال يحيى البرمكي: أعط الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا يتقصك منها شيئاً، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يقي عليك منها شيئاً. فكان الحسن بن سهل يتمجب من ذلك ويقول: لله دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا. وقد أملى يحيى من نظمه فقال:

(١) خميص البطن: خاليه - جانماً.

(٢) اللبس: الخفاء.

(٣) الرمس: اللحد - القبر.

لا تبخلنَّ بدنيا وهي مقبلَةٌ  
فليس ينقصها التبذيرُ والسرفُ  
فإن تولتْ فأحرى أن تجودَ بها  
فليس تبقى ولكنْ شكرها خلف<sup>(١)</sup>

وقال يحيى لولده جعفر يا بني: ما دام قلمك يردد فأمطره معروفاً. وقال بعضهم:

لا تكثري في الجودِ لائمتي  
وإذا بخلتْ فأكثري لومتي  
كفي فلستُ بحاملٍ أبداً  
ما عشتُ همَّ غدٍ إلى يومتي

وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: لا تستح من عطاء القليل فالحرمان أقل منه. وسئل إسحاق الموصلي عن المخلوع فقال: كان أمره كله عجباً، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً فأراد الرجوع إلى أهله فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليّ. فقال: أوفروا<sup>(٢)</sup> له زورقه ذهباً، وأمر له بألف درهم. وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين. فاستحضره سليمان وقال: لا أم لك، أتتهج سعيداً. قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر. عشقت جارية مدنية وأتيت سعيداً فقلت: إنني أحبُّ هذه الجارية، وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار، وقد أتيتك فقال لي بورك فيك. فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال: يا جارية هاتي مطرفاً فأتته بمطرف خز فصرتُ لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول:

أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالد  
ولكنني أعني ابن عائشة الذي  
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى  
ذروه ذروه إنكم قد رقدتمو  
أخا العرفي لا أعني ابن بنت سعيد  
أبو أبويه خالد بن أسيد  
فإن مات لم يرضَ الندى بعقيد<sup>(٣)</sup>  
وما هو عن إحسانكم برفود

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكهرت أن تعطى القليلَ ولم  
تقديز على سعةٍ لم يظهر الجودُ  
بئس النوال ولا تمنعك قلنة  
فكل ما سدَّ فقراً فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه، وفردة نعله. وياع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً. فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً. فقال: بل اجعله ذخراً لي واجعل الله ذخراً لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجات. وكان ابن مالك القشيري من الأجواد. قيل إنه أنهب الناس ماله بمكافئ ثلاث مرات فعاتبه خالد فقال:

يا خالَ دَرنِي ومالي ما فعلتُ به  
وخذُ نصيبك منه إنني مودي<sup>(٤)</sup>

(١) خلف: أي يجعل لها خلفاً.

(٢) أوفروا: حملوه وأثقلوه.

(٣) بعقيد: من يعقد له الرأي والزعامة.

(٤) مودي: هالك.



فلن أطيعك إلا أن تخلصني  
الحمدُ لا يُشترى إلا بمكرمةٍ  
فانظرْ بكيدك هل تستطيعُ تخليدي  
ولن أعيشَ بمالٍ غيرِ محمودٍ

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله. ونزل بأبي البحري وهب ابن وهب القرشي ضيفاً، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم. فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل. ووفدت ليلى الأخيلىة على الحجاج فقالت فيه:

إذا وردَ الحجاجُ أرضاً مريضاً  
شفاها من الداءِ العضالِ<sup>(١)</sup> الذي بها  
تبعُ أقصى داءها فشفاهها  
غلامٌ إذا هزَّ القنأةَ سقاها

قال: لا تقولي غلام، ولكن قولي /همام/ يا غلام أعطها خمسمائة. قال: أيها الأمير اجعلها نعماً، فجعلها إبلاً إنثاءً. وقال أبو الفياض الطبري:

والعزُّ ضيفٌ لا يراهُ بربعِهِ  
والجودُ أعلى كعبٍ كعبٍ قبلنا  
مَنْ لا يرى بذلَ التلادِ تلادا  
فمضى جواداً يومَ مات جوادا

وقال آخر:

أيقنتُ أن من السماحِ شجاعةٌ  
وعلمتُ أن من السماحِ جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. قال أحمد بن حمدون: فقال لي ولأترجة الهاشمي: اذها فانظر إليه، وكان معنا الحاجب. فمضينا ورأيناه، فوالله مارأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه. فمددت أنا يدي إلى غزال أمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئاً، وغمزته على كمي، فأرته الغزال فقال: بحياتي عليكما ارجعوا فخذوا ما أحببنا. فمضينا فملأنا أكمامنا، وأقيتنا، وأقبلنا نمشي كالجبالى. فلما رأنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبا يا أمير المؤمنين، فقال: قوموا فخذوا ما شتمت، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك.

ونظر يزيد المهلبى سطلاً من ذهب مملوءاً مسكاً فأخذه بيده وخرج. فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين، فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن يتهبوا الباقي فانتهبوه فوجهت إليه أمه تقول: سر الله أمير المؤمنين، لقد كنت أحب أن يراه أن يفرقه، فإنني أنفقت عليه مائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار. فقال: يُحمل إليها مثل ذلك، حتى تعيد مثله. ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله بالأول. ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً فوافق فيه الفرزدق فقال: يا أبا فراس اختر عشراً من الإبل ففعل. فقال: ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة. فقال: هي لك. فقال:

(١) الداء العضال: الذي لا يبرؤه منه.

يا طَلَحَ أَنْتَ أَخُو النَّدَى وَعَقِيدُهُ      إِنَّ النَّدَى مَا مَاتَ طَلْحَةُ مَا تَا

إِنَّ النَّدَى أَلْقَى إِلَيْكَ رِحَالَهُ      فَجِيثُ بِئْتُ مِنَ الْمَنَازِلِ بَاتَا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار. فقال:

إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى      فِي قَبْوِ ضُرَيْتٍ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

فقال: زدني. فقال: كل شيء وثمنه. ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله،

وأحسن إليه وقال: ما عندك يا أبا عطاء. فقال: وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب غير أنني قلت بيتين. قال: هات

ما قلت فقال:

يَا طَالِبَ الْجُودِ أَمَا كُنْتَ تَطْلُبُهُ      فَاطْلُبْ عَلَى بَابِهِ نَصْرَ بْنَ سِيَارِ

الْوَاهِبِ الْخَيْلَ تَفْدُو فِي أَعْتَابِهَا      مَعَ الْقِيَانِ وَفِيهَا أَلْفُ دِينَارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيئاً، فبلغ ذلك نصراً

فقال: يا له، قاتله الله من سيد ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله. وقال العتي أشرف عمرو بن هبيرة يوماً من قصره فإذا

هو بأعرابي يرقل<sup>(١)</sup> قلوبه، فقال عمرو لحاجبه: إن أردني هذا الأعرابي فأوصله إليّ. فلما وصل الأعرابي سأله

الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به عليه فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قُلْ مَا يَيْدِي      وَلَا أَطِيقُ الْعِيَالَ إِذَا كَسَرُوا

أَنَاخَ دَهْرِي عَلَيَّ كَلْكَلَةً<sup>(٢)</sup>      فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ، وَانْتَظَرُوا

فأخذت عمر الأريحية فجعل يهترّ في مجلسه، ثم قال: أرسلوك إليّ وانتظروا، إذن لا تجلس حتى ترجع

إليهم، ثم أمر له بألف دينار. وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف.

فراجعه الخازن في ذلك فقال: انفضه ما بقي إلا نفاذه، وإن خروج المال أحب إليّ من الإعتذار فاستشره الخازن. فقال

إذا أراد الله بعبد خيراً صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته. وأنا أردت شيئاً، وأراد الجواد الكريم أن يعطي

عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة وأمره الناقد. ووقف أعرابي على ابن عامر فقال: يا قمر البصرة، وشمس

الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برّحت بي الحاجة، وأكدت بي<sup>(٣)</sup> الآمال إلا بفنائك فامنحني بقدر

الطاقة لا بقدر المجد، والشرف، والهمة. فأمر له بمائتي ألف. وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أَتَرَكُ إِنْ قُلْتُ دِرَاهِمُ خَالِدٍ      زِيَارَتَهُ إِنِّي إِذَا لَلَّيْتُمُ

فقال: أَوَلَيْتُ دِرَاهِمُ خَالِدٍ أَحْمَلُوا إِلَيْهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل وقال: هذه

قطرة من سحابك. ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى ثم قال: والله ما بكائي جزعاً من العزل، ولا

أسفاً على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقاً. وأراد الرشيد أن يخرج إلى

(١) يرقل: يجذ بالسير عليها.

(٢) كلكله: صدره ويكنى عن مصائبه.

(٣) أكدت بي: أعوزتني.

بعض المتفرجات فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلاتنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم، قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء قبيل يده، وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال له، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا. فقال منصور: أنا استخبر لك هذا، فقال يحيى: إذن يقول لك قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً فقد تركتها له. وقيل إن الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً. ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر. وعن الأخصب الصغير قال: كان أسيد بن عتقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدراً، أكثرهم أدباً، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً<sup>(١)</sup>، فطال عمره، ونكبه دهره، وفخرج عشية ينتقل لأهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه وقال: ما أشارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال بُخْلٌ مِثْلِكَ بِمَالِهِ، وَصَوْنٌ وَجْهِي عَنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ. فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغرين ما أرى من حالك. فرجع ابن عتقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له: لقد غرك كلام غلام في جنح ليل. قال: فكأنما ألقت فاه حجراً، ويات متملماً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل، وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشره. فأنشأ يقول:

رَأَيْتِي عَلَى مَا بِي عَمِيلَةٌ فَاشْتَكَيْتُ	إِلَى مَالِهِ حَالِي فَوَاسِي وَمَا هَجَزْتُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَتْ ثِيَابَهُ	تَرْتِي رِدَاءَ سَابِغِ الذَّبِيلِ وَأَتَزَرْتُ
غَلَامٌ جَاءَهُ اللَّهُ بِالْحَسَنِ يَاقِعاً	لَهُ سِيمِيَاءٌ <sup>(٢)</sup> لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ
كَأَنَّ الثَّرِيَاءَ <sup>(٣)</sup> عَلَقَتْ فِي جَيْبِهِ	وَفِي أَنْفِهِ الشُّعْرَى وَفِي جَيْبِهِ الْقَمَرُ

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد. قيل: إنه كان لرجل جارية يهاها فاحتاج إلى بيعها فأبتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هَيْئاً لَكَ الْمَالُ الَّذِي قَدْ قَبِضْتَهُ	وَلَمْ يَسَقْ فِي كَفِّي غَيْرُ التَّحْشِيرِ
أَبُوهُ بِخَزْنِي مِنْ فَرَايِكَ مَوْجِعٌ	أَنَاجِي بِهِ صَدْرًا طَوِيلَ التَّضَكُّرِ

فأجابها بقوله:

وَلَوْلَا قَمُودُ الدَّهْرِ بِي عَنْكَ لَمْ يَكُنْ	يَفْرُقُنَا شَيْءٌ سِوَى الْمَوْتِ فَاعْزُرِي
عَلَيْكَ سَلَامٌ لَا زِيَارَةَ بَيْنَنَا	وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ابْنُ مَعْمَرِ

فقال ابن معمر: قد شئت، وقد وهبتك الجارية وثنمتها فخلها وانصرف. ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه محمد قال:

وَلَقَدْ قَدِمْتُ عَلَى رِجَالٍ طَالَمَا	قَدِمَ الرِّجَالُ عَلَيْهِمْ فَتَمَوَّلُوا
--	--

(١) جناناً: القلب.

(٢) سيمياء: علامة.

(٣) الثريا: مجموعات نجمية (من النجوم).

أخنى<sup>(١)</sup> الزمانُ عليهم فكأنما  
كانوا بأرضٍ أقرت فتحوّلوا  
فقال أبو الشمقمق:

الجودُ أفلستهم وأذهبَ مالهم  
فاليومَ إن راثوا الساحةَ يخلوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه. فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة. فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته.

وقال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوماً على يحيى بن أكرم القاضي فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم، وأخذ القصص فهل لك في الحضور. قلت: نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه، وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء بالإلفة والمحبة، ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشده:

لقد رجوتك دونَ الناسِ كلهم  
إن لم يكنْ لي أسبابٌ أعيشُ بها  
وللرجاءِ حقوقٌ كلها تجبُ  
ففي العلاكِ أخلاقٌ هي السببُ

فقال: يا سلامة، انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين. فقال: بقية من المال. قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تفرقت أجزائه فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبا العيناء ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيان لو بكتِ الدماءُ عليهما  
لم يبلغا المعشَرَ من حقَّيهما  
عيناى حتى يؤذنا بذهابِ  
قعدُ الشبابِ وفرقةُ الأحبابِ

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان رتبة منها في الشهر ألف دينار، سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يوماً: أيها الأمير إنني أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمتد إليّ، وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب، والسوار الذهب، أفأعطي أم أرد. قال: فأطرق طويلاً ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردّها. وقال سلمة بن عياش في جعفر بن سليمان:

وما شمّ أنفي ريحَ كفٍّ شممتها  
منَ الناسِ إلا ريحُ كفِّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار، ومائة مقال مسك، ومائة مقال عنبر. وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً مضيافاً، فتغدى عنده يوماً أعرابي، فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس في الدخول على هيتهم الأسم. فقال: أو كلُّ يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم. فأنشأ يقول:

كلُّ يومٍ كأنه عيدٌ أضحى  
عندَ عبدِ العزيزِ أو عيدُ فطرِ

وله ألف جنوة<sup>(١)</sup> مترعاتٍ كلُّ قدرٍ يمُدُّها ألفُ قدرٍ

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعداً فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفا الشمعة كراهة أن يخجل الفتى. فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً، وعيالاً، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار. وقال له: لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم. ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له: سألتك بالله العظيم، ونييه الكريم إلا ما أجررتني من خصمي. فقال: ومن خصمك حتى أجريك منه؟ فقال: الفقر. فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأخذها وانصرف. فبينما هو في الطريق إذا أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونييه الكريم متى أتاك خصمك معنفاً فارجع إلينا متظلماً. وقال الأعمش: كانت عندي شاة فمرضت، ووقدت الصبيان لبنها، فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوتف علفها، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكان تحتي لبد أجلس عليه فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلي من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ<sup>(٢)</sup>.

وحكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن يزيد يوماً فسمع صائحاً يقول: يا يزيد بن يزيد. فطلبه فأتني به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي، ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيلَ مَنْ للجودِ والمجدِ والندى  
فنادِ بصوتِ يا يزيدُ بنُ يزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به، وبمائة دينار، وخلعة سنية، فأخذها وانصرف.

وحكى أن قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخياتهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له: هل لك أن تبيعي بعيرك بنجيبي<sup>(٣)</sup>؟ وكان الميت قد خلف نجيباً، وكان للرائي بعير سمين، فقال: نعم. وباعه في النوم بعيره بنجييه. فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى بعيره فنحره في النوم، فانتبه الرائي من نومه فوجد الدم يسبح من نحر بعيره فقام وأتم نحره، وقطع لحمه وطبخوه، وأكلوا ثم رحلوا. وساروا. فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب فقدم منهم شاب فنادى: هل فيكم فلان بن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا ذا فلان بن فلان. فقال: هل بعث من فلان الميت شيئاً؟ قال: نعم بعته بعيري بنجييه في النوم، فقال هذا نجيبه فخذ، وأنا ولده وقد رأيت في النوم وهو يقول: أن كنت ابني فادفع نجيبتي إلى فلان فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

وروي عن الهيثم بن عدي أنه قال: تماري<sup>(٤)</sup> ثلاثة نفر في الأجواد. فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر. فقال الآخر: أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة. فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي. فتنازعوا بفناء الكعبة. فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى

(١) جنوة: وعاء يسكب فيه الطعام.

(٢) تبرأ: تشفى.

(٣) بنجييه: الإبل النضيس.

(٤) تماري: تجادل.

نظر بما يعود، فنحکم على العيان. فقام صاحب بن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له. فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ، ابن سبيل ومتقطع به. قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما في الحقيبة وكان فيها مطارف خز، وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس فوجده نائماً فقالت له جارية لقيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل، ومتقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن<sup>(١)</sup> الإبل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبداً، وامض لشأنك. قيل: إن قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها. ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء:

وَإِذَا مَا اخْتَبَرْتُ وَدَّ صَدِيقِي فَاخْتَبِرْ وَدَّ مِنَ الْغُلَمَانِ

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة. فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومتقطع به، وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى. وقال: أواه أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالاً، ولكن خذ هذين العبدين. فقال الرجل والله ما كنت بالذي يسلبك عبدك. فقال: إن أخذتهما أو لا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت فخذ، وإن شئت فاعتق. فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهده.

قيل: إن شاعراً قصد خالد بن يزيد فأنشده شعراً يقول فيه:

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ حِرَّانَ أَنْتَمَا قَالِ يَقِيناً إِنَّمَا لِعِيْدُ  
فَقُلْتُ وَمَنْ مَوْلَاكُمَا فَتَطَاوَلَا إِلَيَّ وَقَالَا خَالِدٌ وَيَزِيدُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كَرِيمٌ كَرِيمُ الْأَمْهَاتِ مَهْدَبٌ تَدَقَّتْ يَمِنَاهُ النَّدَى وَشَمَائِلُهُ  
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ الْجِهَاتِ أَتَيْتَهُ فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ  
جَوَادٌ بَسِيطُ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاهَا لَقَبِضِي لَمْ تُجِبْهُ أَنْامَلُهُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقال له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

تَبَرَعْتُ لِي بِالْجُودِ حَتَّى نَعَشْتَنِي وَأَعْطَيْتَنِي حَتَّى حَبَّبَكَ تَلْعَبُ  
وَأَنْبَتَ رِيشاً فِي الْجَنَابِجَيْنِ بَعْدَمَا تَسَاقَطَ مِنِّي الرِّيشُ أَوْ كَادَ يَذْهَبُ  
فَأَنْتَ النَّدَى، وَإِبْنُ النَّدَى، وَأَخُو النَّدَى حَلِيفُ النَّدَى مَا لِلْنَدَى عِنْدَكَ مَذْهَبُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له: إن زدتنا زدناك. فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسي ما أخذت وانصرف.

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية فهم: حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله،

(١) معاطن: مأوىها.

وكعب بن أمامة الأيادي، وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما. فأما كعب فجاد بنفسه، وآثر رفيقه بالماء في المفازة<sup>(١)</sup> ومات عطشاً، وليس له خبر مشهور. وأما خالد بن عبيد الله فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر. فقال: في مثل هذا الحال. قال: نعم. فقال هاتهما فأنشده يقول:

يا واحدَ العربِ الذي      ما في الأنعامِ له نظيرُ  
لو كانَ مثلكَ آخره      ما كان في الدنيا قبيراً

فقال: يا غلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف.

وأما حاتم فأخباره كثيرة، وأثاره في الجود شهيرة، ويكنى أبا سفانة، وأبا عدي، وكان يسير في قومه بالمرباع، والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدي يعادي النبي ﷺ فبعث النبي ﷺ علياً إلى طيء، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرته خيل رسول الله ﷺ. فلما أتى بها إلى النبي ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد وغاب الراض، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب. فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني<sup>(٢)</sup>، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم العظام، ويفشي السلام، ويحمل الكل<sup>(٣)</sup>، ويعين على نوائب الدهر. وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً. أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها النبي ﷺ: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خللوا عنها، فإن أباهاء كان يحب مكارم الأخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزاً ذل، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين جهال. فأطلقها ومنً عليها، فاستأذنته في الدعاء له فأذن لها وقال لأصحابه: اسمعوا وعوا. فقالت: أصاب الله بئرك موافقه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبياً في ردها عليه.

فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها فأنت أخاها عدياً، وهو بدومة الجندل فقال له: يا أخي إئت هذا الرجل قبل أن تعلقك حباته، فإني قد رأيت هدياً. ورأياً سيغلب أهل الغلبة، رأيت خصلاً تعجبني، رأيت يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ. وإني أرى أن تلتحق به، فإن يك نبياً فللسابق فضله، وإن يك ملكاً فلن يذل في عز اليمن. فقدم عدي إلى النبي ﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفاً، وجلس النبي ﷺ على الأرض فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها، يعطيها الضريبة من إبله فتبها وتعطيها الناس. فقال لها أبوها: يا بنية أن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه فإما أن أعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتمطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء. فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية وكان جواداً يشبه جوده شعره، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا

(١) المفازة: الصحراء المقفرة.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) يحمل الكل: الضعيف.

هل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرأ من الإبل وأطعم الناس واجتمعوا إليه. وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على أتلاف المال، فلا يلتفت لقولها، وكان لها ابن عم يقال له مالك. فقال لها يوماً: ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالاً ليلتفنه، وإن لم يجد ليتكلفن، ولئن مات ليرتكن أولاده عالة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك، وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية، وكان طلاقهن إن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان من قبل الشام حولته إلى اليمن فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتيها. ثم قال لها ابن عمها: طلقي حاتماً وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه وأكثر مالا، وأنا أسك عليك وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته فاتاها حاتم وقد حولت باب الخباء. فقال حاتم لولده: يا عدي أما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك.

قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد فتزل فيه. فجاءه قوم فتزلوا على باب الخباء كما كانوا يتزلون، كانت عدتهم خمسين فارساً، فضاقت بهم ماوية ذرعاً وقالت لجاريتها اذهبي إلى ابن عمي مالك وقولي له إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشيء تفرهيم، ولبن نسقيهم، وقالت لها: انظري إلى جبينه وفمه فإن شافهك بالمعروف فأقبلي منه، وإن ضرب بلحيته على زوره، ولطم رأسه، فأقبلي ودعيه. فلما آتته وجدته متوسداً وطباً<sup>(١)</sup> من لبن، فأيقظته، وأبلغته، الرسالة. وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده، وضرب بلحيته. وقال: أقرئها السلام وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقني حاتماً لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم. فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت وبما قال لها. فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، ولم يعلموا مكانك، فأرسل إلينا بناقة تفرهيم، ولبن نسقيهم. فأنت الجارية حاتماً فصاحت به فقال: لييك، قريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه. فقال: حياً وكرامة، ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيهما فطفقت ماوية تصيح هذا الذي طلقتك بسببه ترك أولادنا وليس لهم شيء. فقال: ويحك يا ماوية الذي خلقهم، وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد، وغلب الشتاء أمر غلمانهم بنار فيؤقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلاً فيقصدوها، ولم يكن حاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدية.

حكى أن ملكان ابن أخي ماوية قال: قلت لها يوماً يا عمه حديثي عجائب حاتم، وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه؛ أصابت الناس سنة<sup>(٢)</sup> أذهبت الخف والظلف وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عدياً وجعلنا نعللها حتى نأما فأقبل عليّ يحدثني ويعلمني بالحديث حتى أنام فرقمت به، لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاونون كالكلاب، أو كالذئب جوعاً، فقال لها: أحضري صبيانك فوالله لأشبعنهم فقامت سريمة لأولادها، فرفعت رأسي وقلت: يا حاتم بماذا

(١) الوطب: وعاء جلدي خاص باللبن.

(٢) أصابت الناس سنة: جذب وجفاف.



تشجع أطفالها؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائماً وأخذ المديّة بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ثم أجمج ناراً، ودفع إلينا شفرة وقال قطعي واشوي، وكلي، وأطعمي صبيانك. فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها فأيقطت أولادي، وأكلت وأطعمتهم. فقال: والله إن هذا هو اللؤم، تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحي بيتاً بيتاً يقول لهم: انهضوا عليكم بالنار، فاجتمعوا حول الفرس وتفتح حاتم بكسائه وجلس ناحية. فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير، إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم وإنه لأشدهم جوعاً. وأخباره كثيرة مشهورة، ومن شعره:

أماويّ إنّ المالَ غادٍ ورائحُ      ويقي من المالِ الأحاديثُ والذُكرُ  
وقد علمَ الأقبامُ لو أن حاتمأ      أراد ثراءَ المالِ كان له وفرُ

وأغار قوم على طيء فركب حاتم فرسه، وأخذ رمحه ونادى في جيشه، وأهل عشيرته، ولقي القوم فهزمهم وتبعهم. فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لي رمحك فرمي به إليه. فقيل لحاتم. عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول هب لي؟ ولما مات عظم على طيء موته فادعى أخوه أنه يخلفه. فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلقتيكما؛ وضعته بقبي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر فأنى لك ذلك.

قال الشاعر:

يعيش الندى ما عاشَ حاتمُ طيءِ      وإن مات قامَ للسخاءِ مآتمُ

وكانت العرب تسمي الكلب، داعي الضمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر، لما يجلب من الأضياف بناحه، والضمير الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد، وهبت الرياح لم تشب الثيران، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العنمة لتستوحش فتنبج، فتهدى الضلال، وتأتي الأضياف على بناحها.

والحكايات في ذكر الأجواد، والكرماء، والأسخياء، وأهل المعروف وما كانوا من السخاء، والكرم، أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. ففي مثل هذه المناقب فليتأقن المتأقنسون، ولمثلها فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا، وشرف الآخرة، وحسن الصيت، وخلود جميل الذكر، فإننا لم نجد شيئاً يبقى على مر الدهر إلا الذكر حسناً كان، أو قبيحاً. وقد قال الشاعر:

ولا شيئاً يدومُ فكنْ حديثاً      جميلَ الذكرِ، فالدينا حديثُ

فانتبهز فرصة العمر، ومساعدة الدنيا، ونفوذ الأمر، وقدم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وأدخِر لنفسك في القيامة كما أدخروا، واعلم أن المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدو فاختر أي الثلاث شئت، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الرابع والثلاثون: في البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخُلُون وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(١)</sup> الآية وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم». وعنه ﷺ أنه قال: «البخل جامع لمساوي القلوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما: إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته، أو كان طريقاً ما سلكته.

وقيل: بخلاء العرب أربعة؛ الحطيئة وحמיד الأرقط وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فمر به إنسان، وهو على داره ويديه عصا. فقال: أنا ضيف، فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان فحاشاً<sup>(٢)</sup> عليهم، نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرأ وهجاهم، وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود فتصدق على سائل بتمره. فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلاً. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار<sup>(٣)</sup>، كم تعير، وكم تطوف وتطير، لأطيلن حبسك، ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لم لا تنفق ومالك عريض. فقال الدهر أعرض منه. وأنشد بعضهم:

وهبني جمعتُ المال ثم خزنتُهُ      وحاتتُ وفاتي هل أزدُ به عمرا  
إذا خزن المال البخلُ فإنه      سيورثه غمًا، ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق بخيل فقيل: هو محموم. فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتاباً في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه.

وقال ابن أبي فتن:

فَرِنِي وَإِنْسَافِي لِمَالِي فَإِنْسِي      أَحْبُّ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا هُوَ أَجْمَلُ  
وَإِنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِاللُّومِ، شَاعِرٌ      يَلُومُ عَلَى الْبَخْلِ الرَّجَالَ وَيَخْلُ

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً أصابه القولنج في بطنه، فحفته الطيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٧.

(٢) فحاشا: يقول بالفحش.

(٣) يا عيار: مكر الذهب والمجيء.

الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة واسرج به. وكان المنصور شديد البخل جداً، مر به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج فحدا له يوماً بقول الشاعر:

أضرب بين الحاجبين نوره      بزينة حياؤه وخبره  
ومسكه يشوبه كافوره      إذا تقلبى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل. ثم قال: يا ربيع أعطه نصف درهم. فقال مسلم: نصف درهم يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين ألف درهم. قال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع. وكُلَّ به مَنْ يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب بيخلهما المثل. قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف فرهم وهبها إلي المهدي فوزنتها فرجحت درهما، فاشترت به لحماً. واشترى يوماً لحماً بدرهم، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بتقصان داتين، فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول: هذا لحم مروان. واجتاز يوماً بأعرابية فأضافته. قال: إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو. يقال إن من عادتهم إذا تراقفوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط، ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى، جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق. وقيل لبخيل: مَنْ أشجع الناس؟ قال: مَنْ سمع وَقَعَ أضراس الناس على طعامه، ولم تشقَّ مرارته. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبراً وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناً، يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ<sup>(١)</sup> من دبر ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارك أبتت لك واحتفت      إبراً يضيئُ بها فناء المنزل  
وأناك يوسفُ يستعيرك إبرة      ليخيطَ قُدَّ قميصه لم تفعل

وكان المتنبّي بخيلاً جداً، مدحه إنسان بقصيدة فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ فقال: عشرة دناتير. قال له: والله لو نذفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك داتاً<sup>(٢)</sup>. وقال دعيل: كنا عند سهل بن هارون فلن نبرح حتى يكاد يموت من الجوع. فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحت ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس. فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته. فقال والله إنني لأكره من يرمي برجله، فكيف برأسه، ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم تر عظماً

(١) قُدَّ: قطع وشق.

(٢) الداتق: ١/٦ من الدرهم.

أهش تحت الأسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أنني لا أكله؛ أما قلت عنده من يأكله؟ أنظر في أي مكان رميته فأتني به. فقال: والله لا أدري أين رميته. فقال: لكني أنا أعرف أين رميته، رميته في بطنك الله حسبك. وقيل: من الناس من ييخل بالطعام، ويوجد بالمال. وبالعكس. قال بعضهم في أبي دلف:

أبو دلفٍ يضيغُ ألف ألفٍ      ويضربُ بالحسام على الرغيفِ  
أبو دلفٍ لمطبخه قنارٌ<sup>(١)</sup>      ولكن دونه سُلُّ السيوفِ

واشكى رجل مروزي صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز، فاستقل الثقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء. فبينما هو يماطل الأيام، ويدافع الآلام، إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة، وقال إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره ووجده يعصم. فلما حضر غداؤه أمر به. فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: إطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم، ويجلو الصدور. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبيح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علق فيها عوداً بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً، قال: قد شرب الدهن، وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عوداً عطشاناً، ونخشى أن يشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب، وأسأل الله العافية إذا دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل: يا فلان، لقد فررت من شيء، ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء، وينشفان هذا العود، لِمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضاً بما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرسلك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المسرفين. وقال الهيثم بن عدي: نزل على أبي حفصة الشاعر، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة. فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكب إليه:

يا أيها الخارجُ من بيتي      وهارباً من شدّة الخوفِ  
ضيفك قد جاء بزادٍ له      فارجعْ وكن ضيفاً على الضيفِ

واشترى رجل من البخلاء داراً وانتقل إليها، فوقف بابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك. ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك. ثم التفت إلى ابنته فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت: يا أبت ما دمت مستمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبالي، كثروا، أم قلوا.

والأم اللثام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له: هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له:

ما بين لقمتهِ الأولى إذا انحدرت      وبين أخرى تليها قيدُ أظفوري<sup>(٢)</sup>

(١) قنارٌ: رائحة شواء.

(٢) أظفور: هذه كتابة عن سرعة نوالي اللقم.

وقال فيه أيضاً:

تجهز كفاه ويحدر حلقه إلى الزور<sup>(١)</sup> ما ضمت عليه الأنامل  
وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبه ليأخذها فسبّه الأعرابي إليها فسقطت  
منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها. فقال الأعرابي: والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزل  
من السماء ما تركها. وقال أعرابي لتزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم، أو ارحل  
بندم. وللحمدوني:

رأيتُ أبا زرارة قال يوماً  
لثني وَصَحَ الخوانَ ولاحَ شخصُ  
فقال سوى أيبك فذاك شيخُ  
فقامَ وقالَ مِن حنقٍ إليه  
أبي وابنا أبي والكلبُ عندي  
وقال له ابنُ لي يا ابنَ كلبٍ  
إذا حضرَ الطعامُ فلا حقوقُ  
فما في الأرضِ أقبُحُ من خوانٍ  
فأين هذا من القائل:

بخيلٌ يرى في الجودِ عاراً وإنما  
إذا المرءُ أثرى ثم لم يرجِ نفعهُ  
وقال آخر:

وأمرؤٌ بالبخلِ قلتُ لها أقصري  
أرى الناسَ إخوانَ الكريمِ وما أرى  
وقالوا: إذا سألتَ لئماً شيئاً فعاجله، ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعداً. وقال ربعي الهمداني:  
جمعتُ صنوفَ المالِ من كلِّ وجهٍ  
وانسي لأرجو أن أموتَ وتنقضي  
وأشدُّ الجاحظِ لأبي الشمقم:

ممن تعلمت هذا  
أما مررت بعبد  
أن لا تجسود بشيء  
لعبد حاتم طيء

(١) الزور: أعلى الصدر.  
(٢) بمنزلة: أي بمنزلة واحدة.

وما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم: فمن أهدى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب:

والتغلبسي إذا تحنَّحَ لِلْقَرَى  
وله أيضاً فيهم:

فَوْمٌ إِذَا أَكَلُوا أَخْفَؤا كَلَامَهُمْ  
فَوْمٌ إِذَا اسْتَبَحَ الضَّيْفَانُ كُلَّهُمْ  
فتمنع البول شحاً أن تجودَ به  
والخبزُ كالعبرِ الهنديِّ عندكمُ  
فأين هؤلاء من الذي قاله فيه الشاعر:

أبْلَجٌ يَبِينُ حَاجِيِيهِ نَوْرُهُ  
وقال بعضهم في بخيل:

أَنَا بَخِيلٌ بِخَبِيزٍ لَهُ  
إِذَا مَا تَنَفَّسَ حَوْلَ الْخَوَانِ  
وقال آخر:

تَرَاهِمُ خَشْبَةَ الْأَضْيَافِ خَرَسَا  
وقال آخر، وقد بات عند بخيل:

فَبِتْنَا كَأَنَّا بَيْنَهُمْ أَهْلُ مَاتِمِ  
بِحَدِّكَ بَعْضًا بَعْضًا بِمَصَابِيهِ  
وقال آخر:

وَجِيرَةٌ لَا نَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ  
إِنْ يَوْقَدُوا يَوْسُغُونَا مِنْ دَخَانِهِمْ  
وقال آخر وأجاد:

فَصَلِقَ إِيمَانَهُ إِنْ قَالَ مَجْتَهِدًا  
فَلَنْ هَمَمْتَ بِهِ فَعَابَتْ بِخَبِيزَتِهِ  
فَدَكَانَ يَعْجِنِي لَوْ أَنَّ غَيْرَتَهُ

(١) الأست: المعجز.

(٢) ملحد: مدفون في قبر.

(٣) الجرادق: الرغيف.

وقال آخر:

ذهب الكرامُ فلا كرام  
من لا يقبلُ ولا ينيب

وقال آخر:

خليلي من كذبٍ أحيينا أخاكما  
ولا تبغلا بنخل ابن قزعة إنه  
إذا جئتُ في حاجو سد باب

وقال آخر:

له يومان، يوم نلدي ويوم  
فأما جوده فعلى قحاب

وقال آخر:

عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا  
فلما ذكرتُ المهرَ طلقها عشرا

وقال آخر:

لو عبر البحرَ بأمواجه  
وكفاه مملوءة خردلا

وقال آخر:

يا قائماً في داره قائداً  
قد مات أحيافك من جوعهم

وقال آخر:

وخبزك كالثريا في البعاد  
لحرمت الرقاد إلى المعاد

وقال آخر:

لا تعجبن لخبز زل من يله

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا قد مدّخت فتى كريماً  
بلوث ومزّبي خمسون حولاً  
فلا أحدٌ يعدُّ ليومٍ خيرٍ  
ولا أحدٌ يجودُ عليّ عديمٍ  
فقلتُ وكيف لي بفتى كريمٍ  
وحبُّك بالمجربِ من عليمٍ

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الأدباء، تواطؤوا على ذمي واستهلوا شمي حتى يتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إليّ أمل أمل، ولا ييسط نحوي رجاء راج. وقال له أصحابه يوماً: إنا نخشى أن تقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استمالتك لمجالستنا. فقال: علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء.

وقال عمر بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له. فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لي زارني فاشتتهى رأساً فاشتريته وتغديتنا، وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس إنه هو الذي اشترى الرأس.

قال رجل من البخلاء لأولاده: اشترؤا لي لحماً، فاشتروه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطي أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أشمشها يا أبت وأمضها حتى لا أدع للدر فيها مقيلاً. قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: ألوكها يا أبت والحسها حتى لا يدري أحد لعام هي أم لعامين. قال: لست بصاحبها. فقال الأصغر: يا أبت أمصها، ثم أدقها، وأسفها سفاً. قال: أنت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً.

ووقف أعرابي على أبي الأسود وهو يتغنى فسلم فردّ عليه ثم أقبل على الأكل، ولم يعزم عليه. فقال له الأعرابي: أما أني قد مررت بأهلك. قال: كذلك كان طريقك. قال: وامراتك حبلى. قال: كذلك كان عهدي بها. قال: قد ولدت. قال: كان لا بد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر، قال: ما كان ليبقى بعد موت أخيه، قال: وماتت الأم. قال: حزناً على ولديها. قال: ما أطيب طعامك قال: لأجل ذلك أكلته وحدي والله لا ذقته يا أعرابي.

وقيل خرج أعرابي قد ولاء الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقّم إليه الطعام. وكان إذا ذاك جائعاً فسأله عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجلاً ونساء. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضاً. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: ملأ الحي نبجاً. قال: فما حال جملي زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه، وقال: ارفع الطعام فرفعه، ولم يشبع الأعرابي، ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية<sup>(١)</sup> أعذ عليّ ما ذكرت. قال: سل عما بدا لك. قال: فما حال كليي إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات. قال: أو مات جملي زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر لم عمير. قال: أو ماتت أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أو مات



عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته، قال؛ سقطت عليه الدار. قال: أو سَقَطَتِ الدار. قال: نعم. قال: فقام له بالعصى ضارباً فولّى من بين يديه هارباً.

وحكى بعضهم قال: كنت في سفر فضلت عن الطريق، فرأيت بيتاً في الفلاة، فأتيته فإذا به أعرابية، فلما رأني قالت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف، انزل على الرحب والسعة. قال: فتزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذا أقبل صاحب البيت. فقال: مَنْ هذا؟ فقالت ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، ما لنا وللضيف. فلما سمعتُ كلامه ركبت من ساعتى وسرت، فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأني قالت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف، ما لنا وللضيف، فبينما هي تكلمني إذا أقبل صاحب البيت. فلما رأني قال: من هذا؟ قالت ضيف. قال: مرحباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت، وماء فشربت، فتذكرت ما مرّ بي أمس فتبسمت. فقال: مِمَّ تبسّمك؟ فقضصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلمها، وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي، وإن بعلمها أحو امرأتي هذه. فغلب على كل طبع أهله.

وحكايات هؤلاء، وأمثالهم كثيرة، وأخبارهم ونوادهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية، إنه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الخامس والثلاثون: في الطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم: فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكم واشكروا لله إن كُنتم إياه تَعْبُدُونَ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم قُلْ أحلّ لكم الطَيِّبَاتِ وما حلّمتم من الجوارح مكّليّن﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هيّ للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة﴾<sup>(٣)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «محرّم الحلال، كمحلّل الحرام» وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه». وكان الحسن رضي الله تعالى عنه يقول: ليس في اتخاذ الطعام سرف. وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص<sup>(٤)</sup> للزهد. فقال: ما للزهد وأكل الخبيص ليتك تأكل وتبقي الله، إن الله لا يكره أن تأكل الحلال، إذا اتَّقَيْتَ الحرام. انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفتك على الجار، وكيف رحمتك للمسلمين، وكيف كظمتك للغيظ، وكيف عفوك عمّن ظلمك، وكيف إحسانك إلى من أساء إليك، وكيف صبرك واحتمالك للأذى. أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

وأما نعوت الأطمعة وما جاء فيها؛ فقد نُقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالودج واللوزنج<sup>(٥)</sup> أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين، لا أقضي على غائب، فأحضرهما إليه فجعل يأكل من هذا لقمة، ومن هذا لقمة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كلما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته. واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالودج واللوزنج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين، لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد: أحكم. قال: قد اصطالح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد، وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً<sup>(٦)</sup>. وسمع الحسن البصري رجلاً يعيب الفالودج فقال لباب البر بلعاب النحل، بخالص السمن، ما أظن عاقلاً يعيبه. وقال الأصمعي: أول من صنع الفالودج عبد الله بن جدعان. وأتى أعرابي بالفالودج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال هذا وحياتك الصراط المستقيم.

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٤.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٣٢.

(٤) اللحم والخبيص: نوع من الحلواء.

(٥) الفالودج واللوزنج: نوعان من الحلواء يصنعان من الدقيق والسكر والسمن.

(٦) ديناراً: هذا أدب وتهذيب من زبيدة لتلا تساوي عطاء الخليفة.

وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم. وكان ﷺ يقول: «هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، وهو يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعّل. وكان ﷺ يحب الدباء ويقول: يا عائشة إذا طبختم قدرأ فأكثروا فيها من الدباء، فإنها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس. وعنه ﷺ أنه قال: عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب، ويغزر الدمعة. وعن أبي رافع قال: كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول: أكلُ التمر أماناً من القولنج، وشربُ العسل على الريق أمان من الفالج، وأكلُ السفرجل يحسن الولد، وأكلُ الرمان يصلح الكبد، والزبيب يشد العصب، ويذهب بالنصب والوصب<sup>(١)</sup>، والكرفس يقوي المعدة، ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكتف. وكان يديم أكل الهريسة. وكان يأكل على سماط معاوية، ويصلي خلف علي، ويجلس وحده، فستل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدمس، والصلاة خلف علي أفضل، وهو أعلم، والجلوس وحدي لي أسلم. وسميت المتوكلية بالمتوكل، والمأمونية بالمأمون. وقال الحسن بن سهل يوماً على مائدة المأمون: الأرز يزيد في العمر، فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين، إن طب الهند صحيح، وهم يقولون إن الأرز يُري مناماتٍ حسنةً، ومَنْ رأى مناماً حسناً كان في نهارين، فاستحسن قوله ووصله. وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبي الحرث: ما تقول في الفالوذجة؟ قال: وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا<sup>(٢)</sup> في صدري، والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن، ولكنه لقيه بمصا. وكانت العرب لا تعرف الألوان، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح. حتى كان زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فأتخذ الألوان.

ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين. وكان بعض المترفين يقول: جنبوا مائدتي بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا ألقى اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طرياً فإنه لا يتغير. ويقال للسكاج<sup>(٣)</sup> سيد المرق، وشيخ الأطعمة، وزين الموائد، ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة ويقال للخبز ابن حبة. قال بعضهم:

فِي حَبِّهِ الْقَلْبُ مَنِيٌّ      زَرَعْتُ حُبَّ ابْنِ حَبِّهِ

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه: أكرموا الخبز. قالوا: وما كرامته يا رسول الله؟ قال: لا يتظر به الإنسان، إذا وجدتم الخبز فكلوه، حتى تؤتوا بغيره. وفي الحديث: مَنْ دَاوَمَ عَلَى اللَّحْمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَسَا قَلْبُهُ، وَمَنْ تَرَكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا سَاءَ خَلْقُهُ. وقيل: المائدة التي أنزلت على بني إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث، وسمكة عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، سبعة أرغفة على كل واحد زيتون، وحب رمان. ودخل ابن قرعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال: ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه. فقال: ما الذي أصف من حسن لونه فيه سباتك ذهبية، كأنها حشيت زبدأ وعسلأ، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر، لين المكسر، عذب المطعم بين الطعوم، سلس في الحلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع

(١) بالنصب والوصب: الإعياء والمرض.

(٢) اعتلجا: اجتمعا وتصارعا.

(٣) للسكاج: أكلة فيها لحم ومرق من خل.

رجلاً يزم الزيد فقال له: ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه، أم صعوبة مدخله، أم خشونة ملمسه؟ وقيل له ما تقول في الباذنجان؟ قال: أذئاب المحاجم، بطون العقارب، ويزور الزقوم. قيل له: إن يحشى باللحم فيكون طيباً. فقال: لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح. وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان: هل عمل كسرى مثلها فاستعفا<sup>(١)</sup> فأقسم عليه. فقال: أولمَّ عبد عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، في يد كل واحدة إيريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً. وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة، وكتب إليه: إني اخترت لعملها السكر السوسي، والعسل المارداني، والزعفران الأصهباني. فأجابه: والله العظيم ما علمت إلا قبل أن توجد أصهبان، وقيل أن تفتح السوس، وقيل أن يوحى ربك إلى النحل. وقيل إن أبا جهم بن عطية كان عيناً: لأبي مسلم الخولاني على المنصور. فأحسن المنصور بذلك فطاوله الحديث يوماً حتى عطش فاستقى فدعا له بقدر من سويق اللوز فيه السم فتاوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل في ذلك:

تَجَسَّبَ سَوْيِقَ اللُّوزِ لَا تَقْرُبُهُ      فَشَرِبُ سَوْيِقِ اللُّوزِ أَرَى أَبَا جَهْمِ

وقال أبو طالب المأموني:

فَمَا حَمَلْتُ كَفُّ امْرِئٍ مَطْعَمًا      أَلْدُ وَأَشْهَى مِنْ أَصَابِعِ زَيْنِبِ

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يُعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة.

ودخل السائب على علي، رضي الله تعالى عنه في يوم شاتٍ، فتاوله قُدْحاً فيه عسل وسمن ولبن، فأباه فقال: أما إنك لو شربته لم تزل دفتاً شعبان سائر يومك. وعن نافع بن أبي نعيم قال: كان أبو طالب يعطي علياً قُدْحاً من اللبن يصبه على اللات<sup>(٢)</sup> فكان علي يشرب اللبن ويبول على اللات.

وأما الزهد في المآكل؛ فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم مَنْ لا يقدر عليه. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما كان لنا منخل. ولا أكل رسول الله ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض. قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير، قالت: كنا نقول أف أف. وعن جابر رضي الله تعالى عنه رفعه: نعم الأدم الخل. وكفى بالمرء سرفاً أن يسخط ما قرب إليه. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ، إدمان، إلا أكل أحدهما، وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما كان يجتمع لوانان في لقمة في فم رسول الله ﷺ، إن كان لحمياً لم يكن خبزاً، وإن كان خبزاً لم يكن لحمياً. وعن النبي ﷺ قال: «يا علي ابدأ بالملح، واختم به، فإن فيه شفاء من سبعين داء». وروي أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكى إلى الله الضعف، فأمره أن يطبخ اللحم باللبن، فإن القوة فيهما، وسنذكر فضل الزهد في المآكل والمشرب في باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى.

وأما ما جاء في آداب الأكل: فقد قال رسول الله ﷺ: من قال عند مطعمه ومشربه باسم الله خير الأسماء باسم الله رب الأرض والسماء، لم يضره ما أكل وما شرب. وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال باسم الله، اللهم بارك

(١) استعفا: اعتذر عن الطلب وطلب إعفاءه.

(٢) اللات: من أصنام الجاهلية.

لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه. وقال ﷺ: «مَنْ أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي (أطعمني هذا ورزقني من غير حول مني ولا قوة عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما لبس ثوباً فقال الحمد لله الذي كساني هذا ورزقني من غير حول مني ولا قوة عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه». وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فإن نسي في أوله، فليقل بسم الله أوله وآخره». وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله». وقال ﷺ: «الأكل في السوق دناءة» وعن أنس رضي الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائماً، قال: فسألناه عن الأكل قائماً، فقال: هو شر من الشرب. وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال إذا أكلت فضمَّ شفيتك. ولا تلتفتنَّ يميناً ولا شمالاً، ولا تلقمن بسكين، ولا تجلس فوق مَنْ هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق في الأماكن النظيفة.

ومن هذا ما رواه الزهري أن النبي ﷺ نهى عن التفتيح في الطعام والشراب. وقال علي رضي الله تعالى عنه: نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حاراً. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه». وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباركته تطيب النكهة وتعين على المروءة. قيل: وما إعادته على المروءة؟ قال: إن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك. وعن النبي ﷺ قال: «مَنْ أكل من سقط المائدة عاش في سعة، وعوفي في ولده، وولد ولده من الحمق». وعنه ﷺ: «مَنْ لقط شيئاً من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار». وكان الحرث بن كلدة يقول: إذا تغلَّى أحدكم فليتيم على غدائه، وإذا تعشى فليخطُ أربعين خطوة. وقيل: خير الغداء بواكره، وخير العشاء سوافره. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه. وقال الحجاج لأعرابي يوماً على سماطه: ارفق بنفسك. فقال: وأنت يا حجاج اغضض من بصرك. وقال معاوية لرجل على مائدته: خذ الشعرة من لقمته. فقال: وإنك تراعيني مراعاة مَنْ يرى الشعرة في لقمته، لا أكلت لك طعاماً أبداً. ووضع معاوية بين يدي الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما دجاجة فقها. فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه، كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما. وحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوي، فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه. فقال له الخليفة: أراك تأكله بحد، كان أمه نطختك. فقال: أراك تشفق عليه كان أمه أرضعتك.

وأما ما جاء في كثرة الأكل؛ فقد روي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «مَنْ قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه. ومَنْ كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه». وعنه ﷺ: «لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزروع إذا كثر عليه الماء مات». وقال ﷺ: «ما زَيْنَ الله رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه». وقال عمرو بن عبيد: ما رأيت الحسن ضاحكاً إلا مرة واحدة. قال رجل من جلسائه: ما آذاني طعام قط. فقال له آخر: أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحتتها. وقال علي كرم الله وجهه: البطنة<sup>(١)</sup> تذهب الفطنة. وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهماً شراً أخرجه من طبقة الجد إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. وتقول العرب: أقلل طعاماً تحمد ناماً. وكانت العرب تعبر بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لَسْتُ بِأَكْلٍ كَأَكْلِ الْعَبْدِ وَلَا بِنَوْمٍ كَنَوْمِ الْفَهْدِ

وَأَشَدُّ الْأَصْمَعِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي فَهْدٍ:

إِذَا لَسْمٌ أَرَزَّ إِلَّا لَأَكَلَ أَكْلَةً      فَلَا رَفَعَتْ كَفِّي إِلَيَّ طَعَامِي<sup>(١)</sup>  
فَمَا أَكَلَتْ إِنْ نَلَّتْهَا بَغْنِيمَةٌ      وَلَا جُوعَةٌ إِنْ جَعَّتْهَا بَغْرَامٌ

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلاماً، فألقى بين يديه تمرأ يأكله فأكثر فقال ﷺ: إن كثرة الأكل شوم. وقالوا: الوحدة خير من جليس السوء، وجليس السوء من الأكيل السوء. وشكا أبو العيئة إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر فإن الله قد رزقك الإسلام، والعافية. قال: أجل ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد. ودعت أبا الحرث، حبيبة له فحادثته ساعة فجاج، فطلب الأكل فقالت له: أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل؟ قال: جعلت فداءك لو أن جميلاً وبينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه واقتربا.

وأما أخبار الأكلة؛ فقد قيل إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل. فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك<sup>(٢)</sup> بلح. ومرّ ميسرة المذكور يوماً بقوم وهو راكب حماراً فدعوه للضيافة فلدبحوا له حماره، وطبخوه وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقليل له: هو في بطنك. وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازني: ما أكلة بلغتني عنك. قال: جعت مرة ومعني بعير لي فنحرته وشويته وأكلته، ولم أبق منه إلا شيئاً يسيراً حملته على ظهري. فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي فلم أقدر أن أصل إليها. فقالت: كيف تصل إليّ، وبيننا جمل. فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة؟ فقال: أربعة أيام. وقال الأصمعي: إن سليمان بن عبد الملك كان شراً نهماً، وكان من شره أنه إذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد ولا أن يؤتى بمتديل، فيأخذ بكمه واحدة واحدة حتى يأتي عليها. فقال الرشيد: ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس إنني عرّضت عليّ جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظنته طيباً حتى حدثتني، ثم أمر لي بجبة منها فكنتُ إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إليّ، وقال: يا شمردل ما عندك ما تطعمني؟ قلت: عندي جدي كأعظم ما يكون سمناً. قال عجل به فأتيته به كأنه عكة<sup>(٣)</sup> سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر، حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ قال: هلم يا أبا جعفر. فقال: إني صائم، فأكله. ثم قال: يا شمردل وملك أما عندك شيء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام. فأتيته بهن فأتى عليهن. ثم قال: يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت: سوق<sup>(٤)</sup> كأنه فراصة الذهب، فأتيته به فمبه حتى أتى عليه. ثم قال: يا غلام أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال نيف وثلاثون قدراً قال اتنتي بقدر قدر فاتاه بها، ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلاثة ثم مسح يده، واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصف الخوان قعد وأكل مع الناس. وكان

- (١) فلا رفعت كفي إليّ طعامي: يدعو على نفسه بالشلل.
- (٢) المكوك: مكيال يسع صاعاً ونصف أو ما يقارب ذلك.
- (٣) عكة سمن: آنية خاصة بالسمن.
- (٤) سوق: شراب خاص.

هلال بن الأسمر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النيذ وكان غليظاً عتلاً<sup>(١)</sup>.

وقال أعرابي لرجل رآه سميناً أرى عليك قطيفة<sup>(٢)</sup> من نسج أضراسك. وقال أبو المجسر الأعرابي كانت لي بنت تجلس معي على المائدة، فتبرز كفاً كأنها صلقة<sup>(٣)</sup> في ذراع، كأنه جمارة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس إلى المائدة مع ابن لي، فيبرز كفاً كأنها كرناقة<sup>(٤)</sup>، فوالله لم تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيغ سمكة. ويقال: فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام، وعضا موسى في سرعة الإلتقام. وقيل لأبي مرة: أي الطعام أحب إليك قال: لحم سمين، وخبز سميد. أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم. وقال صدقة بن عبيد المازني: أولم لي أبي لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جزور<sup>(٥)</sup>، فكان أول من جاءنا هلال المازني فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها، ثم أخرى فأكلها حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقرية مملوءة من النيذ فوضع طرفها في شدقه، وفرغها في جوفه، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام. وكان عيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات، فخرج يوماً يريد الكوفة. فقال له رجل من بني شيبان: الغداء، أصلح الله الأمير، فنزل فذبح له عشرين طائراً من الأوز فأكلها، ثم قدم الطعام فأكل، ثم أتى بزنبيلين في إحداهما تين، وفي الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ثم رجع وهو جائع، وكان مسيرة البراش يأكل الكبش العظيم، ومائة رغيغ. فذكر ذلك للمهدي فقال: دعوت يوماً بالفيل، وأمرت فألقي إليه رغيغ رغيغ فأكل تسعة وتسعين، وألقي إليه تمام المائة فلم يأكله. وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع. ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضر إليه العلس، فحملة وجاء. فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز، فوجده قد أكل العلس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن، قال: لماذا، قال بلغني أن بها طيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي، فإني قليل الشهوة للطعام. فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة قال: وما هي؟ قال: إذا ذقت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك علي.

وأما المهازلة على الطعام: فقد روي عن يحيى بن عبد الرحمن رضي الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة فصنعت حريرة فجمت به. فقلت لسودة كلي فقالت: لا أحبه. فقلت: والله لتأكلين، أو لأطخن وجهك. فقالت: ما أنا بذائقته فأخذت من الصفحة شيئاً فططخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فتناولت من الصفحة شيئاً فططخت به وجهي. وجعل رسول الله ﷺ يضحك. واشترى غنلر يوماً سمكاً. وقال لأهله: أصلحوه. ونام فأكل عياله السمك واطخوا يده، فلما اتبته قال: قدموا إلي السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا. قالوا: شُمت يدك. ففعل، فقال: صدقتم ولكن ما شبعتم. ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام

(١) عتلاً: ضخماً غليظاً.

(٢) قطيفة: كساء مخملي.

(٣) صلقة: لضخامتها تبدو كالإناء الضخم.

(٤) كرناقة: جنوع الكرنب.

(٥) جزور: ذبيحة الإبل.

بين أيديهم أطباق الحلوى، ولا يمدون أيديهم. فقال: لقد ذكرتوني ضيف إبراهيم، وقول الله تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾<sup>(١)</sup> ثم قال: كلوا رحمكم الله، فضحكوا وأكلوا. والحكايات في ذلك كثيرة.

وأما الضيافة وإطعام الطعام؛ فقد قال الله تعالى: ﴿هل إنك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾<sup>(٢)</sup> وقال رسول الله ﷺ: ﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ولا يؤذ جاره﴾ وقال ﷺ: ﴿من أكل وذو عينين ينظر إليه، ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له﴾. وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة، إطعام الأخ المسلم الجائع، وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخذك الله خليلاً؟ قال: بثلاث؛ ما خيرت بين شيئين، إلا اخترت الذي لله على غيره، ولا اهتممت بها تكفل لي به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف. وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام، وقالوا: المائدة مرزوقة. أي من كان مضيافاً وسع الله عليه. وقالوا: أول من سنَّ القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أفطر جيرانه على طعامه في الإسلام عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو أول من وضع موائده على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعتها، وما استقبحته اجتنبتها.

وأما آداب المضيف: فهو أن يخدم أضيافه، ويظهر لهم الغنى، ووسط الوجه. فقد قيل: البشاشة في الوجه، خير من القرى. قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديري رحمه الله هذا الكلام بأبيات فقال:

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً	قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسماً في وجهه متهللاً	وقل مرحباً أهلاً ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى	عجولاً ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم	تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى	فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وقال العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة. وقال حاتم الطائي:

سلى الطارق <sup>(٣)</sup> المعتريا أم مالك	إذا ما أتاني بين ناري ومجزري <sup>(٤)</sup>
أبسط وجهي إنه أول القرى	وأبذل معروفني له دون منكري

(١) سورة: هود، الآية: ٧٠.

(٢) سورة: الناريات، الآية: ٢٤.

(٣) الطارق: القادم ليلاً

(٤) المجزر: مكان النبع.



وقال آخر في عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابنَ جعفرٍ خيرُ فتى  
وخيرُهم لطارقٍ إذا أتى  
ولله در القائل:

الله يعلمُ أنه ما سرني  
ما زلتُ بالترحيبِ حتى خلّتي  
أخذهُ من قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجَدتنا  
وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحبٌ لمن زاره  
وكلُّ ما فيه حلالٌ له

وقال الأصمعي: سألت عينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أو ما سمعت قول عاصم بن وائل:

وأنا لتُفري الضيفَ قبل نزولِهِ  
ونشيعُهُ بالبشرِ من وجهِ ضاحكٍ  
وقال بعض الكرام:

أضاحكُ ضيفي قبلَ إنزالِ رحلِهِ  
وما الخصبُ للأضيافِ أن تكثر القُرى  
وقال آخر:

عُودتُ نفسي إذا ما الضيفُ تَبهني  
ومن آداب المضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها، قبل إكرام الضيف. قال الشاعر:

مطية<sup>(٣)</sup> الضيفِ عندي تلو صاحبها  
لن يأمنَ الضيفَ حتى تكرمَ الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: من تمام العرومة خدمة الرجل ضيفه، كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وامرأته قائمة﴾<sup>(٤)</sup>.

ومن آداب المضيف: أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهم، ولا يشكو الزمان بحضورهم،

(١) عقرت: ذبحت.

(٢) العشار: الناقة في عمر عشرة أشهر.

(٣) مطية: مركوبة.

(٤) سورة: هود، الآية: ٧١.

ويش عند قدمهم، ويتألم عند وداعهم، وأن لا يحدث بما يروعهم به، كما حكى بعضهم قال: استدعاني إسحاق بن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار، فدخلت فأحضرت لنا الهريسة، فأكلنا فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخ، فاستدعى خادمه فأسر إليه شيئاً لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج<sup>(١)</sup>، فتكدر علينا عيشنا، وقمنا من عنده، ونحن لا نعقل.

فيجب على المضيف: أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن، ولا يفضب على أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه، ولا يظهر نكدأ، ولا ينهر أحداً، ولا يشتبه بحضورتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن. كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه، وعمل لهم سماًطاً، وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم، ويأمنون به ففي آخر النهار صعد إلى السطح فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ، ولا تبكي إلى أن تصبح. فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج، قال لهم: إن رأيتهم أن تصلوا على ولدي فإنه بالأمس سقط من على السطح فمات لساعته. فقالوا له: لِمَ لا أخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاهم، ولا يكدر عليهم في عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده، ومكارم أخلاقه، ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه، وبكوا عليه وانصرفوا.

وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابهم وقت الطعام ولا يمنع وارداً. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب، لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير، ويحترز<sup>(٢)</sup> عن العدو. فقال: إن عدوا يأكل طعامنا ولا يندخ لا يمكته الله منا، والأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة<sup>(٣)</sup> عليه، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف إن كان من أهل ذلك، وأن يري أضيافه مكان الخلاء. فقد قيل عن ملك الهند، إنه قال: إذ ضافك أحد فأره الكنيف فإني ابتليت به مرة فوضعت في قلنسوتي. وقالوا: لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصدقة الوكيدة<sup>(٤)</sup>، وقد قصد النبي ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري، وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم. فقد كان لعون بن عبد الله المسعودي ثلثمائة وستون صديقاً فكان يدور عليهم في السنة. ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضي الله عنها فأكل طعامها وهي غائبة. وكان الحسن رضي الله عنه يوماً عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة، ومن هذه فتقة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له: يا لكع اتل علي آية الأكل فتلا: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بِيوتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾<sup>(٥)</sup> فقال: الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

(١) تختلج: تتحرك بيقية روح.

(٢) يحترز: يتحصن.

(٣) الشناعة: الفظاعة.

(٤) الوكيدة: المتينة.

(٥) سورة: النور، الآية: ٦١.

وعلى المضيف الكريم، أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة، وحشف الثمر، ويقولون: ما ندري أيهما أعظم وزراً، الذي يحترق ما قدم إليه، أو الذي يحترق ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَلَمَّ أَخَاهُ لِقْمَةً حَلْوَةً صَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَارَةَ الْمَوْقِفِ». وحكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعي منها يوماً، وألحق فيها لوناً آخر، فعرف الزعفراني ذلك، فأعتق الجارية سروراً بذلك. وكانت سنة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة، ليأكل كل شخص ما يشتهي.

ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينظر مَنْ يحضر من عشيرته، فقد قيل: ثلاثة تضيء؛ سراج لا يضيء، ورسول بطيء، ومائدة ينظر لها من يجيء. ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه فصَبَّ بنفسه الماء على يديه، وقال له: لا يرعك ما رأيت مني فخدمة الضيف على المضيف فرض.

اعرض طعامك وأبدله لمن أكل  
واحلف على من أبي واشكر لمن فعلا  
ولا تكن سابري<sup>(١)</sup> العرض محتشماً  
من القليل فلست الدهر محتشلاً

ومن البخلاء من يعزم على الضيف فيعتذر له فيمسك عنه بمجرد الاعتذار كأنه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم.

ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زياده ويشتهي أن تبقى على حالها ومنهم من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع فهذا أطيبها وأشهاها إلى النفوس ويعتذر أن في أصحابه من يحضر بالعداء عنده وحكي عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز فقال له: ترى أن تأكل عسلاً بلا خبز قال نعم، وجعل يلحق العسل لعقة بعد لعقة. فقال له البخيل: مهلاً يا أخي والله إنه يحرق القلب: قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك وحكي عن بعضهم أنه قال: غلبت على الجوع مرة فقلت أمضي إلى دار فلان لأتغدى عنده فجئت إلى باب بيته فوجدت غلامه فقلت له أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتني كسرة. قال فرجعت هارباً.

ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه. حكي عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه وأحضر له خبزاً وجبناً وقال له: لا تستقل الجبن فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف قال وكيف ذلك؟ قال أكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن فأين هؤلاء من الذي يقول:

قَالَتْ أَمَا تَرَحَّلُ تَبْغِي الْفَنَى  
قَالَتْ فَهَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ لَهُ  
قُلْتُ فَمَنْ لِلطَّارِقِ الْمُعْتَمِ<sup>(٢)</sup>  
قُلْتُ نَعَمْ جُهِدُ الْفَتَى الْمُعْتَمِ

(١) سابري: رقيقه أي قليل الدفاع عنه.

(٢) المعتم: القادم ليلاً.

فَكَمَ وَحَقُّ اللَّهِ مِنْ لَيْلٍ  
إِنْ الْغِنَى بِالنَّفْسِ يَا هَذِهِ  
قَدْ أَطْعِمَ الضَّيْفُ وَلَمْ أَطْعِمِ  
لَيْسَ الْغِنَى بِالْمَالِ وَالدَّرْهَمِ  
وقال بعض البخلاء:

سرى نحونا يعني القري طاوي الحشى<sup>(١)</sup>  
فبات له منا إلى الصبح شاتمٌ  
لقد عملتُ فيه الظنون الكواذبُ  
يعمد تطفيل الضيوف وضاربُ  
فشتان ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف فهو: أن يبادر إلى موافقة المضيف في أمور، منها أكل الطعام، ولا يعتذر بشبع، بل يأكل كيف أمكن. فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام فقال الضيف: لستُ بجائع، وإنما احتاج إلى مكان أبيت فيه. فقال الأعرابي: إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيري فإنني لا أرى أن تمدحني في البلاد وتهجونني فيما بيني وبينك. وحكى عن بعض التجار قال: استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشاً من تجارتي، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرة فقامت من مجلسه فقال: يا فلان ما هذا الخلق العامي؟ اجلس فجلست وتحقق كرمه، وجعلت أكل الكمثرى في لقمة، والفاحة في لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعاً، فأكلت أكلاً جيداً ثم انصرفت. فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلة فاستدعاني إليه فقال لي: يا فلان إنني قليل الأكل، بطيء الهضم ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس فأريد أن لا تقطع بعدها عني. قال: فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي، فحصل لي بقربي منه مال كثير، وجاء عريض.

ومن آداب الضيف: أيضاً أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحرم، وأن لا يخالفه إذا جلس في مكان أكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنه منها. فقد نقل في بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عريداً<sup>(٢)</sup> على أضيافه سيء الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال: الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره. قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفي؟ قلت: نعم. فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره فأذن لي فدخلت فأجلسني في صدر مجلسه فجلست حيث أجلسني، وأعطاني مسنداً فاستندت إليه، فأخرج لي شطرنجاً وقال: أنتن شيئاً؟ قلت: نعم. فلعبت معه فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه وأنا أكل، فلما فرغنا قدم طستاً وإبريقاً وأراد أن يسكب الماء على يدي فلم أمنه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي، فلم أرده عن ذلك. فلما أراد الرجوع قلت: يا سيدي أنشدك الله ألا فرجت عني كربة. قال: وما هي؟ فأخبرته الخبر فقال: والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى داري فأجلسه في الصدر فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا رده علي. ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه فلا يمكنني من ذلك فأقول في نفسي: لا يحكم الإنسان على نفسه حتى في بيته، فعند ذلك أشتمه وألته. بل أضربه وفي معنى ذلك يقول بعضهم:

(١) طاوي الحشى: فارغ الجوف من الجوع.

(٢) عريداً: سيء الخلق.

لا ينبغي للضيف أن يتعرض إن كان ذا حزم وطبع لطيف  
فالأمر للإيمان في بيته إن شاء أن ينصف أو أن يُخيف<sup>(١)</sup>

ومما يعاب على الضيف: أمور منها، كثرة الأكل المفرط إلا أن يكون بدوياً فإنها عادته. ومنها أن تتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة<sup>(٢)</sup>، يقلب فيها الزبدي، والإمراق، والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يكي وقت الإنصراف من الطعام، ليعطى على اسم ولده الصغير، ومنها قبح المؤاكلة وقد عُدَّ فيها عيوب كثيرة فمنها، المتشاوف، والعداد، والجراف، والرشاف، والنفاض، والقراض، والبهاث، واللثات، والعوام، والقسام، والمخلل، والمزيد، والمرنج، والمرشش، والمفتش، والمنشف، والملبب، والصباغ، والنفاخ، والحامي، والمجنح، والشطرنجي، والمهندس، والمتمني، والفضولي. فأما المتشاوف: فهو الذي يستحکم جوعه قبل فراغ الطعام فلا تراه إلا متطلعاً لتاحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام. وأما العداد: فهو الذي يستغرق في عد الزبدي ويعد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه. والجراف: هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدي ويجرف بها إلى الجانب الآخر. والرشاف: هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويرتشفها فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك. والنفاض: هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويغض أصابعه في الزبدي. والقراض: هو الذي يقرض اللقمة بأطراف أسنانه ويضعها في الطعام بعد ذلك. والبهاث: هو الذي يبهت في وجه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم. واللثات: هو الذي يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام. والعوام: هو الذي يميل ذراعيه يمناً ويسرة لأخذ الزبدي، والقسام: هو الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيه. والمخلل: هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره. والمزيد: هو الذي يحمل معه الطعام. والمرنج: هو الذي يرنخ اللقمة في الإمراق فلا يبلغ الأولى، حتى تلين الثانية. والمرشش: هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكله. والمفتش: هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه. والمنشف: هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم، ثم يأكلها. والملبب: هو الذي يملأ الطعام لباباً والصباغ: هو الذي يتقل الطعام من زبدي إلى زبدي ليرده. والنفاخ: هو الذي ينفخ في الطعام. والحامي: هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكله. والمجنح: هو الذي يزاحم مؤاكله بجناحيه حتى يفسح له في المجلس فلا يشق عليه الأكل. والشطرنجي: هو الذي يرفع زبدياً، ويضع زبدياً أخرى مكانها. والمهندس: هو الذي يقول لمن يضع الزبدي ضع هذه هنا، وهذه ههنا حتى يأتي قدامه ما يحب. والمتمني: هو الذي يقول ليتني لم يكن معي من يأكل. والفضولي: هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقي عندك في القدر شيء فاطعم الناس فإن فيهم من لم يأكل.

ومن الأضياف: من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفاً والإبريق في يده، والناس ينتظرونه. ومنهم: من يغسل يديه بالاشتان مرة واحدة، فإذا اجتمع الوسخ والرفرتسوك بهما. ومنهم: من يدخل الدار فيبتلى بالهندسة أولاً، فيقول كان ينبغي أن يكون باب المجلس من ههنا، والإيوان كان ينبغي أن يكون ههنا. ويتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فيقلل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحکم جوعه استعفى من

(١) يُخيف: يجور.

(٢) خريطة مشمعة: وعاء من آدم يشد على ما فيها.

الطعام وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم: مَنْ يخرج فيطوف على أصدقاءه صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم، ويستوحش من غيبتهم، ويسلطهم على عرض صاحبهم. ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يطل ولا ليلة واحدة وما ذلك إلا أنه كان إذا سئل: أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال أكلت في بطني، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت في فمي. ومنهم: مَنْ يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئاً فأذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن في بيته شيء موجود، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلا شيء حضر، ومنهم: من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه فيقول: ما الذي قال المولى لصاحبنا؟ وهو لا يريد أن يعلمه. ومنهم: من يستعجل صاحب المنزل بالأكل، ويشكو الجوع، ويظن أن ذلك بسط ومكارم أخلاق، وإنما ذلك يكون في بيته لا في بيوت الناس. ومنهم: مَنْ يقول لصاحب الدعوة: من يغني لنا؟ فيقول، فلان. فيقول له: غلظت لم لا دعوتَ فلاناً؟ ومنهم: مَنْ يسأل صاحب البيت: كيف قوته في النكاح؟ فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتي وشهوتي، أو يقول: ما لي قوة طائلة في ذلك. فيقول: أنا والله كلما مرّ عليّ عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوقي، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم: من يشكو حاله مع أهل بيته، ويذكر نفقته عليهن وكسوته عليهن، وكثرة أنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق، وكبر النفس لتستقل زوجة صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها، وربما كان ذلك سبباً لفراقها. ومنهم مَنْ تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه، ويقوم قائماً يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل، بديع الحركات، ويظن في نفسه أنه يعشق، وأن رسول صاحبة البيت لا يطء عنه. ومنهم: مَنْ يقال له العب الشطرنج فيآباه، ويشغل بالالدندنة فيقع في الفضول. ومنهم: مَنْ يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده ويظن أنه يدل عليهم. ومنهم: مَنْ يقول له صاحب البيت: كُلْ، فيقول: ما أكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم: مَنْ يسمع السائل على الباب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه، أو يقول للسائل: فتح الله عليك. ومنهم: من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه، ويقلده بذلك المنن، وأكثر الناس واقع في ذلك. نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه أنه جواد كريم رؤوف رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب السادس والثلاثون: في العفو والحلم الصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب، وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾<sup>(١)</sup> قيل هو الرضا بلا عتاب وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وَالكَافِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَاقِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٥)</sup> وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُمْ قُصُورًا مَشْرُوقَةً عَلَى الْجَنَّةِ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ لِمَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: لِلْكَافِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَاقِينَ عَنِ النَّاسِ». وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوصِينِي بِالْعَفْوِ، فَلَوْلَا عِلْمِي بِاللَّهِ لظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوصِينِي بِتَرْكِ الْحُدُودِ». وقال الحسن بن أبي الحسن: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ، فَلَا يَقُمْ إِلَّا الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ حَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(٦)</sup> وقال علي كرم الله وجهه: «أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ. وَكَانَ الْمَأْمُونُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الْعَفْوَ وَيُؤْتِرُهُ وَيَقُولُ: لَقَدْ حَبِبَ إِلَيَّ الْعَفْوَ، حَتَّى إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا آثَابَ عَلَيْهِ. وَكَانَ يَقُولُ: لَوْ عَلِمَ أَهْلُ الْجَرَائِمِ لَدُنِّي فِي الْعَفْوِ لَارْتَكَبُوهَا. وَقَالَ: لَوْ عَلِمَ النَّاسُ حَبِيٍّ لِلْعَفْوِ لَمَا تَقَرَّبُوا إِلَيَّ إِلَّا بِالْجَنَائِمِ». وقال علي كرم الله وجهه: «إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ، فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَقْبِلُوا<sup>(٧)</sup> ذَوِي الْمَرْوَاتِ عَشْرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ غَاثٌ، إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللَّهِ يَرْفَعُهُ. وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ أَوَّلَ عَوْضِ الْحَلِيمِ عَنِ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارَ لَهُ عَلَى الْجَاهِلِ. وَقَالَ الْمَتَصِرُ: لَذَّةُ الْعَفْوِ يَلْحَقُهَا حَمْدُ الْعَاقِبَةِ، وَلَذَّةُ التَّشْفِي يَلْحَقُهَا ذَمُّ النَّدَمِ، وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَرِ: لَا تَشِينُ<sup>(٨)</sup> وَجْهَ الْعَفْوِ بِالتَّضَرُّعِ بِهِ. وَقِيلَ: مَا عَفَا عَنِ الذَّنْبِ مَنْ قَرَعَ بِهِ، وَقَالَ رَجُلٌ لِرَجُلٍ سَبَّهُ: إِيَّاكَ أَعْنِي. فَقَالَ لَهُ: وَعَنْكَ أَعْرَضُ. وَكَانَ الْأَحْنَفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَثِيرَ الْعَفْوِ، وَالْحَلِمُ، وَكَانَ يَقُولُ: مَا آذَانِي أَحَدٌ إِلَّا أَخْلَعْتُ فِي أَمْرِهِ يَأْحُدِي ثَلَاثَ: إِنْ كَانَ فَوْقِي عَرَفْتُ لَهُ فَضْلَهُ، وَإِنْ كَانَ مِثْلِي تَفَضَّلْتُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ دُونِي أَكْرَمْتُ نَفْسِي عَنْهُ. وَكَانَ مَشْهُورًا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَلْمِ، وَبِذَلِكَ سَادَ عَشِيرَتَهُ وَكَانَ يَقُولُ: وَجَدْتُ

(١) سورة: الحجر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٤) سورة: الشورى، الآية: ٤٣.

(٥) سورة: آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٦) سورة: الشورى، الآية: ٤٠.

(٧) أقبلوا ذوي: ادفعوها عنهم.

(٨) تشين: تقيح.

الاحتمال أنصر لي من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم كنا نختلف إليه في الحلم، كما يُختلف إلى الفقهاء في الفقه، ولقد حضرت عنده يوماً وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنة، فجاؤوا به مكشوفاً فقال: ذعرتم أخي أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدي ديتة، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقولُ للنفسِ تصبيراً وتعزيةً      إحدى يديّ أصابني ولم ترد  
كلاهما خلفَ من قَدِ صاحبه      هذا أخي حين أدعوهُ وذا ولدي

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر، وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب، والانتقام. وقيل من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره ولم يحمد في العالمين ذكره: والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته، وإن كان لا بد من الانتقام فليفرق في انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى. وقال المنصور لجار عجز عن العذر: ما هذا الوجوم<sup>(١)</sup> وعهدي بك خطياً لسناً؟<sup>(٢)</sup> فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له، وعفا عنه. وسعى إلى المنصور برجل من ولد الاشر النخعي ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي، والتعصب لهم. فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أعظم من نعمتك وعفوك أعظم من ذنبي ثم قال:

فبئسي مسيئاً كالذي قلتُ ظالمأً      فعضواً جميلاً كي يكونَ لك الفضلُ  
فإن لم أكنْ للعفوِ منك لسوءِ ما      أتيت به أهلاً فأنت له أهلُ

فعفا عنه، وأمر له بصلة.

وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً. فقال له أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلق سبيله. وأحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إقرارِي يلزمني ذنباً لم أفعله، ويلحق بي جرماً لم أقف عليه، وإتكاري رد عليك، ومعارضة لك، ولكني أقول:

فإن كنتَ تبغي بالعقابِ تشقياً      فلا تزهدنْ عند التجاوزِ في الأجرِ

فقال: لله درك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وأثبت جنانك. وعفا عنه وخلق سبيله.

وركب يوماً عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء ومرّ على قوم. فقال بعضهم: من يقوم للأمير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف. فقال واحد منهم: أنا. فقام وأخذ بعنان بغلته وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً فلم ركبت دابة اشهابٌ وجهها فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملني، ولا أمل رفيقي حتى يملني. فقال: أصلح الله الأمير أما العاص فقد عرفناه، وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ قال: علي الخير سقطت أمي التابعة بنت حرملة بن عزة، سبها رماح العرب فأني بها سوق عكاظ، فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت

(١) الوجوم: العبوس.

(٢) خطياً لسناً: مكلاماً ذو لسان طيب.



وأنجبت فإن كان قد جُعِلَ لك جُعْلٌ، فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة. وقيل إن أمه كانت بغياً عند عبد الله بن جدعان فوطئها في طهر واحد أبو لهب، وأميه بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل فولدت عمراً فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذي كان يتفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأبي سفيان.

وكان الواثق يشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه، وكان يقال له المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لست به. فقالت: السلام عليك يا أيها الأمير. فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقالت: ليسعنا عدلكم. فقال: إذا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد، لأنكم حاربتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومنعتم حقه وسممتم الحسن رضي الله عنه ونقضتم شرطه وقتلتم الحسين رضي الله عنه وسيتم أهله، ولعتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابركم وضربتم علي بن عبد الله ظلماً بسياطلكم، فعدلنا لا يبقى منكم أحداً. فقالت: فليسعنا عفوكم. قال: أما هذا فنعم. وأمر برد أموالها عليها وبالغ في الإحسان إليها.

وكان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة، وآثار مذكورة وكان يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنوب لا يسعه عفوي وحاجة لا يسعها جودي، وهذه مروءة عالية المرتبة. وقال له رجل يوماً ما أشبه استك باستك أمك. فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها. وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما. يقول: من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب. أما بعد، يا بني عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصي، ولباب عبد مناف، وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية، وعقولكم الكاسية، وقد، والله، أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله، إليه أن يغيب في الثرى. فكتب إلى عقيل يقول:

صدقتَ وقلتَ حقاً غيرَ أني      أرى أن لا أراك ولا تــــرانــــي  
ولستُ أقولُ سوءاً في صديقي      ولكنني أصدُّ إذا جفّانــــي

فركب إليه معاوية رضي الله عنه وناشده في الصفع عنه، واستعطفه حتى رجع. وحكي عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور، وامتلات منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور، وساعده في مراده القدر المقدر، استحضر ليلةً خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين، ومنَ كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى منَ كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض. فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب علي، تسمعهم كلاماً كالصوارم مستحثة لهم يقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدير لأقبل، والمسالم لحارب، والفاز لكر، والمتزلزل لاستقر. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه. قال: فما تشيرون علي فيها؟ قالوا: نشير بقتلها فإنها أهلٌ لذلك. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: بشس ما أشرتكم به، وبقبحاً لما قلتكم، أيحسن أن يشتهر عني، أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وقت لصاحبها؟ إني إذا للثيم. لا والله لا فعلت ذلك أبداً ثم دعا بكتابه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهذ لها وطاه ليناً، ومركباً ذلولاً. فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزاتفة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاه خزاً مبطناً، ثم أحسن صحبتها. فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحباً

وأهلاً خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير سير. فقال: هل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه تعالى. قال: ألسن راجبةً الجميل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم. قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس ووتر الذنب والدهر ذو غير، ومن تغرر أبصر، والأمر يحدث بعلمه الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله. قال: لله أبوك فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وأن الكواكب لا تضيء مع القمر، وأن البخل لا يسبق القرس، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد؛ ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالة فأصابها. فصيبراً يا معشر المهاجرين والأنصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فإنه لا يستوي المحق والمبطل ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوي﴾<sup>(١)</sup> فالترال الترال، والصبر الصبر. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، اتوا الحرب غير ناكسين<sup>(٢)</sup>، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك. قال: لقد شاركتِ علياً في كل دم سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتكم. مثلك من يشرب بخير ويُسِرُّ جليسه. فقال معاوية: أو قد سررتك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سرني قولك، وأني لي بتصديقه. فقال لها معاوية: والله لو فاؤكم له بعد موته أعجب إلي من حيكم في حياته، فاذكري حوائجك تقضى. فقالت: يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي أن لا أسأل أحداً بعد عليّ حاجة. فقال: قد أشار عليّ بعض من عرفك بقتلك، فقالت: لوم من المشير ولو أطعته لشاركته، قال: كلا بل نعوذ بك وتحسن إليك ونزعاك. فقالت: يا أمير المؤمنين، كرم منك، ومثلك من قدر فعفاً، وتجاوز عن أساؤوا، وأعطى من غير مسألة. قال: فأعطاهم كسوة ودرهم، وأقطعها ضيعة تغل لها في كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض، وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير. فكتب عبد الله كتاباً معاوية يقول له فيه: أما بعد ما معاوية، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي، فأنهيهن عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن. والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده، وآخره عندك يأتوك برأسه. فقال: بل غير ذلك خير منه يا بني. ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه: أما بعد فقد وقتت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ وسامني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي فاضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال، والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه كتب إليه: قد وقتت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل، والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد. فلما قرأه تهلل ووجهه وأسفر فقال له أبوه: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب. فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداؤه بمثل هذا الدواء.

(١) سورة: السجدة، الآية: ١٨.

(٢) ناكسين: محجمن ومتراجمين.

ولما دخل الفيل دمشق واجتمع الناس لرؤيته سعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك إذا نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه. فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بَدَّ فوقعت عينه على الرجل فقال له: يا هذا في قصري، وتحت جناحي تهتك حرمتي وإنك في قبضتي، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت الرجل وقال: وحلمك أوقعني. فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها عليّ. قال: نعم. ففعا عنه، وخلّى سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجاني وهو عروض قول الشاعر:

إذا مرضتُم أتيّاكم نعوذُكمُ      وتُذنيون فتأتيكم وتعتذُرُ<sup>(١)</sup>

وحكي عن الربيع مولى الخليفة المنصور، قال: ما رأيت رجلاً أربط جاشأً، وأثبت جناناً من رجل سعي به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرته إليه. فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الروائع والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرج لنا منها وأحضرها ولا تكتم منها شيئاً. فقال: يا أمير المؤمنين أنت وارث بني أمية؟ قال: لا. قال: أفوصي لهم في أموالهم ورباعهم<sup>(٢)</sup>؟ قال: لا. قال: فما سألتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمون فيه فأجمله في بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية كانت لهم أموال غير أموال المسلمين. قال: فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه، وقال: يا ربيع ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه. ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم، حاجتي يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني وبين مَنْ سعى فيّ إليك، فوالله الذي لا إله إلا هو، ما في يدي، لبني أمية مال، ولا وديعة، ولكنتي لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولاً. فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين مَنْ سعى به فجمعت بينهما. فلما رآه قال: هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي، وأبق<sup>(٣)</sup> مني، وخاف من طلبي له فسمى بي عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه آخذ المال الذي ذكره وسعى به كذباً عليه، وخوفاً من أن يقع في يده. فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه. فقال: قد عفوت عنه وأعتته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها، وثلاثة آلاف أخرى أَدفعها إليه. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد. قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هنا كله لقليل في مقابلة كلامك لي، وعفوك عني، ثم انصرف. قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وغضب الرشيد على حميد الطوسي فدفا له بالنطع<sup>(٤)</sup> والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط عليّ. فضحك وعفا عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته اتخذع. وأمر زياد بضرب عتق رجل فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة. قال: وما هي؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة. قال ومَنْ أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا

(١) المحفوظ في البيت: إذا مرضتُم أتيّاكم نعوذُكمُ...

(٢) رباعهم: ديارهم.

(٣) أبق: هرب.

(٤) النطع: جلد يوضع تحت المراد قطع رأسه.

أنسى اسم أبي، فرد زيادة كفه على فمه وضحك وعفا عنه. وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذلّ موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني. فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث، أتى رجل من بني تميم فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب، ما أحسنت في العفو. فقال الحجاج: أفٍ لهذه الجيف<sup>(١)</sup>، أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه، وخلى سبيله. وكان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني المأمون تقريباً إلى الله تعالى، ولا صلة للرب ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي. وسئل الفضل عن الفتوة فقال: الصّحح عن عثرات الإخوان. وفي بعض الكتب المتزلة. إن كثرة العفو زيادة في العمر، وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَبْتَغِ النَّاسَ فِيمَكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال يزيد بن مزيد: أرسل إليّ الرشيد ليلاً يدعوني فأوجست منه خيفة<sup>(٣)</sup> فقال له: أنت القاتل أنا ركن الدولة، والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها، لا أمّ لك، أي ركن، وأي ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما قلت هذا إنما قلت أنا عبد الدولة، والثائر لها فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه، ثم ضحك. فقلت: أحسن من هذا قولِي:

خِلافَةُ اللهِ فِي هَارُونَ ثَابِتَةٌ      وَفِي بَنِيهِ إِلَى أَنْ يَنْفَخَ الصُّورُ

فقال: يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح. وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال: ما أتبع بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك. وأقول أي رب سلّ مصعباً لِمَ قتلني؟ فقال: اطلقوه فلما أطلقوه قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش<sup>(٤)</sup>. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال:

أَنَا الْمَذْنِبُ الْخَطَاءُ وَالْعَفْوُ وَاسِعٌ      وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَنْبٌ لَمَا عُرِفَ الْعَفْوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال: والله لئن أمكنتني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحب الله. فعفا عنه، وأمر له بصلة. وقال الحسن: إن أفضل رداء تردّي به الإنسان الحلم، وهو، والله، عليك أحسن من برد الخير<sup>(٥)</sup>، وفيه قال أبو تمام: رقيق حواشي الحلم لو أن حلمة بكفئتك ما سارت<sup>(٦)</sup> في أنه برد

ويقال الحليم عليّ، والسفيه كليّ، وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشدّ على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم، تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان سكوتة عليّ أشد من كلامه:

إِذَا كُنْتُمْ تَبْغِي شَيْمَةً غَيْرَ شَيْمَةٍ      طَبَقَتْ عَلَيْهَا لَمْ تَطْعَمْكَ الضَّرَائِبُ

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة:

(١) مفردها جيفة: الجثة التة.

(٢) سورة: الرعد، الآية: ١٧.

(٣) خيفة: ارتعبت.

(٤) خفض عيش: دعة ولين.

(٥) الخير: العالم.

(٦) ملوت: جادلت.

اذكرني إذا غضبت، اذكرك إذا غضبت. فلا أمحك<sup>(١)</sup> فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر وارضَ بصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فاندثر عينها، فقالوا: إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم. فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله. قال: فما ياعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب. ويقال: مَنْ أطاع الغضب، أطاع الأرب. قال أبو العتاهية:

ولم أرَ في الأعداء حينَ اختبرتهم  
عدوًّا لمقل أعدَى من الغضبِ

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصرعة<sup>(٢)</sup>، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثماً أن يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك. وكتب عمر بن العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاجسه، فإذا سكن غضبك فاخرجه فعاقه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً قيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحد قال: تَرَكَ الغضب. وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشد غضبه، فكتب ثلاث صحائف. فأعطى كل صحيفة رجلاً، وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إلي بهذه الصحيفة، وناولنيها. قال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولنيها. وكان في الأولى: أقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإلاه، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً. وفي الثانية: ارحم مَنْ في الأرض، يرحمك مَنْ في السماء. وفي الثالثة: احملْ عبادَ الله على كتاب الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك. روي أنه أنو شروان وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليست الأحلامُ في حالِ الرضا  
إنما الأحلامُ في حالِ الغضبِ

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء» وروي: «ملاه الله أمناً وإيماناً»، وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا قاربت رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى أحداً يشفي غيظه. وقال أبو ذر لغلामه: لِمَ أرسلت الشاة على علفِ الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك. قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله تعالى. واستأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فأذن لهم، فقالوا: السام عليك يا محمد: فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: بل السام عليكم، واللعنة، فقال: يا عائشة إن الله يحب الرقق في الأمر كله. فقالت: ألم تسمع ما قالوا: قال قد قلت وعليكم. ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له حمزة، سرق وقامت عليه البيّنة. فهم عبد الملك بقطع يده فكتب إليه حمزة من السجن يقول:

بدي يا أمير المؤمنين أعينها  
بمفوك أن تلقى مقاماً يشيها  
فلا خيرَ في الدنيا وكانت خيشةً  
إذا ما شمالاً فارتقتها يميها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعها، فدخلت عليه أم حمزة. وقالت: يا أمير المؤمنين بني وكاسي وواحدي. فقال

(١) أمحك: أبطله ومحاه.

(٢) الصرعة: الشدة والغلبة.

لها عبد الملك: بش الكاسب لك، هذا حدٌ من حدود الله تعالى. فقالت: يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعهو إليها وخلي سبيله.

إذا ما طاش<sup>(١)</sup> حلمك عن عدو  
فلست إذا أخطأ عفوٍ وصفح  
إذا زل الرفيق وأنت ممن  
إذا أنت اتخذت أخطأً جديداً  
فما تدري لعلك مستجيرٌ  
فكم من سالكٍ لطريقٍ أمينٍ  
وهان عليك هجرانُ الصديقِ  
ولا لأخٍ على عهد وثيقِ  
بلا رفيقٍ بقى بلا رفيقِ  
لما أنكزت من خلقٍ عتيقِ  
من الرمضاء فرّ إلى الحريقِ  
أناه ما يحايزُ في الطريقِ

وشتم رجل رجلاً. فقال له: يا هذا، لا تفرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً فإنني آيت مشامة الرجال صغيراً، فلن اجيئها كبيراً، وإنني لا أكافئ من عصى الله في أكثر من أن أطيع الله فيه.

وحكي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلاماً وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال يا مولاي والكاظمين الغيظ، قال: قد كظمت غيظي، قال: والعافين عن الناس، قال: قد عفوت عنك، قال: والله يحب المحسنين، قل: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى. وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها، قال: قل. فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرةً  
فتكلم العصفور تحت جناحه  
إنني لمثلك لا أتمم لقمته  
فتهاون الصقر المدل<sup>(٢)</sup> بصنبيه  
عصفور بر ساقه التقدير  
والصقر متقض عليه يطير  
وإن شويت فلنسي لحقير  
كرماً وأفلت ذلك العصفور

قال: فعفا عنه، وخلي سبيله. قال الشاعر:

أقرز بذنبك ثم اطلب تجاوزهم  
وقال بعضهم:

يستوجب العفو الفتي إذا اعترف  
لقوله قل للذين كفروا  
وتاب عما قد جناه واقترف  
أن يتهموا يفر لهم ما قد سلف

وقال آخر:

إذا ذكرت أباديك التي سلفت  
مع قبح فعلي وزلاتي ومجرمي

(١) طاش: نهل وأخطأ.

(٢) المدل: الواثق.

أَكَادُ أَتَقْتُلُ نَفْسِي ثُمَّ يُدْرِكُنِي عِلْمِي بِأَنَّكَ مَجْبُولٌ عَلَى الْكِرَامِ  
وروي أن عمر رضي الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره<sup>(١)</sup>. فشمته السكران فرجع عنه. فقيل له: يا  
أمير المؤمنين لِمَا شتمك تركته. قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عززته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن  
أضرب مسلماً لحمية نفسي.

وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه فأنشأ يقول:

وَأَنَا الْكَاتِبُونَ وَإِنْ أَسَانَا فَهِنَا لِلْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ

فعفا عنه وخلقى سبيله وأكرمه. وقال الرشيد لأعرابي. يَمَ بَلِّغْ فَيْكُم هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ هَذِهِ الْمَتَزَلَةُ. قال: بحلمه  
عن سفيها، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا، لا منان<sup>(٢)</sup> إذا وهب، ولا حقوق إذا غضب، رحب الجنان، سمح  
البنان، ماضي اللسان. قال: فأوما الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب  
لاستحق بها السوداء<sup>(٣)</sup> وقيل لمعن بن زائدة: المؤاخضة بالذنب من السوداء. قال: لا ولكن أحسن ما يكون الصفع  
عن عظم جرمه، وقَلَّ شفاؤه، ولم يجد ناصرأ. وقال محمود الوراق:

سَأَلَزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مَذْنِبٍ وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرَائِمُ  
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ ثَلَاثَةٍ شَرِيفٌ، وَمَشْرُوفٌ، وَمَثَلِي مَقَاوِمُ  
فَأَنَا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ وَأَتَّبِعُ فِيهِ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ لَازِمُ  
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صَنْتُ عَنْ إِبْجَابَتِهِ نَفْسِي، وَإِنْ لَامَ لَائِمُ  
وَأَمَّا الَّذِي مَثَلِي فَإِنْ زَلَّ، أَوْ هَفَا تَفَضَّلْتُ<sup>(٤)</sup>، إِنَّ الْحَرَّ بِالْفَضْلِ حَاكِمُ

وقال الأخنف بن قيس لابنه: يا بني، إذا أردت أن تواخي رجلاً، فاغضبه فإن أنصفك، وإلا فاحذره. قال الشاعر:

إِذَا كُنْتَ مَخْتَصِمًا لِنَفْسِكَ صَاحِبًا فَمِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَاهُ بِالْوَدِّ أَغْضِبَهُ  
فَإِنْ كَانَ فِي حَالِ الْقَطِيعَةِ مَنْصَفًا وَإِلَّا فَقَدْ جَرَّئْتَهُ فَتَجَبَّنَهُ

ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

وَلَنْ يَبْلُغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ شَرُّوْا حَتَّى يَذَلُّوْا، وَإِنْ عَزَزُوا لِأَقْوَامٍ  
وَيَشْتَمُوا قَتَرَى الْأَلْوَانِ مَسْفَرَةٌ لَا صَفْحَ ذَلِكَ وَلَكِنْ صَفْحُ إِكْرَامٍ

وقال آخر:

وَجَهْلِي<sup>(٥)</sup> رَدَدَنَاهُ بِفَضْلِ حَلْمُونَا وَلَوْ أَتْنَا شَتْنَا رَدَدْنَاهُ بِالْجَهْلِ

(١) يعزره: يعاقبه.

(٢) لا منان: صاحب منة.

(٣) السوداء: المجد والرياسة.

(٤) تفضلت: تكزمت.

(٥) جهلي: طيش.

وقال الأحنف: إياكم ورأي الأوغاد. قالوا: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً. وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لاسبتك سباً يدخل معك قيرك. فقال: معك والله يدخل لا معي. وقيل: إن الأحنف سبه رجل وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقي معك شيء فهات وقله ههنا، فإني أخاف أن يسمعك فتیان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه. ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تُعرض عن الجهل والخنا<sup>(١)</sup> أصبت حليماً أو أصابك جاهلٌ  
وقال آخر:

وإذا بغى باغ<sup>(٢)</sup> عليك بجهله فاقته بالمعروف لا بالمنكر  
وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبٍ حلمي أصمٌ وأذني غيرُ صماءٍ

ويروى في بعض الأخبار أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قوماً من خاصته، فلما مد السماط أقبل الخادم، وعلى كفه صحن فيه طعام. فلما قرب من الملك أدركته الهيبة، فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه. فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له: ويحك يا هنا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شحاً على عرضك، وغيره عليك لثلاث يقول الناس إذا سمعوا ذنبه الذي به تقتلني، قتله في ذنب خفيف فلم يضره وأخطأ فيه العبد ولم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قلبي، وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكي عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عمه إبراهيم بن المهدي عليه وبإيمه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان، فلما بلغه الخبر قصد العراق. فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون، ولم يزل المأمون متطلباً لإبراهيم حتى أخذه وهو منتقب مع نسوة. فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال المأمون: لا سلم الله عليك، ولا قرب دارك. استغواك<sup>(٣)</sup> الشيطان حتى حدثك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام، فقال إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإن وليّ النار محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة. وعدل السياسة، وقد جعلك الله

(١) الخنا: الفحش.

(٢) باغ: معتد.

(٣) استغواك: أضلك.



فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك. فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين. ثم قال هذه الأبيات:

ذنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ      وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ  
فَعُذِّ بِحَقِّكَ أَوْ لَا      فَاصْفَحْ بِعَفْوِكَ عَنْهُ  
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي      مِنْ الْكِرَامِ فَكُنْتُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول، وأكثر مما تأمل، ولقد حجب إليّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه، لا تتريب عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده، وإدخاله الحمام، وإزالة شعثه، وخلع عليه ورداً أمواله جميعها إليه، فقال فيه مخاطباً:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ      وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَّتْ دَمِي  
إِنْ جَعَلْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ كَرَمٍ      إِنِّي لِبِاللُّومِ أَوْلَى مِنْكَ بِالْكَرَمِ

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله أن لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعاً وعشرين امرأة. ما لهن كاسبٌ غيري، فرقٌ لهن واستحضرهن، وإذا واحدة منهن كالبلدر. فقال لها الحجاج: ما أنتِ منه، قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول، ثم قالت:

أَحْجَاجُ إِمَانٍ أَنْ تَمَنَّ بِرَزْكِهِ      عَلَيْنَا، وَإِنَّا أَنْ تَقْتَلَنَا مَعَا  
أَحْجَاجُ لَا تَجْعَلْ بِهِ إِنْ قَتَلْتَهُ      ثَمَاناً وَعِشْرَماً وَاثْنَيْنِ وَأَرْبَعَا  
أَحْجَاجُ لَا تَسْرُكْ عَلَيْهِ بِنَاتِهِ      وَخَالَاتِهِ يَنْدَبُهُ الدَّهْرُ أَجْمَعَا

فبكى الحجاج، وورق له واستوهبه<sup>(١)</sup> من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة. ولما قدم عينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من الثغر الذين يديتهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه فاستأذن، فأذن له عمر. فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وإن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وحكي أن رجلاً زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل، فشرح في أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم. فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل، وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل<sup>(٣)</sup> والخجل، فأطرق الفضل بوجهه، ثم قال للوكيل: أتدري

(١) استوهبه: طلب أن يهبه إياه.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) الوجل: شدة الخوف.

لَمْ أَتَيْتْكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة. فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل قبضه وصار متحيراً في أمره. فالتفت إليه الفضل وقال له: طِبْ نَفْساً وَامْضِ إِلَى سَبِيلِكَ أَمناً عَلَى نَفْسِكَ. فقبل الرجل يده وقال له: سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى. فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة، والأفعال الجليلة، ويقضي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام. فقد كان أكثر الناس حلماً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم خلقاً، وأكثرهم تجاوزاً وصفحاً، وأبرهم للمقتر عليه نجحاً ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء في العتاب؛ فقد قيل: العتاب خير من الحقد، ولا يكون العتاب إلا على زلة، وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حقائق المتحابين، ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منقذ:

أَسْطَوْ عَلَيْهِ وَقَلْبِي لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ      بَدَيْتُ غَلْهَمًا غِيظًا إِلَى عُنُقِي  
وَأَسْتَعِيرُ لَهُ مِنْ سَطَوْتِي حَقًّا<sup>(١)</sup>      وَأَيْنَ ذَلِكَ الْهَوَى مِنْ عِزَّةِ الْحَقِّ

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر، ومعى رجل من الأعراب، فلما كان في بعض المناهل لقبه ابن عم له فتعانقا، وتعبتا وإلى جانبهما شيخ من الحي. فقال لهما: أنعما عيشاً، إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة قال الشاعر:

فَدَخَ ذَكَرَ الْعِتَابِ فَرُبُّ شَرِّ      طَوِيلِ هَاجِ أَوْلِهِ الْعِتَابِ  
وقيل: العتاب من حركات الشوق، وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر:

عَلَامَةٌ مَا بَيْنَ الْمُحِبِّينَ فِي الْهَوَى      عِتَابُهُمْ فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلِ  
وكتب بعضهم، يعاتب صديقه على تغرُّر حاله معه يقول:

عَرَضْنَا أَنْفُسًا عَزَّتْ عَلَيْنَا      عَلَيْكُمْ فَاسْتَخَفَّتْ بِهَا الْهَوَانُ  
وَلَوْ أَنَّ رَفَقْنَاهَا لَعَزَّتْ      وَلَكِنْ كُلُّ مَعْرُوضٍ مَهَانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَدَيْتُ مَجْلِسِي      وَوَجْهَكَ مِنْ فِرطِ الْبِشَاشَةِ يَقْطُرُ  
فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً      إِلَيَّ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أَخْلَاقُكَ الْغَرُّ السَّجَايَا، مَا لَهَا      حَمَلَتْ قَلْبِي الْوَاشِيْنَ وَهِيَ سَلَافُ<sup>(٢)</sup>  
مَرَاةٍ رَأَيْتُ فِي عَيْدِكَ مَا لَهَا      صَدَيْتُ وَأَنْتَ الْجَوْهَرُ الشَّفَافُ

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه خطأ عليه:

(١) حقاً: غيظاً.

(٢) سلاف: خمر.

فكفسي بنفسك لي عليك حياء  
إذ أرسلوا جعلوا الخطاب خطوباً  
أو كنت بالعتب العنيق مجيئاً  
فيمد إحصاني إليك ذنباً

اقرأ كتابك، واعتبره قريباً  
أكذا يكون خطاب إخوان الصفا  
ما كان عذري إن أجبت بمثله  
لكنني خفت انتصاص مودتي

وقال آخر:

وليس لأقوالي لديك قبول  
بأهل الوفا والظن فيك جميل  
بنفسك عجباً وهو منك قليل  
ولا يتكرون القول حين تقول<sup>(١)</sup>

أراك إذا ما قلت قولاً قبلته  
وما ذاك إلا أن ظنك سيء  
فكن قائلاً قول الحماسي تائهاً  
ونكز إن شئنا على الناس قولهم

كان لمحمد بن الحسن بن سهل، صديق فاته إضافة ثم ولي عملاً فائري، فقصده محمد مسلماً، فرأى منه تغيراً فكتب إليه:

فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنت ذا عسرٍ  
من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر

لئن كانت الدنيا أنالك ثروة  
فقد كشف الإثراء منك خلاصاً

وقال آخر في المعنى:

علو النجم في أفق السماء  
فكان إذا على نفسي دعائي

دعوت الله أن تمسوا وتعلوا  
فلما أن سموت بعذت عني

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان، وكان له مكرماً، وابن عرادة يتجنى عليه فقارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

وصاحبت أقواماً بكيث على سلم  
فكان كبره بعد طول من القم

عبت على سلم فلما فقدته  
رجعت إليه بعد تجريب غيره

وقال مسلم بن الوليد:

دياري عنك تجربة الرجال

وارجعني إليك إذا نأت بي

وقال أبو الحسن القاسبي:

أخط بأقلامي على الماء أحترفا  
مودته طبعاً فصارت تكلفاً

إذا أنا عابت الملووم فإنما  
وهبه ارعوى<sup>(٢)</sup> بعد العتاب ألم تكن

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: معاتب الصديق أهون من قده. وما أحسن ما قيل في العتاب:

(١) تضمين لبيت السؤال.

(٢) ارعوى: انزجر وارتد إلى السلامة.

وفي العتاب حياة بين أقوامٍ وهو المحكُّ لئلا يسرَّ وإيها  
فما ثمَّ شيءٌ أحسن من معاتبَةِ الأحبابِ، ولا ألدَّ من مخاطبةِ ذوي الألبابِ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله  
على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب السابع والثلاثون: في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى، الذي من تمسك به هداه، ومن استدل به أرشده هُداة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾<sup>(١)</sup> وقال جل ذكره و تقدس اسمه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾<sup>(٤)</sup> والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ \* كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>. وروي في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان. فالوفاء من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون. ويقال: الوعد وجه، والإنجاز محاسنه، والوعد سحابة، والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لكل شيء رأس، ورأس المعروف تعجيله وأنشدوا:

إذا قلتَ في شيءٍ نَعَمَ فأتَمَّهُ  
وإلا فقلْ لا، تَسْرِخْ وتُزِيخْ بها  
وقال آخر:

لا كَلَّفَ اللهُ نَفْساً فَوْقَ طَاقَتِهَا  
فلا تَعِدْ عِدَّةً إِلا وَقَيْتَ بِهَا  
ولا تَجُودُ يَدًا إِلا بِمَا تَجِدُ  
وَاحْتِزْ خِلافَ مَقَالٍ لِلذِّي تَعِدُ

وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل. ووعد اللئيم مظل وتعليل<sup>(٦)</sup>. وقال أعرابي أيضاً: العذر الجميل خير من المظل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفاً فأبطأت عليه فقال لقائله: أقمني حيث يمر فأقامه، فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول:

أظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْماً سَحَابَةٌ  
فلا غِيْمُها يَجْلِي فَيُاسَ طامِعٌ  
أضاه لها برقٌ وأبطأ رشاشها  
ولا غِيْمُها يَأْتِي فُتْرُوى عِطاشها

- (١) سورة: المائدة، الآية: ١.
- (٢) سورة: الرعد، الآية: ٢٠.
- (٣) سورة: النحل، الآية: ٩١.
- (٤) سورة: الإسراء، الآية: ٣٤.
- (٥) سورة: الصف، الآيات: ٢-٣.
- (٦) مظل وتعليل: تأجيل وتسويق.

فقال: لا نبرح حتى تؤتى بها. وقال صالح اللخمي:

لئن جَمَعَ الآفات فالبخل شرُّها      وشراً مِنَ البخلِ المواعيدُ والمطلُّ  
ولا خَيْرَ في وعدٍ إذا كان كاذباً      ولا خَيْرَ في قولٍ إذا لم يكن فعلٌ

وقيل: ماتت للهذلي أم ولد، فأمر المنصور الربيع أن يعزبه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجّه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف، يسليك بها، وأمر لك معها بفرس، وكسوة، وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين. ونسيه المنصور فحج المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة: إني أحبُّ أن أطوفَ الليلة المدينة، فأطلبُ لي مَنْ يطوف بي. فقال الهذلي: أنا لها يا أمير المؤمنين. فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص:

يا بيتَ عاتكٍ الذي أتغزلُ      حنَّزَ العِدَا وبه الفؤادُ موكلُ  
إنني لأمنُحك الصدودَ وإنني      قسماً إليك مع الصدودِ لأميلُ

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه، فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعلُ ما تقول وبعضهم      مذق<sup>(١)</sup> اللسانِ يقولُ ما لا يفعلُ

فذكر المنصور الوعد الذي وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليها وقال الشاعر:

تعجيلُ وَعْدِ المرءِ أكرومَةٌ      تتشُرُّ عنه أطيبَ الذكرِ  
والحرُّ لا يمطلُ معروفه      ولا يليقُ المطلُّ بالحرِّ

وقال آخر:

ولقد وعدت وأنت أكرمُ واعدٍ      لا خيرَ في وعدٍ بغيرِ تمامِ  
أنعم عليّ، بما وَعَدتْ تكروماً      فالمطلُّ يُذهبُ بهجةَ الإنعامِ

وقال آخر:

لِبَيْدِكَ وَعْدٌ قَدْ تَقَلَّمْ ذِكْرُهُ      فأولُهُ حَنَدٌ، وآخرُهُ شَكْرُ  
وقد جُمِعَتْ فيكَ المكارمُ كُلُّها      فما لك عن تأخيرِ مكرمٍ عذْرُ

وقال آخر:

وميعادُ الكريمِ عليه دينٌ      فلا تَزِدِ الكريمِ على السلامِ  
بذِكْرِهِ سلاَمُكَ ما عليه      ويُغنيكَ السلاَمُ عن الكلامِ

وقال آخر:

شكاكُ لساني ثم أمكثُ نصفه      فنصفُ لساني بامتداحك ينطقُ

(١) مذق: غير مخلص.

فإن لم تنجز ما وعدت تركتني  
وقال آخر:

باتت لوعديك عيني غير راقدة  
هذا وقد بثت من وعدٍ على ثقو  
وقال آخر:

نذُر بالرقاع إذا نسينا  
وبأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالمعهد ورعاية الذمم، فقد نقل فيها من عجائب الوقائع، وغرائب البدائع، ما يطرب السماع ويشف المسامع، كفضية الطائي وشريم نديم النعمان بن المنذر. وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين، يوم يؤس، من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد<sup>(٢)</sup> شيئاً لصيبته وصغاره. فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم يؤسه، فلما رآه الطائي علم أنه مقتول، وأن دمه مطلوب. فقال: حيا الله الملك، إن لي صبية صغاراً، وأهلاً جياً، وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس، وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا<sup>(٣)</sup> تلف من الطوى ولن يضاوت الحال في قلبي بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت، وأوصي بهم أهل المروءة من الحي، لئلا يهلكوا ضياعاً، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لفضله أمره. فلما سمع النعمان صورة مقالته، وفهم حقيقة حاله، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله، رفق له ورثى لحاله غير أنه قال له: لا أذن لك حتى يضمك رجل معنا، فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عدي  
من لأطفال ضعاف  
بين جوع وانتظار  
يا أخاك كرم  
يا أخا النعمان جذلي  
ولك الله بأنسي  
ما من الموت انهزام  
عدموا طعام الطعام  
وافترسوا وسقام  
أنت من قوم كرام  
بضممان والتزام  
راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك، علي ضمانه، فمر الطائي مسرعاً، وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولى، ولم يرجع. وشريك يقول: ليس للملك علي سبيل حتى يأتي المساء، فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك، قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً، وأرجو أن يكون الطائي،

(١) نبت السحر: أي في انتظار طويل سيء الوقع.

(٢) يرتاد: يطلب القوت.

(٣) شفا: حُرْف.

فإن لم يكن فأمر الملك ممثل. قال: فبينما هو كذلك، وإذا بالطائي قد اشتد عدوه في سيره مسرعاً حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضني النهار قبل وصولي. ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مُرْ بِأَمْرِكَ. فأطرق النعمان، ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيتُ أعجبَ منكما، أما أنت يا طائي فما تركتَ لأحد في الوفاء مقاماً يقول فيه، ولا ذكراً يفتخر به. وأما أنت يا شريك فما تركتَ لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء، فلا أكون أنا الأم الثلاثة، ألا وإني قد رفعت يوم يؤسي عن الناس، ونقضتُ عادتِي كرامة لوفاء الطائي، وكرم شريك. فقال الطائي:

ولقد دعّنتني للخلافَ عشيّرتي      فعدّدتُ قولهم من الإضلالِ  
إنني امرؤ مني الوفاءُ سجيّةً      وفعلالُ كلُّ مهذبٍ مفضالُ

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء، وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: ديني، فمن لا وفاء فيه ولا دين له. فأحسن إليه النعمان، ووصله بما أغناه مكرماً إلى أهله وأناله ما تمناه.

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون، لما ولّى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام، وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض إخوانه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، وهواه مع العلويين، وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر، فتشوش فكره وضاق صدره. فاستحضر شخصاً وجعله في زي الزهاد، والنسك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر وقال له: امض إلى مصر، وخالط أهلها، ودخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعاه إلى القاسم بن محمد العلوي، واكشف باطنه، وأبيح عن دفين نيته واثنتي بما تسمع. ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون، وتوجه إلى مصر، ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب، وجلس في مجلسه، خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده، فقال له: لقد فهمت ما قصدته، فهات ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد. فقال له عبد الله: أوتّصفتني فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمئة؟ قال: نعم. قال: فيجب عليّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة، والولاية ولي خاتم في المشرق، وخاتم المغرب، وأمرّي فيما بينهما مطاع، وقولي مقبول. ثم أتى ألتفت يميناً وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة، وإحسانه فائضاً عليّ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول أغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتني إلى الجنة عياناً لما غدرتُ ولما نكثتُ بيعته، وتركت الوفاء له فسكت الرجل فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك. فارحل من هذا البلد، فلما يسر الرجل منه وكشف باطنه، وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال فسره ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه.

ومما يعد من محاسن الشيم، ومكارم أخلاق أهل الكرم، ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم، ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه قال: قال لي أبو الفتح المنطقي: كنا جلوساً عند كافور الأخشيدي، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة<sup>(١)</sup> والمكنة ونفوذ الأمر، وعلو القدر، وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر



فحضرت المائدة والطعام فلما أكلنا نام. وانصرفنا فلما اتبته من نومته طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عقبه النجارين وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حياً فاحضروه، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم. قال: فمضينا إلى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات، وترك ابنتين، إحداهما متروجة، والأخرى عاتق<sup>(١)</sup>. فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً وأعطاهما مالاً جزيلاً، وكسوة فاخرة، وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما. فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك. وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا فقال: اعلما أني مررت يوماً بوالدهما المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة فوقت عليه فنظر إليّ واستجلبني وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغاً كبيراً، وتنال خيراً كثيراً. ثم طلب مني شيئاً فأعطيته درهمين كانا معي، ولم يكن معي غيرهما فرما بهما إليّ، وقال: أبشرك بهذه البشارة، وتعطيني درهمين. ثم قال: وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد، وأكثر منه. فاذكرني إذا صرت إلى الذي وعدتك به، ولا تنس. فقلت له: نعم. فقال: عاهدني أنك تقي لي، ولا يشغلك ذلك عن افتقادي فعاهدته. ولم يأخذ مني الدرهمين، ثم إني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال، وصرت إلى هذه المنزلة، ونسيت ذلك. فلما أكلنا اليوم ونمت رأيت في المنام قد دخل عليّ، وقال لي: أين الوفاء بالمعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدك، لا تغدر فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم. ثم زاد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق، وأخبرت به الثقات في الآفاق، وظهرت بروايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال في الوفاء بالإنفاق، حديث السموأل بن عاديأ، وتلخيص معناه أن امرئ القيس الكندي، لما أرتاد المضي إلى قيصر ملك الروم، أودع عند السموأل دروعاً وسلاحاً، وأتمعة تساوي من المال جملة كثيرة. فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدرود والأسلحة المودعة عند السموأل. فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها. وأبى أن يدفع إليه منها شيئاً، فعارده فأبى، وقال: لا أغدر بدمتي، ولا أخون أمانتي، ولا أترك الوفاء والواجب عليّ. فقصدته ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموأل في حصنه، وامتنع به. فحاصره ذلك الملك، وكان ولد السموأل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيراً، ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل. فأشرف عليه من أعلى الحصن. فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وها هو ذا معي، فإن سلمت إليّ الدرود والسلاح التي لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر. فاختر أيهما شئت. فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي، وأبطل وفائي، فاصنع ما شئت. فنبيح ولده وهو ينظر. ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً. واحتسب السموأل ذبيح ولده وصبر محافظة على وفاته. فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدرود والسلاح. ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفاته أحب إليه من حياة ولده ويقائه. فصارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكر السموأل في الأول. وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه، وأعلى قيمة من جعله نصب عينيه، واستطلق الأفواه لفاعله بالثناء عليه، واستطلق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع في بطون الدفاتر، واستحسنته حيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، وتداولته الأكسنة من

(١) عاتق: حرة من الزوج.

الأوائل، والأواخر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون. قال: طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه. فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً وسماهما: أحدهما علي بن محمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقوله لك فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى دور البرامكة وينشد شعراً، ويذكرهم ذكراً، ويندبهم ويكي عليهم ثم ينصرف. فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئاً فأتوني به. قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكروسي حديد، وإذا الشيخ وسيم، له جمال، وعليه مهابة ووقار، قد أقبل فجلس على الكرسي وجعل يبكي ويتحب ويقول:

ولما رأيتُ اليفَ جندلَ جعفرأ      ونادى منادٍ للخليفة في يحيى  
بكيثُ على الدنيا وزاد تأسفي      عليهم وقلتُ الآن لا تنفخُ الدنيا

مع أبيات أطلها ورددها. فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعاً شديداً وقال: دعوني حتى أوصي وصية، فإني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه. ثم سرنا به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره وقال له: من أنت؟ وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم، وما تقوله فيها؟ قال الخادم ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل. قال:

يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي، كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي، وأشاروا علي بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلاثون امرأة وصيباً وصيبة، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثويات لي كنت قد أعددتها لأستمع بها الناس فلبستها وخرجت وتركهم جاعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة. فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة، وعلى الباب خادمت فطمعت في القوم، وولجت المسجد، وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأوخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحداً وبين يديه عشرة من ولده. وإذا غلام أمرد عذاراه خدها قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم منتظون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب، في كل مجمرة قطعة من عود كهية الفهر<sup>(١)</sup>، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يحيى. ثم قال يحيى للقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن عمي هذا. فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا بالثار بينادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت فإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ، وولده والغلام مائة وإثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة وإثنا عشر خادماً؛ مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصواني تحت أباطهم، ويقوم الأول فالأول. حتى

(١) الفهر: حجر متوسط الحجم.

بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينية. فغمزني الخادم، فجمرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي، وأخذت الصينية في يدي. وقمت وجعلت أنضت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها.

فيئنا أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحطني إذ قال للخادم: اتني بذلك الرجل فرددت إليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس فجلست. فقال لي: ممن الرجل؟ قصصت عليه قصتي. فقال للخادم: اتني بولدي موسى، فأتى به. فقال له: يا بني هذا رجل غريب فخذة إليك، واحفظه بنفسك، وينعمتك. فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام وأقمت عنده يومي وليتي في ألد عيش وأتم سرور. فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل. وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وأكرمه. ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبير عيالي وصياني، أفي الأموات هم أم في الأحياء: فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لي: قم فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: واولاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالي على هذه الحالة إنا لله وإنا إليه راجعون فرفع الستر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إليّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به. فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود، ونفحات المسك. وإذا بصياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إليّ ألف ألف درهم، وعشرة آلاف دينار، ومشورين بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذت بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني. فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل أجدني عمرو بن مسعدة، والأزمني في هاتين الضيعتين من الخراج، مالا يفي دخلهما به. فلما تحامل عليّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم، وأذكر حسن صنيعهم إليّ، وأشكرهم على إحسانهم. فقال المأمون: عليّ بعمرو بن مسعدة، فما أتى به قال له: يا عمرو أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا. قال: رد له كل ما استأديته منه في مدته. ووقفه له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده. قال: فعلا نحبب الرجل ويكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكاؤه قال له: يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكي؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة، إذ لو لم أت خراباتهم فأبكيهم، وأندبهم، حتى اتصل خبري بأمر المؤمنين ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه. وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فأبكي، ولإياهم فأشكر، ولهم فأؤف، ولإحسانهم فأذكر.

قيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه، وكثرة بكاؤه على ما مضى من زمانه. قال الشاعر:

سقى الله أطلال الوفاء بكفٍّ      قد درست أعلامه<sup>(١)</sup> ومنازله

وقال آخر:

أشدُّ بَدَيْكَ بمن بلوت<sup>(١)</sup> وفاءهُ إن الوفاء من الرجال عزيزُ

وقال مالك بن عمارة اللخمي: كنت جالساً في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة، وفي المذاكرة مرة، وفي أشعار العرب وأمثال الناس مرة. فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة، والتصرف في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حُدث، وحلاوة لفظه إذا حُدث. فخلوت معه ليلة فقلت له: والله إني لمسرور جداً بك لما شاهدته من كثرة تصرفك، وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك. فقال: إن تعش قليلاً فسترى العيون طامحة إليّ والأعناق نحوي متطاولة، فإذا صار الأمر إليّ فلعلك أن تنقل إلي ركابك فلأملاًن يدبك. فلما أفضت إليه الخلافة توجهت إليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر. فلما رأيته أعرض عني فقلت لعله لم يعرفني، أو عرفني، وأظهر لي نكره. فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن اخرج الحاجب فقال: أين مالك بن عمارة فقممت فأخذ بيدي، وأدخلني عليه فمد إليّ يده وقال: إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن فمرحباً وأهلاً، كيف كنت بعدي فأخبرته. فقال لي: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم. فقال: والله ما هو بميرات رعيته، ولا أثر رويناه، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى. ما خنت ذا ود قط، ولا شمتُ بمصيبة عدو قط، ولا عرضتُ عن محلّك حتى يتهي حديثه، ولا قصصت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذاً بها، فكنت أومل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل. ثم دعا بغلام فقال له: يا غلام بوته<sup>(٢)</sup> منزلاً في الدار، فأخذ الغلام بيدي وأفرد لي منزلاً حسناً، فكنت في الدّ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامي، واسمع كلامه، ثم أدخل عليه في وقت عشاءه وغدائه فيرفع منزلتي، ويقبل عليّ، ويحادثني ويسألني مرة عن العراق، ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة فتغديت يوماً عنده فلما تفرق الناس نهضت قائماً. فقال: على رسلك. فقعمت. فقال: أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك في المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة. فقلت: يا أمير المؤمنين فارتق أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين وأعود إليهم. فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد. فقال: لا بل أرى لك الرجوع إليهم، والخيار لك بَعْدُ في زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك، أتراني قد ملأت يدبك، فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعداً، إذا شئت صحبتك السلامة.

ومن ذلك ما روي عن أبي بكار الأعمى وكان قد انقطع إلى آل برمك. قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزَنَ فكلُّ نسي سبأني عليه الموتُ يطرقُ أو ينادي

فقلت: في هذا والله قد أتيتك. ثم أمسكتُ بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه. فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به. فقلت له: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: أغناني عن الناس. فقلت: حتى استأمر الرشيد. ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبي بكار فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمه إليك، وانظر ما كان يجري

(١) بلوت: اختبرت.

(٢) بوته منزلاً: أنزله.

عليه جعفر، فادفعه إليه، وكان يحيى بن خالد إذا أكد في يمينه قال: لا والذي جعل الوفاء أعز ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يتقي الإنسانُ فيما ينوئُهُ      ومن أين للحرِّ الكريمِ صحابُ  
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلُّهُم      ذئاباً على أجسادِهِمُ ثيابُ

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا. فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطي، وترحم على عدوي. فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي، لا يتزعها إلا غاسلي. فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لوفي، حافظ للخير. ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين، وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبيت لهم مجدداً مخلداً.

وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبايين الشام فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي. قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها فحككت شمساً من متون غمامة. فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين بعلأ فنظرت إلينا ثم أنشأت تقول:

فإن تسألني عن هوائٍ فلإنه      يجول بهذا القبر يا فيان  
وإنني لأستخيبه والقبر بيتنا      كما كنت أستخيه وهو يراني

ومن ذلك ما روي عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبي، زوج عثمان رضي الله عنهما: أن عثمان لما قتل أصابته ضربة على يدها، وخطبها معاوية فردته. وقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثيابك؟ فكسرت ثيابها، وبعثت بها إلي معاوية، فكان ذلك مما رغب قريشاً في نكاح نساء بني كلب. ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف. وقال له: انج بهذا فأخذ زياد ودقه بين حجرين وقال والله لا يستمع به أحد بعدك. ولما قدّم هذبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته: إن لهذبة عندي وديعة فأمهله حتى آتيك بها. فقال: أسرع فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره فمضت إلى السوق وأتت إلى قصاب فقالت: أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين وأنا أرداه عليك. فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفيتها وردت الشفرة إلى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس. فقالت: أتراني يا هذبة متزوجة بعد ما ترى. فقال: الآن طابت نفسي بالموت فجزاك الله من حليلة وفيه خيراً.

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً، وأحسنها نظاماً؛ وأبينها حكماً وأحكاماً. وهي قضية جمعت الأمرين: وفاء وغدر، وعرفاً ونكراً، وخيراً وشرأ، ونفعاً وضرأ، واشتملت على حالة شخصين أحدهما وفي بعهدة فزاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا. وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجأ، ولم يلتق له من ضيق الغدر مخرجاً، وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعاً على أحوال بن طولون عارفاً بأموره عالماً بوروده وصدوره، فقال ما معناه:

إن أحمد بن طولون وجد عند سقايتيه طفلاً مطروحاً فالتقطه ورباه، وسماه أحمد وشهره باليتيم. فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاه وفضته وأحسنهم زياً وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن

طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه إليه. فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه: وقال له: أنت عندي بمكانة أركانك بها. ولكن عادتي أنني آخذ العهد على مَنْ أصرفه في شيء أنه لا يخونني. فعاهده ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام، حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام. والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح، ومساغبه متممة بالنجح، ركن إليه واعتمد في أمور بيوته عليه. فقال له يوماً: يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية فقي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فاتتني بها فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياها مع شاب من الفرائسين ممن هو من الأمير بمحل قريب. فلما رآياه خرج الفتى، وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره. فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير، وقد أحسن إليّ، وأخذ العهد عليّ، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه. وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبحة وخرج من الحجرة، لئلا يذكر حالها للأمير. فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها.

ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياها، وغمرها بعطاياها، واشتغل بها عن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل مَنْ عنده، حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها. وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما عرض عنها اشتغلاً بالجارية الجديدة الممجدة، السعيدة المسعدة، الحاملة المحمودة، الوصيفة الموصوفة، الأليفة المألوفة، العارفة المعروفة. وصرف لبهجة محاسنها وكثرة أدبها وجهه من ملاعبة أترباها، وشغلته بعذوبة رضاها<sup>(١)</sup> عن ارتشاف ضرب أضرابها<sup>(٢)</sup>. وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأثرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها. فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها. وقالت: إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي. فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظاً وغضباً وهمّ في الحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله فتأني في فعله واستحضر خادماً يعتمد عليه وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً ومع طبق من ذهب وقلت لك على لسانه إملأ هذا الطبق مسكاً فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى. ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماء الخواص، وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سره<sup>(٣)</sup> لم يخطر بخاطره شيء، ولا هاجس في قلبه. فلما مثل بين يدي الأمير وأخذ منه الشراب شرع في التثبير، فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين إملأ هذا الطبق مسكاً، فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين، وبقية الندماء والخواص. فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق. فقالوا له أرسل مَنْ ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت، وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه فرأى الفتى الفرائس الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكاً.

فمضى ذلك الفرائس إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فناوله لأحمد

(١) رضاها: الريق.

(٢) أضرابها: مثل برودة فمها.

(٣) سرية: قلبه ونفسه.

اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر. فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله، وقال: ما هنا؟ قصص عليه خبره وقموده مع المغنين، وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذي تمَّ عليه بما ارتكبه من الخيانة. وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك. وأخذ أحمد يحدثه بما شاهدته وما جرى له من حديث الجارية، من أوله إلى آخره لما أنفذه لاحتضار السبحة الجواهر. فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصنعة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل. وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه، وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه ..

فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء، كيف تحمي من المعاطب، وتنجي من قبضة التلف، بعد إضمار القواضب<sup>(١)</sup>، ويفضي بصاحبه إلى إرتقاء غوارب<sup>(٢)</sup> المراتب. فهذا الغلام لما وفي لمولاه بعده، وهو بشر مثله، وليس في الحقيقة بعبد، وأطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده، ودفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيّاً في طاعته بعقده، كيف لا يفيض عليه من الطاف مواهب يره، ورفده ويفتح له من أبواب رحمته، وأقسام نعمته، مما لا ممسك له من بعده. وقالوا: ليس شيء أوفى من القمرية، إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده. ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

(١) القواضب: السيوف القاطمة.

(٢) غوارب: أهلها وسنامها.

## الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه ودم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾<sup>(١)</sup> الآية، فلما أفشى يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب، أخبرت أخوته فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عِبِيدِهِ مَا أُوحِيَ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾<sup>(٣)</sup> أي بمتهم، وفي الحديث: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. فإن كل ذي نعمة محسود. وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه: سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره.

واعلم أن أمناء الأسرار، أقول وجوداً من أماء الأحوال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن احراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، واحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: القلوب أوعية، والشفاه أقالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضعف لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمين من سطوته. وقال أبو شروان: من حصن سره فله يتحصنه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات، وقيل: كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفرّد بسرّك لا تودّعهُ حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون. وقال كعب بن سعد الغنوي:

ولا أنا عن أسرارهم يسوؤ

ولستُ بعبدٍ للرجالِ سريرتي<sup>(٤)</sup>

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

عنه ملوك بني مروان إذ جهدوا  
والقوم في غفلتٍ بالشام قد رقدوا  
من نوموا يئتمها قبلهم أحد  
ونام عنها توأى زغيها الأسد

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عجزت  
ما زلتُ أسعى عليهم في ديارهم  
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا  
ومن رعا غمماً في أرضٍ مبعوة<sup>(٥)</sup>

- (١) سورة: يوسف، الآية: ٥.
- (٢) سورة: النجم، الآية: ١٠.
- (٣) سورة: التكوير، الآية: ٢٤.
- (٤) سريرتي: ما أخفي.
- (٥) مبعوة: تكثر فيها السباع.



وأسرّ رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسبت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال أجدد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه. ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائرُ في الضميرِ طويّتها  
وقد أجازه الشيخ شمس الدين البديري<sup>(١)</sup> فقال:

إنني كتمت حديثَ ليلي لم أُنخِ  
وحفظتُ عهدَ ودادها متمسكاً  
ولها سرائرُ في الضميرِ طويّتها

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره. قال الشاعر:

ومستودعي سرّاً كمتُّ مكانه  
ونخضتُ عليه من هوى النفس شهوةً  
وقال قيس بن الخطيم:

أجودُ بمكنونِ التلاذِ وإنسي  
وإن ضيَّعَ الأقوامُ سرِّي فلإنسي

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعني سرّةً  
لم أجريه قطُّ على فكرتي

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أفشيت سرّي إلى أحد قط فأفشاه، فلمته إذ كان صدري به أضيّق. وقال الأحنف بن قيس: يضيّق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه عليّ. قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرّه بلسانهِ  
إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسهِ

وقال آخر:

إذا ما ضاق صدرُك عن حديثي  
وإن عاتبْتُ مَنْ أفشى حديثي

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع. ولا تودع مالك عند مَنْ يستدعيه،

(١) ورد في نسخ: البلوي.

(٢) سألني: أي سألني مخففة الهمز للضرورة.

فالتألم للودعة خائن. وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه، وأنساه، كأنني لم أسمع. وكان يقال: أحزم الناس من لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشي عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار. وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حتم. وقال بعضهم:

إذا ما غفرت الذنوب يوماً لصاحبٍ      فليست معيبدأ ما حيت له ذكرا  
ولست إذا ما صاحبٌ خانَ عهدَهُ      وعندني له سرٌّ مذيماً له سراً

وأين هذا من قول القائل:

ولا تودع الأسرارَ أذني فإنما      تصبئن ماءً في إناءٍ مثلم  
أو القائل:

ولا أكمُ الأسرارَ لكنْ أذيعُها      ولا أدعُ الأسرارَ تعلقوا على قلبي  
وإن قليل العقلُ من باتَ ليلَهُ      قلبه الأسرارُ جنباً إلى جنبٍ  
وقال آخر:

وإنك كلما استودعت سرّاً      أنم من التسيب على الرياض  
وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

أناسٌ أمنّاهم فننوّوا حديثنا      فلما كتمنا السر عنهم تقوّلوا  
ولله درالمتبي حيث قال:

وللسرّ مني موضعٌ لا ينالُهُ      نديمٌ ولا يفشي إليه شرابُ

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كبيراً، إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

## الباب التاسع والثلاثون: في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد

### وفيه فصول

#### الفصل الأول: في الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة النبي»<sup>(١)</sup> وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة في النار» وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلث من كنَّ فيه كنَّ عليه؛ البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: «إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ»<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: «فَمَنْ نَكَثَ فَاِتِمَامَ بِنَكْثِهِ عَلَيَّ نَفْسِهِ»<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»<sup>(٤)</sup> وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر، وضاعت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوفه غدره طوق خزي، فهو على فكة غير قادر، وأوقعه في خطة خسف<sup>(٥)</sup> وورطة حنف، فما له من قوة ولا ناصر. ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب، من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري. وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي ﷺ فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثعلبة أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده، لو أردت أن تسير الجبال معي ذهاباً وفضة لسارت» ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة ما قال» فاتخذ ثعلبة غنماً فتمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة، ففتح عنها ونزل وادياً من أوديتها، وهي تنمو كما ينمو الدود.

وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم، وتنحى صار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلي بقية الصلوات في غنمه. فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد الجمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم. فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ

(١) البغي: الظلم.

(٢) سورة: يونس، الآية: ٢٣.

(٣) سورة: الفتح، الآية: ١٠.

(٤) سورة: فاطر، الآية: ٤٣.

(٥) خسف: غار في الأرض.

غنائماً ما يسعها واد. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة»، فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بني سليم، ورجل من جهينة، وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها. وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب، ويرجل آخر من بني سليم، فخذنا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي. فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أبله فمزله للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قال: ما هذا؟ قال: خذاه فإن نفسي به طيبة. فمرا على الناس، وأخذنا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة. فقال: أروني كتابكما. فقرأه ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية. اذها حتى أرى رأياً. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله ﷺ فلما رأهما قال قبل أن يتكلما: يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ \* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ \* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ وَتَجَاوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾<sup>(١)</sup>.

وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى للنبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة، فجعل ثعلبة يحثو<sup>(٢)</sup> التراب على رأسه ووجهه. فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني. فلما أتى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً. ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار. فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك فلا أقبلها أنا. قبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولم يقبلها. فلما ولي عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي فلم يقبلها منه وقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه فأننا لا أقبلها. وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها. ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه فسأله أن يقبض صدقته فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر رضي الله عنهما فأننا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسمته بِسِمَةِ عَارِ قُضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقاً يخزيه يوم فاتته وفقره. فأى خزي أرحح من ترك الوفاء بالميثاق، وأي سوء أقيح من غدر يسوق إلى الشاق، وأي عار أفضح من قرض المهد إذا عد مساوية الأخلاق. وكان يقال: لم يغير غادر قط إلا لصغر همة عن الوفاء، وانتضاع<sup>(٣)</sup> قدره عن احتمال المكاره، في جنب نيل المكارم، قال الشاعر:

غدرت بأمر كنت أنت جذبنا إليه ونس الشيمة الغدر بالمهد

ولما حلف محمد الأمين للمؤمن في بيت الله الحرام وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذني الله إن خذلت. فقال ذلك ثلاث مرات. فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت

(١) سورة: التوبة، الآيات: ٧٥ - ٧٨.

(٢) يحثو: تعفر به.

(٣) انتضاع: وضاعه وسفاله.

الله: يا أبا العباس أجد في نفسي أن امري لا يتم. فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟ قال: لأنني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاة، كان ملكاً بين دجلة والفرات، وكان له هناك قصر مشيد، يعرف بالجوسق، وبلغ ملكه الشام، فأغار على مدينة سابور ذي الاكاف، فأخذها وأخذ أخت سابور، وقتل منهم خلقاً كثيراً. ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء. ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت. فخرجت من الريض<sup>(١)</sup> وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حَضْنَ. وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآه ورأته فمشقها وعشقه، وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لي إن ذلك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أحكمك. فقالت عليك بحمامة مطوقة ورقاء<sup>(٢)</sup> فآكب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة، فتداعى المدينة كلها. وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر، فإذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك. فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة، وقتل الضيزن واحتمل ابته النضيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بربش النعام. فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعنكها<sup>(٣)</sup>، وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها. ثم أن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل إنه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً، وضرر غدائرها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعاً قطعاً الله ما أغدره.

وتقول العرب: جزاني جزاء سنمار، وهو أن ازدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مريء. فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام إلى النعمان، وهو عامله على أرض العرب، وأمره أن يبني له جوسقاً فامتثل أمره، وبني له جوسقاً كأحسن ما يكون. وكان الذي بني الجوسق رجلاً يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه، عجبوا من حسنه. فقال: لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنينه بناء يدور مع الشمس حيث دارت. فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنيه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع. فكانت العرب تقول: جزاني جزاء سنمار.

وممن غدر، عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله غدر بعلي رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله. وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى، ثم غدر به وأخره، وقدم المهدي عليه فقال عيسى:

أَيْتَسَى بَنُو الْعَبَّاسِ ذُبِّي<sup>(٤)</sup> عَنْهُمْ  
فَتَحَّتْ لَهُمْ شَرْقُ الْبِلَادِ وَغَرْبُهَا  
أَبْقَطْعَ أَرْحَاماً عَلَيَّ عَزِيْزَةً  
بِسَيْفِي وَنَارُ الْحَرْبِ زَادَ سَعِيرُهَا  
فَذَلُّ مَعَادِيهَا وَعَزُّ نَصِيرُهَا  
وَأَبْدِي مَكِيدَاتِ لَهَا وَأَثِيرُهَا

(١) الريض: دغلة خارج المدن.

(٢) ورقاء: في لونها يابض إلى سواد.

(٣) بعنكها: بين ثناياها.

(٤) ذبِّي: دفاعي.

فلما وضعتُ الأمرَ في مستقرِّهِ      ولاحتُ له شمسٌ تلالاً نورُها  
دَفَعْتُ عن الأمرِ الذي استَحَقُّهُ      وأوسقُ<sup>(١)</sup> أوساقاً من الغديرِ عيرُها

وخرج قوم لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها فينما هو نائم  
فأت يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت. فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

ومَنْ يصنع المعروفَ مع غيرِ أهله      يلاقِ كما لاقى مجيرُ أمِّ عامرٍ<sup>(٢)</sup>  
أعدُّ لهاً لما استجارَتْ بيته      أحاليبِ ألبانِ اللقاحِ الدرائرِ  
وأسمَنَها حَتَّى إذا ما تمكَّنَتْ      فَرَّتْهُ بأنيابِ لها وأظافرِ  
فَقُلْ لذوي المعروفِ هذا جزاءُ مَنْ      يجودُ بمعروفٍ على غيرِ شاكِرِ

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بمعجوز بين يديها شاة مقتولة، وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت:  
أتدري ما هذا؟ قلت: لا. قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا ورببناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى  
وأنشدت:

بقرت شويهتي وفجعت قومي      وأنت لثائنا إين ريبُ  
غذيت بدؤها ونشأت معها      فَمَنْ أباك أن أباك ذيبُ  
إذا كان الطباغ طباغ سوء      فلا أدب يفيد ولا أديبُ

اللهم أنا نعوذ بك من البغي وأهله، ومن الغادر وفعله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الفصل الثاني: في السرقة والسراق

قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقاً. فقال لا إله إلا الله. سارق  
العلانية يقطع سارق السر. وأمر الاسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت وأنا كاره. فقال:  
وتصلب أيضاً وأنت كاره. وسرق مدني قميصاً فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه، فجاء له فقال: بكم بعته فقال: برأس  
المال. وقال أكلت السلمى وكان لصاً فاتكأ:

وإنسي لأستحيي من الله أن أرى      أجرجرُ جلي ليس فيه بعيرُ  
وأن أسأل المرء الدنيءَ بعيرةً      وأجمالُ رئي في البلادِ كثيرُ

قال الفرزدق:

وإن أبا الكرشاء ليس بسارق      ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وكان لعمر بن دويرة البجلي أخ قد كلف بيت عم له، فتصور عليها الدار ذات ليلة فأخذته إختوتها وأتوا به

(١) أوسق: أحمل جمعاً.

(٢) مجير أم عامر: من كنى الضبيح.

خالد بن عبد الله القسري وجعلوه سارقاً، فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية. فهم خالد بقطعه فقال عمر وأخوه:

أخالدُ قد والله أوطنتَ عشوةً      وما العاشقُ المظلومُ فينا بسارقُ  
أترُّ بما لم يأتِ المرءُ أنه      رأى القطعَ خيراً من فضيحةِ عاشقِ  
فعفا عنه خالد، وزوجه الجارية.

### الفصل الثالث: في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَأَعْرَبْنَا بينهمُ العداوةَ والبغضاءَ إلى يومِ القيامةِ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>.. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: العداوة تتوارث. وقال زياد بن عبد الله.

فلو أني بليتُ بهاشميُّ      خوؤلتُه بنو عبدِ المَدَانِ  
صبرتُ على عداوتِهِ ولكن      تعالوا فانظُرُوا بمنِ ابتلاتني  
أريتُ رجل في وجه أبي عبيدة مكرهاً فأنشأ يقول:  
فلو أن لحمي إذ همي<sup>(٥)</sup> لبعثت به  
لهوّن وجليبي، أو لئس مصيتي  
سباعُ كرام أو ضباعٌ وأذؤبُ  
ولكنما أوتى بلحمي أكلبُ

وقيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً. قال: عدوي. قيل وكيف ذلك. قال لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة، أهون من مداواة ما خفي ويطن. وقالوا: إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك في لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنع عن الفيج ولا تُرِدهُ      ومَن أوليته حسناً فزِدهُ  
ستلقى من عدوك كلَّ كيدٍ      إذا كادَ العدو ولم تكِدهُ

وكانت جليمة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب. فلما كبر وشب قال:

- (١) سورة: المائدة، الآية: ١٤.
- (٢) سورة: يوسف، الآية: ٥.
- (٣) سورة: فاطر، الآية: ٦.
- (٤) سورة: التغابن، الآية: ١٤.
- (٥) وهي: انحل وضغف.

أميلُ وأمري بين خالي ووالدي  
إذا ما اعترتني حرُّها غيرُ باردٍ

أصابَ أبي خالي وما أنا بالذي  
وأورثَ جئاسُ بنَ مرَّةٍ غصَّةً

ثم قال بعد ذلك:

كيف العزاءُ وثاري عند جئاسٍ

يا للرجالِ لقلبٍ ما له جلدُ

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

وقد يرجى المرشحُ للدخولِ  
بجئاسٍ بنِ مرَّةٍ ذي البتولِ<sup>(١)</sup>

ألم تَرَني نَأزتُ أبي كلياً  
غسلتُ العارَ عن جسمِ ابنِ بكرٍ

وقد قيل:

فلن تبيدَ وللاباءِ أبناءُ

سنةُ العداوةِ آباءُ لنا سلفوا

ويقال: دَارِ عدوك لأحد أمرين، إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكثك. وكتب سويد إلى مصعب:

وهل تلقى النصيحَ بكل وادٍ  
وإن ضحكوا إليك هُمُ الأعداي

فبلغ مصعباً عنِّي رسولي  
تعلمُ أنَّ أكثرَ مَنْ تناجي

ويقال: فلان كثير المراق من المذاق<sup>(٢)</sup>. وقال الحجاج لخارجي: والله إنني لأبغضك. قال: أدخل الله الجنة

أشدنا بغضاً لصاحبه. ولما أراد أنو شروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه. وقال

بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت. فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات.

وكانت أم قباذ تركية وقد رأيت من حسن سيرته ما رأيتم. فقيل: هو قصير وذلك يذهب بيهاء الملك. فقال: إن قصره

من رجليه، ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يستين ذلك فيه. فقيل: هو بغض في الناس. فقال: أواه هلك ابني

هرمز. فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد، ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس، فلا خير فيه، وإذا كان فيه

عيب واحد، ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه.

ولا بغضَ ما فيه إذا كنتَ راضياً

ولستُ براهٍ عيبَ ذي الودِّ كلِّه

كما أن عينَ السخطِ تُبلي المساوي

فعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليله

وفي المعنى قيل:

وعينُ الحبِّ لا تجدُ العيورا

وعينُ البغضِ تبرز كلَّ عيبٍ

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: ثقلت الصخور، وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدين. وأكلت الطيات

وعانقت الحسان، فلم أر شيئاً ألد من العافية، وأنا أقول: لو نزعوا البحار وكسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة

الأعداء، خصوصاً إذا كانوا مساهمين في نسب، أو مجاورين في بلد. اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم، وسوء الفهم،

(١) ذي البتول: الملراء.

(٢) من المذاق: قلة الإخلاص.



وشماتة ابن العم، وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء، وأنشد الجاحظ:

تَقْرُونَ العاذِلَاتُ تَسَلُّ عَنْهَا      وداوِ عَيْلَ قَلْبِكَ بِالسُّلُوِّ  
وَكَيْفَ، وَنظْرَةَ مِنْهَا اخْتِلاَساً      أَلْدُ مِنَ الشَّمَاتَةِ بِالْعَدُوِّ

وقال ابن أبي جهينة المهلي:

كُلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى      فَهُوَ غَيْرُ شِمَاتَةِ الأعداءِ

قال الجاحظ: ما رأيتُ سناناً أنفذ من شماتة الأعداء. وقيل لما قبض رسول الله ﷺ وسمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخصبن أيديهن وضربن بالدقوف، فقال رجل منهم:

أَبْلِغْ أبَا بَكْرٍ إِذَا مَا جِئْتَهُ      إِنَّ البغايا من بني مرّام  
أَظْهَرْنَ فِي مَوْتِ النَبِيِّ شِمَاتَةً      وَخَضِبْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالمَلَامِ<sup>(١)</sup>  
فَاقَطَّخَ هُدَيْتٌ أَكْفُهُنَّ بِصَارِمٍ      كَالْبَرْقِ أَوْضَعْنَ فِي مَتُونِ غَمَامِ

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله فأخذهن وقطع أيديهن. ويقال: فلان يترص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحاً إلا في فسادك، ولا رفعة إلا في سقوط حالك. وقال حكيم: لا تأمن من عدوك وإن كان ضعيفاً، فإن القناة، قد تقتل، وإن عدت السنان. قال الشاعر:

فَلَا تَأْمَنَ عَدُوَّكَ لَوْ تَرَاهُ      أَتَمَّلُ إِذَا نَظَرْتُ مِنَ القَرَادِ<sup>(٢)</sup>  
فَإِنَّ الحَرْبَ يَشَأُ مِنْ جِبَانِ      وَإِنَّ النِّارَ تَضْرِمُ مِنْ رِمَادِ

بيت مفرد:

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثْلاً فَإِنَّهُ      يَشُدُّ عَلَى كَفِّ المَسِيءِ فَيَجْلِبُ  
وَقَالَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَليمانِ بنِ وهبٍ:

كفايةُ الله خيرٌ من توقينا      وعادةُ الله الماخذينَ تكفيننا  
كأد الأعداي فلا والله ما تركوا      قولاً وفعلاً وتلقيناً وتهجيناً  
ولم نزد نحن في سرٍّ وفي علنٍ      على مقالتنا يا ربنا أكفيننا  
فكانَ ذلك ورد الله حاسننا      بغِيظِهِ لَمْ يَنْلُ تَقْدِيرَهُ فِينَا

### الفصل الرابع: في الحسد

قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(٣)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء

(١) بالملام: نبات أحمر يختضب به.

(٢) القراد: حشرة صغيرة من أضراب القمل.

(٣) سورة: النساء، الآية: ٥٤.

حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». وقال علي رضي الله عنه: الحاسد مغتاذ على من لا ذنب له. وقيل الحسود غضبان على القدر، ويقال ثلاثة لا يهنا لصاحبها عيش الحقد والحسد وسوء الخلق.. وقيل: بش الشعار الحسد. وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك. قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد. وقال إعرابي: الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله، وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود. أولاهما غم لا ينقطع، الثانية مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة مذمة لا يحمد عليها، الرابعة سخط الرب، الخامسة يغلق عنه باب التوفيق.

ومن ذلك، ما حكى أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقرّبه وأذناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه. إن لم أحتمل على هذا البدوي في قتله، أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني عنه. فصار يتلطف بالبدوي، حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعاماً، وأكثر من الثوم، فلما أكل البدوي منه فقال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك، فإنه يكره رائحته. ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه. فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كفه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم. فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكفه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول له فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي ودفع إليه الكتاب وقال له امض به إلى فلان، واتني بالجواب، فامثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده. فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان. فقال الوزير في نفسه. إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل. فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار. فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي افعل. قال: أعطني الكتاب فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصد. فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي. وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فحضر. فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها. فقال له: أنت قلت عني للناس إنني أبخر. فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرماً منه وخسداً، واعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم، وما جرى له معه. فقال: يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذ وزيراً، وراح الوزير بحسده، وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

أَلْ مَهْلَبٍ قَوْمٌ إِنْ مَدَّخْتَهُمْ      كَانُوا الْأَكَاوِمَ آبَاءَ وَأَجْدَادَا  
إِنْ الْعَرَانِينَ<sup>(١)</sup> تَلَقَّاهَا مَحْصَةً      وَلَا نَرَى لِلنَّاسِ حِمَادَا

وقال عمر رضي الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يتمم وقت سرورك. وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة

في كل شيء، إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشدُّ تحاسداً من التيوس. وعن أنس رضي الله عنه رفعه «إن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب» وقال منصور الفقيه:

منافسةُ الفتى فيما يزولُ      على تقصانٍ هتيسهٍ دليلُ  
ومختارُ القليلِ أقلُّ منه      وكلُّ فوائِدِ الدنيا قليلُ

يقول الله عز وجل: الحاسد عدوٌ نعمتي، متسخط لفعلي، غير راض بقسمتي، التي قسمت لعبادي. قال الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمتي      أتدري على مَنْ أسأت الأديب؟  
أسأت على الله في حكمه      لأنك لم ترض لي ما وهب  
فأخزاك<sup>(١)</sup> ربي بأن زادني      وسدَّ عليك وجوة الطلب

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك. فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلوا السيد من ودود يمدح وحسود يقده. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله، وقيل لعبد الله بن عروة: لِمَ لزمَ البدو وتركت قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسد على نعمة، أو شامت على نكبة؟ وقال الشاعر:

يا طالبَ العيشِ في أمنٍ وفي دعوة<sup>(٢)</sup>      رعداً بلا قترٍ صفواً بلا رنق<sup>(٣)</sup>  
خلصن فؤادك من غلٍّ ومن حسدٍ      فالغلُّ في القلبِ مثلُ الغلِّ في العنق<sup>(٤)</sup>

وقال آخر:

إصبرْ على حسدِ حسدِ الحسدِ      سود فإن صبرك قاتلة  
كالنارِ تأكلُ بعضها      إن لم تجد ما تأكله

وفي نوابغ الحكم: الحسد حسك، مَنْ تعلق به هلك. ولبعضهم:

إنني حُسدتُ فزاد الله في حسدي      لا عاش مَنْ عاش يوماً غير محسود  
وقال نصر بن سيار:

إنني نشأتُ وحسادي ذور أعدو      يا ذا المعارج لا تقص لهم عدا  
أن يحسدوني على ما بي لماً بهم      فمثل ما بي مما يجلبُ الحسدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمًا؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أخزاك: أذلك وأهانك.

(٢) دعوة: خفض عيش.

(٣) رنق: كدر.

(٤) العنق: الغل الأولى الحقد، والثانية القيد.

# الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتديرها وفضل الجهاد وشدة اليأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

## الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله، وشدة اليأس

قد أثنى الله تعالى على الصابر في البأساء والضراء وحين اليأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرْصُومِينَ﴾<sup>(١)</sup> وتدب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء، والرأي في الحرب أمام الشجاعة. قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من فطرة أحب إلى الله من فطرة دم في سبيله، أو فطرة دم في جوف ليل من خشية». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة تحت ظلال السيوف». فقال يا أبا موسى: أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: اقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن<sup>(٢)</sup> سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حين انتهينا إلى خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إننا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وعنه رفعه: «لغدوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل». وقيل إن أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنه، لم يشهد بدرأ فلم يزل متحسراً يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، فلما كان يوم أحد قال: واهأ لريح الجنة دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في بدنه بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا بيانه. وعن فضالة بن عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرباط فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر» وعن سهل بن حنيف رفعه: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا، فلهم الحسنى وزيادة.

(١) سورة: الصف، الآية: ٤.

(٢) وعاه أي: غمده.

## الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدتها لم تكمل فيه فضيلة يعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب، والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان، وتراخف المسكران وتكالتحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكز وينادي هل من مبارز؟ والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش، ساكن القلب حاضر اللب، لم يخالطه الدهش، ولا تأخذ الحيرة، فيقلب قلب المالك لأموره، القائم على نفسه؛ والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة<sup>(١)</sup>، ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويرجي الضعيف، ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه، ومن وقف حملة، ومن كبا به فرسه حماه حتى يأس العدو منهم. وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك، قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افرقوا فوجدوا في المعترك قطعة خوذ<sup>(٢)</sup> قدر الثلث بما حوته الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها، ولم يسمع بمثلا في جاهلية، ولا إسلام. فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم، فكانوا إذا عبروا بانهزامهم يقولون: لقينا أنوماً هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم إليها ليروها. قالوا: من الحزم أن لا يحقر الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً قال الشاعر:

فلا تحقرنَّ عدوًّا رماك      وإن كانَ في ساعدَيْه قصر  
فإن السيوفَ تحزُّ الرقاب      وتعجزُ عما تنالُ الإبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتباً، ورتبوا فيها ترتيباً، منها أشياء نبدأ منها أولاً بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فقوله تعالى: ﴿ما استطعتم﴾ مشتمل على كل ما هو في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسر النبي ﷺ القوة حين مرَّ على أناس يرمون فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»، وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحاً من صدقة وصيام، ورد المظالم، وصلة الرحم، ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر وأمثال ذلك.

والشأن كل الشأن في استجادة القواد وانتخاب الأمراء وأصحاب الألوية؛ فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب، خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة، والنجلة والشجاعة،

(١) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٢) خوذة: غطاء الرأس للمحارب.

(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٦٠.

والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن توسطت الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران. وقارع الأبطال، عارفاً بمواقع الفرص، خبيراً بمواقع القلب، والميمنة، والميسرة، من الحروب، فإنه إذا كان كذلك، وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهاً، وإلا ردّ الغنم إلى الزرية.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء. وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القيادة أن يكون فيه عدة أخلاق: من البهائم شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحيلة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركي، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء، وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقي الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ريك الهم، اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن.

ومن الحيل في الحرب أن يث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم وذوي الشجاعة منهم، فيدس إليهم ويعددهم وعداً جميلاً ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة، والولايات السنية، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا، وسامهم<sup>(١)</sup> إما الغدر بصاحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخباراً مزورة، يرمي بها في جيوشهم.

واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذ زالت صارت حيلتها<sup>(٢)</sup> وبالاً عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة، ويغلب الضعيف بإقبال دولته، كما يغلب القوي ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب، أن تكون حماة الرجال، وكماه الأبطال في القلب، فإنه انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق، وطبوله تضرب، كان حصناً للجناحين، يأوي إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان، مثال ذلك أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين. وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان، وقلّ عسكرٌ انكسر قلبه فأفلح، أو تراجع. اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلي القلب قصداً أو تعمداً حتى إذ توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان، فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب. ويقال: حبب إلى عدوك الفرار، بأن لا تتبعهم إذا انهزموا. ويقال الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه. ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتي ثياب قلبي، وإصابة رأبي، ونصل سيفي، ونصرة خالقي، وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب فأشده مسلمة قول الحطية:

قومٌ إذا حاربوا شددوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار<sup>(٣)</sup>

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفأنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا، فقام إليه مسلمة فقبله بين عينيه. وقيل لما

(١) وسامهم: أذاقهموه.

(٢) وبالاً: وخيماً.

(٣) معنى البيت أنهم يعتزلونهم.

مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين فأطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلها جميعاً، وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن في المعجم أرمي من الملك بهرام، خرج يتصيد يوماً وهو مردف حظية له كان يشقها، فعرضت له ظباء. فقال: في أي موضع تريدان أن أضع هذا السهم. فقالت: أريد أن تشبه ذكارتها بالإناث، وأناثها بالذكور، فرمى ظبياً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين. ثم سأله أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقية ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال إن من أعظم المكاييد في الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع، وحمي الدمار، حتى يلتفت فيرى وراءه بدأ منشوراً، ويسمع صوت الطبل فيحيتل يكون همه خلاص نفسه، وعليك بانتخاب الفرسان، واختيار الأبطال، ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألف منهم كواحدٍ      وواحدٌ كالألفِ إن أمرٌ عَنَى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف. وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب.

فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل، خيل ورجل. فحدث من حضر الواقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء، قال الطاغية ابن روميل لمن يتق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا، ومن غاب منهم، ومن حضر. فذهب ثم رجع فقال: فيهم فلان وفلان فعذ سبعة رجال. فقال له: انظر في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم. فعدهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون. فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين، ولم يول أحد دبره<sup>(١)</sup>، ولا تترشح عن مقامه حتى فني أكثر العسكرين، ولم يفر واحد منهم. قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة ثم حملوا علينا جملة، وداخلونا مداخلة، ففرقوا بيننا وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا. فكان ذلك سبب وهتنا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم. فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه. وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو من مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة، من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرأ، وليعتبر بضمان العليج<sup>(٢)</sup> بالظفر، واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه. قال: سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيى، قال: بينما المنصور بن عامر في بعض غزواته إذا وقف على نشز<sup>(٣)</sup> من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه،

(١) دبره: أي ظهره (أي لم ينهزم).

(٢) العليج بالظفر: الأجنبي الغليظ.

(٣) نشز: مرتفع.

ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله. قد ملؤوا السهل والجبل، فالضفت إلى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجمي فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعاً كثيراً، وجيشاً واسعاً كبيراً. فقال له المنصور: وما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجمي. فقال له المنصور: ما سكوتك؟ أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا. فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا. فحقت<sup>(١)</sup> المنصور، ثم قال: أففيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا. قال: فيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا. قال: فسبه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم واجتمعت الروم وتصاف الجمعان، فبرز عالج من الروم بين الصفيين شاكبي السلاح وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العالج، ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها. ثم جعل العالج يعوج بين الصفيين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العالج وجعل يكر ويحمل وينادي ويقول: هل من مبارز ثلاثة لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العالج. فصاح المشركون وذللّ المسلمون وكادت أن تكون كسرة. فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجمي، فبعث إليه فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العالج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره. قال: الآن يكفي المسلمون شره إن شاء الله تعالى. ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراها هزالاً، وهو حامل قرية ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته ونفسه غير متصنع. فقال له ابن المضجمي: ألا ترى ما يصنع هذا العالج منذ اليوم، قال: قد رأيته فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي المسلمين شره. قال حياً وكرامة. ثم إنه وضع القرية بالأرض وبرز إليه غير مكترث به فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض، ولا يدرون ما هناك وإذا برأس العالج يلعب بها في يده ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور. فقال له ابن المضجمي: عن هؤلاء الرجال أخيرتك. قال: فرد ابن المضجمي إلى منزله وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكى أنه كان للعرب فارس يقال له ابن فتحون، وكان أشجع العرب والمعجم في زمانه. وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار. وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزله من السلطان. فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز عالج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي. فصاح المشركون سروراً وانكسرت نفوس المسلمين. وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفيين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومي. فصالح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين. وجعل الكلب يجول بين الصفيين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد فلم يجترأ أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقي الناس في حيرة. فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلف به، وقال له: يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع هذا العالج؟ فقال: ها هو بعيني، قال: فما



الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوطاً طويلاً، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون. وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العليج، وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين. فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالحق في الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

ويتبغى لقايد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعلم حيلته، وألوان خيله، ورايته ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً، أو ليبدل زيه، ويغير خيمته كيلا يلتص عدوه غرة منه، وإذا سكنت الحرب فلا يمشي في النهر يسير من قومه خارج عسكريه، فإن عيون عدوه متجسة عليه. وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش أفريقيا عند فتحها؛ وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشي خارج عسكريه يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرح وهو نائب في قبة، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح. ويمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك ملك الروم وقمعه، وقتل رجاله، وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، كتاب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس يتلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف، ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع<sup>(١)</sup>، والسلاح، والمجانيق، والآلات المعدة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى. وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين: الشام، والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر. ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم. ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام. فاحتشد لقاتهم الملك ألب أرسلان وهو الذي يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين. وقالوا لألب أرسلان غداً يترأى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقي المسلمون وجلين<sup>(٢)</sup> لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمون ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعدّ المسلمون، فبلغوا اثني عشر ألفاً، فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود. فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير، والشفقة على المسلمين، والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء. فتوابع القوم، وتحالوا، وناصرهم الإسلام وأهله، وتاهبوا أهبة اللقاء. وقالوا لألب أرسلان: باسم الله نحمل عليهم. فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون على المنابر، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه، حملنا عليهم إذ ذاك. وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم، وعلامته، وزيه، وزيته، وفرسه. ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي، ويتبع أثري، ويضرب بسيفه ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي، وأرمي بسهمي، ثم حمل برجاله حملة رجل

(١) الكراع: الخيول المعدة للحرب.

(٢) وجلين: خائفين.

واحد إلى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم: قتل الملك، قتل الملك. فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل، فتبددوا، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياماً؛ وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم. وأتوا بالملك أسيراً بين يدي ألب أرسلان، والحبل في عنقه. فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بي لو أسرته، قال: هل تشك أنني كنت أقتلك. فقال له ألب أرسلان: أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به فبيعه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل في عنقه، وينادي عليه من يشتري ملك الروم. وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدرهم، والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيئاً حتى باعوه من إنسان بـكـلـب، فأخذه الذي ينادي عليه، وأخذ الكلب وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبدل أحد فيه شيئاً، سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب. فقال: قد أنصفك، إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه، وذهب إلى القسطنطينية. فعزلته الروم وكحلوه بالثار.

فانظر ماذا يأتي على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة، والمكيده. اللهم انصر جيوش المسلمين، وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

## الباب الحادي والأربعين: في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والإسلام: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، عم رسول الله ﷺ أسد الله، وأسد رسوله ﷺ قتل في غزاة أحد، رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع. وعظم قتله على النبي ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش، وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، آية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالتأييد الإلهي، كاشف الكروب ومجليها<sup>(١)</sup>، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية<sup>(٢)</sup>، ولا خلاف. روي عنه رضي الله عنه أنه قال: والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موة على فراش. وقال بعض العرب: ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض. وقال رضي الله عنه لعمارة: قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانباً واخرج إليّ ليعلم أين المران<sup>(٣)</sup> على قلبه، والمغطى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك، وخالك وأخيك شدخاً<sup>(٤)</sup> يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوّي. وقيل له كرم الله وجهه. إذا جالت الخيل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركموني. وقيل له: كيف كنت تقتل الأبطال؟ قال: لأنني كنت ألقى الرجل فأقدر أنني أقتله، ويقدر هو أنني قتله، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه. وقال مصعب بن الزبير: كان علي رضي الله عنه حذراً في الحروب، شديد الروغان، لا يكاد أحد يتمكن منه، وكان درعه صدراً لا ظهر لها. فقيل له: أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك؟ فقال: إذا مكنت عدوّي من ظهري<sup>(٥)</sup> فلا أبتى الله عليه إن أبتى عليّ. قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنة الله تعالى عليه، غدره وهو في صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله تعالى عليه مكررة تزوج بقطام بنت علقمة وكانت خارجية فقالت له: لا أفنع إلا بصدّاق أسّيّه، وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل علي بن أبي طالب. فقال لها: لك ما سألت، إلا علي بن أبي طالب وكيف لي به؟ قالت: تغتاله فإن سلمت أرحت الناس من شره وأقمت مع أهلك وإن أصبت دخلت الجنة فقال:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة  
وضرب علي بالحسام المخنم<sup>(٦)</sup>

(١) مجليها: مظهرها.

(٢) مرية: جدال أو نقاش.

(٣) المران: المغطى.

(٤) شدخاً: كسراً بعضف.

(٥) ظهري: كناية عن الحرب.

(٦) المخنم: القاطع.

فلا مهرَ أغلى من عليٍّ وإن علا ولا فيك إلا دون قتلك ابن ملجم

وقيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس<sup>(١)</sup> وذلك في التاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضي الله عنه في ثلاثة أبواب ودفن في الرحبة، مما يلي كندة من أبواب المسجد. قالوا: ولما ضربه ابن ملجم، لعنه الله، ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب فأخذه فأوماً عليّ رضي الله عنه إلى المغيرة أن صلّ بالناس. فصلّى بهم الفجر. وأقبلت همدان فدخلوا على عليّ فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى. فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس. قال: ثم إن الحسن رضي الله عنه صلى الفجر، وصعد المنبر فأراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال: الحمد لله على ما أحيينا وكرهنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وإنّي أحسب عند الله عز وجل مصابي بأفضل الآباء رسول الله القتال ﷺ: «مَنْ أُصِيبَ بِمِصْيَةٍ فَلْيَتَسَلَّ بِمِصْيَتِهِ فِيَّ فَإِنَّهَا أَكْبَرُ الْمِصَائِبِ». والله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ. ولا يدركه الآخرون. فعند الله نحسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر والدواب. ولقد قبض في الليل التي رفع فيها عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام. وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ. ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه في السرية، ويسير جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه. وما ترك صفراء، ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يتناح بها خادماً لأهله، ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم، ألا إن قريشاً أعطت أزمعتها شياطينها، فقادت بها بعتها إلى النار. فمنهم مَنْ قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليهم. ومنهم مَنْ أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعواناً رفع الكتاب وجف القلم. وأمور تقضي في كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن. فبكى الناس بكاء شديداً ثم نزل فجر د سيفه ودعا بابن ملجم فأقبل يخطر واضعاً شعره على أذنيه، حتى قام بين يديه. فقال: يا حسن إنّي ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به؛ عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلتك. فإن تخلني أقتل معاوية. فإن أنا قتلتك أضع يدي على يدك. وأن أقتل فهو الذي تريد. فقال الحسن رضي الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقائك، ثم قال إليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده، ثم أسرع السيف فيه فقتله.

ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخدومي رضي الله عنه، سيف الله، وسيف رسول الله ﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور، في الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذي فتح دمشق وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة في الروم أيّد الله بها الإسلام، مات على فراشه. وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر، إلا وفيه أثر من طعنة، أو ضربة، أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، لا نامت عين الجبان، وكان يشد ويرتجز ويقول رضي الله عنه:

لا ترعبونا بالسيوفِ المبرّقة إن السهامَ بالردى مفوّقة<sup>(٢)</sup>

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٢) مفوّقة: أكثر علوّاً في هذا المجال.

والحربُ دونها العقالُ مطلقاً وخالدٌ من دينه على ثقته

الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله ﷺ، وابن عمته، بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يجارى، قتله عمرو بن جرموز، اغتاله وهو في الصلاة. عمرو بن معدى كرب الزبيدي، فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال الحمد لله الذي خلقتنا وخلق عمراً. روي عنه رضي الله عنه أنه سأل يوماً فقال له: يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟ قال: فغن أيها تسأل. قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطيء ويصيب. قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك ربما خانك، قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائرة، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عن الشدة. وقيل: أنه نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه: أنني عابر على هذا الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور، وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم، ثم انغمس فحمل على القوم. فقال بعضهم لبعض: يا بني زيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن إنكم تدركونه حياً فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه. وقد أخذ برجل فرس رجلاً من العجم، فأمسكها الفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رأنا أدركناه رمى الرجل نفسه، وخلقى فرسه فركبه عمرو. وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوني، فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمي بنشابة فغار، وشب فصرعني<sup>(١)</sup>. ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم، وهو الذي كان قدّمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوه فسقط رستم، وسقط الفيل عليه مع خراج كان فيه أربعون ألف دينار. قتل رستم وانتهت المعجم. وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف، وكان من الشعراء المعدودين. وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطني زبيداً فقد أودى بنجدتها عمرو<sup>(٢)</sup>

ومنهم طلحة الأسدي رضي الله عنه، كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاماً، ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعاً عظيماً قتل<sup>(٣)</sup> خالد بن الوليد جمعه. وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح. المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كان من أشجع الفرسان، شديد البأس، قوي الجنان، رابط الجأش، وله في الشجعان اسم مشهور، ووصف المذكور، يعجز الواصف عن وصف صفاته رضي الله عنه وأرضاه. سعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري رضي الله عنه، كان فارساً بطلاً رامياً، وهو أول من رمى في سبيل الله بسهم. ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده، ومات حتف أنفه. أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه، الذي خرج يتبخر بين الصنفين فقال عليه الصلاة والسلام: «إنها لمشية يخفضها الله تعالى إلا في هذا الموضع». المثني بن حارثة الشيباني رضي الله عنه، هو أول من فتح حرب الفرس. أبو عبيد بن مسعود التميمي رضي الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف

(١) صرعني: أوقعتني.

(٢) بنجدتها عمرو: أي ذهب مجد هذه البلدة بلهاب بطلها هذا.

(٣) قتل جمعهم: فرقهم واتصم عليهم.

في حرب القادسية. عمار بن ياسر رضي الله عنه، صاحب رسول الله والذي قال فيه رسول الله: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية، قتل بصفين وكان مع علي رضي الله عنه. هاشم بن عتبة رضي الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية علي رضي الله عنه بصفين. مالك بن الحرث النخعي الأشتر رضي الله عنه، مات مسموماً في شربة من عسل. فقال معاوية: إن الله جنوداً منها العسل. القعقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشية القادسية رضي الله عنه.

الطبقة الثانية: عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه قاتل جرجير ملك أفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة: صف لي عبد الله بن الزبير. فقال: والله ما رأيت جلدأ قط ركب على لحم، ولا لحمأ على عصب، ولا عصبأ على عظم، مثل جلده، ولحمه، وعصبه. ولا رأيت نفسأ بين جنين مثل نفس ركبت بين جنينه، ولقد قام يوماً إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدرة فوالله ما خشع له بصره، ولا قطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوَّص بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته، وصلبه الحجاج، إلا إلى الله تصير الأمور. أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية رضي الله عنه، كان أبوه يلقبه في الوقائع، ويتقي به العظائم، وهو شديد البأس، ثابت الجنان. قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يقحمك الحروب، دون الحسن والحسين رضي الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عيني، وكنت أنا يديه، فكان يتقي عيني بيديه. وقيل إن أباه علياً رضي الله عنه اشتري درعاً فاستطالها فأراد أن يقطع منها. فقال له محمد: يا أبت علم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدّه أبوه. وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدث بهذا الحديث غضب. مات حنق أنفه بشعب رضوي. عبد الله بن حازم السلمي رضي الله عنه، والي خراسان، شجاع مضر وفارسها في عصره، قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة. وكيع بن أبي سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج والي خراسان، قيل لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه فمات حنق أنفه. مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد، جاد بماله وينفسه، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. عمير بن الحباب السلمي، فارس الإسلام، قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس. مسلمة بن عبد الملك بن مروان، فخلّ بني أمية وفارسها ووالي حروبها، قيل إنه جلس يوماً ليقيضي بين الناس بمصر فكلّمته امرأة، فلم يقبل عليها، فقالت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط. فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: أترين أثر هذا الطعن؟ والله لو أخرجت رجلي قيد شبر ما أصابتي واحدة منهن، وما منعتني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تنحليني قلته. المعتصم بطل شجاع، فارس صنديد، لم يكن في بني العباس أشجع منه ولا أشد قلباً. قال ابن أبي داود: كان المعتصم يقول لي: يا أبا عبد الله عض على ساعدي بأكثر قوتك. فأقول: والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك. فيقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة، فكيف تعمل فيه الأسنان. ويقال إنه طعنه بعض الخوارج وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقسم الرمح نصفين، وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً في العنق. إبراهيم بن الأشتر النخعي كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو في أربعة آلاف، وعبيد الله في سبعين ألفاً فظفر به، وقتله بيده، وهزم جيشه. عبد الله بن الحر الجمفي، شجاع، شاعر فاتك، له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره

في الشجاعة مشهورة. جحدر بن ربيعة العكلي كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيراً، شاعراً، قهر أهل اليمامة، وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب إلى عامله يويخه بتغلب جحدر عليه، ويأمره بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيراً. فوجه العامل إليه فتية من بني حنظلة، وجعل لهم جعلاً عظيماً أن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيراً، فتوجه الفيتة في طلبه، حتى إذا كانوا قريباً منه، أرسلوا يقولون له، إنهم يريدون الانقطاع إليه، والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يوماً، إذ وثبوا عليه فشدوه وثاقاً، وقدموا به على العامل فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر. قال: نعم أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك على ما بلغني عنك؟ قال: أصلح الله الأمير، كلب الزمان، وجفوة السلطان، وجزأة الجبان. قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه. قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه، ثم قال: يا جحدر إنني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم فإن قتلك كفتانا مؤنتك، وإن قتلتك عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى. فأمر به فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ويحمله إليه. فتحيل العامل وارتاد له أسداً كان كاسراً خبيثاً قد أفنى عامة المواشي، فتحيلوا حت أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل. فلما قدموا به على الحجاج أمر به، فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن يتزلوه إليه فأعطوه سيفاً وأنزلوه إليه مقيداً وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر. فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض، ووثب وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال، وارتاعت أهل الأرض، فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول:

ليث وليث في مجال ضنكٍ      كلاهما ذو قوّةٍ وسفكٍ  
وصولتُ وبطشتُ وقتكٍ      أن يكشفَ الله قناعَ الشكِّ

فأنتَ لي في قبضتي وملكي

ثم دنا منه، وضربه بسيفه، ففلق هامته<sup>(١)</sup>، فكبر الناس. وأعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درك ما أنجيك. ثم أمر به فأخرج من الحاجر، وفك عنه قيوده، وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فتكرمك، وتقرب منزلتك، وإما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك، على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثاً، ولا تؤذي بها أحداً. قال: بل اختار صحبتك أيها الأمير، فجعله من سماره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة، وكان من أمره ما كان. المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال، إلا أن المغيرة من بينهم، كان أشد تمكناً، وكان المهلب يقول: ما شهد معي حرباً، إلا رأيت البشري في وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان وفي يده شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قريوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه، وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلبي، واحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكلبي، مصعب بن الزبير. واحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر. ما لقي خيلاً قط إلا فرقها. وراكب البغلة عباد بن الحصين. ما كان قط في كربة إلا فرجها، وهو من فرسان الإسلام، وكان للمهلب في الحروب مكاييد مشهورة، ووقاته أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيداً كريماً، مات حنط أنفه وكذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم:

مات المغيرة بعد طول تعرض لقتل بسن أسنة وصفائح

وكان في الخوارج فوارس مشهورة، لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم بطول ويخرج عما أردناه. فمنهم أبو بلال مردلس خرج في أربعين فهزم ألفين. وشييب الخارجي الذي غرق في الفرات، نذرت امرأته غزاة أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين، تقرأ في الأولى البقرة، وفي الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات، وأدخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها، والحجاج في الكوفة في خمسين ألفاً. ومنهم قطري بن الفجاءة، كان رأس الخوارج، وخطبوه بأمر المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشاعره في الشجاعة تدل على مكانه منها. قتل في بعض وقائع الخوارج.

الطبقة الثالثة: معن بن زائدة الشيباني قتل الخوارج بسجستان في أيام المهدي. الوليد بن طريف الشيباني قتل يزيد بن يزيد. عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه أنه كان يتصيد فتبع حمار وحش، وما زال يركض إلى أن حاذاه فجمع رجليه ووثب من على فرسه، وصار على ظهر حمار الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتل. أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، فارس بطل شاعر، نديم، جامع لما تفرق في غيره، طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهريهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظّم فارسين بطعنوا  
لا تعجبوا لو كان مآد قناتيه  
يوم اللقاء ولا يراه جليلا  
مىلاً إذا نظّم الفوارس مىلا  
وسأله يوماً رجل شيئاً. فقال له: أتسأل وجدك القاتل:

ومن يفتخِر منا يعيش بحساميه  
وإنّا لنلهو بالسيف كما لهت  
ومن يفتخِر من سائر الناس يسأل  
فتاةً بعقدٍ أو سخابٍ قرنفل<sup>(١)</sup>

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله، فبلغ الخبر أبا دلف فقال: دعوه فإنني علمته على نفسي. بكر بن النطاح بطل شجاع، فارس فاتك، له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.

ومما جاء في مدح السيف قال رسول الله ﷺ: الخير في السيف، والخير بالسيف، وكان صمصام<sup>(٢)</sup> عمرو، أشهر سيوف العرب ومن تمثل به نهشل فقال:

أخ ماجد ما خانني يومٍ شهيد  
كما سيف عمرو لم تخنهُ مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلي لم أخنهُ ولم يخني  
خليلي لم أهبه من قلاء  
إذا ما صاب أوساط العظام  
ولكن المسواهب للكرام

(١) سخاب قرنفل: عقد من القرنفل.

(٢) صمصام: سيفه.



جوتُ به كريماً من قريشٍ      فرَّ بهِ وصيْنٌ عن اللثامِ  
وودعت الصفيَّ<sup>(١)</sup> صفيَّ نفسي      على الصمصامِ أضعافَ السلامِ

ولم يزل في آل سعيد، حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه. فلم يزل عند بني مروان، ثم طلبه السفاح، والمنصور والمهدي فلم يجدوه، فجذ<sup>(٢)</sup> الهادي في طلبه حتى ظفر به وكان مكتوباً عليه هذا البيت:

ذكَرَ عليّ ذكَرٌ يَصُولُ بِصَارِمِ      ذَكَرَ يَمَانٍ فِي يَمِينِ يَمَانِي  
وقال ابن الرومي:

لَمْ أَرْ شَيْئاً حَاضِراً نَفْعُهُ      لِلْمِرَّةِ كَالدَّرْهِمِ وَالسَّيْفِ  
يَقْضِي لَه الدَّرْهِمُ حَاجَاتِهِ      وَالسَّيْفُ يَحْمِيهِ مِنَ الْحَيْفِ<sup>(٣)</sup>  
وقال زيد بن علي رضي الله عنهما:

السَّيْفُ يَعْرِفُ عَزْمِي عِنْدَ هَزَّتِهِ      وَالرَّمْحُ بِي خَبِرَ وَاللَّهُ لِي وَزْرُ<sup>(٤)</sup>  
إِنَّا لَنَأْمَلُ مَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا      مِنْ قَبْلِ تَأْتِلِهِ إِنْ سَاعَدَ الْقَدْرُ  
وقال عبد الله بن طاهر:

يَبِيْتُ ضَجِيعِي السَّيْفُ طَوْرًا وَتَارَةً      تَعْضُ بِهَامَاتِ<sup>(٥)</sup> الرِّجَالِ مَضَارِئَهُ  
أَخُو تَقْوَى أَرْضَاهُ فِي الرُّوحِ صَاحِبًا      وَفَوْقَ رِضَاهِ أَنْتِي أَنَا صَاحِبُهُ  
وَلَيْسَ أَخُو الْعِلْيَاءِ إِلَّا قَتَى لَهُ      بِهَا كَلْفٌ مَا تَسْتَمُرُّ رِكَابُهُ

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له: رده عليّ، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين. فقال له عبد الملك: أو تعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أيك، أعرفه بقول الشاعر<sup>(٦)</sup>:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُفْقَهُمْ      بِهِنَّ فُلُوكٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ  
وقال الأجدع الهمداني:

لَقَدْ عَلِمْتُ نَسْوَانَ هَمْدَانَ أَنْتِي      لَهْنٌ غَدَاةَ الرُّوحِ غَيْرُ خَذُولِ  
وَأَبْذُلُ فِي الْهَيْجَاءِ وَجْهِي وَإَنْتِي      لَهُ فِي سَوَى الْهَيْجَاءِ غَيْرُ بَذُولِ<sup>(٧)</sup>

(١) الصفيّ: الخليل ذو الصفاء.

(٢) جذّ: اجتهد.

(٣) الحيف: الجور.

(٤) وزرّ: مؤازر ومعين.

(٥) بهامات: رؤوسهم.

(٦) النابغة الذبياني في الفساسة.

(٧) بذول: أي صائته.

وقال آخر:

عشرون ألف فتى ما منهم أحدٌ      إلا كالف فتى مقدمه بطل  
راحت مزاولدهم مملوءةً أملاً      ففرغوها وأركوها من الأجل

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين وكنت مشغولاً بأخبار العرب أن أسمعاها وأجمعها، فبينما أن أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خباتها، وهي آخذة بيد غلام قلماً رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبع<sup>(١)</sup> المنظوم، وهي تعاتبه بلسان رطب، وكلام عذب، تحن إليه الأسماع، وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها: أي بني وهو يتسم في وجهها، قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جواباً. فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت، فدنوت منه، وسلمت فرد عليّ السلام، فوفقت أنظر إليهما. فقالت: يا حضريّ ما حاجتك، ققلت: الاستكثار مما أسمع، والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضريّ إن شئت سقت إليك من خيره ما هو أحسن من منظره. ققلت: قد شئت يرحمك الله. فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد، حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وأجل أن أضعه، فوضعتة خلقاً سوياً، فوريك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى، وأتى من الرزق بما كفى أغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فربيّ كأنه شبل أسد، أقيه برد الشتاء، وحر الهجير. حتى إذا مضت له خمس سنين، أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده. فلما أن بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل ففرس، وتمرس ولبس السلاح، ومشى بين بويات الحي الخيلاء. فأخذ في قرى الضيف، وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه. فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثار لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق في الحي غيره، ونحن آمنون وادعون إلى أن أدير الليل، وأسفر الصباح، حتى طلعت علينا غرر الجياد، وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، هو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر اشفاقاً عليه، وضناً به إذ علت الأصوات وبرزت المخدرات، رمى دثاره، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لامة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فظعن أديانهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان فأراه صبيّاً صغيراً، لا مدد وراءه. فحملوا عليه فأقبل يؤم البيت ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم، وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهكلن دونه. فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان وحملوا عليه قد رفعوا إليه الأسته وعطفوا عليه بالأعنة. فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الأبل. وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كسبية إلا مزقها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ثم ساق المال، وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً، وأحسن رواحاً<sup>(٢)</sup> من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيات الحي هذه الأبيات:

(١) السبع: الخرز.

(٢) رواحاً: مساءً.

إذا حشرجت نفسُ الجبانِ من الكربِ  
من الخوفِ مسلوبُ العزيمةِ والقلبِ  
من السمهريِّ<sup>(١)</sup> اللدنيِّ والمرهفِ العَضْبِ  
سليلاً المعالي والمكارمِ والسيبِ  
وطرفُ قويِّ الظهرِ والجوفِ والجنبِ  
جبالِ الرواسي لا تحططنَ إلى التربِ  
ويتُّ شريفُ في ذرى ثعلبِ الغلبِ  
لكن وأحميكنُ بالطعنِ والضربِ  
يهينه بالفارسِ البطلِ النذبِ

تألمنَ فغلي هل رأيتنَّ مثله  
وضاقتُ عليه الأرضُ حتى كأنه  
الم أعطِ كلاً حقهُ ونصييهُ  
أنا ابنُ هندِ بنِ قيسِ بنِ مالكِ  
أبي لي أن أعطي الظلامَةَ مرهفُ  
وعزمُ صحيحٌ لو ضررتُ بحلّه الـ  
وعرضُ نقبي أنقسي أن أعيبهُ  
فإن لم أقاتل دونكُنَّ وأحمي  
فلا صدقُ اللاتي مثنينَ إلى أبي

وقال الشاعر:

في الحادثاتِ إذا دجّونَ نجوم<sup>(٢)</sup>  
تجلو اللُجى والأخرياتُ رجوم<sup>(٣)</sup>

أراؤهم ووجوههم وسيوفهم  
منها معالمٌ للهتَى ومصابحُ

وقال آخر:

وليس على غيرِ الرؤوسِ مجالُ  
تشبُّ على أطرافِهِنَّ ذبال<sup>(٤)</sup>

فوارسُ قوّالونَ للخيلِ ائيمي  
بأيديهم سمرُ العوالي كأنما

وقال آخر:

شماً وخلت وجوههم أقماراً  
عدَل الزمانُ عليهم أو جارا  
بذلوا الضوسَ وفارقوا الأعمارا

قوم إذا اقتحموا العجاجَ رأيتهم  
لا يعدلونَ برِفديهم عن سائل  
وإذا الصُريخُ دعاهم لملئوة

ذكر الجبين، والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم: قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال». نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ. ويكنفك أن يقال في وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فواده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذئب، ان نظرت إليه شزراً أغمي عليه شهراً، يحسب خفوق الرياح قعقة الرماح قال الشاعر:

وليتَّ حديدُ النابِ عند الثرائدِ

إذا صوّت العصفورُ طار فوادهُ

(١) السمهري: نوع من السيوف.

(٢) دجت الحادثات: أظلمت.

(٣) رجوم: صخور للرجم.

(٤) ذبال: قتال مشتعلة.

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه من الجبناء. روي عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق، فأتاهم في ذلك اليوم يهودي يطوف بالحصن. فقالت صفيّة بنت عبد المطلب رضي الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن، وأناي والله ما آمنه أن يدلّ على عوراتنا من وراءه من اليهود. فأنزل إليه فاقته. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قال: فاعتجرت صفيّة ثم أخذت عموداً ونزلت من الحصن فضرته بالعمود حتى قتله ورجعت إلى الحصن. فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه فإنه ما معني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

وقيل: كان لفتى من قريش، جارية مليحة الوجه، حسنة الأدب، وكان يحبها حباً شديداً فأصابته إضاقه وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوَقعت منه بمترلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريباً منه. وأحسن إليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه، وكان الفتى جسيلاً فجعلت الجارية تسارقه النظر فظن الحجاج بها فوهبها له، فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس<sup>(١)</sup> فأصبح لا يدري أين هي. وبلغ الحجاج ذلك فأمر منادياً أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة، من صفتها كذا وكذا، ولم يحضرها. فلم يلبث أن أتى له بها. فقال لها الحجاج: يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إليّ، فاخترت لك ابن عمي شاباً حسن الوجه، ورأيتك تسارقيه النظر فعلمت أنك شغفت به فوهبتك له، فهربت من ليك. فقالت: يا سيدي اسمع قصتي ثم اصنع بي ما شئت. قال: هاتي ولا تخفي شيئاً. قالت: كنت للفتى القرشي فاحتاج إلى ثمني فحملني إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا مني فوقع عليّ فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه. ثم أقبل عليّ وما يرد ما عنده، ثم قضى حاجته. وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليّ، فلما علا بطني وقعت فارة من السقف، فضرط ثم غشي عليه. فمكث زماناً طويلاً وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق. فخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعاً منك، فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكلمي هذا، ولا تعلمي به أحداً. قالت: على أن لا تردني إليه، قال: لك ذلك...

وحلّت جار لأبي حنيفة النميري قال: كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه<sup>(٢)</sup> وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حساً في داره وهو يقول: أيها المعتربنا، المجترى علينا بش والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل وهو لعاب المنية، الذي سمعت به، أخرج بالعمو عنك، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك. ثم فتح الباب على وجل فإذا كلب قد خرج فقال: الحمد لله الذي مسحك كلباً وكفناً حربياً. وخرج المعتصم يوماً إلى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه: أفيك خير يا رجل؟ قال: لا. فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان. ورأى الاسكندر سميّاً له، لا يزال ينهزم. فقال له: يا رجل إما أن تتغير فملك وأما أن تتغير اسمك. ووقع في بعض العساكر ضجة فوثب خراساني إلى دابته ليلجمها، فصير اللجام في الذنب من الدهش. وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت فاصيتك كيف طالت.

(١) بغلس: ظلمة آخر الليل.

(٢) انتضاه: استله كهية المبارز.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس وكان مرداس في أربعين رجلاً فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك، وذمه ابن أبي زياد فقال: لأن يذمني ابن أبي زياد حياً أحب إليّ من أن يمدحني ميتاً. وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومرّ بصبيان صاحوا به: أبو بلال وراك. فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفي ذلك يقول بعضهم شعراً:

يقولُ جبانُ القومِ في حالِ سكرِهِ	وقد شربَ الصهباءُ <sup>(١)</sup> هل من مبارزِ
وأين الخيولُ الأعوجياتُ <sup>(٢)</sup> في الوغى	أنازلُ منهم كلَّ مناهزِ
ففي السكرِ قيس، وابن معلي وعامرِ	وفي الصحو تلقأه كبعضِ العجائزِ

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والحمد لله الكريم الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين والحمد لله رب العالمين.

(١) الصهباء: الخمر.

(٢) الأعوجيات: فرسٌ أصلية.

## الباب الثاني والأربعون: في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

### الفصل الأول: في المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتاً حميداً. وهذا يصح من المولى في حق عبده. فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقْتَ عَظِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾<sup>(٣)</sup> إلى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة. وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتهم فاحشوا في وجوههم التراب»، فقد قال العتيبي: هو المدح الباطل والكذب. وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به، وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ، ولم ييلفتنا أنه حثا في وجه مادمح تراباً. وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم. وفي حثو التراب معنيين؛ أحدهما التغليظ في الرد عليه، والثاني كأنه يقال له يكفيك التراب. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت اعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، واللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ومدح سارية الديلي رسول الله ﷺ وهو سارية الذي أمره عمر رضي الله عنه على السرية، وناداه في خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله:

فما حملت من ناقية فوق ظهرها  
أبى وأوفى ذمّة من محمد  
وهو أصدق بيت قالته العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله:

وأحسن منك لم تر قط عيني  
وأجمل منك لم تكذب الناء  
خلفت مبراً من كل عيب  
كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن ربيعة الأنصاري رضي الله عنه قوله:

لو لم تكن فيه آيات مينة  
كانت بديهته تتيك بالخبر

ولما حججت وزرتك ﷺ تطلعت على جنبه المعظم وامتدحته بأيات مطوّلة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة، تجاه الصندوق الشريف، وأنا مكشوف الرأس وأبكي من جمعتها:

(١) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٢) سورة: القلم، الآية: ٤.

(٣) سورة: المؤمنون، الآيتان: ١ - ٢.

يا سيّد الساداتِ جُشِكَ قاصداً  
 والله يا خيرَ الخلائقِ إنّ لي  
 ووحقّ جاهك إنني بك مغرّمٌ  
 أنتَ الذي لولاكَ ما خُلِقَ امرؤُ  
 أنتَ الذي مَنْ نُورُكَ البدرُ اكتسى  
 أنتَ الذي لما رُفِعَتْ إلى السَّمَا  
 أنتَ الذي ناداكِ رُبُّكَ مرحباً  
 أنتَ الذي فينا سألْتَ شفاعةً  
 أنتَ الذي لما توسَّلَ آدمُ  
 وبِكَ الخليلُ دعا فعادتْ نازُهُ  
 ودعاكَ أيُّوبُ لضراً سَأَهُ  
 وبِكَ المسيحُ أتى بشيراً مخبراً  
 وكذلك موسى لم يَزَلْ متوسِّلاً  
 والأنبياءُ وكلُّ خلقِ في الوري  
 لك معجزاتٌ أعجزتْ كلَّ الوري  
 نطقَ الذراعِ بسمه لك معلناً  
 والذئبُ جاءكِ والغزاةُ قد أتتْ  
 وكذا الوحوشُ أتتْ إليك وسلَّمتْ  
 ودعوتْ أشجاراً أتتْكَ مطيعةً  
 والماءُ فاضَ بِراحَتَيْكَ وسَبَّحتْ  
 وعليكِ ظلَّلتِ الغمامةُ في الوَرَى  
 وكذلك لا أترُ لمشيِّكَ في الثُّرى  
 وشفيتْ ذا العاهاتِ من أمراضِهِ  
 ورددتْ عينَ قتادةٍ بعدَ العَمَى  
 وكذا حبيبٌ وابنُ عفرا عندما  
 وعليّ من رَمَدٍ به داوَيْتُهُ  
 وسألْتَ ربُّكَ في ابنِ جابر بعدما

أرجو رضاكَ واحتمي بِحِمَاكَ  
 قلباً مشوقاً لا يرومُ سواكَ  
 والله يعلمُ أنني أهواكَ  
 كلاً ولا خُلِقَ الوري لولاكَ  
 والشمسُ مشرقةً بنورِ بَهَاكَ  
 بكِ قد سمَّتْ وتزَيَّنتْ لسراكَ<sup>(١)</sup>  
 ولقد دعاكَ لقريبهِ وَجَّهَاكَ  
 ناداكِ ربُّكَ لم تكن لسواكَ  
 من ذنبي بِكَ فازَ وهو أبَاكَ  
 بزداً وقد خَمَدتْ بنورِ سناكَ<sup>(٢)</sup>  
 فأزبل عنه الضرُّ حينَ دَعَاكَ  
 بصفاتِ حُسْنِكَ مادِحاً لِعَلاكَ  
 بكِ في القيامةِ مرتججٌ لنداكَ  
 والرسُلُ والأملأُ تحتَ لِواكَ  
 وفضائلُ جَلَّتْ فليسَ تحاكي  
 والضبُّ قد لبَّأكَ حينَ أتَاكَ  
 بكِ تستجيرُ وتحتمي بِحِمَاكَ  
 وشكَا البعيرُ إليك حينَ رَاكَ  
 وسَمَّتْ إليك مَجِيئةً لِنِداكَ  
 صمٌ<sup>(٣)</sup> الحمصُ بالفضلِ في يمنَاكَ  
 والجذعُ حنَّ إلى كريمِ لفاكَ  
 والصخرُ قد غاصَّتْ به قلماكَ  
 وملأتْ كلَّ الأرضِ من جَدِواكَ<sup>(٤)</sup>  
 وابنُ الحصينِ شفيتُهُ بشفاكَ  
 جَرَحَا شفيتُهُما بلمسِ يداكَ  
 في خيرِ ففسي بطيبِ لِمَاكَ<sup>(٥)</sup>  
 قد ماتَ أحياءُ وقد أرضَاكَ

- (١) تزيت لسراكا: أي ياسراه النبي ﷺ.
- (٢) بنور سناكا: نورك.
- (٣) صمٌ: التي لا تسمع.
- (٤) جدواكا: عطايك.
- (٥) اللمي: سمرة بالشفاء.

نشفت فدرت من شفا ريقا<sup>(١)</sup>  
فانهل قطر السحب عند دعاكا  
دعواك طوعاً سامعين نداكا  
ورفعت دينك فاستقام هناكا  
صزعى وقد حرموا الرضا بجفاكا  
من عند ربك قاتلت أعداكا  
والنصر في الأحزاب قد وافاكا  
وجمال يوسف من ضياء سناكا  
نوراً فسبحان الذي سواكا  
في العالمين وحق من ثناكا  
عجزوا وكلوا عن صفات علاكا  
وأنى الكتاب لنا بمدح حلاكا  
أن يجمع الكتاب بين معناكا  
والعشب أقلام جولن لذاكا  
أبدأ وما استطاعوا له إدراكا  
وحشاشة<sup>(٢)</sup> محشوة بهواكا  
وإذا نطقت فادع علياكا  
وإذا نظرت فلا أرى إلاكا  
إنى قير في الورى ليناكا  
جذ لي بجودك وارضي برضاكا  
لابن الخطيب من الأنام سواكا  
فلقد غدا متمسكاً بأكراكا  
ومن التجا لحماك نال وفاكا  
فمسى أرى في الحشر تحت لواكا  
ما حن مشتاق إلى مشواكا  
والتابعين وكل من والاكا

ومسنت شاة لأم معبد بعدما  
ودعوت عام المحل ربك معلناً  
ودعوت كل الخلق فاتقادوا إلى  
وخفضت دين الكفر يا علم الهدى  
أعداك عادوا في القلب بجهلهم  
في يوم بدر قد أتتك ملائك  
والفتح جاءك يوم فتحك مكة  
هوذ ويونس من بهاك تجملاً  
قد قنت يا طه جميع الأنبياء  
والله يا ياسين مثلك لم يكن  
عن وصفك الشعراء يا مثير  
إنجيل عيسى قد أتى بك مخبراً  
ماذا يقول المادحون وما عسى  
والله لو أن البحار مدادهم  
لم تقدر القلان تجمع ذرة  
لي فيك قلب مغرم يا سيدي  
فإذا سكت فيك صمتي كله  
وإذا سمعت فمك قولاً طيباً  
يا مالكي كن شافعي من فاقتي  
يا أكرم القليلين يا كنز الورى  
أنا طامع في الجود منك ولم يكن  
فمساك تشفع عند يوم حسابي  
ولانت أكرم شافع ومشفع  
فاجعل قرأى شفاعتي لي في غد  
صلى عليك الله يا خير الورى  
وعلى صحابك الكرام جميعهم

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدح الله تعالى، وأثنى عليه وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، والله لو أن البحار مداد، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتاب، لما استطاعوا أن يجمعوا التز (٣) اليسير من

(١) الرقية: الدعاء.

(٢) الحشاشة: بقية النفس.

(٣) التز: القليل.



بعض صفاته، ولكلوا عن الأتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ. ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له: يا هذا إنه قد نهي عن مدح الرجل في وجهه. فقال: ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكراً. فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسي فيما أتعاطى من مدحك كالمخير عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أنني حيث أنتهى بي القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية. فانصرفت عن الثناء عليك، إلى الدعاء لك، وولت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ربيعة في رجل من آل المهلب:

فسي دهره شطران فيما ينوئه      فسي بأبيه شطرٌ وفي جوده شطرٌ  
فلا من بفاة الخير في عينه قذئ      ولا من زئير الحرب في أذنيه وقر<sup>(١)</sup>

وقال أعرابي لرجل: لا يذم بلد أنت تأويه<sup>(٢)</sup>، ولا يشتكي زمان أنت فيه. وكان الحجاج يستقل زياد بن عمرو العكلي، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذي يسقي منه ذلك البستان. وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة في اللغة: أنت والله عين الدنيا. فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقيفي:

قومٌ إذا نزل الغريبٌ بدارهم      تركبوه ربّ صواهل<sup>(٣)</sup> وقيان  
وإذا دعوتهم ليوم كريبهؤ      سلّوا شعاع الشمس بالفرسان

وقال أوس بن حاتم الطائي:

فإن تنكحي مارية الخير حاتماً      فما مثله فينا ولا في الأعاجم  
فسي لا ينزال الدهرُ أكبرَ همِّه      فكاك أسير، أو معونة غارم

وقال ابن حمدون في آل المهلب:

آل المهلبِ مَنَشَرٌ أمجادُ      ورثوا المكارمَ والوفاء فسَادوا  
شادَ المهلبُ ما بنى أباه      وأتى بئوه ما بآءُ فسَادوا  
وكذلك مَنْ طابَتْ مفارسُ نَبه      وبنى له الآبَاءُ والأجدادُ

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة. فلما سجن ونقب له السجن، وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق:

ولما رأيتُ الأرضَ قد سدَّ ظهرُها      ولم يسقَ إلا بطئها لك مخرجاً  
دعوتُ الذي ناداه يونسٌ بعدما      ثوى<sup>(٤)</sup> في ثلاثِ مظلماتٍ ففرجاً

(١) الوقر: ثقل السمع.

(٢) تأويه: نسكته وترعاه.

(٣) صواهل: الأفراس.

(٤) ثوى: رقد.

قال ابن هيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميراً، ومدحني أسيراً. وقال سري بن عبد الرحمن الرقاء في خالد بن حاتم:

يا واحدَ العربِ الذي دانتَ له  
إنِّي لأرجو إن لقيتْكَ سالماً  
وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم:

يا آلَ هاشمِ الإلهِ جاكُمُ  
قومٌ لأصلِهِم السيادةُ كلُّها  
وقال الحسين بن دعبل الخزاعي:

ملكَ الأمورَ بجودهٍ وحسامِهِ  
فأطاعَ أمرَ الجودِ في أموالِهِ  
وقال آخر:

يلقى السيوفَ بصلدهِ وينحرِهِ<sup>(١)</sup>  
ويقولُ للطرفِ اصطبرِ لسنى القنا  
وإذا تراءى شخصٌ ضيفٍ مقبلِ  
أومى إلى الكوماءِ هذا طارقُ  
وقال شاعر بني تميم:

إذا لبسوا عمائمَهُم طروها  
يبعُ ويشترى لهم سواهم  
إذا ما كنتَ جارَ بني تميمِ  
وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرته الوفاة وأهلها مجتمعون: من ذا الذي يقول:

لعمري ما رماحُ بني نميرِ  
بطائشةِ الصدورِ ولا القصارِ<sup>(٢)</sup>

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالي. وكان مالاً كثيراً. وأثنى رجل على رجل فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدث، وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وأمسكهم عن الملاحاة<sup>(٣)</sup> إذا خولف يعطي صديقة النافلة، ولا يسأل الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة على المعالي، مقصورة كالذهب الإبريز الذي يمز كل أوان، والشمس المنيرة التي لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضيء للبحيران والمنهل العذب للمعشان، وقال الحسن بن هانئ:

(١) النحر: أعلى الصدر.

(٢) القصار: أصل العتق.

(٣) الملاحاة: المراء والجدال الفارغ.

فأنت كما تشي وفوق الذي تشي  
لغيرك إنساناً فأنت الذي تعني

إذا نحنُ أئينا عليك بمصالح  
وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحاً

وله في الفضل بن الربيع:

ما أن ترى خلفها الأبصار مطرحاً<sup>(١)</sup>  
بجوود كَفُّكَ تأسُو كلُّ ما جرحا

لقد نزلت أبا العباس منزلةً  
وكلت بالدهر عيناً غير غافلةً

وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي:

بمحمد بن القاسم بن محمد  
يا قرب سورة سؤود من مولد

إن المنابر أصبحت مخالفةً  
قآد الجيوش لسبع عشرة حجةً

ومن بدائع مدائح المتبي قوله:

فما كليب وأهل الأعصر الأول  
في طلعة البدر ما يفتيك عن زحل  
فإن وجدت لساناً قائلاً قفل

ليت المدائح تستوفي مناقبه<sup>(٢)</sup>  
خُذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به  
وقد وجدت مكان القول ذا سعة

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفاً، وخلع عليه خلعاً ستيه، حتى أنه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه. فجمعهم وقال: يا الله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض، إن أحدكم يأتينا لمدحنا فيتزول في قصيدته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره. وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات سيرة ثم قال:

لما علقنت من الأمير جبالا  
جعلوا له حرّاً الوجوه نعالا  
قطعنت إليك سباسباً<sup>(٣)</sup> ورمالا  
وإذا صدزنا بنا صدزنا قالا

إنني أمنت من الزمانِ وصرفه  
لو يستطيع الناس من إجلاله  
إن المطايا تشتكيك لأنها  
فإذا وردن بنا وردن خفافاً

ووقد أبو نواس على الخصيب بمصر فأذن له وعند الشعراء، فأشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشد. فأشده قصيدته التي منها قوله:

فأي فتى بعد الخصيب تزور  
ويعلم أن البدائرات تدور  
ولكن ييسر الجود حيث ييسر

إذا لم تزور أرض الخصيب ركبنا  
فتى يشتري حسن الثناء بماله  
فما فاتة جود ولا ضلّ دونه

فاهتر الخصيب لها طرباً وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

(١) مطرحاً: متزلاً ومرمى.

(٢) مناقبه: حسناته.

(٣) سباسباً: مسافات بعيدة.

وحكي أن أبا دلف سار يوماً مع أخيه معقل فرأيا امرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف.  
قالت: نعم، الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلفٍ      بين بايديّ ومحتضره  
فإذا لسى أبو دلفٍ      ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه. فقال له معقل: ما لك يا أخي تبيكي؟ فقال: لأنني لم أقض حق الذي قال هذا. قال: أو لم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال هذه المدحة فأين المنحة؟ قال بعضهم:

إذا ما المدحُ صارَ بلا نوالٍ      من الممدوحِ كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار. ثم مات محمد بن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصدته محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعذتُ عنكم حرمةً لا زهادةً      وسرتُ إليكم حين منّي الضرُّ  
فجاد أبو نصرٍ بألفٍ تصرّمت      وأني عليهم أن سيخلفها نصرُّ

فلما فرغ من إنشادها قال نصر؛ والله لم قال سيضاعفها نصر لاضعفتها له وأعطاه ألف دينار في طبق من فضة. ومدح بعض الشعراء، وقيل هو البديع الهمداني إنساناً فقال:

يكاد يحكيه صوبَ الغيثِ منكباً      لو كان طلقَ الميّا يطرُ الذهبا  
والدهرُ لو لم يَخْرُنْ والشمسُ لو نطقت      والليثُ لو لم يصد والبحرُ لو عذبا

وقال آخر:

أخو كرمٍ يفضي الورى من بساطِهِ      إلى روضٍ مجدٍ بالسماحِ مجودِ  
وكم لجباةِ الراغيينَ لذَيِّهِ من      مجالِ سجودِ في مجالسِ جودِ

ويقال: فلان رفيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزله، وغرة الدهر وتحجيلة، مواهبه الأنواء، وصدرة الدماء، عونة موقوف على اللهيف، وغوثه مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمته على قدرته، ينايع الجود تنجر من أنامله، وريع السماح يضحك عن فواضله، إن طلبت كريماً في جوده، مث قبل وجوده، أو ماجداً في أخلاقه مث ولم تلاقه، بأسل تعوّد الإقدام، حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام<sup>(١)</sup> عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفى كدورته، خلق كنسيم الأسحار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام، وأبهج من نور البدر في الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته، ويؤلف الآراء المتشقة في مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خرجت. يحلّ دقائق الإشكال، ويزيل جلال الأشكال. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحى التوفيق إلى صدره، وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يعث

(١) الإحجام: النكوص والتردد.

بالكلام ويقوله بألین زمام، حتى كان الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتفاير في الإمثال لأوامره، يوجز فلا يخل، ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو آيس، ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس. فهو إذا أنشأ وشى، وإذا عبر حبر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام، وياهت في يمينه الأفلام، له أدب لو تصوّر شخصاً لكان بالقلوب مختصاً قال الشاعر:

له خَلَقَ على الأيام يصفو      كما تصفو على الزمن العقار<sup>(١)</sup>

وقال آخر:

لو كان يحوي الروض ناضراً خليفه      ما كان يذبل نوره بشتائه  
أو قابِلُ الأفلاك طالعُ سعديه      ما صار نحسٌ في نجوم سمائه

وقال آخر:

ووجهك بدرٌ في الغياهب<sup>(٢)</sup> مشرقٌ      وكثك في شهب السنين غمامٌ  
عجيبٌ لبدرٍ لا يزالُ أمامهُ      سحابٌ ولا يفشأُ منه ظلامٌ  
وأعجبٌ من هذا غمامٌ إذا سطا      تلظى مكانِ البرقِ منه حسامٌ

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

له يومٌ بؤسٍ فيه للناسِ أبؤسٌ      ويمطرُ يومَ الجودِ من كفه الندى  
فلو أن يومَ البؤسِ خلى عقابهُ      على الناسِ لم يصبخِ على الأرضِ مجرمٌ  
ولو أن يومَ الجودِ خلى يمينه      عن المالِ لم يصبخِ على الأرضِ معدمٌ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

والله ما عَجِبِي لقلبكِ إنه      قدّر على باغي مداهُ بعيدُ  
إلا لكوزكِ لستِ تشكو وحشةً      في هذه الدنيا وأنتِ وحيدُ

ولصفي الدين الحالي:

أنتي فتينبي<sup>(٣)</sup> صفاتك مظهرأ      عيا وكم أعبت صفاتك خاطبأ  
لو أنسي والخلقُ جمعاً السن      تنسي عليكِ لما قفينا الواجبا

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أوصافكم تجري أحاديثها      مجرى النجومِ الزهرِ في الأفقِ

(١) العقار: الخمر العتيقة.

(٢) الغياهب: الظلمات.

(٣) أنتي: أطري. وتئيني: تمنعني.

تسندُها الركبانُ من طرق

كما أحاديثُ الندى عنكم

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

كفت بلسانِ الحالِ عن السنِّ الحميدِ  
وخلقك عن سهلٍ ورأيك عن سعدِ

رَوَتْ عنكَ أخبارُ المعالي محاسنا  
فوجهك عن بشرٍ وكُفك عن عطا

وقال غيره:

تروي أحاديثَ ما أوليتَ من مننِ  
والقلبُ عن جابرٍ والسنُّ عن حسنِ

من زادَ بابك لم تبرحْ جوارحهُ  
فالعينُ عن قررةٍ والكفُّ عن صلوةٍ

ولأبي فراس بن حمدان:

ومزمارٍ وطنبورٍ وعمودِ  
لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجودِ

لئن خلقتُ الأنامُ لحب كاس  
فلم يُخلقُ بنو حمدانَ إلا

وقال آخر:

مطروقةٌ وندى كفتيك مبتكرُ  
له طريقٌ إلى العلياء مختصرُ

إن الهباتِ التي جادَ الكرامُ بها  
ما زلتَ تسبقُ حتى قال حاسدُكم

ولمحمد بن مناذر في آل برمك:

فيا طيبَ أخبارٍ وأحسنَ منظرِ  
وأخرى إلى البيتِ العتيقِ المنورِ  
بيحيى وبالفصلِ بن يحيى وجعفرِ  
وأقدمهم ألا لعمري مظفرِ  
وناهيك من راجٍ له ومدبرِ

أتانا بنو الأملاكِ من آلِ برمكِ  
لهم رحلةٌ في كلِّ عامٍ إلى النُدا  
إذا نزلوا بطحاء<sup>(١)</sup> مكةَ أشرقَتْ  
فما خلقتُ إلا لجودِ أكفُّهم  
إذا رام يحيى الأمرَ ذلت صعايبه

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشده:

فأغثوا بك من بعد العجف  
وحرمناك بذنب قد سلف  
وامض مصحوباً فما منك خلف  
حيثما صرفه الله انصرف

ليت شعري أي قوم أجذبوا  
نظر الله لهم من يتنا  
يا أبا إسحاق سرفي دعة<sup>(٢)</sup>  
إنما أنت ربيع باكر

وقال آخر:

(١) بطحاء: مسيل مكة ووادئها.

(٢) دعة: هناة.

قوم لقييل اقمعدوا يا آل عباس  
إلى السماء فأتتم سادة الناس

لو كان يعقد فوق الشمس من كرم  
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا  
وللحسن بن مطير الأسدي في المهدي:

ما كان في الناس إلا أنتَ معبودُ  
لا بل يمينك منها صور الجودُ  
في السود طراً إذن لا يبيضتِ السودُ

لو يعبدُ الناسُ يا مهدي أفضلهم  
أضحكت يمينك من جود مصورة  
لو أن من نوره مثقال خردلوة

وقال آخر:

ويررتني حتى رأيتك والدا  
ما كنت إلا راعماً لك ساجدا

أوليتني نعماً وفضلاً زائداً  
أقسمت لو جاز السجود لمنعم

وقال آخر:

وحظك في الدنيا جزيل موقر  
رعى الله كفاً فيه بحر وأنهر  
فلا زالت الحساد تغيب<sup>(١)</sup> وتصفر  
لأنسي قبير والفقير مقصر

ثاوك في الدنيا من المك أعطر  
وكألك بحر والأنامل أنهر  
أعيدك بالرحمن من كل حاسد  
لساني قصير في مديحك سيدي

### الفصل الثاني: في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلاق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدائها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك. والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾<sup>(٢)</sup> أي أيقنوا أنها من الله. وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقد روي أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من عندك. فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال: الشكر على الشكر أتم الشكر. ولحمود الوراق:

علي له في مثلها يجب الشكر  
وإن طالت الأيام وأنصل العمر  
وإن مس بالضره أعقبها الأجر  
تضيئ بها الأوهام والسر والجهر

إذا كان شكري نعمة الله نعمة  
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلِهِ  
إذا مس بالسر<sup>(٣)</sup> عم سرورها  
فما منهما إلا له فيه نعمة

وفي مناجاة وفعلت موسى عليه السلام: إلهي خلقت آدم بيديك، وفعلت فكيف أشكرك؟ فقال: اعلم أن ذلك

(١) تغيب: تظهر غيبة.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٥٣.

(٣) السراء: الخير والسرور.

مني فكانت معرفته بذلك شكره لي. وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾<sup>(١)</sup> وروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعمة شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذكروا النعم فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذي في الجوارح. فقد قال الله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾<sup>(٢)</sup> الآية فجعل العمل شكراً.

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماءه، فقيل له: يا رسول الله ﷺ، أتفعل هذا بنفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً! وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم قلت له: يرحمك الله، ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرتهم، وإذا رأيت بهما شراً سترته. قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيتهم. وفي حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق، مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر. فقال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾<sup>(٣)</sup> وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان، علمنا أنه قد أحل بالشكر، إما إنه لا يزيك ماله، أو يزيك لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل في قول النبي ﷺ «لو صدق السائل ما أفلح من رده». قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾<sup>(٤)</sup> وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء: من أعطى أربعاً، لم يمنع من أربع؛ من أعطى الشكر لا يمنع المزيد. ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول. ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة. ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال المغيرة بن شعبه: اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت. وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها. كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها. وروى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على رية فافتقروا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم.

ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبي الله أنا على قدرتي أشكر الله منك. وكان راجباً على فرس ذلول<sup>(٥)</sup> فخر ساجداً لله تعالى، ثم قالت: لولا أنني أبجلك لسألتك أن تترع مني ما أعطيتني. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام في محرابه إذا مرت به دودة فتصكر في خلقها، وقال: ما يعبا الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقالت: يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكرك الله وأشكرك له منك على ما آتاك. وقال

(١) سورة: الضحى، الآية: ١١.

(٢) سورة: سبأ، الآية: ١٣.

(٣) سورة: إبراهيم، الآية: ٧.

(٤) سورة: الرعد، الآية: ١١.

(٥) فرس ذلول: فرس سهل القيادة.



علي رضي الله عنه: احذروا نفار النعم فما كل شارد<sup>(١)</sup> مردود. وعنه عليه السلام: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر». وقيل: إذا قصرت يداك على المكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشعر ثلاث منازل؛ ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادتُكُمُ النعماءُ مني ثلاثة      يدي ولساني والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه. وأنشد أبو العباس بن عمارة في المعنى:

أعاركَ ماله لتقوم فيه      بواجبه وتقضي بعض حقه  
فلم تقضد لطاعته ولكن      قويت على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أن لي في كل منبت شعرة      لساناً يطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المن. وروي: إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. وسئل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس، وجارية حسناء ترف إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها. وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعت الأمور. فقلت: يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأنشدته:

لأشكرن لك معروفاً هممت به      فإن همك بالمعروف معروف  
ولا الوؤمك إن لم يمض قدر      فالشر بالقدر المحتوم مصروف

وقال أبو فراس بن حمدان:

وما نعمة مكفورة قد صنعتها      إلى غير ذي شكر تمنعني أخرى  
سأتي جيلاً ما حييت فإنني      إذا لم أفد شكراً أفدت به أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة. فإذا فقدت عرفت. وقيل: من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تيممة<sup>(٢)</sup>. وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللئيم فإنه يمتزلة الأرض السبخة<sup>(٣)</sup>، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعه إليه إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لسلمة:

(١) شارد: تائه.

(٢) تيممة: رقبة وجرز.

(٣) الأرض السبخة: المالحة لا تصلح لزراع.

أسلمة يا فخر كل خليفة  
شكرتكَ إنَّ الشكرَ ذينُّ على الفتى  
ويا فارسَ الدنيا ويا جبلَ الأرض  
ولكنَّ بعضَ الذكْرِ أنبهُ من بعضِ  
وما كلُّ مَنْ أوليتُهُ نعمةً يقضي

وسمعه الرشيد، فقال: هكذا يكون شعر الإشراف؛ مدح صاحبه ولم يضع نفسه. وعن نصر بن سيار عن  
عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه  
استجيب له». ثم قال نصر: اللهم إني أنعمت على بني سام فلم يشكروا اللهم اقلهم، فقتلوا كلهم. وعن علي بن  
الحسين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما  
يعطي الصائم القائم، إن الله شاكِر يحب الشاكِرين». وعن محمد بن علي: ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من  
الله، إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمد عليها. ولا أذنب عبد ذنباً فعلم أن الله قد أطلع عليه، إن شاء غفر له، وإن  
شاء أخذه قبل أن يستغفره، إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وأولى رجل رجلاً إعرابياً خيراً فقال: لا أبلاك الله ببلاء  
يعجز عنه صبرك. وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأنشد بعضهم وأجاد:

سأشكرُ لا أني أجازيك منعماً  
وأذكرُ إماماً لديّ اصطفتها<sup>(١)</sup>  
بشكري ولكن كي يزداد لك الشكرُ  
وأخر ما يبقى على الشاكِر الذكِرُ

وقال آخر:

أوليتني نعماً أبوحُ بشكرها  
فلاشكرنك ما حبيت وإن امت  
وكفيتني كلَّ الأمور بأسرها  
فَلتَشكرنك أعظمي في قبرها

وقال آخر:

إيا ربُّ قد أحسنتَ عوداً وبدأةً  
فمَنْ كانَ ذا عنبرٍ لديكَ وحجوً  
إليّ فلم ينهضنْ بإحسانك الشكرُ  
فمعدري إقرارِي بأنَّ ليسَ لي عنزُ

وقال محمود الوراق:

إلهي لك الحمدُ الذي أنتَ أهلكُ  
إن ازددتُ تقصيراً تزدني تفضلاً  
على نعم ما كنتُ قطُّ لها أهلاً  
كأنني بالتقصيرِ استوجبُ الفضلاً

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله:

فماجؤوا وأثنوا بالذي أنتَ أهلكُ  
ولو سكوا أثنتُ عليك الحقائقُ

وقال رجل من غطفان:

الشكرُ أفضلُ ما حاولتُ ملتماً  
به الزيادةُ عندَ الله والناسِ

قيل: أشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

(١) اصطفتها: أنعمت فيها عليّ.

### الفصل الثالث: في المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له». ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه. فقيل له: يا رسول الله، لو تركتنا كفيلاك. فقال: كانوا لأصحابي مكرمين. وقيل أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

أذكر صنيعي إذا فاجأك<sup>(١)</sup> ذو سفهٍ يومَ السقيفةِ والصدِّيقُ مشغولٌ

فقال عمر بأعلى صوته: ادن مني فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال: ألا إن هذا ردّ عني سفيهاً من قومه يوم السقيفة. ثم حملة على نجيب وزاد في عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»<sup>(٢)</sup>. وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة: يدي عندك بيضاء. قال: وما هي؟ قال: كتبت بك فرسك فتقدمت إليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء. قال: فأين كنت إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك. قال: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم وبما يملكه الحاجب إذا حجبتك عنّا.

وقال: قطري بن الفجاءة الخارجي أمره الحجاج ثم منّ عليه فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدوّ الله. فقال: هيات شديداً مطلقها وأرق رقة معتقها. ثم قال:

أقاتل الحجاجَ عن سلطانِهِ      يدي تقرأ بأنها مولائهُ  
ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءهُ      في الصفِّ واحتججتُ له فعلاهُ  
أقولُ جازَ عليّ لا إنسي إذا      لأحسُّ مَنْ جارت عليه ولائهُ  
وتحدّث الأقبامُ أنّ صنائعاً      عرست لذيّ فحفظتُ نخلاتهُ<sup>(٣)</sup>

واجتاز الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين فسقط سوطه، فقام إنسان فأخذه ومسحه وناوله إياه. فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنائير. قال: ادفعها إليه، واعتذر له. واستشدد عبد الملك عامر الشعبي فأنشده لغير ما شاعر، حتى أنشد لحسان:

مَنْ سرّه شرفَ الحياةِ فلم يزلْ      في عصبو من صالحِ الأنصارِ  
البائعين نفوسَهُم لنييهِم      بالمشرفي<sup>(٤)</sup> وبالقنا الخطارِ  
الناظرين بأعينٍ محمّرةٍ      كالجمرِ غيرِ كليلِ الأبصارِ

فقام أنصاري فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلّة، عليّ له ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها. فقال عبد الملك: وله عندي ستون ألفاً، وستون من الإبل. وعن عليّ كرم الله وجهه: أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم. وقال المدائني: رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأته ماشياً في سفر فسأته

(١) فاجأك: فاجأك سفيه.

(٢) سورة: الرحمن، الآية: ٦٠.

(٣) نخلاته: صارت كالحنظل المر.

(٤) المشرفي: السيف.

عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشي الناس فكان حقاً على الله أن يرجلني<sup>(١)</sup> حيث يركب الناس.

ومما جاء في المكافأة: ما حكى عن الحسن بن سهل قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لأحكام أمر من أمور الرشيد. فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبي خالد الأحول. فنظر يحيى إليه والنفت إلى الفضل ابنة وقال: يا بني، إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً فإذا فرغت من شغلي هذا فذكرني أحدثك به، فلما فرغ من شغله وطعم، قال له الفضل: أعزك الله يا أبي أمرتي أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول. قال: نعم يا بني، لما قدم أبوك من العراق ليلم المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً، فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي مَنْ في منزلي إننا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتات به. قال: فبكيت يا بني لذلك بكاء شديداً، وبقيت ولهان حيران مطرقاً مفكراً، ثم تذكرت منديلاً كان عندي، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا. فقلت: ادفعوه إليّ. فأخذته ودفعتة إلى بعض أصحابي وقلت له: به بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهماً دفعتها إلى أهلي، وقلت: انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها. ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف على دارة يتظنون خروجه، فخرج عليهم راكباً، فلما رأيته سلم عليّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهماً. فنظر إليّ نظراً شديداً وما أجابني جواباً؛ فرجعت إلى أهلي كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد. فقالوا: بئس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سره وأطلعتة على مكنون أمره فأزريت عنده بنفسك، وصغرت عنده منزلتك، بعد أن كنت عنده جليلاً فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضي الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه. فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلني رجل فقال لي: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين. فلم ألتفت لقوله. فاستقبلني آخر فقال لي كمقالة الأول، ثم استقبلني حاجب أبي خالد فقال لي: أين تكون؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج. فلما رأيته دعاني وأمر لي بمركوب. فركبت وسرت معه إلى منزله. فلما نزل قال: عليّ بفلان وفلان الحنطين<sup>(٢)</sup>، فأحضرا فقال لهما: ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف درهم؟ قال: نعم، قال: ألم أشرط عليكم شركة رجل معكما؟ قالوا: بلى، قال: هو الرجل الذي اشترطت شركته لكما. ثم قال لي: قم معهما. فلما خرجنا قال لي: أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون له فيه الريح الهنيء. فدخلنا مسجداً فقالا لي: إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء، وأمناء وكيايين وأعاون ومؤن لم تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعمله لك فتشفع به، ويسقط عنك التعب والكلف، فقلت لهما: وكم تبذلان لي؟ قالوا: مائة ألف درهم. فقلت: لا أفعل. فما زالوا يزيداني، وأنا لا أرضى إلى أن قالوا لي: ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت حتى أشاور أبا خالد قالوا: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما: هل وافقتماه على ما ذكر؟ قالوا: نعم. قال: اذهبا فاقبضاه المال الساعة. ثم قال لي: أصلح أمرك ونهياً فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأنني وقلدني ما وعدني به، فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمري وجب عليك له. فقال والله يا ولدي

(١) يرجلني: يزرع مطبتي وأمضي على قدمي.

(٢) الحنط: المشتغل بالحنطة.

ما أجد له مكافأة غير أنني أعزل نفسي وأوليه. ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين. وكان بين يدي رجل مكبل بالحديد فلما رأيته قال لي: عباس. قلت ليك يا أمير المؤمنين قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحفظ به ويكز به إليّ في غد، واحترز<sup>(١)</sup> عليه كل الاحتراز، قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه، ولم يقدر أن يتحرك. فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي. فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري. ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعنم نساء؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف هذا الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية. فقال ما كنت بالذي أعرفك بخبره حتى تعرفني قضيتك معه. فقلت: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبنى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله. قال: لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت زوجته: أدخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار فتشوها، فقتوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامراته فيها. فقالوا: هو هنا. فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف. فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك. فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم. وصرت إلى الأمن والدعة<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره، ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتّر عن تفقد أحوالي. فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهتة إلى أن سكنت الفتنة، وهذأت، وزال أثرها فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خير. فأخذ عليّ الموائيق بالرجوع إليه. فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني، ولا يسألني، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية. فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد. فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وما أنا ذا قد أعلمتك، فقلت له: إنك تفضلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله أنني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفيتك مهما استطعت. قال: فدعا غلاماً له أسود وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهّز آلة السفر فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي: يا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكرى<sup>(٣)</sup> به مركوباً، ثم قمت فإذا هو وامراته يحملان بقجة من أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدّم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم

(١) احترز: احتط في حفظه.

(٢) الدعة: الهناء والأمن.

(٣) أكرى: أستاجر.

إليّ الفرس الذي كان جهزه، وقال اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري وركب معي يشيعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أكشف خبره وأنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه، بلا كلفة عليك، ولا مؤنة تلزمك. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضّر الذي أنا فيه غير عليك، وما كنت تعرفه عني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تمالكت أن أقمت وقلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي أشارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت، وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخيري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك.

قال العباس: قلت يصنع الله خيراً، ثم أحضر حداداً في الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال<sup>(١)</sup>، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم ستر من أحضر إليه غلامه. فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: عليّ بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني. والبغل الفلاني والبغلة الفلانية. حتى عدّ عشرة، ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا. قال ذلك الرجل: وأحضر لي بكرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لثابته في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعه إلى حدّ الأنبار، فقلت له: إن فني عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم، وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأردّ وأنتل، فقال لي: أنتج بنفسك ودعني أدير أمري، فقلت: والله ما أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت. فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت فقد وقته بنفسي كما وقاني بنفسه. وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجهده في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أتق به، وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفنأ، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح، إلا ورسل المأمون في طلبي يقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه، وهو يتظرنا فقال: أين الرجل؟ فسكت. فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: لله عليّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عتقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري. قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني فأكون قد

وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت، وها كفتي يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غير، هلاً عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منة<sup>(١)</sup> أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيب نفسه، وسكّن روعه، واتني به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيت إليه وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواء. ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأذناه من مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة أبقال بالآنها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة ممالك بدوابهم. وكب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجها، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق. فصارت كبه تصل إلى المأمون. وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس: هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه: ما أورده محمد بن القاسم الأنباري رحمه الله تعالى: أن سواراً صاحب رجة سوار وهو من المشهورين قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي، لما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع. ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي، فدخل وقت القائلة<sup>(٢)</sup> فلم يأخذني النوم. فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال. فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جيبتها من مستفلك<sup>(٣)</sup> الجديد. قلت: أسكها معك واتبعني. فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق. حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقيني؟ قال: نعم. ثم دخل وأحضر قلة<sup>(٤)</sup> نظيفة طيبة الرائحة، عليها منديل فناولني فشربت، وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم، فأردت أن أحذتك بشيء، فقلت: قل: قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم. قال: هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان، وخرجت معه. فزالت عتاً النعم التي كنا فيها، وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلني به، وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقاً لأبي. فقلت: ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إليّ. فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به فأقمده بين يديك. ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلي. ثم مضيت وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أنظر من هذا فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لي

(١) منة: فضل وإحسان.

(٢) القائلة: القيلولة ظهراً.

(٣) مستفلك: المستحرم.

(٤) قلة: جرة.

فلما دخلت عليه حدثته لما جرى لي فأعجبه ذلك، وأمر لي بألفي دينار فأحضرت. فقال: ادفعها إلى الأعمى. فنهضت لأقوم، فقال: اجلس، فجلست. فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت خمسون ألفاً. فحادثني ساعة وقال: امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفاً. وقال: يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك. قال: قبضت من ذلك فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى، وأتاني رسول المهدي يدعوني فجتته فقال قد فكرت البارحة في أمرك. فقلت يقضي دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً؛ وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى. قال: قبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى فدفعتم إليه الألفي دينار وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافاك على إحسان أبيك، وكافأني على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيت شيئاً آخر من مالي فأخذته وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى، ما حكاه القاضي يحيى بن أكرم رحمة الله تعالى عليه قال: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي: أتعرف قائل هذا البيت:

الخَيْرُ أَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ      وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أُوْعِيَتْ مِنْ زَادٍ

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص فقال: عليّ بعيد. فلما حضر بين يديه قال له: أخبرني عن قضية هذا البيت. فقال: يا أمير المؤمنين، كنت في بعض السنين حاجاً فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها. فسألت عن القصة فقال لي رجل من القوم: تقدم ترّ ما بالناس. فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرهاء البعير، فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع في أمره، فعدلتنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً فعدلت أنه لسبب، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفدي هذا العالم بنفسي، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا. فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت، فلما رأيت قربة من سكن، وبقيت متوقفاً منه وثبة يتلعبني فيها. فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه، وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القربة تسبب في الرمل، ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا به. ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك. وحططنا في منزلنا ذلك في ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي، ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني، فنمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أر أحداً ولم أهد إلى ما أفعله، وأخذتني الحيرة وجعلت أضطرب، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخصُ المضلُّ مركبُهُ      ما عنده من ذي رشادٍ يصحُّبُهُ  
دونك هذا البكرَ منا تركبُهُ      ويكرُّك الميمونُ حقاً تجبُّبُهُ  
حتى إذا ما الليلُ زالَ غيَّبُهُ      عند الصباحِ في القلا تسيبُهُ

فبظرت فإذا أنا ببكر قائم عندي، وبكري إلى جانبي فأنخته ورببته وجنبت بكري فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر ووقف الكبر، فعدلت أنه قد حان نزولي بتحولي إلى بكري وقلت:

يا أيها البكرُ قد أنجيتَ من كربٍ      ومن همومِ تفضلُ المدلجَ الهادي



من ذا الذي جادَ بالمعروف في الوادي  
بوركت من ذي سنامٍ رائحٍ غادي

ألا تخبرني بالله خالقنا  
وارجع حميداً فقد أبلغتنا متناً

فالتفت بالبكر إلي وهو يقول:

والله يكشفُ ضرَّ الخائر الصادي  
تكرمأ منك لم تمننْ بأنكادِ  
والشرُّ أخبثُ ما أوعيت من زادِ  
فأذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

أنا الشجاعُ الذي ألفتني رمضاً  
فجذت بالماء لما ضنَّ حامله  
فالخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به  
هذا جزاؤك مني لا أمنُّ به

فمجب الرشيد من قوله، وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه، وقال لا يضيع المعروف أين وضع. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

تم بعونه تعالى الجزء الأول من كتاب المستطرف  
ويليه الجزء الثاني وأوله الباب الثالث والأربعون

## الجزء الثاني

### الباب الثالث والأربعون: في الهجاء ومقدماته

القصْد من الهجاء الوقوف على مُلْحِه، وما فيه من الفاظ فصِيحة ومعان بديعة، لا التشفي بالأعراض والوقوع من الهجاء دليلاً على إساءة المهجو، ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فيما ليس كل مذموم بذميم، وقد يهجي الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً. قال المتوكل لأبي العيَّان: كم تمدح الناس وتذمهم؟ قال: ما أحسنوا وأساءوا. وقد رضي الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه فقال: «نعم العبد إنه أواب»<sup>(١)</sup> وغضب على آخر فقال: «متاع للخير معتد أثيم \* عتل بعد ذلك زنيماً»<sup>(٢)</sup> قيل: الزنيمة الملتصق بالقوم وليس منهم. وقال دعبل في المأمون بعد البيعة له وقتل الأمين:

إنني من القوم الذين همو همو      قتلوا أحمك وشرفوك بمقعد  
شادوا لذكرك بعد طول خمولة      واستنقذك من الحضيض الأوهدي<sup>(٣)</sup>

فقال المأمون: ما أبهته<sup>(٤)</sup>، ليت شعري متى كنت خاملاً؟ وفي حجر الخلافة ربيت، ويلذها غذيت. ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس. فقيل له: أتبكي على جعفر وأنت هجوته؟ فقال كان ذلك لركوب الهوى وقد بلغه والله أني قلت:

ولست وإن أظنبتُ في وصف جعفر      بأول إنسانٍ خرى في ثيابه  
فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه.

ومن العبث بالهجو ما وري أن الحطيئة، همَّ بهجاء فلم يجد مَنْ يستحقه فقال:

أبنتُ شفنايَ اليومَ إلا تكلماً      بشرُّ فلا أدري لمن أنا فائنة  
أرى بي وجهاً قبَّح الله خلقه      قبَّح من وجوهٍ وقُبَّح حاملة  
وعبث بأمه فقال:

تخبي فاجلسي عَنَّا بعيداً      أراح الله منك العالمينا  
أغربالاً إذا استودعتِ سرّاً      وكانونا<sup>(٥)</sup> على المتحدِّثينا

(١) سورة: ص، الآيتان: ٣٠ و٤٤.

(٢) سورة: القلم، الآيتان: ١٢ - ١٣.

(٣) الأوهدي: الأرض المنخفضة.

(٤) البهتان: الكذب والزور.

(٥) الكانون: الموقد.

حيأتك ما علمتُ حياةً سوءَ وموتك قد يسرُّ الصالحينا

قال رجل: ما أبالي، أهجيت أم مدحت. فقال له الأحنف: ارحت نفسك من حيث تعب الكرام. وقال رجل الآخر: إن هجوتني أتموت ابنتي؟ قال: لا، قال: أفتخرب ضيعتي؟ قال: لا، قال: فرجلي مع ساقبي إلى حلقي في حر<sup>(١)</sup> أمك: قال: ولم تركت رأسك؟ قال: لأنظر ما تصنع. وأنا أقول: إنما يخشى من الهجو مَنْ يخاف على عرضه، وأما مَنْ لا يخاف على عرضه فقد يستوي عنده المدح والذم وبش الرجل ذاك. وكان الرجل من نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ يقول: من نمير وأمال بها عتقه فلما هجاهم جرير بقوله:

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

صار إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل؟ يقول: من بني عامر. وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نمير بهجو جرير. وهجا ابن بسام رجلاً فقال:

يا طلوعَ الرقيبِ من غيرِ ألفِ يا غريمماً أتى على ميعادِ  
يا ركوداً في وقتِ غيمٍ وصيفِ يا وجوهَ التجارِ يومَ كسادِ

وقصد ابن عينة قبيلة المهلبية واستماحه فلم يسمح له بشيء، فانصرف مفضباً فوجه إليه داود بن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال في ذلك:

داودُ محمودٌ وأنتَ مذمومٌ عجباً لذاك وأنتما من عودِ  
ولتربَّ عودٌ قد يشقُّ لمسجدِ فصفا وياقيه لحش<sup>(٢)</sup> يهودي  
فالحشُّ أنتَ له وذاك بمسجدِ كم بين موضعِ مسلح<sup>(٣)</sup> وسجودِ  
هذا جزاؤك يا قيصُ لأنه جادت يده وأنت قفلُ حديدِ

وله هجاء في خالد:

أبوك لنا غيبٌ يغيبُ بسوبله<sup>(٤)</sup> وأنتَ جرأٌ لستَ تبقي ولا نذر  
له أثرٌ في المكرماتِ يسرتنا وأنت تُعفي دائماً ذاك الأثر

وقال المبرد في حقه: لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل، ومدح أبيه إلا له. ولما قعد حماد عجرد لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد:

قال للأمين جزاك الله صالحاً لا يجمعُ الله بين السخل<sup>(٥)</sup> والديبِ  
السخلُ يعلمُ أن النئبَ أكلهُ والذئبُ يعلمُ ما بالسخل من طيبِ

(١) الحر: قبْل المرأة.

(٢) الحش: كناية عن المراض.

(٣) مسلح: مكان التفوط.

(٤) بوبله: بمطر جوده وغيبته.

(٥) السخل: ولد الشاة.

وقال فيه أيضاً:

يا أبا الفضل لا تَتَمَّ  
إن حمادَ عَجْرِدٍ  
بين فخذَيْهِ حَرِيَّةٌ  
إن رأى نَمَّ غَفْلَةً  
وَقَعَ الذَّنْبُ فِي الغَنَمِ  
شَيْخٌ سَوَّهَ قَدَّ اغْتَمَّ  
فِي غِلَافٍ مِنَ الأَدَمِ  
يَجْمَعُ المِمْ بِالْقَلَمِ

فشاعت الأبيات فأمر الأمين باخراج حماد. وقال رجل لأخيه لأبويه: لأهجونك هجاء يدخل معك في قبرك. قال: كيف تهجونني وأبوك أبي وأمك أمي. قال: أقول<sup>(١)</sup>:

بني أمية هبوا طال نومكمو  
ضاعث خلفتكم يا قوم فالتمسوا  
إن الخليفة يعقوب بن داود  
خليفة الله بين الماء والعمود

فدخل يعقوب على المهدي فأخبره أن بشاراً هجاء، فاغتاظ المهدي وانحدر إلى البصرة لينظر في أمرها فسمع لذاناً في ضحى النهار فقال: انظروا ما هذا؟ وإذا به بشار وهو سكران. فقال له: يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك، ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أثلقه بها، وألقي في سفينة. فقال عين الشمقمق تراني حيث يقول:

إن بشارَ بـنـ بـردٍ  
تيسرُ أعمى في سفينة

فلما مات ألقيت جثته في الماء، فحمله الماء فأخرجه إلى الدجلة، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة وأخرجت جنازته فما تبعه أحد، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه. وخاصم أبو دلامة رجلاً فارتفعا إلى عافية القاضي فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول:

لقد خاصمتني دهاة الرجال  
فما أدحضن الله لي حجة  
ومن خفت من جوره في القضاء  
وخاصمتها سنة واقية  
ولا خيب الله لي قافية  
إاء فلست أخافك يا عافية

فقال عافية: لأشكوتك إلى أمير المؤمنين ولأعلمته أنك هجوتني. قال له أبو دلامة: إذا والله يعزلك. قال: ولم؟ قال: لأنك لا تعرف الهجاء من المدح. قال: فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر له بجائزة. ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن علي، وعيسى بن موسى، والعباس بن محمد، وجماعة من بني هاشم فقال له المهدي: والله لئن لم تهج واحداً ممن في هذا البيت لأقطعن لسانك. فنظر إلى القوم وتحير في أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمره بأن عليه رضاه. قال أبو دلامة: فازددت حيرة، فما رأيت أسلم لي من أن أهجو نفسي فقلت:

ألا أبلغُ لديك أبا دلامة  
جمعت دمامةً وجمعت لؤماً  
إذا لبسَ العمامةَ قلتَ قرداً  
فلستَ من الكرام ولا كرامنة  
كذلك اللؤم تبعهُ الدمامة  
وخنزيراً إذا نزعَ العمامة

(١) هذا القول لبشار ويبدو هنا سقط قبل أبيات بشار لم أهدت إليه.

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازره.

وقال ابن الأعرابي: إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب في محمد بن هاشم:

لَمْ تَنْدَ كَمَاكَ مِنْ بَدَلِ النَّوَالِ كَمَا  
لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مَذْ قُلْدَتَهُ بَدَمِ

وهجا بعضهم القمر فقال: يهدم العمر، ويوجب أجرة المنزل، ويشحب الألوان ويقرض الكتان ويضل الساري<sup>(١)</sup> ويعين السارق ويفضح العاشق.

ولابن منقذ في ابن طليب المصري وقد احترقت داره:

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا  
ما أوقد ابن طليب قط بداره  
قرأ إلى الأقدار بالأقدار  
ناراً وكان خرابها بالنار

وكان للوجيه بن صورة المصري دلال الكتب، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت فقال فيها ابن المنجم:

أقول وقد عاينت دار ابن صورة  
فما هو إلا كافر طال عمره  
وللنار فيها وهجة تضرم  
فجاءته لما استبطأته جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يسكنها حيث

قال:

دارٌ سكنتُ بها أقلُّ صفاتها  
الخيرُ عنها نازحٌ متباعداً  
من بعضٍ ما فيها البعوضُ عدته  
وتبيتُ تسعدُها براغيثُ متى  
رقصُ بتقيطٍ ولكن قافه  
وبها ذبابٌ كالضبابِ يسدُّ عي  
أين الصوارمُ والقنا من فتكها  
وبها من الخطافِ ما هو معجزُ  
وبها خفافيشٌ تطيرُ نهاريماً  
وبها من الجرذانِ ما قد قصرَتْ  
وبها خنافسٌ كالظنابيرِ<sup>(٣)</sup> أفرشت  
لوشم أهل الحربِ متن فسوها

أن تكثر الحشرات في جنباتها  
والشرُّ داني من جميع جهاتها  
كم أعدم الأجنان طيب سناتها  
غثت لها رققت على نغماتها  
قد قدمت فيه على أخواتها  
من الشمس ما طربي سوى غناتها  
فينا وأين الأسد من وثباتها  
أبصارنا عن وصف كيفياتها  
مع ليلها ليست على عاداتها  
عنه العناق<sup>(٢)</sup> الجرذ في حملاتها  
في أرضها وعلت على جنباتها  
أردى الكمأة الصيد<sup>(٤)</sup> عن صهواتها

(١) الساري: السائر ليلاً.

(٢) العناق: الخيول الكريمة.

(٣) الظنابير: المخدات.

(٤) الصيد: ذوي الحسب والشرف.

مما يفوت العين كنه ذواتها  
 حجارة لبدت على كاساتها  
 قد قل ذؤ الشمس عن ذراتها  
 فتعوذوا بالله من لدغاتها  
 ورق الحمام سجعن في شجراتها  
 حر السموم أخف من زفراتها  
 فينا حماتا الله لذع حماتها<sup>(٣)</sup>  
 ساءة ولا حياة لمن رأى حياتها  
 والأرض قد نسجت على آفاتها  
 وترايبها كالرمل في خشناتها  
 والدود يبحث في ثري عرصاتها  
 تحكي الخيول الجرد في حملاتها  
 وجهنم تعزى إلى لفحاتها  
 ورأيت مسطوراً على جنباتها  
 تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها  
 يا رب نج الناس من آفاتها  
 يضرق السكان من ساحاتها  
 كذب الرواة فأين صدق رواتها  
 للنفس إذا غلبت على شهواتها  
 فيها وتندب باختلاف لغاتها  
 شوق الصباح تسع<sup>(٤)</sup> من عبراتها  
 يا رازقاً للوحش في فلواتها  
 أخراي هب لي الخلد في جناتها  
 يا جامع الأرواح بعد شتاتها<sup>(٥)</sup>

وبنات وردان<sup>(١)</sup> وأشكال لها  
 أبداً تمص دماناً فكأنها  
 وبها من النمل السليمانى ما  
 ما راغني شيء سوى وزغاتها<sup>(٢)</sup>  
 سجمت على أوكارها فظنتها  
 وبها زنايبر تظن عقارباً  
 وبها عقارب كالأقارب رنع  
 كيف السيل إلى النجاة ولا نجد  
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها  
 فضجيجها كالرعد في جنباتها  
 والبوم عاكفة على أرجائها  
 والجن تأتيها إذ جن الأذى  
 والنار جزء من تلهب حرها  
 شاهدت مكتوباً على أرجائها  
 لا تقرئوا منها وخافوها ولا  
 أبداً يقول الداخلون ببابها  
 قالوا إذا ندب الغراب منازلها  
 وبدارنا ألفا غراب ناعق  
 صبراً لعل الله يعقب راحة  
 دار نبيت الجن تحرس نفسها  
 كم بك فيها مفرداً والعين من  
 وأقول يا رب السموات العلاء  
 أسكتني بجهنم الدنيا فني  
 واجمع بمن أهواه شملني عاجلاً

ولبعضهم في بلان<sup>(٦)</sup>:

- (١) وردان: ما تعرف الآن بالصرصير.
- (٢) زغاتها: حيوان زاحف قبيح من قبيل الحرياء.
- (٣) حماتها: تورية بين حلة العقرب والحماة أم الزوج.
- (٤) تسع: تسيل.
- (٥) الشتات: التفرق.
- (٦) البلان: عامل الحمام.

مَثَّ أَنَامُلُهُ ظَهْرِي فَأَدْمَانِي  
وَلَا يَسْرُحُ تَسْرِيحاً بِإِحْسَانِ

بِه حَدَّ الشَّفَارِ الْمَرْهَفَاتِ  
عَلَى حَلْلِ السُّتُورِ السَّابِلَاتِ  
فَأَيَّهَا وَكَثِيرَ فَوْقَاتِي  
وَذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْمَهْلِكَاتِ  
يَفُوحُ بِهِ عَلَى كُلِّ الْجِهَاتِ  
يَغْسِلُنِي إِذَا حَانَتْ وَفَاتِي

حَكَى سَقَرًا وَفِيهَا الْمَجْرُمُونَ  
فَإِنْ عُنْنَا فَلِنَا ظَالِمُونَ

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

أَعَاوُدُ مِنْ ذِرَاكَ كَمَا قَدِمْتُ  
بِأَفْوَاهِ الثُّقَاةِ وَمَا وَرَدْتُ  
وَيَخْبِرُ عَنْ نَوَالِكَ إِنْ كَمْتُ  
وَقَدْ عَمَّ الْوَرَى كَرَمًا سَكْتُ

وممن عرّض بالهجو في شعره الخوارزمي قال في أبي جعفر:

وَمَثَلُكَ إِنْ قَالَ قَوْلًا يَفِي  
وَلَا هُجِيَّتْ وَأَذْخِلْتْ فِي  
فَقَطُّ الْحَدِيثِ وَلَا تَكْشِفِ

ومدح السراج الوراق إنساناً فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول:

فَقَدْ أَنْعَبْتَنِي يَا مَتْرِيحُ  
سِوَاهُ وَقِيلَ لِي هَذَا صَحِيحُ

وَقَدْ عَوَّقِبْتُ بِالْحَرَمَانِ عَنْهُ  
فَلَا يَصْعَبُ عَلَيْكَ الْحَقُّ فِيهِ

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ بَلَانًا بَلِيْتُ بِهِ  
فَلَا يُدَلِّكَ تَدْلِيكًا بِمَعْرِفَةٍ

وللشيخ شمس الدين البديري في بلان أيضاً:

وَبَلَانٌ لَهُ ظَهْرٌ يَسَاهِي  
هَرَى جَسْمِي فَأَلْبَبَهُ نَجِيمًا<sup>(١)</sup>  
وَرَامَ يَلِينُ أَعْضَائِي بِرَفْتِي  
وَلَمْ أَنْظُرْ لَهُ أَبَدًا جَمِيلاً  
وَأَعْمَى مَقْتَلِي بِصَنَانِ إِسْطِ  
فَلَا تَجْعَلْ إِلَهِي مِثْلَ هَذَا

ولبعضهم في حَمَام:

وَحَمَامٌ دَخَلْتَاهُ لِأَمْرٍ  
فِيصَطْرَحُوا يَقُولُونَ اشْرَجُونَا

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

أَيَجْمَلُ يَا نِظَامَ الْمَلِكِ أَنِي  
وَأَصْدُرُ عَنْ حِيَاضِكَ وَهِيَ نَهْبُ  
يَدُّكَ عَلَى فَعَالِكَ سُوءَ حَالِي  
إِذَا اسْتُخْبِرْتُ مَاذَا نَلْتَ مِنْهُ

وممن عرّض بالهجو في شعره الخوارزمي قال في أبي جعفر:

أَبَا جَعْفَرَ لَسْتُ بِالْمَنْصَفِ  
فَإِنَّ أَنْتَ أَنْجَزْتَ لِي مَا وَعَدْتَ  
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ مَا بَعْدَ فِي

ومدح السراج الوراق إنساناً فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول:

أَعِذْ مَدْحِي عَلَيَّ وَخُذْ سِوَاهُ  
وَلَا تَغْضَبْ إِذَا أَنْشَدْتَ يَوْمًا

وله أيضاً يقول:

أَعِذْ مَدْحًا كَذِبْتُ عَلَيْكَ فِيهِ  
وَلَكِنِّي سَأَصْدُقُ فِيكَ قَوْلًا

وقال بعضهم في حجاج قلموا ولم يهدوا إليه شيئاً:

تَكَادُ الفَرْطُ البَشْرَ أَنْ تَوْضَحَ السَّبْلَ (١)  
فلا مرحباً بالقادمين ولا سهلاً  
ولا وضِعُوا في كَفِّ طِفْلِ لَنَا نَقْلَا

مَضَوْنَا لِحِجُّوْنَا وَالسُّجُوءَ كَأَنهَا  
وعادوا كأنَّ القَارَ (٢) فَوْقَ وَجُوهِهِمْ  
وجاءُوا وما جَادُوا بِعُودِ أَرَاكِيْةٍ

وقال آخر:

خَلَّاتُ قُبْحٍ عَنْهُ لَا تَزْحَزِحُ  
بِأَبْحٍ مَا يُهْجَى بِهِ المَرْءُ يُمْدِحُ

إِذَا رَمَتْ هَجْرًا فِي فِلَانٍ تَصَلُّنِي  
تَجَاوَزَ قَنْزَ الهَجْرِ حَتَّى كَأَنَّ

وهجا بعضهم امرأة فقال:

ووجهٌ كوجه القرد بل هو أبقُ  
وتعبرُ في وجه الضجيج وتكلخُ  
إِذَا ضَحَكْتَ فِي أَوْجِهِ النَّاسِ تَلْفَحُ (٣)  
تَعَوَّذَ مِنْهَا حِينَ يَمْسِي وَيُصْبِحُ

لَهَا جِسْمٌ بِرَغُوثٍ وَمَسَاقٍ بِعُرُوضِ  
تَبْرُقُ عَيْنِهَا إِذَا مَا رَأَيْتَهَا  
لَهَا مَنظَرٌ كَالنَّارِ تَحْسِبُ أَنَّهَا  
إِذَا عَايَنَ الشَّيْطَانُ صُورَةَ وَجْهِهَا

ولبعضهم في عظيم أنف:

كجدارٍ قد دعموه ببغلة  
جعلوا نصفه على غير قبلة

لَكَ وَجْهٌ وَفِيهِ قِطْعَةٌ أَنْفٍ  
وهو كالتبر في المثالي ولكن

وفيه أيضاً:

يضامي في تشامخه الجبالا  
فلولا عظمه لراى الهلالا

رَأَيْنَا لِلزُّكِيِّ جِدَارَ أَنْفٍ  
تَصَلَّى لِلهَلَالِ لِكِيِّ يَرَاهُ

ولبعضهم في أبخر (٤) مخنث:

يا قوم قد حار فكري في مساويي  
فالأبر يدفع ما فيه إلى فيه (٥)

قَالُوا فَلَانَ تَنْنَ قَلْتُ لَهُمْ  
يَا قَوْمُ لَا تَعَجِّبُوا مِنْ تَنْنِ نَكْهَتِهِ

ولصفي الدين الحلبي (٦):

(١) البشر: السرور.

(٢) القار: الزفت.

(٣) تلفح: تحرق.

(٤) أبخر: ذو نكهة رديئة.

(٥) فيه الأولى جار ومجرور: فيه الثانية: فمه.

(٦) يشطر في هذه الآيات. آياتاً لأمرىء القيس من المعلقة هي الشطر الثاني من كل بيت.



قَمَّا نَبِكِ مِنْ ذَكَرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ  
بِقَطِّ اللُّوِي بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلٍ  
لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ

رَأَى فَرَسِي إِصْطَبَلَ عَيْسَى فَقَالَ لِي  
بِهِ لَمْ أَذُقْ طَعْمَ الشَّعِيرِ كَأَنِّي  
تَقَعَّقِعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ أَضَالَمِي

وله أيضاً:

سَوَاءٌ فِي الْمَقَالِ وَفِي الْمَقَامِ  
وَهَذَا عَاقِبٌ مِنْ غَيْرِ لَامٍ<sup>(٢)</sup>

لِيَهْنِكَ أَنْ لِي وَلِدَا وَعِبْدَا  
فَهَذَا سَابِقٌ مِنْ غَيْرِ سِينٍ<sup>(١)</sup>

وله في طيب يدعى إسحاق:

لَهَا يَفْنَاءُ الْعَالِمِينَ كَفَيْلُ  
فَتَغْمَدُ حَتَّى يَسْتَبَاحَ قَيْلُ

مِبَاضِعُ<sup>(٣)</sup> إِسْحَاقَ الطَّيِّبِ كَأَنَّهَا  
مَعْوَدَةٌ أَنْ لَا تَسَلَّ نَصَالُهَا

وله في أحرق طويل اللسان:

قَنَّصَ الْأَسْوَدُ وَجَنَدَلُ الْأَبْطَالَا  
أَفْنَى الْكَنْوَرِ وَأَنْفَسَ الْأَمْوَالَا

لِرَأْنِ قُوَّةٍ وَجِهَةٍ فِي قَلْبِهِ  
أَوْ كَانَ طَوِيلُ لِسَانِهِ يَمِينُهُ

وهجا إعرابي رجلاً ثم مدحه فقال:

وَعَلِمْتُ أَنْ الْمَلْحَ فِيكَ يَضِيحُ  
يَدْنِي إِلَى يَتِّ الْخَلَا فَيَضُوعُ

إِنِّي مَدَحْتُكَ مِنْ فَسَادِ قَرِيحَتِي  
لَكِنْ رَأَيْتُ الْمَسْكَ عِنْدَ فَسَادِهِ

وقيل لبعضهم: ما تقول في فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والميسر، إثمهما أكثر من نفعهما. وقيل لرجل:

كيف وجدت فلاناً؟ قال طويل اللسان في اللؤم، قصير الباع في الكرم، وثاباً على الشر، متاعاً للخير. وسمع إعرابي قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾<sup>(٤)</sup> انتفض ثم سمع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾<sup>(٥)</sup> فقال: الله أكبر هجانا ثم مدحنا وكذلك قال الشاعر:

وَمَا زَالَتِ الْأَشْرَافُ تُهْجِي وَتُمدِّحُ

هَجَوْتُ زَهيراً ثُمَّ إِنِّي مَدَحْتُهُ

استب رجلان فقال أحدهما للآخر: لو قطع زيك وعلق لم تبق زانية بالكوفة إلا عرفته. وقال أبو زيد العبدي:

إِن الْكِلَابَ طَوِيلَةَ الْأَعْمَارِ

وَلَقَدْ قَتَلْتُكَ بِالنَّهْجِ فَلَمْ تَمُتْ

وقال المتوكل لأبي العيناء: ما بقي أحد في المجلس إلا هجاك وذمك غيري فقال:

فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِثَامِهَا

إِذَا رَضِيَتْ عَنِّي كِرَامٌ عَشِيرَتِي

(١) غير سين: أي آبق، غير مطيع.

(٢) أي عاق: غير بار.

(٣) المبضع: المشروط.

(٤) سورة: التوبة، الآية: ٩٧.

(٥) سورة: التوبة، الآية: ٩٩.

## الباب الرابع والأربعون: في الصدق والكذب وفيه فصلان

### الفصل الأول: في الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾<sup>(٢)</sup>، فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم. وقال عمر رضي الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك. وما أحسن ما قيل في ذلك:

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ وَلَوْ أَنَّهُ  
مَنْ أَسْحَطَ الْمَوْلَى وَأَرْضَى الْعَيْدُ  
أَحْرَقَكَ الصِّدْقُ بِنَارِ الْوَعِيدِ

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبي الوفاة جمع بينه فقال لهم: يا بني، عليكم بتقوى الله، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه<sup>(٣)</sup>، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتلاً. ثم سئل عنه أقرَّب به، والله ما كذبت قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضي الله عنها قالت؛ سألت رسول الله ﷺ: بِمَ يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُ؟ قال: بوقاره، ولين كلامه، وصدق حديثه. وقيل: لكل شيء حلية، وحلية النطق الصدق. وقال محمود الوراق:

الصِّدْقُ مَنْجَاةٌ لِأَرْبَابِهِ  
وَقَرِيبةٌ تُنْذِرُنِي مِنَ الرَّبِّ

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه. وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعز له من الصدق. وكان يقال عن الصدوق فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد، إلا من الساعي. ويقال لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لأطلع على خزائن الغيب وكان أميناً في السموات والأرض. وقيل: مَنْ لَزِمَ الصِّدْقَ وَعَوَّدَ لِسَانَهُ بِهِ وَقَفَّ. ويقال: الصدق بالحرّ أحرى. وقال عتبة بن أبي سفیان: إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذي يزن: وضع الخد للحق عز. وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان. فأمر له بمائة ناقة، فقبل يده وقال: والله ما قبلت يد قرشي

(١) سورة: المائدة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٣) تعاهدوه: تحفظوه واعتنوا به.

غيرك إلا واحداً. فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله. فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: ففضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسى. فقال: والله لا ضرك الصدق عندي أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدواني في وصيته: إني وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا. يعني من لزم الصدق وعوده لسانه وفق، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه. وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبيد فاعفنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلاة لأخي فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهدته ومكانه من رسول الله ﷺ، فزوجوا أخاه فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك ما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ، وتترك ما عدا ذلك فقال: مه<sup>(١)</sup> يا أخي، صدقت فأنكحك الصدق. وخطب الحجاج فأطال قيام رجل فقال: الصلاة، فإن الوقت لا يتظرك، والرب لا يعذرك. فأمر بحجسه فأناه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله فقال: إن أقرّ بالجنون خليته قليل له: فقال: معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فمعا عنه لصدقه.

### الفصل الثاني: في الكذب وما جاء فيه

قال الله تعالى في الكاذبين ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿ويومَ القيامةِ ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾<sup>(٣)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار وتحروا»<sup>(٤)</sup> الصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من تنن ما جاء به» ويقال: راوي الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المائم الكذب، وعمود الكذب البهتان. وقيل: أمران لا يفتكان من الكذب؛ كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ولكمُ الويلُ مما تصفون﴾<sup>(٥)</sup> وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعي: قلت لكذاب: أصدقت قط؟ قال: لولا أنني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا، فتمعجب.

وقال محمود بن أبي الجنود:

لبي حيلة فيمن ينم  
مَنْ كان يخلقُ مسايق  
وليسَ في الكذاب حيلة  
ولُ فحيلتي فيه قليلة

- (١) مه: اسم فعل بمعنى: كذب.
- (٢) سورة: البقرة، الآية: ١٠.
- (٣) سورة: الزمر، الآية: ٦٠.
- (٤) تحروا: توخّوا.
- (٥) سورة: الأنبياء، الآية: ١٨.

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب ومن سحاب تموز. وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتي، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة، ما لا أجده بالصدق، مع ما ينالني من نفعه. وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله: ولبعضهم:

حُبُّ الكَذِبِ مِنَ البَلِّ      حِبَّةٌ بَعْضُ ما يُحْكى عَلَيْهِ  
فَمَتى سَمِعْتَ بِكَذِبَةٍ      مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ

وأضاف صيرفي قوماً فأقبل يحدثهم فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سماعون للكذب أكالون للشح﴾<sup>(١)</sup> وعن عبد الله بن السدي قال قلت لابن المبارك: حدثنا حديثاً. قال: ارجعوا فليست أحدثكم فقيل له: إنك لم تحلف. فقال لو حلفت لكفرت وحدثكم. ولكن لست أكذب فكان هذا أحب إلينا من الحديث. وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أتينه في سقمه، وحتى أن الصبي ليكي فتقول له أمه: اسكت وأشتري لك كذا ثم لا تفعل فتكتب كذبة. وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً. وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً «أعظم الخطايا اللسان الكذوب».

قال الشاعر:

لا يكذبُ المرءُ إلا من مهاتته      أو فِغْلِهِ السوءِ أو من قَلْبِهِ الأَدْبِ  
لَبِئْسَ جِيفَةً كَلَسَ خَيْرُ رَائِحَةٍ      من كَذِبَةِ المرءِ في جَدِّ وفي لَعْبِ

ولما نصب معاوية رضي الله عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت. فقال: معاوية ما لك لا تقول يا أبا بحر. فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت، وأخافكم إن صدقت. فقال جزاك الله خيراً عما تقول ثم أمر له بالوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت. فقال له الأحنف يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً. وقيل إن الكذب يحمده إذا وصل بين المتقاطعين، أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه. وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه، يقوي بذلك جأشهم. فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم قالوا جاءنا بكذب. وقال يحيى بن خالد رأينا شارب خمر نزع، ولصاً أقطع، وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذاباً صار صادقاً. وكان عمرو بن معد يكرب مشهوراً بالكذب. وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التنصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب. فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعل. قيل: إن بلالاً لم يكذب منذ أسلم رضي الله تعالى عنه. والحمد لله وحده.

## الباب الخامس والأربعون: في بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقربات وذكر الأنساب وفيه فصول

### الفصل الأول: في بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْتِ وَلَا تَنْهَزُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا \* وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾<sup>(٤)</sup> وعن علي رضي الله عنه: لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أفٍ لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وقيل: إن رضا الرب في رضا الوالدين، وسخط الرب في سخط الوالدين. وحكى أبو سهل عن أبي صالح، عن أبي نجيج، عن ربيعة، عن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبي مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة، وكتب له براءة من النار». وقال رسول الله ﷺ: «إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجذُ ريحها عاق». وكان رجل من النساك يقبل كل يوم قَدَمَ أمه فأبطاً يوماً على إخوته فسألوه، فقال: كنت أتمرغ في رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات. وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة. فكان آخر كلامه: يا رب أوصني. قال: أوصيك بأمر حسن قال له سبع مرات. قال: حسبي. ثم قال: يا موسى ألا إن رضاها رضي وسخطها سخطي. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لابن مهران: لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة، وإن علمتها سورة من القرآن، ولا تصحب عاقاً فإنه لن يقبلك وقد عق والديه. وقال فيلسوف: مَنْ عق والديه عقه ولده. وقال المأمون: لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ من بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سخن فنصمهم السجان من الوقود في ليلة باردة فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم من نحاس فملاؤه ماء وأدناه من المصباح، فلم يزل قائماً وهو في يده إلى الصباح، حتى استيقظ يحيى من منامه. وقيل طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشرية نام أبوه، فما زال الولد واقفاً والشرية في

- (١) سورة: النساء، الآية: ٣٦.
- (٢) سورة: الإسراء، الآية: ٢٣.
- (٣) سورة: لقمان، الآية: ١٤.
- (٤) سورة: الإسراء، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن لي أما بلغ منها الكبر، أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أدبت حقها، قال: لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تسمى بمامك، وأنت تصنعه وتسمى فراقها. وقال ابن المنكدر: بت أجلس رجل أبي ويات آخر يصلي ولا يسرني ليته بليتي. وقيل إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذي لا يتصف منه. وقيل لعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنه: إنك من أبر الناس، ولا تأكل مع أمك في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عقتها.

## الفصل الثاني: في الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكياء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ: «الولد ريحانة من الجنة». وقال الفضل: ربح الولد من الجنة. وكان يقال: ابنك ريحانك سبباً، ثم حاجبك سبباً، ثم عدو أو صديق. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، قال: قلت لسيدي رسول الله ﷺ: يا رسول الله هل يولد لأهل الجنة؟ قال: «والذي نفسي بيده، إن الرجل يشتري أن يكون له ولد فيكون حمله ووضع وشبابه الذي يتهي إليه في ساعة واحدة». وقيل: من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كي لا يفسق. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: إنني لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبجه وتذكره. وقال رضي الله تعالى عنه: أكثروا من العيال فإنكم لا تدرن بمن ترزقون. وقال شبيب بن شبة: ذهب اللذات إلا من ثلاث: شم الصبيان، وملاقة الأخوان، والخلو مع النسوان. ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب. فقال: انبذها عنك فانهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. قال: لا تقل يا عمرو ذلك، فوالله ما مرض المرضى، ولا نذب الموتى، ولا أعان على الأخوان إلا هن. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنك حبيتهن إلي. وقيل لرجل: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر. وقال ابن عامر لأمراته أمامة بنت الحكم الخزاعية: إن ولدت غلاماً فلك حكمك. فلما ولدت، قالت: حكمتي أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان، من فالودج، وأن تعلق بألف شاة. ففعل لها ذلك. وغضب معاوية على يزيد فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، وبهم نصول على كل جلييلة، فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شزراً<sup>(١)</sup> فيملوا حياتك، ويتمنوا وفاتك. فقال معاوية: يا غلام إذا رأيت يزيد فاقره السلام واحمل إليه مائتي ألف درهم، ومائتي ثوب. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقيل له: الأحنف. فقال يزيد بن معاوية: عليّ به فقال: يا أبا بحر كيف كانت القصة فحكاه له فشكر صنيعه وشاطره الصلة.

وحكى الكسائي أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر باحضار الأمين والمأمون ولديّه، قال: فلم يلبث قليلاً أن أقبلا كوكبي أفق يزنيهما هداهما، وقد غضا أبصارهما حتى وقفا في مجلسه فلما عليه بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فاستدناهما وأسد محمداً عن يمينه، وعبد الله عن يساره، ثم امرني أن ألقى عليهما أبواباً من النحو فما سألتها شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه، فسره ذلك سروراً عظيماً وقال: كيف ترأهما؟ فقلت:

(١) شزراً: بمؤخرة العين على هيئة الغضبان.

أرى قمرِي أفقِي وفَرَعِي شَامَةَ  
سليَلي أمير المؤمنين وحائِزِي  
يسُدُّان أنفَاقَ النفاقِ بشيمُو  
يزينُهُما عرقُ كَريمٍ ومحنَدُ  
مواويثَ ما أبقي النبيُّ محمَدُ  
يزينُهُما حزمٌ وسيفٌ مهنَدُ

ثم قلت: ما رأيت، أعز الله أمير المؤمنين، أحداً من أبناء الخلافة. ومعدن الرسالة، وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما السناء، ولا أحسن ألفاظاً، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمماً. وأمن<sup>(١)</sup> الرشيد على دعائه ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج. وقال: كأنكم بهما وقد دهم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تشتت أمرهما، وافترت كلمتهما بسفك الدماء وتهتك الستور. وكان يقال: بنو أمية دن<sup>(٢)</sup> خل، أخرج الله منه زق عمل، يعني عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه. وسب إعرابي ولده وذكر له حقه فقال: يا أبتاه إن عظيم حقد علي لا يظلل صغير حقي عليك. قال سيدي عبد العزيز الدينري رحمه الله تعالى:

أحبُّ بنتي ووددتُ أني  
وما بي أن تهونَ عليّ لكن  
فإن زوجتُها رجلاً فقيراً  
وإن زوجتُها رجلاً غنياً  
سألتُ الله يأخذُها قرياً  
دقنتُ بيبي في قاعٍ لحد<sup>(٣)</sup>  
مخافةً أن تلوقَ الذلَّ بعدي  
أراها عندهُ والهَمُّ عندي  
فيلطمُ خدَّها ويسبُّ جدي  
ولو كانتُ أحبَّ الناسِ عندي

وقال هارون بن علي بن يحيى المنجم:

أرى ابني تشابَهَ من علي  
وإن يشبههما خلقاً وخلقاً  
وقال أبو النصر مولى بني سليم:

ونفرحُ بالمولودِ من آلِ برمكٍ  
وقال الحسن بن زيد العلوي:

قالوا عقيمٌ ولم يولد له ولدٌ  
فقلتُ مَنْ علقتُ بالحربِ همتُهُ  
والمرءُ يخلقُهُ من بعديه الولدُ  
عاف<sup>(٤)</sup> النساءُ ولم يكسر له عدوٌ

وكان الزبير بن العوام رضي الله عنه يرقص ولده يقول:

أزهراً من آل بني عتيق  
مباركٌ من ولد الصّديق

(١) أمن الرشيد: قال أمين.

(٢) اللدن: وعاء.

(٣) اللحد: القبر.

(٤) عاف النساء: لم يقبل عليهن.

## الذمه كما ألد ريفي

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول:

يا حبذا ربح الولد      ربح الخزامى في البلد  
أهكذا كل ولد      أم لم يلد مثلي أحد

وكان أعرابي يرقص ولده ويقول:

أجبه حب الشحيح ماله      قد ذاق طعم الفقر ثم ناله  
إذا أراد بذلك بداله<sup>(١)</sup>

وكان لأعرابي امرأتان فولدت إحداهما جارية، والأخرى غلاماً فرقصته أمه يوماً. وقالت معايرة لضررتها:

الحمد لله الحميد العالي      أتقذني العام من الجوالي<sup>(٢)</sup>  
من كل شوهاء كثر بالي      لا تدفع الضيم عن العيال

فسمعتها ضررتها فأقبلت ترقص ابتها وتقول:

وما علي أن تكون جارية      تغسل رأسي وتكون الفالية<sup>(٣)</sup>  
وترفع الساقط من خمارة      حتى إذا ما بلغت ثمانية  
أرزتها بتقبو يمانية      أنكحها مروان أو معاوية

## أصهار صدق، ومهور غالية

قال: فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال: إن أمها حقيقة<sup>(٤)</sup> أن لا يكذب ظنها ولا يخان عهدها. فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لا تحرم الصلة، فبعث إليها بمائتي ألف درهم. والله أعلم.

ومما جاء في الأولاد البلداء القليلي التوفيق: قيل: نظر أعرابي إلى ولد له قبيح المنظر فقال له: يا بني إنك لست من زينة الحياة الدنيا. وقال رجل لولده وهو في المكتب: في أي سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد، ووالدي بلا ولد. فقال: لعمرى من كنت أنت ولده فهو بلا ولد. وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء<sup>(٥)</sup> للبر طوله عشرون ذراعاً، فوصل إلى نصف الطريق ثم رجع فقال: يا أبت عشرون في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبي فيك يا بني. وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله، فلم يجبه ذلك

(١) بدا له: أي بدا له بداء.

(٢) الجوالي: التطواف.

(٣) الفالية: التي تلي الشعر، تنطفه.

(٤) حقيقة: جدية.

(٥) الرشاء: الحبل يكون للبر.



الشاب. فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله فأبي عبد الله تعني؟ فالضت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذا برجل ينادي شاباً: يا حمزة، فقال حمزة بن الأعرابي كلنا حماميز الله، فأبي حمزة تعني؟ فقال له أبوه: ليس يعينك يا من حمد الله به ذكر أبيه. وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم، فأرسله في حاجته فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها فنظر إليه ثم قال:

عقلُ عقل طائر وهو في خلقه الجمل

فأجابه:

مبته بك يا أباي ليس لي عنك متقل

ونهى أعرابي ابنه عن شرب النبيذ فلم يته وقال:

أمن شربة من ماء كرم شربتها  
سأشرب فاسخط لا رضية كلاهما  
غضبت علي الآن طابت لي الخمر  
حيب إلى قلبي، عقوقك<sup>(١)</sup> والسكر

وقيل: قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر.

ومما جاء في صلة الرحم: قال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم منجاة للولد مثارة للمال» وقيل: وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت مكتوب عليه بالعبرانية: أنا الله ذو بكة<sup>(٢)</sup> خلقت الرحم، وشققت لها أسماء من أسمائي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بهت أي قطعته. وقال رسول الله ﷺ: «أعجل الخير ثواباً، صلة الرحم» وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن كعب الأحبار أنه قال: والذي فلق البحر لموسى بن عمران إن في التوراة لمكتوب: يا ابن آدم اتق ربك، وبر والدك، وصل رحمتك أزد في عمرك، وأيسر لك في سيرك، وأصرف عنك عسرك. وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفى غضب الرب جل وعلا، وصلة الرحم تزيد في العمر» وذكر تمام الحديث.

### الفصل الثالث: في ذكر الأنساب، والأقارب، والعشيرة

قال عمر رضي الله عنه: تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، ففصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء وتنازع الأقطاب<sup>(٣)</sup>، لكان تعلمها من أحزم الرأي، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا: «ولولا رهطك لرجمتك»<sup>(٤)</sup> فأبقوا عليه لرهطه. وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة، وتعلموا النسب فرب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها. وسئل

(١) عقوقك: معصيتك.

(٢) ذو بكة: غلبة وشدة.

(٣) الأقطاب: الأنداد.

(٤) سورة: هود، الآية: ٩١.

عيسى عليه السلام: أي الناس أشرف؟ قبض قبضتين من تراب وقال: أي هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب ﴿إِنْ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾<sup>(١)</sup>. كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه، فلما خالف رسول الله ﷺ دين قريش قالوا: نزع عرق أبي كبشة، حيث خالفهم في عبادة الشعري. وقال خالد بن عبد الله القسري سألت واصل بن عطاء عن نسيبه، ومن حفظه فقد حفظ نسيبه، فقال نسيب الإسلام الذي من ضيعة فقد ضيع نسيبه، ومن حفظه فقد حفظ نسيبه، فقال خالد: وجه عبد وكلام حر. ومن كلام علي كرم الله وجهه: أكرم عشيرتك فآتهم جناحك الذي به تطير، فإنك بهم تصول، وبهم تطول وهم العنة عند الشدة أكرم كريمهم، وعد<sup>(٢)</sup> سقيمهم وأشركهم في أمورك، ويسر عن معسرهم. وكان يقال إذا كان لك قريب فلم تمش إليه برجلك، ولم تعطه من مالك فقد قطعته. ويقال حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر على الأصغر. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على والده» قال بعضهم:

وإذا رزقت من النوافل ثروة  
واعلم بأنك لا تُسودُ فيهم  
فامنح عشيرتك الأمانى فضلها  
حتى ترى دمك الخلائق سهلها

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) وعد: زر المرض.

# الباب السادس والأربعون: في الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبیح والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول

## الفصل الأول: في الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهي الحسن والجمال. كان سيدنا محمد ﷺ رعة من القوم، لا بائناً من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج<sup>(١)</sup> العينين، مفلج الثنايا<sup>(٢)</sup> دقيق المسربة<sup>(٣)</sup>، أزهر الجبين، واضح الخد، أقى الأنف كأن عنقه إيريق فضة، ظاهر الوضاعة، يتلألاً وجهه تلالؤ القمر، شثن<sup>(٤)</sup> الكفين، مسح القدمين، واسع الصدر من لته إلى سرتة، شعره يجري كالقضب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شبيه في رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس<sup>(٥)</sup>، أنور المتجرد إذا مشى كأنما ينحط من صلب وإذا التفت التفت جميعاً، بين كتفيه خاتم النبوة كأنه زرّ حجلة، أو بيض حمامة لونه كلون جسده، أبلج الوجه حسن الخلق، وسيماً قسيماً في جبينه زجج<sup>(٦)</sup>، وفي عينيه دعج، وفي عنقه سطع وفي لحيته كثافة إن صمّت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدرن. قال أنس رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لمة سواده في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. ومدحه ﷺ حسان بن ثابت، رضي الله عنه فقال:

وأحسن منك لم تر قط عيني      وأجمل منك لم تلد النساء  
خُلقت مبراً من كل عيب      كأنك قد خُلقت كما تشاء

اللهم صلّى وسلم عليه واجعله شفيحاً لمن يصلي عليه. وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسيين وجهاً، وأبهاهم منظراً، وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً.

- (١) أدعج: واسع.
- (٢) الثنايا: الأسنان في مقدمة الفم.
- (٣) المسربة: شعر الصدر.
- (٤) شثن: خشن.
- (٥) الكراديس: رؤوس العظام.
- (٦) زجج: كثافة في شعر الحاجبين.

وحكي أنه كان جالساً بفناء داره يوماً بالبصرة إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله؟ فقالت: طفء مصباحنا، فجننا نقتبس من وجهك مصباحاً. وقيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفئك مشقة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق، والورد يشقق إذا مسه الندى. وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم، من أجمل الناس وجهاً، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فكانت تقول: ما نظرت وجهي في مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهي، إلا الوليد، فكننت إذا نظرت إلى وجهي مع وجهه رحمت وجهي من حسن وجهه. قال الشاعر:

ولو أنها في عهدِ يوسفَ قطعَتْ  
قلوبَ رجالٍ، لا أكفُ نساءِ  
وقال كثير:

ولو أن عَزَّةَ حَاكَمَتْ شمسَ الضحى  
في الحسنِ عند موفقٍ<sup>(١)</sup> لقضى لها  
ومما جاء في محاسن الخلق منظوماً على الترتيب، من الفرق إلى القَدَمِ.

ما قيل في الشعر: كان يقال: مَنْ تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليستحسن من شعرها، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين. قال بكر بن النطاح:

بيضاءُ سحبٍ من قيامِ شعرها  
فكأنها فيه نهارٌ ساطعٌ  
وللمتبي:

نشرت ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها  
واستقبلتَ قمرَ الزمانِ بوجهها  
وله أيضاً:

ليسَ الوشِي لا متجملاتِ  
وضَفَرُنَّ الغدائرَ لا لحسنِ  
وقال الصفدي:

لولا شفاعَةُ شعرِهِ في صبِّهِ  
لكن تنازَلَ في الشفاعَةِ عنده  
وقال ابن الصائغ:

نسى عُصْناً ومدَّ عليه فَرعاً  
كحظي حينَ أطلبُ منه وَضلاً

(١) موفق: قاض مشهور في الحقبة الأموية.

(٢) أسحم: بالغ السواد.

(٣) يُصَنُّ: يحمين ويحفظن.

وبلبّك<sup>(١)</sup> على الأردافِ منه  
فلم أرَ مثلَ ذلكَ الفرعِ أصلاً  
وقال آخر:

أرغى ثلاثاً يومَ حمامِهِ  
فقلتُ والقصدُ ذواباتُهُ  
وقال آخر:

بلت ثرياً قرطها وشعرها  
يا عجباً لشعرها لما ابتدى  
وقال ابن المعتز:

توازت عن الواشي بلبل ذوائبِ  
ينطوي عليها شعرها بظلامِهِ  
ومما قيل في الأصداف: قال ابن المعتز:

ريمٌ يتيهُ يخنن صورتهِ  
وكان عقربٌ صذفةً وقفتُ  
وقال العادلي:

وعهلي بالعقاربِ حينَ تشنرو  
فما بالُ الشتاءِ أتى وهذي  
وقال آخر:

وما ضرُّهُ نازٌ بخذنيه الهبتِ  
عناقيدُ صدغيه بخذنيه تلتوي  
شربتُ الهوى صرفاً زلالاً وإنما  
وقال آخر:

حلُّ القبا<sup>(٢)</sup> ولوى صدغيه فانعددا  
وأسكرتني ثناباه وريقتهُ

ومما قيل في مدح العذار<sup>(٣)</sup>. قال أبو فراس بن حمدان:

(١) بلبّك: فرقه.

(٢) الغوال: اسم لطيب.

(٣) القبا: رداء.

(٤) العذار: السالف.

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَيَّ هَوَاهُ جِهَالَةٌ  
حَسَنَتْ وَطَابَ نَيْمُهَا فَكَأَنَّمَا

وقال محمد بن وهب:

صَدُودُكَ وَالْهَوَىٰ فَتَكَاسْتَارِي<sup>(١)</sup>  
وَكَمْ أَبْصَرْتُ مِنْ حَسَنِ وَلَكِنْ  
وَلَمْ أَنْخَلِجْ عَذَارًا فَيْكَ إِلَّا

وقال آخر:

وَمَعَذِرٍ<sup>(٢)</sup> رَقَّتْ حَوَاشِي خَدِّهِ  
لَمْ يَكُنْ عَارِضَةً السَّوَادُ وَإِنَّمَا

وقال آخر:

وَمَهْفَهْفِي<sup>(٣)</sup> رَاقَتْ نَضَارُهُ وَجْهِي  
أَصْلَىٰ بِنَارِ الْخَدِّ عَنَبْرُ خَالِيهِ

وقال آخر:

أَصْبَحْتَ سُلْطَانَ الْقُلُوبِ مِلَاحَةً  
طَلَعْتَ طَلَاعُ جَنَّتِكَ مَيْرَةً

وقال آخر:

يَا ذَا الَّذِي خَطَّ الْعَذَارَ بِخَدِّهِ  
مَا صَعَّ عَنَدِي أَنْ لِحْظَكَ صَارِمٌ

وقال آخر:

مَنْ لَا أَرَىٰ كَعْبَةَ الْحَسَنِ الَّتِي حُرِّسَتْ  
فَلْيُنْظَرْ النَّمْلُ أَضْحَىٰ فَوْقَ عَارِضِهِ

وقال بدر الدين الدماميني:

يَحْدُثُ لَيْلُ عَارِضِهِ بِأَنْفِي  
فَأَشْرَقَ صَبْحُ غَرَّتِي بِسَادِي

وقال آخر:

وَقَالُوا تَسْلَىٰ فَقَدْ شَانَهُ

انظُرْ إِلَىٰ تِلْكَ السَّوَالِفِ تَعَذِّرِ  
مَسْكَ تَسَاقَطَ فَرْقٍ خَدُّ أَحْمَرِ

وَسَاعَدَنِي الْبِكَاءُ عَلَيَّ اسْتَهَارِي  
عَلَيْكَ لِشَقَوَتِي وَقَعَ اخْتِيَارِي  
لَمَّا عَايَنْتَ مِنْ خَلْعِ الْعَذَارِ

قَلْبُورِيًّا وَجَدًّا عَلَيْهِ رِقَاقُ  
نَفَضْتَ عَلَيْهِ سَوَادَهَا الْأَحْدَاقُ

وَالْعَيْنُ تَنْظُرُ مِنْهُ أَحْسَنَ مَنْظَرِ  
فَبَدَا الْعَذَارُ دَخَانَ ذَاكَ الْعَبْرِ

وَجَمَالُ وَجْهِكَ لِلْبَرِيَّةِ عَسْكَرُ  
بِالنَّصْرِ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ الْأَخْضَرُ

خَطَّيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبِلَابِلَا  
حَتَّىٰ حَمَلَتْ بِعَارِضَتِكَ حَمَائِلَا

بِالنَّمْلِ حَيْثُ مَقَامُ النَّحْلِ فِي فَمِهِ  
يَطُوفُ سَبْعًا وَسَبْعًا حَوْلَ مَبْمِهِ

سَأَسْأَلُوهُ وَيَنْصَرِمُ الْمَنْزَارُ  
حَدِيثُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهَارُ

عَذَارُ أَرَاخَكَ مِنْ صَدِّهِ

(١) استاري: فضجاً ما أخفيه.

(٢) معذِر: نابت العذار.

(٣) المهفهف: ضامر البطن.

قَلْتُ وَهَمْتُكُمْ وَلَكْتُنِي

وقال سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء:

عَلَى وَجِيهِهِ جَنَّةٌ ذَاتُ بَهْجَةٍ  
حَمَى وَرَدَ خَدَيْهِ حِمَاةَ عِذَارِهِ

وقال ابن نباتة:

وَيَمَهِّجُنِي رِشَا يَمِيسُ قَوَائِمُهُ  
شَغَفَ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ وَرَأَهُ قَدْ

وقال الموصللي:

لِحَدِيثِ نَبْتِ الْعَارِضِينَ خِلَاوَةٌ  
فَإِذَا نَهَانِي الْمَرْءُ قَلْتُ تَرْقُقُوا

وقال آخر:

أَصْبَحْتُ مَكْسُورًا بِهِمْ لِحَاظِهِ  
حَتَّى بَدَا سَيْفُ الْعِذَارِ مَجْرَدًا

وقال آخر:

يَا صَاحِبَ قَدِّ حَضَرَ الْمَدَامُ وَمُنِيَّتِي  
وَكَسَا الْعِذَارُ الْخَدَّ حَسَنًا فَاسْتَفْنِي

وقال ابن نباتة:

وَضَعْتُ سِلَاحَ الصَّبْرِ عَنْهُ فَمَا لَيْهَ  
وَسَالَ عِذَارٌ فَوْقَ خَدِّيهِ سَائِلٌ

ومما قيل في ذم العذار: قال الشاعر:

عَدَا لَمَّا تَخَى لَيْلًا بِهَيْمًا  
وَقَدْ كَتَبَ السَّوَادَ بِعَارِضِيهِ

وقال آخر في ذمه:

قَلْتُ لِأَصْحَابِي وَقَدْ مَرَّ بِي  
بِاللَّهِ يَا أَهْلَ وَدِّي قَفُّوا

وقال آخر:

مَا زَالَ يَتَفَرَّ رِيحَانًا بِعَارِضِيهِ  
كَأَنَّمَا طُورَ سِينَا فَوْقَ عَارِضِيهِ

وقال آخر:

خَلَعْتُ الْعِذَارَ عَلَى خَدِّهِ

تَسْرَى لَعِيونِ النَّاسِ فِيهَا تَزَاحِمَا  
فِيَا حَسَنَ رِيحَانِ الْعِذَارِ جِمَا حَمَى

فَكَأَنَّهُ نَشْوَانٌ مِنْ شَفَقَتِيهِ  
نَعَسْتُ لَوَاحِظَتُهُ فَدَبَّ عَلَيْهِ

وطلالوة هَامَتْ بِهَا الْعِشَاقُ  
فَالْيَكْمُ هَذَا الْحَدِيثُ يُسَاقُ

وَمَقِيدًا مِنْ صَدْغِهِ بِلِسَانِهِ  
فَخَشِيْتُ بِقَتْلُنِي وَذَا مِنْ شَائِرِهِ

وَحَظِيئْتُ بَعْدَ الْهَجْرِ بِالْإِنْسَانِ  
وَاجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ

يَغَازِلُ بِالْأَلْحَاطِ مَنْ لَا يَغَازِلُهُ  
عَلَى خَدِّهِ فَلَيْتَنِي اللَّهُ سَائِلُهُ

وَكَأَنَّ كَأَنَّهُ قَمَرٌ مَنِيرٌ  
لَمَنْ يَقْرَأُ وَجَاءَكُمْ النَّزِيرُ

مَتَجَبِّأَ بَعْدَ الْغَيْبِ بِالطَّلَمِ  
ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ زَوَالُ النَّعَمِ

حَتَّى اسْتَطَالَ عَلَيْهِ صَارَ يَحْلُقُهُ  
طَوَّلَ الزَّمَانَ فَمَوْسَى لَا يَفَارِقُهُ

أن لا يزال مدى الزمان مصاحبي  
فتمجّبوا لسواد وجه الكاذب

ولم يكن فرج من طول جفونيه  
واستز ملاحه خذيه بلحيه

ومن ناصر الريحان خضرة حاجب  
ومن حالك الحبر اسوداد الذوائب

وهب عليّ الجيش من كل جانب  
وميمنة تقضي بزج الحواجب

ويا غصناً يميل مع الرياح  
صباحاً في صباح في صباح

ومما قيل في العيون ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

عَيْتِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَانِدٍ<sup>(١)</sup> جَائِمٍ  
فِي جَفْنِيهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

سريع بكسر اللحظ والقلب جازع  
كما لأن مثنى السيف والحد فاطع

ولا تقرّب لها أبداً رجلاً  
يكذّن يكذّن<sup>(٢)</sup> بالحرق الرجلاً

هزّزّن سيفاً واستلّّن خناجرًا  
فغادّزّن قلبي بالتصبّر غادّزًا  
ومسنّن غصوناً والتقتّن جادّزًا<sup>(٣)</sup>

ما زال يحلف لي بكلّ البؤ  
لما جُنّ نزال العذار بخدّه

وقال ابن المعتز:

يا ربّ إن لم يكن في صلبه طمع  
فاشف السقام الذي في لخط مقلّته

ومما قيل في الجبين والحواجب. قال خالد الكاتب:

لها من طباء الرمل عين مريضة  
ومن يانح الأغصان قد وقامة

وقال آخر:

غزاتي الهوى في جيشه وجنوده  
بميرة أجنادها عين المها

وقال آخر:

أيا قمرأ تبسم عن إقحاح  
جيينك والمقبل والثنايا

ومما قيل في العيون. قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

وكانما دون النساء أعازها  
وسنان أقصدّه النماس تلاعبت

وقال ابن المعتز:

عليم بما تحت العيون من الهوى  
فيجرح أحشائي بعين مريضة

وقال الأخطل:

ولا تلمّم بدار بني كليب  
ترى فيها بوارق مرهفات

وقال أبو فراس وأحسن:

ويضّ بالأحاط العيون كأنما  
تصدّين لي يوماً بمنعرج اللوى  
سفرّن بدورا وانتقبن أهلة

(١) جادّز مفرد: جودز: ولد النعامة.

(٢) يكذّن يكذّن: أي يقارن إكداد الرجال.

(٣) جادّزًا: أربع حالات في أربع أوصاف: بدور عند الأسفار: أهلة عند الانتخاب. غصوناً في الشيء. جادّزاً في رشاقة الاضات.



وقال آخر:

ومريضٌ جفنٍ ليس يصرفُ طرفَهُ  
قد قلتُ إذ أبصرتهُ متمائلاً  
يا من يُسلمُ خصرةً من ردفِهِ  
نحو امرئٍ إلا رماءُ بختِهِ  
والردفُ يجذبُ خصرةً من خلفِهِ  
سلمٌ فؤادٍ محبٍ من ظرفِهِ

وقال أبو هتان:

أخو دنفٍ<sup>(١)</sup> رمتهُ فأقصذتهُ  
فوايكُ لا يقالُ سوى احورارٍ  
أصبَنَ فؤادٌ مهجتهُ فأصحى  
كثيلاً إن ترخَّلَ عنه جيثُ

وقال آخر:

وجاءوا إليه بالتعاويدِ والرقى  
وقالوا به من أعينِ الجنِّ نظرةً  
فصبوا عليه الماءَ من شدةِ النكسِ  
ولو انصفُوا قالوا به عينُ الإنسِ

وقال عز الدين الموصلِي:

لها عينٌ لها غَزْرٌ وغزلٌ  
وحاكتُ في فعائلها المواصي

وقال برهان الدين القيراطي:

شبههُ السيفِ والسنانِ بعيني  
فأتى السيفُ والسنانُ وقالاً

وله أيضاً:

بأبي أميفُ المعاطفِ لَنذُ  
ذو جفونٍ مذ رمثُ منها كلاماً

وقال بدر الدين بن حبيب:

عيناهُ قد شهدتُ بأنِّي مخطيءُ  
يا حاكمَ الحبِ أُرِّدُ في قلتي

وقال جلال الدين بن خطيب داريا:

شهدتُ جفونُ معذبِي بملالو  
لكنني لم أنأ عنه لأنهُ

(١) دنفٍ: شدة السقم.

(٢) قلته: أي السيف حده.

وقال الشيخ عز الدين الموصلي:

يا مقلّة<sup>(١)</sup> الحب مهلاً  
وانت يا وجيتيه

وقال ابن الصائغ:

لمثلي من لواظها سهام  
إذا رامت تشك فزاداً

وقال الصلاح الصفدي:

يا عاذلي على عين محبب  
وخذ فزادي ودعه نضب مقلتها

وقال آخر:

بهم أجزائه رماني  
إن مت ما لي سواء خصم

وقال آخر:

سهاؤ الجفن كم قتلت لفسر  
فما أقوى جفونك وهي مرضى

ومما قيل في الخال؛ للصلاح الصفدي:

بروحي خله المحمر أضحى  
كان الحسن يمشقه قديماً

ولابن الصائغ:

بروحي أفدي خاله فوق خده  
تبارك من أخلص من الشعر خده

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

له خال على خد الحبيب له  
أورثه جبة القلب القليل به

وقال آخر:

يا سالباً قمر السماء جماله  
أحرقت قلبي فارتمي بشرارة

وللشيخ تقي الدين بن حجة:

(١) المقلّة: العين.

فِي تَقَا جِيدِهِ السَّعِيدِ  
أَنَا عَبْدٌ لَكَيْلٍ جِيدِ

قَلْتُ لِلخَالِ إِذْ بَدَا  
فَزَتْ يَا عَبْدُ قَالَ لِي

وقال ابن أبيك:

تَقَطَّةٌ مَسَكِ أَشْتَهِي شَمَهَا  
وَجَذْنُهُ مِنْ حَسَنَاهَا عَمَّهَا

فِي الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ مِنْ خَدِّهَا  
حَسْبُهُ لَمَّا بَدَا خَالَهَا

وقال الحسين بن الضحاك:

بِاللَّحِظِ تُفْنِي وَتُسَبِي  
فَصِيدَتْ طَائِرَ قَلْبِي

بِأَصَائِدِ الطَّيْرِ كَمْ ذَا  
نَعَبْتِ تَقَطَّةَ خَالِي

ومما قيل في الخلود. قال ابن المعتز:

مَنْ مَعَانٍ يَحَاؤُ فِيهَا الضَّمِيرُ  
وَيَخْدَيْ لِّلْمَمُوعِ غَدِيرُ

صِلْ بِخَلْدِي خَدَّيْكَ تَلَقَّ عَجِيئاً  
وَبِخَدَّيْكَ لِلرَّيْبِ رِيَاضُ

وقال آخر:

وَتَصَافُحُ الشَّفَيْتَيْنِ فِي الْخَلَوَاتِ  
وِحَيَاتِهِ أَحْلَى مِنَ اللَّذَاتِ

وَرَدُّ الْخُدُودِ وَنَرْجَسُ اللَّحْظَاتِ  
شَيْءٌ أَسْرُبُ بِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ

ومما قيل في الثغور. قال يوسف بن مسعود الصواف:

وَوَلِي مَنَامِي وَهُوَ كَالْوَضَلِ شَارِدُ  
وَحَتَّامٌ يَحْمِي ثَغْرَهُ وَهُوَ بَارِدُ

بِرُوحِي مَنْ وَلى<sup>(١)</sup> فَوَلَّى بِمَهْجَتِي  
حَمَى ثَغْرَهُ مِنِّي بِسَيْفِ لِحَاظِهِ

وقال آخر:

وَجَمَعْتُ فِيهِ كُلَّ مَعْنَى شَارِدِ  
فَمَضَى وَرِاحَ تَغْزُلِي فِي الْبَارِدِ

أَنْقَسْتُ كَنْزَ مَدَامَعِي فِي ثَغْرِهِ  
وَطَلَبْتُ مِنْهُ جِزَاءَ ذَلِكَ قَبْلَهُ

وقال آخر:

وَلَمْ يَنْدِرْ أَنَّ اللُّومَ فِي خَلْدِهِ يَغْرِي  
وَأَحْسَنُ مَا كَانَ الزَّبَابُ عَلَى ثَغْرِهِ<sup>(٢)</sup>

رَأَى ثَغْرَ مَنْ أَهْوَى عَدُولِي فَقَالَ لِي  
شَغَلْتُ بِهَذَا وَارْتَبَطْتُ بِحَسْنِهِ

وقال ابن ريان:

ثَلَاثُ شَامَاتٍ عَدَّتْ فِي الثَّامِ  
فَالْمَهْلُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزَّحَامِ

لَا حَتَّ عَلَى مِسْمِيهِ الْمُشْتَهَى  
لَا تَعَجَّبُوا إِنْ كَثُرَتْ حَوْلَهُ

ومما قيل في طيب الريق والنكهة. قال ذو الرمة:

(١) ولى: أعرض.

(٢) الثغر: الفم وكذلك الحدود.

عروب<sup>(١)</sup> كإيماض الغمام ابتسائها  
زجاجة خمير طاب فيها مداؤها

بشرب راح تعطُّر  
فالشئ بالشئ يُذكر

ولم يكن لي صبر  
فأزل الغيث قطر

من فهو مُزجبت بماء الكوثر  
يرويه نضاً عن صحاح الجوهر

ملاح أدلتها واضحة  
هي الطعم واللون والرائحة

بتوره كالبذر بين غيوم  
فسكرت في الحالين من خرطوم

رشت فكدت<sup>(٣)</sup> منه فلن أفيقا  
جهلت بأن في الأسماء ريقا

تعجب رائسي السدر حسناً ولاقطنة  
ومن لؤلؤ عند الحديث ساقطنة

يوم ولم نشرب شرباً ولا خمرا  
وإن نطقنا هاجت لأبائنا سكرا

أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلة  
كان على فيها وما ذقت طعمه

قال شهاب الدين الكردي:

ذكرت ريح حبيبي  
وليس ذا بعجيب

وقال غيره:

رشت ريقك خلوا  
وسوف أحظى بوصل

وقال الصلاح الصفدي:

نقل الأراك<sup>(٢)</sup> بأن ريقه ثغره  
قد صغ ما نقل الأراك لأنه

وقال آخر:

ثلاث تجمغن في ثغرها  
فإن قيل ما هي قل لي أقل

وقال آخر:

يا رب متنع الوصال محجَّب  
دارت مراشفة علي وكأسه

وقال آخر:

أريقاً من رضاك أم رقيقاً  
وللصهباء أسماء ولكن

ومما قيل في حسن الحديث. قال البحري:

ولما التقينا والنقا موعداً لنا  
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسائها

وقال سلم الخاسر:

ظلتنا فبتنا عند أم محمد  
إذا صمتت عنا ضجرتنا لصمتها

(١) عروب: عفيفة عن الفحش.

(٢) الأراك: نبت طيب العرق.

(٣) كدت: تعبت.

وقال ابن الرومي:

يمسي ويصبح معرضاً فكأنه  
ليست إساءته بناقصه له  
ملكٌ عزيزٌ قاهرٌ سلطانه  
دُرٌّ يساقطه إليّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات، وهي من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف:

وكل حديث الناس إلا حديثها  
جرّخنَ بأعناقِ الظباءِ وأعينِ الـ  
رجّخنَ بأردافِ نقالٍ وأسوقِ  
رجيعٌ وفيما حدّثك الطرائفُ  
جاذِبٌ وارْتَجَّتْ بهنَّ الروادِفُ  
جذالٍ وأعضاءٍ عليها المطارفُ

ومما قيل في رقة البشارة. قال ابن المعتز<sup>(١)</sup>:

نَفَسَتْ<sup>(٢)</sup> عنها القميصَ لصبِّ ماءٍ  
وقابَلَتِ الهِواءَ وقد تعرَّتْ  
وملئتُ راحةً كالماءِ منها  
فلما أن قَفَسَتْ وطراً وهَمَّتْ  
رأتُ شخصَ الرقيبِ على التذاني  
فغابَ الصبحُ منها تحتَ ليلٍ

وقال آخر:

تغيَّرَ عني موَدَّتِهِ وحالاً<sup>(٣)</sup>  
وعلمتُهُ التبدُّلَ كيفَ هجري  
تَرَى من فوقِ حقويه<sup>(٤)</sup> قضيماً  
إذا كَلَمْتَهُ أَلَمَّتْ فِيهِ

وقال بشار:

وما ظفرت عيني غداة لقيتها  
كحوراء من حور الجنانِ غريرة<sup>(٥)</sup>  
بشيءٍ سوى أطرافها والمحاجرِ<sup>(٥)</sup>  
يَرى وجهَهُ في وجهها كلُّ ناظرٍ

ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرتُ إلى وجهِهِ نظرةً  
فأبصرتُ وجهي في وجهِهِ

(١) المحفوظ أنها لأي نواس.

(٢) نفست: خعلت.

(٣) وحالاً: تحول.

(٤) حقويه: أي فوق الخصر.

(٥) المحجر: العين.

(٦) غريرة: ساذجة - غير مجربة.

وقال آخر:

تروممه قلبي فأصبح خدّه  
ومرّ بفكري جسمه فجرّخته

وقال آخر:

سقى الله روضاً قد تبدّى لناظري  
وقد نضحت خداه من ماء ورده

وقال آخر:

وأهيفَ فدّه كُسيّ احمراراً  
فلو أخرجته بالقول جهدي

ومما قيل في التجميل . قال المظفر الأعمى:

قبتنه فتلطّسى جمراً وجتبه  
وجال بينهما ماء ولا عجب

وقال آخر:

سألته في ثغره قلبه  
فهاكها في الخد واقنع بها

قال صاحب حماة:

قال الذي يّمني  
بروم مني قلبه

وقال الشيخ عز الدين الموصلي:

كالزرد المنظوم أصدأه  
بالفت في اللثم وقبته

وقال آخر:

رأيت الهلال على وجهه  
سوى أن ذاك بعيد المزار  
وذلك يغيبُ وإذا حاضرُ  
فلم أدر أيهما أنورُ  
وهذا قريب لمن ينظرُ  
وما من يغيبُ كمن يحضرُ

(١) الشادن: الغزال.

(٢) العبق: الفواح.

(٣) الخيل: ذهاب العقل.

(٤) ورد: أتى.

ونفَعُ الهلالِ قليلٌ لنا

وقال ابن صابر:

قَبَلْتُ وَجْهَهُ فَأَلْفَتَ جَيْدَهُ  
فَانهَلَّ مِنْ خَدَّيْهِ فَوْقَ عِذارِهِ  
فَكَأَنِّي اسْتَقَطَرْتُ وَرَدَّ خُدُودِهِ

وقال آخر:

قَبَلْتُ رِجْلَ حِيبي  
وقال تَلُّمُ رِجْلِي  
قَلْتُ ما جِئْتُ بِدَعاءِ  
رِجْلِ سَعَتِ بِكَ نَحوي

ومما قيل في الوجه الحسن لابن نباتة:

إِنِّيةً فِي مِثالِ الجِنَّ تَحسِبُها  
شَقَّتْ لَها الشَّمسُ نُوباً مِنْ مَحاسِنِها

وقال عبد الله بن أبي خبيص:

تَصَدُّ مِنْ غَيْرِ عِلَّةِ  
كَأَنَّها حِينَ تَدُنُّو  
وَإِنْ أَضَاعَتْ بِلِيلِ

وقال آخر:

أَقِيبُ بِاللهِ وَأَيَّاتِهِ  
وَلا بِدَا وَجْهَهُ لِي طالِعاً

وقال آخر:

أَقِيبِي مَكَانَ البَدْرِ إِنْ أَقَلَّ<sup>(٣)</sup> البَدْرُ  
فَقِيكَ مِنَ الشَّمسِ المَنيِرَةِ نُورُها

وقال عمر بن أبي ربيعة:

ذاتِ حَسَنِ إِنْ تَوَقَّبَ شَمْسُ الضَحى  
أَجْمَعَ النَاسُ عَلَيَّ تَفْضِيلِها

ونفَعُ الحِيبِ لَنا أَكْثَرُ

خَجَلًا وَماسٍ بِعَظْفِهِ المِياسِ<sup>(١)</sup>  
عَرِقٌ يَحاكِي الطَلَّ فَوْقَ الأَسِ  
بِتِصاعِدِ الزَفْراتِ مِنْ أنْفاِسي

فَازوَرَّ واحْمَرَّ خَدًا  
لَقَد تَنالَ زَلَّتْ جَدًا  
وَلا تَجْاوِزُتُ حَدًا  
حَقوْقُها لا تَوَدِّي<sup>(٢)</sup>

شَمِئاً بَدَتِ يَينَ تَشْرِيقِو وَتَغْمِيمِ  
فَالوَجْهُ لِلشَّمسِ وَالعَينانِ لِلرِيمِ

بِالعَمَرُ أَضَحَّتْ مِذْلَةً  
شَمْسٌ عَلَيا مِظْلَةً  
تَفاوِقُ نَوَرِ الأَهْلَةَ

ما نَظَرْتُ عَينِي إِلي مِثْلَةَ  
إِلا سَأَلْتُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَقومِي مِقامَ الشَّمسِ قَدائِها الفَجْرُ  
وَليس لَها مِنْكَ التَبَسُّمُ وَالشَّغْرُ

فَلنا مِنْ وَجْهِها عَنا خَلَفِ  
وَهوامِ فِي سَوِي هَذا اِختَلَفِ

(١) ماس: تتي.

(٢) تودى: أي لا يستطيع مكافأتها.

(٣) أقل: غاب.

أخذ أبو تمام المعنى فرده إلى المدح فقال:

لو أن إجماعنا في فضل سؤدده

وقال آخر:

يا مفرداً في الحسن والشكل  
البلد من شمس الضحى نوره

وقال آخر:

فما أنا أدري أيها هاج لي كربي  
أم النطق في سمني أم الحب في قلبي

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندي قال: هذا تقسيم فلسفي، وجعله العلوي خمسة فقال:

وفي خمسة مني حلت منك خمسة  
ووجهك في عيني ولمسك في يدي

وقال ابن نباتة:

أيها العاذل الغبي تأمل  
وتعجب لطررة وجيين

وقال محمود المخزومي:

رأيتك في الشمس المنيرة غدوة  
لأنك تزهو إن بدا الليل بهجة

وقال آخر:

إذا احتجبت لم يكرمك البلد وجهها  
وحببك من خمر مذاقة ريقها

ومما قيل في البنان المخضب. قال ابن الرومي:

وقفت وقفة بباب الطاق  
بنت سبع وأربع وثلاث<sup>(٤)</sup>

قلت من أنت يا غزال قالت:

لا ترم وضاننا فهذا بنان

(١) الرشف: الإرتشاف والمص.

(٢) العرف: الريح الطيبة.

(٣) مخدرات: نبات خلدور وأستار.

(٤) بنت أربع عشرة سنة.



وقال الراضي بالله:

قالوا الرحيلُ فأُنشِبَتْ أظفارها  
فظننتُ أن بناتها من فقسوة

وقال آخر:

لما اعتنقنا للوداع وأعررت  
فرقن بين محاجرٍ ومعاجر<sup>(١)</sup>

وقال آخر:

ولما تلاقينا رأيتُ بناتها  
فقلت خضبتِ الكفَّ بعدي أهكذا  
فقلت وأذكتُ في الحنا لاجع<sup>(٢)</sup> الجوى  
بكيثُ دماً يومَ النوى فمسختهُ

وقال آخر:

دنونٌ عشيّةَ التوديع مني  
فلم يمسخن إكراماً جفوني

ومما قيل في النحور. قال دعبل:

أتاح لك الهوى ييضاً حسناً  
نظرت إلى النحور فكنت تُفسي

ومما قيل في نعت اليهود. قال العباس بن الأحنف:

والله لو أن القلوب كَلَّها  
جالَ الوشاحُ على قضيبِ زانهُ

وقال آخر:

ومجوبةً عندَ الوداع رأيتها  
وتبكي حذارَ الين منها بلمعة  
فتحسبُ مجرى الدمع من وجناتها

(١) المعاجر: نوع من الألبسة.

(٢) العندم: نبات أحمر.

(٣) لاجع الجوى: شدة الشوق.

(٤) الولد: أي قلبها قلس.

(٥) الممسك: الرداء المدون بالمسك.

وقد سَفَرَتْ عن غِرْوٍ بَابِلِيَّةٍ

وقال عمرو بن كلثوم:

نراك إذا دخلت على خلاء  
لهدي مثل حقِّ العاجِ حسناً

وقال آخر:

بصَدْرِيَا كوكِبَا دُرٌّ كَأَنَّهُمَا  
صَاتَتُهُمَا بِسُورٍ مِنْ غَلَاتِلْهَا

وقال آخر:

صَدُورٌ فَوْقَهُنَّ حَقَاقُ عَاجٍ  
يَقُولُ النَّاطِرُونَ إِذَا رَأَوْهُ  
وَمَا تِلْكَ الْحَقَاقُ سِوَى نُدِيِّ  
نَوَاهِدُ لَا يُعَدُّ لِهِنَّ عَيْبٌ

وقال آخر:

لَقَدْ فَتَكَتْ عَيُونُ الْغَيْدِ (٣) فِينَا  
وَتَطَعَّتْنَا الْقُدُودُ إِذَا التَّقِيْنَا

ومما قيل في الأرداف والخصور. قال ابن الرومي:

وَشَرِبْتُ كَأَنَّ مَدَامِةً مِنْ كَهَّهَا  
وَتَمَايَلْتُ فُضِحِكْتُ مِنْ أَرْدَافِهَا

وقال الطنبغا المحاربي:

رَدْفُهُ زَادَ فِي التَّمَالُؤِ حَتَّى  
نَهَضَ الْخَصْرُ وَالْقَوَامُ وَقَالَا

وقال آخر:

يَا خَصْرَهُ كَمْ جَفَاءَ  
يَا رَدْفَهُ بِلْتِ عُنِّي

وقال القيراطي:

بَلَدْتُ رَوَادِفُ بَلْدِي

وَصَدِرٍ بِهِ نَهْدٌ بِحَقِّ (١) مَفْكَكِ

قَدْ امْتَدَّتْ عَيُونُ الْكَاشِحِينَا (٢)  
حَصِينَا مِنْ أَكْفِ الْإِلَامِينَا

رَكْنَانٍ لَمْ يَدْنَسَا مِنْ لَمَسٍ مُسْتَلِمٍ  
فَالنَّاسُ فِي الْحَلِّ وَالرَّكْنَانِ فِي الْحَرَمِ

وَدُرٌّ زَانَةٌ حَسَنٌ أَتَقَاقٍ  
أَهَذَا الْحَلِيِّ مِنْ هَذِي الْحَقَاقِ  
جَمَلَنْ مِنَ الْحَقَاقِ عَلَى وَفَاقِ  
سِوَى مَنْعِ الْمَحَبِّ مِنَ الْعِنَاقِ

بِيضِي مَرْهَفَاتٍ وَهِيَ سُودُ  
بَسْمِيرٍ مِنْ أَسْتِهَا النَّهْودُ

مَقْرُونَةٌ بِمَدَامِةٍ مِنْ تَغْرِهَا  
عَجِبَا وَلَكِنِّي بَكَيْتُ لَخَصْرِهَا

أَقْعَدَ الْخَصْرَ وَالْقَوَامَ السُّوِيَا  
فَضَعِيفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيَا

تُبْدِي وَأَنْتِ نَجِيلُ  
مَا أَنْتِ إِلَّا بَخِيلُ

تَحْتَ الْحَيْنِ لَعِينِي

(١) الحُق: إناه.

(٢) الكاشحينا: الأعداء.

(٣) الغيد: مفردة غيداء: الحناء ذات العنق المميز.

فقلتُ يا بدرُ هذا حقاً خيالٌ لحيني

وقال آخر:

أسألها أينَ الوشاخُ وقدَ سَرتُ  
فقلتُ وأوتتُ للسوارِ نحلتهُ  
معطلةٌ منه معطرةُ النَّشرِ<sup>(١)</sup>  
إلى معصمي لما تَلَقَّقَ<sup>(٢)</sup> في خصري

وقال آخر:

بيضٌ وسميرٌ مقلتاهُ وقلتهُ  
أقسى من الحجرِ الأصمِّ فؤادهُ  
بِنَدْرٍ وئيلٌ وجتاهُ وشعرهُ  
وأرقٌ من شكوى الميِّمِ خصرهُ

وقال آخر:

رخيماتُ المقالِ مدلاتُ  
جمَمنَ فخامةً وخلوصَ جيدِ  
جواعلٌ في الثرى قُضِباً جذالاً<sup>(٣)</sup>  
وقنْداً بعدَ ذلكِ واعتدالاً

ومما قيل في المعاصم . قال عمر بن أبي ربيعة:

حسروا الوجوة بأذرعٍ ومعاصمِ  
حسروا الأكمة عن سواعدٍ فضةٍ  
ورنؤوا بنجلٍ للقلوبِ كوالمِ<sup>(٤)</sup>  
فكأنما انتصبَتْ متونٌ صوارمِ

ومما قيل في اعتدال القوام . قال صلاح الدين الصفدي:

تقولُ له الأغصانُ مدهزَّ عطفهُ  
فقم نحتكُم للروض عند نسيهِ  
أتزعَمُ أن اللينَ عندك ما نوى  
ليقضي على مَنْ مالَ منا إلى الهوى

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الدير.

وقال القاضي مجد الدين بن مكناس:

أقولُ لحبي قُمِ وملِ يا معلبي  
ولا تلهُ عن شيءٍ إذا ما حكيتها  
كَمَيْلَةٍ خودِ<sup>(٥)</sup> غيرِ السكرِ حالها  
فقامَ كعصنِ البانِ ليناً ومالها

وقال آخر:

ومحككم أعطافهُ  
فأعجب لعادل قدهُ  
في قتلِ صبِّ ما عوى  
في النفسِ يحكم بالهوى

(١) النشر: الراحة.

(٢) تَلَقَّقَ: صار فضفاضاً.

(٣) جذالاً: مرحاتٍ.

(٤) كوالم: جوارح.

(٥) خود: الفتاة الناعمة الجميلة.

وقال آخر:

يوماً إليّ فصحتُ من ألمِ الجوى  
فأجابَ كيفَ وأنتَ من أهلِ الهوى

ومفهفٍ عني يميلُ ولم يميلِ  
لِمَ لا تميلُ إليّ يا غصنَ النقا

ومما قيل في الساق. قال ذو الرمة:

عن ساقِهِ كاللؤلؤِ البراقِ  
إن القيامةَ يومَ كشفِ الساقِ<sup>(١)</sup>

لم أنسهُ إذ قام يكشفُ عامداً  
لا تعجبوا إن قامَ فيه قيامتي

وقال آخر:

كلؤلؤٍ يبدو لعناقها  
وقامتِ الحربُ على ساقها

جاءتِ بساقٍ أبيضٍ أملسٍ  
فانتتت فيها جميعُ السورى

وقال ابن مقعد:

ظَبِّي وَلكِنَّه أنيسُ  
فما لأعطافه تميمُ<sup>(٢)</sup>

بدرٌ وَلكِنَّه قريبُ  
إن لم يكنْ قُدّه قضيماً

ومما قيل في مشي النساء. قال بعضهم:

هزَّ الشمالِ ضحى عيدانِ نسرينِ  
أيدي الرجالِ فزادَ المتنُ في اللينِ

يهززن للمشي أطرافاً مخضبةً  
أو كاهنزازِ رديني تداولهُ

وقال آخر:

قَبَّ البطونِ<sup>(٤)</sup> رواجحَ الأضالِ<sup>(٥)</sup>  
يقلعونَ أجلهنَّ من أحوالِ

بمِشِينِ مَشِي قَطَا البَطَاحِ تَأوُدا<sup>(٣)</sup>  
فكأنهنَّ إذا أرذنَ زيارَةً

ومما قيل في العناق وطيبه. قال ابن المعتز:

وأهْوَنَ السقمِ إلى العائدِ  
تفَسَّتْ في ليلها الباردِ  
حَبِيَّتَا في جسدِ واحدِ

ما أقصرَ الليلَ على الراقِدِ  
كأنني عانقتُ ريحانةً  
فلو ترانا في قميصِ الدجى

وقال آخر:

وأعزتهُ من ساعديّ وشاحا

وموشحِ نازغتُ فضلَ وشاحِهِ

(١) كشف الساق: «والفتت الساق بالساق».

(٢) تميم: تميل.

(٣) تأوذا: تمايل دلاً.

(٤) قَبَّ البطون: بيطن كالثقة.

(٥) الأضال: عظيمات الورك.

وأمالَ أعطافاً عليّ ملاحاً

ولليلٍ في كلِّ فجٍّ يذُ  
فلله ما ضَمَّنَا المسجدُ  
فلا تَنذُنْ من ليأتي يا غُدُ  
كما ليلةُ الهجرِ لا تَفدُ

كواكبُهُ من بدرِهِ المتأَلِّقِ  
تعيثُ الهوى ما بينَ صدرٍ ومرفقِ

مختلسات حنازَ مرتقبِ  
من النواطيرِ<sup>(٢)</sup> يانعِ الرطبِ

فنصنُ وأنا قلُّها ققضيْبُ  
لتطلعُ أحياناً له فيغيْبُ  
وغصنُ الهوى غصنُ النباتِ رطيبُ  
وأنتَ الهوى أدعى له فأجيْبُ

وأدنى فؤاداً من فؤادِ معذبِ  
من الخمرِ فيما يتنا لم تسربِ

حسبي بوجهِ معذبِي مصباحا  
خمرأ وحسبي خدُّه نفاحا  
مستغنياً عن كلِّ نجمٍ لاحا  
وجعلتُ كفي للشامِ وشاحا  
متعاقبين فلا نريدُ براحا

باتَ الفيورُ يشقُّ جلدةً وجهِهِ

وقال ابن المعدل:

أقول وجنحُ اللجى مسبلُ  
ونحنُ ضجيجانٍ في مسجدِ  
أيا غُدُّ إن كنتَ لي محسناً  
ويا ليلةَ الوصلِ لا تقصُري

وقال آخر:

وليلٍ رقيقِ الطرَّتَيْنِ<sup>(١)</sup> تظلمتُ  
لهوْنَا بفزلانِ الصريمَةِ تحتهُ

وقال ابن المعتز:

وكم عناقٍ لنا وكم قُبَلِ  
تقرَ المصافيرِ وهي خائفةُ

وقال ديك الجن:

ومعدولةٌ مهما أمالتَ إزارها  
لها القمرُ الساري شقيقٌ وإنها  
أقولُ لها والليلُ مُرخِ سدولة<sup>(٣)</sup>  
لأنتَ المنى يا زَيْنَ كلِّ مليحِ

وقال علي بن الجهم:

مضى الله ليلاً ضَمَّنَا بعد فرقةٍ  
فبتنا جميعاً لو تُرَاق زجاجةُ

وقال آخر:

يا ليلُ دُمِ لي لا أريدُ براحاً  
حسبي به نوراً وحسبي ريقُ  
حسبي بمضحكِهِ إذا استضحكتُهُ  
طرقتُه طوقَ العناقِ بساعدِ  
هذا هو اليومُ النعيمُ فخلنا

(١) الطرَّتَيْنِ: الأطراف.

(٢) الناطور: الحارس.

(٣) سدولة: منزل أستاذه.

وقال آخر:

ولم أنسَ ضمِّي للحبيب على رضا      ورشفي رضاباً كالرحيق المسلسل<sup>(١)</sup>  
ولا قولهُ لي عند تقييل خَدِهِ      تَقَلُّ فَلَذَاتُ الْهَوَى فِي التَّقَلِّ

ومما قيل في السمن. قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: ما رأيت سمياً عاقلاً إلا محمد بن الحسن. قال الشاعر:

لا أعشَقُ الأيضَ المنفوخَ من سمنٍ      لكنني أعشَقُ الثُمَرَ المهازِلا  
إني امرؤُ أركبُ المهرَ المضمَر<sup>(٢)</sup> في      يومِ الرهابِ، وغيري يركبُ الفِلا

وما قيل في مدح الألوان والثياب، مدح الياض: قال رسول الله ﷺ: «الياضُ نصفُ الحسن»، وكان ﷺ أيضاً تزهو اللون مشرباً بحمرة. قال الشاعر<sup>(٣)</sup>:

ييضُ الوجوهَ كريمةً أحاسِبُهُم      شمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ

ومما قيل في مدح السواد. قيل لبعضهم: ما تقول في السواد؟ قال: النور في السواد. أراد بذلك نور العينين في سوادهما. وقال بعضهم:

قالوا تعشَقْتَهَا سوداءَ قلتُ لهم      لونُ الغوالي ولوْنُ المسكِ والعودِ  
إني امرؤُ ليسَ شأنُ الياضِ مرتفعاً      عندي ولو خلعتُ الدنيا من السودِ

وقال الحيقطان:

لئن كنتَ جعدَ الرأسِ واللونُ فاحمٌ      فإني بسيطُ الكفِّ والعرضُ أزهرُ

ومما قيل في الوجه الحسن:

إن سوادَ اللونِ ليسَ بضائري      إذا كنتَ يومَ الروعِ بالسيفِ أخطرُ

ودخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم نعم، فتمثل المأمون بيت نصيب، فقال:

إن كنتَ عبداً فنسي حرّةً كرماً      أو أسودَ اللونِ إني أبيضُ الخلقِ

ثم قال: يا عمّ أخرجنا من الهزل إلى الجد، فأنشد إبراهيم:

ليس يزري السوادَ بالرجلِ الشهِه      سم ولا بالفَتَى الأريبِ<sup>(٤)</sup> الأديبِ  
إن يَكُنْ للسوادِ فيكَ نصيبٌ      فيياضُ الأخلاقِ منكَ نصيبي

وقال آخر:

- (١) المسلسل: العذب.  
(٢) المضمَر: النجيب من الخيل.  
(٣) الشاعر حسان بن ثابت يمدح الغمامة.  
(٤) الأريب: العاقل اللبيب.

لَمْ العواذِلُ فِي سِوَادِ فَاحِمَةٍ      كَأَنهَا فِي سِوَادِ الْقَلْبِ تَمثالُ  
وَهَامَ فِي الْخَالِ أَنْوَامٌ وَمَا عَلِمُوا      أَنِّي أَهيمُ بِشَخْصِ كُلِّهِ خَالُ

وقيل للمدني: كيف رغبت في السواد؟ فقال: لو وجدنا بيضاء لسودناها.

وقال آخر:

يَكُونُ الْخَالُ فِي خَدِّ قِيحٍ      فيكُوه المِلاحَةَ والجَمالَا  
فَكَيْفَ يَلَامُ ذُو عَشْقٍ عَلَى مَنْ      يراها كُلِّها فِي الخَدِّ خالَا

وقال آخر:

فاسْتَحْسَنُوا الْخَالَ فِي خَدِّ فَقَلْتُ لَهُمْ      إِنِّي عَشِقْتُ مِليحاً كُلِّهِ خَالُ

وكان أبو حاتم المدني يشدد:

وَمَنْ يَكُ مَعْجِبَتاً بِنِاتِ كَسْرِي      فإِنِّي مَعْجِبٌ بِنِاتِ حَامٍ<sup>(١)</sup>

وتفاخرت حبشية ورومية، فقالت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم. فقالت الحبشية: أنا حبة مك،

وأنت عدل ملح. وقد قال الشاعر:

أَجِبُّ لِحَبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى      أَجِبُّ لِحَبِّهَا سِوَادَ الْكِلَابِ

وقال آخر:

أَشْبَهَكَ الْمِسْكَ وَأَشْبَهْتَهُ      قَائِمَةً فِي لَوْنِهِ فاعِدَةً  
لَا شَكَّ إِذْ لَوْنُكُمْما واحِدٌ      إنكُما مِنْ طِينَةٍ واحِدَةٍ

ومما قيل في الصفرة. قال الشاعر:

أَصْفَرَاءُ كانَ الْهَجْرُ مِنْكَ مِزاحاً      لِيالِي كانَ الْوَدُّ مِنْكَ مِباحاً  
كَأَنَّ نِساءَ الْحَيِّ ما دَمَّتْ فِيهِمْ      قِباحاً فَلِما غَبَّتْ صِرْزَنٌ مِلاحاً

وقال آخر:

قالوا بِهِ صِفرةٌ شانتَ مِحابِئَهُ      فقلْتُ ما ذاكَ مِنْ عِيبٍ بِهِ نِزلا  
عِناهُ مِطلوبَةٌ فِي نارٍ مَنْ قَلتْ      فِلستَ تَلقاهُ إِلا خائِضاً وَجِلا

ومما قيل في طول اللحية. قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيباني إلى رجل ذي لحية

عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب<sup>(٢)</sup>. فقال له: يا هذا إنك من لحيتك في مؤنة فقال أجل ولذلك أقول:

لِها دِرهَمٌ لِلدَّهْنِ فِي كُلِّ جَمْعَةٍ      وَأَخْرُ لِلْحِناءِ بِتَدْبِبانِ  
وَلِولا نِوالٍ مِنْ يَزِيدِ بْنِ مِزِيلِ      لِأصَبَحَ فِي حائِياتِها الحِمانِ<sup>(٣)</sup>

(١) بنات حام: أي الزوج.

(٢) خاضب: يضع الحناء.

(٣) الحمان: القرادات.

وقال إسحاق بن خلف في قصير طويل اللحية .

مَشَيْتُ دَاوُدَ فَاسْتَضْحَكْتُ مِنْ عَجَبٍ  
مَا طَوَّلُ دَاوُدَ إِلَّا طَوَّلُ لِحْيَتِهِ

وقال ابن المقفع:

تَأَمَّلْتُ أَسْوَاقَ الْعِرَاقِ فَلَمْ أَجِدْ  
جُلُوساً عَلَيْهَا يَنْفُضُونَ لِحَاءَهُمْ

ومما جاء في عظم الخلقة والطول والقصر . قيل: خرب القهندر<sup>(١)</sup> فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت جمجمة فانتشرت أسنانها، فوزن السن منها فكان وزنها أربعة أرتال، فأتي بها إلى ابن المبارك فجعل يقلبها ويتعجب من عظمها ثم قال:

إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ أَجْسَامَهُمْ  
تَصَاعَغَرَتِ النَّفْسُ حَتَّى تَهْوُونَ

وأراد ملك الروم أن يباهي أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل، والثاني قصير شديد القوة، فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فترج قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل فبلغت ثديه فلاموا قيساً على نزع السراويل فقال:

أَرَدْتُ لَكَيْمًا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهَا  
وَكَيْ لَا يَقُولُوا خَانَ قَيْسٌ وَهَذِهِ  
وَأَنِّي مِنَ الْقَوْمِ الْيَمَانِينَ سَيْدُ  
سَرَاوِيلِ قَيْسٍ وَالْوَفُودُ شُهُودُ  
سَرَاوِيلِ عَادٍ أَحْرَزَتْهَا ثُمُودُ  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا سَيْدُ وَمَسُودُ

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوته بمحمد بن الحنفية فخره بين أن يقعد فيقيمه، أو يقوم فيقعده فغلبه في الحاليتين وانصرفا مغلوبين . وقيل: كان سلمة بن مرة التاموسي أسر أمراً القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان التاموسي قصيراً مقتحماً، واللخمي طويلاً جسيماً، فقالت بنت امرئ القيس: يا هذا القصير أطلق أبي، فسمعها سلمة بن مرة فقال:

لَقَدْ زَعَمْتُ بِنْتُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أَنَّنِي  
رَبُّ طَوِيلٍ قَدْ نَزَعْتُ سِلَاحَهُ  
قَصِيرٌ وَقَدْ أَعْيَا أَبَاهَا قَصِيرُهَا  
وَعَانَقْتُهُ وَالخَيْلُ تَدْمَى نَحْوَهَا

وقالوا: عظم اللحية يدل على البله، وعرضها على قلة العقل، وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على السحد، والعين المتوسطة في حجمها تدل على الفطنة وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق . والتي تكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المتصببة تدل على حمق وهذيان .

ومما قيل في القبح والدمامة: أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً

(١) المخاليا: يفضونها من الغبار.

(٢) القهندر: موضع.



وخش الصورة<sup>(١)</sup> بشع المنظر فلم يقدر على تحليته لفرط دماسته، فكتب إلى صاحبه يقول: يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره.

ومر أبو الأسود الدؤلي بمجلس لبني بشير، فقال بعض فتيانهم: كأن وجهه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها. وقال الجاحظ: ما أخرجني قط إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، ثم سألت الصائغ، فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأنت بك إلي لأصوره على صورتك. وفي الجاحظ يقول الشاعر:

لو يُسَخُّ الخنزيرُ مسخاً ثانياً      ما كانَ إلا دونَ قُبْحِ الجاحظِ  
رجلٌ ينوبُ عن الجحيمِ بوجهِهِ      وهو القَدَى في عينِ كلِّ ملاحظِ  
وَلَسَوْ أَنَّ مَرَأَةً جَلَّتْ تَمَثَالُهُ      ورآه كسانَ له كأعظمِ واعظِ

وقال الأصمعي: رأيت بلودية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قيح. فقلت: يا هذه أترضين أن تكوني تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلني ثوابه، وأسأت فيما بيني وبين ربي فجعله عذابي، أفلا أرضى بما رضي الله به. وحج مخنث فرأى رجلاً قيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبي ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لي دمل في أقيح المواضع فقال له: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء. وخرج رجل قيح الوجه إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال:

لم أرَ وجهاً حَسناً      منذ دَخَلْتُ اليَمَنَا  
فيا شقاءَ بِلَدِي      أَحسَنُ مَنْ فِيهَا أَنَا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها: قد عرفت أنني رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره، فقالت: لا شك في احتمالك المكاره معَ حَمَلِك هذا الأنف أربعين سنة. وقال الشاعر في رجل كبير الأنف:

لكَ وجَةٌ فيه قطعَةٌ أنفِ      كجدارٍ قد أدمعوه ببغلة  
وهو كالبقرُ في المثالي ولكن      جعلوا نصبهُ على غير قبلة

وقال آخر:

لك أنفٌ ذو أنوفٍ      أنفت منهُ الأنوفُ  
أنتَ في القُنسِ تصلِّي      وهو في البيتِ يطوفُ

ومما جاء في القلاء: قال مطيع بن أبياس:

قل لعباسِ أخينا      يا قبيلاً القلاءِ  
أنتَ في الصيفِ سمومٌ<sup>(٢)</sup>      وجليدٌ في الشتاءِ  
أنتَ في الأرضِ قبيلاً      وقبيلٌ في السماءِ

(١) وخش الصورة: أي سيء الهيئة والمنظر.

(٢) سموم: رياح حارة مرملة.

ومما جاء في الملابس وألوانها والعمائم ونحوها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾<sup>(١)</sup> وقد تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾<sup>(٢)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَةٍ عَلَى عَبْدِهِ» وقال ﷺ: «تَمَتُّمُوا زِيَادُوا جَمَالاً» وقال ﷺ: «الْعَمَائِمُ تِبْجَانُ الْعَرَبِ». وكان لزيد بن العوام يقا تل يوم بدر وعنه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة وعليهم عمائم صفراء قد أرخوها. وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتخلف عن الجيش وأتى إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء في خز ففقتها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كفيه قدر شبر وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف. وبعث ملك الروم إلى النبي ﷺ جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان. وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم، ويدخل المسجد. فقيل له في ذلك فقال: إني أجالس ربي. وقيل: المروءة الطاهرة، الثياب الطاهرة. وقيل: ألبس البياض والسواد فإن الدهر هكذا يبض ونهار وسواد وليل.

ومما قيل في لبس السواد قول أبي قيس:

رَأَيْتُكَ فِي السَّوَادِ فَقَلْتُ بَدْرًا  
وَأَلْقَيْتُ السَّوَادَ فَقَلْتُ شَمْسًا  
بدا في ظلمة الليل البهيم  
محت بشعاعها ضوء النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُر<sup>(٣)</sup> العراق فباع الجميع منها إلا السود، فشكا إلى الدارمي ذلك، وكان الدارمي قد نسك وتعب فعمل بيتين وأمر من يغني بهما في المدينة، وهما هذان البيتان:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخُمَارِ الْأَسْوَدِ  
قَدْ كَانَ شَمْرًا لِلصَّلَاةِ إِزَارَةً  
ماذا فقلت بزاهد متعب  
حتى فقت له بياض المسجد

قال: فشح الخبر في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده وتمشق صاحبة الخمار الأسود فلم يبق في المدينة مليحة إلا واشترت لها خماراً أسود، فلما أفتد التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبه وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها. وقال آخر في لابة الأحمر:

وشمر من قضيب في كيب  
سقتني ريقها صرفاً وحيث  
تبدت في لباس جناري<sup>(٤)</sup>  
بوجيتها فهاجت جل ناري

وقال آخر في لابة ثوب خمري:

في ثوبها الخمري قد أبلت  
فملت سكرأ حين أبصرتنها  
بوجنو حمراء كالجمر  
لا تكروا سُكري من الخمر<sup>(٥)</sup>

وقال الصنوبري في لابة أخضر:

(١) سورة: الضحى، الآية: ١١.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.

(٣) جمع خمار: غطاء الوجه.

(٤) الجُلنار: زهر الرمان.

(٥) من الخمر: أي من اللون الخمري.

وجاريتو أدبتهما الشطاره  
تري الشمس من حستها مستعارة  
بلدت في قميصي لها أخضر  
كما ستر الورق الجلنارة  
قلت لها ما اسم هذا اللباس  
فأبدت جواباً لطيف العبارة  
شققتنا مراتر قوم به  
فحنن نسيمه شق المرارة

وقال حكيم لابنه: إياك أن تلبس ما يديم الملا<sup>(١)</sup> نظره إليك به، واعلم أن الوشي لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك، وعليك بالياض. وقيل: لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه، ولباس المترفين السنلس لقلته بقائه، ولباس المقتصدين الديداج لتوسط بقائه. وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل علي عاقلاً، فاتاه برجل، فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيت يلبس الكتان في الصيف، والظنن في الشتاء، والملبوس في الحر، والجديد في البرد.

وقيل: كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها في النار فيحترق الوسخ ولا تحترق، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة، وسراويل مجوهرة وتكة من أنابيب الزمرد. وقيل: الأقيية<sup>(٢)</sup> لباس الفرس، والقراطق<sup>(٣)</sup> لباس الهند، والأزر<sup>(٤)</sup> لباس العرب. ومثل بعض العرب عن الثياب فقال: الصفر أشكل، والحرمر أجمل، والخضر أقبل، والسود أهول، والبيض أفضل. وقال أفلاطون: الصبغ الشفاهي والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الباقوتي والروائح الوردية تحرك السرور، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية، وإذا مزجت الصفرة بالحمرة تحركت الطباع كلها. وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شيء راحة، وراحة البيت كنسه، وراحة الثوب طيه. وقال بعض الأعراب: رأيت بالبصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع. ودخل بعض العذرين على معاوية وعليه عباءة فازدراه، فقال: يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها.

ومما قيل فيمن رذل لبه وعرف نفسه. قال الأصمعي: رأيت إعرابياً فاستشدته آياتاً، وروى أخباراً فتعجبت من جماله، وسوء حاله فسكت سكتة ثم قال:

أأخسي إن الحادئنا  
لا تنكرن أن قد رأيت  
ت عرگنتني عرگ الأديم  
ت أخاك في طمر<sup>(٥)</sup> عديم  
ت<sup>(٦)</sup> فإنهن على كريم

قال بعضهم: وقيل للشافعي رحمه الله تعالى:

علي ثياب لو تقاسم جميعها  
يفلس لكان الفلس منهن أكثرا

(١) الملا: الناس المجتمعون.

(٢) الأقيية: ج. قباه، لباس طويل مفتوح الوسط.

(٣) القراطق: ج. قرطق، من الأردية.

(٤) الأزر: ج. مزر.

(٥) طمر: لباس بالي.

(٦) رثات: باليات.

نفوسُ الوري كانت أجَلْ وأكبرا  
إذا كان عضباً<sup>(١)</sup> حيث وجّهته برى

وفيهن نفسٌ لو يقاسُ ببعضها  
وما ضرَّ نصلُ السيفِ إخلاقِ غمديه  
ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشدته: (٢)

وفي أثوابِه أسدٌ هصورُ  
فيخلفُ طَنكُ الرجلِ الطريرِ<sup>(٣)</sup>  
فلم يستغنِ بالمُعظمِ البعيرُ  
ويحبسه على الخسفِ الجريرُ  
فلا عارٌ عليه ولا نكيرُ  
فإنسي في خيارِكُم كثيرُ

ترى الرجلَ الخفيفَ فتزدريه  
ويعجبُكَ الطريرُ فتبليه  
لقد عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لبٍ  
يصرُفُهُ الصبيُّ بغيرِ وجِهٍ  
وتضرُّهُ الوليدةُ بالهراوى  
فإن أك في شرارِكُم قليلاً

ويقال: كُلُّ ما تشبهه نفسك، والبس ما تشبهه الناس. وقد نظمه من قال:

وعليكَ من مهنِ الثيابِ لباسُ  
واجعلْ لباسَكَ ما اشتَهته الناسُ

إن الميرونَ رَمَنَكَ إذ فاجأتهَا  
أما الطعامُ فكلْ لنفسِكَ ما اشتَهتْ

وفي هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عضباً: حاداً قاطعاً.

(٢) هذه الأبيات لكثير عزة في حضرة عبد الملك لا الرشيد كما وهم المؤلف.

(٣) الطرير: الشاب خط شاربه.

## الباب السابع والأربعون: في التختم والحليّ والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك

وما جاء في التختم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتختم في يمينه، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم في يمينه. قال بعض مَنْ مدحه عليه الصلاة والسلام:

كفُّ الرسالةِ ليسَ يخفى حُسْنُها      وتماهُمُ حَسَنُ الكِفِّ لِبَسِّ الخاتَمِ

وذكر السلامي: أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه والخلفاء بعده. فنقله معاوية رضي الله تعالى عنه إلى اليسار، وأخذ الأموية بذلك، ثم نقله السفاح إلى اليمين فبقي إلى أيام الرشيد رضي الله تعالى عنه، فنقله إلى اليسار وأخذ الناس بذلك. وعن عليّ رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غمّ ما دام عليه ذلك». وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن ابنه اشترى فصّ خاتم بألف دينار فكتب إليه: عزمت عليك إلا ما بعث خاتمك بألف دينار وجعلتها في بطن جائع واستعمل خاتماً من ورق<sup>(١)</sup> وانتقش عليه: «رحم الله امرأ عرف نفسه» وكان خاتم عليّ رضي الله عنه ورق، وتقسّمه «نعم القادر» وكان لأبي نواس خاتمان؛ أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب:

تعاظمني ذنبي فلما قرئتُ      بعفوك ربي كان عفوك أعظما

والآخر حديد صيني وعليه: «أشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً»، وأوصى عند موته أن يغسل الفصّ ويجعل في فمه. قال جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج، وقيل: الخواتم أربعة: الياقوت للعطش، والفيروزج للمال، والعقيق للسنة، والحديد الصيني للحرز<sup>(٢)</sup>، وقيل: للخوف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء في الحليّ: قيل إنّ قرطبيّ مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما ولم يدر قيمتهما. وقال محمد: بعثني يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفي. كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسري اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار، وحنة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحبّ فدخلت عليه بهما فقال: اكتب معك بوزنهما، فقلت: يا أمير المؤمنين هما أعظم من أن يكتب بوزنهما فقال: صدقت. وبعث معاوية إلى عائشة رضي الله تعالى عنها طوقاً من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار فقسمته بين أزواج النبي ﷺ وكان ملك العرب كلما مرّت عليه سنة من سني ملكه زيدت في تاجه خزرة. وكان يقال لها خرزات الملك.

(١) ورق فضة.

(٢) للحرز: الرقبة.

ذكر ما جاء في الطيب والتطيب. قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كأنني أنظر وإلى بصر<sup>(١)</sup> الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم. وعن سهل بن سعد يرفعه: «إن في الجنة لمرعى من مسك مثل مراعي دوابكم هذه». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فنام عندنا فعرق، فجاءت أمي بقارورة فجعلت تسكُ العرق فيها فاستيقظ وقال: «يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟» فقالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب. وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لو كنت تاجرأ ما اخترت على العطر، إن فاتني ريحه لم يفتني ريحه. وناول المتوكل فتى فأرة<sup>(٢)</sup> المسك فقال:

لئن كانَ هذا طيبَنَا وهو طيبٌ      لقد طيَّبْتُهُ من يدَيْكَ الأناملُ

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية<sup>(٣)</sup>، فسأله: كم أنفق عليها؟ فذكر مالا جزيلأ، فقال: هذه غالية فسميت بذلك، وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء، فقال: علميني كيف تصنعين طيبك؟ فقالت: لا أفعل، تريد أن تعلم جواريك، هو لك مني كلما أردته، ثم قالت: والله إني ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول:

أطيبُ الطيبِ عرفُ أم أبان      فأرُّ مسكٍ بعنبرٍ مسحوق

قال أبو قلابة: كان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مرّ، من طيب ريحه. وعن الحسن بن زيد الهاشمي عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلي جسده فإذا مرّ في الطريق قال الناس: أمر ابن عباس أم مرّ المسك؟ وعنه عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة. وقال أبو الضحى: رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لي لكان رأس مالي. وقيل: لما بنى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك أسرح في مسارجه تلك الليلة بالغالية. وقال الشعبي: الرائحة الطيبة تزيد في العقل. وقال علي كرم الله تعالى وجهه: تشموا النرجس ولو في العام مرّة فإنّ في قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس. وكان الشعبي يقول: إذا أورد الورد صدر البرد، وكانت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم الطيب. وكان من اختلف في طرقات المدينة وجد عرفأ طيبأ. قيل: ولذلك سميت طيبة، وأقول: والله ما طابت إلا بالطيب الطاهر، صلى الله عليه وسلم وما أحسن ما قيل:

إذا لم أطب في طيبةٍ عندَ طيبٍ      به طيبةٌ طابتْ فأينَ أطيَّبُ

وقيل: وإن فأرة المسك دوية شبيهة بالخشف<sup>(٤)</sup> تصاد لسرتها فإذا صاها الصياد عصب السرة بعصابة شديدة فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها، ثم يأخذ السرة فيدفنها في الشعر حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكأ ذكياً بعد أن كان لا يرام تتأ. وقد يوجد جردان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها. وحكي أن العنبر يأتي

(١) بصر: لمع.

(٢) فأرة المسك: نافجته.

(٣) الغالية: طيب معروف.

(٤) بالخشف: ولد الظبي.

على طفاوة الماء لا يدري أحد معدنه فلا يأكله شيء إلا مات. ولا يقره طائر إلا بقي منقاره فيه، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه، والتجار والمطارون ربما وجدوا أظفاراً فيه. وقال الزمخشري عفا الله عنه: سمعت ناساً من أهل مكة يقولون: هو من زيد بحر سرنديب، وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق وأدونه الأسود. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في العنبر زكاة إنما هو شيء نثره الحجر. وأما العود فأجوده البندلي، وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند، وأجوده أصلبه، وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم فإن انطبع فرطب وإلا فلا، ومن خصائصه أن رائحته تطبع في الثوب أسبوعاً فلا يقل ما دامت فيه. وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور. يحزونه بالحديد فإذا خرج ظاهراً وضربه الهواء انعقد كالصمغ الجامدة على الأشجار. وأما الند فمصنوع وهو العود المستنطر والعنبر واللبان.

لو كنتُ أحملُ جمراً حين زرتُكمُ      لم ينكر الكلب أني صاحبُ الدارِ  
لكن أتيتُ وريحُ المسكِ يقلُّمني      والعنبرُ الندُّ مشوبٌ على النارِ

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد. وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد في مجلسه، ويطيب جميع آلاته بالورد. وقال الحسن بن سهل: أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب، فالنرجس يقوى بالورد، والورد يقوى بالمسك، والبفسج يقوى بالعنبر والريحان يقوى بالكافور، والنسرين يقوى بالعود. وقال جالينوس: المسك يقوي القلب، والعنبر يقوي الدماغ، والكافور يقوي الرئة، والعود يقوي المعدة، والغالية تحل الزكام، والصندل يحل الأورام. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تردوا الطيب فإنه طيب الريح خفيف المحمل».

تبحر بعض الأمراء وعنده أعرابي ففرطت من الأمير ريح خفيفة فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابي أم لا، فقال ما أطيب هذا المثلث، قال نعم ولكنك ربتها. وقال الأحنف: إن شم رائحة المسك يحيي القلب. وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان: ما شممت أنفي من ريح مسك شممت من الناس إلا ريح كففك أطيب. فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثامن والأربعون: في الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول

### الفصل الأول: في الشباب وفضله

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلمَ عالمٌ إلا شاباً ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾<sup>(١)</sup> وقد أخبر الله تعالى به، ثم أتى يحيى بن زكريا الحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَ صَبِيحاً﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿إِذَا أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾<sup>(٥)</sup> وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، وقد قدم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حدائثه سنة، وعتاب بن أسيد ولآه مكة وبها أكابر قريش، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم. وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله، كما أن أطيب الثمار بواكيرها، والشباب أبلغ الشفاء عند النساء، وأكثر الوسائل لقلوبهن، ولذلك قال الشاعر:

أحلى الرجال مع النساء موقعا      مَنْ كَانَ أَشْبَهُهُمْ بِهِمْ خُدودا

وما بكتِ العربُ على شيء ما بكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميلاً، وزمانه حياً، لوسامة صورته، وبهجة منظره، وجمال خلقته، واعتدال قامته، ولما جاور الله في جنات خلده شاب كما قال رسول الله ﷺ: «جردا مردا أبناء ثلاثين» وقد جاء في ذلك أشياء كثيرة ليس هنا موضع بسطها.

### الفصل الثاني: في الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وفي الخير: «إن الله تعالى يقول الشيب نوري وأنا

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة: مريم، الآية: ١٢.

(٣) سورة: الكهف، الآية: ١٠.

(٤) سورة: الكهف، الآية: ١٣.

(٥) سورة: الكهف، الآية: ٦٠.



استحي أن أحرقه بناري». وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبي ﷺ، شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ فقال عليه الصلاة والسلام: كبر كبير. وبهذه الرواية: «من وفر كبيراً لكبر سنه، آمنه الله من فزع يوم القيامة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى وعزتي وجلالي وفاقة حنفي إلي، إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيان في الإسلام أن أعذبهما» ثم بكى فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «أبكي ممن يستحي الله منه، وهو لا يستحي من الله». وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرّمه الله على النار» وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات». وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتمل<sup>(١)</sup> حتى يبلغ ثمانين سنة. وقال ابن وهب: إن أصغر من مات من ولد آدم ابن ماتي سنة، فبكته الإنس والجن لحدائثه سنة. وقال النخعي: كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه «من أتى عليه أربعون سنة، ثم لم يغلب خيره على شره فليتهجز إلى النار». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل في بيت له بابان فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني. ويقال: أطلع أكبر منك ولو بلبلة. وقال عبد العزيز بن مروان من لم يتعظ بثلاث لم يتب بشيء: الإسلام والقرآن والشيب. قال الشاعر:

يا عامر الدنيا على شيبه      فيك أعاجيب لمن يعجب  
ما عذر من يعمر بنيانه      وعمرة منه لم يخرب

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها، ومصيبة لا يعزى عليها.

وقال الفرزدق:

ويقول كيف يميل مثلك للظبا<sup>(٢)</sup>      وعليك من عظم المشيب عذار  
والشيب يتقصر في الشباب كأنه      ليل يصبح بعارضيه نهار

وقال أبو دلف في بياض اللحية:

وتكوتني هم ليضاء نابتة      لها بغضة في مضمير القلب ثابتة  
ومن عجب أني إذا رميت قصبها      قصصت سواها وهي تضحك نابتة

وقال أيضاً:

أرى شيب الرجال من الغواني      بمبلغ شيبهن من الرجال

وقال ابن المعتز:

فظللت أطلب وصلها بتلزل      والشيب يغمزها بأن لا تفعل

قيل: صاح شاب بشيخ أحذب: بكم ابتعت هذا القوس يا عماء؟ قال: يا بني إني أعطيتهما بغير ثمن. ومز رجل

(١) يحتمل: يصير حليماً.

(٢) للظبا: للغزلان.

لشمط بامرأة عجبية في الجمال فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت: كأنك تخطبني. قال: نعم، فقالت: إن في عيياً، قال: وما هو؟ قالت: شيب في رأسي، فتنى عنان دابته. فقالت: على رسلك فلا والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيتُ في رأسي شعرة بيضاء ولكنني أحيت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني، فأشدد ويقال إنه لابن المعتز:

رَأَيْتَ الْعَوَانِي الشَّيْبَ لَاحَ بِمَفْرَقِي      فَأَعْرَضَنِي عَنِي بِالْخُدُودِ النُّوَاضِرِ  
وقال آخر:

سَأَلْتُهَا قَبْلَةَ يَوْمًا وَقَدْ نَظَرْتِ  
فَأَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتْ وَهِيَ قَائِلَةٌ  
مَا كَانَ لِي فِي بِيَاضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرْبِ  
وقال آخر:

قَالَتْ: أَرَى مَسَكَةَ الشَّعْرِ الْبَهِيمِ غَدَّتْ  
قَلْبَتْ: طَيِّبٌ بَطِيْبٌ وَالتَّقْلُ فِي  
قَالَتْ: صَدَقْتَ وَمَا أَنْكَرْتَ ذَاكَ بَذَا  
وقال آخر:

قَالَتْ: أَرَاكَ خَضِبْتَ الشَّيْبَ قَلْتُ لَهَا  
فَقَهَقَتْ ثُمَّ قَالَتْ مَنْ تَعَجَّبُهَا  
وقال ابن نباتة:

تَبَسُّمُ الشَّيْبِ بِسُجُوهِ الْفَتَى  
وَكَيْفَ لَا يَكِي عُلَى نَفْسِهِ  
وقال ابن المعتز:

فَمَا أَقْبَحَ التَّضْرِيضَ فِي زَمَنِ الصَّبَا  
وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رَأَتْ وَضَحًا<sup>(١)</sup> فِي الرَّأْسِ مِنِّي فَرَاعَهَا  
تَفَارِيقُ شَيْبٍ فِي السَّوَادِ لَوَامِعُ  
ويقال في الرجل إذا شاب: ليله عمس وضبحة تنفس:

إِذَا نَازَعَ الشَّيْبُ الشَّبَابَ فَاصْلَتَا  
وقال آخر:

(١) وضحاً: أبيض.

ألا إن شَيْبَ العبدِ من تَقَرُّ القفا  
وقال العتيبي:

وَشَيْبُ كرامِ الناسِ شَيْبُ المَفاقرِ  
قالت عَهْدُكَ مجنوناً قَلتُ لها

وقال علي بن ربيع:

كبرتُ ودقَّ العظمُ مِنِّي وعَفَنِي  
وأصبحتُ أعشى أخطأ الأرضَ بالمصا

يقودُنِي بينَ اليوتِ الولائدُ<sup>(١)</sup>  
وقال آخر<sup>(٢)</sup>:

عريتُ من الشبابِ وكنتُ غُضُنَا  
ونُحْتُ على الشبابِ بدمعِ عيني  
كما يَغرى من الورقِ القُضيبُ  
فما نَفَعَ البكاءُ ولا النحيبُ  
فيا ليتَ الشبابِ يعودَ يوماً

وقال ابن القتيب:

وكم كان من عيني عليّ وحافظِ  
فلما بدا شيبِي اطمأنتُ قلوبُهُم

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط. قال الشاعر:

شيطان لو بكتِ السماءُ عليهما  
لم يبلغا المعشَرَ من حَقنِهما

وقال الجاحظ:

أترجُو أن تكونَ وأنتَ شيخُ  
لقد كذبتك نفسُك لبسَ ثوبِ

كما قد كنتَ في زمنِ الشبابِ  
دريس<sup>(٣)</sup> كالجديدِ من الثيابِ

ومما جاء في الخضاب: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالخضاب فإنه أهيأ لعدوكم وأعجب لئسائكم». وعن

أبي عامر الأنصاري رضي الله عنه: رأيتُ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يغير بالحناء والكم. وقيل: خضاب الحناء يصفى البصر، ويذهب بالصداع، ويزيد في الباه<sup>(٤)</sup>:

تسودُ أعلاها وتأبى أصولُها  
وليس إلى رُدِّ الشبابِ سبيلُ

وقيل: وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذي يزن، فقال له: لو خضبت شعرك! فلما رجع إلى مكة

اختضب، فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام، فقال:

(١) الولائد: أصبح قليل النظر يحتاج معيلاً.

(٢) هو أبو العتاهية.

(٣) دريس: قليم.

(٤) الباه: القدرة الجنسية.

وكانَ بديلاً من خليلٍ قد انصرم  
ولا بدُّ من موتٍ نيلاً أو هرم

لو دام لي هذا الخضابُ حمدتهُ  
تمتعتُ منه والحياةُ قصيرةُ

وقال آخر:

في كلِّ ثالثةٍ يعودُ  
فكأنه شيب جديد  
فلن يعودَ كما تريدُ

يا خاضبَ الشيبِ الذي  
إن الخضابَ إذا نضاً<sup>(١)</sup>  
فدع المشيبَ وما يريدُ

وقال محمود الوراق:

إذا سأمك لحيتك الخضابا

فما منك الشبابُ ولستُ منه

### الفصل الثالث: في العافية والصحة

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إليك انتهت الأمانى يا صاحب العافية». وعنه ﷺ أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له: ألم أصح بدنك وأروك بالماء البارد». وقال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: «ثم لستلن يومئذٍ عن النعيم»<sup>(٢)</sup> هو الأمن، والصحة، والعافية. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع فيم استعملوها وهو أعلم بذلك. وقال ابن عيينة: من تمام النعمة طول الحياة في الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية. وقال قبيصة بن ذؤيب: كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه: يا أهل النعم لا تستلوا شيئاً من النعم مع العافية، ويقال: البحر لا جوار له، والملك لا صديق له، والعافية لا ثمن لها، قال ابن الرومي:

ولم تخلُ من قوتٍ يحلُّ ويقربُ  
على قدرٍ ما يعطيهم الدهرُ يسلبُ

إذا ما كسأكَ الدهرُ سريالَ صحوةٍ  
فلا تنبطنَ أهلُ الكثيرِ فإنما

ويقال: صحة البدن أوفر القسم. وذكر بعضهم العافية فقال: وأي وطاء<sup>(٣)</sup>، وأي غطاء. وقال حكيم: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة، وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما المبتلى الذي اشتدَّ به البلاء بأحوج إلى الدعاء، من المعافى الذي لا يأمن البلاء. وقيل: إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء في شلّة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ههنا؟ اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب. فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هيا لها الرصد لبنة تحتها شحمة فاتحمت لتأخذ الشحمة فوقمت عليها اللبنة فحطمتها فهربت الفأرة البرية، وهزّت رأسها متعجبة

(١) نضاً: زال وخلع.

(٢) سورة: التكاثر، الآية: ٨.

(٣) وطاء: حسنت موضع قدم.

وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً، ألا وإن العافية والفقير أحب إليّ من غنى يكون فيه الموت ثم قرّت إلى البرية. وكان عند رومي خنزير فربطه إلى أسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه، وكان بجانبه أتان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لأمه: يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام، فقالت له: يا بني لا تقربه فإن وراءه الطامة الكبرى، فلما أراد الرومي أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب وينفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماه انظري هل بقي في خلال أسناني شيء من ذلك العلف فأقلعيه فما أحسن القنع مع السلامة، والله أعلم بالصواب.

### الفصل الرابع: في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضي الله تعالى عنه: أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبتكم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «أطولكم أعماراً في الإسلام إذا سدّوا»، وزعموا أنّ تُبّعاً الفراري كان من المعمرين، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمئة وعشرين سنة في فترة عيسى ابن مريم عليه السلام في الجاهلية، وستين في الإسلام، قال له: أخبرني عما رأيت في سالف عمرك؟ قال: رأيت الدنيا ليلة في أثر ليلة، ويوماً في أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق، ومفرق مال مجموع، وبين قوي يظلم، وضعيف يُظلم، وصغير يكبر، وكبير يهرم، وحي يموت، وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بوجود، ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزي: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلايل ثمانمئة وخمساً وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلاثمئة وخمساً وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام فروي عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمائة وخمسين عاماً. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بني آدم عمراً. وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها. وعاش أكرم بن صيفي ثلاثمئة وستين سنة وأدرك الإسلام. وعاش سطح سبعمائة سنة. وعاش قس بن ساعدة الإيادي سبعمائة سنة وكان من حكماء العرب. وعاش ليث بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام، وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجاه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم. ومن المعمرين عدي بن حاتم الطائي، وزهير بن جنادة عاشاً مائتين وعشرين سنة. ومن المعمرين ذو الأصابع العذري عاش مائتين وعشرين سنة وهو أحد حكماء العرب في الجاهلية، ومن المعمرين عمرو بن معد يكرب الزبيدي. ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمئة وعشرين سنة وأدرك الإسلام. وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالقرية وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وأن امرأة بلغت من العمر كذلك ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر في القوة، وشدة البأس ورأيت له ولداً شيخاً هو أشد قوة من ولده وذلك في صفر سنة تسع وعشرين وثمانمئة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

## الباب التاسع والأربعون: في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنت منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾<sup>(١)</sup> وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ: «من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً له لاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين». وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يرَ إبليس لعنه الله قط إلا ثلاث رنات، رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السموات والأرض، ورنة حين ولد محمد ﷺ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفي أولها بسم الله الرحمن الرحيم. وعن رسول الله ﷺ: «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم، وإن أمي يأتون يوم القيامة يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتقبل حسناتهم في الميزان، فتقول الأمم ما أقل موازين أمة محمد، فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت في كفة الميزان، وضعت سيئات الخلق في كفة لرجحت كفة الأسماء».

وأما الأسماء والكنى: ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبد الله، وعبد الرحمن وأصدقها حارث، وهمام، وأقبحها حرب ومرة». وينبغي أن تنادي مَنْ لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب، كقولك يا فقيه، يا أخي، يا فقير، يا سيدي يا صاحب الثوب الفلاني، أو البغل الفلاني، أو الفرس الفلاني أو السيف الفلاني، وما أشبه ذلك. ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام<sup>(٢)</sup> من ذهب فيه ألف مقال. فقال له: أسألك عن شيء إن أجبتني عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجاه بما فيه. فقال: سل يا أمير المؤمنين: قال أسألك عن شيء له اسم، ولا كنية له، وعن شيء له كنية، ولا اسم له. قال: المنارة وأبو رياح. فعجب المتوكل وأعطاه الجاه بما فيه. وقيل لعثمان ذو النورين رضي الله عنه لأنه هو ورقة كانا أحسن زوجين في الإسلام. وقيل لأنه تزوج برقية، ثم بأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ ولم يوجد مَنْ تزوج بابنتي نبي غيره. وكان قتادة بن النعمان الأنصاري رضي الله تعالى عنه أصيب في عينه يوم أحد فسقطت على خده، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن وأصح من الأخرى، فكانت تعتل أي ترمد عينه الباقية، ولا تعتل عينه المردودة فقبل له ذو الغنمين. وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: كنييت بهرة صغيرة كنت أحملها في حجري<sup>(٣)</sup> فألعب بها وكان رسول الله ﷺ يقول يا أبا هريرة واختلف في اسمه، فقيل: عبد الرحمن، وقيل عبد شمس وقيل، عمير، وقيل، سليمان. وقال الشعبي رضي الله تعالى عنه: كنية الدجال أبو يوسف. ذو الشهرة أبو دجاجة الأنصاري رضي الله تعالى عنه كان له

(١) سورة: مريم، الآية: ٦٥.

(٢) جام: وعاء.

(٣) حجري: حضني.

شهرة<sup>(١)</sup> يلبسها بين الصفيين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم، وولي رياضة الجيوش والدواوين ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا فقال:

اليومُ يومُ المهرجانِ	هـيئتُ فيهِ اللسانُ
لكِ دولتانِ حديثَةٌ	وقديمةٌ ورياستانُ
لكِ في الوزي من هاشمٍ	بئتُ وبيتُ خسروانُ
علمَ الخليفةُ كيفَ أن	تِ فصرتَ في هذا المكانُ

فأمر له بجميع الهدايا. المطييون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، ونعيم بن مرة والحارث بن فهر غمسا أيديهم في خلق<sup>(٢)</sup> ثم تحالفوا. شية الحمد عبد المطلب لقب بشية كانت في رأسه حين ولد قال حذافة:

بنو شية الحمد الذي كان وجهُهُ      يُضيءُ ظلامَ الليلِ كالقمرِ البدرِ

وقيل له عبد المطلب، لأنه عمه المطلب مرّ به في سوق مكة مردوقاً له فجعلوا يقولون من هذه الذي وراءك فيقول عبد لي. سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقباه العتيق والصدّيق لجماله وتصديقه بخبر الإسراء، أو لأنه أوّل من صدق رسول الله ﷺ. سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم لا يعبد الله اليوم سراً فظهر به الإسلام وفرق بين الحق والباطل. الكامل سعد بن عباد رضي الله تعالى عنه، لأنه كان يكتب ويحسن الرمي والعموم. طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات لسخائه. رشح الحجر وأبو اللباب عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره. عكة<sup>(٣)</sup> العسل سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه. الحبر عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه كان يقال له مرة البحر، ومرة الحبر. الأشلق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشلق<sup>(٤)</sup>. الفياض عكرمة بن ربيع لقب بذلك لسخائه. المصطلق خزيمه بن سعد الخزاعي قيل له المصطلق، لحسن صوته وشده، وكان أول من غنى من خزاعة. راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به، فإذا رأوه قالوا راح يكذب. وأصل الغزال كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين وكان يتبع العجائز فيتصلق عليهم ولم يكن غزالاً. سليمان التميمي كان داره ومسجده في بني تميم ولم يكن منهم، وهو شيباني، أبو عمر الشيباني لم يكن من بني شيبان، وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيباني. اليزيدي كان يعلم يزيد بن منصور الحميري فنسب إليه. ذو القروح<sup>(٥)</sup> امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته.

وقالوا لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب وهي مفاخرهم وقال بعضهم:

- (١) شهرة: وردت في كتب التراجم: «شَهْرَةٌ» وهي فرس معروفة لأبي دجاجة لاردا.
- (٢) خلق: طيب.
- (٣) عكة العسل: وعاء معدني.
- (٤) الشلق: الفم.
- (٥) ذو القروح: ذو الدامل المضرحة.

أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لِأَكْرَمِهِ وَلَا تَقْبِئُهُ وَالسُّوءَةُ اللَّقْبُ

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا﴾<sup>(١)</sup> أي كنياه، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم يفتلق أوحى الله تعالى إليه أن كنهه، فقال: انفتق أبا خالد، فانفتق فكان كل فرق كالطود العظيم.

وأما الألقاب. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِسْمِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾<sup>(٢)</sup> سمّاه الله تعالى فسوقاً، واتفق العلماء رضي الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك، كالأعمش والأعمى، والأعرج والأحول، والأفطس، والأفزع، ونحو ذلك. وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم يزل في الأمم كلها يجري في المخاطبات والمكاتبات من غير نكير، غير أنها كانت تطلق على حسب الموسمين. وأما ما استحسنت من تلقب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل، وذهب الثاوت، وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فَمُنْكَرٌ. وهَبْ أن العذر مبسوط في ذلك، فما العذر في تلقب من ليس من الدين في دبير ولا قبيل، ولا له فيه ناقة ولا فصيل، بل هو محتوٍ على ما يضاد الدين، ويتنافى كمال الدين وشرف الإسلام، وهي لعمري الله الغصة التي لا تساغ، والغبن الذي يعجز الصبر دونه فلا يستطاع، نسأل الله تعالى إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وأن يصلح فسادنا، ويوقظ غافلنا.

الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك، وإذا كنا من لم يكن له ولد فعلى جهة التناؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له، وقد يكون بما يلائم المكنى من غير الأولاد، كقول رسول الله ﷺ في علي رضي الله تعالى عنه «أبو تراب» وذلك أنه نام في غزوة ذي العشيرة فذهب به النوم، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرغ في التراب، فقال له: اجلس يا أبا تراب وكان أحب أسمائه إليه، وكقولهم: أبي لهب لحمرة خديبه ولونه. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وسمعتهم يكون الكبير الرأس والعمامة بأبي الرأس، وأبي العمامة، وسمعت العرب يتادون الطويل اللحية: يا أبا الطويلة، وسمعت عرب البحيرة<sup>(٣)</sup> يكونون بأسماء بناتهم كأبي زهو، وأبي سلطانة، وأبي ليلى ونحو ذلك، ولا حرج في ذلك، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبي فلانة: منهم سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى: أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى. ومنهم أبو أمامة، وأبو رقية تميم الداري، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. أبو عائشة مسروق بن الأجدع. وكان لأنس أخ صغير وله نغير<sup>(٤)</sup> يلعب به فمات، فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزينا، فقال: ما شأنه؟ فقالوا: مات نغيره، فقال: يا أبا عمير ما فعل النغير. ونظر المأمون إلى غلام حسن في الموكب، فسأله عن اسمه، فقال: لا أدري، فقال:

تَسَمَّيْتَ لَا أُدْرِي فَإِنَّكَ لَا تُدْرِي بِمَا فَعَلَ الْحَبُّ الْمَبْرُغُ فِي صَدْرِي

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إذا سميتم الولد محمداً فآكرموه، ووسعوا له في المجلس، ولا تقبحوا له وجهاً». وعنه «ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر معهم من كان اسمه محمد أو أحمد فأدخلوه في

(١) سورة: طه، الآية: ٤٤.

(٢) سورة: الحجرات، الآية: ١١.

(٣) عرب البحيرة: ربما عرب الحيرة.

(٤) نغير: طير أحمر المقار بحجم المصغور.



مشورتهم إلا كان خيراً لهم، وما من مائدة وُضعت فحضر عليها من اسمه محمد أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين، كل ذلك بركة هذا الاسم الشريف. وما جاء في مدح الأسماء منظوماً. قال بعضهم في مליح اسمه إبراهيم.

وذلك للمهجور مرتبةً عليا  
وما ضرَّ إبراهيم لو صدق الرؤيا<sup>(١)</sup>

رأيتُ حيي في المنام مُعَاتِي  
وقد رقّ لي من بعدِ هجرٍ وقسوةٍ  
وفيه أيضاً:

وترايها فوقَ الجباهِ وسيمُ  
هذا المقامُ وأنتَ إبراهيمُ

لا زال بائِك كعبةً محجوبةً  
حتى ينادى في البقاعِ بأسرها  
وفيه أيضاً:

فيه من لوعةِ الغرامِ جسيمُ  
فيه نازٌ وأنتَ فيه مقيمُ

يا سميَّ الخليلِ<sup>(٢)</sup> إنَّ فؤادي  
وعجيبُ يا قاتلي أنَّ قلبي  
ولبعضهم في مليح اسمه عمر:

فؤادِ مُضَنَّاكَ بالهجرانِ والبينِ<sup>(٣)</sup>  
وأبدلوها بعينِ خيفةِ العينِ

يا أعدلَ الناسِ أسماكم تجورُ على  
أظنهم سرقوكَ القافَ مِن قمرٍ  
وفيه أيضاً:

حينَ سموكَ ققالوا عمرُ  
أخطأوا ما أنتَ إلا قمرُ

ما عليهم في الهوى لو نظرُوا  
أبدلوا قافَكَ عيناً غلطاً  
ولبعضهم في مليح حامل شمعَة موقودة اسمه عثمان:

وضياؤه حكيماً لنا القمريّين  
فأجابني عثمانُ ذو النورينِ

وافى إليَّ بشمعةٍ وضياؤها  
ناديتُهُ ما الاسمُ يا كلَّ المنى  
ولبعضهم في مليح اسمه يوسف:

النجمُ يشهدُ لي بأنّي مدنفٌ<sup>(٤)</sup>  
فأمننُ عليَّ بزورٍ يا يوسفُ<sup>(٥)</sup>

يا مَنْ سبى الشعراءَ نملُ عذارِهِ  
صيرتُ قلبي من صدودِكَ فاطراً<sup>(٥)</sup>  
وللصفي الحلبي فيمن اسمه داود:

(١) الرؤيا: تورية في قصة سيدنا إبراهيم.

(٢) سميّ الخليل: شبيهه في الاسم.

(٣) البين: الفراق والبعد.

(٤) مدنف: متعب.

(٥) فاطر: يستخدم أسماء السور «الشعراء» «النمل» «فاطر» «يوسف».

(٦) يا يوسف: يستخدم أسماء السور «الشعراء» «النمل» «فاطر» «يوسف».

وثقتُ بأن قلبي من حديدٍ      وفيه على الهوى بأسٌ شديدٌ  
فلانٌ على هواك ولا عجبٌ      إذا داودٌ لأن له الحديدُ  
وله فيمن اسمه موسى:

أتى موسى بآية خال خذ      حوتة صوارمُ الحنقِ المراضِ (١)  
فآيةٌ ذا يياضٍ في متواذٍ      وآيةٌ ذا سوادٍ في يياضِ  
فجاء بضد ما قد جاء موسى      كليماً الله في الحقبِ المواضي  
وللقرطبي في مליح اسمه بدر:

سموهُ بـدراً وذاك لئما      أن فاق في حنيه وتما  
واجتمع الناس إذا رأوه      بأنه اسمٌ على مُسمى  
ولمؤلفه رحمه الله تعالى في قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني:

وعظ الأسماء إمامنا الجبر الذي      سكب العلوم كجبر فضل طافع  
فشقى القلوب بعليه ويوعظه      والعلم يشفي إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلتاج لاجتمع بالحاج خليل بن منصور في ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من إخوانه بقضاء ما توجهت بسببه فقلت:

خصالٌ خليلٌ كلهن حميدة      وأوصافه نُزري (٢) بكل جميل  
فلا خير في بلتاج إن لم يكن بها      ولا خير في الدنيا بغير خليل  
وقال آخر في مقبل:

يا من تحبب عن محب صادق      ما زال عنه كل يوم يسأل  
من لي يومٍ فيه تمحُّ باللقاء      ويقال لي هذا حبيبك مقبل  
ولبعضهم في مليح اسمه مخسن:

وأهيف يملو على عشاقه      برتبة من الجمال بالها  
واسمه وهو العجب محسن      وكم دموع في الهوى أسالها  
ولصفي الدين الحلبي في اسم حين:

حبيبي وافر والشوق مني      طويلٌ والهوى عندي مديدٌ  
وأعجب أنني أهوى حيناً      وشوقني في محبته يزيدُ  
ومما قيل في أسماء النساء. في فاطمة:

(١) المراض: العيون الناعسة.

(٢) نُزري: تُشِين.

لمرتجي الوصل لها فاطمة<sup>(١)</sup>  
وهي بشوقني والجوى غالمة

فهام فكري في أمورك طائفة  
وحيتي من بعد موتي عائفة

أكابد من حرّ الغرام اليمّة  
ومن أين تلدي الجور وهي خليمة

ناديت وقلبي تارك من تركة  
تغنيك سنين ساعة من بركة

في كلّ طريقت  
لو كان يفيت  
ما الشرك يليت  
عن كلّ صديقت

عجبت من فاتتو لم تزل  
تكر ما لقاء من وجديها

وقال ابن مكنس في اسم عائفة:

يا دهر خبيرني بحقك واشفني  
أجل أني في المحبّة ميّت

وقال شمس الدين البديري في اسم حليلة:

ولما رأني في هواها ميماً  
فجادت بطيب الوصل منها ولم تجز

ولبعضهم في اسم بركة «دويت»<sup>(٢)</sup>:

لما نصب الهوى لقلبي شركة  
يا قلب أفق ولا تمل لشركة

مردوفاً<sup>(٣)</sup> أيضاً:

لما نصب الهوى لقلبي شركة  
ناديت وقلبي تارك من تركة  
يا قلب أفق ولا تمل للشركة  
تغنيك سنين ساعة من بركة

ولو تبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات، ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) فاطمة: أي منته بعد قبول.

(٢) دويت: بيتان.

(٣) المردوف: من فنون النظم: الشطر الأول بقافية غير الشطر الثاني.

## الباب الخمسون

### في الأسفار والاعتراب وما قيل في الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، فقد قال الله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ظلولا﴾<sup>(١)</sup> وفي الأثر: سافروا تغنموا. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم». ويقال: الحركة ولود، والسكون عافر. وقال حكيم: السفر يسفر عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه فقال يوماً:

الاخُنِّي أمضي لشأنِي ولا أُكُنْ	علِي لأهل كلاً <sup>(٢)</sup> إن ذا لشديداً
تهينني ريبُ المنونِ ولم أُكُنْ	لأهربَ عما ليس منه مجيداً
فلو كنتُ ذا مالٍ لقربَ مجلسي	وقيل إذا أخطأت أنتَ رشيداً
فدغني أجول <sup>(٣)</sup> الأرضَ عمري لعله	يُسرُّ صديقاً أو يفاظَ حسوداً

وقال رسول الله ﷺ: لا عليكم بالدلجة<sup>(٤)</sup> فإن الأرض تطوى بالليل، ولا تطوى بالنهار. وقال كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل في غير رقة. وقال ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب» وقال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان<sup>(٥)</sup> النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار في ليلة مسافة ثمانى ليالٍ ضرب به المثل، وقال قيس بن الخطيم:

هَمَمْنَا بِالْإِقَامَةِ ثُمَّ سِرْنَا      مَسِيرَ حَذِيفَةَ الْخَيْرِ بْنِ بَدْرِ

وسار ذكوان مولى عمر رضي الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة في يوم وليلة. وقال المأمون: لا شيء ألد من السفر في كفاية وعافية لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها، وتعاشر قوماً لم تعرفهم. ومما قيل في ترك الإقامة بدار الهوان.

(١) سورة: الملك، الآية: ١٥.

(٢) كلاً: عائلة.

(٣) أجول: أسبح.

(٤) الدلجة: المشي ظلمة.

(٥) هجان: نوقه.

قال الفرزدق:

وفي الأرض عن دارِ القلى<sup>(١)</sup> متحوّلوكلُّ بلادٍ أوطتْكَ<sup>(٢)</sup> بلادٌ

وقال آخر:

وما هي إلا بلدةٌ مثلُ بلدتي

خيارهما ما كان عوناً على دهري

وقال آخر:

وإذا البلادُ تغيّرت عن حالها  
ليس المقامُ عليك فرضاً واجباًفدع المقامَ وبأدبِ التحويلا  
في بلدةٍ تدعُ العزيزَ ذليلاً

وقال الصفي الحلبي:

تقلُّ قلْدَاتُ الهوى في التقلُّ

وَرْدٌ<sup>(٣)</sup> كلُّ صافٍ لا يقف عند منهل<sup>(٤)</sup>

ففي الأرضِ أجبابٌ وفيها منازلٌ

فلا تبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ

ولا تستمع قول امرئ القيسِ إنه

مُضِلٌّ ومن ذا يهتدي بمضللٍ

وقال عبد الله الجعدي:

فإن تجفُ عني أو تزُزني إهانةٌ

أجدُ عنك في الأرضِ العريضةِ مذعباً

ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء، قال جرير -

لو كنتُ أعلمُ أن آخرَ عهدِكُم

يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفعلِ

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير: ما كانت جدك صانعاً في قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقطع عينه

حتى لا يرى مظن<sup>(٥)</sup> أحبَّه ثم أنشد يقول:

وما وَجَدُ مغلولٍ بصنعاءِ موثقٌ

بساقيه من ماء الحديدِ كَبُولٌ<sup>(٦)</sup>

قليلُ الموالِيِ مسلمٌ بجزيرةِ

له بعد نوماتِ العيونِ أيلٌ

يقولُ له الحدادُ أنتَ معدَّبٌ

غداةَ غدٍ أو مسلمٌ فقتيلٌ

بأكبرِ مني لوعةً يومَ راعني

فراقِ حبيبٍ ما إليه سئلٌ

وقال الشاعر:

وما أُمُّ خشفٍ طولُ يومٍ وليلو

يلقعو يبداءَ ظمآنِ صاديا

تهمُّ ولا تدزي إلى أين تبغني

مولهةً حزنأ تجوزُ القيافا<sup>(٧)</sup>

(١) القلى: البفض.

(٢) أوطتكَ: جعلتك مواطنها.

(٣) وَرْدٌ: زر.

(٤) منهل: موضع الشرب.

(٥) مظن: وقت رحيلهم.

(٦) كَبُولٌ: أغلال.

(٧) القافيا: القفار والصحارى.

أضربَ بها حرَّ الهجيرِ فلم تجد  
إذا بعدتَ عن خشفها انعطفتَ له  
فألقتهُ ملهوفَ الجوانح طاوياً  
بأوجعَ مني يومَ شدوا حملهم  
لغلتها<sup>(١)</sup> من باردِ الماء شافياً  
ونادى منادي اليئن أن لا تلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لي المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك؟ قال: قلت يا أمير المؤمنين:

لله باكٍ على أحبابه جزعاً  
ما كان والله شؤمَ الدهر يتركني  
قد كنتُ أحزُّ هذا قبل أن يقعا  
إن الزمانَ رأى إلفَ السرور لنا  
حتى يجزَّ عني<sup>(٢)</sup> من بعدهم جرعا  
فليضنحِ الدهر بي ما شاء مجتهدا  
فلا زيادة شيء فوق ما صنعا  
فقال: والله لأعينتك، وأعطاه / ١٠ / آلاف دينار.

وقال آخر:

وقفتُ يومَ النوى منهم على بُعدٍ  
إني خشيتُ على الأظعانِ من نفسي  
ولم أودِّعُهُمُ وجداً وبسناً  
وقال عمر بن أحمد:

أنى الرحيلُ فحين جدَّ ترخَّلتُ  
من لم ييتَ واليئنُ يصدعُ قلبه  
مُهَجُ النفوسِ له عن الأجدادِ  
لم يدركِ كيف تفتَّت الأجدادِ

وحكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً قلنا له: أحسنت، فأومأ يده إلى حجر يرمينا به، وقال: ألمثلي يقال أحسنت؟ فقررنا منه، فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أُنشدكم فإن أنا أحسنت فقولوا أحسنت، وإن أنا أسأت فقولوا أسأت. فرجعنا إليه فأُنشد يقول:

لما أناخوا قيلَ الصبح عيسهمو<sup>(٣)</sup>  
وقلبتُ بخلالِ الشُجفِ ناظرها  
برئو إليّ ودمعُ العينِ ينهملُ  
وودَّعتُ بينانِ زانهُ عننمُ  
ناديتُ لا حملتُ رجلاًك يا جمَلُ  
يا حادي العيسِ عرَّج كي أودَّعهم  
يا ليتَ شعري لطولِ البعدِ ما فعلوا  
إني على العهدِ لم أنقضِ موَدَّتهم

قلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت. ثم شهق شهقةً فإذا هو ميت رحمه الله تعالى:

لما علمتُ بأدُّ القومِ قد رحلوا  
وراهبُ الديرِ بالناقوسِ مشتغلُ  
شبتُ عشري على رأسي وقلتُ له  
يا راهبَ الديرِ هل مرَّت بك الإبلُ

(١) لغلتها: عطشها.

(٢) يجز: يسقيني.

(٣) العيس: التوق.

وقال لي يا فتى ضاقت بك الحيلُ  
بالأمر كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى:

إلا وقد حملوا فيها الطواويسا  
تخالها فوق عرش الدرّ بليسا  
شماً على فلك في حجر إدرسا  
ترى عليها من الأنوار ناموسا  
في بيت خلوتها للذكر ناووسا<sup>(٣)</sup>  
فساوساً أو بطارقاً شماميسا<sup>(٤)</sup>  
يا حادي العيس لا تحدو بها العيسا  
على الطريق كراديساً كراديسا<sup>(٥)</sup>  
والوجد في القلب لا يفتك مغروسا

فحنّ لي وبكى بل رقّ لي ورثى  
إنّ الخيام التي قد جنت تطلبهم

ما رحلوا يوم ساروا البزل العيسا<sup>(١)</sup>  
من كل فاتكة الأحاظ مالكة  
إذا تمثت على صرح الزجاج ترى  
أسفة<sup>(٢)</sup> من بنات الروم عاطلة  
وحشية ما لها أنس قد أخذت  
إن أومات تطلب الإنجيل تحسبهم  
ناديت إذ رحلوا للين ناقتها  
عيت أجناد صبري يوم بينهم  
ساروا وأصبخت أنعي الربع بعدهم

وقال آخر:

وجدنا سيرا ففاضت مدامع  
وناظرها باللؤلؤ الرطب دامع  
وأومت بعينها متى أنت راجع  
يسير ويلدي ما به الله صانع  
فالت من الطرف الكحيل مدامع  
فيا رب ما خابت لديك الودائع

ولما تبذت للرحيل جمائنا  
تبذت لنا مذعورة من خبائنا  
أشارت بأطراف البنان وودعت  
قلقت لها والله ما من مسافر  
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها  
وقالت إلهي كن عليه خليفة

وقال آخر:

هل من سبيل إلى لقياك يفتق  
ولا وقي لك قلبي وهو يحترق

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه  
ما أنصفتك دموعي وهي دامية

وقال البغدادي:

والين صعب على الأجاب موقعة  
قواء عن حمل ما فيه وأضلعة  
من شئت شمل الهوى بالين بجمعة

قالت وقد نالها للين أوجعة  
اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت  
واعطف على المطايا ساعة فمسي

(١) العيسا: النوق الشعب.

(٢) أسفة: درجة كهنوتية وقد ورد في الآيات حسب التسلسل.

(٣) ناووسا: قبرا.

(٤) شماميسا: شماس - قميس - أسقف مطران - بطريق.

(٥) كراديسا: الكتيبة من الجند.

غريق بحر يري الشاطيء ويمنعهُ

كأنني يومٍ ولئت حسرةً وأسى

وقال ابن البديري:

ولا تعجلا يوماً على من يفارقُ  
ليتذَّ منها بالتزود عاشقُ  
فلأن حبي للظمائن سائقُ  
ونحنُ كلانا في التفرُّغ غارقُ  
تسارِقُني في نظرةٍ وأسارقُ  
ولا تعجبا إنا مشوقٌ وشائقُ

قفا حاديني ليلي فإني وامقٌ<sup>(١)</sup>  
وزما مطاياها قبيل ميراها  
ولا تزجروا<sup>(٢)</sup> بالسوقِ ألعانَ عيسها  
ولما التقتنا والغرامُ يُذيهها  
وقفنا ودمع العين يحجبُ بيتنا  
فلا تسالاً محلاً بالين بيتنا

وقال أيضاً:

وعادت منازلها خيلات بلقع<sup>(٤)</sup>  
وشمر العوالي للمنايا تشرعُ  
وحالفت سُهدي والخليون هُجُعُ  
فؤادي أسى من حرها يتقطعُ  
يفيضُ دماً من مقلتي ليس يدفعُ  
على غير ليلي فهو دمع مضيعُ

تذكرت ليلي حين شطَّ مزاؤها<sup>(٣)</sup>  
بكيث عليها والقنا يقرعُ القنا  
وخالفت لوامي عليها وعذلي  
ولم أستطع يوم النوى ردَّ عبرةٍ  
فقال خليلي إذ رأى الدمع دائماً  
لئن كان هذا الدمعُ يجري صباةً

وقال آخر:

وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي  
ولا كانَ ذا التوديعُ آخر زادي

مددتُ إلى التوديع كفاً ضعيفةً  
فلا كانَ هذا آخر العهدِ منكمو

وقال آخر:

وطرفني وقلبي دمعٌ وخسوقُ  
كأنني سحابٌ والوشاةُ بروقُ

ولما وقفنا للسوداع عشيّةً  
بكيث فاضحكتُ الوشاةُ شماتةً

ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

وفي منامي أرى أني أعانقهم  
يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم

يا سادةً في سويد القلبِ مسكنهم  
أرحشتمونا وعزُّ الصبرِ بعدكمو

وقال آخر:

ومحلُّه بين أضلعِ العشاقِ

لو أن مالكَ عالمٍ بذرى الهوى

(١) وامق: محب.

(٢) تزجروا: النهي.

(٣) مزاؤها: بعد مرضها.

(٤) بلقع: قفر لا حياة فيها.



وإذا استغاثوا غائهم بفراق

ما عذب العشاق إلا بالهوى

وقال ابن الوردي:

باللقا حتى ضنيناً<sup>(١)</sup>

دهرنا أضحي ضنيناً

إجمعيماً أجمعيماً<sup>(٢)</sup>

يا ليالي الموصل عودي

وقال الشريف الرضي:

وامزجاً لي دمعي بكأس دهاق<sup>(٣)</sup>

عللاني بذكرهم واسقياني

قد خلعت الكرى على العشاق

وخذنا النوم من جفوني فإني

وقال آخر عند ذلك:

نعم وأشفق من دمعي على بصري

قالوا أترقد إذا غينا فقلت لهم

أنني أعذب بالدمع والتهر

ما حق طرفي هداني نحو حسنكمو

وقال الموصل:

وعقولنا وجفا الجفون منام

فسدت لطلول بما دكم أحلامنا

يا حيداً إن صحت الأحلام

والطيف قد وعد الجفون بزور

ومما قيل في البكاء. قال الشاعر:

وكيف لي بهجوع

رجوت طيف خياليه

والمرسلات دموعي<sup>(٤)</sup>

والذاريات جفوني

وقال آخر:

وابعث خيالك في الكرى

ارحم رجنت للوعتي

عن حالها ياما جرى

ودموع عيني لا تسل

وقال آخر:

يامر الهد في كراها وينهي

إن غيني مذ غاب شخصك عنها

لا تسل ما جرى على الخد منها

بدموع كأنهن الغواصي

وقال آخر:

روعت ممن تحب باليين

يا قلب صبراً على الفراق ولو

أخفيه من قلبي سقطت من عيني

وأنت يا دمغ إن ظهزت بما

(١) ضنياً: بخيلاً.

(٢) أجمعيماً: لمي شملنا جميعاً.

(٣) دهاق: قلع متلثة.

(٤) دموعي: الذاريات - المرسلات سور قرآنية.

وقال آخر:

خاض العواذل في حديثٍ مدامعي  
فجئتُ لأصون سرّاً هواكمو  
لما غدا كالبحرٍ سرعةً سيره  
حتى يخوضوا في حديثٍ غيره

وقال ابن الموّاز

رحتُ يومَ الفراقِ أجري دموعي  
قيلَ كم ذا تجري دموعك تعمي  
حسرةً إذ قَفَسَى الفراقُ بيئتي  
أزِفِ الدمعُ قلتُ من بَعْدِ عَيْتِي

وقال آخر:

لما لبستُ لُبغده ثوبُ الضننى  
أجريتُ وَقَفَ مدامعي من بعده  
وغدوتُ من نوبِ اصطباري عاريا  
وجعلتُهُ وقفاً عليه جاريا

وقال آخر:

ولم أَرِ مثلي غارَ مِن طولِ ليله  
وما زلتُ أبكي في دُجَى الليلِ صبوّةً  
عليه كأنَّ الليلَ يعثقه معي  
مِنَ الوجدِ حتى أبيضَ من فَيْضِ أدمعي

وقال الموصلي:

عبرَ أفاضتُ دُموعي  
ووجنتُ الخدَّ قَالَتُ  
لطولِ صدِّ وَيِّنِ  
رَأَيْتُ غلبي بعيني

وقال آخر:

وما فارتتُ ليلى من مرادٍ  
بكيثُ نعم بكيثُ وكل ألفٍ  
ولكن شقوةً بلغتُ مداها  
إذا ماتتُ حييئةً بكاهها

وفي بعض الكتب السماوية: إنَّ مما عاقبت به عبادي أن ابتليهم بفراق الأحبة.

ومما جاء في الحنين إلى الوطن؛ أما محبة الوطن فمستولية على الطباع، مستدعية أشد الشوق إليها. روي أن إبان قدم على النبي ﷺ، فقال: يا إبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الإذخر<sup>(١)</sup> وقد أعذق، والنمام<sup>(٢)</sup> وقد أورق. فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ. وقال بلال رضي الله تعالى عنه:

ألا ليتَ شِعري هلا أيتنَ ليلةً  
وهل أَرِدنَ يوماً مِيةً مجنّةً  
بِوَادِ حِوَالِي إِذْخِرٍ وَجَلِيلِ  
وهل يَبْدُونُ لي شامةً وطفيل<sup>(٣)</sup>

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقّة، وإلى مسقط رأسها مشتاقّة.

ومن حبّ الوطن؛ ما حكى أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه، فمنع

(١) الإذخر: من النباتات نافذة الرائحة.

(٢) النمام: من النباتات نافذة الرائحة.

(٣) طفيل: جبال بوطن الشاعر.

أهل مصر أوليائه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حملة موسى إلى مقابر آبائه فقبره بالأرض المقدسة. وأوصى الإسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رتمه في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه. واعتلّ سابور ذي الأكتاف وكان أسيراً ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك وكانت قد عشقته: ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة، وشمة من تراب إصطخر، فأثته بعد أيام بشرية من ماء وقبضة من تراب، وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فضعه من علته. وقال الجاهظ: كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه تربة أرضه في جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

ببلادَ أَلْفَنَاهَا عَلَى كُلِّ حَالَةٍ      وَقَدْ يُوَلِّفُ الشَّيْءَ الَّذِي لَيْسَ بِالْحَسَنِ  
وَنَسْتَعِذُّ بِالأَرْضِ الَّتِي لَا هَوَاءَ بِهَا      وَلَا مَاؤَهَا عَذْبٌ وَلَكِنهَا وَطَنٌ

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال: يجرها دَرٌّ، وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. وقال عبد الله بن سليمان في نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكية، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: وقد ولتني على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران. وكان يقال: البصرة خزانة العرب، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها، واتخاذ المسلمين بها وطناً ومركزاً. وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية، وأنا أقول: مصر كنانة الله في أرضه والسلام.

ومما جاء في ذم السفر: قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر.

وقال بعضهم:

كُلُّ العَذَابِ قِطْعَةٌ مِنَ السَّفَرِ      يَا رَبُّ فَارِدِدْنَا عَلَى خَيْرِ الحَضَرِ

وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان. ومَرَّ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ بِمَكَانٍ فَقَالَ: أَسْمَعُ صَوْتَ كَلْبٍ غَرِيبٍ، فَقِيلَ لَهُ: بِمَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: بِخُضُوعِ صَوْتِهِ وَشِدَّةِ نَبَاحِ غَيْرِهِ. وَأَرَادَ أَعْرَابِيٌّ السَّفَرَ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ:

عَدِّي السَّيْنُ لِعَيْتِي وَتَصَبَّرِي      وَذِي الشُّهُورِ فَإِنَّهُنَّ قَصَارُ

فأجابته:

فَاذْكَرِ صِبَابَتَا إِلَيْكَ وَشَوْقَنَا      وَارْحَمِ بِنَاتِكَ إِنَّهُنَّ صَفَارُ

فأقام وترك السفر، ويقال: رب ملازم لمهته فاز بيغته. وقال ابن الهيثم:

لَعَمْرُكَ مَا ضَاعَتْ بِلَادٌ بِأَهْلِهَا      وَلَكِنْ أَحْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(١)</sup> وقيل: الفقر رأس كل بلاء، وداعية إلى مقت الناس وهو مع ذلك مسلبة للمروءة لمذهبة للحياء، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدأً من ترك الحياء، وَمَنْ فَقَدَ حَيَاةَهُ فَقَدَ مَرُوءَتَهُ، وَمَنْ فَقَدَ مَرُوءَتَهُ مَقَتَ، وَمَنْ مَقَتَ اِزْدَرَى بِهِ، وَمَنْ صَارَ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامَهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ. وقال رسول الله ﷺ: **بِكَ إِنْ تَذَرْتُ<sup>(٢)</sup> وَرَثَتِكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٍ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**. وفي الحديث: **«لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَحِبُّ الْمَالَ لِيَصِلَ بِهِ رَحْمَهُ، وَيُؤَدِّي بِهِ أَمَانَتَهُ، وَيَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ خَلْقِ رَبِّهِ»**. وقال علي كرم الله تعالى وجهه: **الفقر الموت الأكبر، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر. وقيل مَنْ حَفِظَ دُنْيَاهُ حَفِظَ الْأَكْرَمِينَ: دِينَهُ وَعَرْضَهُ**. وقال الشاعر:

لَا تَلْمَنِي إِذَا وَقَيْتَ الْأَوَاقِي<sup>(٣)</sup> بِالْأَوَاقِي لِمَاءِ وَجْهِي وَأَقِي

وقال لقمان لابنه: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أَمَرَ من الفقر فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلاً يتصوكون، ولكن أسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه، أو تضرع إليه فلم يكشف ما به. وكان العباس رضي الله عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس وهو عندهم أعذب من الماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يمل حديثه. والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم، ولا يُسأل عنه إن غاب، إن حضر ازدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تقضض الوضوء، وقراءته تحطع الصلاة. وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعينها، وتوحشت في البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قريناً أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئاً أذل له ولا أكر من الفاقة. قال الشاعر:

وكلُّ مقلِّ حينَ يغدو لحاجةٍ  
وكانتْ بنو عمي يقولونَ مرحباً  
إلى كلِّ ما يلقي من الناس مذنبُ  
فلما رأوني معدماً مات مرحبُ

وقال آخر:

المالُ يرفعُ سقفاً لا عمادَ له  
والفقر يهدمُ بيتَ العزِّ والشرفِ

وقال آخر:

(١) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) تذر: ترك.

(٣) الأواقي: حمتك الحاميات.

وعيشُ الفنى بالفقر ليس طيبُ  
تحققهُ الأقسام وهو ليبٌ<sup>(١)</sup>  
يبُت. وهو مغلوبُ الفؤاد سليبُ  
إذا قال كلُّ الناس أنت مصيبُ

وقد يسودُ غيرَ السِّدِّ المألُ

سبًا وإن الفقرَ بالمرء قد يُزري  
ولا وُضِعَ النفسُ النفية كالفقرِ

وهانَ على الأدنى فكيفَ الأبعدُ

والناسُ تغلقُ دونهُ أبوابها  
ويرى العداوةَ لا يرى أسبابها  
خضعتَ لذيهِ وحرَّكتَ أذنايها  
نَبَحْتَ عليه وكثرتَ أنيابها

مثلَ اصفرارِ الشمس عند المغيبِ  
إذا بليَ بالفقرِ إلا غريبُ

تكنُو الرجالَ مهابةً وجمالاً  
وهي السلاحُ لمن أراد قتالاً

فكلما انقلبَت يوماً بهِ انقلبوا  
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب:

وقال الكنائي:

جروحُ الليالي ما لهمنٌ طيبُ  
وحسبُك أن المرءَ في حالِ فقرِهِ  
ومن يغترِرُ بالحادثاتِ وصرفها  
وما ضررتني أن قالَ أخطأتُ جاهلُ

وقال آخر:

الفقرُ يُزري<sup>(٢)</sup> بأقسامِ ذوي حسبِ

وقال آخر:

لعمركَ إن المالَ قد يجعلُ الفنى  
وما زَفِجُ النفسِ الدنيةُ كالغنى

وقال آخر:

إذا قلَّ مالُ المرءِ لانتَ فئاتُهُ

وقال ابن الأحنف:

يمشي الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضلَّهُ  
وتراه مغموضاً وليسَ بمذنبِ  
حتى الكلابُ إذا رأَتْ ذا ثروةَ  
وإذا رأَتْ يوماً فقيراً عابراً

وقال آخر:

فقرُ الفنى يُذهبُ أنوارَهُ  
والله ما الإنسانُ فنى قومه

وقال آخر:

إن الدراهم في المواطنِ كلُّها  
فهي اللسانُ لمن أراد فصاحةً

وقال آخر:

ما الناسُ إلا معَ الدنيا وصاحبها  
يعظمونَ أخوا الدنيا فإنَّ وُجِبَتْ

(١) ليب: يظنونه أحمق وهو ليب.

(٢) يزري: يشين.

أصْبَحَتِ الدُّنْيَا لَنَا عِبْرَةً  
قد أَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى ذَمِّهَا  
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ  
وما أرى مِنْهُمْ لَهَا تَارِكًا  
وقال الزمخشري:

وَإِذَا رَأَيْتَ صَعُوبَةً فِي مَطْلَبٍ  
وَابْعَثْتَهُ فِيمَا تَشْتَهِيهِ فَإِنَّهُ  
فَاحْمِلْ صَعُوبَتَهُ عَلَى الدِّينَارِ  
حَجَرٌ يَلِينُ قُوَّةَ الْأَحْجَارِ

قال الثوري رحمه الله تعالى: لئن اخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن احتاج إلى لقيم. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احْفَظْ عُرَى مَالِكَ تَخْظَ بِهِ  
وَإِنْ يَقُولُوا بِاخْلُ بِالْعَطَا  
وَلَا تُقْرُطْ فِيهِ تَبَقَ ذَلِيلُ  
فَالْبَخْلُ خَيْرٌ مِنْ سَوْأِ الْبَخِيلِ  
وَاحْفَظْ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ زَلَّةٍ  
يُرى عَزِيزُ الْقَوْمِ فِيهَا ذَلِيلُ

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحفظ عليه من المطمعين والمبرطحين<sup>(١)</sup> والمحترفين الموهمين والمتمسين<sup>(٢)</sup>.

فأما المطمعون؛ فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشرى والإكرام والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضاوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يفكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي على مال، بل يكون مالك تحت يدك، أو تحت يد أحد من جهتك، ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين، إن اتمنه هو جعل المال بيده، أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الريح وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير من ماله ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال، قابحه ويرطل من جملة المال صاحب جاه فيدفعه ويقول هذا ربابني<sup>(٣)</sup>، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما، على أن يكتب عليه يقية المال وثيقة فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأت منه وعول أن يكون القبض بيده والمتاع مخزوناً لديه وإطاً<sup>(٤)</sup> عليه البائعين والمشتريين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفتاح الأرزاق بيده، وإن كسد المشتري، أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين، المعترضون لصناعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنهما، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم فإن كذبهم ظاهر وذلك أنهم يوهمون

(١) المبرطحين: سيأتي تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين في حيازة المال.

(٢) المتمسين: سيأتي تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين في حيازة المال.

(٣) ربابني: منسوب إلى الربا.

(٤) إطاً: شاركهم العزم.

الغير أنهم يبلونهم خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل ويحتاجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنه عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة، فيقتنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية، وسييله بعد ذلك إن كان معروفاً قال فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي يتفق عليه هل لك في المعاودة، فإن حمله الطمع وواقفه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأي سبب كان، وإن كان منكوراً غافل صاحب المكان وخارج هارباً.

ومن المطمعين، قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كثر فيه من الأمارات كيت وكيت، ثم يوقونهم على ورقة مصنعة ويقولون نريد أن تأخذ لنا عدة وتتفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك ويوطن نفسه على أن المادة تكون قرية فيعملون يوماً أو يومين، فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة، ثم يستدرجونه إلى أن يتفق عليهم ما شاء الله تعالى ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء، وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطعون؛ فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً<sup>(١)</sup>، وذلك أنهم إذا نذب صاحب المال أحداً منهم لشراء حاجة سارع فيها، واحتاط في جودتها، وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده، سرّاً، حتى يبض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه وكذلك إن نديه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أمره إليه فيستعطفه ويفوز به ثم يغير الحال الأول في الباطن فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون؛ فهم الذين يتعرضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم ببساطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس، ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يريح الأرباح العظيمة فيما يعانیه، ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثير من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق، أو أكل، أو شرب، فشره<sup>(٢)</sup> نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة: يا فلان، تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشاركنا في متاجرك هذه، وأرياحك، فيقول له: أنت جبان يعزّ عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئاً، واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنسبط لهذا، كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه، والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتمسكون؛ فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك، ومجانبة الحرام، ومواظبة الصلاة والصيام لكي

(١) غرراً: انخداعاً.

(٢) شره: تصاب بالطمع.

يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهانى بالأعياد، وربما يأتي معه بأحد من الأولاد ويظهرون النزاهة والغني، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال، وتفوض إليهم الوصايا، ويجلهم<sup>(١)</sup> العوام، وتقبل شهادتهم للحكام، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال وهؤلاء أشتر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار<sup>(٢)</sup> بهم. قال الشاعر:

صَلَّى وَصَامَ لِأَمْرِ كَانِ أَمَلَهُ حَتَّى حَوَّاهُ فَمَا صَلَّى وَلَا صَامَا

وقيل: لا فقير أفقر من غني يأمن الفقير: قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الْغِنَى وَأَنَّ الْغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْفَقْرِ

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال فإن الناس طائفتان، خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به وثقاً، وأسأه به الظن من كان ظنه به حسناً، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعاً سمي أهوج، وإن كان مؤثراً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لسناً سمي مهذاراً، وإن كان صموتاً سمي عيباً. قال ابن كثير:

الناس أتباع مَنْ دامت له نعمُ المالِ زينٌ ومَنْ قَلَّتْ درايمُهُ لِمَا رَأَيْتُ أَخْلَافِي وَخَالَصْتِي أَبَدُوا جَفَاءً وَإِعْرَاضاً قَلَّتْ لَهُمْ وَالْوَيْلُ لِلْمَرْءِ إِنْ زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ<sup>(٣)</sup> حَيٌّ كَمَنْ مَاتَ إِلَّا أَنَّهُ صَنَمٌ وَالْكُلُّ مُنْتَهَرٌ عَنِّي وَمَحْتَشَمٌ أَذْبَبْتُ ذَنْباً قَالُوا ذَنْبُكَ الْعَدَمُ<sup>(٤)</sup>

وكان ابن مقلة وزيراً لبعض الخلفاء فزور عنه يهودي كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي فأعطته درجاً بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الذي كان في الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلها شرّاً قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعاً سنياً وندم على فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تَحَالَفَ النَّاسُ وَالزَّمَانُ فَعَيْتُ كَانِ الزَّمَانُ كَانُوا

(١) يجلهم: يحترمهم.

(٢) الاغترار: الانخداع.

(٣) القدم: عثرت به.

(٤) العدم: الفاقة.



عاداني الدهرُ نصفَ يومٍ  
يا أيها المُفْرِضُونَ عني  
ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى قال بعضهم:  
إنما قسوة الظهورِ القسوةُ  
كم كريمٍ أزرى به الدهرُ يوماً

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها، اللعب بالدينار، وشرب الأدوية والمساليق<sup>(١)</sup>، التي يغلى فيها الذهب.

قال الشاعر:

إحرص على الدرهم والعين  
قسوة العين بإنسانها<sup>(٢)</sup>  
تسلم من العيلة والذئب  
وقسوة الإنسان بالقيس

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال، وبالضد إذا ضعف من الفقر ضعف له البدن.

حكى أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضره فحادثه في ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بني شيان إذا أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشك. والكلام في هذا المعنى كثير، وقد اقتصرنا منه على التزر اليسير، وقد كان في الناس من يتظاهر بالفنى ويراه مروءة وفخراً، فمن ذلك ما حكى عن أحمد بن طولون أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى الترجس وقد تفتح زهره فاستحسنه فدعا بغداته فتغذى ثم دعا بشرايه فشرب، فلما انتشى قال: عليّ بألف مثقال من المسك فشره على أوراق الترجس.

ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف؛ حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالمعجائب والطرف أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ، لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة، وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار. وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطلقه كان قتل صاحبها بشمانين ألف دينار، وليس سلبه وقيمتها خمسمائة ألف وخمسون ألفاً. وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف دينار ومائتي ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعاً بالجواهر فلم يدر أحد ما قيمته. فقال رجل من الفرس أنا أحلّه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته، فذهب به إلى سعد بن أبي وقاص فأعطاه إياه. وقال لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتت التركُ إلى عبد الله بن زياد بيخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فرديته، ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون فقومت بمائتي ألف

(١) المساليق: مفرد ما يسلق ليشرب.

(٢) بإنسانها: بؤبؤ العين.

فيتار. ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب يتزل إليها بسلام: ودفع مصعب بن الزبير حين أحسن بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر، وقال له انج به وكان قد قوّم ذلك النقص بألف ألف درهم، فأخذ زياد ورضه بين حجرين وقال والله لا يتنفع به أحد بعد مصعب. وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته عثر على كتز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب، مرصعة بالدرّ والجواهر، والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد فجعلها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال إلى من أوقفها فقيل إلى نساك وأهلك. فقال لا بل إلى رجل قدّم عندنا يدا، وأولانا جميلاً، ادع لي عبد الله بن أبي دريد فدفعها إليه. ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كاليضة وزنها سبعة عشرة مثقالاً، فأفلدها أمير الجيوش إلى المستنصر فقوّمت بتسعين ألف دينار.

ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعد له من آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف دينار. ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية، و وفاة هشام سبع سنين. ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس وعشرة وخمسمائة خلف بعده مائة ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين أردبا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج، ودواة من الذهب قوّم ما عليها من الجواهر والياقيات بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب، قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليها ثيابه، إذ نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجواهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه، وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم، وسق<sup>(١)</sup> مائة جمل، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة، وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهباً، كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام<sup>(٢)</sup> ذهباً بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأردب، في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة<sup>(٣)</sup> ذهباً وألفي حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة، منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة ثور ذهباً، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لونه في كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلًا كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً له، فلما رآه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج<sup>(٤)</sup>، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره.

(١) سق: حمولة.

(٢) جام: وعاء زجاجي.

(٣) حسكة: من الأسلحة.

(٤) القولنج: أحد الأمراض الباطنية.

وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم، وفنيت أموالهم فسبحان من يدوم ملكه ويقاؤه. قال بعضهم:

هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً<sup>(١)</sup> أَيْسَ مَصِيْبُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أَيَا مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا طَوِيلاً  
وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سِيفِي  
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً  
وَأَفْنَى الْعَمَرَ فِي قَبْرِ قَبِيْلٍ وَقَالَ  
وَجَمَعَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالٍ  
أَيْسَ مَصِيْبُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عفواً: دون جهد.

## الباب الثاني والخمسون: في ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ \* أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾<sup>(١)</sup> على ذم الغنى إن كانت سبب الطغيان. وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى، وتلا هذه الآية المتقدمة. والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة، وحدث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاماً». فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم. قال: فهل عندك ما تمشى به؟ قال: نعم قال: فإذا أنت من الأغنياء. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان النبي ﷺ يبيت طواياً ليالي ما له ولا لأهله عشاء. وكان عامة طعامه الشعير. وكان يعصب<sup>(٢)</sup> الحجر على بطنه من الجوع وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول، هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه. وكان يقول: «اللَّهُمَّ توفني فقيراً ولا توفني غنياً، واحشرنى في زمرة المساكين». وقال جابر رضي الله تعالى عنه: دخل النبي ﷺ على ابته فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال: تجرعي<sup>(٣)</sup> يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾<sup>(٤)</sup> وقال ﷺ: الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختاره إلا أولياء الله تعالى. وفي الخبر: إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لملائكته: أدنوا إليّ أحبائي فتقول الملائكة: ومن أحبائك يا إله العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائي. فيدنونهم منه. فيقول: يا عبادي الصالحين إني ما زويت<sup>(٥)</sup> الدنيا عنكم لهوانكم عليّ، ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إليّ وتمنوا ما شتمتم فيقولون وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنها منها. ولقد أحسنت بما صرفت عنا فيأمر بهم فيكرمون ويحيرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان. وقال ﷺ: «هل تنصرون إلا بفقراتكم وضعفاتكم، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أمي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام والأغنياء يحاسبون على زكاتهم». وقال عليه الصلاة والسلام: «رب أشعث أغبر ذي طمرين<sup>(٦)</sup> لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره» أي لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً. وقال عليه الصلاة والسلام «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج

(١) سورة: العلق، الآيتان: ٦ - ٧.

(٢) يعصب: يربطه بخصية.

(٣) تجرعي: ذوقني.

(٤) سورة: الضحى، الآية: ٥.

(٥) زويت: حبستها عنكم.

(٦) طمرين: ثوبين باليين.

أحدهم تلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم. وروي عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين وكان ضيق الحال جداً، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو. فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك. قال: فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فأخذ حصة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهباً فإذا هي تبرة في كفه، ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إليّ. وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك فبهته والله أن أردّها عليه، وقال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر مني همّاً لأنني كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابي، ودابة أحسن من دابتي، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يهلك الإنسان كثرة مالِهِ  
وقال عبد الله بن طاهر:

ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى<sup>(١)</sup>  
فمن سرّه أن لا يرى ما يسوّه

وكان من دعاء السلف رضي الله تعالى عنهم: اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر<sup>(٢)</sup> الغنى. وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويل لمن جمع المال من غير حقه، وويلان لمن ورثه لمن لا يحمده. وقدم على من لا يعذره. ولما فتحت بلخ في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغني بعد الإنصراف من بين يدي الله تعالى، أي بعد العرض. قال الشاعر:

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يؤل  
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن

وقال آخر:

ولا ترهبن الفقر ما عشت في غد  
قال هارون بن جعفر الطالبي:

بوعدت همتي وقورب مالي  
ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناع  
ولقد تعلم الحوادث أنني  
ففعالي مقصر عن مقالي  
وهو من بين ما اكتسوا سربالي  
ذو اصطبار على صروف الليالي

وقال أعرابي: من ولد في الفقر أبطره الغنى. ومن ولد في الغنى لم يزد إلا تواضعاً. فما أحسن انفق وأكثر ثوابه وأعظم أجر من رضي به وصبر عليه. اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أسدى: ما أعطى.

(٢) وبطر: الأشر.

(٣) بدونها: بأقل منها.

## الباب الثالث والخمسون: في ذكر التلطف في السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس». وما سئل عليه السلام شيئاً قط فقال لا. وأتى إعرابي إلى علي رضي الله تعالى عنه فسأله شيئاً. فقال: والله ما أصبح في بيتي شيء فضل عن قوتي. فولى الأعرابي وهو يقول: والله ليسألك الله عن موقعي بين يديك يوم القيامة. فبكى علي رضي الله تعالى عنه بكاء شديداً وأمر برده. وقال يا قنبر: اتني بدرعي الفلانية فدفعتها إلى الأعرابي وقال لا تخدعن عنها، فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ. فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً. فقال يا قنبر: والله ما يسرني أن لي زنة الدنيا ذهباً وفضة فتصدقت به، وقبل الله مني ذلك، وأنه يسألني عن موقف هذا، بين يديه. وقال علي رضي الله تعالى عنه: إن لكل شيء ثمرة، وثمره المعروف تعجيل السراح<sup>(١)</sup>. وقال مسلمة نصيب: سئني فقال: ككف بالمعطية أبسط من لساني بالمسألة فقال لحاجبه: ادفع إليه ألف دينار. وسأل رجل الحسن رضي الله تعالى عنه. فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسيلتي أنني أتيتك عام أول فبررتني. قال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه. ويقال: الكريم إذا سئل ارتاح، والثلثيم إذا سئل ارتاع. ولما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلامة:

إنني نذرتُ لئن رأيتُك قادمًا  
أرضَ العراقِ وأمستَ ذو وقـرٍ  
لتصلينَ عليَّ النبيَّ محمدٍ  
ولتـمـلأنَّ دراهمـا حجـري

فقال المهدي: صلى الله على محمد. فقال أبو دلامة: ما أسرعك للأولى، وأبطأك عن الثانية. فضحك وأمر يلدرة فصبت في حجره.

وسمع الرشيد إعرابية بمكة تقول:

طحتننا كلاكيلُ الأعوام<sup>(٢)</sup>  
فأتيناكمو نمؤدُ أكفأ  
فأطلبوا الأجرَ والمشوبةَ فينا  
وآرتننا طوارقُ الأيامِ  
لالتقامِ من زادكم والطعامِ  
أيها الزائرون بيئت حرامِ

فبكى الرشيد. وقال لمن معه: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كبرة، وملأوا حجرها دراهم ودنانير. وسأل أعرابي بمكة وأحسن في سؤاله فقال: أخ في الله، وجار في بلد الله، وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسيني في الله. قال الشاعر:

ليسَ في كلِّ هـلوةٍ وأوانٍ  
تتهيأ صنائعُ الإحسانِ

(١) السراح: المعطية.

(٢) الأعوام: شدتها ونوازله.

فإذا أمكثت فبادر إليها  
وقال البصري:

أضحث حوائجنا إليك مناخة  
مقولةً برحائبك اليوصال  
أطلق فديتك بالنجاح عقالها<sup>(١)</sup>  
حتى تشور بنا بغير عقال

وعن علي رضي الله تعالى عنه: قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع وسمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نابتة نابتة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه، كما تطرد غريبة الأيلن. وقال لجابر بن عبد الله: يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء.. ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها. وكان لبيد رحمه الله تعالى آتى على نفسه كلما هبت الصبا<sup>(٢)</sup> أن ينحر ويطعم، وربما ذبح العناق إذا ضاق الخناق، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال: قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته. ثم بعث إليه بخمسة من الإبل وبهذه الأبيات:

أرى الجزاز يشحذ مدبتيه  
طويل الباع أبلج جعفري  
وفي ابن الجعبري بما نواه  
إذا هب ريح بني عقيل  
كريم الجيد كالسيف الصقيل  
على الملات بالمال القليل

فدعا لبيد بتأله خماسية وقال: يا بنية إني تركت قول الشعر فأجيبني الأمير عني:

إذا هبت ريح بني عقيل  
طويل الباع أبلج عشمي<sup>(٣)</sup>  
بأمثال الهضاب كأن رعيأ  
أبا وهب جزاك الله خيراً  
فشد إن الكريم له معاد  
تداعينا لهيبنا الوليدا  
أعان على مروءته ليذا  
عليها من بني حمام قعود  
نحرناها وأطمنا الثريدا  
وظني في ابن عتبة أن يعودا

فقال: لقد أحسنت والله يا بنية، لولا أنك سألت وقلت عُد. فقالت: يا أبت إن الملوك لا يستحيا منهم في المسألة. فقال: والله لأنت في هذا أشعر مني. ووفد رجل من بني ضبة على عبد الملك فأنشده:

والله ما نلدري إذا ما فاتنا  
ولقد ضرتنا في البلاد فلم نجد  
فاصبر لعادتك التي عودتنا  
طلب إليك من الذي نطلب  
أحداً سواك إلى المكارم ينسب  
أو لا فأزئذنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار. فعاد إليه من قابل وقال: يا أمير المؤمنين إن الروي<sup>(٤)</sup> لينازعني، وإن الحياء يمنعي فأمر له

(١) عقالها: أي فك حبلاها.

(٢) الصبا: الريح الشرقية.

(٣) عشمي: منسوب إلى عبد شمس (من قريش).

(٤) الروي: ربما القصيد.

يألف دينار وقال: والله لو قلت حتى تنفذ بيوت الأموال لأعطيتك. وقيل: إن رجلاً عرض للمنصور فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتني مرة قبل هذه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض، وبعض البقاع أعز من بعض. فقال: صدقت وقضى حاجته وأحسن إليه.

وروي أن أبا دلامة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح في بعض الأيام فقال: له سلني حاجتك. فقال: كلب صيد. فقال: أعطوه إياه. فقال: ودابة أصيد عليها. فقال: أعطوه دابة. فقال: وغلاماً يقود الكلب ويصيد به. قال: أعطوه غلاماً. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا يد لهم من دار يسكنونها، قال: أعطوه داراً تجمعهم. قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون. قال: قد أقطعتهم عشر ضياع عامرة، وعشر ضياع غامرة. فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني أسد فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة. فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها، كيف ابتداء بـكلب صيد فسهل القضية، وجعل يأتي بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأله، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه.

وحكي عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكرم يوماً: سر بنا نتزج، فسارا فينما هما في الطريق وإذا بمقصبه<sup>(١)</sup> خرج منها رجل بقصبه للمأمون يتظلم له فنشرت دابته فألقته على الأرض صريعاً فأمر بضرب ذلك الرجل. فقال: يا أمير المؤمنين إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور، وهو عالم به ويتجاوز حدّ الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك، ولأنت على ردّ ما لم تفعل أقدر مني على ردّ ما قد فعلت. قال: فبكى المأمون وقال: بالله أعدّ عليّ ما قلت. فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكرم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغرني<sup>(٢)</sup> والنيبي<sup>(٣)</sup> يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه» والله لا وقت لك إلا وأنا قائم على قدمي، فوق وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلما همّ المأمون بالإنصراف قال الرجل: يا أمير المؤمنين بيتان قد حضراتي، ثم أشد يقول:

ما جاد بالوفرٍ إلا وهو معتذرٌ      ولا عفا قط إلا وهو مقتدرٌ  
وكلما قصدهُ زاد نائلُهُ<sup>(٢)</sup>      كالنارِ يؤخذُ منها وهي تستعرُ

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهرأ فلم يصل إليه، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب فكان في السطر الأول: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة. وفي السطر الثاني: الضرورة والأمل أقدماني عليك. وفي السطر الثالث: الإنصراف من غير فائدة شماتة الأعداء. وفي السطر الرابع: أمّا نعم، فمثمرة وأمّا لا، فمريحة، فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار.

وحكى أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله فأصاب الناس قحطاً<sup>(٣)</sup> بالمراق حتى رحل أكثر الناس عنه فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد في طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر

(١) بمقصبه: موضع كثير القصب.

(٢) نائله: عطائه.

(٣) قحط: جفاف.



قالت له: إذا سافرت من يتفق علينا؟ قال: إن لي على ابن عبيد الله ديناراً ومعني به إسهاد عليه شرعي، فخذني الإسهاد وقدمه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأيت الأحمالَ محدجة<sup>(١)</sup> واليّن قد جمع المشكّر والشاكي  
مَنْ لي إذا غبتَ في ذا المحلِّ قلتُ لها الله وإبسنُ عبيدِ الله مولاكِ

فمضت إليه المرأة وحثت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة فقرأها وقال: صدق زوجك وما زال يتفق عليها ويواصلها بالبرّ والإحسان إلى أن قدم زوجها، فشكره على فضله وإحسانه.

وحكي أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يياسطه فقال: يا مطيع، إن شئت أعطيتك، وإن شئت مدحناك كما مدحتنا. فاستحيا مطيع من اختيار الثواب، وكره اختيار المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناءً من أميرٍ خيرٍ كسبٍ لصاحبٍ نعمتٍ وأخي ثراءٍ  
ولكنّ الزمانَ بصرى عظامي<sup>(٢)</sup> وما لي كالدرهم من دواءٍ

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدرهم من دواء، وأمر له بصلة جزيلة، ومال كثير. قال الشاعر:  
هزرتك لا أنسي جعلتُك ناسياً ولكن رأيتُ السيفَ من بعدِ سلته  
لأمري ولا أنسي أردتُ التماضيأ إلى الهزّ محتاجاً وإن كان ماضيأ

وقال آخر:

ماذا أقولُ إذا رجعتُ وقيلَ لي ماذا لقيتَ من الجوادِ الأفضلِ  
إن قلتُ أعطاني كذبتُ، وإن أقلُّ فاختَرْتُ لنفسيك ما أقولُ فإنني  
لا بدّ أخبرهم وإن لم أسأل

وقال آخر:

لنوائبِ الدنيا خباتك فاتيةً أم في المعادِ تجودُ بالإنعامِ  
أعلى الصراطِ تنزيلُ لوعةِ كربتي يا نائماً من جملةِ النّوامِ

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في ذمّ السؤال والنهي عنه. روي عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ فبسطنا أيدينا، وكنا حديثي عهد بالمبايعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام يا رسول الله نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا الله، وأسر كلمة خفية وهي ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه» رواه مسلم. وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه. وكان لقمان يقول لولده: يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء

(١) محدجة: معلقة للسير.

(٢) عظامي: أثلها.

(٣) لم يجمل: لم يحسن به.

الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لئن تدخل يدك في قم التين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غني قد نشأ في الفقر. وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ، أو الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم. وقال أبو محلم السعدي:

إذا ما رماك الدهرُ في الضيقِ فانتجع<sup>(١)</sup> قديمَ الغنى في الناس إنك حامدُه  
ولا تطلبنَّ الخيرَ ممَّن أفادَه حديثاً ومَن لا يورث المجدَ والدُه

وقال رسول الله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش ما أحلّ من الفواحش غيرها». وقال عليه الصلاة والسلام: لئن يأخذ أحدكم حبله فيحطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه» قال الشاعر:

ما اعتاضَ باذُلٌ وجهه بسؤالِه عوضاً ولو نالَ الغنى بسؤالِ  
وإذا السؤالُ مع النوالِ وزنته رجحَ السؤالُ وخفَّ كلُّ نوالِ<sup>(٢)</sup>

وقال أحمد الأنباري:

لَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ مِنَ النُّخْلِ لِلْغَنِيِّ وَلَلْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ سَوَالِ بَخِيلِ  
لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ لِرُجُوحِكَ قِيمَةٌ فَلَا تَلَقَ إِنْسَانًا بِوَجْهِ ذَلِيلِ

وقال سلم الخاسر:

إذا أذنَّ الله في حاجةٍ إنّاك النجاحُ على رسله  
فلا تسألِ الناسَ من فضلهم ولكنَّ سألِ الله من فضله

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفي هذا المعنى

قيل:

لا تسألنَّ بنيَّ آدمَ حاجةً الله يفضبُ إن تركتَ سؤالَه  
وسألِ الذي أبوابُه لا تحجبُ<sup>(٣)</sup> وبني آدم حين يُسأل يفضبُ

وقال محمود الوراق:

شادَ الملوكَ قصورهم وتحصَّنوا من كلِّ طالبِ حاجةٍ أو راغبِ  
فارغَبَ إلى ملكِ الملوكِ ولا تُكنَّ يا ذا الضراعةِ<sup>(٤)</sup> طالباً من طالبِ

وقال ابن دقيق العيد:

وقائلو مات الكرامُ فمَن لنا إذا عَضْنَا الدهرُ الشديداً بناه  
فقلتُ لها مَن كان غايةً قصده سؤلاً لمخلوقٍ فليس بناه

(١) انتجع: اقصد.

(٢) نوال: عطاء.

(٣) تحجب: ليس بها من يمنع.

(٤) الضراعة: أي الذي يضرع إلى مولاه ويدعوه.

إذا ماتَ من يُرجى فمقصودنا الذي

ترجيئهُ باقٍ فلوذي بإيهِ

وقال بعض أهل الفضل:

لما انقضتْ لصحبي ما وجدتهمو

لجأتُ لله لبّاني وأغناني

وأما على بذلٍ وجهي للورى سفهاً

فلو بذلتُ إلى مولاي والاني<sup>(١)</sup>

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلاناً حاجة أقل من قيمته فردني رداً أتيج من خلقته. وسأل عروة مصعباً حاجة فلم يقضها فقال: علم الله تعالى أن لكل قوم شيئاً يفزعون إليه، وأنا أفزع<sup>(٢)</sup> منك. ويقال لا شيء أوجع للاختيار من الوقوف بباب الأشرار. وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

بلوثُ بني الدنيا فلم أرَ فيهم

سوى مَنْ غدا والبخلُ ملءُ إهابهِ<sup>(٣)</sup>

فجردتُ من غمدِ القناعةِ صارماً

قطعتُ رجائي منهم بذبابهِ

فلا ذا يراني واقفاً في طريقهِ

ولا ذا يراني قاعداً عندَ بابهِ

غنيّ بلا مالٍ عن الناسِ كلهم

وليس الغنيّ إلا عن الشيءِ لا به

إذا ظالمٌ يستحسنُ الظلمَ مذمباً

ولجَ عتواً<sup>(٤)</sup> في قبيحِ اكتسابهِ

فكلُّهُ إلى صَرْفِ الليالي فإنَّها

سُتبدلي له ما لم يكن في حسابهِ

فكم قد رأينا ظالماً متمرداً

يرى النجمَ تهباً تحت ظل ركبهِ

فمتما قليلٍ وهو في غفلاتهِ

أناختُ صروفَ الحادثاتِ بإيهِ

فأصبحَ لا مالاً ولا جاءَ يرتجى

ولا حسناتٍ تلتقي في كتابهِ

وجوزيَ بالأمرِ الذي كان فاعلاً

وصبَّ عليه الله سوطَ عذابهِ

وقال آخر:

لا تسألنَّ إلى صديقٍ حاجةً

فيحولُ عنك كما الزمانُ يحولُ

واستعسِنَ بالشيءِ القليلِ فأنَّهُ

ما صانَ عرضَكَ لا يقالُ قليلُ

من عفاً خفَّ على الصديقِ لقاءهُ

وأخو الحوائجِ وجههُ مملولُ

وأخوكَ مَنْ وفرتَ ما في كفه

ومتى علقَتَ به فأنَّتَ ثقيلُ

وقال آخر:

ليس جوداً أعطيتَهُ بسؤالٍ

قد يهزُّ السؤالُ غيرَ جوادٍ

إنما الجوادُ ما أتاك ابتداءً

لم تَلقُ فيه ذلَّةَ التردادِ

وقال آخر:

(١) والاني: نصره.

(٢) أفزع: أخاف.

(٣) إهابه: أي قد صار البخل من أصل خلقته.

(٤) العتو: التكبر.

وقال آخر:

لا تحسبن الموت موتَ البلا  
كلاهَمَما موتٌ ولكنَ ذا

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه:

فنعثُ بالقوتِ من زمانِي  
خوفاً من الناس أن يقولوا  
من كنتُ عن مالٍ غنياً  
ومن رأيتني بعينٍ قمِي  
ومن رأيتني بعينٍ تمُّ (٢)

وَصُنْتُ نَفْسِي عَنِ الْهَوَانِ (١)  
فَقَسَلُ فِئْلَانٌ عَلَيَّ فِلَانٍ  
قَلَا أَبَانِي إِذَا جُفَانِي  
رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي رَأَيْتِي  
رَأَيْتُهُ كَامِلَ الْمَعَانِي

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الهوان: اللذل.

(٢) بعين تم: عين كاملة.

## الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَا مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾<sup>(١)</sup> فسرنا بعضهم بالهدية. وقال عليه السلام: «تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحنة» وقال عليه السلام: «الهدية مشتركة» وقال عليه السلام: «من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذكم فأعينوه، ومن أهدى إليكم كريماً فأقبلوه» وكان عليه السلام يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها. وفي الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر. ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجراً. وقال الفضل بن سهل: ما استرضي الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سلبت السخائم<sup>(٢)</sup>، ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا توفى المحذور بمثل الهدية. وأتى فتح الموصلي بهدية وهي خمسون ديناراً فقال: حدّثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من آتاه الله رزقاً من غير مسألة ورده فكنّا رده على الله تعالى». وأهدى رسول الله صلى الله عليه وآله هدية إلى عمر فردها فقال: يا عمر لم رددت هديتي؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إني سمعتك تقول: خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس. فقال: يا عمر إنما كان ذلك ما كان عن ظهر مسألة، فأما إذا أتاك من غير مسألة، فإنما هو رزق ساقه الله إليك. وقالت أم حكيم الخزاعية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب، ويذهب بغوائل»<sup>(٣)</sup> الصدر» ويقال في نشر المهادة طي المعادة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتز بها

أهدى إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد: فيلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجرهرة من ملك الصين، وإستبرق من ملك الروم، ودرّة من ملك البحر، وجرادة من ملك النمل، وذرة من ملك البعوض، فتأمل ذلك وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد. وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة، ليعلم عز الإسلام، ونعمة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها. قال: ما أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور، قال: وكم في الهدية من ذلك؟ قالوا: مائتا رطل مسكاً، ومائتا فروة سمور. وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية، كان فيها عشرون صينية ذهب، في عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة، في عشرة منها مشام صندل، وزنها نيف وثلاثون رطلاً، وخمس خلع وشي قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتد على الله هدية في بعض السنين من جملتها عشرة بازات، منها باز أبلق لم ير مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيها طرف الصين وغرائبه، ومسجد فضة بدرابزين

(١) سورة: النساء، الآية: ٨٦.

(٢) السخائم: الأحقاد.

(٣) غوائل الصدر: أحقاد.

يصلي فيه خمسة عشر إنساناً، ومائة رطل من مسك، ومائة رطل عود هندي، وأربعة آلاف ألف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوباري ملكة افرنجة وما والاها إلى المكفي بالله من سنة ثلاث وسبعين ومائتين خمسين سيقاً، وخمسين رمحاً، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماتاً صقلياً، وعشرين جارية صقلية. وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع، وستة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلون في كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية، إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة في قدر البغل وأذانها شبه أذان البغل وهي مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قطاراً من الذهب الأحمر، كل قطار منه عشرة آلاف دينار عربية. قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكي أن الخيزران جارية المهدي كانت أدبية شاعرة فعزم المهدي على شراء دواء، فأنفذت إليه جام بلور في شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال وكتبت إليه تقول:

إذا خرج الإمام من الدواء	وأعقبَ بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب	بهذا الجام من هذا الطلاء
فينعم للتي قد أنفذت	إليه بزوررة بعد العشاء

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

وأهدى الصابئي إلى عضد الدولة إسطرلاباً في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا	في مهرجانٍ جديدٍ أنت تلبيه
لكنَّ عبدك إبراهيم حين رأى	سمو قدرك عن شيء يدايه
لم يرضَ بالأرض يهديها إليك وقد	أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها: إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلمها لطفتم ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلمها عظمت وجلت كانت أوقع وأنفع. وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شيء بجمال، أو سمن قال هو أحسن، أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال ذلك، قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ويذكرها. قال الشاعر:

وإن امرؤ أهدى إليّ صنيعاً  
وذكّرنيها مرةً للئيم

وقال سفيان الثوري: إذا أردت أن تتزوج فأهد للام. وكان سفيان يروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر وعنده قوم فذكروا الخير فقال إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب، أما في ثياب مصر فلا. وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها برهان وقد حج موالها فقال:

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا  
فاطرفيني بما قد أطرفوك به  
ولست أقبلُ إلا ما جلوت به  
وقد أتتك الهدايا من مواليك  
ولا تكن طرفتي غير المساويك  
ثيتيك وما رددت في فيك

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول:

تفضل بالقبول عليّ إنني  
بعثتُ بما يقل العبدَ عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز وكتب إليه يقول: هذا يوم جرت فيه العادة بالطاق العيد للسادة، وقلد الأمير يجلّ عما تحيط به المقطرة، وفي سودده ما يوجب التفضل ببسط المعنرة، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جلّ ولا يستقل لعبيده ما قل، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل كتطول بهاءه الجزيل فعل، وجعل يقول:

رأيتُ كثيرَ ما يهدى إليكم  
قليلاً فاقصرتُ على الدعاء

ويلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالم ولي المظالم فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذي ولي علينا من يعرف حقوقنا. فقيل له: كنت تذمه ثم الآن تمدحه. فقال: حدثني خيثة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ويفض من أساء إليها» وقال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الخامس والخمسون: في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قلّ» وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: قليل مُدَامٌ عليه خير من كثير مملول. وفي التوراة: حرّك يداك أفتح لك باب الرزق. وكان إبراهيم بن أدهم يقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلي بالليل. وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ألا ما ينفي عني حجة العلم؟ قال: «العمل». وعنه ﷺ أنه قال: «الكيس»<sup>(١)</sup> من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان». وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل، وأنشد يقول:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه      فقي صالح الأعمال فسك فاجعل

وقال بعض الحكماء: لا شيء أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عظمني، فقال له الولي: بلغني رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه وقيل: من جدّ وجد، وأنشدوا في المعنى:

إنني رأيتُ وفي الأيامِ تجربةً      للصبرِ عاقبةً محمودةً الأثر  
وقل من جدّ في أمرٍ يحاوله      واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفر

وتقول العرب: فلان وثاب على الفرص. وقال بعضهم:

وإنني إذا باشرتُ امرأً أريدُه      تدانَتْ أقاصيه<sup>(٢)</sup> وهانَ أشدُه

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: يتبع الميت ثلاث، يرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه: أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. وقال بعضهم: العمل سعي الأركان إلى الله والنية سعي القلوب إلى الله، والقلب ملك، والأركان جنود، ولا يحارب الملك إلا بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. وقيل: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، وهذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> أي دروع من الحديد، وذلك أن

(١) الكيس من دان: اللبى ذو الكيافة.

(٢) أقاصيه: تقاربت أبعده.

(٣) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٠.



داود عليه الصلاة والسلام كان يدور في الصحاري فإذا رأى مَنْ لا يعرفه تحدّث معه في أمر داود، فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه. فسمع يوماً مَنْ يقول: إني لا أجد في داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام في محرابه وتضرّع بين يدي الله تعالى، وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله في يده كالشمع، فاحترقها واستعان بها على أمره وصار يحكم منها الدرّوع. وقال رسول الله ﷺ: «جعل رزقي تحت رمحي» فكانت حرفته الجهاد. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف»<sup>(١)</sup> قال ﷺ: «إن الله تعالى ييغض العبد الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام «مَنْ اكسب قُوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة، ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل شيئاً وهو يجد قوت يومه، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده، إن الله تعالى ييغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ «مَنْ بات في طلب الحلال أصبح مغفوراً له». وعن الحسن رحمه الله: كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف. وقيل لمحمد بن مهران: إن ههنا أقواماً يقولون نجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء قوم حمقى، إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال أيضاً: إني لأرى الرجل فيعجبني، فأول الله حرقه؟ فإن قالوا لا سقط من عيني. واشترى سليمان وسقاً من طعام وهو ستون صاعاً، فقيل له في ذلك، فقال: إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت. قال بعضهم في السعي:

خاطرُ بنفسك كي تصيبَ غنيمةً      إنَّ الجلوسَ معَ العيالِ قبيحُ

وقيل: إنَّ أوَّلَ مَنْ صَنَعَ لسانَ الميزانِ عبدُ الله بنِ عامرٍ، وكان الناسُ إنما يَرْتُونُ بالشاهيني<sup>(٢)</sup>. وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: غلا السمرا على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله سقر لنا، فقال: «إنَّ الله الخالقُ القابضُ المسمرُ الرازقُ، وإني لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحدٌ يطلبني بمظلمة ظلمته بها في أهل ولا مال».

وأما ما جاء في المعجز والثأني: فقد روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: مَنْ أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن عجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه. قال الشاعر:

على المرء أن يسعى ويذلَّ جهدهُ      ويقضي إلى الخلق ما كان قابضاً

ومثله قوله:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعهُ      وليس عليه أن يساعدهُ الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه مَنْ سكن إلى عاجز أعداه من عجزه وأمه من جزعه، وعوده قلة الصبر، ونسائه ما في العواقب، وليس للمعجز ضد إلا الحزم، وقال بعض العلماء: من الخذلان مسامرة الأمانى، ومن التوفيق بغض التواني<sup>(٣)</sup>. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «باكروا في طلب الرزق والأحوال فإنَّ الغدو<sup>(٤)</sup> بركة ونجاح».

(١) العبد المحترف: ذو الحرفة.

(٢) الشاهيني: قصة توضع المواد في طرفيها بعد ربطها بخيط في المتصف تحمل منه.

(٣) التواني: الكسل.

(٤) الغدو: التبكير.

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: احرص على ما يفعلك ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من السنة التمس. وقال علي رضي الله تعالى عنه: التواني مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة وتنتج الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد. وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال بعض الحكماء: الحركة بركة، والتواني هلكة، والكسل شؤم، وكلب طائف خير من أسد رابض، ومن لم يحترف لم يختلف. وقيل: من العجز والتواني تنتج الفاقة. قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات:

كأَنَّ التواني أنكَحَ العَجْرَ بِنْتَهُ  
فِرَاشاً وَطِيناً ثُمَّ قَالَ لَهَا اتَكِي  
وساق إليها حين زوّجها مهرا  
فإنكما لا بد أن تلدا الفقرا

وقال آخر:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ  
فَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزْءٍ  
ولا ترغبن في العجز يوماً عن الطلب  
وهزّي إليك الجذع يساقط الرطب  
جنته ولكن كل رزق له سبب

وسأل معاوية رضي الله تعالى عنه سعيد بن العاص عن المروءة، فقال: العفة والحرفة. وكان أيوب السخيتاني يقول: يا فتيان احترفوا فإني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعني الأمراء. وقال رجل للحسن: إني أنشر مصحفني فأقرؤه بالنهار كله. فقال: اقرأه بالغداة والعشي ويكون يومك في صنعتك وما لا بد منه. ومزّ رحمه الله تعالى يسكافي فقال: يا هذا اعمل وكل فإن الله يحب من يعمل ويأكل، ولا يحب من يأكل ولا يعمل، وقال أبو تمام:

اعاذتني ما أحسن الليل مبركيا  
ذريني<sup>(١)</sup> وأهوال الزمان أقاسها  
أرى عاجزاً يدعي جليداً لقسوة  
وعفاً يسمي عاجزاً بعفاهه  
وليس بعجز المرء أخطأه الغنى  
وأحسن منه في الملمات راكبة  
فأهواله العظمى تليها رغائبه  
ولو كلف التصوى لكلفت مضاربه  
ولولا التقى ما أعجزته مذاهبه  
ولا باحتيال أدرك المال كاسبه

وقال آخر:

فلا تتركن إلى كسل وعجز  
يُحِيلُ عَلَى الْمَقَادِيرِ وَالْقَضَاءِ

وقال أعرابي: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأمانى المستحيلة، ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التواني في صورة التوكل ويريه الهوينا بحالته على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بني إياك والكسل والضجر فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً، وإذا ضجرت لم تصبر على حق. قال أبو العتاهية:

إذا وَضَعَ الرَّاعِي عَلَى الْأَرْضِ صَدْرَهُ  
فحق على المعزي بأن تبداً<sup>(٢)</sup>

فالتواني هو الكسل، وتضيع الحزم، وعدم القيام على مصالح النفس، وترك التسبب والاحتراف والإحالة على

(١) ذريني: دعيني.

(٢) تبداً: تفرق.

المقادير، وهذا من أقيح الأفعال. وأما الثاني فإنه خلاف التواني وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب، وقد قيل: من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾<sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الدنيا والآخرة». وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانته ولا يفارق شيئاً إلا شانه». وفي التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: القمل أصله الثبث وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوباً. الثاني فيما لا يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة في إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاجزم، وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا يد الرفق تجني ثمرة السلامة، ويد العجلة تفرس شجرة الندامة. وأنشدوا في ذلك:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقالوا: الثاني حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والثاني فيما إذا يدرك؟ وقال المهلب: أناة في عواقبها دركٌ خبيرٌ من عجلة في عواقبها قوتٌ. وقالوا: من تأتى نال ما تمنى، والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرب، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها: فقد روي عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وكان ﷺ يخطط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويغلف ناضحه<sup>(٢)</sup>، وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطاً، وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطاً، ووقف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على خياط فقال له: يا خياط تكلتك الثواكل صلب الخيط، ودق الدرور، وقارب الغروز؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه». واحذر السقطات فإن صاحب الثوب أحق بها، ولا تتخذ بها الأيدي وتطلب المكافأة. وقال فيلسوف: إن من القبيح أن يتولى امتحان الصانع من ليس بصانع. وفي الحديث: «أكذب أمتي الصواغون والصباغون». وكذب الدلال مثل. وقالوا: لكل أحد رأس مال، ورأس مال الدلال الكذب. وقال عبد الرحمن بن شبلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التجار هم الفجار»، قيل: أليس الله تعالى قد أحل البيع؟ قال: نعم، ولكن يحدثون فيكذبون، ويحلفون فيحشون. وقال الفضيل: بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة، وإنما أهملت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا، وعطلوا الحدود، ونقصوا الكيل والميزان. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَآتَبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> قيل: هم الحاكة والأساكفة وقيل: إن حائكاً سأل إبراهيم الحربي ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطقاً ما الذي يجب عليه؟ فتبسم إبراهيم ثم قال: يتصدق بدرهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق. وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا، قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كل منا ينسج لنفسه في بيته، وكان أردشير بن بابك لا يرتضي لمنادته ذا صناعة رديئة، كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا

(١) سورة: طه، الآية: ١١٤.

(٢) ناضحه: بعيره.

(٣) سورة: الشعراء، الآية: ١١١.

الحاكة فإن الله تعالى سلب عقولهم، ونزع البركة من كسبهم، لأن مريم عليها السلام مرت بجماعة من الحياكين فسألهم عن الطريق فدلواها على غير الطريق، فقالت: نزع الله البركة من كسبكم. قال أبو العتاهية:

ألا إنما التقوى هي العزُّ والكرمُ      وحبُّك للدنيا هو الذلُّ والسقمُ  
وليس على عبدٍ تقوىً نقيصةً      إذا صحَّحَ التقوى وإن حاك أو حجَّمَ

وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب، والله الموفق للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وسلم.

## الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

### الفصل الأول: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال: «ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه» سمعت ذلك من نبيكم ﷺ. وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر، زمان قد مضى، ومنكره معروف، زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي فسبقها فشق ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم. فقال ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه».

وحكي عن شيخ من همدان قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف اشرافة من كوة له، فخر له من حول القصر ساجداً، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص، واشترى بلدهم لهماً وسمطه خلف دابته، وهو القائل هذه الأبيات:

أني للذنيا إذا كانت كذا	أنا منها في بلاء وأذى
إن صفاً عيشٌ امرئ في صبيحها	جرعتُهُ ممياً كأس الرذى
ولقد كنت إذا ما قيل مَنْ	أنعمُ العالم عيشاً قيل ذا

وقال يونس بن ميرة: لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه، ومن ذلك قوله:  
رُبَّ يومٍ بكيتُ منه فلما صرتُ في غيره بكيتُ عليه  
ومثله:

وما مرَّ يومٌ ارتجى فيه راحة	فأخبرتهُ إلا بكيتُ على أمي
------------------------------	----------------------------

ومن كلام ابن الأعرابي:

عن الأيام عدَّ فَعَنَ قليل	ترى الأيام في صُور الليالي
----------------------------	----------------------------

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لشيء طوى إلا وقد خبا له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:  
فما الناسُ بالناسِ الذين عهدتُهُم ولا الدارُ بالدارِ التي كنت أعهدُ

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غاراً فوجد فيه رجلاً ميتاً وعند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا فلان بن فلان الملك

عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم في رغيف، فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد، فدقت الجواهر واستفيتها فمئت مكاني فمن أصبح وله رغيف، وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كإماتي. وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كل يوم ألف درهم على نفسه فإنه يكفيه، فرؤي بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها. وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى متارة في يوم شاتٍ وهو جالس في قبة مغطاة بالسمور<sup>(١)</sup>، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود، ثم رأيت بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس. ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل في داره وقعد على فرشه، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عمر إن دهرأ أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك. وقال مالك بن دينار مرت بقصر تضرب فيه الجوازي بالدفوف ويقلن:

ألا يا دائراً لا يدخلك حزنٌ      ولا يغدُرُ بصاحبك الزمانُ  
فإنمَ السدائرُ تأوي كلَّ ضيفٍ      إذا ما ضاق بالضيف المكانُ

ثم مررتُ عليه بعد حين وهو خراب وبه عجزوز فسألته عما كنت رأيت وسمعت فقالت: يا عبد الله إن الله يغير ولا يتغير، والموت غالب كل مخلوق، وقد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان. وقال أبو العتاهية:

لئن كنتَ في الدنيا بصيراً فإنما      بلاغك<sup>(٢)</sup> منها مثلُ زادِ المسافرِ  
إذا أبقَتِ الدنيا على المرءِ دينهُ      فما فاتهُ منها فليس بضائرِ

وقال عبد الملك بن عمير رأيت رأس الحسن رضي الله تعالى عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك. قال سفیان: قفلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها قال اثنتا عشرة سنة. وقال الشاعر:

إنَّ للذهرِ سرعةً فأخذَرنها      لا تبيِّنُ قد أمنتَ الشرورا  
قد يبيتُ الفتى معافى فيردى      ولقد كان آمناً مسرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبه على رأسها رقعة فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه:

تأه الأعيرجُ واستعلسى به البطرُ      فقلْ له خيرُ ما استعملتُهُ الحذرُ  
أحسنتَ ظنكُ بالأيامِ إذا حُنتُ      ولم تخفِ سوءَ ما يأتي به القدرُ  
وسالمتك الليالي فاعترزت بها      وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقال: فما انتفع بنفسه مدة. وأعجب ما وجد في السير خيرُ القاهر أحد الخلفاء، وقلعهُ من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير ظهارة ومدَّ يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل: كان لمحمد المهلب قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من

(١) السمور: جلود حيوان غالية الثمن غزيرة الفراء.

(٢) بلاغك: ما تحصل عليه.

أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا موتٌ يباع فأشتريه      فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيه  
ألا رِجَمَ المهيمِنُ نفسَ حرٍّ      تصدَّقَ بالوفاءِ على أخيه

قال: فرثا له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا، ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة وأخى<sup>(١)</sup> الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قُلْ للوزيرِ فدنته نفسي      مقالاً مُذْكَراً ما قد نسيه  
أتذْكرُ إذا تقولُ لفضنك عيشي<sup>(٢)</sup>      ألا مَوْتُ يباع فأشتريه

فلما قرأها تذكر، فأمر بسبعمائة درهم ووقع تحت رقعة: «مَثَلُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ»<sup>(٣)</sup> ثم قلبه عملاً يرتزق منه. ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال: أي الزمان أدركته أفضل وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً وذاماً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين وكلهم يذكر أنه يبلي جديدهم، ويفرق عديدهم، ويهرم صغيرهم، ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

لم أبكِ من زمنٍ لم أرضَ خلَّتْه      إلا بكيت عليه حين يتصرمُ  
وقال آخر:

يا معرضاً عني بوجهٍ مدبرٍ      ووجوهٌ دنياهُ عليهِ مقبلَةٌ  
هل بعدَ حالِكِ هذِهِ مِنْ حالَةٍ      أو غايَةٍ إلا انحطاطُ المنزلةِ

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير:

ذهبَ الذين إذا رأوني مقبلاً      ويقيتُ في خلفٍ كأنَّ حديثهم  
وقال آخر في معناه:

يا منزلاً عبثَ الزمانَ بأهله      فأبادهم بفرقٍ لا يجمعُ  
أين الذين عهدتُهم بك مرةً      كأنَّ الزمانَ بهم يضرُّ وينفعُ  
أيام لا يفتنى لذكرك مربعُ      إلا وفيه للمكارمِ مرتعُ<sup>(٥)</sup>  
ذهبَ الذين يعاشُ في أكتافهم<sup>(٦)</sup>      وبقيَ الذين حياتهم لا تنفعُ

(١) أخى: أساء.

(٢) ضنك عيش: ضيق حال.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٦١.

(٤) ولغ الكلاب: شرب بطرف لسانه.

(٥) مرتع: ملعب.

(٦) في أكتافهم: في رعايتهم.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلِي:

وإني رأيت الدهرَ منذَ صحبتهُ  
إذا سرّني في أول الأمرِ لم أزلْ

محاسنُهُ مقبرونهُ ومعايِنُهُ  
على حذرٍ من أن تدمَّ عواقبُهُ

وقال بعضهم:

ذهب الرجالُ المقتدَى بفعالهم  
وبيقثُ في خلفٍ يزِينُ بعضُهُ  
حلفَ الزمانُ لبأتينَ بمثلهم

والمتكرونُ لكلِّ أمرٍ مُتكرِرٍ  
بعضاً ليدفعَ مُغورٍ عن معورٍ  
حشّتَ يمينك يا زمانُ فكفّر

وكان يقال: إذا أدير الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير. وكان يقال: يتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال، ويقال: زمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح المطب. وقال بعضهم: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إخباراً، والشر إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً. اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقيراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً، أو متمرداً كان بسمعه عن سماع المواعظ وقراً؟ وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حبيت القلوب، وإذا ما ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه». ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل:

ما من مُسيءٍ وإن طالَّتْ إساءتُهُ  
إلا ويكفّيك يومٌ من معايِنُهُ

وقال الأمين:

يا نفسُ قد حقَّ الحنْزُ  
كلُّ امرئٍ مما يخُ  
من يرتثِفُ صَفْوَ الزم

أينَ المفرُّ من القنْزِ  
فأُ ويرتجيه على خطْزِ  
سانٍ يفضُّ يوماً بالكَنْزِ

وقال بعضهم:

وقائلو ما بالُ وجهك قد نَضَّتْ<sup>(١)</sup>  
فقلتُ لها هاتي من الناسِ واحداً

محاسنُهُ والجسمُ بأنْ شحوبُهُ  
صفاً وقته والنائباتُ تنوبُهُ

وللامير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملكُ الأمرُ غيرُهُ  
لئن كانَ كتمانُ المصائبِ مؤلماً  
وبي كلُّ ما يُكي العيونُ أقله

ومن هو بالسرِّ المكنمِ أعلِمُ  
لإعلانها عندي أشدُّ وأعظمُ  
وإن كنتُ منه دائماً أنبئكم

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وإيم الله ما كان قوم في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اترفوها لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد. ولو أن الناس حين يتزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لردّ عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

(١) نضت: خلعت.



يقولون الزمانُ به فإدُّ وهم فسدوا وما فدَّ الزمانُ  
وكفى بالقرآنِ واعظاً قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾<sup>(١)</sup> والله سبحانه وتعالى  
أعلم.

## الفصل الثاني: في الصبر على المكاره ومدح الثبوت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه في مواضع كثيرة وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على  
فاعله وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على الثبوت في الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها. فمن ذلك قوله تعالى:  
﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾<sup>(٢)</sup> فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع  
الصابرين دون المصلين، وقوله تعالى: ﴿إنما يؤمى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم  
أئمةً يهتدون بأمرنا لما صبروا﴾<sup>(٤)</sup>. وقوله تعالى: ﴿وَوَثَّقْنَا كَلِمَةَ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾<sup>(٥)</sup>  
وبالجملة فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعاً، وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى:  
﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾<sup>(٦)</sup>.

وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة. فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر»، وقوله عليه الصلاة  
والسلام: «بالصبر يتوقع الفرج»، وقوله: «الأناة من الله تعالى والمجلة من الشيطان». فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه  
ألهمه الصبر في مواطن طلباته والثبوت في حركاته ومسكناته. وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد، وفات المستعجل  
غرضه أو كاد. وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد  
أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت: يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما  
زادني إلا أن قال:

اصبر على مَضْضِ الإِدْلاجِ<sup>(٧)</sup> في السَّخْرِ  
إنِّي رأيتُ وفي الأيامِ تجرِبَةً  
وقلَّ مَنْ جَدَّ في أمرٍ يؤمَلُه  
وفي الرواحِ إلى الطاعاتِ في البكرِ  
للصَّبْرِ عاقِبَةٌ محمودَةٌ الأثِرِ  
وأسْتَضْحَبَ الصَّبْرَ إلا فَارَ بالظفرِ

فحفظتها منه، وألزمت نفسي الصبر في الأمور فوجدت بركة ذلك. وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي  
الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ<sup>(٨)</sup> ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍّ

(١) سورة: الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٥٣.

(٣) سورة: الزمر، الآية: ١٠.

(٤) سورة: السجدة، الآية: ٢٤.

(٥) سورة: الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٦) سورة: الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٧) الإِدْلاج: السير.

(٨) وصب: تعب شديد.

حتى الشوكة يشاكها إلا حطَّ الله بها من خطاياها». وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة» وقال ﷺ: «إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط» رواه الترمذي وقال حديث حسن. وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أنس بن مالك قال، قال النبي ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع<sup>(١)</sup> بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها». وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: احفظوا عني خمساً، اثنتين واثنتين وواحدة: لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يزوجوا إلا ربه، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمترلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات في حبسه مات شهيداً، فإن ضربه فمات فهو شهيد.

وروي في الخبر: لما نزل قوله تعالى: «من يَعْملْ سوءاً يُجْزَ به»<sup>(٢)</sup> قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر أليس تمرض؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فهذا ما تجزون به، يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك. وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء. وروى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحررت جزور بالأمس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا<sup>(٣)</sup> الجزور فيلقيه على كفتي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم<sup>(٤)</sup> فأخذه وأتى به، فلما سجد ﷺ وضع بين كفتيه السلا والقرن والدم فضحكوا ساعة وأنا قائم -انظر- فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله تعالى عنها، فجمت فطرحته عن ظهره ثم أقبلت عليهم فستهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فما سمع القوم دعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته. فقال اللهم عليك بأبي جهل وعبته وشيبة وربيعة والوليد وأمية بن خلف. فقال علي رضي الله تعالى عنه: والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر».

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث مَنْ رُزِقَهُنَّ فقد رُزِقَ خَيْرِي الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء». وحكي أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق فصبرت ورددت أمرها إلى الله تعالى ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق ونسف ريشها نبت جميعه في وجهه فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل فشكا له فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من

(١) قال «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٢٣.

(٣) سلا: أدراجه.

(٤) عقبة بن أبي معيط.

قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت سُرقت: فقال: لقد آذاك من سرقتها؟ فقالت: قد فعل ولم تدع عليه. قال: وقد فجعتك في بيضها؟ قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه. فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتقم لها الله، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ويحمد الله تعالى، ويعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وأن المصائب والرزايا<sup>(١)</sup> إذا توالى أعقبها الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

وَإِذَا مَنَّكَ الزَّمَانُ بِضُرٍّ  
وَأَتَتْ بِمَدَّةِ نَوَائِبٍ أُخْرَى  
فَاصْطَبِرْ وَانْتَظِرْ بِلَوْعِ الْأَمَانِي  
وَإِذَا أَوْهَنْتَ قُورَاكَ وَجَلَسْتَ

ولمحمد بن بشر الخارجي:

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اسْتَدَّتْ<sup>(٢)</sup> مَسَالِكَهَا  
لَا تِيَأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مَطَالِبَةٌ

ولزهير بن أبي سلمى:

ثَلَاثٌ يَمُزُّ الصَّبْرُ عِنْدَ حُلُولِهَا  
خُرُوجُ اضْطِرَارٍ مِنْ بِلَادٍ يَحِبُّهَا

وقال بعضهم:

عَلَيْكَ بِإِظْهَارِ التَّجَلُّدِ لِلْعَدَا  
أَمَا تَنْظُرُ الرِّيحَانَ يُسَمَّمُ نَاصِرَا

ولابن نباتة:

صَبْرًا عَلَى نَوْبِ الزَّمَدِ  
فَلِكُلِّ شَيْءٍ آخِرٌ

وقال أبو الأسود وأجاد:

وَإِنَّ أَمْرًا قَدْ جَرَّبَ الدَّهْرَ لَمْ يَخَفْ  
وَمَا الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ إِلَّا كَمَا تَرَى

ومن كلام الحكماء: ما جُوهِدَ الهوى بمثل الرأي، ولا استنبط الرأي بمثل المشورة، ولا حُفِظَتِ النعم بمثل

(١) الرزايا: التوازل.

(٢) توت: انقضت.

(٣) استدَّت: أغلقت.

المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل:  
 ويومٌ كأن المصطليين بحرهُ  
 صبرنا له صبراً جميلاً وإنما

وقال ابن طاهر:

حدّزْتَنِي وذا الحنذر  
 ليس من يكتُم الهوى  
 إنما يعرف الهوى  
 نفسٌ يا نفسُ فاصبري  
 ليس يُغني من القدز  
 مثل من باخ واشتهر  
 من على مرّه صبر  
 فاز بالصبر من صبر

وكان يقال: من تبصّر تصبّر. وكان يقال: إن نوابغ الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال لا دواء لدهاء

الدهر إلا بالصبر، والله درّ القائل:

الدهرُ أدبني والصبرُ ريباني  
 وحككتني من الأيام تجربةً  
 والقوتُ أفغيتني واليأسُ أغناني  
 حتى نهيتُ الذي قد كان ينهاني

وما أحسن ما قال مخمود الوراق:

إني رأيتُ الصبرَ خيرَ معولٍ<sup>(١)</sup>  
 ورأيتُ أسبابَ القناعةِ أغدثُ  
 فإذا نبا بي منزلٌ جاوَزْتُهُ  
 وإذا غلا شيءٌ عليّ تركتُهُ

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهرُ يوماً بنكبةٍ  
 فإن تصاريفَ الزمانِ عجيبةٌ  
 فأفرغ لها صبراً ووسّع لها صدداً  
 فيوماً ترى يُسراً ويوماً ترى عُسراً

وقال بعضهم:

وما سئني عسرٌ ففؤضتُ أمرهُ  
 إلى المَلِكِ الجِبارِ إلا تيسراً

وما أحسن ما قيل:

الدهرُ لا يبقى على حالةٍ  
 فإن تلقاك بمكروهه  
 لا بد أن يُقبلَ أو يدبرُ  
 فاصبر فإن الدهرَ لا يصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال: كنت معتقلاً بالكوفة فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همي وكادت نفسي أن تزهق وضاعت علي الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل علي ورأى ما أنا فيه من الكآبة، فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روي عن النبي ﷺ أنه

(١) معول: معتد عليه.

قال: «الصبر سترٌ للكروب وَعَوْنٌ عَلَى الْخُطُوبِ». وروى عن ابن عمه علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: «الصبر مطية لا تدبر»<sup>(١)</sup> وسيفٌ لا يكلُّ وأنا أقول:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجملهُ      عند الإله وانجاءهُ من الجزع  
من شدِّ بالصبر كفاً عند مؤلمة      ألوت يدها بجلبٍ غير منقطع

فقلت له: بالله عليك زدني فقد وجدت بك راحة، فقال: ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ ولكني أقول:

أما والذي لا يعلم الغيب غيره      ومن ليس في كلِّ الأمور له كفؤ  
لئن كان بدء الصبر مرًا مذاقه      لقد يُجتسى من بعده الثمرُ الحلو

ثم ذهب. فسألت عنه فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة، ثم أخرجت في ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قبضه الله تعالى لي؛ يوقظني ويؤدبني ويسليني. وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط، ويجلد جلدًا بليغاً ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى. قال: لم لا تصيح؟ فقال: إن في هؤلاء القوم الذين وقفوا عليّ صديقاً لي يعتقد في الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه فأخشى إن ضجيت<sup>(٢)</sup> يذهب ماء وجهي عنده، وسوء ظنه بي، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبُهُ      ويُخمدُ منه الصبرُ مما يصيبُهُ  
فمن قلَّ فيما يلقيه اصطبارُهُ      لقد قلَّ فيما يرتجيه نصيبُهُ

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة إن الله تعالى لم يرص من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر، ولم يكلفني إلا ما كلفوا به»، فقال عز وجل: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»<sup>(٣)</sup>، وإني والله لأصبرن كما صبروا، فإن النبي ﷺ لمَّا صبر كما أمر أسفر وجهه صبره عن ظفره ونصره. وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا. وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ويقال: ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه:

أما نوح عليه الصلاة والسلام فقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة والسلام يضرب ثم يلف في لبد ويلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه: يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يفرك، فقال له ابنه: يا أبت مكثي من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام فشق بها رأسه وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يكن لك فيهم حاجة فاهداهم وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى

(١) لا تدبر: لا تنهزم.

(٢) ضجيت: صرخت.

(٣) سورة: الأحقاف، الآية: ٣٥.

الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمَنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ \* وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾<sup>(١)</sup> قال: يا رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي. قال: يا رب وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير قال: يا رب وأين الخشب؟ قال اغرس الخشب، فغرس الساج عشرين سنة. وكفَّ عن دعائهم، وكفوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه فقطعها وجففها، وقال: يا رب، كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عَجَلْ بعمل السفينة فقد اشتد غضبي على مَنْ عصاني، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح وتجاته وإهلاك قومه وعذابهم، إلا مَنْ آمَنَ معه، وفار التور، وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بططار كأفواه القرب حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً. واتصم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام، وفي تمام قصته، وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم ليبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حاجزاً كالخوش طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل عال، ونادى صلي ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم، ومَنْ تخَلَّفَ عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً، ليلاً ونهاراً حتى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحاجز وقذفوا به النار، فارتفع لها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنياناً شامخاً وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء. ودعا الله تعالى وقال: حسبي الله ونعم الوكيل. وقيل كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة. فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام وقال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. فقال جبريل: سَلْ رَبَّكَ، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(٢)</sup> فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذبا. قال كعب: ما أحرقت النار غير كانه<sup>(٣)</sup> وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل أكثر من ذلك. ونجاه الله تعالى ثم أهلك تعود قومه بأحسن الأشياء، واتصم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم. فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفوض أمره إلى الله تعالى في ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءته قصة ذبح ولده، ولعمري الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إهمال، وقصته مشهورة وتفاصيل القصة في كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولا، وصبره على ما قدره وقضاه، عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتخذة خليلاً من بين خلقه واجتباؤه. وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه فإنه صبر على بلية الذبيح، وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إني أريد أن أقرب قرباناً، فأخذ ولده والسكين والحبل وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله

(١) سورة: هود، الآيات: ٣٦ - ٣٧.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٩.

(٣) كانه: وثاقه.

تعالى قد أمرني بذبحك فانظر ماذا ترى قال: ﴿يَا أَبَتِ أَفَعَلَّ مَا تُؤْمَرُ سَتِحِلُّنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>. يا أبت أشدد وثاقى كي لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أُمي فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت علي، وإذا لقيت أُمي فاقرا السلام عليها. فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويكي ويقول: نعم العون أنت يا بني على ما أمر الله تعالى. قال مجاهد: لما أمر السكين على حلقة انقلبت السكين فقال: يا أبت اطعن بها طعناً. وقال السدي: جعل الله حلقة كصفيحة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكبس أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتناله لأمره.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام فإنه لما ابتلي بفرق ولده، وذهاب بصره، واشتداد حزنه، قال: ﴿فصبر جميل﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لما ابتلاه الله تعالى بالقائه في ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن وحسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام، فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله. ولتذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم، وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام ولم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته. فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام: تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك لأطيلنّ بلاءك. فقال إبليس لعنه الله: يا رب سلطني على أولاده وماله، فسلطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها، فاحتملوها جميعاً وقدفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعهم وجناتهم فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازلهم، وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام وهو يصلي فتمثل له في صورة رجل من غلمانه. فقال: يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة وقدفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعك، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله ثم قبله مني، ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانياً فقال: يا رب سلطني على جسده، فسلطه فنفخ في إبهام رجله فانتفخ، ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أمعاؤه تيين<sup>(٣)</sup>، وهو مع ذلك كله صابر محتسب، مفوض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستغفروه وألقوه خارجاً عن البيوت من تنن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها: لينذبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ. فجاءته فأخبرته فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة، تأمريني أن أنذبح لغير الله تعالى فطردها عنه، فذهبت وبقي ليس له من يقوم به فلما رأى أنه لا طعام له، ولا شراب، ولا أحد من الناس يتفقده خز

(١) سورة: الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة يوسف: الآيتان: ١٨ و٨٣.

(٣) تيين: تظهر.

ساجداً لله تعالى وقال: رب ﴿إِنِّي مَسْنِي الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول، وما شكا إلى مخلوق ما نزل به، عاد الله تعالى بالطفاه عليه فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ هُنَّا﴾<sup>(٢)</sup> وأفاض عليه من نعمه ما أنساه به بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب فقال تعالى: ﴿وَوَحَّدْ يَدِيكَ ضَمِيحًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾<sup>(٣)</sup> فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب، وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوي الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولي العزم، وفتح لهم بصبرهم، أبواب مرادهم وسؤالهم، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم وأمورهم ومرامهم<sup>(٤)</sup>. فما أسعد من اهتدى بهداهم، واقتدى بهم وإن قصر عن مداهم، وقيل: السر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تنامي الشدة تنزل الرحمة، والموقف من رزقه الله صبراً وأجرأ، والشقي من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً.

ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة، وأتحف النفع في نهج هذه العبارة ما روي عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: كنت بواسط فرايت رجلاً كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: اكتم علي أمري، حسني الحجاج منذ ثلاث سنين فكنت في أضيح حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معي فضربت رقابهم، وتحدثت بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عني، فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني، فقلت: إلهي اشتد الضر وفقد الصبر وأنت المستعان. ثم ذهب من الليل أكثره فأخذتني غشية وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتاني آت فقال لي: قُمْ فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ وَقُلْ: يَا مَنْ لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ، يَا مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِمَا ذَرَأَ وَبِرَأٍ<sup>(٥)</sup>، وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وسواس الصدور، وأنت بالموتل الأعلى وعلمك محيط بالموتل الأدنى تعاليت علواً كبيراً، يا مغيثاً أغثني وَفَكَ أَسْرِي واكشف ضري فقد نفذ صبري. فقممت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه ولم تختلف علي منه كلمة واحدة. فما تم القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت فقممت فخرجت ولم يعارضني أحد فأنا والله طليق الرحمن، وأعقبني الله بصبري فرجاً وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً، ثم ودعني واتصرف يقصد الحجاز. وفيما يروي عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود مَنْ صَبَرَ عَلَيْنَا وَصَلَ إِلَيْنَا. وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها وقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذ رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات:

يَا مَنْ السَّخِّ عَلَيْهِ الِهْمُّ وَالْفِكْرُ  
وَعَيَّرَتْ حَالَهُ الْأَيَّامُ وَالغَيْرُ<sup>(٦)</sup>

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٤.

(٣) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٤) مرامهم: مرادهم.

(٥) ذراً وبرا: ترك ويرى.

(٦) الأيام والغير: نوابغ الدر.



أما سمعتَ لما قد قيل في مثل  
ثم الخطوبُ إذا أحدثها طرقتُ  
عند الإياس فأينَ الله والقدرُ  
فاصبرِْ قد فازَ أقوامٌ بما صبروا  
وكلُّ ضيقٍ سيأتي بعدَهُ سعةٌ  
وكلُّ قوتٍ وشيكٌ بعده الظفرُ

ولما حبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وضاق صدره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فردّ عليه جواب رقته يقول:

صبراً أبا أيوب صبرَ مبرِّح  
إن الذي عقَدَ الذي انعقدتَ به  
وإذا عجزتَ عن الخطوبِ فمَن لها  
عقدَ المكارِهِ فيكَ يملكُ حلّها  
ولعلّها أن تنجلي ولعلّها  
صبراً فإن الصبرَ يعقبُ راحةً

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبرتني ووعظتني وأنا لها  
ويحلّها مَنْ كان صاحبَ عقديها  
وستجلي بل لا أقولُ لعلها  
كرماً به إذ كان يملكُ حلّها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً. وأنشدوا:

إذا ابتليتَ فثق بالله وأرض به  
البأسُ يقطعُ أحياناً بصاحبه  
إن الذي يكشفُ البلوى هو الله  
لا تياسن فإن الصانعَ الله  
فما تَرى حيلةً فيما قضى الله  
إذا قضى الله فاستسلمْ لقدرته

### الفصل الثالث: في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثوري رحمه الله تعالى: لم يفقه عدتنا من لم يعدد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. وقيل: الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر: لا أراك الله مكروهاً. فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بد له أن يرى مكروهاً. وتقول العرب: ويلٌ أهونٌ من ويلين. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غمومٌ فما كان فيها من سرور فهو ربيعٌ. وقال العتيبي: إذا تناهى الغمُ انقطع الدمعُ بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يكي. وقيل: تزوج مغنٍ بناتحة فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه، إنما الدنيا فرحٌ وحزنٌ وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعوني، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء.

وقال مطرف: ما نزل بي مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرت. وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه يرفعه: «يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة أن لحومهم كانت تُقرض بالمقارض، لما يرزون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء». وروى أبو عتبة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحبُّ البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لا يترك له مالاً ولا ولداً». ومر موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله عز وجل قد مزقت السباع لحمه، وأضلعه، وكبده ملقاة على الأرض فوقف متعجباً فقال: أي ربي عبدك ابتليته بما أرى. فأوحى الله

تعالى إليه إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فأحببت أن ابتليه لأبلغه ذلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلي، حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطيء عظماً فأصابته فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله. فقالوا له: اشرب مرقداً<sup>(١)</sup>. فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمني له المنشار وقطعت رجله. فقال: ضعوا بين يدي ولم يتوجع. ثم قال: لئن كنتُ ابتليتُ في عضوٍ فقد عوفيتُ في أعضاء. فبينما هو كذلك إذا أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال، لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة. وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره. فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالي، وعيالي، ولا أعلم عسباً يزيد ماله على مالي، فعرسنا في بطن وادٍ فطرقتنا سبيلٌ فذهب ما كان من أهل، ومال، وولد، غير صبي صغير، ويعير. فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهي برجله فذهبت عياني فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. وقيل: الحوادث الممضة<sup>(٢)</sup> مكسبة لحظوظ جليلة، إما ثواب مدخر، أو تطهير من ذنب، أو تبييه من غفلة، أو تعريف لقدر النعمة. قال البحترى يسلي محمد بن يوسف على حبه:

وما هذه الأيامُ إلا منازلٌ      فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزلٍ ضنكٍ<sup>(٣)</sup>  
وقد دهمتُك الحادثاتُ وإنما      صفًا الذهبُ الإبريزُ قلبك بالسبكِ  
أما في نبيِّ الله يوسفَ أسوءُ      لمثلِكَ مجسوسٍ عن الظلمِ والإفكِ  
أقام جميلَ الصبرِ في السجنِ برهةً      فآل به الصبرُ الجميلُ إلى الملكِ

وقال علي بن الجهم لما حبه المتوكل:

قالوا حُسنتُ قلتُ ليس بضائري      حَسبي وأني مهتدي لا يغمدُ  
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ      عن ناظرِك لما أضاءَ الفرقدُ<sup>(٤)</sup>  
والنارُ في أحجارها مخبوءةٌ      لا تصطلي إن لم تُبزها الأزندُ  
والحجرُ ما لم تغشهُ لذيبةٌ      شنعاءٌ نغمَ المنزلِ المتوددُ  
بيتٌ يجتدُّ للكريمِ كرامةً      ويُزار فيه ولا يزور ويُحمَدُ  
لو لم يكن في الحجرِ إلا أنه      لا تستذلُّك بالحجابِ الأعبدُ  
غرُّ الليالي بادياتٌ عودٌ      والمالُ عارضةٌ يُعار وينفدُ  
ولكلِّ حيٍّ معقبٌ ولربما

(١) مرقداً: متوماً.

(٢) الممضة: الموجعة.

(٣) ضنك: ضيق.

(٤) الفرقد: نجم في السماء.

لا يُؤيِّسُنكَ<sup>(١)</sup> من تفرُّج نكبتي  
كم من عليلٍ قد تخطاه الردى  
صبراً فإن اليومَ يعقبُهُ غدٌ  
خطبُ رماكَ به الزمانُ الأُنكدُ  
فنجاً وماتَ طيبُهُ والمُورُدُ  
ويُدُ الخِلافَةُ لا تطاولها يدُ

قال وأُشدَّ إسحاق الموصلي إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هي المقاديرُ تجري في أعنتها  
يوما تُريكَ خبيسَ الأصلِ ترفعُهُ  
إلى العلاءِ ويوماً تخفضُ العالي  
فاصبرِ فليسَ لها صبرٌ على حالِ

فما أسمى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضي الله عنه. وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المدني حين عزل:

ليهن أبا إسحاق أسبابُ نعمته  
شهدتُ لقد مثوا عليك وأحنُّوا  
مجددةً بالعزلِ والعزلُ أنبلُ  
لأنك يومَ العزلِ أعلى وأفضلُ

وقال آخر:

قد زادَ ملكُ سليمانَ فعبوده  
والشمسُ تنحطُ في المجرى وترتفعُ

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول: الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال، وعافى في الكبير وهو الحال:

ولا عارَ إن زالت عن الحرِّ نعمةٌ  
ولكنَّ عاراً أن يزولَ التجملُ<sup>(٢)</sup>

وقيل: المال حظ يقص ثم يزيد، وظل ينحسر ثم يعود. وستل بزجمهر عن حاله في نكبته؟ فقال: عولت على أربعة أشياء: أولها أني قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما، الثاني أني قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث أني قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع أني قلت لعل الفرج قريب. والله تعالى أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) لا يؤيسنك: لا يزهلك.

(٢) التجمل: الصبر.

## الباب السابع والخمسون: في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فيما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَأْسِهِ﴾<sup>(٣)</sup> ويروى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لو كان العسرُ في حجرٍ لدخل عليه اليسر حتى يخرجهُ». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تنامي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء». وقال علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «أفضلُ عبادةٍ أمتي انتظارُها فرجَ الله تعالى». وقال الحسن لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾<sup>(٤)</sup> قال النبي ﷺ: «أُبَشِّرُوا فَلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبقَ همٌّ. وقال أبو حاتم:

إذا اشتملت على البؤس القلوب	وضاق بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكارة واطمأننت	وأزست في مكائدها الخطوبُ
ولم تَرَ لانكشافِ الضرِّ وجهاً	ولا أغنى بحلته الأريبُ <sup>(٥)</sup>
أتاك على قنوطٍ منك غرورٌ	يمرُّ به اللطيفُ المستجيبُ

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذي أمينت فيه	يكون وراءه فرجٌ قريبُ
فيأمنَ خائفٌ ويفاتَ عانٍ <sup>(٦)</sup>	ويأتي أهله النائي الغريبُ

وقال آخر:

تصبرُ أيها العبدُ اللبيبُ	لعلك بعد صبرك ما تخيبُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تاملت	يكون وراءها فرجٌ قريبُ

(١) سورة: الطلاق، الآية: ٧.

(٢) سورة: الشورى، الآية: ٢٨.

(٣) سورة: يوسف، الآية: ١١٠.

(٤) سورة: الشرح، الآيات: ٥ و ٦.

(٥) الأريب: الذكي.

(٦) عان: أسير.

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى  
ضافت فلما استحكمت حلقاتها  
ذرعاً وعند الله منها المخرج  
فبرجت وكان يظنها لا تفرج

وقال آخر:

لئن صَدَعَ الينُ المَشْتَتُ شَمَلَنَا  
وللنجم من بعد الرجوع استمامةٌ  
وإن نعمةً زالتْ عن الحرِّ وانقضتْ  
فكنْ واثقاً بالله واصبرْ لحُكمِهِ  
فليئينِ حكمٌ في الجُمُوعِ صدوعٌ  
وللشمس من بعد الغروبِ طلوعٌ  
فإن لها بعدَ الزوالِ رجوعٌ  
فإن زوالَ الشَّرِّ عنكَ سريعٌ

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة:

روي أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن، (وكان محبوباً) واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعد صالح يقرأ عليه الكتاب، ثم نزل يأمر بضربه فينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علي بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن فقال: يا ابن العم ما لك؟ أذعُ الله تعالى بدعاء الكرب يُفَرِّج الله عنك. قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه. وأقبل الحسن يكرها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه في سجنه مظلوماً أُخْرِجُوه، وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره فأطلق بعد أيام، وأتاه الفرج من عند الله. وقال الربيع: لما حبس المهدي موسى بن جعفر رأى في المنام علياً رضي الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسلوا في الأرضي وتقطعوا أرحامكم﴾<sup>(١)</sup> قال الربيع: فأرسل المهدي إلي ليلاً فراعني ذلك فجتته فإذا هو يقرأ هذه الآية وكان حسن الصوت فقص عليّ الرؤيا، ثم قال: اتني بموسى بن جعفر فجتته به فعاثقه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا أبا الحسن رأيتُ أمير المؤمنين يقرأ عليّ كذا فعاهدني أن لا تخرج عليّ ولا على أحد من ولدي. فقال: والله ما ذاك من شأني. فقال: صدقت ثم قال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورَّده إلى أهله بالمدينة. قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلا على الطريق. وقال إسماعيل بن بشار:

وكلُّ حرٍّ وإن طالَتْ بليُّهُ  
يوماً تَفَرَّجَ غَمًّا<sup>(٢)</sup> وتكشِفُ

وقال مسلم بن الوليد: كنت يوماً جالساً عند خياط بإزاء منزلي، فمر بي إنسان أعرفه، فقامت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم، بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتهما مع جاريتي لبعض معارفي فباعهما بتسعة دراهم واشترى بها ما قتلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل، وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل: هنا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت. فقال: أنت مسلم بن الوليد؟ قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك، فأخرج لي كتاباً وقال: هذا من الأمير يزيد بن يزيد فإذا فيه: «قد بعنا لك بعشرة آلاف درهم

(١) سورة: محمد، الآية: ٢٢.

(٢) الغمة: الكربة.

لتكون في منزلك، وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدمك علينا. فأدخلته إلى داري وزدت في العلم واشترت فاكهة وجلسنا فاكلنا، ثم وهبت لضيبي شيئاً يشتري به هدية لأهله، وتوجهنا إلى باب يزيد بالركة فوجدناه في الحمام. فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت فإذا هو جالس على كرسي ويده مشط يسرح به لحيته، فسلمت عليه فرد أحسن ر: وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلة ذات اليد<sup>(١)</sup>، وأنشدته قصيدة مدحته بها. قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أعري. قال: كنت عند الرشيد منذ ليال أحاده فقال لي يا يزيد من القاتل فيك هذه الآيات؟

سَل الخليفة سيفاً من بني مضر      يمضي فيخترق الأجسام والهَامَا  
كالذَّهْرِ لا يتشي عما يهْمُ بِهِ      قَدْ أوسَعَ النَّاسَ إنعاماً وإرغَامَا<sup>(٢)</sup>

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين. فقال: سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله؟ فسألت. فقيل لي هو مسلم بن الوليد. فأرسلت إليه فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه، فقبلت الأرض، وسلمت فرد علي السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم، وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم، وقال: لا ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم، وما أحسن ما قيل:

الأمْنُ والخَوْفُ أَيامٌ مداولة      بين الأنامِ وبعدَ الضيقِ تَسِيعُ

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق، ليطلق أهل السجن، ويقسم الأموال ضيق على يزيد بن أبي مسلم. فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولي يزيد بن أبي مسلم إفريقية، وكان محمد بن يزيد والياً عليها، فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم وشد في طلبه، فأتى به إليه في شهر رمضان عند المغرب، وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد. قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكنتي منك. فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك. فقال: والله ما أجارك، ولا أعاذك، وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا أكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك، ثم أمر به فكثف، ووضع في اللتع وقام السيف فأقيمت الصلاة، فوضع العقود من يده وتقدم ليصلي، وكان أهل إفريقية قد أجمعوا على قتله، فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله. وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فسبحان مَنْ قَتَلَ الأَمِيرَ وفَكَ الأَسِيرَ. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول: أطلق القاتل فارتعت لذلك، ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن، وإذا ورقة إنسان ادعى عليه بالقتل، وأقر به فأمرت باحضاره، فلما رأيته وقد ارتاع قلت له: إن صدقتي أطلقتك. فحدثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عزيمة، وأن عجوزاً جاءت لهم بامرأة، فلما صارت عندهم صاحت الله الله وغشي عليها، فلما أفاقت قالت: أنشدك الله في أمري فإن هذه العجوز غرتني وقالت إن هذه دار نساء صالحات، وأنا شريفة جدتي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة، وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم في، فقامت دونها وناضلت عنها، فاشتد علي واحد من الجماعة وقال لا بد منها، وقاتلني وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتني، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً

(١) قلة ذات اليد: الفقر.

(٢) إرغاما: غضباً وجبروتاً.

والسكين بيدي، فأسكوني وأتوا بي إليك وهذا أمري. فقال إسحاق: قد وهبتك لله ولرسوله، فقال: وحق اللذين وهبتي لهما لا أعود إلى معصية أبداً. وأمر الحجاج باحضار رجل من السجن، فلما حضر أمر بضرب عنقه، فقال: أيها الأمير أتحزني إلى غد، قال: وأي فرج لك في تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن، فسمعه الحجاج وهو راجع إلى السجن يقول:

عسى فرج يأتي به الله إن شاء  
له كل يوم في خليقته أمر

فقال الحجاج والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾<sup>(١)</sup>، وأمر باطلاقه. وقال بعض جلساء المعتد: كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال: لا تبرحوا حتى أغفو سوية، فغفا ساعة ثم أفاق جزعاً مرعوباً، وقال: امضوا إلى السجن واتنوني بمنصور الجمال، فجاءوا به فقال له: كم لك في السجن؟ قال: سنة ونصف. قال: على ماذا؟ قال أنا جمال من أهل الموصل وضاق علي الكسب ببلدي، فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس، وجدوهم يقطعون الطريق، فدفعت واحد منهم شيئاً للأعوان فأطلقوه وأسكوني عوضه، وأخذوا جملي فناشدتهم الله، فأبوا وسجنت أنا والقوم فأطلق بعضهم، ومات بعضهم، وبقيت أنا. فدفعت له المعتد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل شهر. وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلي هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: أطلق منصوراً الجمال من السجن، وأحسن إليه. وأخذ الطاعون أهل بيت فسدّ بابه، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد، ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبه ترضعه مع جرو لها، فسبحان القادر على كل شيء، لا إله غيره ولا معبود سواه. قال الشاعر:

إذا تضايقتُ أمرٌ فانتظِرْ فرجاً  
فأضيقُ الأمرُ أدناه<sup>(٢)</sup> إلى الفرجِ

وقال آخر:

فلا تجزعن إن أظلمَ الدهرُ مرّةً  
فإن اعتكاز<sup>(٣)</sup> الليل يؤذنُ بالفجرِ

وقال آخر:

لعمرك ما كلُّ التعاطيلِ ضائراً  
إذا كانتِ الأرزاقُ في القربِ والنوى  
فإن ضقتْ فاصبرِ يُفرجِ الله ما ترى  
ولا كلُّ شغلٍ فيه للمرءِ منفعةٌ  
عليك سواءٌ فاعتنمِ لذةَ الدعةِ  
ألا ربُّ ضيقٍ في عواقبه سعة<sup>(٤)</sup>

وقال الرياشي: ما اعتراني همّ فأنشدت قول أبي العتاهية حين قال:

هي الأيامُ والغيرُ  
فأيسرُ إن ترى فرجاً  
وأمرُ الله يتظنرُ  
فأيسرُ الله والقدرُ

(١) سورة: الرحمن، الآية: ٢٩.

(٢) أدناه: أقربه.

(٣) اعتكاز: اختلاط الظلمة.

(٤) السعة: الوداعة والنعيم.

إلا سري عني وهبَّت ریحُ الفرج. ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومُنِع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركباً إلى أفريقية يأتوني بأخبارها. فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم قد امتثلت أمرك، وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة، وسيحدثك مقدم المركب. فأمر باحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب، فبينما أنا في جوف الليل، والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا الله، يا غياث المستغيثين يكررها مراراً، فلما استقرَّ صوته في آسماعنا ناديتاه مراراً: ليك ليك، وهو ينادي يا الله يا غياث المستغيثين، فجددنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من أفريقية ففرقت سفيتنا منذ أيام وأشرفت على الموت، وما زلت أصبح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم، فسبحان مَنْ أسهر سلطاناً، وأرقه في قصره لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحدة فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك، قال: أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذر. قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءاً من الحديث في حانوت رجل عطار، فبينما أنا جالس معه في الحانوت إذ جاءه رجل من الطوائف ممن يبيع العطر في طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: أعطني بها أشياء سماها له من العطر فأعطاها إياها فأخذها في طبقه، وأراد أن يمضي، فسقط الطبق من يده، فاتكب جميع ما فيه. فبكى الطوائف، وجزع حتى رحمناه. فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء. فقال: سمعاً وطاعة. فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها، ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطوائف يصبره ويقول له: لا تجزعْ فأمر الدنيا أيسرُ من ذلك. فقال الطوائف: أيها الشيخ، ليس جزعي لضياح ما ضاع لقد علم الله تعالى أنني كنت في القافلة القلانية، فضاع لي هميان<sup>(١)</sup> فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك، فما جزعت لضياحها حيث كان لي غيرها من المال، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النساء، ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم، فخشيت أن أشتري بها حاجة للنساء، فأبقى بلا رأس مال، وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكبس. فقلت في نفسي: أشتري بها شيئاً من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئاً أسدّ به رمق أهلي، ويبقى رأس المال أتكسب به. واشتريت هذا العطر، فحين انكبَّ الطبق علمت أنه لم يبق لي إلا الفرار منهم، فهذا الذي أوجب جوعي.

قال أبو حفص: وكان رجل من الجند جالساً إلى جانبي يستوعب الحديث، فقال للشيخ أبي حفص: يا سيدي أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً. قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطوائف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة، فقال له الجندي: وكنت في تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان، فعلم الجندي صحة قوله، فقال: وما علامة الهميان؟ وفي أي موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة. قال الجندي: إذا رأيته تعرفه؟ قال: نعم. فأخرج الجندي له همياناً ووضع بين يديه، فحين رآه صاح وقال: هذا همياني والله، وعلامة صحبة قولي أن فيه الفصوص ما هو كيت، وكيت. ففتح الهميان فوجده كما ذكر. فقال الجندي: خذ



مالك بارك الله لك فيه. فقال الطواف إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر، فخذها وأنت في حلّ منها ونفسي طيبة بذلك، فقال الجندي: ما كنت لأخذ على أماتي مالا، وأبى أن يأخذ شيئا، ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى، ودخل الطواف وهو من الفقراء، وخرج وهو من الأغنياء. اللهم أغني فقرنا، ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحكي أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيأ الأطباء دواؤه، ولم يجدوا له شفاء فلدسوا على قتله، وأرصدوا له رجلاً ومعه خنجر فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذي فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعاياه الله تعالى، وبرى أحسن ما كان.

ويضدّ هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال: حدّثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار، واستوقدوا نارهم وسوّوا معيشتهم وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع. فقال رجل منهم: يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها. فاعتزلهم ذلك الرجال ويات خارجاً عنهم ولم يقرب ذلك المكان فأصبحوا في عافية، وحملوا على دوابهم. فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقتضي حاجته فخرّ عليه الحائط فمات لوقته.

قال: وأخبرني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار - وأشار إلى دار هناك - قضية عجيبة. قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخزّ، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخزّ في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة، أراد إزال الخرج عن الخمار، فنقل عليه، فأمر إنساناً هناك فأعانه على إزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه، فسأله عن أمره، فأخبره أنه من أهل الكوفة، وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل: كن رفيقي آتس بك وتعيّنتي على سفري ونفقتك ومؤنتك علي، فقال له الرجل: وأنا أيضاً أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة، ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه. ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحداً فظنّ أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجدّ السير في المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه، فقالوا: ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته. فكّر الرجل راجعاً إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً فيس منه، ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً، فاستحى أن يدخلها نهراً فتشمت به الأعداء، نعوذ بالله من شماتتهم، وخشي أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة فاستخفى إلى الليل، ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له: من هذا؟ قال فلان يعني نفسه. فأظهروا له سروراً عظيماً وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم، والله وما وجدنا ما نشترى به شيئاً للنساء، فأتينا بدقيق ودهن نسرج به علينا، فلا سراج عندنا.

فلما سمع ذلك ازداد غمّاً على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم ذلك، فأخذ وعاء للدهن، ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع أطفأ سراجيه وأغلق حانوته ونام فناداه فعرفه وأجابه وشكر الله على سلامته فقال له: افتح حانوتك واعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن. فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصابيح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذا حانت من التاجر الصفاتة إلى قعر الحانوت، فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه، فلم يملك نفسه أن وثب إليه والترمه وقال: يا عدوّ الله اتسني بمالي، فقال له البياع: ما هذا يا فلان! والله ما علمتك متعدياً، وأنا أبداً ما جنيت عليك ولا على غيرك؛ فما هذا الكلام؟ قال: هذا خرجه هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي. فقال البياع: والله ما لي علم غير أن رجلاً ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاءه، وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح، والحمار في دار جارنا، والرجل في المسجد نائم. قال له: احمل معي الخرج وامض بنا إلى الرجل، فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوباً فقال: ما لك؟ قال: أين مالي يا خائن؟ قال: ها هو في خرجه فوالله ما أخذت منه ذرة. فأين الحمار وآتته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وغلّى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالماً فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود، فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره.

ولتلحق بهذا الباب ذكر مما جاء في التهته والبشائر؛ كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبير استبشر به: سمعت عنك خبراً ساراً كتب في الألواح، وامترج بالأرواح، وعدّ في جملة البشائر العظام وجرى في العروق وتمشى في العظام. وكان خالد بن عبد الله القسري أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع، وكان يقول: إني لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها. فقال له: إن أنا وليتها فلك العراق، فلما ولي أتاه فقام بين الصفيين وقال: يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته وأيدك بملائكته، وبارك لك فيما ولّاك ورعاك فيما استرعاك، وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة، وعلى أهل الشرك تقمة، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها، وأنت لها أزين منها لك. وما مثلها ومثل إلا كما قال الأحوص هذه الأبيان:

وإن الدرّ زاد حسنَ وجوهه      كان للدرّ حسنَ وجهك زينا  
وتزيداً أطيبَ الطيبِ طيباً      إن تمسّنه أينَ مثلك أيناً

ودخل على المهدي أعرابي فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة، قال: هاتها. قال: أتاني آت في منامي فقال: أنت أمير المؤمنين فابلغه هذه الأبيات:

لكنم إرثُ الخلافة من قريش      تسزقُ إليكمو أبداً عرومنا  
إلى هارونَ تهديّ بعد موسى      تميز<sup>(١)</sup> وما لها أن لا تميزا

فقال المهدي: يا غلام علي بالجواهر، فحشا فاه حتى كان ينشق. ثم قال: أكتبوا هذه الأبيات واجعلوها في بخانق<sup>(٢)</sup> صيانتا. وقال إبراهيم الموصلي في تهته الرشيد بالخلافة:

(١) تميز: تمايل.

(٢) بخانق: خرق توضع حول الرقبة.

ألم تر أن الشمس كانت مريضةً      فلما أتى هارونُ أشرقَ نورُها  
تلبَّست الدنيا جمالاً بملكِهِ      فهارونُ واليهما ويحيى وزيرُها

وغناه بهما من وراء الحجاب فوصله بمائة ألف دينار، ويحيى بخمسين ألفاً.

ودخل عطاء بن أبي سفيان على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهمة والتعزية فقال: رزقت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نجه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية، وأشكر الله على أعظم العطية. ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقعة فإذا امرأة من بني سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلاً وهي تقول: لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال قد خلص الله عمر بن هبيرة قطيبي نفساً وقرى عيناً.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثامن والخمسون: في ذكر العبيد والإماء والخدم

### الفصل الأول: في مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيد، وعبد أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده». وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رفعه: «إن العبد إذا نصح لسيده، وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة رضي الله تعالى عنها اشترى لها بسوق عكاظ فوهبه لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ: إن رضي بذلك فعلت. فستل زيد فقال: ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ، أحب إلي من عز الحرية مع مفارقتة. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوجه أم أيمن وبعدها زينب بنت جحش. وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقبل غلامي وجاريتي وقتاي وقتاتي. وعن ابن مسعود الأنصاري قال: ضربت غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه. فالتفت فإذا هو النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى. فقال: أما إنك لو لم تفعل للفتك النار. وروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعرفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت. فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدثني أبو القاسم نبي التوبة ﷺ: «من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حذاء». وقيل: أراد رجل يبيع جاريته فبكت. فقال لها: ما لك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت مني، ما أخرجتك من يدي، فأعتقها وتزوجها. وقال أبو اليقظان: إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم: علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله. وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أتى بنات يزيدجرد بن شهريار بن كسرى مسيات، فأراد يبعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمه شديدة على وجهه فصاح: واعمره، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرية. فقال علي رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن. فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي، ومحمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل استبق بنو عبد الملك فسيقوا مسلمة، وكن ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبيدي:

هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك  
ويخسئ ساقاه فما يتحرك  
وهذا ابن أخرى ظهرها مشرك

نهيتكم أن تحملوا فوق خيلكم  
فتعثر كفاه ويسقط سوطه  
وهل يتوي المران هذا ابن حرو

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي، ولكن كما قال ابن معمر هذه الآيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم  
ولكن خطبناهم بأرماننا قنرا  
فما زادنا فيها السياء مذلة  
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا  
وكم قد ترى فينا من ابن سيء  
إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا  
ويأخذ ريان الطعان بكفه  
فيوردها ييضاً ويضدورها حمرا

فقبل رأسه وعينه وقال: أحسنت يا بني ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

### الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك» وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمن امرأة على سر، ولا تطأ خادماً تريد لها للخدمة. ووصف بعضهم عبداً فقال: يأكل فارهاً، ويعمل كارهاً، ويغض قوماً، ويحب نوماً، وقيل لبعضهم: ألك غلام، فقال:

وما لي غلامٌ فادعوه به  
سوى من أبوه أخو عمتي

وقال أكنم: الحر حر وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ألبسته الدر. ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه، وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حرّة  
رأى خللاً فيما تولّى الولائد  
فلا يتخذ منهنّ حرّاً قعيدةً  
فهنّ لعمرك الله بئس القعائد

وكان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يوماً يشتري له عبداً وتيناً، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقصيتك حاجة أن تقضي حاجتين، فمرض الرجل فأمر الغلام أن يأتيه بالطيب فغاب ثم جاء بالطيب ومعه رجل آخر فسأله عنه. فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة فجتك بالطيب؛ فإن شفاك الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طيب، وهذا حفر.

وقيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند فكتب إلى موسى الهادي أن رجلاً من أشرف الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرباه وتبناه. فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها فأجابته، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم فإذا هو على صدر مولاته فعمد إليه، فجبّ ذكره، وتركه يتشخط في دمه. ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برىء من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثاره من مولاه، ويدبر عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور، فأخذ الأسود الصبين فصعد بهما على ذروة سطح عالٍ فنصبهما هناك، وجعل يعللهم بالمطعم مرة، وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى ابنيه في شاق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابني للموت. قال: أجل، والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه، لئن لم تجب ذكرك مثل ذكرك مثل ما جيبتي لارميتنّ بهما. فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمع

بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه، ويتضرع له، وهو لا يقبل ذلك. ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من تلك الشاهق. فقال أبوهما: ويلك فاصبر حتى أخرج مديّة وأفعل ما أردت، ثم أسرع وأخذ مديّة فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمي الصيين من الشاهق فتقطعا وقال: إن جبك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه. فآخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام. وقال: ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود. فما ترى أردأ من العبيد، ولا أقل خيراً منهم. وأكثرهم رداءة المولدون، لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكروه، كأن لم ير منك شيئاً، وكلما أحسنت إليه تمرد، وإن أسأت إليه خضع وذلل، وقد جربت أنا ذلك كثيراً، وما أحسن ما قيل:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ      وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمردَا

وقيل: إن العبد إذا شبع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدي لأمي يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون منهم أئم من الزوج وأردأ، لأن المولد لا يعرف له أباً، وربما يعرف الزوجي أبويه. ويقال في المولد بغل لأنه مجنس، والبغل تكون أمه فرساً، وأبوه حماراً، وبالعكس فلا تشق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير، وإن كان فذلك تندر لا حكم له.

وأنا أستغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

## الباب التاسع والخمسون: في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائلهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلاً وقد دلّ على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ما جعلَ اللهُ من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترونَ على اللهِ الكذبَ وأكثرُهُم لا يعمَلون﴾<sup>(١)</sup>. قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الأخير ذكراً بحروا أذنهما، أي شقوا أذنهما، وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا اعتق عبداً، قال: هو سائبة، فلا عقْدَ بينهما ولا ميراث، وأما الوصيلة فهي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم. وأما الحام فالذكر من الأبل. كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمي ظهره فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. وقال تعالى: ﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾<sup>(٢)</sup> فالخمر ما خامر العقل ومنه سميت الخمر خمرأ، والميسر القمار، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان وأحدها نصب، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها «أمرني ربي»، وعلى بعضها «نهاني ربي»، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته، وإذا خرج النهي لم يمض.

ومن أوابدهم وأد البنات أي دفنهن أحياء. كانوا في الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها، وإذا بشر بها ضاق صدره، وكظم غيظه، وأسود وجهه، وهو قوله تعالى: ﴿وإذا بشرَ أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسوداً وهو كظيم﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشيةً إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم﴾<sup>(٤)</sup> وقد قيل إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار، وبمكة جبل يقال له أبو دلامة كانت قريش تند فيه البنات. وقيل إن صعصعة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشاوين وجمل. وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية فقال: أنا ابن محبي المونى. فأنكر الرجل ذلك. فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿ومن أحياءنا أحياء الناس جميعاً﴾<sup>(٥)</sup>

وأما الرفادة في الحج فكانت خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصبي، فيصنع به طعاماً للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد. وذلك أن قصياً فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم

(١) الآية: باقية الدهر.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٩٠.

(٤) سورة: النحل، الآية: ٥٨.

(٥) سورة: الإسراء، الآية: ٣١.

(٦) سورة: المائدة، الآية: ٣٢.

جبران الله، وأهل بيته، وأهل الحرام وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق ضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا<sup>(١)</sup> عنكم. ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليهم. وقيل: أول من أقام الرفادة عبد المطلب، وهو الذي حفر بئر زمزم وكانت مطبومة واستخرج منها الغزاليين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلبي، وسبعة أسياف، وخمسة دروع سوابغ<sup>(٢)</sup>، فضرب من الأسياف يباب الكعبة، وجعل أحد الغزاليين الذهب صفائح الذهب، وجعل الآخر في الكعبة.

واعلم وفقني الله وإياك أنه لم يسمع، بمُجِب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمي، وابن سماك الأسدي الذين ضرب بهم المثل. أما سعيد بن زرارة فقيل إنه مرّت به امرأة، فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا؟ فقال لها: يا هتاه،<sup>(٣)</sup> مثلي يكون من عبيد الله. وأما عبد الله بن زياد التميمي فقيل إنه خطب بالناس بالبصرة فأحسن وأوجز فنودي من نواحي المسجد: كثر الله فينا مثلك. فقال: لقد كلفتم الله شططاً، وأما ابن سماك فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد. فقال: والله لئن لم يرد راحلتي علي لا صليت له أبداً، فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر. فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصلّ. فقال: إنما كانت يميني يميناً قصداً. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثاً مستبشعاً ومثلاً بين العالمين مستشعاً نعوذ بالله من الخذلان المؤدي إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حكى عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قيل له: كيف وجدت متزك بالعراق؟ قال: خير منزّل، إن الله أظفرني بأناس بلغني الأمل فيهم، وأعانني على الإنصاف منهم، فكنت أتقرب إليه بدمائهم. فقيل له: من هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم، ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلت في جنب سيئاته والله تعالى أعلم.

ذكر أديان العرب الجاهلية: كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة. وكانت اليهودية في نمر، وبني كنانة، وبني الحرث بن كعب، وكننة. وكانت المجوسية في بني تميم منهم زرارة بن عدي، وابنه علي، وكان تزوج ابته ثم نلم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً. وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة. وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنماً من حيس<sup>(٤)</sup> فعبدوه دهرأ ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه. وقد قيل إن أول من غير الحنيفية عمرو بن لحي أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك. فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها. قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستصرها فتصنرنا. فقال: أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأبحار في بني إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حتى ضاقت عليهم، وتفرقوا في البلاد؛ وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسوه من الحجارة، ثم خلفت الخلوف،

(١) يصدروا: يصدروكم.

(٢) سوابغ: طويلة.

(٣) يا هتاه: يا مصيبي.

(٤) صنماً من حيس: خليط من تمر ودقيق وغيره.



ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل فعبدوا الأوثان، وصاروا إل ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال.

وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة، يقال له: هبل. وأيضاً اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون. وكان إساف ونائلة رجلاً وامراًة فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين. واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله، واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها، وكانت لقريش وبني كنانة، العزى وكان حجابها بني شيبه، وكانت اللات، لتثيف بالطائف، وكان حجابها بني مغيث من ثقيف، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم. وأما يفعوث ويعوق ونسر فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام، وكانوا أتقياء عباداً، فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته في قبلة مسجدهم ليزكروه إذا نظروا فكروها ذلك. فقال: اجعلوه في مؤخر المسجد، ففعلوا وصوروه من صفر<sup>(١)</sup> ورمصاص، ثم مات آخر ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم فصوروهم هناك وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين، وحسن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله، فقالوا له: مَنْ نعبد؟ قال: آلهتكم المصورة في مصلاكم، فعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن عبادتها. فقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿لَا تَلْبَسُوا آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُوا وَدّاً وَلَا سِوَاهَا﴾<sup>(٢)</sup> الآية.

ولما عمّ الطوفان الأرض طمّها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها، وذكر الواحدي في الوسيط أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط لهم، وأشوق للعبادة كلما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها، وأن من سبقهم من قومهم عبدها فسموها بأسمائهم، وقال الواقدي: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويفعوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أيّ ذلك كان.

### ذكر أوابدهم

الرم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصناً منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ قال قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حالته قال لم تخني.

الرتيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدّوا عينيها حتى تموت، يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

التعمية والتفتحة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل يقولون: إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى.

العز: داء يصيب الإبل، شبه الجرب كانوا يكرّون السليمة، ويزعمون أن ذلك يبرئ داء العز.

(١) صفر: نحاس.

(٢) سورة: نوح، الآية: ٢٣.

ضرب الثور عن البقر: كانت البقر إذا امتعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجنّ يركبون الشيران فيصدّون البقر عن الشرب.

الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره. وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس، وتنازع في كفياتها فمنهم من زعم أن النفس هي الدم، وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه وقالوا: إن الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهب حرارته، وحلّ به اليبس والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصوّراً في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشاً له، وفي ذلك يقول بعضهم:

سُلطَ الموتُ والمنونُ عليهم      فلهم في صَنَى المقابرِ هامٌ

ثم جاء الإسلام والعرب ترى صحة أمر الهام حتى قال النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام». وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً ويكبر حتى يصير كضرب من البوم، ويتوحش ويصرخ ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، يزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت.

والصفر: زعموا أن الإنسان إذا جاع عضّ على شرسوفه<sup>(١)</sup> الصفر، وهي حية تكون في البطن.

ثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت في أول ضربة فإذا ثنيت عاشت.

الغيلان والتغول: للعرب في الغيلان والتغول أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج مفرداً لم يستأنس وتوحش وطلب القفار وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار في أوقات الخلوات وفي الليل.

وحكي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رآه في سفره إلى الشام فضربه بالسيف. وقال الجاحظ: الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون في ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف. وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى. وأما القطرب في قولهم فهو نوع من الأشخاص المشيطة يعرف بهذا الاسم فيظهر في أكناف اليمن، وصعيد مصر في أعاليه، وربما إنه يلحق الإنسان فينكحه فيدود دبره فيموت، وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التي ذكرناها: أمتكوح هو أو مذعور؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه، وشجع قلبه، وإذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه، ومنهم من يظهر له فلا يكرث به لشهامته وثبات قلبه.

### ذكر الهوائف

أما الهوائف فقد كانت كثر في العرب، وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وأن من حكم الهوائف أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي. ومن عجيب ما حكى من أمر الهوائف ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال:

(١) شرسوفه: طرف الضلع جهة البطن.

خرجنا حججاً فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه: ليت شعري هل بغت علي؟ فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق فأجابته صوت في الظلام:

نعم نعم وناكهاً حجياً وهو رجل أحمر ضخم في قفاه<sup>(١)</sup> كية

فسكت الرجل. فلما سرنا إلى البصرة، أخبرنا ذلك الرجل قال: دخل جيرياني يسلمون علي فإذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كية فقلت لأهلي: مَنْ هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا فجزاه الله خيراً، فسألته عن اسمه فقالت: حجبة. فقلت: إلحقي بأهلك.

وأما بكاء المقتول فكانت النساء لا يكيين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمي السنّ فكانوا يزعمون أن الغلام إذا أثمر فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال: أبلديني بأحسن منها فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جزّ النواصي، فكانوا إذا أسروا رجلاً ومنوا عليه وأطلقوه جزوا ناصيته<sup>(٢)</sup>.

وأما الالتفات، فكانوا يزعمون أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتمّ سفره، فإن التفت تطيروا له، وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب لأنها تحيض، وليست من مطايا الجن. ويزعمون أن المرأة إذا أحبّت رجلاً وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد جبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباءها. ويزعمون أن الحرقوص وهو دوية أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبقار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل قلب ثيابه اهتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت<sup>(٣)</sup> وذكر اسم أمها فإنها تسكن. وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر، وتسمى السلوان. ونكاح المقت من ستهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فالقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها فإن لم يكن له بها حاجة زوّجها لبعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال.

ولهم حكايات عجبية وأحوال غريبة والله تعالى أعلم بالضوابط وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) قفاه كية: طرف عنقه الخلفي.

(٢) ناصيته: مقدمة شعر الرأس.

(٣) نفرت: شمت.

## الباب الستون: في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا وما أشبه ذلك

أما الكهانة: فكانت فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها. وللكهنة أخبار، فمنهم سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله وذلك أن الموبدان رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً وقد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها فلما أصبح أعلم كسرى بذلك فتصير كسرى تشجعاً، ثم رأى أن لا يكتفم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره، وجمع وزراه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران، وارتجاس الإيوان، فازدادوا غمّاً على غمهم. فكتب كسرى كتاباً إلى النعمان بن المنذر: أما بعد فَوَجِّهْ إِلَيَّ رجلاً عالمًا بما أريد أن أسأله عنه. فوجه إليه عبد المسيح الغساني. فقال له كسرى: عندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرني الملك، فإن كان عندي علم منه، وإلا أخبرته بمن يعلمه به، فأخبره بما رآه الموبدان، فقال: علم ذلك عند كساهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح. قال فاتيه فأسأله عما سألتك واتني بالجواب. فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح فسلم عليه وحياه ولم يخبره عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعراً يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم، ولم يذكر له السبب. فرفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسبح إلى سطيح بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبدان، رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً، قد قطعت الدجلة وانتشرت في بلادها. يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادي سماوة، وغاصت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً، ولا العجم لعبد المسيح مقاماً يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب يملك منهم ملوكاً وملكات بعدد الشرافات، وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه فسار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

وحكي أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى مناماً هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته: ما يفسره لك إلا شق وسطيح. فأحضرهما وقال لسطيح: إني رأيت مناماً هالتي فإن عرفته أصبت تفسيره. فقال: رأيت جمجمة خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض نهمة، فأكل منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأت شيئاً فما تفسيره؟ قال: ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين آيين إلى جرش. فقال الملك إن هذا لغاظف موجه، فمتى هو كائن، أفي زمني أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين، ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هارين. قال: ومن ذا الذي يملك بعدهم؟ قال: أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحداً باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكي يأتيه الوحي من العلي. قال: وممن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون في قومه الملك إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من

آخر؟ قال: نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى المسيئون. قال: أَوْحَى ما تخبر؟ قال: والشفق والقمر إذا اتسقا إن ما أنبأك به لحق. ثم دعا بشق، فقال مثل ما قال سطيح.

ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفارقة. فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة فرضي أمية بذلك، وجعل بينهما الخزاعي الكاهن حكماً، فخبأوا له شيئاً وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما. فقالوا: قد خبأنا لك شيئاً فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خبأتكم لي كيت وكيت. قالوا: صدقت احكم بين هاشم بن عبد مناف، وبين أمية بن عبد شمس، أيهما أشرف بيتاً ونسباً ونفساً. فقال والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمم الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، ولأمية أواخر، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر. وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين. ويقال إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية.

وحكى أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة، وكان الفاكه من فتيان قريش، وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ثم نهض لحاجة، فأقبل رجل ممن كان يقضى البيت فولجه، فلما رأى هنداً رجع هارباً، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضرها برجله، وقال لها: مَنْ هذا الذي خرج من عندك. قالت: ما رأيت أحداً قط وما انتبهت حتى نهيتني. قال: فارجعي إلى بيت أبيك. وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام، فإن يكن الرجل صادقاً دسيتُ عليه مَنْ يقتله ليقطع كلام الناس، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو علي بصادق. فقال له: يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم، وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة فلما شارفوا البلاد قالوا غداً نرد على هذا الرجل. فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك. فقالت: لا والله ولكن أعرف أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب، ولا آمنه أن يسمني بسيماء تكون علي سبة. فقال لها: لا تخشي فسوف اختره فصفه لفرسه حتى أدلى، ثم أدخل في إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم، فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئتكم في أمر وقد خبأنا خبيثة نختريك بها. قال خبأتكم لي ثمرة في كمره. قال: إني أريد أبين من هذا. قال: حبة برّ في إحليل مهر قال: فانظر في أمر هؤلاء النسوة فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب يده على كنفها ويقول لها: انهضي، حتى بلغ هنداً فقال: انهضي غير رسحاء<sup>(١)</sup> ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية. فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجدبت يدها من يده. وقالت: إليك عني فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضي الله تعالى عنه.

وأما القيافة فهي على ضربين: قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان، وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم.

وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكباً على بعيره يقوده غلام أسود، فمرّ بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد. قال ولد التاجر: فوقع في نفسي من ذلك شيء، فلما رجعت إلى

(١) رسحاء: أي غير عجزاء نحيلة بل مكتزة.

أمي ذكرت لها القصة. فقالت: يا ولدي إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد، فخشيت أن يفوتنا ماله فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا. وأما قيافة الأثر فلاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل، إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق، تتبعوا آثار قدمه فيظفروا به، ومن العجب يعرفون قدم الشاب من الشيخ، والمرأة من الرجل، والبكر من الثيب، والغريب المستوطن، ويذكر أن في قطفة وثغر البرلس أقواماً بهذه الصفة. وقد وقعت من قريش حين خرج النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد، وأحجار صم، ولا طين ولا تراب تين في الأقدام فحججهم الله تعالى عن نبيه ﷺ وبما كان من نسيج العنكبوت، وما لحق القائف<sup>(١)</sup> من الحيرة، وقوله إلى هنا انتهت الأقدام، هذا ومعهم الجماعة من قريش وأبصارهم سليمة، ولولا أن هناك لطيفة لا يتسارى الإنسان فيها يعني في عملها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى. وقيل: القيافة لبني مدلج في أحياء مضر، واختلف رجلان من القافة في أمر بعير، وهما بين مكة ومنى، فقال، أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر، فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم. فوجداه خشي فأصابا جميعاً. ومنهم من كان يخط الرمل في الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتي بعد.

وقال رجل: شردت لي إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها فأمر ابته أن تخط لي في الأرض فخطت، ثم قامت فضحك خراش ثم قال أتدري قيامها لأي شيء؟ قلت لا قال قد علمت أنك تجد إبلك وتزوجه فاستحيت، ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازيين فمرا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض، فضحك منها مالك هزواً وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرجن من سجستان حتى تموت، وتزوج عمرو هذا زوجتك، فكان كما ذكرت.

وأما الزجر والعرافة، فأحسنه ما روي أن كسرى أبرويز بعث إلى النبي ﷺ حيث بعث زاجراً ومصوراً، فقال للزاجر: انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال للمصور: اتني بصورته فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته، ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك. وبعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ رسولاً وقال له: انظر إليه، ومل إلى جانبه، وانظر إلى ما بين كفيه حتى ترى الخاتم والشامة. فقدم الرسول فرأى النبي ﷺ على نشز عال واضعاً قدميه في الماء، وعن يمينه علي رضي الله تعالى عنه، فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحوّل فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول، فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر، فقال: ليعلوّن أمره وليملكن ما تحت قدمي، فضاءل بالنشز، العلوّ. وبالماء، الحياة.

وقال المدائني: وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان حين أتاها فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان. فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك. فقال: أواه ما أظنّ أنني أرجع إلى الفسطاط فمات ولم يرجع. وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية، فقال لفاختة بنت قرظة: اذهبي فانظري إليها فلذبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلاً، ولكني رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها. فطلقها معاوية وتزوجها بعده رجلان، حبيب بن مسلمة، والنعمان بن بشير، فقتل أحدهما ووضع

رأسه في حجرها. وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذا تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عرّاف، وقيل قياف فقام فبعه ثوبان، مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان، ستذهب الشمس بملك مروان، بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان. فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان. وروى المدائني أن علياً رضي الله تعالى عنه بعث معقلاً في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقعة، وذلك في وقعة صفين فسار حتى نزل الحديدية، فبينما هو ذات يوم جالس، إذ نظر إلى كبشين يتطحان فجاء رجلاً فأتى كل منهما كبشاً فذهب به. فقال شدّاد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر: إنكم لتتصرفون من موجهكم هذا لا تغلبون ولا تُغلبون. أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فقترقا ولا فضل لأحدهما على الآخر؟

وحكي أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوباً فلما رآته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض. ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت: ستعزل من الملك. قال: فغضب عند ذلك. فقالت له: لا تغضب، فإنك في المرة الأولى دخلت علي والشقة يدي أدير طولها وعرضها، ودخلت علي الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأنني فرغت من نسجها فلا تغضب، فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوي: فكان كذلك.

وحكي أن سيف بن ذي يزن لما استجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم فخرج إليه ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة جلف من الحبشة، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم. قال: وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له زهير، فتأمل ذلك منه ثم قال لأمره: اصبر لتنظر إلى ما يكون من أمره. قال: فتحوّل مسروق من الفيل إلى جمل، فقال: اصبر. فتحوّل بعد ذلك إلى فرس، ثم إلى بغل، ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار، لما أنه استصغروهم واستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى، وقال: أحملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير. فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

وحكي أنه كان عرّاف من الطريقين ببغداد يخبر بما يُسأل عنه فلم يخطيء. فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق. قال نعم، ويخلص عليه. قال: فقلت له بأي شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتني التفت يميناً وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس، وتفرغه بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلة، قال: وكان الأمر كذلك.

وأما الفأل: فقد روي أن النبي ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن، وروي أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له: يا بشار، ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: أبشُر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار. وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأل قال: هو أن يكون مريض، فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واحد وما أشبه ذلك.

وأما الطيرة: فقد كان ﷺ يحبّ الفأل ويكره الطيرة. وقيل ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل: «اللهم لا طير إلا طيرك»، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وعنه ﷺ أنه قال: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن له» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما

رفعه: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول، أو أتى امرأته حائضاً أو أتى امرأته في دبرها فقد برىء مما نزل على محمد». وأنشد المبرد هذه الآيات يقول:

لا يعلمُ المرءُ ليلاً ما يصبُحُه      إلا كواذبَ ما يجري به الفألُ  
والفألُ والزجرُ والكهانُ كلهم      مُضَلَّلُونَ ودونَ الغيبِ أقالُ

وقال لبيد:

لَعَمْرِي ما تدري الطوارقُ بالحصَى      ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ

وقال آخر:

تعلَّم أنهُ لا طير إلا      على شيءٍ يوافقُ بعضَ شيءٍ  
على متطيرٍ وهُوَ الثبورُ      أحايينا وباطلُهُ كير

وكانت العرب تطير بأشياء منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها، وكانوا إذا أرادوا سفراً خرجوا من الغلس، والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً، وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً، ومنه قول امرئ القيس:

وقد اغتدي والطيرُ في وكنايها      بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هيكلي<sup>(١)</sup>  
مكراً مفراً مُقبلٍ مُدبرٍ معاً      كجلمودٍ صخرٍ حطَّه السيلُ من علي

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب. فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد، ويسمونه حاتمأ لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعرور على جهة التطير إذا كان أصح الطير بصراً. وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غرابُ الين صاحَ فقلْ له      ترَفَنقُ رماك الله يا طيرُ بالبعدِ  
لأنت على العشاقِ أبغُ منظرٍ      وأبشعُ في الأبصارِ من رؤية اللحدِ  
تصبحُ يميني ثم تعثرُ ماشياً      وتبررُ في ثوبٍ من الحزينِ مسودِ  
متى صحتُ صَحَّ الينُ وانقطعَ الرجاءُ      كأنك من يومِ الفراقِ على وَغدي

وأعرض بعضهم عن الغراب، وتطير بالإبل، وذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل، وفي ذلك قال بعضهم مفرداً وأجاد:

زعموا بأن مطيئهم سببُ النوى      والمؤذناتُ بفرقة الأجابِ

وقالوا: مَنْ تطير من شيء وقع فيه. وحكي عن إبراهيم بن المهدي قال: أرسل إلي محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف المقمرة يقول: يا عم، إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا. فجتته وقد بسط له على سطح زبيدة، وعنده سليمان بن أبي جعفر وجارته نعيم. فقال لها: غنيا شيئاً فقد سررت بعمومتي. فغنت وهي تقول هذه الآيات:

(١) هيكلي: يصف فرسه بأنه ذو عضلات يفرغ الوحوش بضخامته.



همو قتلوة كي يكونوا مكانة  
نبي هاشم كيف التواصل بيننا  
كما فعلت يوماً بكسرى مرارته<sup>(١)</sup>  
وجند أخيه سيفه ونجائبة

فقال: فغضب وتطير، قال لها: ما قصتك؟ ويحك، انتبهي وغني ما يسرني فغنت تقول:

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً  
وأكثر حزمأ منك ضرج بالدم

فقال لها ويحك! ما هذا الغناء في هذه الليلة، غني غير هذا فغنت هذه الأبيات:

ما زال يمدو عليهم رب دهرهم  
تبكي فراقتهم عيني فأزقتها  
حتى تفانوا ورب الدهر عداة  
إن الضررق للمشتاق بكاءة

قال: فانتهرها. وقال لها: قومي إلى لعنة الله. فقالت: والله يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا، وما ظننت إلا أنك تحبه، ثم أنها قامت من بين يديه. وكان بين يديه قرح بلور كان أبوه يحبه فأصابه طرف رداها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي: فالتفت إلي وقال: يا عمي، أرى أن هذا آخر أمرنا. فقلت: كلا بل يبيحك الله، يا أمير المؤمنين، ويسرك. فسمعت هاتفاً يقول: «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان» فقال لي: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئاً، وما هذا إلا توهم. فإذا الصوت قد علا، فقال: يا عم إذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به. وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن يزيد وقد تقلد الموصل فلما أراد الدخول إليها اندق لوازه في أول درب منها فطير لذلك فأشده أبو الشمقمق يقول:

ما كان منلق اللواء لريو  
لكن هذا الرمح ضعف متة  
تخشى ولا أمر يكون مبدلاً  
صغر الولاية فاستقل الموصلاً

فسر خالد وأمر لأبي الشمقمق بعشرة آلاف درهم. ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر، فانكسر تحت قدمه لوح فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شامت<sup>(٢)</sup> الوجوه، وتبت الأيدي، وبؤتم<sup>(٣)</sup> بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع، وأشأم من يوم نحس مستمر، وإني لأعجب من لوط وقوله: «لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد»<sup>(٤)</sup> فأي ركن أشد من الله تعالى، أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين، وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً في أهل اليمن، فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن سيئهم، وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن سيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب، لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولني هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم. وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بعال. فقال: لا حاجة لي به، ولكن

(١) مرارته: أحواله.

(٢) شامت: سامت.

(٣) بؤتم: عدتم.

(٤) سورة: هود، الآية: ٨٠.

اتذّن لي في الكلام فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحسبتي وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشام صباحاً على صاحبه، فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكي أيضاً أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذي الليالي عَلِمْنَا أن ستطويْنَا<sup>(١)</sup> قشعشعينا<sup>(٢)</sup> بماء المزنِ واسقينَا

فقال: فطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

وحكي أن نور الدين محمود وهمام الدين ركباً في يوم عيد وخرجا للضريح فتجالوا في الكلام ثم قال محمود: يا مَنْ درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: هل نعيش إلى آخر هذا الشهر؟ فإن العام كثير. قال: فأجرى الله على منطقتها ما كان مقدراً في الأزل، فمات أحدهما قبل تمام الشهر، ومات الآخر قبل تمام العام.

وأما الفراسة فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَشِّحِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على علي رضي الله تعالى عنه بشيء فلم يعمل به ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته، فأنتفت نفسي منه، ففترس ذلك مني قرأ: ﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾<sup>(٤)</sup> فنذمت واستغفرت الله في قلبي، ففترس ذلك أيضاً قرأ: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾<sup>(٥)</sup>.

وحكي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما إنه نجار، وقال الآخر إنه حدّاد فسألاه عن صنعه، فقال: كنت حدّاداً وأنا الآن نجار.

وحكي أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإني أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل، فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية. قال من رآه: ولقد رأيته متكئاً على دكة ويده مروحة يروح بها عليه، فقلت السلام عليك يا فلان، فسلم عليّ وتعارفنا، ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باقٍ على حاله أم لا؟ فقال لي لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ربما يؤذّ اللّٰهين كفروا لو كانوا مسلمين﴾<sup>(٥)</sup> قال فبكيت عليه وتركته وانصرفت. وكان الحسن بن السقاء من موالي بني سليم ولم يكن في الأرض أحزر منه كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطيء، وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء، كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا، ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطيء.

(١) شمعينا: أبردي صدورنا.

(٢) سورة: الحجر، الآية: ٧٥.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٤) سورة: الشورى، الآية: ٢٥.

(٥) سورة: الحجر، الآية: ٢.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء: ما عند الله خير وأبقى فاعلم أن في جوارحه وليمة ولم يدع إليها. وإذا رأيت قوماً يخرجون من عند قاض وهم يقولون ما شهدنا إلا بما علمنا فاعلم أن شهادتهم لم تقبل. وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله: كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شيء فاعلم أن امرأته قبيحة. وإذا رأيت إنساناً يمشي ويلتفت فاعلم أنه يريد أن يحدث، وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غني. وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالي وهو يقول: يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع.

ويقال: عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون: عظم الجبين يدل على البله، وعرضه تدل على قلة العقل، وصرفه يدل على لطف الحركة. وإذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها دليل القطنة وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق، والتي يكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر في الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المتصبية تدل على حمق وهذيان. وكانت الفرس تقول: إذا فشا الموت في الوحوش دل على ضيقة، وإذا فشا في الفأر دل على الخصب. وإذا نقر غراب فجأوته دجاجة عمر الخراب. وإذا قوّت دجاجة فجأوبها غراب خرب العمار والله أعلم بكل شيء، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل». وروي أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت له: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلساً. وكان زمعة بن صالح يصلي ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الركبُ المُعْرَسوناً<sup>(١)</sup> أكل هذا الليل ترقدونا

فيتأثبون بين بالكِ وداعٍ ومضرعٍ، فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى. وأنشدوا:

يا أيها الراقدُ كم ترقدُ      قُمْ يا حيي قد دَنَا الموعدُ  
وخذُ منَ الليلِ وساعاتِهِ      حظاً إذا ما هجعَ الرقْدُ  
مَنْ نَامَ حتّى يفتضي ليلُهُ      لم يبلغِ المنزلَ أو يجهدُ  
قُلْ لذي الأبوابِ أهلِ التقى      فتطرهُ الحشرِ لكم موعدُ

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون، وأنشد بعضهم:

ألا إن نوماتِ الضحى تورثُ الفتى      غموماً، ونوماتِ العصرِ جنونُ

وعن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يوماً بابنه وهو نائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك، أتنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب أنها مكسلة مهزلة منية

(١) المعرسون: السائرون في الظلام.

للحاجة. والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق<sup>(١)</sup>، ونومة الخلق، ونومة الحمق، فنومة الخرق نومة الضحى، ونومة الخلق هي التي أمر النبي ﷺ بها أمته فقال: «قلوا فإن الشياطين لا تقبل» ونومة الحمق النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون. وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطح بالنوم فإنه شؤم ونكد. وقال الثوري لطيب: دُلّني على شيء إذا أردت النوم جاءني. فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله. وكان طاوس يقول: لئن تختلف السياط على ظهري، أحب إلي من أن أنام يوم الجمعة والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحية على المقلَى ويقول اللهم إن النار منعتني النوم، وأنشدوا في المعنى:

غَيَّرْتُ مَوْضِعَ مَرْقَدِي      يَوْمًا ففَارَقْتَنِي السُّكُونُ  
قُلْ لِي فَاوَلُّ لَيْتِي      فِي حَفْرَتِي، أَنَّى أَكُونُ

وأنشد أبو دلف:

أمالكتني ردي علي رقاديا<sup>(٢)</sup>      ونؤمي فقد شرذني عن وساديا  
أما تتقين الله في قتل عاشق      أمست الكرى عنه فأحيا اللياليا

وأنشد أبو غانم الثقفي:

رقدت رقاد الهيم حتى لو أنني      يكون رقادي مغنماً لغنيت

فقيل: لمن هذا؟ فقال لرقاد من رقاد العرب. وقيل إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبداً أسود قيل إنه نام أسبوعاً، وقيل: إنما تماوت على أهله وقال: اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت فسجى<sup>(٣)</sup> ونام وندب فإذا هو قد مات.

وأما الرؤيا فقد قيل فيها أقاويل. وهو أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس، وهدهو الروح، ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية الطبايع. وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط، وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحوراً وعيوناً ومياهاً كثيرة، ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أحداثاً وأمواتاً مكفينين بسواد ويكاه وأشياء مفرعة، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهي والثياب المصبغة. والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزءاً من النبوة. وكان النبي ﷺ أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجيء على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له.

فمن ذلك ما حكى أن النبي ﷺ رأى في الجنة غرقاً فقال: لمن هذه؟ قيل لأبي جهل بن هشام فقال: ما لأبي

(١) الخرق: الأحق.

(٢) رقادي: نومي.

(٣) سجى: وضع عليه غطاء من رأسه إلى أخمص قدميه.

جهل والجنة، والله لا يدخلها أبداً. قال فأتاه عكرمة ولده مسلماً فتأولها به. وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع بلغ في دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عاماً. وكذلك حين قال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: إني رأيت كأنني رقيت أنا وأنت درجاً في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف. فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله أبض بعدك بستين ونصف. ورأت عائشة رضي الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها، فأولها أبوها بموته، وموت النبي ﷺ، وموت عمر رضي الله تعالى عنهما. ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك.

وحكي أن أم الشافعي رضي الله تعالى عنه، لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر، ثم تفرق في كل بلد قطعة، فأول بعالم يكون بمصر ويتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

وحكي أيضاً أن عاملاً أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتلا، فقال له عمر مع من كنت؟ قال مع القمر فقال مع الآية المحمودة، والله لا وليت لي عملاً فعزله. ثم اتفق أن علياً رضي الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع، فكان ذلك الرجل مع معاوية.

وأما مَنْ مهر في تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأنني أسقي شجرة زيتون زيتاً، فاستوى جالساً فقال: ما التي تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفي رواية جارية، وأنا أطؤها. فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدتها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به فروج النساء وأفواه الرجال. فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء. وجاءه رجل فقال: رأيت جارية لي قد ذبحت في بيت من دارها. فقال: هي امرأة نكحت في ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم<sup>(١)</sup> لذلك، ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع مع زوجته في ذلك البيت. وجاءه رجل ومعه جراب فقال له: رأيت في النوم كأنني أسد الزقاق سداً وثيقاً شديداً. فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم. فقال لمن حضره: ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان، وربما يكون في جرابه آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً فسلموه إلى السلطان. وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا ونادى منادياً من خلفي أن اتني ابن سيرين فقضي عليه، فتخلصت يده وقال: ويحك كيف رأيت هذا فأعادت عليه، فقال لأخته: هذه تزعم أنني أموت لسبعة أيام، وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع، ومات بعد سبعة أيام. وجاءه رجل فقال: رأيت كأنني أخذ البيض وأقشره فأكل بياضه وألقي صفاره. فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان كذلك.

وحكي أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي وقال: يموت الحسن وأموت بعده وهو أشرف مني فمات الحسن، ومات هو بعده بمائة يوم.

وحكي أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبي الله صلبك حق؟ قال: نعم. فعبه على بعضهم فقال: تكذب رؤياك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْلُوهُ وَمَا صَلْبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك. وأتى ابنة مغيث أتت في المنام فقال لها:

(١) اغتم: حزن واهتم.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٥٧.

لك البشيرى بولد      أشبه شيء بالأسد  
إذا الرجال في كبد<sup>(١)</sup>      تفالبوا على بلد  
كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة. وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأنى بلت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا. قال: هو عبد الملك. فقال: يلي أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: رأيت علياً رضي الله عنه في المنام. فقال لي: ناولني كعبك فناولته إياها فأخذها وبيدها فأصبحت أنا كآبة. فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفح الله شأنك وينشر علمك. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ قَدْ رَأَى حَقّاً فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي» وجاء رجل إلى النبي ﷺ قال: رأيت كأن راسي قد قطع وأنا انظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأي عين كنت تنظر إلى رأسك؟ فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأولوا رأسه به بنبيه ونظروا إليه باتباع سته. وقال رجل لعلي بن الحسين: رأيت كأنى أبول في يدي. فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع. وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: رأيت كأنى نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك، فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ. وقال النبي ﷺ: «الرؤيا الصالحة إشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة». وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: قد تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيت وهو يمسح العرق عن جبينه، فسأته فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك، إنه سألني عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز، فصاح وضرب يده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقي الطاهر، فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهم أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الحادي والستون: في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال علمكم الله ذلك فإنه قال: «وَحُدِّ يَدُكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتَسِبْ»<sup>(١)</sup> وكان ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها وكان يقول: «الحرب خدعة» ولما أراد عمر رضي الله تعالى عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدر فيه ماء فأمسكه في يده واضطرب. فقال له عمر: لا بأس عليك حتى لا تشربه فألقى القدر من يده فأمر عمر بقتله. فقال: أَوْلَمْ تَوَمَّنِي؟ قال: كيف أمثك؟ قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه، وقولك لا بأس عليك أمان، ولم أشربه. فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أماناً ولم أشعر. وقيل: كان دهاة العرب أربعة كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمر أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم لنصراني. لو أسلمت. فقال: ما زلت محباً للإسلام إلا أنه يمنني منه حبي للخمر. فقال: أسلم واشربها. فلما أسلم قال له: قد أسلمت فإن شربتها، حدِّثناك، وإن ارتددت قتلناك فاختر لنفسك. فاختر الإسلام وحسن إسلامه فأخذه بالحيلة. وقيل: دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مدَّ يده إليها وهو صادق نالها، ومن كان كاذباً لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة فخبأها في مكانه في عكازة ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة. فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقاً فلتدن<sup>(٢)</sup> مني السلسلة فدننت مني فمسها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي، وقال: اللهم إن كنت تعلم أنني رددتُ الجوهرة إليه فلتدن مني السلسلة. فدننت مني فمسها، فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم فارتفعت بشؤم الخديعة.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن أحكم بين الناس بالينة واليمين فبقي ذلك إلى قيام الساعة. وكان المختر بن أبي عبيد الثقفي من دعاة تقيف، وتقيف دهاة العرب. قيل إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد ثم دعا برجل من خواصه فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها. ثم قال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة فأرسلها فتصايح الناس: الملائكة. الملائكة!! وحملوا فانتصروا وقتلوا ابن زياد.

(١) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٢) فلتدن: اقرب.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصمتا في الصبي الباقي إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصمتا إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: انتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف. فقالت الصغرى أتشقه يا نبي الله؟ قال: نعم قالت: لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى. فقال: خذيه فهو ابنك وقضى به لها. وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وقال: يا نبي الله إن جيراناً يسرقون أوزي فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة ثم خطبهم وقال في خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شاباً جميلاً فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما. فلما رأى المغيرة ذلك الشاب وعين جماله علم أنها تؤثره عليه فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيتَ جمالاً فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعُدَّ محاسنه ثم سكت. فقال المغيرة: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفى علي من شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل<sup>(١)</sup>. فقال المغيرة: لكني أضع البدرة في بيتي فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنقادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إلي من هذا الذي يحصي علي مثقال الذرة. فتزوجت المغيرة.

ويبلغ عضد الدولة أن قوماً من الأكراد يقطعون الطريق ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم. فاستدعى بعض التجار، ودفع إليه بطلاً عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة فنزل القوم فأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهما بالبغل وصعد به الجبل فوجد به الحلوى فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه فاستدعاهم فأكلوا على مجاعة فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم. وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة فأقامهما بين يديه ثم دعا بشربة ماء فجيء له بكوز<sup>(٢)</sup> فرماه بين يديه فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سيالك، وقال للآخر: أنت أخذت المال وتلذذت به. وتهلده فأقر. فسئل عن ذلك فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفرغ منه. وقصد رجل الحج فاستودع إنساناً مالاً فلما عاد طلبه منه فجعله المستودع فأخبر بذلك القاضي إياساً. فقال: أعلم بأنك جتتي؟ قال: لا. قال: فعُدَّ إلي بعد يومين. ثم إن القاضي إياساً بعث إلى ذلك الرجل فأحضره، ثم قال له: أعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفراً بعيداً، وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين متلك. فقال: حباً وكرامة. قال: فادهب وهتء موضعاً للمال وقوماً يحملونه. فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة، فقال له القاضي إياس: امض إلى صاحبك وقل له ادفع إلي مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس. فلما جاء وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه فأخذته وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد

(١) الخردل: يحاسبهم بدقة وشدّة.

(٢) بكوز: إناء للشرب.



أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي تَرْكُ السفر، امضي لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز، قال شيرويه للداخل عليه ليقتله: إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقدك علي. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر فأخرج الصندوق فإذا فيه حق فيه حبٌّ ورقعة مكتوب فيها: مَنْ تناول منه حبة واحدة افتضت عشرة أبكار، وكان لشيرويه غرام في الباه<sup>(١)</sup>، فتناول منه حبة فهلك من ساعته. فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء فقال له الرشيد: لِمَ تخلفت؟ فقال: عاقني عاتق. فقال: اقرؤوا عليه كتاب البيعة. فقال: يا أمير المؤمنين هذه البيعة في عتقي إلى قيام الساعة. فلم يفهم الرشيد ما أراد وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس.

وقال المغيرة بن شعبه: لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها فقال: أيتها الأمير لا خير لك فيها. فقلت: ولم؟ قال: رأيت رجلاً يقبلها فأعرض عنها فتزوجها الفتى فلمته وقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباها يقبلها. وأتى رجل إلى الأحنف فلطمه<sup>(٢)</sup>. فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جُعل لي جعل على أن أطم سيد بني تميم فقال لست بسيدهم عليك بحارثة ابن قدامة فإنه سيدهم، فمضى إليه فلطمه فقطعت يده.

وقال الشعبي: وجهني عبد الملك إلى ملك الروم فقال لي: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا ولكني رجل من العرب. فكتب إلى عبد الملك رقعة دفعها إلي، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا. قال: فيها العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره. قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا. قال: حسدني عليك فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئاً إلا سألتني عنه، وأنا أجيبه. فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي، فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي. ولما ولي عبد الملك بن مروان أخاه بشراً الكوفة وكان شاباً ظريفاً غزلاً بعث معه روح بن زنباع وكان شيخاً متورعاً فقتل على بشر مرافقته، فذكر ذلك لندمائه فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً في خفية، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الآيات:

يا رَوْحُ مَنْ لَبَّيَاتٍ وَأرْمَلِيْ  
إِنْ ابْنَ مَرْوَانَ قَدْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ  
إِذَا نَعَاكَ لِأَهْلِ الْمَغْرِبِ النَّعَايِ  
فَاحْتَلَّ بِنَفْسِكَ يَا رَوْحُ بِنُ زَنْبَاعِ

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك وقال: قتلت على بشر وأصحابه فاحتالوا لك.

ومن الحيل الظريفة: ما حكى أن النبي ﷺ لما فتح خيبر، وأعرس بصفية، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال: يا رسول الله إن لي بمكة مالا عند صاحبتني أم

(١) الباه: القدرة الجنسية.

(٢) لطمه: ضربه يده.

شبية، ولي مال متفرق عند تجار مكة فأذن لي يا رسول الله في العودة إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل وأنت في حل. قال الحجاج: فخرجت فلما انتهيت إلى الشبية ثية البيضاء وجدت بها رجلاً من قريش يسمعون الأخبار وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخيرنا يا حجاج فقد بلغنا أن القاطع، يعنون محمداً ﷺ، قد سار إلى خيبر؟ قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم. قال: فاحذقوا حول ناقتي يقولون إيه يا حجاج. قال: قلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر محمد، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال فصاحوا بمكة: قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم. قال: قلت أعينوني على جمع مالي من غرماي فإني أريد أن أقدم خيبر فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك. فقاموا معي فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب. فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل علي حتى وقف إلى جانبي وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: قلت: وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله. قال: قلت استأخر عني حتى ألتاك على خلاء فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، واجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت له: احفظ علي حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى أن يتبعوني، فأكتم علي ثلاثة أيام ثم قل ما شئت. قال: لك علي ذلك. قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبراً وغنم ما فيها وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت إي والله ولقد أسلمت وما جئت إلا مسلماً لأخذ مالي خوفاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة فاطهر أمرك فهو والله على ما تحب. قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له، وتخلق بالطيب وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رآوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة. قال: كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه. قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم ولقد دخل عليكم مسلماً، وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلت عدو الله، أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصل الحجاج بفضته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة وتظاهروا وهم في جمع كثير، وجم غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب، وبنو النضير، وبنو قريظة من اليهود ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا وزلزالاً شديداً<sup>(١)</sup> فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: خذ<sup>(٢)</sup> عنا إن استطعت فإن

(١) سورة: الأحزاب، الآيات: ١٠ - ١١.

(٢) خذ: اجملهم يتخاذلون.

الحرب خدعة. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأتم، فإن البلد ببلدكم، وبه أموالكم وأبناؤكم، ونسائكم لا تقدرين على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وأموالهم، وأولادهم، ونسائهم بغير بلدكم وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتتموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً. قالوا: أشرت بالرأي. ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً. قالوا: أشرت بالرأي. ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودي لكم وفراقي محمداً وأنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم فإتكموه علي. قالوا: نعم. قال: اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد. وقد أرسلوا إليه يقولون: إنا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجلاً من أشرافهم فنسلمهم إليك فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على من بقي منهم فنستأصلهم. فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود يلتصون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم: إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر، فاعتذروا<sup>(١)</sup> للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه. فأرسلوا يقولون لهم اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. فقالت بنو قريظة، حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم، وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا لا نقاتل حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم. وأرسل عليهم الريح ففرقوا وارتحلوا وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهده إلى اليقظة التي عمّ نفعها وحسن وقعها.

وأما ما جاء في التبليغ والتبصر في الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوه من كيد له، وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام، وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشي فمن تدرع بها أمن من الاختلال، والغدر، والجور، والكيد، والمكر. وقيل إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعا

في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تحصياً وبحثاً عن أسرار الصدور، وكان يث العيون على الرعايا، والجواسيس في البلاد، ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيئته.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتاً من الشعر مضرورياً لم يكن قد رآه بالأمس فدنا منه فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه وقال له: من الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله. قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق، قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا. فانطلق عمر والرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها: هل لك في أجرة قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت. قال: فخذني معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن واثني بقدر وشحم وحبوب، فجاءت به فحمل القدر ومشيت خلفه حتى أتى البيت، فقال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال الرجل: أوقد لي ناراً، ففعل، فجعل عمر يتفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها، وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله تعالى عنها: بَشْرٌ صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أبا العرب مَنْ ولي شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره فإنه عنها مسؤول، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة. ثم قام عمر رضي الله تعالى عنه وأخذ القدر من فوق النار، وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للرجل: قم إلى بيتك وكل ما بقي في البرمة وفي غد أتت إلينا. فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به وانصرف. وكان رضي الله تعالى عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال، وإقامة قسطاس العدل، وإزاحة أسباب الفساد، وإصلاح الأمة يعصّ بنفسه ويياشر أمور الرعية سراً في كثير من الليالي، حتى إنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج وسمع حديثاً، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبداً أسود قدماه إناء فيه مِرْزٌ<sup>(١)</sup> وهو يشرب ومعه جماعة فهم بالدخول من الباب فلم يقدر من تحصين البيت فتصور على السطح ونزل إليهم من الدرجة ومعه اللدزة، فلما رآه قاموا وفتحوا الباب وانهمزوا فمسك الأسود، فقال له يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت وإني تائب فاقبل توبتي، فقال أريد أن أضربك على خيطيتك، فقال يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة فأنت قد أخطأت في ثلاث فإن الله تعالى قال: ﴿ولا تجسسوا﴾<sup>(٢)</sup> وأنت تجسست. وقال تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْلَمُونَ عَلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾<sup>(٣)</sup> وأنت آتيت من السطح وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْأَلُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾<sup>(٤)</sup> وأنت دخلت وما سلمت فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى غلى يذك أن لا أعود، فاستوبه واستحسن كلامه. وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

(١) مِرْزٌ: خمر من الشعير.

(٢) سورة: الحجرات، الآية: ١٢.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ١٨٩.

(٤) سورة: النور، الآية: ٢٧.

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك. وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له وجعل يتعزف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال أنا فلان بن فلان، فتبسم زياد وقال له: أتعرف إلي وأنا أعرف بك منك بنفسك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك، وجدتك وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان وقد أعارك إياها. فبهت الرجل وارتعد حتى كاد يغشى عليه. ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم، وهو عبد الملك بن مروان والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق واقتضى<sup>(١)</sup> آثار ذلك الفريق، إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس.

ولي الخلافة بعد أخيه السفاح وهي في غاية الاضطراب، فنصب العيون وأقام المتطلعين واث في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات، ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه وأرادوا خلعهم، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف من انطوى على خلافته فعالجه باتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقطع رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان لكمال يقظته يتلقى المحذور يدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بفرق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقررت قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزدي، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إني لأرى لك هيبة، وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معني فإن كفيته رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين في، فقال: أخف نفسك واحضر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم وحضرت، فلم يترك عنده أحداً، ثم قال لي: اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتيالها، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا، يكتابونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والأطاف بلادهم، فخذ معك عيناً من عندي وأطافاً وكتباً واذهب حتى تأتي عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب فأقدم عليه متخشعاً، والكتب على السنة أهل تلك القرية، والأطاف من عندهم إليه، فإذا رآك فإنه سيردك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده وقل له: قد سيروني سرّاً وسيروا معي الأطافاً وعيناً، وكلما جبهك وأنكر، اصبر عليه وعاوده واكشف باطن أمره.

قال عقبة: فأخذت كتبه، والعين، والأطاف وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن فلقيته بالكتب فأنكرها ونهرني<sup>(٢)</sup> وقال: ما أعرف هؤلاء القوم. قال عقبة: فلم أنصرف وعاودته القول، وذكرت له اسم القرية، وأسماء أولئك القوم وأن معي أطافاً وعيناً فأنس بي وأخذ الكتب وما كان معي. قال عقبة: فتركت ذلك اليوم ثم سأله الجواب. فقال: أما كتاب فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم فاقترنهم السلام وأخبرهم أن ابني محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا. قال عقبة: فخرجت من عنده وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لي المنصور: إني أريد الحج فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن، وفيهم عبد الله فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله ونظرت إليه فتمثل بين يدي وقف قدماه، فإنه سيفرغ

(١) اقتضى: تتبع أثرهم.

(٢) نهرني: زجرني.

وجبه عنك فذُر حتى تقف من ورائه واغمر ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه فحادثه فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه فلما فرغوا أمر برفعه فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال يا أبا محمد: علمت أن مما أعطيتني من اليهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين. قال عقبه: فلحظني المنصور بعينه فقامت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن فأعرض عني فدرت من خلفه وغمرت ظهره بإبهام رجلي فرفع رأسه وملأ عينيه مني، ثم وثب حتى جثا بين يدي المنصور وقال: أقلني<sup>(١)</sup> يا أمير المؤمنين أفالك الله، فقال له المنصور: ولا أقلني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمداً وإبراهيم ويستعلم أخبارهما.

قال علي الهاشمي صاحب غدائه: دعاني المنصور يوماً فإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك أصدقيني فوالله ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتني لأصلنّ رحمه، ولأتابعنّ البرّ إليه وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهي تقول: لا أعرف له مكاناً فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها فقال: كفوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شمّ الطيب، وصب الماء البارد على وجهها، وأن تسقى السويق. ففعلوا بها ذلك وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألتها عنه فقالت لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود<sup>(٢)</sup> قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة؟ فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم قال: صدقت هي والله أمي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها من عندي، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم. ثم قال لها: أتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان قال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالاً وأمرته أن يتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء وحوائح، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد ابن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع وهو يدخل الليلة وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهنّ من المغيب، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكلّ ما أراد.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أقلني: احمل عشارتي.

(٢) الجحود: النكرات.

## الباب الثاني والستون: في ذكر الدوابِّ والوحوش والطيور والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم

### حرف الهمزة

الأسد: من السباع والأنتى أسدة، وله أسماء كثيرة: فمن أشهرها أسامة، والحرث، وقنور والفضنفر، وحيدرة، والليث، والضرغام، ومن كناه أبو الأبطال، وأبو الشيل، وأبو العباس. وهو أنواع: منها ما وجهه وجه إنسان وشكل جسده كالبقر، وله قرون سود نحو شير. ومنها ما هو أحمر كالغراب وغير ذلك، وتلد أمه قطعة لحم وتستمر تحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينخ فيه فتفرج أعضاؤه وتشكل صورته ثم ترضعه، وتستمر عيناه مغلوقة سبعة أيام ثم تفتح، ويقم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر ثم يتكلف الكسب بعد ذلك، وله صبر على الجوع والعطش وعنده شرف نفس، يقال: إنه لا يعاود فريسته ولا يأكل من فريسة غيره، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب. وفي ذلك يقول بعضهم:

سَأَتْرِكُ حَبْكُم مِّنْ غَيْرِ بَغْضِي	وَذَاكَ لَكثْرَةَ الشَّرْكَاءِ فِيهِ
إِذَا وَقَعَ الذِّبَابُ عَلَى طَعَامِي	رَفَعْتُ يَدِي وَنَفْسِي تَشْتَهِيهِ
وَتَجْتَنِبُ الأَسْوَدُ وَرَوْدَ مَاءِ	إِذَا كَانَ الكَلَابُ يَلْغَنَ فِيهِ

وإذا أكل نهش نهشاً، وريقه قليل جداً ولذلك يوصف بالبخر، وعنده شجاعة وجبن وكرم، فمن شجاعته: الإقدام على الأمور، وعدم الأكرات بالغير، ومن جبهته: أنه يفر من صوت الديك، والسنور<sup>(١)</sup> والبطست، ويتحير عند رؤية النار. ومن كرمه أنه لا يقرب المرأة خصوصاً إذا كانت حائضاً. وقيل: أربع عيون تضيء بالليل: عين الأسد، وعين النمر، وعين السنور، وعين الأفعى، وروي أنه لما تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾<sup>(٢)</sup> قال عتبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم يعني نفسه، فقال رسول الله: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ينهشه، فخرج مع أصحابه في غير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء زار الأسد، فجعلت فرائصه<sup>(٣)</sup> ترتعد، فقالوا له: من أي شيء ترتعد فرائصك، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء، فقال: إن محمداً دعا علي، والله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد، ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم فحاطوا أنفسهم بمتاعهم وجعلوه بينهم وناموا فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فضغطة ضغطة كانت إياها فسمع وهو بأخر رمق يقول: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس. ولبعضهم في الأسد:

(١) السنور: الحصر.

(٢) سورة: النجم، الآية: ١.

(٣) فرائصه: أطرافه.

عبوسٌ شمسٌ مصلخد<sup>(١)</sup> مكابدٌ  
جريٌّ على الأقرانِ للقرنِ قاهرٌ  
برائتهُ شثنٌ<sup>(٢)</sup> وعيناهُ في الدجى  
كجمرِ الغضى في وجهه الشرُّ ظاهرٌ  
يديل<sup>(٣)</sup> بأنيابِ حدادٍ كأنها  
إذا قلصَ الأشداقَ عنها خناجرٌ

فائدة: إذا أقبلت على واد مسبح<sup>(٤)</sup> فقل أعوذُ بدانيال والجب من شر الأسد، وسبب ذلك على ما قيل أن يختصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود فجعل يأمر بقتل الأطفال فخافت أم دانيال عليه فجاءت إلى بر فآلفته فيه، فأرسل الله له أسداً يحرسه، وقيل إن يختصر توهم ذلك في دانيال فصرى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما فلم يؤذياه، وصاروا يصبصان حوله ويلحسانه فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم اشتهى الطعام والشراب فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن أذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا، بمكان كذا، قال أرمياء فسرت إلى ذلك الخوض فلما وقفت على رأس ذلك الجب ناديت به فعرفني فقال من أرسلك إلي قلت أرسلني إليك ربك بطعام وشراب قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره والحمد لله الذي لا يخيب من قصده، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاتاً وغفراناً، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تسوء ظولنا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا. قال ثم صعد به أرمياء من الجب وأقام عنده مدة ثم فارقه ورجع.

وحكي أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مر بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام فسمع منه صوتاً يقول: سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت. قال بعض الصالحين: من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء.

وحكي أن إبراهيم بن أدهم كان في سفر ومعه رقعة فخرج عليهم الأسد فقال لهم قولوا: اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله. قال: فولى الأسد هارباً. وقيل: لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام في سفيته من كل زوجين اثنين قال أصحابه: كيف نطمئن ومعنا الأسد، فسلط الله عليه الحمى، وهي أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير فغطس فخرج منه الفأر فلما كثر ضرره شكوا ذلك إلى نوح عليه الصلاة والسلام فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد فغطس فخرج منه الهر فحجب الفأر عنهم ويحرم أكل السبع لئله عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

خواصه: فمن خواصه أن صنوته يقتل التماسيح، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع، ومرارة الذكر منه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره وهو من الحيوان الذي يعيش ألف سنة على ما ذكر وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه.

الإبل: قيل ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل، إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت

(١) مصلخد: قوي شديد.

(٢) شثن: غليظة.

(٣) يدبل: يغلب.

(٤) مسبح: كثير السباح.



أروت، وإن نحرت أشبعت وفي حديث «الإبل عز لأهلها، والغنم بركة، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» وهي من الحيوان العجيب وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس وقد أطاعها الله للآدمي وغيره حتى قيل إن قطاراً<sup>(١)</sup> كان ببعض جبله دهن، فمرت فأرة فجدبته، فسار معها القطار بواسطة جذبها له، وهي مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾<sup>(٢)</sup> ولما كانت مراكب البر، والبرّ فيه ما ماؤه قليل، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر، وفي الحديث: «لا تسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى» أي مما يوسع به على الناس حكاية ابن سيده، والذي يعرف: لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عن هيجانه فإنه يسوء خلقه، فيظهر زبده، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقل أكله، ويخرج له عند رغاؤه شِقْشِقَةً لا تعرف من أي شيء هي من أجزائه، وهو من الأحرار حتى قيل إنه لا يتزو على أمه، ولا على أخته، حتى قيل إن بعض العرب ستر ناقة بثوب، ثم أرسل عليها ولدها، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله فأكله ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مرارة ولذلك كثر صبره. وقيل يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة في العين كحلا، وفي معدته قوّة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيعه، ويحلّ أكله بالنص والإجماع. وأما تحريم يعقوب عليه الصلاة والسلام أكلها فباجتهاد منه. وذلك أنه كان يسكن البوادي فاشتكى عرق النسا فلم يجد ما يلائمه إلا ترك أكل لحمها فلذلك حرّمها. وأما انتقاص الضوء بأكل لحمها فاختلف العلماء في ذلك، فذهب طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة وجماهير التابعين، وبه أخذ مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم، وخالف في ذلك أحمد، وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المنذر، وابن خزيمة. واختاره البيهقي وهو مذهب الشافعي القديم.

خواصه: قال ابن زهير: أكل لحمه يزيد في الباه وفي الإنعاط<sup>(٣)</sup> بعد الجماع ويوله يفيق السكران، وويره إذا أحرق وذز على دم سائل قطعه، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه.

الأرضة: بفتح الهمزة والراء دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها. قال الفزويني: إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، ويقال إنها الدابة التي دلت الجنّ على موت سليمان عليه الصلاة والسلام. ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفله إلى أعلاه، وله في إحدى جهاته باب مربع ومنه تعلم الأوتل وضع النواويس لموتاهم، والنمل عدوّها وهو أصغر منها فيأتي من خلفها ويحتملها ويمشي بها إلى جحره لأنه إذا أتاها مستقبلاً لا يغلبها.

الأرنب: حيوان شبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى، وله شدة شبق، وربما تسفد<sup>(٤)</sup> وهي حبلى ويكون عاماً ذكراً، وعماماً أنثى. ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان فيأتي الصياد فيظنها مستيقظة. قيل: من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أوّل ما يخرج أو رآه عند قدميه من

(١) قطار: قافلة فيها متاليات الإبل.

(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ٢٢.

(٣) الإنعاط: الشهوة والشبق.

(٤) تسفد: تنكح.

نومه واصطبح به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم. ومن عجيب أمره أن تحمل الأنتى منه بائنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران وعند ولادتها يتحل شعرها، وتحضن الأولاد إلى عشرين يوماً، ومن طبعه أنه أبله وفيه قوة وشدة وفي سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنتى كالسنابير، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجري به وهو راكب عليها ويجري معها.

فائدة: ذكر ابن الأثير في الكامل أن صديقاً له اصطاد أرنباً، وله أنثيان، وذكر وفرج، وقيل: التقطت الأرنب ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب. فقال الأرنب: يا أبا حسل، فقال: سمياً دعوت. قالت: أتيئك لنختم. قال: عادلاً حكيماً. قالت: فأخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة حلوة. قال: فكليها. قالت: قد اختلسها<sup>(١)</sup> الثعلب قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحق أخذت. قالت: فلطمني قال: اقتص. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت. فذهبت أقواله أمثالاً. ومن ذلك ما حكى أن عدي بن أرطاة أتى شريحاً القاضي في مجلس حكمه فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع مني. قال: للاستماع جلست. قال: إني تزوجت امرأة. قال: بالرفاء والبنين. قال: فشرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم. قال: أوف لهم الشرط. قال: فأنا أريد الخروج. قال: الشرط أملك. قال: أريد أن أذهب. قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك.

الخواص: قال الجاحظ: من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ولدت ذكراً، وإن شربت أنفحة الأنتى ولدت أنثى، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل، والأرنب البحري من السموم فلا يحل أكله.

سقنور: دابة شكلها كالوزغة<sup>(٢)</sup> إذا أخذت وسلخت وملحت وشرب منها مثقال، زاد في الباه. من الأشياء النفيسة عن أهل الهند، يقال إنه يهدي إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب ويحشونه من ملح مصر فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع عظيماً.

الأفعى: الأنتى من الحيات، والذكر أفعوان، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال، ويعرف بالشجاع والأسود وهو أشتر الحيات، وأشترها حيات وأفاعي سجستان. ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً في رجله فانصدعت جبهته. وحكى أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع فمات قبل أمه. وقيل: لما دخل شيب بن شبة على المنصور قال له يا شيب أدخلت سجستان؟ فقال: نعم. قال صف لي أفاعيها. قال يا أمير المؤمنين هي دقاق الأعناق. صغار الأذئاب، مقلصة الرؤوس، رقتش برش كأنما كسين أعلام الحبرات، كبارهن حتوف، وصغارهن سيوف. وقيل إنها تندفن في التراب أربعة أشهر في البرد، ثم تخرج وقد أظلمت عيناها فتمرّ بشجر الرزبانج وهو الشمر الأخضر فتحك عينيها به فيرجع إليها بصرها، فسبحان من ألهمها ذلك. وقال الزمخشري: إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن

(١) اختلسها: سرقها.

(٢) الوزغة: زاحفة من أضراب الحرباء.

تأتي البساتين وتلقي نفسها على هذه الشجرة وتحكّ عينها بها فتبصر. وقيل: إذا قطع ذنبها عاد كما كان، وإذا قلع نابها، عاد بعد ثلاثة أيام، وهي أعدى عدو للإنسان. وقال بعضهم: رأيت حية قد ابتلعت كبشاً عظيم القرنين فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين وابتلعته وقرنيه والله تعالى أعلم. وقيل: إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر<sup>(١)</sup> وقيل إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها. وقيل: إن جلدنا ينسلخ عنها في كل سنة مرّة. وقيل: إن الجلد لا ينسلخ، وإنما الذي ينسلخ قشر فوق الجلد، وغلاف يخلق لها كل عام، وهي تبيض على عدد أضلاعها: أي ثلاثين بيضة فيجتمع عليها النمل فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً.

ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء، ولا تريده ولكنها إذا شمّت رائحة الخمر فلا تكاد تبصر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرة فتعرضت للقتل، والذكر لا يقيم في الموضع، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة، فإذا قويت أخذتهم وانسابت، فأني جحر وجدته دخلت فيه وأخرجت صاحبه منه، وعينها لا تدور، إذا قُلت عادت.

ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان، وتفرح بالنار وتقرب منها، وتحبّ اللبن حباً شديداً وإذا دخلت بصدرها في حجر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه ولو قطعت قطعاً وليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها.

وحكى عمر بن يحيى العلوي قال: كنا في طريق مكة فأصاب رجلاً منا استسقاء، فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال على أحدها ذلك الرجل. قال: ثم بعد أيام جمعتنا المقادير فوجدته قد برىء فسألناه عن حاله، فقال: إن العرب لما أخذوني جعلوني في أواخر بيوتهم فكانت في حالة أتمنى فيها الموت، وبينما أنا كذلك إذا أتوني يوماً بأفاعي اصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنانها وشووها بعد ذلك، فقلت في نفسي: هؤلاء اعتادوها فلا تضرهم فلعلني إن أكلت منها متّ فاسترحت، فاستطعمتهم فأطعموني واحدة، فلما استقرت في بطني أخذني النوم فتمت نوماً ثقيلاً، ثم استيقظت وقد عرقت عرقاً شديداً، واندفعت طبيعتي<sup>(٢)</sup> نحو مائة مرّة، فلما أصبحت وجدت بطني قد ضمّر وقد انقطع الألم، فطلبت منهم مأكولاً فأكلت وأقمت عندهم أياماً فلما نشطت ووثقت من نفسي بالحركة أخذت في الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة.

فائدة: قيل إن الريحان الفارسي لم يكن قبل كسرى وإنما وجد في زمانه، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالساً في بعض متفرجاته إذا جاءته حية فانسابت بين يديه وتمرّغت وصارت تتلق مثل الذي يشتكي، فأراد بعض الجند قتلها فمنعهم الملك. ثم قال لهم: انظروا أمرها فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذي تريده. قال: فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه قال فنظروا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فتحسها بعضهم برمح فقتلها وتركوها ورجعوا فأخبروا الملك بذلك، فلم كان الغد جاءت الحية للملك وفي فمها بزر فشرته بين يدي الملك وذهبت فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه في الأرض لنتظر ما يكون من أمره. قال: ففعلوا ذلك فطلع منه الريحان. قال: انتهى أمره أتوا به إلى الملك. قال: وكان به زكام فشمه فبرىء.

(١) الذر: صغيرات النمل.

(٢) طبيعتي: أي تقياً مرات.

لطيفة: من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالاً ولم يكن عنده ما يرضيهم به فاغتم لذلك ونام مستلقياً على قفاه مفكراً في ذلك، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت في سقف آخر. قال: فطلب سلماً وصعد لينظر المكان الذي خرجت منه فلما رآه وجد كوة فنظر في داخلها فإذا هي مطمورة فدخلها، فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره.

ومن اللطف ما اتفق له أيضاً أنه كان بتلك البلد خياط أطروش<sup>(١)</sup>، وكان الملك الذي قبله قد أودع عنده وديعة مال، قال: فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذي يخيط للملوك. قال: فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة، فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له: إن فلاناً الملك لم يدع عندي سوى اثني عشر صندوقاً ولم أدر ما فيها، فأمر بإحضارها فأحضرها فأخذها عماد الدولة ووسع بها على جنده وتعجب من هاتين القضيتين. فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له. وأمر النبي ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات، وقيل ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعين. وفي الحديث: «من قتل حية فكأنما قتل مشركاً ومن لبس خفاً فليفضه، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه».

الخواص: يقال إن دمها يجلو البصر، وقلبيها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر، وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن، والأيسر للأيسر. ولحمها قال بقراط الحكيم: من أكله أمن من الأمراض الصعبة. الأئیس: وتسميه الرماة الأئيسة لأنه من طيور الواجب عندهم، وهو طير له لون حسن، غذاؤه الفاكهة، ومأواه الأنهار والساتين والغياض، وله صوت حسن كالقمري.

الأوز: طير يحب السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح.

الخواص: في جوفه حصاة تنفع المبطون، ودهنه ينفع من ذات الجنب، وداء الثعلب إذا طلي به، ولسانه ينفع لقطار البول، وغازؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم.

الأيل: بتشديد الياء المكسورة، ذكر الوعل وله أسماء باختلاف اللغات، وهو يشبه بقر الوحش، وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرر بذلك، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى.

خواصه: إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر، والصيداؤون يعرفون ذلك فيلبسون جلده ليراهم السمك، فيأتي لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه، حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع، فتؤخذ وتجعل دواء للسم. وهو الذي يسمى بالبتزهير الحيواني، وأجوده الأصفر، وأكثر ما يكون ببلاد الهند، والسند، وفارس، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها، وإن وضعه الملسوع في فيه نفعه، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد ستين، وينبتان في أول الأمر مستقيمين ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب، ولا يزالان إلى ست سنين فحيثئذ يصيران كخنثيتين، ثم بعد ذلك يلقيهما في كل سنة مرة ثم ينبتان. قال أرسطو: وهذا النوع يصاد بالصفير، والأصوات المطربة فإنه يحب الطرب، والصيداؤون يشغلونه بذلك، ويأتونه من ورائه فإذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه، وقرنه مصمت، وإحليله من عصب لا عظم

(١) أطروش: لا يسمع.

فيه ولا لحم، وهو من الحيوان الذي يزيد في السمن، فإذا حصل له ذلك فرّ من مكانه خوفاً من الصيادين وحكمه حل أكله.

ومن خواصه إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التي فيه، وإذا أحرق واستاك به الذي به صفرة الأسنان زال ذلك عنه، ومن علق عليه شيء منه ذهب نومه. ومن خواصه أن دمه يفتت الحصاة التي بالمثانة شرباً، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

### حرف الباء الموحدة

باز: كنيته أبو الأشعث، وهو من أشد الحيوان تكبراً، وأضيقها خلقاً، قال الفزوي: إنها لا تكون إلا أنثى، وذكرها من غيرها، إما من جنس الحدأة أو الشواهين ولأجل ذلك تختلف ألوانها وهو أصناف منها البازي، والباشق، والشاهين، والبيدق، والصقر. والبازي أحرّها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة، والظل الظليل، وهو خفيف الجناح، سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل، وأحسن أنواعه ما قل ريشه واحمرت عيناه مع حدة فيهما. قال الشاعر:

لو استضاء المرء في إدلاجه      بعينه كفتنه عن سراجيه

ودونه الأزرق، الأحمر العينين، والأصفر دونهما. ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، شديد الانحطاط من الجوف، غليظ الذراعين مع قصر فيهما.

لطيفة: من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد فأرسل بازاً فغاب قليلاً ثم أتى وفي فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك. فقال مقاتل: يا أمير المؤمنين روينا عن جلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن الجوف معمور بأمم مختلفة الخلق، وفيه دواب تبيض وتقرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش. فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه.

بالة: سمكة عظيمة. قال الفزوي يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع، وقال غيره خمسون، ويقال لها العنبر، وهي تظهر في بعض الأحيان لأصحاب المراكب، فإذا رأواها طلبوا بالطبول، حتى إنها لا تنفر لأن لها جناحين كالقنطرة إذا نشرتهما أغرقتهم، فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها، فتترل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك فيقذفها الريح إلى الساحل فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر.

بيغاء: هي أصناف كثيرة منها الأخضر، والرمادي، والأصفر، والابيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها، وصوتها، وفصاحتها.

حكى أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار ويقال إن نوعاً منها يقرأ القرآن.

الخواص: من أكل لسانها تصفح، وإذا جفف دمه وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة، وزيلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمذ وظلمة البصر.

بجع: طائر أبيض اللون يعيل إلى صفرة المنقار، كبير البطن أكثر أكله السمك.

بح<sup>(١)</sup>: طائر لطيف يأوي أطراف الماء، وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط.

براق: هو الدابة التي ركبها النبي ﷺ، وهو دون البغل، وفوق الحمار أبيض اللون.

برذون: نوع من الخيل دون الفرس العربي، وفي الحديث أن النبي ﷺ ركب، وكذا عمر رضي الله تعالى عنه،

فلما ركب عمر جعل يتخلخل به فتزل عنه، وضرب وجهه وقال لا علم الله من علمك هذه الخيلاء<sup>(٢)</sup> ولم يركب برذوناً

قبله ولا بعده، وكتبته أبو الأخطل لطول ذنبه. وأنشد السراج الوراق في ذم البراذين يقول:

لصاحب الأحباس <sup>(٣)</sup> برذونة	بعيدة العهد عن القسوط
إذا رأته خيلاً على مربط	تقول سبحانك يا معطي
تمشي إلى خلف إذا ما مشت	كأنما تكئب بالقبطي <sup>(٤)</sup>

الخواص: إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً وزيله يخرج المشيمة والجنين الميت، وإذا جفف وذر منه على من به الرعاف انقطع رعاؤه وكذا الجرح.

برغوث: تفتح منه الباء وتضم أبو طامر، وأبو عدي، وأبو وثاب وهو يشب إلى ورائه.

حكى أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبيض، ويفرخ وأصله أولاً من التراب لا سيما في الأماكن المظلمة، وسلطانه في أواخر الشتاء وأول فصل الربيع، ويقال إنه على صورة الفيل وله أنياب وخرطوم وقال بعضهم دبيبها من تحتي أشد من عضها، وليس ذلك بدبيب، ولكن البرغوث حيث يستلقي على ظهره ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشي تحت جنبيه، وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يفلتي ثوبه فيلقط البراغيث ويدع القمل فقال له أنس في ذلك. فقال أبداً بالفرسان وأكر على الرجالة وأنشد أعرابي:

ليل البراغيث أعياني وأنصبي	لا بارك الله في ليل البراغيث
كأنهن وجلدي إذ خلون به	فضأة سوء أغاروا في المواريث

وقال أبو الرماح الأزدي:

تطاول بالفسطاط ليلي ولم يكن	بوادي العقي ليلي علي يطول
تورقني حذب قصار أدلة	وإن الذي يؤذنه لذليل
إذا جلت بعض الليالي منهن جولة <sup>(٥)</sup>	تعلقن في رجلي حيث أجول
إذا ما قتلناهن أضمن ككرة	علينا ولا ينكى لهن قتل
ألا ليت شعري هل أيتن ليلة	وليس لبرغوث علي سئل

(١) بح: لعلها ذلك الطائر الأبيض الجميل الذي يدعونه حيناً «تم» وحيناً آخر يخلطون بينه وبين البجع، وفيه كعب «تشايفكوسكي» باليه: «بحيرة التم» وليس هو البجع حتماً.

(٢) الخيلاء: التكبر.

(٣) الأحباس: الأوقاف.

(٤) القبطي: بلغة القبط.

(٥) الشطر مختل الوزن.

وقال ابن أبيك الصفدي:

أشكو إلى الرحمن ما نالني      من البراغيث الخفاف الثقال  
تعصّبوا الليل لما دروا      أني تقنعت بطيف الخيال

ولا يسب البرغوث لما ورد أن النبي ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثاً فقال: لا تسبه فإنه أيقظ نبياً إلى صلاة الفجر.

فائدة: سئل مالك عن البرغوث، من يقبض روحه. فقال: أله نفس؟ قيل نعم الله يتوفى الأنفس حين موتها. ولقد شكنا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز بشر الهوام فكتب إليه: إذا أرى أحدكم إلى فراشه فليقرأ: ﴿وما لنا إلا نتوكل على الله﴾<sup>(١)</sup> الآية. وقال حنين بن إسحاق: الحيلة في دفع البرغوث أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به في البيت فإنها تفرّ من ذلك، وقيل يرشّ البيت بماء السذاب<sup>(٢)</sup>، وقيل مشاق<sup>(٣)</sup> المراكب يحرق في البيت مع قشور النارج.

بعوض: قيل إنه على خلقه القيل إلا أنه أكثر إعضاء منه، فإن للفيل أربعة أرجل والبعوض ستة، أو يزيد عليه بأربعة أجنحة، وله خرطوم مجوّف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم، ومما ألهمه الله تعالى إذا جلس على عضو إنسان يتبع مسام العروق فإنها أرق وأسرع له في إخراج الدم وعنده شره في مصّة حتى قال إنه لا يمضّ شيئاً فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحاً. وقال الجاحظ: من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دمًا، وأن ذلك الدم غذاء لها، وأنها إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيقة الحدّ لانكسرت، فسبحان من رزقها على ضعفها بقوّته وقدرته. قال بعضهم:

أقول لنازل البستان طوي      لعيشك لم تشكّ فيه البعوض<sup>(٤)</sup>  
يمليّ له قراؤ      ويشخّنه فليس له نهوض  
حماء قرصه وطنينه أن      يبيت وعينه فيها غموض  
كانك حين تهدي بالأغاني      تكرر في سامعك العروض

ومن الحكم التي أودعها الله تعالى إياها أن جعل فيها قوة الحافظة، والفكر، وحاسة اللمس والبصر، والشم ومنفذ الغذاء، وجوقاً، ومخاً، وعروقاً وعظاماً فسبحان من قدر فهدي ولم يترك شيئاً سدى. وقال الزمخشري في تفسير سورة البقرة في ذلك:

يا مَنْ يرى مدّ البعوض جناحها      في ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى مناط عروقها في نحرها      والمخ من تلك المظالم النحل  
ويرى خريز الدم في أوداجها      متقللاً من مفصل في مفصل

(١) سورة: إبراهيم، الآية: ١٢.

(٢) السذاب: نوع من البقول.

(٣) مشاق: جيله.

(٤) الشطر الثاني مختل الوزن.

ويرى وصولَ غُذَا الجينِ بِيَطْنَهَا  
ويرى مكانَ الوطءِ من أقدامِها  
ويرى ويسمع حُسنَ ما هو دونها  
أفئِنَّ عليَّ بتوبؤِ تمحو بها  
في ظلمةِ الأُخْشا بغيرِ تمقلِ  
في سيرِها وحِيثِها المستعجلِ  
في قاعِ بحرٍ مظلمٍ متهولِ  
ما كان مني في الزمانِ الأوَّلِ

بغل: معروف، وكنيته أبو قموص، وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة، وهو مركب من الفرس، والحمار، ولذلك صار له صلابة الحمار، وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له. روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي كرم الله وجهه، أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع في نقل الحطب لئلا المنجنيق فقطع الله نسلها، وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة، والأخلاق المتباينة والعناصر المتباعدة، ومن العجيب أن كل عضو فرّضته منه كان بين الفرس والحمار.

الخواص: يقال إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرود الفأر إذا بخر به البيت، وإذا سحق حافره بعد حرقة وخلط بلهن الآس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره، وزيله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكره.

بقر: هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان، وهو أنواع منها الجواميس وهي أكثر ألباناً، وكل حيوان إنائه أرق أصواتاً من ذكوره، إلا البقر وأثناه يضرها الفحل في السنة مرة، إذا اشتد شبقها تركت المرعى وذهبت، وإذا طلع الفحل عليها التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابة ذكره. قال المسعودي: رأيت بالري البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتيها ثم تثور بالحمل.

عجبية: حكي في الإحياء أن شخصاً كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه، فجاء السيل في بعض الأودية وهي واقفة ترعى فمر عليها ففرقها فجلس صاحبها ينديها فقال له بعض بنيه: يا أبت لا تنديها فإن المياه التي كنا نخلطها بلبنها اجتمعت ففرقتها.

فائلة: ذكر ابن الفضل في كتابه عن وهب بن منبه أنه قال: لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينية فخلق الله تعالى ملكاً في نهاية العظم والقوة وأمره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكيه فدخل وأخرج يداً من المشرق، ويداً من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لتقديمه قرار، فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء في وسطها سبعة آلاف ثقب، فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى، ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمي الملك، ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له كيوثاً، له أربعة آلاف عين، ومثلها أنوف وأذان وأفواه وألسنة، وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة، وحملها على ظهره وقرونه، ثم لم يكن للثور قرار، فخلق الله تعالى حوتاً يقال له يهموت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته، ثم جعل الحوت على ماء، ثم جعل الماء على الهواء، ثم جعل الهواء على ماء أيضاً، ثم جعل الماء على الثرى، ثم الثرى على الظلمة، ثم انقطع علم الخلائق.

الخواص: شحم البقر إذا خلط بزرنينج أحمر طرد العقارب، وإذا طلي به إناء اجتمعت البراغيث إليه، وإذا شرب لبنها زاد في الإنعاط، وقرنها إذا سحق وجعل في طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى، ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء. وإذا طلي به على الأثر الأسود في البدن أزاله، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت



وجعلت في غسل وأكلت فإنها تزيد في الباه، وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان، وإذا خلط مع السكنجين وشرب نفع من الطحال على ما ذكروه.

بومة: وكنيتها أم الخراب، وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير في وكره وتأكل أفراخه، ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير. ونقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء وهي أصناف وكلها تحب الخلوة بنفسها.

الخواص: من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها، والأخرى مفتوحة، فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم فمن لبسه لم ينم ما دام في يده، وعكسها المغموضة، وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما في الماء، فالراسبة للنوم، والطافية لليقظة وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة، وهي نائمة تحدثت في نومها بجميع ما فعلته.

بوقير: طير أبيض يأتي منه في كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد، يقال له جبل الطير، فيه كرة فتدخل من تلك الكرة فيمسك منها شيء، فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجدبة وأهل تلك الناحية تعرف ذلك. وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ.

### حرف التاء

تمساح: حيوان عجيب على صورة الضب، له فم واسع، وفيه ستون ناباً، وقيل ثمانون وبين كل نابين سن صغيرة وهي أنثى في ذكر، إذا أطبق فمه على شيء لا يفلكه حتى يخلمه من موضعه، وله لسان طويل، وظاهر كالسلفاة ولا يعمل الحديد فيه، وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا ببني مصر. وقال المسافرون إنه يوجد ببحر الهند وطوله في الغالب ستة أذرع إلى عشرة في عرض ذراعين، أو ذراع، ويقوم في البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك في زمن الشتاء، ويتغوط من فيه في الغالب ويحصل في فيه الدود فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيراً يقال له القطقاط فيدخل في فيه فيأكل من الدود فيحصل له راحة، فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى في جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقال جازاه مجازاة التمساح. وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح، أن له ستين ناباً وستين عرقاً ويسفد ستين مرة، ويبيض ستين بيضة ويحضن ذلك ستين يوماً، ويعيش ستين سنة، فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار ورلاً، وما نزل البحر صار تمساحاً، وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدرة، وإذا أراد السفاد أخذ أثناءه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها فإذا قضى حاجته قلبها ثانية لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت. وما ذلك إلا أنها لا تستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان، وهو كلب الماء يقال إنه يتلبط بالطين ويغافل التمساح ويقذف بنفسه في فيه فيتلمه لنعمته فإذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مرق بطنه فيقتله.

الخواص: عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر في أذن من به صمم نفعه. ننين: ضرب من الحيات، وهو طويل كالنخلة السحوق، وجسده كالليل، أحمر العينين لهما بريق واسع القم

والجوف، يتلع الحيوان وأول أمرة يكون حية متمردة ثم تطفى وتسلط على حيوان البر فيستغيث منها، فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها في البحر فتقيم فيه مدة، ثم تسلط على حيوانه أيضاً فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها في النار فيعذب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج. وروى ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يسلط الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تينياً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تينياً منها نفع على الأرض ما نبتت فيها خضراء».

### حرف الثاء

ثعلب: وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل في طلب الرزق. فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات. فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده، وحيلته هذه لا تتم على كلب الصيد. ومن حيلته أنه إذا تعرض للقتل فنش القنفذ شوكة، فيسلح<sup>(١)</sup> هو عليه، فيلم شوكة فيقبض على مرق بطنه ويأكله، وسلحه أثن من سلح الحباري<sup>(٢)</sup>.

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقها في الماء ويخرج. وفروه أذفا الفراء وفيه الأبيض والرمادي وغير ذلك. وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبي منصور السلمي ثعلب له جناحان من ريش، إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما.

لطيفة: ذكر ابن الجوزي في آخر كتاب الأذكىء، والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن الشعبي أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فتم عليه الذئب، فقال الأسد إذا حضر فأعلمني، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبره بما قاله الذئب. فقال الأسد: أين كنت يا أبا الفوارس قال: كنت أتطلب لك الدواء. قال: وأي شيء أصبته؟ قال: قيل لي خرزة في عرقوب أبي جعد قال فضرب الأسد بيده في ساق الذئب فأدامه ولم يجد شيئاً، فخرج ودمه يسيل على رجله، وانسل الثعلب. فمر به الذئب فناداه يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانات. وقيل خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش، وضباً، وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب: اقم علينا فقال: حمار الوحش لي، والغزال لأبي الحرث، والضب للثعلب فضربه الأسد في رأسه ففرضخها. فقال: الثعلب: أنا أقسم حمار الوحش لأبي الحرث يتغدى به، والغزال لأبي الحرث يتعشى به، والضب لأبي الحرث يتقل<sup>(٣)</sup> به فيما بين ذلك. فقال له الأسد: لله درك من فرضي ما أعلمك بالفرائض. من علمك هذا؟ قال علمني التاج الأحمر الذي ألبسته هذا وأشار إلى الذئب.

وحكي أن الثعلب مر في السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً. فقال له: أما تنزل نصلي جماعة فقال إن الإمام نام خلف الشجرة فأيقظه، فنظر الثعلب فرأى الكلب ففرضط وولى هارباً فناداه أما تأتي لنصلي. فقال: قد انتقض وضوئي فاصبر حتى أجدد لي وضوءاً وأرجع. ومن العجيب في قصة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، والثعلب يصيد

(١) يسلح: يتزوط.

(٢) الحباري: طائر.

(٣) يتقل: أي يتخذه قفلاً.

القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها، والأفعى تصيد العصفور، والعصفور يصيد الجراد، والجراد يصيد الزنابير، والزنابير تصيد النحل، والنحل تصيد النباب، والنباب يصيد البعوض، والبعوض يصيد النمل، والنمل يأكل كل ما يسر من صغير وكبير فتبارك الله الذي أتقن ما صنع.

الخواص: رأسه إذا ترك في برج حمام هرب الحمام منه، ونابه يشدّ على الصبي يحسن خلقه وممراته يجعل منها في أنف المصروع يبرأ، ولحمه ينفع من اللقوة<sup>(١)</sup> والجذام، وخصيته تشدّ على الصبي تنبت أسنانه، وفروه أنفع شيء للمربوط، ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون البلوغ، وطحاله يشدّ على من به وجع الطحال يبرأ.

ثعبان: هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو أنثى، وهو عجيب الشأن في هلاك بني آدم يلتوي على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس، ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر.

لطيفة: قيل إن عبد الله بن جدعان كان في ابتداء أمره صلوكاً وكان شريراً يفتك ويقتل، وكان أبوه يعقل عنه، ففسج من ذلك وأراد قتله فخرج هارباً على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد في صدره شيئاً كهيئة الثعبان، فدنا منه وقال لعله يشب عليّ فيقتلني وأستريح. قال فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب، وعيناه ياقوتان ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة، وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم، وإذا بهم رجال من جرهم، وفي وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر، والزمرد، والذهب والفضة، واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ورجع فلم يدر مكان الشق. قال رسول الله ﷺ: «لقد كنت أستظل بجفنة عبد الله ابن جدعان من الهجير». قالت عائشة: يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئاً قال: «لا لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

### حرف الجيم

جراد: حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة، وإنما يكون هائماً هارباً، وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتخرج له فيلقي بيضه فيها، وله ستة أرجل وأطراف أرجله كالمشمار، وهو ألوان عديدة، وفيه خلقة عشرة من الجبابرة، وجه فرس، وعينا فيل، وعنق ثور، وقرنا أيل، وصدر أسد، ويطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذا جمل، ورجلا نعام، وذنب حية، وهو من الحيوان الذي يقاد إلى رئيسه كالعسكز، إذا طعن أميره تتابع خلفه وفي الحديث: أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر، ولنا تسعة وتسعون بيضة. ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها. فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أهلك الجراد اللهم أقتل كبارها، وأمت صغارها، وأفسد بيضها، وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معاشهم إنك سميع الدعاء». قال: فجاء جبريل فقال إنه قد استجيب لك في بعضها، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق ألف أمة، ستمائة منها في البحر، وأربعمائة في البر، وأن أول هلاك هذه الأمة الجراد، فإذا هلك الجراد تابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه» قيل: كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد، وقلوب الشجر، وكان يقول: من

(١) اللقوة: داء في الوجه.

لنعم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول.  
جرو: بكسر الجيم وفتحها وضمها، وهو الصغير من أولاد الكلاب والسياب، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب.  
وسيه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه، فتأخر. قال فلقه النبي ﷺ بعد ذلك فقال ما أخرك عن وعدك؟ فقال ما  
تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة، ولا كلب فأمر بقتلها. وروى مسلم والطيبراني عن خولة بزيادة ولفظها، أن  
جرواً دخل تحت سرير في بيته ﷺ فمكث النبي ﷺ أياماً لا يأتيه الوحي قال لعله حدث في البيت شيء،  
فخرج للمسجد فترز عليه الوحي، قالت خولة: فقممت<sup>(١)</sup> البيت فوجدت الكلب تحت السرير.

هجبية: حكى أن رجلاً لم يولد له ولد، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك وقالت:  
يؤاخذك الله بذلك. فقال: لو أخذ لفضل في يوم كذا، وصار يعدد أفعاله لها. فقالت له: إن صاعك لم يمتلىء، ولو  
امتلاً آخذك. قال فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلها وطردهم الجرو.  
قال فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال: ألهما لعبة كانا يلعبان بها؟ قال جرو كلب.  
قال اتيتي به فاتاه به فجعل خاتمة بين عينيه ثم قال اذهب خلفه فأبي بيت دخله ادخل معه فإن ولدك فيه. قال فجعل  
الجرو يجوز الدروب، والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما، وهو قائم  
يحضر لهما مكاناً يدفنها فيه، فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه، فلما رأته زوجته على الخشبة قالت: ألم أحذرك  
هذا اليوم، وتقول ما تقول! الآن امتلاً صاعك. وسياطي الكلام على الكلب في حرف الكاف إن شاء الله تعالى.

جعل: دوية معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق يعرض البهائم في وجهها فتهرب منه وهو أكبر من الخنفساء  
شديد السواد، في بطنه لون حمرة، للذكر قرنان، يوجد كثيراً في مراح<sup>(٢)</sup> البقر والجاموس، قيل أنه يتولد، من  
أخاثئها<sup>(٣)</sup> ومن شأنه جمع الروث وادخاره، ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات، ويعيش بعوده للروث، وله  
جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار، وله ستة أرجل وسنام مرتفع جداً، وهو يمشي القهقري، ومن طبعه أنه يحرس  
النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجيعة، وذلك من شدة شهوته للغائط.

### حرف الحاء

حجل: طير فوق الحمامة أغبر اللون، أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر، وهو صفان نجدية، وتهامي،  
النجدية أغبر، والتهامي أبيض وله شدة في الطيران. وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب. وله شدة شبق وأفراخه  
تخرج من البيض كاسية، ويعمر في الغالب عشرين سنة وإذا قوي على غيره أخذ بيضه فحضنه، ومن سر الله تعالى إذا  
أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التي باضته، ومن طبعه أنه يخدع غيره في فرقرته. ولذلك يتخذ الصيادون في  
أشراكهم.

غريبة: قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمي الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين فلما رأهما  
ضحك فقال مم تضحك؟ قال: كنت أقطع الطريق في عقوان شبابي فمر بي تاجر فأخذته، فلما أردت قتله تضرع إلي

(١) قممت: نظفته من القمامة.

(٢) مراح: حظيرة.

(٣) أخاثئها: الأدران.

فلم أقله، فلما علم أنه لا بد لي من قتله التفت يمينا وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقرينا فقال: أشهد لي أنه قاتلي ظلماً، فقتلته، فلما رأيت الحجلتين تذكرت حمقه في استشهاده بهما، فقال أبو نصر: والله لقد شهدا عليك عند من أقادك بالرجل، ثم أمر به فضربت عنقه.

الخواص: لحمها جيد معتدل الهضم، ومرارتها تنفع الغشاوة في العين وإذا سعط بها إنسان في كل شهر مرة جاد ذهنه، وقل نسيانه، وقوي بصره.

حداة: بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة، أحسن الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثاً وتحضن عشرين يوماً، ومن ألوانها الأسود والرمادي، وهي لا تصيد إلاً خطفاً وفي طبعها أنها تقف في الطيران، وهي أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل كل أفراخ جاراها. ويقال إنها طرشاء وفي طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء، وهي ستة ذكر، وستة أنثى كالأرنب.

هجيية: روى الحافظ النسفي في فضائل الأعمال أن عاصم بن أبي النجود شيخ القراء في زمانه قال: أصابني خصاصة. فجئت إلى بعض إخواني فأخبرته بأمرى فرأيت في وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسي على الأرض وقلت: يا مسبب الأسباب، يا فاتح الأبواب، يا سامع الأصوات، يا مجيب الدعوات، يا قاضي الحاجات، اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عن سواك. فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعة بقربي فإذا بحداة قد طرحت كيساً أحمر فقممت فأخذته فإذا فيه ثمانون ديناراً، وجوهرة ملفوفة في قطن، قال: فاتجرت بذلك واشترت لي عقاراً وتزوجت.

الخواص: مرارتها تجفف في الظل، وتنفع في إناء زجاج فمن لسع وقطر منها في ذلك الموضع واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبراته، ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس، وإذا وضع في بيت لم تدخله حية ولا عقرب.

حرباء: دوية صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس الحجل، إذا رأت الإنسان انتضت وكبرت، ولها أربعة أرجل وسنام كهية الجمل، ولها كنى كثيرة منها أم قره، ويقال لها جمل اليهود وهي أبداً تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت في كسبها ومعاشها، ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوي في حلقها فلذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلمه. والأنثى من هذا النوع تسمى أم حيين، ويقال إن الصبيان ينادونها: أم حيين انشري برديك، إن الأمير ناظر إليك، وضارب بسوطه جنيك. فإذا زادوا عليها نشرت جناحها وانتصبت على رجلها، فإذا زادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة. وإذا مشت تطايط برأسها وتلون ألواناً ولذا يقال يتلون كالحرباء.

حمار أهلي: معروف ليس في الحيوان من يتزو<sup>(١)</sup> على غير جنسه إلا هو والفرس ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً، وكنيته أبو محمود، وأبو جحش وغير ذلك، وهو أنواع فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة، ومنه ما هو بضد ذلك ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق.

(١) يتزو: يذب ويجامع.

لطيفة: في الحديث عن النبي ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فكلمه فقال ما اسمك؟ فقال يزيد بن شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدي ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبي، ولم يبق من الأنبياء غيرك، وكنت أتوقعت لتركبي، وأنا عند يهودي يجيع بطني، ويضرب ظهري، وكنت أعره به عمداً فسماه النبي ﷺ يعفوراً وقال له: أتشتهي الإناث قال لا وكان ﷺ يركبه في حوائجه، وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضي حاجته، فلما توفي النبي ذهب إلى بئر كانت لأبي الهيثم فتردى<sup>(١)</sup> فيها جزعاً على النبي ﷺ فكانت قبره. وقيل هذا الحديث منكر، وقد ذكره السهيلي في التعريف والإعلام، وللناس في ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض، فمن مدحه أن أبا صفوان وجد ركباً على حمار فقيل له في ذلك. فقال: غير هنيء من نسل الأكراد، يحمل الرجل ويبلغ العقبة، ويمعني أن أكون جباراً في الأرض. وقال آخر هو أقل الدواب مؤنة، وأكثرها معونة، وأخفها مهوى، وأقربها مرتعاً وكان حمار أبي يسارة مثلاً في الصحة والقوة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة. وكان خالد بن صفوان، والفضل بن عيسى الرقاشي يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة. ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال لا نركب الحمار فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك، وإن كان بليداً أتعب رجلك. وقيل ما ينبغي لمركب الدجال أن يكون مركباً للرجال. وقال أعرابي: الحمار بشس المطية إن أوقفته أدلى، وإن تركته ولى، كثير الروث، قليل الغوث، سريع إلى الفرارة بطيء في الغارة لا توفى به الدماء، ولا تمهر<sup>(٢)</sup> به النساء ولا يحلب في الإناء. قال الزمخشري:

إن الحمارَ وَمَنْ فَوْقَهُ حماران شَرُهُمَا الرَّاكِبُ

ومن العرب من لا يركبه أبداً ولو بلغت به الحاجة والجهد. قيل: كان لرجل بالبادية حمار، وكلب، وديك. فالديك يوقفه للصلاة، والكلب يحرسه إذا نام، والحمار يحمل أثاثه إذا رحل. قال فجاء الثعلب فأكل الديك. فقال عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عسى أن يكون خيراً، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال عسى أن يكون خيراً. قال ثم إن جيرانه من الحي أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلثت فليل له إنما أخذوا بأصوات دوابهم. إنما كانت الخيرة في هلاك ما عندي فمن عرف لطف الله رضي بفعله.

حمام: هو أنواع كثيرة والكلام في الذي ألف البيوت وهو قسمان: أحدهما بري، وهو الذي يوجد في القرى والآخر أهلي. وهو أنواع وأشكال فمنه الرواعب، والمرايش، والشداد، والغلاب، والمنسوب، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان في مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار ومنه من يقطع عشرة فراسخ في يوم واحد، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين. وهو على ثبات عقله، وقوة حفظه، حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه، وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين أشد من غيره وهو أطير منه، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد، والشاة إذا رأت الذئب، والقار إذا رأى الهر، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما، ويحب الملاعبة والتقيل ويسفد لتمام أربعة أشهر، ويحمل أربعة عشر يوماً، ويبيض بيضتين، ويحضن

(١) تردى: وقع.

(٢) لا تمهر: لا يتخذ مهراً.

عشرين يوماً، ويخرج من إحدى البيضتين ذكر، والأخرى أنثى واتخاذها في البيوت لا بأس به غير أنه لا يجوز تطهيرها والإشتغال بها، والإرتقاء بها على الأسطحة، وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام: «شيطان يتبع شيطانة حين رأى شخصاً يتبع حمامة» فإن لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها. قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا الحمام في بيوتكم فإنها تلهي الجن عن صبيانكم» واللعب بها من عمل قوم لوط. وقال النخعي: من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شيء أبله من الحمام فإنه تؤخذ أفراخه فتذبح في مكان، ثم يعود في ذلك المكان ويبض فيه ويفرخ. وقال الجاحظ: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تباع بخمسائة دينار، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره، وهو الهادر الذي جاوز الغاية. قالوا: ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة. ولو حدث أن بردوناً أو فرساً بيع بخمسائة دينار لكان ذلك سمراً، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير، والفرخ بعشرين. فمن كان له زوج منه قام في الغلة مقام ضيعة، وأصحابه يبنون من أمانه الدور والحوانيت، وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق.

الخواص: دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة ويقطع الرعاف، ويبرء حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وزيل الأحمر ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صيني نفع من الحصة.

### حرف الخاء

الخطاف: أنواع كثيرة فمنه نوع دون المصفور رمادي اللون يسكن ساحل البحر، ومنه ما لونه أخضر، وتسميه أهل مصر الخطار، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال، ونوع أصفر، يألف المساجد يسميه الناس السنونو، وزعم بعضهم أنه الطير الأبايل، ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة فخلق الله له هذا الطير يؤنسه فلاجل ذلك لا تجدهما تفارق البيوت، وهي تبني بيتها في أعلى مكان بالبيت، وتحكم بنيانه وتطينه فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت في التراب والماء وأتت فطيته، وهي لا تزيل داخله بل على حافته أو خارجاً عنه، وعنده ورج كثير لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها في أقواتهم ولا يلتصق منهم شيئاً ولقد أحسن واصفه حيث يقول:

كُنْ زَاهِداً فِيمَا حَوَتْهُ يَدُ السُّورِي      تَبْقَى إِلَى كَلِّ الْأَنْامِ حَيِّيا  
وَأَنْظُرْ إِلَى الْخَطَافِ حَرَمَ زَادُهُمْ      أَضْحَى مَقِيماً فِي الْبُيُوتِ رِيِّيا

ومن شأنه أن لا يفرخ في عشّ عتيق، بل يجدد له عشاً، وأصحاب اليرقان<sup>(١)</sup> يلطخون أفراخه بالزعفران فيذهب فيأتي بحجر اليرقان ويلقيه في عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده، وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس، فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله، ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد، وإذا عمي ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتمرغ فيها فيفبق من غشوته ويفتح عينه.

لطيفة: قيل إن خطافاً وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة وراودها عن نفسها فامتعت. فقال لها تمنعين

(١) اليرقان: الديدان.

مني ولو شئت قلبت هذه القبة. قال فسمع سليمان فدعاه وقال ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا نبي إن العشاق لا يؤخذون بأقوالهم.

الخواص: مرارته تسود الشعر ولحمه يورث السهر، وقلبه يهيج الباه، إذا أكل جافاً، ودمه يسكن الصداع.

خفاش: طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب. وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً، ولا في ضوء القمر وقوته البعوض، وهذا الوقت الذي يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه فيأكله الخفاش فيتسلط طالب رزق، على طالب رزق، وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة، وهو يعمر مثل النسر وتعاديه الطيور فتقتله لأنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى، فهي تكرهه لأنه مبين لخلقها، ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل إنه يرضعه وهو طائر.

خنزير: حيوان معروف وله كنى كثيرة منها أبو جهم، وأبو زرعة، وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسيب<sup>(١)</sup> لأنه ذو ناب ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل إنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل فيتوهم الرائي أنه حيوان بستة أرجل وليس كذلك، والذكر منها يطرد الذكر مثله، فمن غلب استقل بالتزو على الأنثى وتحرك أذنانها في زمن هيجانها وتطأ رأسها، وتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولدأ، ويتزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر، وقيل أربعة باختلاف البلاد، وقيل ثمانية وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل، وهذا الجنس أسفد الحيوان، والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فيقطع ما لاقاه، وإذا التقى ناباه من الطول مات، لأنهما حيثئذ يمنعانه من الأكل، ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها، وإذا عضّ كلباً سقط شعره، وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهر حمار وبان الحمار وهو على ظهره مات، ولا يسلم جلدته إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا.

خنفساء: دوية تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة، وكنيتها أم فسو، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة.

فائلة: قيل إن رجلاً رأى خنفساء فقال ما يصنع الله بهذه. فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها فينما هو ذات يوم وإذا بطرقي<sup>(٢)</sup> يقول من به وجع كذا، إلى أن قال من به قرحة، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به قال اتوني بخنفساء فضحك منه الحاضرون فقال اتوه بالذي يطلب فأثوه بها فأخذها فأحرقها وأخذ رماها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى، وأن في أخس المخلوقات أهم الأدوية، فسبحان القادر على كل شيء.

الخواص: إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر في ذلك البرج، والاكتمال بما في جوفها من الرطوبة يحد البصر، ويجلو الغشاوة واليباض، وإذا بخر المكان بورق اللب هربت منه الخنافس على ما ذكر.

(١) السبع: الوحوش.

(٢) طرقي: سوقي.



خيل: جماعة الأفراس، وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها وهي من الحيوان المشرف ولقد مدحها الله تعالى ووصى بها النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة» وقال: «عليكم بإنات الخيل فإن ظهورها عز ويطونها كثر»<sup>(١)</sup>. وروي عن ابن عباس أو علي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب. وقال إني خالق منك خلقاً فاجتمعني فاجتمعت، فأتى جبريل فأخذ منها قبضة فخلق الله منها فرساً كميثاً، وقال خلقتك عربياً، وفضلتك على سائر البهائم فالرزق بناصيتك، والغنائم تقاد على ظهرك، ويصهليك أروهب المشركين وأعز المؤمنين ثم وسمه بفرقة وتحجيل»<sup>(٢)</sup>، فلما خلق الله تعالى آدم قال له: يا آدم اختر أي الدابتين الفرس أو البراق، فقال الفرس يا رب، فقال الله تعالى: اخترت عرك وعز أولادك. وفي الحديث «ما من فرس إلا ويقول في كل يوم اللهم من جعلتني له فاجعلني أحب أهله إليه» وقيل الخيل ثلاثة: فرس للرحمن وهي المغزوة عليها، وفرس لك وهي التي تسابق عليها، وفرس للشيطان وهي التي جمعت للخيلاء. وفي الحديث: «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا في مسابقة الخيل، وملاعبة الرجل أهله» ولقد سابق النبي ﷺ على الخيل، وقيل إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى. ولا يرد علينا ركوب جبريل في قصة موسى وفرعون الأنثى، لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعها أحصتهم فأغرقوا، لأن الحصان إذا رأى الحجرة<sup>(٣)</sup> تبعها. وقيل إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبه وهم خلفه فأعمى أعينهم عن الماء فكانوا يرون بلقماً، والخيل تراه ماء فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم، وهي أصناف: منها الصافنات وهي التي إذا ربطت في مكان وقفت على إحدى رجليها، وقلبت بعض الأخرى في الوقوف، وقيل غير ذلك، وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام فعرضها يوماً ففاته الصلاة. قيل صلاة العصر، فأمر بقرها فعوضه الله عنها الريح فكانت فرسه، وقيل إنما عقرها على وجه القرمي كالهندي، وقيل إن الفرس لا يحب الماء الصافي ولا يضرب فيه يده، كما يضرب بها في الماء الكدر فرحاً به، فإنه يرى شخصه في الماء الصافي فيفرعه، ولا يراه في الماء الكدر، وقد قيل في الحث على حب الخيل:

أحبوا الخيلَ واصطبروا عليها	فإن العزَّ فيها والجمالا
إذا ما الخيلُ ضيَّعها أناسٌ	ربطناها فأشركت العيالا
تُقاسمُها المعيشة كلَّ يوم	وتكسبنا الأباعرَ والجمالا

#### حرف الدال

دابة: اسم لكل ما دب على الأرض، وأما التي ذكرها الله تعالى في سورة سبأ، فقيل الأرضة، وقيل السوسة، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه، ودخل فيه وأراد أن يصفو له يوم واحد من دهره، فدخل عليه شاب. فقال له: كيف دخلت من غير استئذان فقال أذن لي رب البيت، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه، فقال سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء، فقال: طلبت ما لم يخلق، قال وكان قد بقي من بناء المسجد الأقصى بقية، فقال يا أخي يا عزرائيل أمهلني حتى

(١) أي ما تلده.

(٢) تحجيل: بياض في قوائمها.

(٣) الحجرة: أنثى الخيل.

يفرغ. قال: ليس في أمر ربي مهلة قال فقبض روحه وكان من عادته الانقطاع في التعبد شهرين وثلاثة، ثم يأتي فينظر ما صنعت الجن، فلما قبض كان متوكئاً على عصاه، واستمر ذلك مدة والجن تتوهم أنه مشرف عليها فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام، حتى أراد الله ما أراد فسلط على العصا الأرضة فأكلتها فخر ميتاً ففرقت الجن عنه. وقيل إن واحداً منهم مر عليه فسلم فلم يجبه فدنا منه فلم يجد له نفساً، فحركه فسقطت العصا فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، والعصا التي اتكأ عليها من خرنوب. قال الله تعالى: ﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾<sup>(١)</sup> قال فشكرت الجن الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت. وأما الدابة التي من أشراط الساعة فاختلف في أمرها فقليل تخرج من الصفا وهو الصحيح، وقيل من الطائف، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم، وهي مختلفة الألوان وذلك في ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائر إلى منى، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، تلتحق المؤمن فتضربه بالعصا فتكتب في وجهه مؤمن، وتلدرك الكافر فتسمه بالخاتم، وتكتب في وجهه كافر، وروي أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقل الخير.

داجن: هو ما يربيه الناس في البيوت من صفار الغنم، والحمام، والدجاج، وغير ذلك وفي حديث الإفك «ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن، تعجن وتنام فتأتي الداجن فتأكل والمعجن».

دب: من السباع وكنيته أبو جهينة، وأبو جهل، وغير ذلك ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء، وإذا جاع يمص يديه ورجليه فيندفع جوعه، وهو كثير الشبق وينعزل بأثائه وتضع جرواً واحداً وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفاً عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم ثم لا تزال تلحسه وترفعه في الهواء أياماً حتى تفرج أعضاؤه وتخشن، ويصير له جلد. في ولادتها صعوبة وربما ماتت منها، وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد، وهي من الحيوان الذي يدعو الإنسان للفعل به، وقيل إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ثم يصعد فيرمي بالجوز إليها إلى أن تشبع، وربما قطع من الشجرة الغصن العتل الضخم الذي لا يقطع إلا بالفأس والجهد ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحداً إلا قتله.

دجاجة: وكنيتها أم ناصر الدين، وأم الوليد، وغير ذلك وإذا هربت لم يبق ليضها مح وتوصف بقلة النوم، وقيل إن نومها بقدر ما تنفس وعندها خوف في الليل ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً، وتخشى الثعلب، قيل إنها إذا رأت ألفت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع وقيل يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره فإن تحرك فذكر، وإلا فأنثى: ومن الدجاج ما يبيض في اليوم مرتين وهو من أسباب موتها، ويستكمل خلق البيضة في بطن الدجاجة في عشرة أيام، وفي الحديث أن النبي ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء، وابتخاذ الدجاج للفقراء. ومن المعجب في صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض، وجعل الصفار غذاء له، كما خلق الطفل من المنى، وجعل دم الحيض غذاء له فبارك الله أحسن الخالقين.

الخواص: لحم الدجاج الفتى يزيد في العقل، ويصفي اللون ويزيد في المنى ويقم الباه، والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ما ذكر.

دج: طيز كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيراً، وبالقرب من الإسكندرية، والناس يصطادونه ويأكلون.

دود: اسم جنس ومنه دود القز ويقال لها الهندية. ومن عجيب أمرها أنها تكون أولاً مثل بزر التين، ثم تصير دوداً وذلك في أوائل فصل الربيع، ويكون عند خروجه مثل الذر في قدره ولونه ويخرج في الأماكن الدافئة، إذا كان مصوراً في حق، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصبرته فيخرج وغذاؤه ورق التوت الأبيض. قال ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع، ويستقل من السواد إلى البياض، وكل ذلك في مدة سنتين يوماً. قال: ثم يأخذ في النسيج بما يخرج من فيه إلى أن ينفد ما في جوفه، ثم يخرج شيئاً كهية الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وعند خروجه يهيج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتصمان مدة ثم يفترقان ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينثران البزر عليها ثم يموتان: هذا إذا أريد منهما البزر، وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراغهما من النسيج فيموت، وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والمطاس، ومن المرأة الحائض، والرجل الجنب، ورائحة الدخان، والحر الشديد، والبرد الشديد، ونحو ذلك. قال أبو الفتح البستي:

الم تر أن المرأة طولَ حياتِهِ      معنيّ بأمرٍ لا يزالُ يعالجه  
كذلك دودُ القزِ ينسجُ دائماً      ويهلكُ غمّاً وسطَ ما هو ناسجه

وقال آخر:

يُفني الحريمُ بجمع المالِ مدتهُ      وللحوداثِ ما يقي وما يدعُ  
كدودةِ القزِ ما تبيه يهلكها      وغيرها بالذي تبيه يتنعُ

ديك: وكنيته أبو حسان، وأبو حماد، وغير ذلك. ويسمى الأنيس والمؤانس، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدي إلى الرجوع إليه، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر: منها أنه يساوي بين أزواجه في الطعمة، ويذكر الله تعالى في الليل حتى قيل إنه ليوقته، ويقسمه، وربما لا يخرم في توقيته. وفي الحديث «إذا سمعتم صياح الديك فاذكروا الله تعالى فإنه يصبح بصياح ديك العرش». وروى الغزالي عن ميمون بن مهران: إن الله ملكاً تحت العرش على صورة الديك. فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحه وقال ليقم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحه وقال ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إن لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد، والياقوت، واللؤلؤ، جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش، وقواتمه في الهواء فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحه وقال: سبحان الملك القدوس، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحه وقال: قدوس قدوس، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحه وقال: ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو». وروى الثعلبي بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار». وفي الحديث: «لا تسبوا الديك فإنه يؤقت للصلاة».

وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب في أهله وماله.

نادرة: قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك، وكان كريماً عليه، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحى عليه فأمر امرأته بنذبه واتخاذ طعام منه، وخرج إلى المصلى فأرادت المرأة أن تسكه فز فتبعته فصار يخترق من سطح إلى سطح وهي تتبعه، فسألها جيرانها وهم قوم هاشميون عن موجب ذبحه فذكرت لهم حال زوجها. فقالوا: ما نرضى أن يبلغ

الإضطراب بأبي إسحاق إلى هذا القدر فأرسل إليه هذا، شاة، وهذا شاتين، وهذا بقرة، وهذا كبشاً حتى امتلأت الدار فلما جاء رأى ذلك قال ما هذا؟ فقصت عليه زوجته القصة، فقال: إن هذا الديك الكريم على الله فإن إسماعيل نبي الله قدي بكبش واحد وهذا قدي بما أرى.

### حرف الذال

ذباب: وكنيته أبو جعفر، وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أنه يلقي رجبه على الأبيض يسود، وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء. وفي الحديث «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه فإن في أحد جناحيه دواء وفي الآخرة داء»، وإن من طبعه أن يلقي نفسه بالجناح الذي فيه الداء.

وحكي أن المنصور كان جالساً فألح عليه الذباب حتى أضجره. فقال انظروا من بالباب من العلماء؟ فقالوا مقاتل بن سليمان فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لأي حكمة خلق الله الذباب؟ قال ليدلّ به الجبابة. قال صدقت ثم أجازته. ومن خصائص النبي ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط. وقال المأمون: قال إن الذباب إذا ذلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه، فلسعني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم، فقالوا هذا كان حقاً<sup>(١)</sup> قاضياً، ولولا هذا العلاج لقتلك. وقال الجاحظ: من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن مات يكون. وقيل: إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس، وقيل إن الذباب إذا ما وألقي عليه برادة الحديد عاش، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب.

ذئب: حيوان معروف وكنيته أبو جعدة، وأبو جاعد، وأبو ثمامة، لونه رمادي، وهو من الحيوان الذي ينام بإحدى عينيه ويحرس بالآخرى حتى تملّ فيغمضها ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه:

ينام بإحدى مقلتيه ويتشهي بأخرى المنايا فهو يقظانٌ هاجع<sup>(٢)</sup>

وإذا أراد السفاد اختفى ويطول في سفاده كالكلب، وإذا جاع عوى فتجتمع الذئاب حوله، فمن هرب منها أكلوه، وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه، وليس في الأرض أسد يعضّ على عظم إلا ويسمع لتكسيه صوت بين لحيه إلا الذئب، فإن لسانه ييري العظم بري السيف ولا يسمع له صوت. وقيل: إذا أدماه الإنسان فشمّ الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه، وإن كان أشدّ الناس قلباً وأتمهم سلاحاً، كما أن الحية إذا خدشت طلبها النرّ، فلا تكاد تنجو منه، وكالكلب إذا عضّ الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه فيكون في ذلك هلاكه فيحتال له بكل حيلة. قيل: ولا يعرف الالتحام عند السفاد إلا في الكلب والذئب، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلها كيف شاء والله أعلم.

### حرف الراء

رخ: طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين. قال أبو حامد الأندلسي: ذكر لي بعض المسافرين في البحر أنهم أرسوا بجزيرة، فلما أصبحوا وجدوا في طرفها لمعاناً وبريقاً فتقدموا إليه وإذا هم بشيء مثل القبة قال فجعلوا يضربون

(١) الحظف: الهلال.

(٢) هاجع: نائم.

فيه بالفؤوس إلى أن كسروه فوجدوه كهيئة البيضة وفيه فرخ عظيم قال فتعلقوا بريشة وجزوه ونصبوا القدور وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له حطب الشباب، فلما أكلوا ذلك الطعام أسودت لحية ولمة كل ذي شيب، قال فلما أصبحوا جاءهم الرخ فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا، فذهب وأتى في رجله بحجر عظيم وتبعهم بعد ما ساروا في البحر وألقاه على سفيتهم فسبقت السفينة وكانت مشرعة بتسع قلوب<sup>(١)</sup> ووقع الحجر في البحر فنجاهم الله تعالى منه، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم، وقال وقد كان بقي معهم أصل ريشة، قيل إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قرية، فسبحان الخالق الأكبر.

رخم: طير أصفر المنقار معروف وهو من أشرف الطيور، ويقال إنها صماء وسبب ذلك ما قيل في بعض الحكايات أن موسى عليه الصلاة والسلام لما توفي تكلمت بوفاته وكانت تعرف مكانه فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه.

### حرف الزاي

زرافة: حيوان غريب الخلقة، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجلها، وهي ألوان عجيبة يقال إنها متولدة من ثلاث حيوانات: الناقة الوحشية، البقرة الوحشية، والضبع فيتزو الضبع على الناقة، فتأتي بذكر فيتزو ذلك الذكر على البقرة فتولد منه الزرافة والصحيح أنها خلقة بذاتها، وذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة.

زنبور: حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة في بنيانه يته، وذلك أنه يبنيه مربعاً له أربعة أبواب، كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربعة، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض، ويبقى إلى أيام الربيع فيفتح الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطيير، وفي طبعه التهافت على الدم واللحم، ومن خاصيته أنه إذا وضع في الزيت مات، وفي الخل، عاش، ولسعته تزال بعصارة الملوخية.

### حرف السين

سعللة: نوع من المتشيطنة. قال السهيلي: هو حيوان يترامى للناس بالنهار، ويقول بالليل وأكثر ما يوجد بالغياض، وإذا انفردت السعللة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر، قال وربما صادها الذئب وأكلها، وهي حينئذ ترفع صوتها وتقول: أدركوني فقد أخذني الذئب، وربما قالت من يتقذني منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلا يلتفتون إلى كلامها.

سمندل: حيوان يوجد بأرض الصين، ومن عجب أمره أنه يبيض في النار ويفرخ فيها ويؤخذ وبره فينسج ويجعل منه المناشف، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت في النار فتأكل النار وسخها ولا تحرقها.

حكى أن شخصاً بلّ واحدة من هذه المناشف بالزيت، وجعلت في النار وأوقدت ساعة ولم تحترق.

سنجاب: حيوان كهيئة الفأر يوجد في بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه، وشعره كشعر

الفأر، وهو ناعم فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً يلبس، وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق.

سنور: حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات، كناه وأسماءه كثيرة.

حكى أن إعرابياً صاد سنوراً فرآه شخص. فقال ما تصنع بهذا القط؟ ولقيه آخر فقال ما تصنع بهذا الخيدع؟ ولقيه آخر فقال ما تصنع بهذا الخيطل؟ ولقي آخر فقال ما تصنع بهذا الهر؟ قال أبيع. قال له بكم قال بمائة درهم فقال إنه يساوي نصف درهم. قال فرمى به وقال لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته، وهذا الحيوان يهيج في زمان الشتاء في شهرين منه. وتراهن يترددن صارخات في طلب السفاد، فكم من حرة خجلت، وذئب غيرة، هاجت حميته، وعزب تحركت شهوته. وطيب فم السنور كطيب فم الكلب في النكهة، وقيل إن الهرة تحمل خمسين يوماً وهو يجمع بين العض بالناب والخمش بالمخلاب وليس كل سبع كذلك، وهو يناسب الإنسان في بعض الأحوال فيعطس ويتمطى، ويغسل وجهه بلعابه ويلطخ وير ولده بلعابه حتى يصير كأن الدهن يسري في جلده. وقيل إذا بال الهر شم بوله ودفنه، قيل لأجل الفأر فإذا شمه علم أن هناك هراً فلم يخرج، وأما سنور الزباد<sup>(١)</sup> فهو بأرض الهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذه.

سوس: هو دود الحبوب والفاكهة، ومن الفوائد التي تكتب في الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا كلٌّ مَنْ لا يقتدي بأئمةٍ      فقسّمته ضيزي<sup>(٢)</sup> عن الحقّ خارجة  
فأخذهم عبيد الله عروة قاسم      سعيد أبو بكر سليمان خارجة

#### حرف الشين

شاهوار: حيوان يوجد بأرض الترك يقال إن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن وأخرى تورث الفرح والضحك وأنه أهدي إلى بعض الملوك شيء من شعبها... فرأى فيه ذلك. ويقال إن من الحيوان شيئاً يوجد بالغياض في قسبة أنه اثنا عشر ثقباً، إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار، فتأبى الحيوانات لتسمعه فتدهش فيغفل بعضها من الطرب فيشب عليه فيأخذه ويأكله وهي تعلم ذلك منه وتحترز، فإذا لم يمسك بها شيئاً ضاق خلقه، وصاح بها صيحة فتهرب وتركه.

شاهين: طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة، واسع العينين ومزاجه أيسر من مزاج الصقر، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى ولذلك ينقض على الطير بشدة وربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة فيموت، وقيل أول من صاده قسطنطين، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق في بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه وسار. قال فطار واحد منها وانقضّ على صيد فأخذه فأعجب الملك ذلك وصار يصيد به.

شحرور: طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات عجيبة مطربة.

(١) الزباد: قط يستخرج منه طيب.

(٢) ضيزي: غير عادلة.

## حرف الصاد

صرد: حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أزل طير صام يوم عاشوراء.  
صعو: طير من صغار العصفائر أحمر الرأس.

## حرف الضاد

ضأن: نوع من الحيوانات ذوات الأربع وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين، وفيها البركة وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة، وليس فيها بركة، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه وذلك لبركتها بخلاف غيرها من ذوات الأربع، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت اللب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع. قال بعض القصاص: مما أكرم الله تعالى به الكباش أن خلقه مستور العورة من قبل، ومن دبر ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك السر مكشوف العورة من قبل ومن دبر، ويقال الضأن من دواب الجنة وهي صفوة الله من البهائم. ويقال في المدح وهو كبش من الكباش، وفي الدم هو تيس من التيوس. وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال:

تقولُ لي الإخوانُ حينَ طبختها      أتطبِخُ شطرنجاً عظاماً بلا لحم

ومن العجب أن يأتي غنم من الهند، للكباش منها ألية<sup>(١)</sup> في صدره، وآليات في كفيه، وآلية على ذنبه وربما تكبر آلية الضأن حتى تمنعه من المشي، ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافتت وقت المطر لا تحمل وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً، أو جنوبية أنثى والله أعلم.

ومن خواصها: أن لحمها ينعق للسوداء ويزيد في المنى والباء، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع جلها، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه، وإذا دفن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر، والله أعلم.

ضب: حيوان جعل حجره في الأرض الصلدة وعنده بلد فرما لا يهتدي لحجره إذا خرج منه، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية<sup>(٢)</sup>، أو إشارة وهو من الحيوان الذي يعمر، قيل إنه يعيش سبعمائة سنة ومن طبعه أنه يصبر على الماء. يقال إنه لا يشرب فإنه يبول في كل أربعين يوماً قطرة، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر وتجعلها في الأرض وتتعاهدا في كل يوم إلى أربعين يوماً فيخرج ويبيضها قدر بيض الحمام، وهذا الحيوان شديد الخوف من آدمي، ولذلك يجعل العقارب في حجره حتى يمتنع بها، ويخرج من حجره كليل البصر فيستقبل الشمس فيحصل له بذلك حدة في بصره وإذا عطش تشقق النسيم فيروى، وبينه وبين الأفاعي مناسبة وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء.

فائلة: قيل إن أعرابياً أتى النبي ﷺ وفي كفه ضب قد صاده وقال لولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك وسررت الناس بقتلك. فقال عمر: دعني يا رسول الله أقتله فقال عليه الصلاة والسلام: «مهلاً يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً»، قال: ثم أقبل الأعرابي على النبي ﷺ وقال: والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب، وأخرجه من كفه، قال: فعند ذلك قال النبي ﷺ يا ضب فأجابته بلسان فصيح ليك وسعديك يا رسول الله رب

(١) آلية: كتلة دهنية تتوضع في مؤخرته.

(٢) كودية: قلة تربية.

العالمين. فقال: مَنْ تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عذابه. فقال: مَنْ أنا يا ضب؟ قال: رسول رب العالمين قد أفلح مَنْ صدّقك وقد خاب مَنْ كذّبك. قال: قال الأعرابي عند ذلك: يا ويلاه ضب اصطدته بيدي من البرية يشهد لك بالرسالة، أنا أولى منه بذلك؛ هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقاً ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضاً مني لك، ولقد صرت الآن اذهب من عندك وما على وجه الأرض أحد أكثر محبة مني لك، ولأنت الساعة أحب إلي من أهلي وولدي وما تملك يدي فقد آمن بك شعري وبشري، وداخلي وخارجي، وسري وعلانيتي. فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين الذي يعلمو ولا يعلم عليه، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة». قال: فعلمني يا حبيبي: قال: فعلمه سورة الفاتحة، وسورة الإخلاص، وقال: مَنْ قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن. وقال: إلهنا يقبل السير، ويعفو عن الكثير، ثم سأله: ألك مال؟ فقال: يا حبيبي ليس في بني سليم أفقر مني. فقال لأصحابه: أعطوه، فأعطوه حتى أقبلوه. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله عندني ناقة عشارية أعطيتها له. فقال: إن الله يعطيك ناقة في الجنة من درة، قوائمها من الزبرجد الأخضر، وعينها من الياقوت الأحمر، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق. قال: فخرج الأعرابي من عنده فتلّقه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبي ﷺ. فأخبرهم بقصته فأسلموا عن آخرهم. وأمر النبي ﷺ خالد بن الوليد عليهم وهذه القصة ذكرها الدارقطني بتامها والبيهقي، والحاكم، وابن عدي.

الخواص: قلبه يذهب الحزن والخفقان، وشحمه يطلى به الذكر يزيد في البناء، وكعبه يشد على وجع الضرس، يبرأ وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شيء، ويعره يذهب البرص والكلف طلاء، ومن أكل لحمه لا يعطش زماناً طويلاً.

ضبع: حيوان معروف، ومن كناه أم عامر، ومن طبعه حبّ لحم الآدمي حتى قيل إنه ينش القبور، وإذا مرّ بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه ويقر بطنه وشرب دمه.

الخواص: من شرب دمه ذهب وسواسه، ومن علق عليه عينه أحبه الناس، وإذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم، فكل من كان به سحر وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره.

ضفدع: حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجري، ومن العفونات، وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء، وإذا نَقَّ جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج وفي صوته حدة. قال سفيان ليس من الحيوانات أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع. وفي الآثار أن داود عليه الصلاة والسلام قال لأسبحن الله تعالى بتسبيح ما سبحة أحد قبلي، فنادته ضفدعة: يا داود تمنّ على الله تعالى بتسبيحك؟ وأنا لي تسعون سنة ما جف لساني عن ذكر الله تعالى. قال فما تقولين في تسبيحك؟ قالت أقول: سبحان من هو مسبح بكل لسان، سبحان من هو مذكور بكل مكان، فقال داود: وما عسى أن أقول؟ وقال بعضهم: إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل والله سبحانه وتعالى أعلم.

#### حرف الطاء

طاوس: طير مليح ذو ألوان عجيبة، وعنده الزهو في نفسه، والمعجب، ومن طبعه العفة وهو من الطير كالفرس



من الحيوان، والأنتى تبيض حتى يمضي لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر، ويتم لونه. وتبيض الأنتى مرة واحدة في كل شهر، ففي السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل، أو أكثر ويسفد الذكر في أيام الربيع ويرمي ريشه في أيام الخريف كالشجر فإذا بدا طلوع الورق طلع ريشه، ومدة حضنه ثلاثون يوماً.

فائدة: قيل إن آدم لما غرس الكرمه جاء إبليس لعنه الله فذبح عليها طاوساً فشربت دمه فلما طلعت أوراقها ذبح قرداً فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه، ويميس عجباً كالطاوس، فإذا جاء مبادي السكر لعب وصفق يديه كالقرود، فإذا قوي سكره قام وعريد كهيئة الأسد، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير، ثم يطلب النوم والناس تشاهم بإقامته بالدور قيل لأنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها، والله على كل شيء قدير.

### حرف الظاء

ظبي: واحد الغزلان وهو ثلاثة أصناف: الأول الآرام وهو ظباء الرمل ولونها رمادي وهي سمينة العنق، والثاني العفر ولونه أحمر وهي قصيرة العنق، والثالث الأدم وهي طويلة العنق وتوصف بحدة البصر. وقيل إن الظبي يقضم الحنظل قضمًا ويمضغه مضغًا، وماؤه يسيل من شذقيه ويرد الماء الملح فيشرب الماء الأجاج، ويفس خراطومه فيه كما تقمس الشاة لحيها في الباء العذب، فأى شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلي مرارة الحنظل.

الخواص: لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة<sup>(١)</sup> تزول سلاطتها، ويعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي، يزيد ذكاؤه ويصير فصيحاً ذلقاً<sup>(٢)</sup> حافظاً.

ظريان: دوية فوق جرو الكلب، متنة الريح تزعم العرب أن من صاهاها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يغلي الثوب. ويحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي فتضسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه وتأكله بعد ذلك.

### حرف العين

عجل: حيوان معروف، وهو ذكر البقر وسمي بذلك لاستعجال بني إسرائيل بعبادته، والسبب في ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري في قلبه من حب عبادة البقر شيء، فابتلى الله به بني إسرائيل فقال: اتنوني بحلي قال فأتوه جميع حليهم فصنع منه عجلاً جسداً، وألقى عليه قبضة من التراب الذي كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار، كما أخبر الله تعالى، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون<sup>(٣)</sup> فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك، ويظنون أنه تكلم وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم.

(١) السليطة: كثيرة الكلام وقحة.

(٢) ذلقاً: حاذقه.

(٣) يتواجدون: يشون أحزانهم.

فائدة: نقل القرطبي عن سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمهما الله، أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان فيقرأون من القرآن، ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة، هل الحضور معهم حلال أم حرام؟ فقال: مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وستة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا العجل فهذه الحالة هي حالة عبادة العجل، وإنما كان النبي ﷺ ومع أصحابه في جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة، فيبني لولاة الأمر وفقهاء الإسلام أن يمتنعوا من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم. هذا مذهب الشافعية، وأبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى.

عقرب: هو من الحشرات. قال الجاحظ: إنها تلد من فيها مرتين، وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهيئة القمل كثير العدد، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهيئة الذر ثم يكبرون ويطوفون بالأرض ولها ثمانية أرجل، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه، والخنافس تأوي إليها وربما لسعت التين العظيم فقتلته.

غريبة: قال ذو النون المصري بينما أنا في بعض سياحتي إذ مررت بشاطئ البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطئ البحر فظنت أنه يشرب فقممت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب. قال ذو النون فاتزرت بمتزري وعمت خلفه، حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر قد أقبل عليه تين عظيم. قال فلصقت العقرب برأس التين ولسعته فقتلته، ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبير بها الماء وسار بها إلى المكان الذي جاءت منه. قال ذو النون فتعجبت وأنشدت:

يا راقداً والجيلُ يحفظه      من كل سوء يكونُ في الظلمِ  
كيفَ تنامُ العيونُ عن ملكٍ      يأتيكُ منه فوائدُ النعمِ

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك. قال فلما سمع ذلك قال أشهدك عليّ أني قد تبت عن هذه الخصلة ثم جرينا ذلك التين ورميناه في البحر ولبس ذلك الغلام مسحاً<sup>(١)</sup> وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه، وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا لم يسالمك الزمانُ فحاربِ      وباعِذْ إذا لم تتضغِ بالأقاربِ  
ولا تحترقْ كيدَ الضعيفِ فربما      تموتُ الأفاعي من سمومِ العقاربِ  
فقد هدأَ قداماً عرشَ بلقيسَ هدهدُ      وخرَّبَ فأزُّ قبلَ ذا سدِّ ماربِ  
إذا كانَ رأسُ المالِ عمركَ فاحترقْ      عليه من التضيعِ في غيرِ واجبِ  
فبينَ اختلافِ الليلِ والصبحِ معركُ      يكرُّ علينا جيئُه بالمجائبِ

فائدة: إذا لدغ أحد فاقراً عليه هذه الكلمات وهي: سلام على نوح في العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد في المرسلين من حاملات السم أجمعين، لا دابة بين السماء والأرض إلا ربي أخذ بناصيتها كذلك يجزي عباده

(١) مسحاً: لباس التشف والرهبة.

المحسنين، إن ربي على صراط مستقيم. نوح قال لكم من ذكرني لا تلذغوه، إن ربي بكل شيء عليم، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم. وقال بعض العلماء: من قال عقدت زيان<sup>(١)</sup> العقرب، ولسان الحية، ويد السارق بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أمن من العقرب، والحية، والسارق، وفي البخاري: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتي البارحة، فقال له النبي ﷺ: «أما إنك لو قلت إذا أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك» وروى الترمذي: «إن من قال حين يمسى أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات، ثم قال سلام على نوح في العالمين لم تضره الحية والعقرب» والسر في ذكر نوح دون غيره هو، أنه لما ركب في السفينة سأله الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك.

الخواص: من بخر البيت بزرنينج أحمر وشحم بقر، هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون برىء أيضاً لوقته.

عققت: طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحه أكبر من جناحي الحمامة وهو لا يأوي إلا إلى الأماكن العالية، وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب<sup>(٢)</sup> خوفاً عليه من الخفاش لا يفسده.

الخواص: دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل، والشوكة الغائبة في البدن أخرجه.

علق: دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمي، فإذا علقت بك قرشٌ عليها ماء وملحاً، وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه.

ومن خواصه: أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البقّ والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلي به مكانه منع نباته.

عقواء: اختلف فيها، فقال بعضهم هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان، وفيه من كل حيوان لون. وقال بعضهم هو طائر غريب الشكل بيض أيضاً كالجبال، ويعد في طيرانه، وسميت بذلك لأنه كان في عقوها طوق أبيض، قال القزويني: إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحدأة الفأر. وقال: وكانت في قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبي ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها، فذهب بها إلى بعض الجزائر التي خلف خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركند وغير ذلك. وقال أصحاب التواريخ: إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفي سنة ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة.

وحكى الزمخشري في ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيراً يقال له العقواء له وجه كوجه الإنسان، وأربعة أجنحة من كل جانب، وخلق له أنثى مثله، ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أني خلقتة كهية الطير، وجعلت رزقه الوحوش والطيير التي حول بيت المقدس. قال: فتناسلا وكثر نسلهما، فلما توفي موسى عليه

(١) زيان: إبرته ومكمن الحلة.

(٢) الدلب: شجر متوسط حجم الورق.

الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصيوان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العسبي فتكوهها له فدعا عليها فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت .

عنكبوت: دوية لها ثمانية أرجل وستة عيون وهو من الحيوان الذي صيده الذباب، وولده يخرج قوياً على الفسح من غير تعليم ولا تلقين، ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير ويصير عنكبوتاً وتكمل صورته .

قائلة: قيل إن امرأة ولدت جارية ثم قالت لخدام لها: اقتبس لنا ناراً، فخرج فوجد بالباب سائلاً فقال له ما ولدت سيدتك؟ فقال بتأ، فقال لا تموت حتى تبغي<sup>(١)</sup> بألف رجل ويتزوجها خادمها ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الخادم: وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل فصبر حتى قامت أمها لتقضي بعض شؤونها وعمد إلى البنت فشقّ بطنها بسكين وهرب. قال: فجاءت أمها فوجدتها على تلك الحالة فدعت بمن يعالجها حتى شفيت فلما كبرت بغت. قال: ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر فأقامت هناك تبغي. قال وأما الرجل فإنه صار من التجار وقدم بتلك المدينة ومعه مال كثير فقال لامرأة عجوز هناك: اخطي لي امرأة حسنة أتزوج بها. قال: فوصفتها له وقالت ليس هنا أحسن منها ولكنها تبغي، فقال للعجوز اتنتي بها. قال فذهبت وأخبرتها بالقصة، فقالت لها حباً وكرامة فتبي قد تبنت عن البغي، فتزوج الرجل بها وأحبها حباً شديداً وأقام معها أياماً، وكان يودّ أن يراها متجردة فلم يمكنه ذلك، حتى إذا كان في بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هي الحمام وعرضت له حاجة فرجع إلى الدار وصعد إلى قصرها فلم يرها، فسأل عنها فقيل له هي في الحمام فدخل عليها فرأها متجردة، ورأى في بطنها أثراً كالخياطة، فقال ما هذا؟ قالت له: لا أعلم إلا أن أمي أخبرتني أنه كان لنا خادم وأنه يوم ولادتي غافل أمي، وشقّ بطني بسكين وهرب، وأنها حين رأنتي كذلك دعت بعض الأطباء فحاط بطني وعالجني حتى اندمل جرحي وشفيت وبقي هذا الأثر، فقال لها: أنا ذلك الخادم وحكى لها السبب وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت، ثم إنه لعتب بأمرها وجمع مهندسي البلدة التي هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت، فقالوا كلّ بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعمته لا ينسج عليه، فأمرهم أن يصنعوا لها قصرأ من البلور وبذل لهم ما أرادوا فعملوه وفرشه، وأمرها أن تقيم فيه ولا تخرج منه خوفاً عليها من العنكبوت. قال: فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتاً قد نسج في ذلك القصر، فقام إليه فرماه وقال لها: هذا الذي يكون موتك منه. قال: فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة أهذا الذي يقتلني! فشدخته فتعلق بطرف إبهامها من مائه شيء فعمل بها حتى ورمت ساقها ثم وصل الورم إلى قلبها فقتلها فما أفاده قصره ولا صرحه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مَّشِيدَةٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

قائلة: نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع: على غار النبي ﷺ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعته النبي ﷺ لخالد الهذلي فقتله وحمل رأسه ودخل به في غار خوفاً من أهله، ونسج على عورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لما صلب عرياناً. وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه.

الخواص: نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها ويجلو الفضة إذا دلكت به والذي يوجد من نسجها في بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به.

(١) تبغي: تجامعهم بالحرام.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٧٨.

ابن عرس: حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة، وهو عدو للفأر وعنده الحيل، قيل إنه عدا خلف فأر فصعد منه على شجرة فصعد خلفه وأمر أناه أن تقف تحت الشجرة ثم قطع الغصن الذي كان عليه الفأر فسقط فأخذته أناه. ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه.

عجبية: قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده وحبسه تحت طاسة فجاء أبوه فوجده فذهب وأتى بدينار فوضعه فلم يفلته، ثم ذهب وأتى بآخر، وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنائير فلم يفلته، ثم أتى بخرقة فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله منه، فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء فأقلته له.

### حرف الغين

غراب: وكنيته أبو حاتم، وله كنى غير ذلك وهو أنواع كثيرة: منها الأكل، وغراب الزرع، والأزرق، وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه، والعرب تتفائل بصياح الغراب فتقول إذا صاح مرتين فشر، وإذا صاح ثلاثة فخير. وهو كالإنسان عند الجماع، وفي طبعه الإستار عن الناس عند مجامعته، والأثنى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً وتحضن ذلك، والأب يسعى في طعمتها إلى أن تغرخ، فإذا فرخت خرجت أفرأخها قبيحة المنظر فتفرق عنها وتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتغذى به، ثم لا تزال تتعاهدها حتى يئب لها الريش فتأنيها، ومنه قول الحريري:

يا رازق النعاب في عشه وجابِرَ العظمِ الكبيرِ المهيضِ<sup>(١)</sup>

ومن طبعه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها، ويقم<sup>(٢)</sup> من الأرض ما وجد، ويسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء فوجد في طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم. ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب إلفة، وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضره.

الخواص: إذا غمس الغراب في الخل ثم جفف وسحق ريشه وطلبي به الشعر سوّده، وإذا علق متقاره على إنسان زالت عنه العين. وزبل الغراب الأبقع ينفع الخواثيق والخنائير طلاء، وإن صرّ في خرقة على من به السعال زال.

غرغر: دجاج بني إسرائيل، يقال إن فرقة من بني إسرائيل كانت بتهمامة فطغت وبغت وتجبرت وكفرت فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة، وكلابهم الأسود، وعنبهم الأراك وجوزهم المقل، ودجاجهم الغرغر، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة وهذا مشاهد في زماننا هذا الآن على ما نقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

### حرف الفاء

فاختة: طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها وفي طبعها الأنس، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت وهي من الحيوانات الذي يعمر وقد ظهر منها ما عاش خمساً وعشرين سنة.

(١) الكبير المهيض: المكسور.

(٢) يقيم: يبحث عن القمامة.

الخواص: دهما ينفع من الآثار في العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها.

فأرة: وكنيتها أم خراب وغير ذلك وتسمى بالفويسقة، وذلك أن النبي ﷺ انبه ليلة فوجدها قد جذبت الفتيلة وأحرق طرف سجّادته فقتلها وأمر بقتلها. وهي التي قطعت جبل سفينة نوح عليه السلام وأذاها لا يكاد ينحصر، وسنه لها تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه فإذا نقص صارت تشرب بذنها فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت في فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلوها الزيت فتشربه، وربما وضعت فيه حجراً فكسرتة ويقال إنها من بقايا الممسوخين الذين كانوا يهوداً. ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة في إناء فإن لم تشربه فهي منهم.

الخواص: عينه تشد على الماشي يسهل تعبه وإذا بخر البيت يزيل الذئب أو الكلب ذهب منه الفأر.

فرس البحر: حيوان غليظ، يوجد بالنيل، أفضس الوجه، ناصيته كالفرس، ورجلاه كالبقر، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير وجلده غليظ، ووجهه أوسع من وجه الفرس، يصعد البر ويرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره.

فهد: حيوان شرس الأخلاق، قال أرسطو: هو متولد من الأسد والنمر وفي طبعه مشابهة بطبع الكلب ونومه ثقيل، وفي طبعه الحنو على أنثاه، وقيل أول من صاد به كليب بن وائل، وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني.

فيل: حيوان يوجد بأرض الهند وكنيته أبو الحجاج. والأنثى أم سيل، وهو يتزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين، وتحمل أنثاه ستين ثم تضع، ولا يقربها الذكر في مدة حملها ولا بعده بثلاث سنين ولا يلقح إلا بيلاده. وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لا يثنيان فتخاف عليه، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات فإنها تأكله وهو عند شدة غلته كالجمال، ويهيج في زمن الربيع، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه، وقيل إن ثدييه في صدره كالإنسان، وهو أضخم الحيوان وأعظمه جرماً<sup>(١)</sup>، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم، رشيق وربما مّر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لخفة همسه، واحتمال بعض جسده لبعض، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل قرناه يخرجان مستطنتين حتى يخرقان، وخرطوم الفيل أنفه ويده، وبه يتناول الطعام إلى جوفه، وبه يقاتل، وبه يصيح وصياحه ليس في مقدار جرمة، وقيل إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه، كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخره ويقوم خرطومه مقام عقه، والخرق الذي في خرطومه لا ينفذ وإنما هو وعاء إذا ملأ من طعام أو ماء أولجه في فيه لأنه قصير العنق، لا ينال ماء ولا مرعى وأهل الهند تجعله في القتال وهو أيضاً يقاتل مع جنسه فمن غلب دخلوا تحت أمره، وقيل جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنور.

حكى عن هارون مولى الأزدي أنه خبا معه هراً ومضى بسيف إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه فأدبر هارباً وكبر المسلمون وظنوا أنه هرب منه. قال أبو الشمقمق:

يا قومُ إنسي رأيتُ الفيلَ بعدكم      تبارك الله لي في رؤيةِ الفيلِ  
رأيتُ بيتاً له شيءٌ يحركه      فكلدتُ أفعلاً شيئاً في السراويلِ<sup>(٢)</sup>

(١) جرماً: جسماً.

(٢) السراويل: أي كاد يبول فيه من الخوف.

وقيل: إذا اغتم الفيل لم يكن لشواسه (ج: سائس) هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه، ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه في جهته، والآخر في يد راكبه فإذا أراد شيئاً غمز به في لحمه، وأول شيء يؤدّبون به الفيل يعلمونه السجود للملك. قيل: خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل، وأحدق به ثلاثون ألف فارس، فلما رآته الفيلة سجدت له فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيلون. وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك، ولا يعرض ذلك العرق إلا في بلادها خاصة، وأن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جواهر نابه أكرم وأثمن ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحف بن قيس على أهل الكوفة في قوله: نحن أكثر منكم عاجاً وساجاً، وديباجاً وخراجاً. وقيل إن الفيلة لا تتسافد في غير بلادها.

فائدة: من قرأ سورة الفيل ألف مرة في كل يوم، عشرة أيام متواليه ثم جلس على ماء جار وقال: اللهم أنت الحاضر المحيط بمكونات الضمائر، اللهم عزّ الظالم وقلّ الناصر، وأنت المطمع العالم، اللهم إن فلاناً ظلمي وأسأني ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكة فأهلكه، اللهم سربله سربال الهوان وقمصه قميص الردى، اللهم اقصفه ست مرات، اللهم اخفضه مرتين، فأخذهم الله واق، فإن الله بذنوبهم وما كان لهم من الله واق، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً.

الخواص: جلده إذا بخر به بيت هرب بقاءً وإذا سقي إنسان من وسخ أذنيه نام نومة طويلة، وإذا علق من نابه شيء على شجرة لم تثمر، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس.

### حرف القاف

قائم: دوية تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً وهو أبيض يقق<sup>(١)</sup> وجلده أعزّ قيمة من السنجاب. قاوند: طير يكون بساحل البحر يبيض في الرمل، ويحضن بيضه سبعة أيام ثم تخرج أفراخه بعد ذلك فيزقها بعد سبعة أيام، ويقال ما يمسك الله البحر في هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له، لأنه يقال إنه يبرّ بوالديه.

خواصه: أنه يقيم المقعد، ويحلل البلاغم المزمنة، وينفع الأمراض الباردة، وأوجاع الأعصاب. قرد: حيوان معروف وكنيته أبو خالد، وغير ذلك وهو قبيح المنظر مليح الذكاء، سريع الفهم، يتعلم الصنائع. قيل إنه أهدي للمتوكل قرد خياط، وآخر صائغ وأهل اليمن يعلمون القردة البيع والجلوس في الدكاكين حتى قيل إنه يخرز النعل، ويصّر القرطاس وهو ذو غيرة وعنده لواط حتى قيل إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة، والتفت ابن الرومي يوماً إلى أبي الحسن الأخفش وهو يحاكي مشية القرد فقال:

هنيئاً يا أبا الحسن المفلدى      بلغت من الفضائل كلّ غايه  
شركت القرد في قبح وسخف      وما قصرت عنه في الحكايه

قنفذ: بالذال المعجمة، وكنيته أبو سفيان، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم فيرمي العقود ثم يتزل فيأكل منه ما أطاق، فإن كان له أفراخ تمرغ في الباقي فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده، وهو مولع بأكل الأفاعي فإذا لدغته لا

(١) أبيض يقق: شديد البياض ناصعه.

يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البري، فيزول أذاها وهو من الحيوان الذي يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل.

### حرف الكاف

كركد<sup>(١)</sup>: حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لتقله، وهو مصمت<sup>(٢)</sup> قوي يقاتل به الفيل فيغلبه ولا تعمل ناباه شيئاً معه وعرض قرنه شبران وليس بطويل جداً، وهو محدد الرأس شديد الملاسة وإذا نشر قرنه ظهرت في معاطفه صور عجيبة كالطوايس، والغزلان، وأنواع الطير والشجر، وبني آدم ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة، والمناطق للملوك ويتغالون في ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف، أو أكثر، والأنتى تحمل ثلاث سنين، ويخرج ولدها ثابت الأسنان والقرون قوي الحافر. ويقال إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرمى أطراف الشجر، فإذا شيع أدخل رأسه في بطن أمه، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئاً حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هية له، وهرباً منه، ويسمى الحمار الهندي، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته فيقتله ولا يأكل منه شيئاً.

كروان: طير معروف لا ينام غالب الليل خصوصاً في القمر وعنده ذكاء، قيل إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغابنة.<sup>(٣)</sup>

كركي: طير محبوب للملوك وله مشتى ومصيف، فمشتاه بأرض مصر، ومصيفه بأرض العراق وهو من الحيوان الرئيس. قيل إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام، وقام عليه واحد يحرسه، وهو يصوت تصويماً لطيفاً حتى يفهم أنه يقطن، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته. قال القزويني: وإذا مشى وطىء الأرض يا حدى رجليه وبالأخرى قليلاً خوفاً من أن يحسن به، وإذا طار سار سطراً يتقدمه واحد كهية الدليل ثم تتبعه البقية.

كلب: معروف وهو نوعان: أهلي، وسلوقي وهذان النوعان سواء، إلا أن أنتى السلوقي أسرع في التعلم من ذكره، وهذا الحيوان حلیم وعنده رياضة وفي طبعه إكرام الأجراء من الناس.

حكى أن رجلاً عزم جماعة، فتخلف شخص منهم في منزله ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجمها فوثب الكلب عليهما فقتلها فرجع صاحب المنزل فوجدهما قتيلين فأنشد يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطنسي      ويحفظ عهدني والخيلىلُ يخونُ  
فواعجباً للخلىلُ يهتكُ حرمتي      وواعجباً للكلبِ كيف يصونُ

وحكى أبو عبيدة قال: خرج رجل إلى الجبابة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس، فتبعه كلب فضربه ورماه بحجر فلم يته ولم يرجع، فلما قعد رضى الكلب بين يديه فجاء عدو له في طلبه، فلما رآه خاف على نفسه فإذا بثر هناك قرية القعر فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سييله وصار الكلب ينبح

(١) كركند: أو كركند.

(٢) مصمت: مفرغ القلب.

(٣) المغابنة: المخادعة.



حوله. فلما انصرف العدو أتاه الكلب فما زال يبحث في التراب إلى أن كشفه عن رأسه، فتنفس الرجل ومرّ به أناس فتناولوه وردوه إلى أهله. فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه وجعل عليه قبة وسمى ذلك قبر الكلب وفي ذلك قيل:

تفرّق عنه جاره وشقيقه وما حادّ عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً قتل ودفن وكان معه كلب، فصار يأتي كل يوم إلى الموضع الذي دفن فيه، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك فقال الناس: إن لهذا الكلب شأنًا فكشفوا عن ذلك وحضروا ذلك الموضع، فوجدوا قتيلاً، فقبضوا على ذلك الرجل الذي ينبح عليه الكلب وضربوه فأقرّ بقتله وقتل. وهو من الحيوان الذي يعرف الحسنة. وقيل إن الأنتى تحيض في كل شهر سبعة أيام، وأكثر ما تضع إناثا عشر جرّواً، وذلك في النادر والغالب خمسة أو ستة، وربما ولدت واحداً، ويعيش الكلب في الغالب عشر سنين، وربما بلغ عشرين سنة. وصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد فأرسل من جاء به إليه فجوّع أسداً وأطلقه عليه فتهارشا وتواثبا حتى وقعا ميتين. وقيل كلب الصيد، يشبه به الفقير المجاور للغني، لأنه يرى في نعمته، ويؤس نفسه ما يقتت كبده. وقيل لرجل ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال، قال يخاف أن يلوّث ذراعيه قيل أو للكلب ذراعان قال هو يتوهم ذلك.

فائدة: حكى أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سمع شخصاً من وراء النهر يروي أحاديث مثلثة، فسار إليه ودخل عليه، فوجده يطعم كلباً، وهو مشتغل به. قال الإمام أحمد: فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إليّ، ثم قال حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلبج الجنة» وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه. قال: فقال الإمام أحمد رحمه الله، هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلاً إلى أهله.

فائدة أخرى: قال الترمذي: لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع وكان أشدها الكلب. قال فتزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يضع يده عليه، ففعل واطمأنّ إليه وألفه، وصار يحرسه، وبقيت الإلفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة. وقيل إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام، وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل فيفسدون ما صنعه في السفينة بالنهار، فأمره الله أن يتخذ كلباً حارساً ففعل. قال فكان الكلب إذ أتاه مفسد قام عليه فيتيقظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه.

فائدة أخرى: قيل كان كلب أهل الكهف أسمر واسمه قطمير، وقيل أصفر وقيل خلنجي<sup>(١)</sup> اللون وليس في الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو، وكبش إسماعيل، وناق صالح، وحمار العزيز، وبراقي النبي ﷺ.

فائدة أخرى: إذا نبح عليك كلب وخفت منه فاقرا ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾<sup>(٢)</sup> وقل بعد ذلك لا إله إلا الله فإنك تكفاه.

(١) خلنجي: مائل للخضرة.

(٢) سورة: الرحمن، الآية: ٣٣.

### حرف اللام

لغلق<sup>(١)</sup>: طير معروف. قيل إنه من طيور الفواخت ويأتي إلى أرض مصر في أيام الشتاء فيأكل ما قسم الله له من برزق، ويأكل منه من له فيه رزق ثم يرحل إلى بلاده.

### حرف الميم

مالك الحزين: طير يوجد بالضحضاح<sup>(٢)</sup> غذاؤه السمك، وسمي بذلك لأنه قيل إنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم. ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال إن غذاها التراب فإذا أكلت لا تشيع خوفاً من أن يفرغ.

### حرف النون

نمل: قال عليه الصلاة والسلام: «ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه. وخلق له السمع والبصر، وسوى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيبتها، ولا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر كيف دبّت على الأرض، وسعت في مناكبها، وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع في حرها لبردها، وفي وردها لصدرها، لا يغفل عنها المنان، ولا يحرمها الديان، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، وللقيت من وصفها تعباً، فتعالى الله أقامها على قوائمها، وبنّاها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر لا إله إلا هو ولا معبود سواه» وقيل إذا خافت على حبيها أن يعفن أخرجته إلى ظهر الأرض ليحفظ، وقيل إنها تفلق الحبة نصفين خوفاً من أن تنبت فتفسد، إلا الكزبرة فإنها تفلقها أربعاً لأنها من دون الحب، ينبت نصفها وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا، فسبحان من ألهمها ذلك. وقيل إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة، وإذا عجزت عن حمل الشيء استعانت برقبتها فيحملونه جميعاً إلى باب حجرها، وقيل إذا انفتح باب قرية النمل فجعلت فيه زرنياً أو كبيراً هجرتها والله أعلم.

نحل: حيوان ليس له نظر في العواقب، وله معرفة بفصول السنة وأوقاتها، وأوقات المطر، وفي طبعه الطاعة لأميره، والانقياد له، ومن شأنه في تدبير معاشه أن يبني له بيتاً من الشمع شكلاً مسدساً لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة، وإذا طار ارتفع في الهواء وحط على الأماكن النظيفة، وأكل نوار الزهور والأشياء الحلوة، وشرب من الماء الصافي وأتى فأخرج ذلك، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء، ثم العسل، وقيل: إنه يقسم الأعمال، فبعضه يعمل البيوت، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يعمل العسل، وفي طبعه النظافة فيجعل رجليه خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماه، وعنده الطرب فيحب الأصوات اللذيذة، وله آفات تقطعه كالظلمة، والغيم، والريح، والمطر، والدخان، والنار، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، ونار الهوى.

فائلة: قيل مرض شخص فقال اثنتوني بماء وعسل فأتوه بذلك فخلط الجميع وشربه فشفي، وروي أن شخصاً

(١) لغلق: المعروف لقلق.

(٢) الضحضاح: المستقع.

شكا للنبي ﷺ، بطن أخيه فأمره بشرب العسل فشربه، ثم جاء ثانياً فأمره بشربه، ثم جاء في الثالثة، فقال يا رسول الله ﷺ إن بطنه لم يزل، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، أسقه عسلاً» فسقاه الثالثة فشفي.

نادرة: قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابًا مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾<sup>(١)</sup> أهل البيت فإنهم النحل، والشراب القرآن، فقال له بعض من حضره من اللطفاء: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فضحك الحاضرون عليه وأبهته<sup>(٢)</sup>.

الخواص: إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص واكتحل به نفع من نزول الماء في العين، والتلطيخ به يقتل القمل ولعقه علاج لعضة الكلب، والمطبوخ منه نافع للمسموم.

نسر: هو سيد الطيور ويعمر طويلاً، وقيل إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل إنه يقطع من المشرق إلى المغرب في يوم، وجثته عظيمة حتى قيل إنه يحمل أولاد الفيلة، وله قوة حاسة الشم، حتى قيل إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ<sup>(٣)</sup>، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرح من الأكل، وعنده شره، قيل إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إسكاه في تلك الحالة أسكاه، وإذا باض ذهب وأتى بورق الذهب فجعله في عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه. وهو لا يحضن البيض وإنما يبيض في الأماكن العالية ويقيه في الشمس فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن. ومن طبعه أنه لو شم الطيب مات، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل إنه ليموت كمدأ، ويقال للأثني منه أم تشعم وفي الحديث: «أتاني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا محمد لكل شيء سيد فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سليمان، وسيد الحبش بلال. وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربي، وسيد العربي القرآن وسيد القرآن سورة البقرة».

الخواص: إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد ذئب وعلق على شخص كان مهاباً عند الناس مقضي الحاجة، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه سهل وضعها.

نعام: يذكر ويؤنث، وتسمى الأثني بأم البيض والذكر بالظليم<sup>(٤)</sup>. ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طويلاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثاً: ثلثا للحضن، وثلثا تأكله في حضنها، وثلثا تكسره وتفتحه فيتعفن ويدود فيكون منه غذاء أولادها، وعندها الحمق، يقال إنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها فتحضنه وتترك بيض نفسها.

فائلة: روى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه: إن الله تعالى لما خلق القمح، وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام، وقال له هذا رزقك، ورزق أولادك، قم فاحرث وازرع. قال ولم يزل الحب على مدة ثم نزل إلى بيض الدجاجة، ثم الحمامة، ثم النبق<sup>(٥)</sup>، وكان في زمن العزيز على قدر الجحش. وقيل كل حيوان إذا كسرت رجله مشى

(١) سورة: النحل، الآية: ٦٩.

(٢) أبهته: أخذه.

(٣) فرسخ: الفرسخ ١٧,٢ كم.

(٤) الظليم: ذكر النعام.

(٥) النبق: طائر صغير.

بالأخرى إلا النعام، فإنه يترك إلى أن يموت، وخلق الله تعالى له قوة الشمّ البليغ. حتى قيل إنه يشم رائحة القناص، من مسيرة نصف ميل. وهي لا تشرب الماء كالضب، ويقال إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء، إما شعب، أو حجر تظنّ أنها قد استترت منه، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوّان والجمز، وفي طبعها الأذى يقال إنها تخطف الحلق من أذن الصغير. وقيل إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رآياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً، وقيل أشدّ ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح، وتقول العرب: صفان من الحيوان أصمان لا يسمعان: النعام والأفاعي: وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم هل يسمع؟ فقال: يعرف بعينه وأنفه ولا يحتاج مهمما إلى سماع.

نمر: حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب، وهو صفان: صنف عظيم الجثة صغير الذنب، والآخر بالعكس. قال الجاحظ: وهو يحبّ الشراب وعنده شراسة في خلقه ويقال: إن أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوّقاً بحية، ولا يضرّه نهشها وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به، وإذا مرض أكل الفأر فيراً، وفي طبعه عداوة الأسد. وعنده شرف في نفسه، يقال: إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره، ولا يملك نفسه عند الغضب وأدنى وثبته عشرون ذراعاً وأكثرها لربعون.

الخواص: من حمل من جلده شيئاً صار مهاباً عند الناس، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت

بواسيره.

### حرف الهاء

هدهد: طير معروف، وهو من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حنة البصر حتى قيل إنه يرى الماء تحت الأرض، وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده، هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا فذهب لينظر، فدخلت الشمس من مكانه فرأها سليمان عليه الصلاة والسلام ففقدته وطلبه فلما حضر قال: يا نبيّ الله إني رأيت كيت وكيت وقصّ عليه القصة، ويقال إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه: يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى. فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه.

الخواص: إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام<sup>(١)</sup> عنه، وعينه إذا عقلت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه، وريشه إذا حملة إنسان وخاصم غلب خصمه، وقضيت حاجته، وظفر بما يريد، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقربه شيء يؤذيه، من علق عليه لحيه<sup>(٢)</sup> الأسفل أحبه الناس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

### حرف الواو

ورشان: طير يتولد بين الحمام والفاخنة، وهو حسن شديد الحنوّ يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدّة حنّوه. وقال بعضهم إنه يقول في صياحه: لدوا للموت وابنوا للخراب<sup>(٣)</sup>، والهدهد يقول: إذا نزل

(١) الهوام: الحشرات.

(٢) لحيه: الفك.

(٣) شطريت لأبي العتاهية وتمامه: فكلكم يصير إلى نباب.

الفضاء عمي البصر، والفاخنة تقول: ليت هذا الخلق ما خلقوا، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا، وليتهم عملوا لما علموا، والخطاف يقول: قَدَمُوا خيراً تجدوه عند ريكم. والحمامة تقول: سبحان ربي الأعلى، والبازي يقول: سبحان ربي ويحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان، والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى، والعقاب يقول: البعد عن الناس رحمة، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمدّ صوته في الضالين كالقاريء.

### حرف الباء

بأجوج وبأجوج: سماوا بذلك لكثرتهم، وقيل بل هو اسم أعجمي غير مشتق. قال مقاتل: هم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام. وقول من قال إن آدم نام فاحتلم فالتصق منه بالتراب فتولد منه هذا الحيوان، مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي الحديث «بأجوج وبأجوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة» انتهى. وهم أصناف: منهم ما طوله عشرون ذراعاً، وما طوله ذراع، وأقل وأكثر. وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن لهم مخالباً للطيور، وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتساقد البهائم، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد، وإذا مشوا في الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان. يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويكلون كل شيء يمرون به ومن مات منهم أكلوه. ويقال إن صنفاً منهم له أذنان إحداهما صلدة، والأخرى وبرة. فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى وفي الحديث: «إنه عليه الصلاة والسلام سئل هل بلغتهم الدعوة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: دعوتهم ليلة أسري بي فلم يجيبوا فهم خلق النار». وفي الحديث أيضاً: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال: يا آدم أرسل بعث النار. فيقول يا رب وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار، وواحد للجنة. قال: فاشتد الأمر على المسلمين: فقال رسول الله ﷺ أبشروا فإن من بأجوج وبأجوج ألفاً ومنكم واحد». وفي الحديث: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فأخبره بالردم. فقال صفة. فقال يا رسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه فدخلت في بيت، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفرعتني فارتعدت منها قال: فقال صاحب البيت لا بأس عليك، إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم، أتريد أن تنظر إليه، فإذا لبته مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل كله من حديد كأنه البرد المجبر. فقال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى من رأى الردم فلينظر هذا الرجل».

قال المفسرون: وهذا هو السد الذي بناه ذو القرنين، وهذه الأمة خلفه تطلب المجيء إلى هذه الجهة تتقبه كل يوم فيعيده الله كما كان إلى أن يقضي الله أمره ثم يسلط عليهم بعد ذلك دوداً يطلع حلاقيهم فيهلكهم الله به، والأخبار في ذلك كثيرة.

بعمور: دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر، وقيل هو كالإبل يلقي قرنيه في كل سنة وهما صامتان. وقال الجوهري هو الحمار الوحشي.

نادرة: قيل: ترافق رجلان في طريق، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر قد صار لي عليك حق، إنني رجل من الجانّ ولي إليك حاجة، قال وما هي؟ قال إذا وصلت إلى المكان الفلاني من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها واذبحه. فقال له الآخرة وأنا أيضاً لي إليك حاجة قال وما هي؟ قال إذا ركب الجني إنساناً ما

يحمل له . قال تشد إبهاميه بسير من جلد اليعفور، تقطر في أذنيه من ماء السذاب في اليمنى أربعاً، وفي اليسرى ثلاثاً، فإن الراكب له يموت . ثم تفرقا ودخل الإنسي، ففعل ما أمره به الجنى من شراء الديك وذبحه فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له أنت ساحر، ومن حين ذبحك الديك سلبت من صبية عندنا عقلها فلا هلك إلا إلى صاحب المدينة . قال: فقلت لهم اتوني بسير من جلد اليعفور وقليل من ماء السذاب، ودخلت على الصبية فربطت إبهاميهما، وقطرت ماء السذاب في أذنيها فسمعت صوتاً يقول: آه علمتك على نفسي، ثم مات من ساعته . وشفى الله تلك الشابة .

### فصل: في خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والخبزير لا يلقيان شيئاً من أسنانهما أبداً وكل حيوان يعوم بالطبع، إلا الإنسان والقرد، وكل ذي عين فإن لهداب عينه في الجهة العليا فقط، إلا الإنسان فإنه من الجهتين والفرس لا طحال له، والبعير لا مرارة له، والظليم لا مخ لعظمه، والحيات لا السنة لها، والسمكة لا رفة لها لأنها تتنفس من كبدها، وكل حيوان لا حافر له فله قرن، وما لا قرن له، فله حافر، والحيوان المتهم باللواط: القرد والخبزير والحمارة، والسنور . والعيون التي تضيء بالليل: عين الأسد والنمر والأفعى والسنور: والذي يدخر القوت من الحيوان: الإنسان، والقار، والغراب والنحل، والنمل، والذي يحيض من الحيوان: الإنسان والفرس، والكلب والأرنب، والضبع، والخفاش، ويقال أيضاً الرعاد من السمك، فتبارك الله أحسن الخالقين، وهذا آخر ما قصدت إيراده في هذا الباب والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

## الباب الثالث والستون: في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهي أنواع، منها ذوات أجنحة وكلامهم قرعمة، ومنها ما له أبدان كالأسود، ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذنان وكلامهم دوي ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلف وأرجل كثيرة، ومنها ما يشبه الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرائيق<sup>(١)</sup>، ومنها ما وجهه كالآدمي وظهره كالسلفاة وفي رأسه قرن، وكلامهم مثل عواء الكلاب، ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبقر، ومنها ما له أنياب بارزة كالخنجر، وأذان طوال. ويقال إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة. ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرية أمة، منها ستمائة في البحر، وأربعمائة وعشرون في البر، وفي الإنسان من كل خلق، فلذلك سخر الله له جميع الخلق، واستجمعت له جميع اللذات، وعمل بيده جميع الآلات، وله النطق، والضحك، والبكاء، والفكرة، والفتنة، واختراعات الأشياء، واستنباط جميع العلوم، واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والنسيم والعداب، وإياه خاطب وله قرب، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي الحديث: «لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل» وآيات الله تعالى في البشر أكثر من أن تحصر: ﴿تبارك الله أحسن الخالقين﴾<sup>(٢)</sup>

وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب: دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد فوجدت سنّ أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم، الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ووزنها / ١٢٠٠ / مثقالاً وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً وطول عظم عضد أحدهم / ٨ / أذرع، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام، قال: ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد، رجلاً طويلاً، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً كان يسمى دنقي أو دبغي كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس، ويقطع جلده وأعضائه كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله وكان خيراً متواضعاً، كان إذا لقيني يسلم علي ويوحب بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى ركبته رحمة الله تعالى عليه. ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات في بلغار، وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها،

(١) الغرائيق: طيور من أضراب اللقلق.

(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ١٤.

وكان اسمه آدم، وكان أقوى أهل بلغار، قيل إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته.

وروي عن وهب بن منبه في عوج بن عتق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم، إلا أنه كان لا يوصف طوله، قيل كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه، ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير، وعمره الله دهرأ طويلاً حتى أدرك موسى عليه الصلاة والسلام، وكان جباراً في أفعاله يسير في الأرض برأ وبرحاً ويفسد ما شاء، ويقال إنه لما حصر بنو إسرائيل في التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم، فبعثه الله طيراً في منقاره حجر مدور فوضعه على الحجر الذي على رأسه فانتقب من وسطه وانخرق في عنقه وأخبر الله عز وجل نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصاة فقتله، ويقال إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع، وقفز في الهواء عشرة أذرع، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾<sup>(١)</sup>، ومن ذلك ما قيل عن أمه عتق بنت آدم عليه الصلاة والسلام، وكانت مفردة بغير أخ، وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان وفي كل يد عشرة أصابع، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هي أول من بغى في الأرض، وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي، واستخدم الشياطين وصرّفهم في وجوه السحر. وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة تطيعها الشياطين بها، وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها فغافلها عتق وسرقتها، واستخدمت بها الشياطين وتكلمت بشيء من الكهانة فدعا عليها آدم. وأمنت على ذلك حواء فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها وذلك بعد ولادتها عوجاً بستين. ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكراد المحمدية في جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع، وهو صبي لم يبلغ الحلم، وكان يأخذ بيده الرجل القوي ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه فقيل له في عقله خيل<sup>(٢)</sup> فتركه.

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة من بلاد اليمن فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين، وأربع أيدٍ وهما يأكلان ويشربان، ويتفانلان ويتلاطمان ويصطللحان. قال: ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت فقيل لي أحسن الله عزاءك في أحد الشقيين فقلت وكيف صنع به فقيل ربط في أسفله جبل وثيق وترك حتى ذبل ثم قطع ورأيت الجسد الآخر في السوق ذاهباً وراجعاً ومنه ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة. وهو رجلان في جسد واحد، فاحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان معاً وتمطشان معاً قالوا نعم فقالوا لا يمكن فصلهما. ويقال إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما فأخبر أنهما يختصمان في بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما. ومن ذلك ما ذكر أنه أهدي إلى أبي منصور الساماني فرس له قرنان، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما وإذا بعد الصقهما. وذكر القاضي عياض رحمة الله تعالى عليه أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب إلا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا لا يبعد فإنه يوجد كثيراً في السنور الدبركي. وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل، ومثلاً أيد، وذكر أنه كان لبعض ولادة مصر مملوك يدعى طقطو فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولدت له ولد. ثم انقلب امرأة، فتزوج بها وولدت

(١) سورة: المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) خيل: لومة.



ولدين. وأما كبش بأربعة قرون، ودجاجة بأربعة أرجل، وحيوان برأسين والمخرج واحد فكثير وعجائب الله تعالى في مصنوعاته غير متناهية فله الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصي ثناء عليه. ومن ذلك إنسان الماء، وهو حيوان يشبه الآدمي، وفي بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء ويستبشر الناس برؤيته في تلك السنة بالخصب. ومن ذلك بنات الماء وهو أمه ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدي وفروج، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم وضحك ولعب ولهن رجال من جنسهن ويقال إن الصيادين يطصادونهن، ويجامعونهن فيجدون لذة عظيمة لا توجد في غيرهن من النساء، ثم يعيدونهن في البحر ثانياً. ويقال إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد<sup>(١)</sup> على ما ذكر.

وحكي عن الشيخ أبي العباس الحجازي قال: حدثني بعض التجارة أنه في سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وأخرجوها ففتحت أذنها فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين، كحلأ العينين، من أحسن ما يكون من النساء، ومن صرّتها إلى نصف ساقها شيء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار فأخذها الرجال إلى البر فصارت تلمظ وجهها وتنتف شعرها، وتعض يدها كما تصيح النساء حتى ماتت في أيديهم فألقوها في البحر فتبارك الله أحسن الخالقين. وحكى القزويني عن بعض البحرين أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار وأنهار فأقاموا بها مدة، وكانوا إذا جاء الليل يسمعون همهمة<sup>(٢)</sup> وأصواتاً وضحكاً ولعباً، فخرج من المركب جماعة وكمنوا في جانب البحر فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهم فوثبوا عليهن فأخذوا منهن اثنتين فتزوج بهما شخصان، فأما أحدهما فوثق بصاحبه فأطلقها فوثبت في البحر، وأما الآخر فبقي مع صاحبه زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً كأنه القمر، فلما طاب الهواء، وركبوا البحر ووثق بها فأطلقها فأغفلت وألقت نفسها في البحر، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر، ودنت من المركب، وألقت لصاحبها صدفاً فيه دُرّ وجوهر فباعه وصار من التجار.

ونظير هذه الحكاية ما ذكره ابن زولاق في تاريخه أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه، سوداء الشعر، حمراء الخدين، نجلاء العينين، كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين، وأحبها حباً شديداً وأولدها ولداً ذكراً، وبلغ من العمر أربع سنين ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه ووثق بها، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها في البحر فكاد أن يلقي نفسه خلفها حسرة عليها فلم يمكنه أهل المركب من ذلك، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفاً كبيراً فيه دُرّ ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه. وما لم نشاهده ونسمع به أكثر فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه فالعاقل يعرف الجائر والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل، وإذا سمع عجباً جازراً استحسنته ولم يكذب قائله، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله وتزييف ناقله وذلك لقلة عقله وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وقد

(١) البرلس ورشيد: نواح وبحيرات في الشمال المصري.

(٢) همهمة: تكلم بخفاء.

(٣) سورة: الفرقان، الآية: ٤٤.

أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾<sup>(١)</sup> فلا تكن منكر العجائب فكل الأشياء من آياته:

فيا عجباً كيف يعصى الإله      هـ أم كيف يجحده الجاحد  
وفي كل شيء له آية      تدلّ على أنه الواحد

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد، وكذلك حجر الماس الذي يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص، ويتقب الياقوت والفلواز ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذي أودعه هذا السر قادر على كل شيء فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته فإن الله تعالى قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾<sup>(٢)</sup> قال صاحب تحفة الألباب: إن في بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم، وقد ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك، وذكر أن في بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يعيش في أرضهم ذكر، وأن هؤلاء النساء يدخلن في ماء عندهن فيحبلن من ذلك الماء، وتلد كل امرأة منهن بنتاً، ولا يلدن ذكراً أبداً، وقيل: إن ولد تبع اليماني وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين، وإن ولد تبع هذا كان اسمه إفريقيش، وهو الذي بني إفريقية وسماها باسمه، وأنه وصل إلى وادي السبت وهو وادٍ يجري فيه الرمل كما يجري السيل، لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال. والله سبحانه وتعالى أعلم. وتلك الأمة التي لا رؤوس لهم، أعينهم في منابهم، وأفواههم في صدورهم، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم. وأما الملك العظيم، والعدل الكثير، والنعم الجزيلة، والسياسة الحسنة والرخاء والأمن الذي لا خوف معه، ففي بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب، وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة، التي لا يقدر أحدهم سواهم على أمثالها، وفي بلادهم وجزائرهم ينبت العود، وشجر الكافور، وجميع أنواع الطيب كالقنفل، والسنبل، والدارصيني، والكبابة، والبساسة وأنواع العقاقير والأدوية، وعندهم حيوان المسك وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك في سرتة، وعندهم حيوان بالزباد، وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود نخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتغزب بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت وأكثرها في جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال.

وحكي أنه كان بيابل سبع مدائن، كل مدينة فيها أعجوبة، كان في إحداها تمثال الأرض فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته، وامتنعوا عن القيام بالخراج خرق أنهارها عليهم في التمثال، فلا يطيق أهل تلك الناحية سدّ الماء حتى يعتدلوا، وما لم يسدّ في التمثال لا يسدّ في الكل البلد، وفي الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحبّ من الشراب فصبه في ذلك الحوض فاختلطت الأشربة فكل من سقى من ذلك الحوض كان شرا به الذي جاء به، وفي الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه، فإن كان حياً سمع له صوت، وإن كان ميتاً لم يسمع له صوت. وفي الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها فأبصروه على أيّ حالة هو

(١) سورة: يوسف، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة: يونس، الآية: ٣٩.

عليها، كأنهم يشاهدونه. وفي الخامسة أوزة من نحاس فإذا دخل الغريب صوتت الأوزة صوتاً يسمعه أهل المدينة، وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتي الخصمان فيمشي المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين ويقع المبطل في الماء، وفي السابعة شجرة ضخمة لا تظل إلا ساقها، فإن جلس تحتها أحد أظلمته إلى ألف شخص، فإذا زادوا على الألف واحداً جلسوا في الشمس كلهم، ولو بسطت المقال في ذلك لاتسع المجال. وقد اقتصرنا في ذلك على ما ذكرت، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الرابع والستون: في خلق الجن وصفاتهم

روي عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال: قرأت في بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى، أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجن خلق نار السموم، وخلق من مارجها<sup>(١)</sup> خلقاً سماه جناً كما قال الله تعالى: ﴿والجن خلقناه من قبل من نار السموم﴾<sup>(٢)</sup> وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وخلق الجن من مارج من نار﴾<sup>(٣)</sup>. وقيل إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، الجن من لهبها، والشياطين من دخانها. وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعاً من الجن في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكاناً في الأرض قد طبقوها برأ وبحراً، وسهلاً وجبلاً وكان فيهم الملك والنبوة، والدين والشريعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خير ما في السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جنناً من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمماً كثيرة.

وذكر المسعودي أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم من يسترق السمع، ومنهم من ينظ مع لهب النار، ومنهم من يطير ولكل قبيلة ملك، وكان من جعلتهم إبليس لعنه الله ثم بعد خمسة آلاف سنة افتقروا وملكوا عليهم ملوكاً وأقاموا على ذلك مدة طويلة، ثم تحاسدوا على الملك وأغار بعضهم على بعض، وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء، ويختلط بالملائكة فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة فهزم الجن وقتلهم، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام وافق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد لكنه يلقح كالطير ويبيض ويفرخ. قيل إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان فيسلطهم على الخلق، وأقربهم إليهم وأذناهم منه ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق. وفي الحديث: «إن إبليس لعنه الله قال يا رب أنزلتني إلى الأرض وطردتني وجعلتني رجيماً<sup>(٤)</sup> فاجعل لي مسكناً، قال مسكنك الأسواق، قال فاجعل لي طعاماً قال ما لم يذكر اسمي عليه، قال: فاجعل لي شرباً قال: كل مسكراً، قال: فاجعل لي مؤذناً، قال: المزمار، قال: فاجعل لي صيداً أو قال مصايد قال: النساء».

(١) مارجها: النار أولجتها.

(٢) سورة: الحجر، الآية: ٢٧.

(٣) سورة: الرحمن، الآية: ١٥.

(٤) رجيماً: مرمياً بالحجارة.

### فصل: في مكايده لعنه الله

منها أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برعيصاً، وله جار له بنت، فحصل لها مرض فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك برعيصاً ليدعو لها. قال فجاء إبليس إلى العابد وقال: إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بتاً مريضة، فما ضرك لو جعلتها عندك في جانب البيت، ودعوت الله لها عقب عبادتك، فمسي أن تشفى من مرضها. قال فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد دعها وانصرف، قال فتركها عنده مدة حتى شفيت. فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه فقال له اقتلها لئلا تفتضح قال فقتلها ودفنها. قال فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك. فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه فعارضه إبليس اللعين في الطريق. فقال له إن سجدت لي خلصتك منهم، فسجد له فعند ذلك تبرأ منه. ومات الرجل كافراً. اللهم اعصمنا من مكايده الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين. ومن ذلك ما اتفق أن بني إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها فعارضه إبليس لعنه الله. وقال له تركت عبادتك وجئت لشيء لا يعود عليك نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه فصرعه العابد وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك في كل يوم إلى ثلاثة أيام، فلما رآه لا يرجع، قال له: اترك قطعها وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك. وعاهده على ذلك، فرجع قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين ثم قطع ذلك عنه فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة فعارضه إبليس في الطريق وتجاوز معه وتجادبا فصرعه<sup>(١)</sup> إبليس وجلس على صدره وقال له: إن لم ترجع عن قطعها وإلا ذبحتك فقال له العابد: خلّ عني وأخبرني كيف غلبتني. فقال له: لما غضبت لله غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتني. ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محلّ استيفائها قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْتَحْلِفُونَهُ وَاذْرَيْتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾<sup>(٢)</sup>.

### فصل: في المتشبطنة وهم أنواع كثيرة

منها الولهان يوجد في جزائر البحار على صورة الإنسان. حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم. وأخذ بعض من في المركب ومنه السعلاة. يحكى أن صنفاً منها يتريا بزّي النساء ويتراءى للرجال. وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح فنظرت فرأت ناراً من بعد عند الجبانة فاضطربت وقالت. ألم تر نيران السعالي وتغير لونها. وقالت بنوك وبناتك أوصيك بهم خيراً، ثم طارت ولم تعد إليه. ومنها نوع يقال له المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم. حكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها فأناه شخص بسراج وطعام فتعجب العابد من ذلك. فقال له شخص بالصومعة إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتي، والله أني لأعلم أنه شيطان. وقال بعض الصوفية المذهب أصناف منهم من يحمل

(١) صرعه: غلبه.

(٢) سورة: الكهف، الآية: ٥٠.

القانوس بين يدي الشيخ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم من ينشد الشعر. وقال بعض المسافرين لبق لي غلام فخرجت في أثره فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق، وجرير. قال فدنوت منهم وسلمت عليهم. قالوا: ألك حاجة؟ قلت لا، فقال بعضهم تريد غلامك قلت وما أعلمك بغلامي؟ قال كعلمي بهلك قلت أو جاهل أنا؟ قال نعم وأحمق، قال: ثم غاب وأتاني بالغلام مقيداً، فلما رأيته غشي علي فلما أفقت قال انفخ في يده ففعلت فانفخ القيد عنه وصرت لا أنفخ في شيء من ذلك، ولا في وجع من الأوجاع إلا برىء وخلص صاحبه. ومنها نوع يقال له العفريت يختطف النساء، يقال إن رجلاً اختطف ابته في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. وقال بعض المسافرين بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لي قضاء الحاجة فانفردت عن رفقتي وضللت عنهم، فبينما أنا سائر في أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة وخيمة فجئت إلى جانبها وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها فسألتها عن حالها، فقالت أنا فزارة اختطفني عفريت يقال له ظليم وجعلني ههنا فهو يغيب عني بالليل ويأتيني بالنهار، فقلت لها امضي معي، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا فيأخذني ويقتلك، فقلت لا يستطيع أخذك ولا قتلي، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت فأنخت لها ناقتي فركبتها وسرت بها حتى طلع الفجر. فالتمت فإذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان في الأرض. فقالت ها هوذا قد أتانا فأنخت لها ناقتي وخططت حولها خطأً، وقرأت آيات من القرآن وتعوذت بالله العظيم فتقدم وأنشأ يقول:

يا ذا الذي للحين يدعوه القدر      خلّ عن الحسناء رسلاً ثم سر  
وإن تكن ذا خبرة فينا اصطبر

قال فأجبه:

يا ذا الذي للحين يدعوه الحمق      خلّ عن الحسناء رسلاً وانطلق  
ما أنت في الجنّ بأول من عشق

قال فتبدى لي في صورة أسد وجاذبه ساعة، فلم يظفر أحد منها بصاحبه فلما أيس مني قال هل لك في جزأ ناصيتي<sup>(١)</sup> أو إحدى ثلاث خصال. قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخذك أيام حياتي، أو ألف دينار الساعة، وخلّ بيني وبين الجارية، فقلت لا أبيع ديني بديناي ولا حاجة لي بخدمتك فاذهب من حيث أتيت. قال فانطلق وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها وتزوجت بها وجاءني منها أولاد. وقيل لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام أيها الجن والشياطين أجيوا نبي الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى. قال فخرجت الجن والشياطين من الجبال، والكهوف، والغيران، والأودية، والفلوات والآجام وهم يقولون ليك ليك والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائفة ذليلة وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها فإذا هي سود، وشقر، ورقط، وبيض، وصفر، وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس الأسد، وبدنه بدن القيل ومنهم من له خرطوم وذنب، ومنهم من له قرون وحوافر وغير ذلك من الأنواع، قال فعند ذلك تعجب نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال وسجد شكراً لله تعالى وقال: إلهي ألسني هيباً من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم وهم

(١) ناصيتي: مقدمة شعر الرأس.

يجيئون، ثم فرّقتهم في الصنائع من قطع الصخور، والأحجار، والأشجار، والغوص في البحار، وأبنية الحصون، وفي استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(١)</sup>.

ونكتفي من ذلك بهذا القدر اليسير والله المسؤول في تيسير كل عسير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة: ص، الآية: ٣٩.

## الباب الخامس والستون: في ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

### الفصل الأول: في ذكر البحار

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوته خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى، ثم نظر إليه بعين الهيبة فذابت وصارت ماء، فاضطرب الماء، فخلق الريح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضع على متن الماء وعليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾<sup>(١)</sup> واعلم أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر، وأن بحر الهند خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر فارس خليج منه، وكل هذه البحار التي ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذي يقال له البحر المحيط. وأما بحر الخزر وبحر خوارزم، وبحر أرمينيا والبحر الذي عند مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهي منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد. وقيل: سئل النبي ﷺ عن الجزر والمد فقال: «هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله في البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل لها الجزر» وقيل إنما سمي البحر الأسود لأن مائه في رأي العين كالبحر الأسود فإن أخذ منه الإنسان في يده شيئاً رآه أبيض صافياً إلا أنه أمر من الصبر، مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء في بحر الروم، تراه أخضر كالزنجار<sup>(٢)</sup>، والله تعالى يعلم لأي شيء ذلك، وكذلك يرى في بحر الهند خليج أحمر كالدّم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، تتغير هذه الألوان في هذه المواضع، والماء في نفسه أبيض صاف. وقيل إن تغير الماء بلون الأرض. وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره فقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر، وأمرنا علينا أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه نتلقى عير قريش وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة ثمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يوماً إلى الليل، فأشرفنا على ساحل البحر فرأينا شيئاً كهيشة الكتيب الضخم فأتيناه فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر، فأقمنا شهراً نأكل منها ونحن ثلثمائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذي وقب<sup>(٣)</sup> عينيها بالقلال، ونقطع منه القطعة كالشور ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في

(١) سورة: هود، الآية: ٧.

(٢) الزنجار: نوع سمك.

(٣) وقب: محجرهما.



وقب عينها وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمرّ من تحتها وتزودنا من لحمها، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك. فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمها فتطعمونا فأرسلنا له منه فأكله. وقيل يخرج من البحر سمكة عظيمة، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها، فتهرب منها إلى مجمع البحرين، فتتبعها فيضيق عليها مجمع البحرين لعظمتها وكبرها، فترجع إلى البحر الأسود، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ، فتبارك الله رب العالمين.

وقال صاحب تحفة الألباب: ركبت في سفينة مع جماعة، فدخلنا إلى مجمع البحرين فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى، فكاد قلبي ينخلع وسقطت على وجهي أنا وغيري ثم ألت السمكة نفسها في البحر، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً وعظمت أمواجه وخفنا الفرق فنجاناً الله تعالى بفضله، وسمعت الملاحين يقولون: هذه سمكة تعرف بالبغل. قال ورأيت في البحر سمكة كالجبل العظيم، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيتنا وبينها في البحر أكثر من فرسخ. فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها<sup>(١)</sup> نصفين. ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة في البحر، فأرسوا على جزيرة، فخرجوا إلى تلك الجزيرة ففسلوا ثيابهم واستراحوا، ثم أوقدوا ناراً ليطبخوا، فتحركت الجزيرة وطلبت البحر وإذا بها سمكة فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه. وقيل إن في البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها، يقال إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقي نفسها عليها فتحطمها وتهلك من فيها، فإذا أحسن بها أهل السفينة صاحوا، وكبروا، وضجوا، وضربوا الطبول، ونفروا الطسوت والسطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته.

وقال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب: كنت يوماً في البحر على صخرة فإذا أنا بلذب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلي فتباعدت عنها فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت تلك الصخرة، فسלת خنجراً كبيراً كان معي فطعنت به رأسها فغار فيه فلم أقدر على خلاصه منها فأمسكت نصابه بيدي جميعاً، وجعلت أجره حتى ألصقتُها بباب الجحر فتركت الجحر وخرجت من تحت الصخرة، فإذا هي خمس حيات في رأس واحد، فتعجبت من ذلك وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال هذه تعرف بأم الحيات. وذكروا أنها تقبض على آدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً، وأنها تلب الزوارق، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها، وأن جلدنا أرق من جلد البصل، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً.

قال: ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من التارنج الأحمر الطري الذي كأنه قطع من شجرة فقلت في نفسي هذا قد وقع من بعض السفن، فذهبت إليه فقبضت منه نارنجة، فإذا هي ملتصقة بالحجر فجذبتهما، فإذا هي حيوان يتحرك ويضرب في يدي فلففت يدي بكم ثوبي وقبضت عليه وعصرته فخرج من فيه مياه كثيرة وضمر فلم أقدر أن أقلعه من مكانه فتركته عجزاً عنه، وهو من عجائب خلق الله تعالى، وليس له عين ولا جارحة إلا الفم والله سبحانه وتعالى أعلم لأي شيء يصلح ذلك. قال: ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عقود عنب أسود كبير الحب،

أخضر العرجون<sup>(١)</sup> كأنما قطف من كرمه، فأخذته وكان ذلك في أيام الشتاء، وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب، فرمت أكل منه قبضت على حبة منه وجذبته فلم أقدر أن أقلمها من العنقود، حتى كأنها من الحديد قوة وصلابة فجذبته جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب وفي داخلها عجم كعجم العنب فسألت عن ذلك فقيل لي هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك. وفي البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع وجلده، له شعر ك شعر العجل، وله عتق، وصدر، ووطن، وله رجلان كرجلي الضفدع وليس له يدان، يعرف بالسمك اليهودي، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ويلقي نفسه في البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحيثئذ يدخل البحر، ولا تلحقه السفن لخبثته وقوته، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس، فلا يجد له ألماً ما دام ذلك الجلد عليه وهو من المعجائب.

وقيل: إن في بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع وأكثر، وله أنياب كأنياب الفيل، تؤخذ وتباع في بلاد الروم، وتحمل إلى سائر البلاد وهي أحسن وأقوى من أنياب الفيل، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة، ويسمونه الجوهري ويتخذون منه نصيباً<sup>(٢)</sup> للسكاكين وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص. وفي البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد، إذا دخل شبكة فكل من جرّ تلك الشبكة، أو وضع يده عليها، أو على حبل من حبالها، تأخذ الرعدة<sup>(٣)</sup> حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى. فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة فإن أعادها عادت إليه الرعدة. وهذا أيضاً من المعجائب فسبحان الله جلّت قدرته.

وقال صاحب تحفة الألباب: حدّثني الشيخ أبو العباس الحجازي قال: حدّثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة في بحر الهند فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر، وأجمل ألواناً قال فكبرنا لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص في البحر. وفي البحر دابة يقال لها الدرّفين<sup>(٤)</sup> تنجى الغريق لأنها تدنوا منه حتى يضع يده على ظهرها فيستعين بالانكاء عليها، ويتعلق بها فتسبح به حتى ينجيه الله بقدرته، فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف، وأحكم هذه الحكمة البالغة. وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن، ويصنو لسماعه، وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون في البحر حفائر، ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب فيجتمع السمك ويقع في تلك الحفائر، وقيل إن الدرّفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل إن خيل البحر توجد بنيل مصر، وهي صفة خيل البر، وقيل إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان، وقيل إن البحر المحيط شيئاً يترأى كالحصون فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة ويغيب. ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة، وهي كثيرة الأمطار، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلّة طلوع الشمس عندهم ويجعلونه في بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف وعجائبه لا تحصى ولا يمكن حصرها. ويقال إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مرّ بجزيرة بها أمة رؤوسها مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل

(١) العرجون: المنكول، العنقود.

(٢) نصيباً: قبضة.

(٣) الرعدة: هي سمكة مكهربة.

(٤) الدرّفين: هو الدولفين.

لهب النار، وخرجوا إلى مراكبه وحاربوه ثم تخلص منهم وسار فرأ صوراً متلوثة بألوان شتى، وسمكاً طوله مائة ذراع وأكثر، وأقل. فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه. ويقال إنه مرّ في بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ.

ومن جزائر البحر جزيرة القمّر، ويقال: إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر، وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم، ويقال إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر، وإن هذه الأمة التي بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، وهم في غاية اللطافة من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وبالقرب منهم معدن الذهب، والياقوت، وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها، وبها العمود القماري<sup>(١)</sup> واليابوس والطوايس، وبها مدن كثيرة، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له اصطفيون داخل البحر التوبي، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكها امرأة، وأن بعض المسافرين وصل إليها ودخل ورأى هذه الملكة وهي جالسة على سرير وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهنّ أبكار، وفي هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز، وخيار الشنبر<sup>(٢)</sup>، ويحمل حملاً كهية الإنسان فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ثم يسقط. وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيلهم، ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب.

ومنها جزيرة الصين يقال إن بها ثلثمائة مدينة ونيفاً سوى القرى والأطراف، وأبوابها اثنا عشر باباً وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة وهذه الجبال تمرّ بها المراكب مسيرة سبعة أيام، وإذا جاوزت السقينة الأبواب سارت في ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذي تريده، وفيها من الأودية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه فتبارك الله رب العالمين. وقيل: إن الإسكندر لما فرغ من بناء سدّه حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام، وإذا بحيوان عظيم صعّد من البحر إلى أن علا وسدّ الأفق فظنّ من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ففزعوا فاتبه. فقال: ما لكم؟ فقالوا له انظر ما حلّ بنا. فقال: ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها، وقد منعتني من العدو فلا يسلط علي حيواناً من البحر. قال: فإذا بالحيوان قد دنا من الملك وقال: أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر وقد رأيت هذا السدّ بني وخرب سبع مرات ولم يزد على ذلك ثم غاب في البحر فتبارك من له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم. وقيل إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر وطولها نحو ستة فراسخ، وهي حصينة ذات كروم، ونخيل، وأشجار وغير ذلك، وإذا أراد إنسان الدخول فيها حثا في وجهه التراب، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع، وقيل إنها معمورة بالجان، وقيل بخلق من النسناس. ويقال إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم. وكل واحد منهم شقّ إنسان<sup>(٣)</sup>. ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلًا يقول من الشجر: يا أبا بجير الصبح قد أسفر والليل قد أدير، والقناص قد حضر فالحذر الحذر. قال: فلما ارتفع النهار أرسلنا كليين كانا معنا نحو الشجرة فسمعت صوتاً يقول ناشدتك. قال: فقلت لرفيقي دعهما. قال: فلما وثقا منه نزلا هاربين فبعهما الكلبان وجدّا في الجري فأمسكا شخصاً منهما. قال: فأدركناه وهو يقول:

(١) القماري: من أعواد البخور.

(٢) الشنبر: شجر معروف في مصر.

(٣) شقّ إنسان: أي شطر إنسان.

الويلُ لي مما بي دهاني      دهري من الهموم والأحزان  
قفا قليلاً أيها الكلبان      إلى مئسى إليّ تجريان

قال: فأخذناه ورجعنا فذبحه رفيقي وسواه نفعته، ولم أكل منه شيئاً. فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

## الفصل الثاني: في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>. قال المفسرون هو المطر، ومعنى سلكه أدخله في الأرض وجعله عيوناً ومسائيل ومجاري كالعروق في الجسد، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته، ومنها ما ينبع من الأرض وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة وبين ذلك، وكلها تتبدى من الجبال وتتهي إلى البحار والبطائح، وفي مرها تسقي المدن والقرى وما فضل منها ينصب في البحر الملح، ويختلط به، ولا يمكن استيفاء عددها لكننا نشير إلى بعضها فنقول:

النيل المبارك، ليس في الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام، وشهرين في بلاد النوبة، وأربعة في الخراب. وقيل إن مسافته من منبعه إلى أن ينصب في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً<sup>(٢)</sup>. قال ذلك صاحب «مباهج الفكر ومناهج العبر» واختلف في زيادته، فقيل: إن الأنهار والعيون تمدّه في الوقت الذي يريدّه الله تعالى. وفي الحديث أنه من أنهار الجنة. وقال أهل الأثر: إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد من قبة أرض الذهب، ثم تمرّ بالبحر المحيط وتشقّ فيه. قالوا: ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور. نهر الفرات يوجد بأرض أرمينية فضائله كثيرة والنيل أصدق حلاوة منه، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قطاراً بالدمشقي، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتي إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً، وفي وسطه مدن وجزائر تعدّ من أعمال الفرات.

جيحون نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ويمرّ على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم ولا يتضع به شيء من البلاد سوى خوارزم لأنها متسفة<sup>(٣)</sup> عنه، ثم ينصب في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر، والماء يجري من تحت الجمد فيحضر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها وإذا اشتدّ جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق، ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين.

سيحون نهر عظيم قيل: إن مبداء من حدود الترك ويجري حتى يتصل ببلاد الفرغانة، وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن.

(١) سورة: الزمر، الآية: ٢١.

(٢) ثمانية وأربعون فرسخاً: هذا الرقم مبالغ فيه إن كان المعنى الفرسخ الهاشمي.

(٣) متسفة: أي منخفضة.

الدجلة نهر بغداد وله أسماء غير ذلك، وماؤه أعذب المياه بعد النيل وأكثرها نفعاً. قيل مقداره ثلثمائة فرسخ وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيراً ما ينبو غريقه. حكى أنه وجد به غريق فيه الروح فلما أفاق سأله عن حاله فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحداً يحمله ويصعد به. وروي في الأثر: أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحضر لعباده ما يستقون منه ويستضعون به، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحضر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصفار فكثيرة ولكننا نذكر منها طرفاً فنقول: نهر حصن المهدي، قال صاحب تحفة الألباب: إنه بين البصرة والأهواز وأنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة النيل ولا يعرف أحد شأنه. نهر أذربيجان قيل: إن بالقرب منه، نهراً يجري فيه الماء سنة، ثم ينقطع ثمان سنين، ثم يعود في التاسعة. وقيل: إنه ينعقد حجراً ويستعمل منه اللبن ويبنى به. وقيل إن في تلك الأرض بحيرة تجف فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ولا طين سبع سنين ثم يعود الماء والسمك والطين فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. نهر صقلاب، يجري فيه الماء يوماً واحداً في كل أسبوع ثم ينقطع ستة أيام. نهر العاصي، بأرض حماة وقيل بحمص وهو نهر معروف وفيه يقول بعضهم:

مدينة حمص كعبة القصف<sup>(١)</sup> أصحبت يطوفُ بها الداني ويسعى لها القاصي  
بها روضةٌ من حُسْنِهَا سندسيةٌ تعلقُ في أكنافِ أذيالها العاصي

نهر العمود بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد، وقيل من نحاس وتحتها عمود من نحاس، وقيل من حديد طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى ويقول: يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود فيدخل الجنة، وقال أهل ملك الناحية من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ويلقي نفسه فيقطع. نهر باليمن، قال صاحب تحفة الألباب إنه عند طلوع الشمس يجري من المشرق إلى المغرب وعند غروبها يجري من المغرب إلى المشرق. نهر ببلاد الحبشة والسودان، يجري إلى المشرق يشبه النيل في زيادته ونقصانه وأرضه بها الخصب والبركة، وبها شجر كالأراك يحمل ثمرأ كالبطيخ داخله شيء يشبه القند<sup>(٢)</sup> في الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة، وهذا النهر يجري في بلادهم ثمانية أشهر ثم ينصب في البحر المحيط فسيحان من دبر هذا التدبير وأحكم هذه الصنعة لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

### الفصل الثالث: في ذكر الآبار

قال مجاهد: كنت أحب أن أرى كل شيء غريب، فسمعت أن بياض بئر هاروت وماروت فسرت إليهما، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتاً فدخلت في بعضها فوجدت شخصاً فسلمت عليه فرحب بي وسألني عن حاجتي، فذكرت له غرضي فأمر يهودياً يذهب معي فيوقفني على البئر ويطلعني على الملكين. قال فسرنا إلى البئر

(١) القصف: اللهور والمرح.

(٢) القند: عمل قصب السكر.

فتتح سرداباً ونزلنا، فأمرني أن لا أذكر اسم الله تعالى. قال فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجبليين العظيمين منكسين على رأسيهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما. قال مجاهد فلما رأيت ذلك ففكرت بالله تعالى قال فاضطراباً اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل. قال ففر اليهودي فتعلقت به. فقال: أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت بقرب حضرموت وهي التي قال النبي ﷺ إنها مجمع أرواح الكفار. قال علي كرم الله وجهه: أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود متن تأوي إليها أرواح الكفار، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر عسفان: ماؤها يستشفى به قيل إن النبي ﷺ نفل فيها. قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما: كنا نغسل المريض منها فيعافى، وقيل إن النبي ﷺ توضأ منها.

بئر معروفة بأرض حلب خاصيتها أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ما لم يجاوز الأربعين.

وبنيسابور آبار كثيرة وهي معادن الفيروزج، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها. وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء في وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجري فيستجمع به في سقي الزرع ثم يعود إلى ما كان. وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر إلا هو ولا معبود سواه.

## الباب السادس والستون: في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

### الفصل الأول: في ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران في الخراب إلا كخردلة في كف أحدكم» وقال رواة الأثر: إن لله عز وجل دابة في مرج من مروج في غامض علمه رزقها في كل يوم بقدر رزق العالم بأسره، وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسائة وست وخمسون مدينة وقيل غير ذلك. وأقاليم الأرض سبعة: الإقليم الأول: الهند. الثاني: الحجاز. الثالث: إقليم مصر. الرابع: إقليم بابل. الخامس: إقليم الروم والشام. السادس: إقليم الترك. السابع: إقليم الصين، وأوسط الأقاليم إقليم بابل وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب وفيه العراق الذي هو سرّة الدنيا، وبغداد في وسط هذا الإقليم، فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله فسلموا من شقرة الروم، وسواد الحبشة، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين. والممالك المشهورة التي ضببت عدتها في زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة، أوسعها ثلاثة أشهر، وأضيقتها ثلاثة أيام، وقال أهل الهيئة إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان في سنة واحدة. وإنه يكون في بعض البلاد ستة أشهر ليل، وستة أشهر نهار وبعضها حرّ وبعضها برد فسبحان من خلق كل شيء فاتفقه لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

### الفصل الثاني: في ذكر الجبال

قيل إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت فخلق الجبال وأرساها بها فاستقرت وجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً فمنها ما طوله عشرون فرسخاً، ومنها ما طوله مائة فرسخ، إلى ألف فرسخ. ولتذكر منها ما هو مشهور معروف بين الناس. فمن أعجبها جبل سرنديب: وطوله مائتان ونيّف وستون ميلاً، وفيه أثر قدم آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله الياقوت، وفي أوديته الماس الذي يقطع به الصخور ويذهب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد. جبل الروم الذي فيه السد: طوله سبعمائة فرسخ، ويتهي إلى بحر الظلمات. جبل أبي قبيس: سمي بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس وقيل غير ذلك. جبل القلمس جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج ويؤوره

اللس. جبل ارونند: بهمذان برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة في السنة، تقصد من كل وجه يستشفى بها. جبل بالشام: لونه أسود كالقحم، وتزابه أبيض تبيض به الثياب. جبل الأندلس: فيه غار إذا دهننت فتيلة وأدخلتها فيه لوقدت، وبها جبل به عينان إحداهما باردة، والأخرى حارة والمسافة التي بينهما مقدار شبر. وجبل به معدن الكبريت والزنبرق والزنجفر. جبل سمرقند: يقطر منه ماء في الصيف يصير جليداً وفي الشتاء يحرق من حرارته. جبل الصور: بكرمان يكسر حجرة فيخرج منه كصور الآدميين، قائمين وقاعدين، ومضطجعين وإذا سحق وطرح في الماء يرى كذلك. جبل الأرجان: بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثناً. جبل هرمز: يتزل منه ماء إلى وهدة فإن صاح إنسان صيحة وقف، فإن ثنى جرى. جبل الطير: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير في كل سنة مرة ويدخل في كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الخصب في تلك السنة. ولتقتصر على ذلك من أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرة الزمان.

### الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ونقله الأخبار: إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام، ويقعته بكوني من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات، قالوا وكان طوله خمسة آلاف ذراع بناء بالحجارة والرصاص والشمع واللبن ليمتتع هو وقومه من طوفان ثان فأحرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة فتبلبت بها السنة الناس فسميت أرض بابل. ﴿إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ \*﴾ التي لم يُخْلَقْ مثلها في البلاد<sup>(١)</sup>.

حكى الشعبي في كتاب سير الملوك أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾<sup>(٢)</sup> وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى فقال له شداد إن آمنت بإلهك فماذا لي عنده؟ قال يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب، ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد أنا أبني مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعديني به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يفرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء، طيبة الهواء، بعيدة من الجبال ليبنى فيها مدينة من ذهب. قال فخرج أولئك الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن فأروا هناك أرضاً واسعة طيبة الهواء فأعجبهم تلك الأرض فأمرؤ المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها<sup>(٣)</sup> أربعون فرسخاً، من كل جهة عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء ونوا الجدران بحجارة الجزع<sup>(٤)</sup> اليماني حتى ظهر على وجه الأرض، ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع، وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرفت الشمس. وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب، واتخذ له لبناً، ولم يترك في يد أحد من

(١) سورة: الفجر، الآيتان: ٧-٨.

(٢) سورة: فصلت، الآية: ١٥.

(٣) دورها: محيطها.

(٤) الجزع: ضرب من الرخام.



الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غضبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته، كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت، وحلى قصورها بصفائح من الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار، جذوعها من الذهب، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ، وطلّى حيطانها بالمسك والعنبر، وجعل فيها جنة مزخرقة له، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة، الصادح والمغرد وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة يرسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً، وستوراً، وفرشاً، من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة فاتخذوا جميع ما أمر به.

فلما فراغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته وقصد مدينة إرم ذات العماد فلما أشرف عليها ورآها قال قد وصلت إلى ما كان هو يعدني به بعد الموت وقد حصلت عليه في الدنيا فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرفة عين، فخرؤا على وجوههم صرعى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾<sup>(١)</sup> وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس فكانوا يرون بالليل في تلك البرية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضيء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً. وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري دخل إليها، وذلك أنه ضلت له إبل فخرج في طلبها فوصل إليها، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره وقال في نفسه: هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين في الآخرة فقصد باباً من أبوابها، فلما وصل إليها أناخ راحلته ودخل المدينة فرأى تلك القصور، والأنهار، والأشجار ولم ير في المدينة أحداً، فقال: أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت في وعاء وجعله على راحلته، وعلم على المدينة علامة، وقال قريبا من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعد ما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضي الله تعالى عنه بدمشق وأخبره بجميع ما رآه. فقال له معاوية: في اليقظة رأيتها أم في المنام. قال بل في اليقظة وقد حملت معي من حصباتها وأخرج له شيئاً مما حملة من الجواهر واليواقيت فتعجب معاوية من ذلك ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه فلما دخل عليه قال معاوية: يا أبا سحاق هل بلغتك أن في الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وقد ذكرها الله عز وجل في القرآن لنيبه ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ \* إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ \* الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ﴾<sup>(٢)</sup> وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري. ثم التفت فرأى عبد الله بن قلابة. فقال: ها هوذا يا أمير المؤمنين وصفته واسمه في التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأن الرجل الذي دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا من كان حاضراً، بل قال إن النبي ﷺ قال: يدخلها بعض أمتي والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) سورة: النجم، الآية: ٥٠.

(٢) سورة: الفجر، الآيات: من ٦ - ٨.

ومن المباني العجيبة الخورنق الذي بناه النعمان بن امرئ القيس، وهو النعمان الأكبر بناه في عشرين سنة، فلما انتهى أعجبه فخشى أن يبنى لغيره فأمر أن يلقي بانيه من أعلاه فألقوه فتقطع، واسم بانيه سنمار فصارت العرب تضرب به المثل: جزاء جزاء سنمار قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبير  
وحسن فعل كما يُجزى سنماز

ومن المباني العجيبة حائط العجوز واسمها دلوك القبطية، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولدأ فأخذت له الرصد، فقيل له يخشى عليه من التماسح، فلما شب الغلام خافت عليه فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقي. وقيل بته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها. وقد قيل إنها أرادت أن تخوف ولدها من التماسح حتى لا يتزل البحر فصورت له صورة التماسح فرآه شكلاً مهولاً فأذهله، وأخذته الفزع والهم فضعف وانسل إلى أن مات لا مفر من قضاء الله تعالى.

ومن المباني العجيبة الأهرام وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا، قيل إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة، ألفا ذراع، من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هرماً وتعجب من بنائها وصفتها. قيل إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً في عرض عشرة أذرع وقد أحكم إصاقه ونحته وتسويته، ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه، وهي من عجائب الدنيا. قال بعضهم:

أين الذي الهرمان من بنيانه  
ما قوم ما يومه ما المصرع  
تخلف الآثار عن سكانها  
حيناً ويدركها الفناء فتصرع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم، كما تميزوا عنهم في حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بتقريبها فنبأ أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل فوجد داخله مزاليق ومهاوٍ يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجد في أعلاه بيتاً وفي وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه، ويقال إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهرق بن سرياق لرؤيا رآها، وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان. فقالوا إنه بناها في ستة أشهر وقال: قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة، والهدم أيسر من البنيان، وكسوناها الديقاج الملوّن فليَكْسِبَهَا حصراً، الحصر أهون من الديقاج والأمر فيها عجيب جداً والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة منارة الاسكندرية: التي بناها ذو القرنين. قيل إنها كانت مبنية بحجارة مهندمة مغموسة في الرصاص فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبيوت طاقات تطل على البحر، ويقال إن طولها كان ألف ذراع وفي أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو فيستعدون له، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت مطرباً، ويقال إنه كان بأعلاها امرأة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرس، وقيل كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من

المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرأة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر ويهلك كل من فيها. وكانت الروم تؤذي الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودي: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفاً وهدايا، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن يبلاده دقاتن، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً، قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال. وقالوا للوليد إن تحت المنارة كنوزاً لا تتفد وبازاتها خيبة، بها كذا وكذا ألف دينار فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها، فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها، فهدموها فلم يجدوا شيئاً وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالأجر ولم يقدر أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها المرأة كما كانت. فصدت ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أولاً وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجرز اليماني المصقول كالمرأة، إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشي خلفه لصفاتها، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعاً، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه. وفي مدينة حمص، مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا، فهي من عجائب البنيان، والبيوت، والغرف والماء الجاري في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وعند حوران مدينة عظيمة يقال له اللجأة، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه السنة العقلاء، كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت، ليس في الدار خشبة واحدة، بل أبوابها وغرفها وسقفها، وبيوتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطيع أحد أن يعمله من الخشب، وفي كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلعة الحصينة، إذا خاف أهل تلك النواحي من العدو دخلوا إلى تلك المدينة، فيتزل كل إنسان في دار بجميع عياله، وخيله، وغنمه، ويقره ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار فيما يقال ولا يعلم أحد من بناها، وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجأون إليها عن الخوف.

ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أو شروان: بناه سابور ذو الاكتاف في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين بناه بالأجر والجص، وجعل طول كل شراقة من شرايفه خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً. وحكي أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه، وأن يجعل آتة في بنائه فقيل له إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع وهدم شراقة، وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك. وقيل إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه هو آية الإسلام فلا تهدمه. وحكي أنه كان بمدينة قيسارية كنيسة بها امرأة، إذا أتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرأة فيرى صورة الزاني، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه فعمد أهله إليها فكسروها والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب السابع والستون: في ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس، ومنها ما لا يعرفونه، وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة وهي: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والقصدير، والأسرب، والمخارصيني. ولنبدأ أولاً بذكر الذهب: فقبل طبعه حازّ لطيف ولشدة اختلاط أجزائه المائية بالترابية قبل إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق، ولا يبلى ولا يصدأ وهو لين برّاق، حلو الطعم أصفر اللون، فالصفرة من نارته، والليمونة من دهنته، والبرّاقة من صفاء مائه.

خواصه: يقوّي القلب، ويدفع الصرع تعليقاً ويمنع الفزع والخفقان ويقوّي العين كحلاً ويجلوها إن كان ميلاً ويحسن نظرها، وإذا ثبت به الأذن لم تلتحم، وإذا كوي به لم يفظ ويرأ سريعاً، وإسماكه في الفم يزيل البخر.

الفضة: قريبة منه، وتصدأ، وتحترق وتبلى بالتراب وإذا أصابها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت ورائحة الكبريت اسودّت. ومن خواصها أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه، وإذا أذيت مع الزئبق وطلبي بها البدن نفع ذلك من الحكمة والجرب وعسر البول.

النحاس: قريب منها لكنه أيسر وأغلظ في الطبع. ومن خواصه إذا صدئ وطلبي بالحامض زال صدؤه، والأكل في آنته، يولد أمراضاً لا دواء لها.

الحديد: كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل. ومن خواصه أنه يمنع غليظ النائم إذا علق عليه، وحمله يقوّي القلب، ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة، ويسرّ النفس، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلاً، والبواسير تحملاً.

القصدير: صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض. ومن خواصه أنه إذا ألقى في قدر لم ينضج ما فيها.

الأسرب: هو الرصاص. ومن خواصه أنه يكسر الماس، ومن خواص الماس الدخول في كلّ شيء، وإذا شدّ من الرصاص قطعة على الخنازير والغدد أبرأتها.

المخارصيني: حجر لونه أسود يعطي حمرة. ومن خواصه إذا عمل منه مرآة ونظر فيها في الظلمة نفعت للقوة، وإذا نشف الشعر بملاقاط منه لم يبت.

الأحجار الجوهريّة: أصل الجوهر، وهو الدرّ على ما قيل إن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر، ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ويضمها ويرجع إلى البحر فيتزل، إلى قراره، ولا يزال طابقاً أذنه على ما فيها خوفاً أن يخالط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها ويصير درأ، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرّة صغيرة، وإن كانت كبيرة فكبيرة، فإن كان في بطن هذا الحيوان شيء من الماء المرّ كانت الدرّة كدرة، وإن لم يكن، كانت صافية وقيل غير

ذلك. والدّر نوعان كبير وصغير. وقيل إنه تصل الواحدة إلى مثقال. ومن خواصه أنه يفرح القلب، ويسيط النفس، ويحسن الوجه، ويصفي دم القلب، وإذا خلط مع الكحل شدّ عصب العين.

الياقوت: سيد الأحجار وأصول ألوانه أربعة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، والأسمانجوني<sup>(١)</sup>، ويتولد منها ألوان كثيرة وأعدلها الأحمر الخالص الرماني الشبية بحبّ الرمان الأحمر، ودونه الأحمر المشرب بياض، ثم الورد، ثم الخمري، ثم العصفري، وأرؤه الأزرق الذي لون يشبه زهر السوسن، وأقله قيمة الأبيض. خواصه أنه لا يعمل فيه الفولاذ، ولا حجر الماس، ولا تندسه النار، ويورث لابسه مهابة ووقاراً، ويسهل قضاء الحوائج ويدّر الريق في الفم، ويقطع العطش، ويدفع السمّ، ويقوّي القلب وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً، والأبيض منه يسط النفس، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل.

البلخش: هو مقارب للياقوت في القيمة ودونه في الشرف، ومن خواصه أنه يورث قبض النفس، وسوء الخلق والحزن، وهو ألوان: أحمر، وأخضر، وأصفر.

البنقش: أصناف: أحمر مفتوح اللون صاف، وأحمر قويّ الحمرة، وأسود يعلوه حمرة مطوّسة<sup>(٢)</sup> بزرق خفيفة، ثم أصفر مفتوح اللون.

عين الهزّ: حجر يتكوّن من معدن الياقوت، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ومائته رقيقة شفاقة، وفي مائته سرّ إذا حرّك يميناً تحركت يساراً وبالعكس. ومن خواصه إذا علق على العين أمن عليها من الجلدي على ما قيل.

الماس: يوجد بواد بالهند يقال إنه مشحون بالحيات، فيأتي من يريد استخراجها من ذلك الوادي فيضع في الوادي مرآة كبيرة فتأتي الحيات فتنظر إلى خيالها في المرأة فتقرّ من ذلك الجانب فيتزلّ فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها في ذلك الوادي فيلتصق بالماس وغيره باللحم فتأتي الطير فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر فيأخذه صاحب اللحم. وقيل إن الحيات لها مشتى ستة أشهر في مكان، ومصيف ستة أشهر في مكان آخر فإذا ذهبت إلى مشتاها ومصيفها أخذ الحجر في غيبتها، والله أعلم بصحة ذلك. ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل في أنبوبة قصب وضرب فإنه يتفتت، وكذا إذا جعل في شمع أو قار وإذا جعل عليه دم تيس وقرب من النار ذاب. ومن خواصه أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه، وهو من السموم القاتلة، القطعة الصغيرة منه إذا حصلت في الجوف ولو بقدر السمسة خرقت الأمعاء. ومن خواصه الجليلة أنه يعزق عند وجود السمّ أو الطعام المسموم.

الزمرّد: ويسمى الزبرجد، وهو ألوان: أخضر، وزنجاري<sup>(٣)</sup>، وصابوني ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل. ومن خواصه أنه يدفع العين، ويفرح القلب ويقوّي البصر، ويصفي الذهن، وينشط النفس.

(١) الأسمانجوني: الأبيض المائل للإصفرار.

(٢) مطوّسة: مشربة.

(٣) زنجاري: من درجات الأخضر.

الفيروزج: نوعان: إسحاقى، وخلنجى، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى. خواصه: النظر فيه يجلو البصر، ويقويه وينشط النفس ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق. وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بفيروزج، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه ولا يزال كذلك حتى ينطفئ.

العقيق: معدن بأرض صنعاء اليمن، وهو ألوان ويوجد عليه غشاوة، ويحمى عليه بعر الإبل ثم يبرد ويكسر. وقيل يوجد بالهند، ولكن اليمنى أجود. خواصه: التختم به وحمله يورث الحلم والأناة وتصويب الرأي ويسر النفس، ويكسب حامله وقاراً وحسن الخلق، ويسكن الحدة عند الخصومة. قال رسول الله ﷺ: «من تختم بالعقيق لم يزل في بركة».

الجزع: هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن، والصين، وألوانه كثيرة، والناس يكرهونه لأنه يورث الهم، والأحلام الرديئة، وسوء الخلق، وتعسر قضاء الحوائج ويكثر بكاء الصبي وسيلان لعابه، وينقل اللسان. إذا سحق وشرب ماؤه وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقاً.

البلور: هو صنف من الزجاج. يحكى أن ببلاد كيسان جبلين: أحدهما بلور، وإذا أريد قطع البلور في ذلك الموضع قطع في الليل لأنه في النهار يكون له شعاع عظيم. خواصه: النظر فيه يشرح القلب ويسط النفس، ويسكن وجع الضرس.

المرجان<sup>(١)</sup>: هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجيريه يشبه النبات، ويتحجره يشبه المعدن ولا يزال ليناً في معدنه، فإذا فارقه تحجر ويس. خواصه: النظر فيه يشرح الصدر، ويسط النفس، ويفرح القلب، ويذهب بالداء المحتبس في العين، ويسكن الرمد، وسحاقتة المخلوطة بالخل تجلو قلع الأسنان، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ. وأنواعه كثيرة: أحمر، وأزرق، وأبيض، وأصله من البحر. قيل: إنه شجر ينبت. وقيل: إنه من حيوانه.

حجر الماطليس: هو حجر هندي لا يعمل فيه الحديد. والبيت الذي يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجن، ولأجل ذلك كان الاسكندر يجعله في عسكره.

الحجر الماهاني: من تختم به أمن الروح، والهم، والحزن، والغم، ولونه أبيض وأصفر ويوجد بأرض خراسان.

حجر مراد: يوجد بناحية الجنوب. وخاصيته: أن الجن تتبع حامله وتعمل له ما أراد.

الدهنج: خاصيته: أنه إذا سقي إنسان من محكه يفعل فعل السم، وإذا سقي شارب السم منه نفعه، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن. وينفع من خفقان القلب، وإذا طلي بحكاكته يبيض البرص أزاله، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه.

السيج: خواصه: أنه يقوي الضعيف من الكبر أو نزول الماء، ولبسه يفتح عسر البول، وإدمان النظر فيه يحد البصر وسحاقتة تجلو البصر وإذا علق على مَنْ به الصداق زال عنه.

(١) المرجان: بل هو حيوان.

المغتاطيس: يوجد في بحر الهند، وهناك لا يتخذ في السفن حديد، ويوجد نيلاذ الأندلس أيضاً، وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب حمرة. خواصه: الإكتحال بسحاقتة يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه، ويسهل الولادة تعليقاً، ومن تختم به كانت حاجته مقضية وتعليقه في العنق يزيد في الدهن، وإذا سحق وشرب من سحاقتة من به سمّ بطل سمه، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته، وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

حجر الخطاف: الخطاف يوجد في عشه حجران أحدهما أحمر، والآخر أبيض، فالأحمر إذا علق على مَنْ يفرع في نومه زال فرعه، والأبيض إذا علق على مَنْ به صرع زال عنه.

حجر الزاج: إذا دخن البيت بسحاقتة هرب منه الفأر والذباب.

حجر الزنجفر: أصله من الزئبق واستحال وخاصيته أنه يدخل الجراحات وينبت اللحم.

حجر الملح: هو أنواع وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط وقد جعله الله قواماً للدنيا. ومن خاصيته أنه يحسن الذهب ويزيد في صفوته وعن النبي ﷺ أنه قال: «يا علي إبدأ بالمح والخبث به، فإنه فيه شفاء من سبعين داء». حجر النطرون: قال أرسطو: ينفع الأرحام التي غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها، وإذا ألقى في العجين طيبه، ويبيضه، ونفشه، وهو نوعان أبيض وأحمر.

حجر اللازورد: مشهور، قال أرسطو: من تختم به عظم في أعين الناس، وينفع من السهر والله أعلم. ومن أراد التعمق في ذلك فعليه بالكتب الموضوعة له ولكن قد ذكرنا ما هو معروف والحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثامن والستون: في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنته

وما ذكرت إلا لأني كرهت أن يكون كتابي هذا بعد اشتماله على فنون الأدب، والتحف، والنوادر، والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وريح القلب، ومجال الهوى، ومسلاة<sup>(١)</sup> الكتيب، ونس الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذ بمجامع النفس.

### فصل: في الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup> هو الصوت الحسن، وعن النبي ﷺ أنه قال: «أتدرون متى كان الحداء؟»<sup>(٣)</sup> قالوا لا بأينا أنت وأمنا يا رسول الله قال: «إن أباكم مضر خرج في طلب مال له فوجد غلاماً له قد تفرقت إبله فضربه على يده بالعصا، فعدا الغلام في الوادي، وهو يصيح وايداه فسمعت الإبل صوته فظفقت عليه. فقال مضر: لو اشتق من الكلام مثل هذا، لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل، فاشتق الحداء». وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه لما أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً في الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تتخلع أوصاله مما كان يتحب،<sup>(٤)</sup> وكانب الوحوش والطيور تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق القرش فيقول: يا داود مجديني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. وقال سلام الحادي للمنصور وكان يضرب المثل بحدائه: مَرُّ يا أمير المؤمنين بأن يظنوا إبلاً، ثم يوردوها الماء فإني آخذ في الحداء، فترتفع رؤوسها وتترك الشرب. وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق فيصفو له الدم، وتنمو له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتّر له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقص ويضطرب. وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من النطق لم يقدر اللسان على استخراجها، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع، لا على القطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحث إليه الروح، ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملاثة والفتور على

(١) مسلاة: سلواه.

(٢) سورة: فاطر، الآية: ١.

(٣) الحداء: غناه تقاد به الإبل.

(٤) يتحب: يكي بصوت.



أبدانهم ترنموا بالألحان، واستراحت إليها أنفسهم، وليس من أحد كاتناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه. ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكّل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاياة<sup>(١)</sup> على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع فإنه لا معاياة فيه على البدن، ولا وتعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام والذّب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد ييكي الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويمثله في ضميره. ولأهل الرهبانية نغمات والألحان شجية يمجّدون الله تعالى بها، ويكون على خطاياهم ويتذكرون نعيم الآخرة. وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد تحنّ القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم. وكان صاحب الفلاحات يقول إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء. قال الشاعر:

والطير قد يسوقه للموت إصفاؤه إلى حين الصوت

وزعموا أن في البحر دواب، ربما زمزت أصواتاً مطربة، ولحوناً مستلذة يأخذ السامعين الغشي من حلاوتها فاعتى بها وضعة الألحان، بأن شبهوا أغانيهم فلم يبلغوا، وربما يغشى على سماع الصوت الحسن للطاقة وصوله إلى الدماغ، وممازجته للقلب، ألا ترى إلى الأم كيف تناغي ولدها فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهى عن البكاء، والإبل تزداد في نشاطها وقوتها بالحداء، فترفع آذانها وتلصق يمتة ويسرة وتبخر في مشيتها. وزعموا أن السماكين بنواحي العراق يتنون في جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك في الحفائر فيصيدونه وقد نبهت على ذلك في باب ذكر البحار. وما فيها من العجائب. والراعي إذا رفع صوته ونفخ في يراعه تلقته الغنم بأذانها وجذّت في رعيها والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصفير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذ به أخف مؤنة من السماع. قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة، فإن النفس إذا حزنت خملت نارها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرّها اشتعل منها ما خمدت، وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع، وتعلل به المريض وتشغله عن التفكير، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني:

وسماع مسمعة يعلّنا حتى ننامَ تناومَ المعجم

وحكى أن البلعكي مؤذن المنصور رجّع<sup>(٢)</sup> في أذانه ليلة وجارية تصبّ الماء على يد المنصور فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية فهي لك ولا تعد ترجع هذا الترجيع، وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قية:

ألم ترهـا لا أبعد الله دارهـا إذا رجعت في صوتها كيف تصنع  
تديـرُ نظامَ القولِ ثم تردّه إلى صلصل من صوتها يتزجج

(١) معاياة: تعب.

(٢) رجّع: فنون من التريد.

ويعد، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب وأشد اختلاساَ للعقول من الصوت الحسن لا سيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

رَبُّ سَمَاعٍ حَسَنٍ      سَمِعْتُهُ مِنْ حَسَنٍ  
مَقْرَبٍ مِنْ فَرَحٍ      مَبْعَدٍ مِنْ حَزَنٍ  
لَا فَارْقَانِي أَبَدًا      فِي صَحْوَةٍ مِنْ بَدَنٍ

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يعني بقول جرير:

قُلْ لِلجَبَانِ إِذَا تَأَخَّرَ سَرَجُهُ      هَلْ أَنْتَ مِنْ شَرِّكَ المِنيَةِ نَاجِي

إلا شاجن<sup>(١)</sup> شجعت نفسه وقوي قلبه، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يعني بقول حاتم الطائي:

يَرَى البَخِيلُ سَبِيلَ المَاءِ وَاحِدَةً      إِذَا انبَسَطَتْ أَنَامِلُهُ وَرَشَحَتْ<sup>(٢)</sup> أَطْرَافَهُ.  
إِن الجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سَبِيلًا

واختلف الناس في الغناء، فأجازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازه ما روي عن النبي ﷺ قال لحسان: «شن الغطاريف على بني عبد مناف فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام». واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يعني؟ قالت: لم نفعل. قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول؟ ألا بعثتم معها من يقول:»

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ      فَحَيْثُونَا نَحْيِكُمْ  
وَلَوْلَا الحَبَّةُ المَرَّةُ      لَمْ نَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرّم، ولا يكره السماع عند العرس، والوليمة، والعقيقة وغيرها فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح، أو مندوب ويدل عليه ما روي من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبي ﷺ حيث قلن:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا      مِنْ ثِيَابِ السُّودَاعِ  
وَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا      مَا دَعَا لَه دَاعٍ  
أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا      جِئْتَ بِالأَمْرِ المَطَاعِ

ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة<sup>(٣)</sup> يلعبون في المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسأله. ويدل عليه أيضاً ما روي في الصحيحين من حديث عقيل من الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جارتان في أيام منى يدفنان

(١) شاجن: حزين متأثر.

(٢) رشحت: سال منها ما سال.

(٣) الحبشة: الأولاد الأجناس.

ويضربانه، والنبى ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد» وعن قرّة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للنايعة الجعدي: «أسمعتي بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك. فأسمعه كلمة. فقال له وإنك لقاتلها؟ قال نعم قال طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب. وعن عبد الله بن عوف قال أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فسمعتة يغني بالركابية يقول:

كيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً<sup>(١)</sup> منها جميل بن معمر

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر، قال: فلما استأذنت عليه قال لي: «أسمعت ما قلت؟ قلت نعم. قال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم. وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتزنيه عنها، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أخرج إليها لأقامة الوزن. وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت، والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخيز المشور. ومن حجة من كره الغناء أنه قال: إنه يفر القلوب، ويستفز العقول، ويبعث على اللهو، ويحض على الطرب، وهذا باطل في أصله وتأولوا في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾<sup>(٢)</sup> وأخطأ من أول هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً. وقال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ فقال نعم العمون على طاعة الله تعالى، يصل الرجل به رحمه، ويواسي به صديقه، قال ليس عن هذا أسألك، قال وعمّ سألتني؟ قال أن يغني الرجل، قال وكيف يغني فجعل الرجل يلوي شذقيه ويفتح منخريه، فقال الحسن والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً، فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتمويج فمه. وسمع ابن المبارك سكراناً يغني هذا البيت:

أذُنِي الهوى فأتنا الذليلُ وليسَ إليّ الهوى سيلاً

قال: فأخرج دواة وقرطاساً وكتب البيت. فقيل له: «أنت كتب بيت شعر سمعتة من رجل سكران؟ فقال: أما سمعت المثل: رب جوهرة في مزبلة؟ وكان لأبي حنيفة جار من الكياليين مفرغ بالشراب وكان يغني على شرايه بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كرههؤ وسداؤ تُغَرِّ

قالوا: فأخذ العسس ليلة وجسه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له. فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذ العسس وهو في الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى فاستأذن عليه فأسرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه. فقال: أصلح الله الأمير: إن لي جاراً من الكياليين أخذ عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من في الحبس إكراماً لأبي حنيفة. فأقبل الكيال على أبي حنيفة يتشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعتك يا فتى؟

(١) وطراً: غاية.

(٢) سورة: لقمان، الآية: ٦.

يعرض له شعره الذي يشده. قال: لا والله ولكنك بررت<sup>(١)</sup> وحفظت. وكان عروة بن أدية ثقة في الحديث روى عنه مالك بن أنس، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره ويلحنها للمغنين. قيل: إنه وقفت عليه امرأة يوماً وحوله التلامذة فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول:

إذا وجدتُ أواز<sup>(٢)</sup> الحبِّ في كبدي      عمدتُ نحو سقاء القوم أبتردُ  
هَبْنِي بردتُ ببردِ الماءِ ظاهره      فَمَنْ نَارٍ على الأحشاء تَقْبُدُ

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة، بمزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة. قيل إنه مر يوماً بسلامة وهي تغني فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها فقال له: هل لك أن تدخل وتسمع؟ فأبى، فلم يزل به حتى دخل ففتته فأعجبه ولم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غتته:

رَبِّ رَسُولِينَ لَنَا بَلْغَا      رِسَالَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَحَا  
الطَّرْفُ لِلطَّرْفِ بِمَشَاهِمَا      قَفْصَبًا حَاجِبًا وَمَا صَرَحَا

قال: فأغمي عليه وكاد يهلك فقالت له: إني والله أحبك قال وأنا والله أحبك. قالت وأحب أن أضع فمي على فمك. قال وأنا والله كذلك قالت فما يمنعك من ذلك؟ قال أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة. لما سمعت قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها وأنشأ يقول:

قَد كُنْتُ أَعْدُوًّا فِي السَّفَاهَةِ أَهْلِهَا      فَاعْجَبْ لِمَا تَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ  
فَالْيَوْمَ أَعْنَدُهُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّمَا      سُبُلُ الضَّلَالَةِ وَالْهَدَى أَسَامُ

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه فعاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عبد الله بن جعفر فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم فاسمع ما في منزل الذي جعلته من لحمك ودمك وأنزلته بين حرمك، فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تتخرّ له. ثم انصرف فلما كان في آخر الليل وسمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر وهو قائم يصلي فنبه فاختة وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعتني، هؤلاء قومي ملوك بالنهار، ورهبان بالليل، ثم إن معاوية أرق ذاب ليلة قال لخادمه اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر وأخبره أنني قادم عليه، فذهب وأخبره فأقام عبد الله كل من كان عنده فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد الله فقال: مجلس من هذا؟ قال عبد الله هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد، قال مجلس من هذا؟ قال مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين. قال إن أذني عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديع المعني، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه. فقال له معاوية: داو أذني من علتها، فتناول العود وغنى وقال<sup>(٤)</sup>:

(١) بررت: كنت باراً ووفياً.

(٢) أواز: لظي.

(٣) سورة: الزخرف، الآية: ٦٧.

(٤) المحفوظ في رواية بيت الأعشى: فودع هريرة... ٤٠٠.

وَدَعَّ سَعَادَ فِإِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحِلُ      وهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

قال: فحرك عبد الله بن جعفر رأسه. فقال له معاوية: لم حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين، لو لقيت لأبليت، ولو سئلت لأعطيت، وكان معاوية قد خضب. قال: فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية أعز جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه فغنى بديح وقال:

أَلَيْسَ عِنْدَكَ شُكْرٌ لِّلَّتِي جَعَلْتَنِي      مَا أَيضاً مِنْ قَادِمَاتِ الرَّأْسِ كَالْحَمِيمِ<sup>(١)</sup>  
وَجَدَّدْتَنِي مِنْكَ مَا قَدْ كَانَ أَخْلَقَهُ      صَرَفْتُ الزَّمَانَ وَطَوَّلْتُ الدَّهْرَ وَالْقَدَمِ

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر: يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي فأجبتك وأحبرتك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال: كل كريم طروب. ثم قام وقال: لا يبرح أحد منكم حتى يأتي له إذني، ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار، ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب.

وحدث ابن الكلبي والهيثم بن عدي قالا: بينما عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء فأصغى إليه فإذا صوت رقيق لقيته تغني وتقول:

قُلْ لِلْكَرَامِ بِيَابِنَا يَلْجُوا      مَا فِي النَّصَابِيِّ<sup>(٢)</sup> عَلَى الْفَتَى حَرَجُ

فتزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن فلما رأوه قاموا إجلالاً له ورفعوا مجلسه فأقبل عليه صاحب المجلس وقال: يا ابن عم رسول الله ﷺ أتدخل مجلسنا بلا إذن، وليس هذا من شأنك؟ فقال: عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. فقال: ومن إذن لك؟ قال: قيتك هذه سمعتها تقول: «قل للكرام بيابنا يلجوا»، فولجنا فإن كنا كراماً فقد أذن لنا، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين. فقبل صاحب المنزل يده، وقال: جعلت فداك والله ما أنت إلا من أكرم الناس. فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه فحضرت، ودعا بشباب وطيب فكسا القوم، وطيبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل وقال هذه أحذق بالغناء من جاريتك. وسمع سليمان بن عبد الملك مغنياً في عسكره فقال اطلبوه فجاءوا به. فقال: أعد علي ما غنيت به. فغنى واحتفل، وكان سليمان أغير الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل في الشوك، وما أظن أني تسمع هذا إلا صبت إليه، ثم أمر به فخصي.

أصل الغناء ومعننه: قال أبو المنذر هشام: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهزج، فأما النصب فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد فالتقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يستفز القلوب، ويهيج الحليم. وقيل كان أصل الغناء ومعننه في أمهات القرى فاشياً ظاهراً، وهي المدينة والطائف وخيبر، وفدك، ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة وهذه القرى مجامع أسواق العرب. ويقال إن أول من صنع العود، لأمك بن قايين بن آدم ويكي به على ولده. ويقال إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحن الثمانية والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الحمم: أي جعلته أسود.

(٢) النصابي: العبت كالصبيان.

## الباب التاسع والستون: في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادير الجلساء في مجالس الرؤساء

قيل إن أول من غنى في العرب قيتان للنعمان يقال لهما الجرادتان ومن غناتهما:

ألا يا قين ويحك قم فهينم<sup>(١)</sup> لعل الله يسقينا غماما

وإنما غتا هذا حين حبس الله عنهم المطر. وقيل: أول من غنى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذي علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه وهو أول صوت غنى به في الإسلام هذا البيت:

قد براني الشوق حتى كدت من وجدي أدوب

ثم نجم بعد طويس، ابن طنبور، وأصله من اليمن وكان أخرج الناس وأخفهم غناء ومن غنائه:

وقيتان على شرب جميعاً دلفت لهم يباطية<sup>(٢)</sup> هدور  
فلا تشرب بلا طرب فلاني رأيت الخيل تشرب بالصفير

ومنهم حكم الوادي ومن غنائه:

إمدح الكأس ومن عملها وأهج قوماً قتلونا بالعطش  
إنما الراح<sup>(٣)</sup> ربيع باكر فإذا ما أقت المرة انتعش

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين، منهم إبراهيم الموصلي، وابن جامع السهمي وغيرهما، وكان له زامر يقال له برصوماً، وكان إبراهيم أشدهم تصرفاً في الغناء، وابن جامع أحلامهم نعمة، فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين. وكان ابن محرز يعني كل إنسان بما يشتهي كأنه خلق من قلب كل إنسان. وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا<sup>(٤)</sup>

(١) فهينم: ترنم.

(٢) يباطية: إناء زجاجي.

(٣) الراح: من أسماء الخمر.

(٤) يتصدع: يتظطر، وهذه الأبيات من حماسة ابن الصمة القشيري.

فليست عشيائ الحمى برواجع  
عليك ولكن خل عينك تدمعا  
بكت عيني اليسرى فلما نهيتها  
عن الجهل بعد الحلم أسبنا معا

قال: فاستخف الرشيد الطرب فأمر له بمائة ألف درهم. وحدث ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء، وأنبههم فيه وكان من أضيح الناس خلقاً، إذا قيل له غنَّ قال: لمثلي يقال غنَّ؟ علي عتق رقبة إن غنيت يومي هذا! فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق فلم يبق في المدينة مخبأة ولا مخدرة، ولا شاب، ولا كهل، إلا خرج يصصره وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني وهو معتجر<sup>(١)</sup> بفضل رداه. فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته فقال لهما: أنسم بالله إن لم تفعلما ما أمركما به لأنكنا بكما. فقالا: يا مولانا قل ما تأمرنا به فلو أمرتنا أن نفتحم النار فعلنا. قال اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل رداه فأمسكاه، فإن لم يفعل ما أمره به وإلا فأخذنا به في العقيق. قال فمضيا والحسن يقفوهما<sup>(٢)</sup>، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما أخذان بمنكبيه. فقال من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة. فقال: ليك وسعديك، بأبي أنت وأمي. قال: اسمع مني ما أقول لك، واعلم أنك مأسور في أيديهما، وقد أقسمت إن لم تفرَّ مائة صوت ليطرحانك في العقيق. قال: فصاح ابن عائشة واولاده، وأعظم مصيبتاه. فقال له الحسن: دعنا من صياحك وخذ فيما يفتعنا. قال: اقترح، وأقم من يحيي، ثم أقبل يعني فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض وقال للحسن صلى الله على جدك حياً وميتاً فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت. فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة. فقال ابن عائشة والله ما مرت بي شدة أعظم من هذه، لقد بلغت أطراف أعضائي، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له ما أشد يوم مرَّ عليك يقول يوم العقيق.

وحدث أبو جعفر البغدادي قال: حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل فإذا على باب المشدود، وهو أحلق خلق الله تعالى بالغناء. فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعمري أستفيد حكمة أكتبها. فقال: ادخل بنا إلى أبي عيسى. قلت: أمثل أبي عيسى في قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟ فقال للحاجب: اعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إليّ، فحملوني حملاً فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أطرف منها هيئة، فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي: ما يعيش من يحتشم، اجلس. فجلست. فأتينا بطعام كثير فلما انقضى أتينا بشراب. وقامت جارية تسقينا شراباً كالشعاع في زجاجة كأنها كوكب دري. فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه، ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا أبو عيسى بالمغنين. وهم المشدود، وديس، وورقيق؛ ولم يكن في ذلك الزمان أحلق من هؤلاء الثلاثة بالغناء. فابتدأ المشدود وغنى يقول:

لما استقلُّ، بأردافٍ تجاذبُهُ  
واخضرَّ فوق يياض الدرِّ شاربُهُ  
وأشرقَ الوردُ من نسرينٍ وجتبهِ  
وامتَرَ أعلاه وارْتَجَّتْ حقايبُهُ

(١) معتجر: يلفه على رأسه.

(٢) يقفوهما: يتبعهما.

فَكَانَ مِنْ رَدِّهِ مَا قَالَ حَاجِبُهُ

كَلَّمْتُهُ بِجَفْوَيْنِ غَيْرِ نَاطِقَتَيْنِ

ثم سكت وغنى ديبس:

وَصَاحِبُ الْحَبِّ صَبُّ الْقَلْبِ ذَائِبُهُ  
يَوْمَ الْفِرَاقِ وَدَمْعُ الْعَيْنِ سَاكِبُهُ  
رَافِقُ بَقَلْبِكَ قَدْ عَزَّتْ مَطَالِبُهُ

الْحَبُّ حَلْوٌ أَمْرَتُهُ عَوَاقِبُهُ  
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ مَنْ بِالطَّرْفِ وَدَعْنِي  
ثُمَّ انصرفت وداعي الشوق يهتف بي

ثم سكت وغنى رقيق:

قَدْ لَاحَ عَارِضُهُ وَاخْضَرَ شَارِبُهُ  
أَوْ يَنْطِقُ الْقَوْلَ يَوْمًا فَهُوَ كَاذِبُهُ  
فَقَامَ يَشْدُو وَقَدْ مَالَتْ جَوَابُهُ

بَدْرٌ مِنَ الْأَنْسِ حَقَّتْهُ كَوَاكِبُهُ  
إِنْ يُوْعِدُ الْوَعْدَ يَوْمًا فَهُوَ مُخْلِفُهُ  
عَاطِيَتُهُ كَدَمَ الْأَوْدَاجِ صَافِيَتُهُ

ثم سكت وابتدأ المشدود يقول:

مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فَلِإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي

يَا دَيْرَ حَنَةَ مَنْ ذَاتِ الْأَكْبِرَاحِ<sup>(١)</sup>

ثم سكت وغنى ديبس:

وَأَعْدِلْ هَدَيْتَ إِلَى شَيْخِ الْأَكْبِرَاحِ  
مِنَ الْعِبَادَةِ إِلَّا نَضْوًا<sup>(٢)</sup> أَشْبَاحِ  
كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ فِي جَفْنِي سَبَاحِ

دَعِ الْبِاتِيْنَ مِنْ أَسْ وَتَفَاحِ  
وَأَعْدِلْ إِلَى فِتْيَةٍ ذَابَتْ لِحْوْمُهُمْ  
وَخَمْرَةٌ عُمَّتْ فِي ذَنْهَا حَبَابُ

ثم سكت وغنى رقيق:

وَاشْرَبْ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ مَشْمُولَةِ الرَّاحِ  
أَغْنَاهُ لِأَلَاؤِهَا عَنْ كُلِّ مَصْبَاحِ  
وَاللَّيْلُ مَلْتَحِفٌ فِي ثَوْبِ أَسْمَاحِ  
يَا دَيْرَ حَنَةَ مَنْ ذَاتِ الْأَكْبِرَاحِ

لَا تَحْفَلْنَ بِقَوْلِ اللَّائِمِ اللَّاحِي<sup>(٣)</sup>  
كَاسًا إِذَا اتَّحَدَرَتْ فِي حَلْقِي شَارِبَهَا  
مَا زِلْتُ أَسْقِي نَدِيمِي ثُمَّ الثَّمَّةُ  
فَقَامَ يَشْدُو وَقَدْ مَالَتْ مَسْأَلَةُ

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له: عَنِّي لِي شِعْرِي فَغَنَاهُ:

أَمْ الْكُرَى مِنْ جَفْوَيْنِ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ  
بِعَقْرِ الصَّدْغِ مِنْ مَوْلَايَ مَلْسُوعُ  
فَالْقَلْبُ مِنْ فِرْقِ الْأَحْزَانِ مَصْدُوعُ  
ثَوْبُ الْجَمَالِ عَلَى خَدَيْهِ مَخْلُوعُ

يَا لَجَّةَ الدَّمْعِ هَلْ لِلْغَمَضِيِّ مَرْجُوعُ  
مَا حَيْلَتِي وَفَوَادِي هَائِمٌ دَنْفُ  
لَا وَالَّذِي تَلَفَّتْ نَفْسِي بِفِرْقَتِيهِ  
مَا أَرَقُّ الْعَيْنَ إِلَّا حَبُّ مَبْتَدِعِ

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك

(١) الأكيراح: موضع للرهيبة.

(٢) نضو: ضعيف.

(٣) اللاحي: العاذل.



المجلس، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا. وحكي عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع: مَنْ بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بني أمية، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه. قال: فأذن له وحده فدخل فقال: هات يا هشام: فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا      جَرَى الدمعُ من عيني بثينةً بالكحل  
فيا وَجَّحْ نفسي حَسْبُ نَفْسِي الذي بها      ويا وَجَّحْ أهلي ما أصبْتُ به أهلي  
خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما      قتيلاً بكى من حبِّ قاتلِهِ قبلي

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً: وقال: أحسنت لله أبوك، ثم قلده عقداً نفيساً، فلما رآه هاشم تفرقت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكيك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لي أمير المؤمنين حدثته به. قال قد أذنت لك، قال: يا أمير المؤمنين، قدمت يوماً على الوليد وهو على بحيرة طبرية ومعه قيتان لم ير مثلهما جمالاً وحسناً، فلما وقعت عينه عليّ، قال: هذا أعرابي قد ظهر من البوادي، ادعوه لئسخر به. فدعاني فسرت إليه ولم يعرفني فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لي فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابي؟ يعيب علينا غثاءنا. فنظر إليّ كالمنكر. فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أبين لك الخطأ فلتصلح وتر كذا، ووتر كذا ففعلت وغنت شيئاً ما سمع منها إلا في هذا اليوم. فقامت الجارية مكبة عليّ وقالت: أستاذي هاشم ورب الكعبة. فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. وكشفت عن وجهي وأقمت معه بقية يومنا فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في برّ أستاذي؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فخلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عقها ووضعته في عني وقالت: هو لك. ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب في السفينة وطلعت معه إحدى الجاريتين واتبعتها صاحبتني فأرادت أن ترفع رجلها وتطلع السفينة فسقطت في الماء ففرقت لوقتها وطلبت فلم يقدر عليها. فاشتدّ جزع الوليد عليها وبكى بكاء شديداً وبكى أنا عليها أيضاً بكاءً شديداً. فقال لي: يا هشام ما نرجع عليك بما وهبناه لك ولكن نحبّ أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبني إياه فعوضني عنه ثلاثين ألف درهم. فلما وهبتي العقد يا أمير المؤمنين تذكرت فضيته وهذا سبب بكائي. فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم. وقال عليّ بن سليمان التوفلي: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً فأنشده:

إذا نحنُ أدلجنا وأنتِ أمانا      كفى لمطايانا برؤياك هاديا  
ذكرتُك بالديرين يوماً فأشرفتُ      بناتُ الهوى حتى بلغنا التراقيا  
إذا ما طواك الدهرُ يا أمّ مالك      فشانُ المنايا القاضياتِ وشانيا

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمنّ عليّ، قال: أتمني الهنيء والمريء، وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار في كل سنة، فأمر له بهما، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت، ولكن احتالوا في شرائهما منه فسأموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار فرضي بذلك. فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له. فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استرقاها.

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلي قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجيبة ويغني بها شعره وشعر غيره، فقال له يوماً يا أبا محمد لقد ققت أهل العصر في كل شيء فغنتي شعراً أرتاح إليه، وأطرب عليه يومي هذا. قال إسحاق فغنته هذه الأبيات:

ما كنتُ أعلمُ ما في اليَينِ من حُرْقٍ      حتى تنادوا بأنْ قد جيء بالسفنِ  
قامتْ تودّعني والدمع يغلِبها      فهممَتْ بعضَ ما قالت ولم تبينِ  
مألتُ إليّ وضمتني لترشفتني      كما يميلُ نسيمُ الريحِ بالفصنِ  
وأعرضتْ ثم قالت وهي باكيةٌ      يا ليتَ معرفتي إياك لم تكنِ

قال: فخلع علي خلعاً كانت عليه، وأمر لي بمائة ألف درهم. قال وغنته يوماً:

فسي ودّعينا يا سعادُ بنظرةٍ      فقد حان منا يا سعادُ رجيلُ  
فيا جنة الدنيا ويا غاية المنى      ويا سؤالَ نفسي هل إليك سبيلُ  
وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ لعلوٍ      فأنيئتُ عِلاتي فكيف أقولُ  
فما كلُّ يومٍ لي بأرضك حاجةٌ      ولا كلُّ يومٍ لي إليك وصولُ

فقال: والله لا سمعت يومي غيره، وألقى علي خلعاً من ثيابه وأمر لي بصلة ما أمر لي قبلها بمثلها.

ومن حكايات الخلفاء، ومكارم أخلاقهم ما حكى عن إبراهيم بن المهدي قال: قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندماثة: إني قد استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غداً فهل من مساعد؟ فقلت: جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك، وأسرّ بمشاهدتك، فقال: بكر بكور الغراب. قال: فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرنني في الميعاد، فما زلنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم خلعت علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم. ثم إنه داخله الطرب فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له، ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه فاتفق الأمر المقدر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا في ذلك الوقت، وكان صاحب جلاله وهيبه ورفعة وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم دخل به الحاجب علينا، فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالاً له تقبل يده وقد أرتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه. ثم صاح بغلام: فدفغ له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم. قال: فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدّمت له موائد الطعام والشراب فطعم وشرب الشراب لساعته، ثم قال: خففوا عني فإنه شيء والله ما فعلت قط.

قال: فتהלل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك فقال له: جعلت فداك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت؟ قال: بل إن في قلب أمير المؤمنين بعض تغريرٍ عليّ فتسأله الرضا عني. فقال جعفر قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال وعليّ عشرة آلاف دينار، فقال جعفر هي حاضرة لك من مالي، ولك من مال أمير المؤمنين. مثلها. قال: وأريد أن أشدّ ظهر ابن إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين. قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابته الغالية، قال: وأحبّ أن تخفق الألوية على رأسه، قال: وقد

ولاه أمير المؤمنين مصر. فانصرف عبد الملك بن صالح، وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى سؤاله من الولاية والمال والرضا عنه، إلا المصاهرة. قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي، ثم إبراهيم بن عبد الملك بن صالح، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر، والرايات والألوية تخفق على رأسه، وخرج كل من في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح. قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح، وأحببتم سماع ذلك. قلنا: هو كما ظننت. قال: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس، فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح، فكان متكئاً فاستوى جالساً وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألتني رضاك عنه يا أمير المؤمنين. قال: بم أجبت؟ قلت: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا، قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار. قال: فبم أجبت؟ قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين. قال: وقد قضيتها. ثم ماذا؟ قلت: ورجب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه. قال: فبم أجبت؟ قلت: قد تزجه أمير المؤمنين بابته الغالية. قال: قد أجبت إلى ذلك. ثم ماذا؟ قلت؟ قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: فبم أجبت؟ قلت: قد ولاء أمير المؤمنين مصر. قال: قد وليته إياها ثم نجز<sup>(١)</sup> له جميع ذلك من ساعته. قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أي الثلاثة أكرم، وأعجب فعلاً؟ ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط، أم إقدام جعفر على الرشيد، أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر؟ فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد<sup>(٢)</sup> من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله فقلت: والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود. فقلت له: أعد علي ما سمعت. فقال: والله لو كان عندي قرى أفريكه لفعلت، ولكني أجعله قراك فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروي، ثم اندفع يغني ويقول:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها      أرى الأرضَ تطوي لي ويدنو بعيدها

من الخفراتِ البيضِ ودَّ جليئها      إذا ما انقضتْ أحدىءُ لو تعيدها

قال عمر: فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها لي فإذا هي كما ذكر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) نجز: قَمَ ونفذ.

(٢) جمد: أرض صلبة.

## الباب السبعون: في ذكر القينات والأغاني

حكى علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر بن خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الجمال والأدب، وأجادت قول الشعر وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة. ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء فهجرتها. قال علي بن الجهم: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني فقال: يا علي. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: قد رأيت الليلة في منامي كأني رضيت على محبوبة وصالحتها. فقلت: خيراً رأيت يا أمير المؤمنين لقر الله عينك، إنما هي جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله أنا لفي حديثها إذا جاءت وضيقة فقلت: يا أمير المؤمنين، سمعت صوت عود من حجرة محبوبة، فقال: قم بنا يا علي ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب بالعود وتقول:

أدورُ في القصرِ لا أرى أحداً	أشكُو إليه ولا يكلمُنني
كأنني قد أتيتُ معصيةً	ليس لها توبةٌ تخلصُنني
فهل شفيحٌ لنا إلى ملكٍ	قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباخُ لاح لنا	عادَ إلى هجره وصارَمني

قال: فصاح أمير المؤمنين فلما سمعته تلقته وأكبت على رجليه تقبلهما فقال: ما هذا؟ قالت: يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني، فأنشدت ماسمعت. قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك. ثم قال: يا علي هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان. قيل: وكان أمير المؤمنين للواتق إذا شرب رقد في موضعه الذي شرب فيه، ومن كان معه من ندمائه شرب ورقده، ولم يخرج. فشرب يوماً وخرج من كان عنده إلا مغنياً واحداً أظهر التراقذ فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلا المجلس كتب المغني رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إنني رأيتك في المنام ضجيجتي	مسترشفاً من ريتي فيك البارد
وكأدُّ كُفك في يدي وكأنا	بتنا جميعاً في لحافٍ واحد
ثم اتبهُتُ ومنكبك كلافهما	في راحتي وتحت خلك ساعدي
فقطعتُ يومي كله متراقداً	لأراك في نومي ولستُ براقداً

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيراً رأيتَ وكلُّ ما أملكه  
ستأله مني برغم الحاسد

وتيسُّ بين خلاخلي ودمالجي<sup>(١)</sup> وتحلَّ بين مراشفي ونواهلي  
ونكونُ أنعمَ عاشقين تعاطيا ملحَ الحديثِ بلا مخافةِ راصدٍ<sup>(٢)</sup>

فلما مدت يدها لترمي إليه بالرقعة، رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال ما هذا فحلها له أنه لم يجز بينهما قبل ذلك كلام، ولا كتاب، ولا رسول. إلا أن العشق قد خامرها قال فأعتتها من وقتها وزوجها به، وقال خذها ولا تقربنا بعد اليوم. وكان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكرأ ناهداً بنت ثلاث عشرة سنة قال فتلاعب عليها أبو نواس فتمنعت فوقع في قلبه منها ما وقع، وأحبته هي أيضاً، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر فأمسكها فبكت. وقالت له يا سيدي الموت دون ذلك. فقال أبو نواس هذا جزع الأبقار فانفق أنه خرج يوماً من القصر وقد تفرق الدجا فوجدها نائمة في سدة وهي سكرى لا تفيق، فقترب منها وحلَّ سراويلها ووقع عليها فإذا هي خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد قمام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول:

وناهدةً الشديتين من خدمِ القصرِ مرقرةً الخدينِ ليليةً الشعرِ  
كلفتُ بها دهرأ على حُسنِ وجهها طويلاً وما حبُّ الكواعب من أمري  
فما زلتُ بالأشعارِ حتى خدعتُها ورؤضتُها والشعرُ من خدعِ السحرِ  
أطالُها شيئاً فقالت بعبرةِ أموتُ ولا هذا ودمعتُها تجري  
فلما تعارضنا توسطت لجة غرقتُ بها يا قومُ في لججِ البحرِ  
فصحنتُ أغثنِي يا غلامُ فجاءني وقف زلقتُ رجلي وصرتُ إلى الصدرِ  
ولولا صياحي بالغلامِ وأنه تداركني بالجبلِ صرتُ إلى القعرِ  
فأقسنتُ عمري لا ركبتُ سفينةً ولا سرتُ طولَ الدهرِ إلا على ظهرِ<sup>(٣)</sup>

ومن ذلك ما حدّث الشيباني قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومظهرة لخلسني الله وداً وتلقي بالتحية والسلام  
أتيتُ لبايها أشكو إليها فلم أخلصُ إليه من الزحامِ  
فيا من ليس يكفيها خليلٌ ولا ألفاً خليل كل عام  
أراك بقيةً من قومِ موسى فهم لا يصبرون على طعام

وقال أبو سويد: حدّثني أبو زيد الأسدي قال دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلى بالرخام الأحمر، مفروش بالديباج الأخضر، وفي وسط بستان ملفف قد أثمر وأينع، وعلى رأسه وصانف كل واحدة منهن أحسن من صاحبها. وقد غابت الشمس وغنت الأطيّار فتجاوت وشفقت الرياح على الأشجار فتمايلت، فقلت

(١) دمالجي: مفردا دملج: إسوار.

(٢) راصد: مراقب.

(٣) ظهر: يعرض بأنه يفضل اللواط على الجماع المألوف.

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته وكان مطرقاً نرفع رأسه وقال: أبا زيد في مثل هذا الحين تصاحبنا؟ فقلت أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه، وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء<sup>(١)</sup>، في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة<sup>(٢)</sup> لفاء، أشربها من كفتها وأمسح فمي بخذها، فأطرق سليمان ملياً لا يرده جواباً وتنحدر من عينيه عيرات بلا شهيق. فلما رأت الوصائف ذلك تحنين عنه، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك، ومتهى مدتك، وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير؛ كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب لسكندراتي يبين منه بياض بدنها وتدوير سرتها، ونقش تكتها وفي رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعلها، بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان، وحاجبان قد قوساً على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبه بلور، وفم كأنه جرح يقطرها دماً، وهي تقول: عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكي، وعلاج ما لا يسمي، طال الحجاب، وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلس والنوم محتبس رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً، وماتوا كمداً لو كان إلى الصبر حيلة، أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جميلاً. ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية: فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك فسترت وجهها بكفها كأنها لم ترتني ثم قالت: أعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد. والمقاساة لصب معاند. ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكراها، ولا رأيت حسناً إلا سمع<sup>(٣)</sup> في عيني لحسنها. فقال سليمان: أبا زيد كان الجهل يستغزني والصبا يعاودني، والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت، اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنما الذلفاء ياتون  
أخرجت من كيسر دهقان<sup>(٤)</sup>

شراؤها على أخي ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها، والله إن مات ما يموت إلا بحبها، ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة، وفي توقيع الموت نبهة، قم أبا زيد في دعة الله تعالى. ثم قال: يا غلام نقله بيدرة فأخذتها وانصرفت. قال: فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة، وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع، وأحمر ساطع، وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغنٍ يقال له سنان به يأنس، وإليه يسكن، فأمر أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتزه فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه فتزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: نريد قرى أصلحك الله، قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل، وشرب، وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشربك إن لم تسمعنا. قال، فاختاروا صوتاً، واحداً

(١) قهوة حمراء: الخمر.

(٢) مضمومة: ممتلئة، عيلة.

(٣) سمج: قبح وغلظ.

(٤) دهقان: التاجر.

أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا. فرفع صوته يغني بهذه الآيات:

مجبوبةً سمعت صوتي فأزفها  
في ليلة البدر ما يدري مضاجعها  
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق  
لو مكنت لمشت نحوي على قدم  
من آخر الليل لما نبه الحر  
أوجهها عنده أبهى أم القمر  
فدمعها لطروق الصوت منحدر  
تكاد من لينها في المشي تنفطر

قال: فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق، ولطافة قد، إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيتها، فحرك ذلك ساكناً من قلبها فهملت عينها وعلا نحيبها، فاتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرأها على تلك الحالة فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

الآ رب صوت رائع من مشوه  
بروعك منه صوتته ولعله  
قيح المحيا واضع الأب والجدي  
إلى أمو يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام علي بسنان. فدعت الذلفاء خادماً لها فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرتك لك عشرة آلاف درهم وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال يا سنان: ألم أنكه عن مثل هذا، قال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده فليفعل. قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا سهل، دقت له الحجرة، وأن الفحل إذا هدر ضيبت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعوذ إلى ما كان منك فيطول غمك.

وحكي أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظاياها فدحا فيه شراب مع وصيفة لها جميلة الوجه حسنة الطلعة بديمة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الآيات:

فصدت عرقاً تتغني صحوة  
فاشرَب بهذا الكأس يا سيدي  
واجعل لمن أنفذه خلوة  
أبسك الله به العاقبة  
واهنأ بها من كف ذي الجارية  
تحظى بها في الليلة الآتية

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح بالقدح فاستحسنها فافتضها، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذا الآيات:

بعثت الرسول فأبطأ قليلاً  
وكنت الخليل، وكان الرسولوا  
كذا من يوجّه في حاجو  
على الرغم مني فصبراً جميلاً  
فصرت الرسول وصار الخيلاً  
إلى من يحب رسولاً جميلاً؟

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة. وأهدى داود بن روح المهلي إلى المهدي جارية فحظيت عنده فواعدته المبيت عنده ليلة فمتمها الحيض فكتب إليها يقول:

لأهجرن حياً خان موعده  
وكان منه لصفو العيش تكديراً

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرن حبيباً خاناً موعدة  
ولا تدمنّ وعداً فيه تأخيرُ  
ما كان حسي إلا من حدوثِ أذى  
لا يُستطاعُ له بالقولِ تفسيرُ  
وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمتت تباعُ ولسو تباعُ بوزنها  
دراً بكى أسفاً عليها البائعُ

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده فحدها الجوارى وقلن لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حُسي حسي، فازداد بها المأمون عجباً فسمتها الجوارى فماتت فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال:

اختلست ريحانتي من يدي  
كأنت هي الأنس إذا استوحشت  
وروضةً كان بها مرتعي  
كانت يدي كان بها قوتي  
وللمتوكل في قينة:

أمازحها فتغضبُ ثم ترضى  
فإن غضبت فأحسنُ ذي دلالٍ  
أبكي عليها آخر الأبد  
نفسي من الأقرب والأبعد  
ومنهلاً كان بها موردي  
فاختلس الدهر يدي من يدي

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم، عن الهيثم بن عدي قال: كان في المدينة رجل من بني هاشم، وكان له قيتان يقال لإحدهما رشا، وللأخرى جوزر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين. فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفي لذتك، ولا لذة لي. قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لي نبيلاً فإنه لا يطيب لي عيش إلا به. فأمر الهاشمي بإحضار نبذ، وأمر أن يطرح فيه سكر العشر. فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريته عليه فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز، قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين، وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيتي أين المرحاض؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنياني:

رحضت<sup>(١)</sup> فؤادي فخليتني  
أهيمُ من الحبّ في كلِّ وادٍ

فاندفعتا تغنيانه. فقال في نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عن، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج. فقال: يا حبيتي أين المخرج؟ فقالت أحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:  
خرجتُ لها من بطن مكة بعدما  
أقام المنادي بالعشي فاعتما<sup>(٢)</sup>  
فاندفعتا تغنيانه. فقال في نفسه: لم يفهما عني وما أظنهما إلا شاميتين، وأهل الشام يسمونها المذاهب فقال: يا

(١) رحضت: غلك.

(٢) فاعتما: فدخلنا في العتمة.



حييتي أين المذهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حينئذ؟ قالت يقول غنياني:

ذهبتُ من الهجران في كل مذهبٍ      ولم يك حقاً كلُّ هذا التجنُّبِ<sup>(١)</sup>

فغناه الصوت. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني وما أظن القحبتين إلا مدنيّتين وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حييتي أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خلا علي بقاع الأرض إذ ظعنوا      من بطني مَكَّة واسترعاني الحزن

قال: فغناه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظن الفاسقتين إلا بصريّتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش. فقال: يا حييتي أين الحش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

أوحشوني وعزَّ صبري فيهم      ما احتيالي وما يكونُ فعالي

قال: فاندفعنا تغنيانه. فقال: ما أراها إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف. فقال لهما: يا حييتي أين الكنيف. فقالت إحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل. قالت: ما يقول؟ قالت: يسأل أن تغني له:

تكتنّفي الهوى طفلاً      فشيئني وما اكتهلاً

فقال: وأويلاه وأعظم مصيئته هذا، والهاشمي يتقطع ضحكاً فقال لهما: يا زانيتان إن لم تعلماني به، أنا أعلمكم ثم رفع ثيابه وسلم عليهما، وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائي. فقال الرجل: حياة نفسي أعز علي من وطائك. وقيل إنه لما قيل له ويلك ما هذا قال المضحك هذه الأبيات:

تكتنّفي الملاح وأصجّروني      على ما بي بيئات الزواني  
فلما قلّ عن ذاك اصطباري      قدّفتُ به على وجه الغواني

قال فانبط الهاشمي ودفع له مالاً، ومضى إلى سبيله. وقال علي بن الجهم قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحب منزلةً      تدني إليك فإنَّ الحبَّ أقصاني

قالت: تأتي من باب الذهب، وأنشدت:

اجعل شفيحك منقوشاً تقدمه      فلم يزل مُدنياً من ليس بالداني

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أدركك به. قالت: إنه ذهب وأنا أخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود فلعلك أن تعود وناولته عوداً من الأرض. وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانبه، ثم أصابته علة فتغير حالها فكانت تشد:

ولي كبدٍ مقروحة من ييعني      بها كبداً ليسَتْ بذاتِ قروح

أباها علي الناس لا يشترونها      ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح

وكان المعتمد يحب قينة من حظاياها فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق فاشتاق إليها فقلبه الوجد فدعا مغنياً وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة فأقلقتني الشوق إليها، فعسى أن تغنيني شيئاً في معنى ما ذكرت لك. فأطرق ملياً ثم غناه:

وددتُ من الشوق التبرح أني      أعار جناحي طائرٍ فأطيرُ  
فما لنعيمٍ ليس فيه بشاشةٌ      وما لسرورٍ ليس فيه سرورُ  
وإن امرأ في بلدةٍ نصف قلبه      ونصف بأخرى غيرها لصبور

والحكايات في معنى ذلك كثيرة، ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات ولكن ما قلّ وجلّ خير من كثير يُيل. وفيما ذكرته كفاية والله المسؤول أن يمدني منه باللطف والعناية وسأله التوفيق والهداية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الحادي والسبعون: في ذكر العشق ومن بلي به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما في معنى ذلك وفيه فصول

### الفصل الأول: في وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود. وقال أعرابي العشق خفي أن يرى، وجلّي أن يخفى فهو كامن ككمون النار في الحجر إن قلدته أورى، وإن تركته توارى<sup>(١)</sup>، وقيل أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيته، والمرأة تشق رداء حبيها ويقولون: إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بني الحساس:

وكم قد شققنا من رداءه محبّر  
إذا شقُّ برءُ شقُّ بالبردِ برقع  
ومن برقع عن طفلة غير عانس<sup>(٢)</sup>  
من الحبِّ حتى كلنا غير لابس

وقيل: لأعرابي ما بلغ حبك لفلانة؟ قال: إنني لأذكرها وييني وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك. وقيل: رأى شبيب أخو بثينة جميلاً عندها فوثب عليه وآذاه ثم إن شيباً أنى مكة وجميل فيها فقبل لجميل: دونك شيباً فخذ بتارك منه فقال:

وقالوا يا جميلُ أتى أخوها  
وأشد الأخص الحداد يقول:

مطارق<sup>(٣)</sup> الشوق منها في الحشى أنرُ  
ونارُ كورِ الهوى في الجسم موقدة  
يطرقن سندانَ قلبِ حشوه الفكرُ  
ومبردُ الحبِّ لا يُقي ولا يندُرُ

وفي «الجليس الأنيس» لأبي العالية الشامي قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكرم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرأة، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس ممتع. وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكة ضيقة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها،

(١) توارى: اخفى.

(٢) عانس: لم تتجاوز مرحلة الصبا.

(٣) مطارق: هي أدوات الحدادة كما نلاحظ.

والعيون ونواظرها، والمقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها، وقوة تصرفها، توارى عن الأبصار مدخله، وخفى في القلوب مسلكه. وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء وقد سمعتم الحكمة، ولكم حذاء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قالوا لا. قال: اعشقوا فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البلبد والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس، وتطيب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة. وقال المجنون:

قالت جنت على ذكرى قفلت لها      الحبُّ أعظمُ مما بالمجانين  
الحبُّ ليس يفيقُ الدهرُ صاحبُهُ      وإنما بصرعُ المجنونِ في الحينِ

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن، وكان قد رشحه للأمر من بعده فنشأ الفتى ناقص الهمة، ساقط المروءة، خامل النفس، مسيء الأدب فغمه ذلك فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه، وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً فقال له المؤدب قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه قال وما ذلك الذي حدث؟ قال رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها، ولا يتشاغل إلا بها، فقال بهرام الآن رجوت فلاحه ثم دعا بأبي الجارية فقال له: يبي مسرّ إليك سرّاً فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنة قد عشق ابنته، وأنه يريد أن يتكحها إياه وأمره أن يأمرها بإطعامه في نفسها، ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتبه وتهجره، فإن استعملها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها ولا تطلعهما على ما أسرّه إليك. فقبل أبوها ذلك منه. ثم قال للمؤدب الموكل بأدبه: حضه وشجعه على مراسلة المرأة. ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها، فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب، وطلب الحكمة، والعلم، والفروسية، والرماية، وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك. ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب، والآلات، والمطاعم، والملابس، والندماء وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه فقال له: إنّ الموضوع الذي وضع به ابني نفسه من خير هذه المرأة، لا يدري به، فتقدم إليه ومره أن يرفع إلي ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها وزوجه إياها وأمر بتعجيلها إليه، وقال له إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني لا يضمن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست في خباتك، فإني أمرتها بذلك، وهي أعظم الناس منة عليك بما دعيتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك. ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به، وأحسن ثواب أبيها ورفع منزلته لصيانة سرّه، وأحسن جائزة المؤدب لامثال أمره به. وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية فزارته يوماً فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق فحان وقت الظهر فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن. فقال: رويدك حتى تزول الشمس، أي حتى تقوم الجارية. وقالت ليلي العامرية في قيسها:

لم يكنِ المجنونُ في حالو      إلا وقد كنتُ كما كانا  
لكنه باحٍ بسرُّ الهوى      وإنسي قد ذُبت كمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإني ليرضيني الممرّ بياها وأفنعُ منها بالشتيمة والزجرِ

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيها العاشقُ المعذبُ صبراً أيها العاشقُ المعذبُ صبراً  
زفرةً في الهوى أحطُ لذنبٍ من غزاةٍ وحجةٍ مبرورةٍ

وقال عمر بن أبي ربيعة: كنت بين امرأتين، هذه تساررني، وهذه تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه.

وأشد شيان العذري يقول:

لو حزّ بالسيفِ رأسي في مَحَبَّيها لطار يهوى سريعاً نحوها رأسي

وقال يحيى بن معاذ الرازي: لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً.

## الفصل الثاني: فيمن عشق وعفّ والافتخار بالعفاف

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من عشق فعفّ فمات فهو شهيداً» وقال ﷺ: «عفوا، تفن نساؤكم» وقال بعضهم رأيت امرأة مستقبلة البيت في غاية الضعف، والنحافة، رافعة يديها تدعو. فقالت لها: هل من حاجة؟ فقالت حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزوّد كل الناس زاداً يقيهم وما لي زادٌ والسلامُ على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلي فقال: أنا الزاد فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء. ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءك يقتصر على هذا، فقالت: أمسك يا هذا أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد. قال إبراهيم بن محمد المهلب:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعني منه الحياةُ وخوفُ الله والحذرُ  
وكعمّ خلوتُ بمن أهوى فيمنعني منه الفكاهةُ والتأيسُ والنظرُ  
أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم وليس لي في حرامٍ منهم وطرُ  
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ لا خيرَ في لذّةٍ من بعدها سقرٌ<sup>(١)</sup>

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامحَ اللحاظِ فإني والذي يملكُ القوَادَ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل:

فقلت بحقِّ الله إلا أتيتننا فجنّتُ وما في القومِ يقظانٌ غيرها  
إذا كان لونُ الليلِ شبهَ الطيالسِ وقد نامَ عنها كلُّ واثِرٍ وحارسِ

(١) سقر: جهنم.

فَيْتَنَا بَلِيلَ طَيْبٍ نَسْتَلْذُهُ      جميعاً ولم أقلب لها كفاً لامسر

ونزل رجل على صديق له مستراً خائفاً من عدو له فأنزله في منزله وتركه فيه وسافر لبعض حوائجه وقال لأمراته: أوصيك بضيفي خيراً، فلما عاد بعد شهر قال لها كيف ضيفنا؟ قالت ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه، ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره. وكان عمر بن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحوم ولا يرد<sup>(١)</sup>. ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئاً مما كان يقول جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك. قال: فكيف رأيتيه في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذي تجدد الجبأه له      ما لي بما تحت ذيلها خبرُ  
ولا بفيها ولا هممتُ بها      ما كان إلا الحديث والنظرُ

وقد قدمت هذين البيتين في الجزء الأول فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز. وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت. فقال لي: يا أبا سهل إن رجلاً يلقي الله، ولم يسفك دماً، ولم يشرب خمراً، ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة قلت: إي والله فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون ذلك. فلذكرت له بثينة فقال: إني لقي آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريبة قط. وعن عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ، أنه دعه بغية إلى نفسها، وبذلت له مالاً، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبي ﷺ منها للنور الذي رآته بين عينيه فأبى وقال:

أما الحرام فالحمام<sup>(٢)</sup> دونه      والحل لا نابى ونستدينه  
فكيف بالأمر الذي تبغينه      يحمي الكريم عرضه ودينه

وقال آخر:

وأحور مخصوب البنان محجب      دعاني فلم أعرف إلى ما دعا ونجها  
بخلتُ بنفسي عن مقام يشينها      ولستُ مريداً ذاك طوعاً ولا كرهاً

ورأود شاب ليلي الأخيلية عن نفسها فاشمأزت وقالت:

وذي حاجة قلنا له لا تجب بها      فليس إليها ما حيت سبيلُ  
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونهُ      وأنت لأخري صاحب وخليلُ

وقال ابن ميادة:

موانع لا يعطين جة خردلٍ      وهنّ دوانٍ في الحديث أوانسُ  
ويكرهنّ أن يسمعن في اللهور رية      كما كرهت صوت اللجام الشوامسُ<sup>(٣)</sup>

وقال آخر:

(١) لا يرد: لا يأتي ما يحوم حوله.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) الشّومس: صعبة القيادة.

حورٌ حرائرُ ما هممنَ بريءُ  
يُحسبنَ منَ لينِ الكلامِ فواسقاً  
وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف:

كظباءٍ مگةً صيدهنَّ حرامٌ  
ويصدهنَّ عن الخنى الإسلام<sup>(١)</sup>

أتأذنونَ لصبٍ في زيارتكم  
لا يُظهرُ الشوقَ إن طال الجلوسُ به  
فعدتكم شهواتُ السمع والبصرِ  
عفتُ الضميرَ ولكن فاسقُ النظرِ

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهويها إبراهيم وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه:

يا غزالاً لي إليه  
أنا ضيفٌ وجرا  
شافعٌ من مقلتيه  
الضيف إحسانٌ إليه

فهمت الجارية ما أراد، فحكّت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبي إليه فأعلميه أنني قد وهبتك له، فعادت إليه فلما رآها أعاد البيتين فأكبت عليه. فقال لها: كفى، فلست بخاتن. فقالت: قد وهبتي لك مولاتي وأنا الرسول، فقال أما الآن فنعنم. وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة  
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي  
إلا نهاني الحياء والكرمُ  
ولا مسستُ بي لزلّةٍ قدّم

وقال آخر:

يقولون لا تنظرُ فذاك بلائٌ  
وهل باكتحالِ العينِ بالعينِ ريةٌ  
بلى كلُّ ذي عينين لا بد ناظرُ  
إذا عفتُ فيما بينهن السرائرُ

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا يتشد شعراً، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فينما هو في الطواف يوماً إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه. فقال له: يا هذا اتق الله أفي مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخنى، ولكنها ابنة عمي وأعز الناس عليّ، وإن أباها منعتني من تزوجها لفقرتي وفاقتي، وطلب مني مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب ولم أقدر على ذلك. قال: فطلب الخليفة أباهاً ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها. ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر فقالت له جارية من حظاياها: أراك اليوم يا مولاي تشد الشعر، أفنسيت ما نذرت، أم نراك قد هويت فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتي لما رأتي  
أراك اليوم قد أحدثت عهداً  
طرنت وكنت قد أسليت حيناً  
وأزرتك الهوى داءً دفيناً  
فشاقك أو رأيت لها جينا  
كمثل زماننا إذ تعلمينا  
قللتُ شكا إلى أخٍ محبٍ

(١) الخنى الاسلام: يصدمن عن الفحش وينهن.

وذو الشجر القديم وإن تمرّزى محببٌ حينَ يلقي العاشقينَا

ثم عدّ الأبيات، فإذا هي خمسة أبيات، فأعشق خمس رقاب. ثم قال: لله ذك من خمس، أعتقت خمسة وجمعت بين رأسين في الحلال. وروي عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فتزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب:

بزينب ألمِمْ قبلَ أن يرحلَ الركبُ وقل لا تغلينا فما ملكَ القلبُ

فقلت: يا هذا، أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب. فقلت: أتعرف زينه؟ قلت: لا، قالت: أنا زينه؟ قلت: حياك الله وحياك، قالت: أما والله إن اليوم موعده وعدني العام الأول بالإجماع في هذا اليوم فلعلك أن ترح حتى تراه. قال: فينما هي تكلمني إذا أنا براكب. قال: ترى ذلك الراكب. قلت: نعم قالت إني لأحبه إياه. فقبل فإذا هو نصيب، فتزل قريباً من الخيمة ثم أقبل، فسلم ثم جلس قريباً منها فسألته أن يشدها فأشدها فقلت في نفسي: محبان قد طال التناهي بينهما فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. فقممت إلى بعيري لأشد عليه فقال: على رسلك إني معك. فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا فقال لي: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تده، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا، فتمعجت لذلك وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيى المدني قال: سمعت بقض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح إن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار. واليوم هو يشير إليها وتشير إليه ويعدها وتعهده، فإن التقيا لم يتشاكيا حباً، ولم يتناشدا شعراً، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة. وقال الأصمعي: قلت لأعرابية ما تعدون العشق فيكم. قالت: الضمة، والغزوة، والقبلة. ثم أنشأت تقول:

ما الحبُّ إلا قبلةٌ وغمزُ كَفِّ وعَضْدُ  
ما الحبُّ إلا هكذا إن نكحَ الحبُّ فَضْدُ

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها، ونفرك بين رجليها. قالت: لست بعاشق، أنت طالب ولد ثم أنشأت تقول:

قد فسَدَ العشقُ وهانَ الهوى وصارَ مَنْ يعشَقُ مستعجلاً  
يريد أن ينكحَ أحبَّه من قبل أن يُشهِدَ أو ينحلَّ<sup>(١)</sup>

وقيل لرجل قد زفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرك أن تظفر بها الليلة. قال: نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها. قيل: فما كنت صانعاً بها، قال: كنت أطبع الحب في لثمتها وأعصي الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم<sup>(٢)</sup> عاره، وينشر قبيح أخباره إني للثيم، لم يلدني كريم. ومر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه ليلة في بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول:

(١) ينحل: قبل مجيء شهود ودفع مهر وهي شروط عقد النكاح.  
(٢) ذميم: فاسد.



ألا طَالَ هذا الليلُ وأزورُّ جائئُهُ  
فوالله لولا الله تخشى عواقبه  
مخافةً ربي والحياة يعفُنِي  
وليس إلى جانبي خليلٌ الأعْبَةُ  
لحرَّك من هذا السريرِ جوائِئُهُ  
وإكرامٌ بعلي أن تنالَ مراتبُهُ

قال: فسأل عمر رضي الله عنه عنها، فقيل له إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر. فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر. ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب «تلقيح فهوم الأثر» عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جدّه قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيلٍ إلى خميرٍ فأشربها  
إلى فتى ماجدٍ الإعرافِ مقبلي  
تتميه أعرافٌ صدقوا حين تنبُّهُ  
أم من سبيلٍ إلى نصرٍ بن حجاج  
سهلٍ المصباحِ كريمٍ غيرٍ ملجج  
أخشي وفاءً عن المكروبِ فرّاج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهنّ، عليّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم شعراً، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك، فأخذ من شعره فخرج من عنده، وله وجتان كأنهما شقتا قمر فقال له: أعتم فأعتم فافتن الناس بعينه. فقال له عمر: والله لا تساكنتي في بلدة أنا فيها، فقال: يا أمير المؤمنين ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء، فدمت إليه المرأة أحياناً وهي:

قلّ للأمام الذي تُخشى بوادرُهُ  
لا تجعَل الظنَّ حقاً أن تينيه  
إن الهوى زَمَّ بالتقوى فتجسه  
ما لي وللخمير أو نصرٍ بن حجاج  
إن السبيلَ سبيلُ الخائفِ الراجي  
حتى يقرَّ بِالْجِسامِ وإسراج

قال: فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى. قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرّضة لعمر، فإذا هو قد خرج في إزار ورداء ويده اللدّة. فقالت له: يا أمير المؤمنين، والله لأقفرنّ أنا وأنت بين يديّ الله تعالى، وليحاسبك الله أبيتنّ عبد الله وعاصم إلى جنيك، وبينني وبين ابني الفياقي والأودية. فقال لها: ابنتي لم تهتف لهما العواتق في خدورهنّ. ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة، من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج، فكتب نصر بن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم: سلام عليك يا أمير المؤمنين، أما بعد فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سيّرتني أو حرمتني  
فأصبحتُ متفياً على غير ربيّ  
لئن غتّت الذلفاء يوماً بمنية  
ولم يبق لي جرمة فألامُ  
وما نلتُ من عِرضي عليك حرامُ  
وقد كان لي بالمكّئين مقامُ  
وبعضُ أمانيّ النساءِ غرامُ  
بقاءٍ وما لي جرمة فألامُ

فيمتني مما تقول تكرمي  
ويمنعها مما تقول صلاتها  
فهاتان حالان فهل أنت راجعي  
وأبأء صدقو سالفون كرام  
وحال لها في قومها وصيام  
قد جب مني كامل وسنام

قال: فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الآيات. قال: أما ولي السلطان فلا، وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها، فلما مات عمر ركب راحته وتوجه نحو المدينة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

### الفصل الثالث: في ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثني أبي قال كانت بالمدينة قبة من أحسن الناس وجهاً، وأكملهم عقلاً، وأكثرهم أدباً، قد قرأت القرآن، وروت الأشعار وتعلمت العربية، فوقعت عند يزيد بن عبد الملك، فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم، ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدي إليه معروفاً؟ قالت يا أمير المؤمنين: أما قرابة فلا، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاي، وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه. فكتب إلى عامله بالمدينة في إحضارهم إليه، وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم. فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم في الدخول عليه. فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم، فأما اثنان منهم فذكرنا حوائجهم ففضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال يا أمير المؤمنين ما لي حاجة. قال: ويحك أو لست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتي ما أظنك تضيها. فقال: فأسألني فإنك لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها. قال: فلي الأمان يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم. قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلاة، التي أكرمتنا بسببها، أن تغني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل. قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها، فقالت: وما عليك يا أمير المؤمنين، فأمر بالفتى فأحضر، وأمر بثلاثة كرامسي من ذهب فنصب قعده يزيد على أحدها، والجارية على الآخر، والفتى على الثالث، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت، ثم أمر بثلاثة أرطال فملكت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. فقال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

لا أستطيع سلباً عن موذتها  
أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني  
أو يصنع الحب بي فوق الذي صنعا  
حتى إذا قلت هذا صادقاً نزعاً

فأمرها ففنت، وشرب يزيد، وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملكت، ثم قال للفتى سل حاجتك، فقال مرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

تخيرت من نعمان عود أراكو  
ألا عرجا بي ببارك الله فيكما  
لهند ولكن من يلفه هذا  
وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها ففنت، وشرب يزيد وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملكت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. قال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني هذا الشعر:

مني الوصال ومنكم الهجر  
حتى يفرق بيتنا الدهر

والله لا أسلوكمو أبداً ما لاح بدرُّ أو بدا فجرُّ

فأمرها فغنت، قال: فلم تسمّ الأبيات حتى خرّ الفتى مغشياً عليه، فقال يزيد للجارية: قومي انظري ما حاله؟ فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزيد ابكيه، فقالت لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حيّ، فقال لها: أبكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك. فبكت الجارية، وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت.

وحكي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا الغناء والجواري المغنيات، والعشق، فقال عبد الملك لعبد الله: حدّثني بأمر ما مرّ لك في هذه الأغاني، وما رأيت من الجواري. قال نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم، وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إليّ في شأنها، فكتبت إليه والله لا تخرج مني ببيع، ولا هبة، فأمسك عني فكانت عندي على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حباً، فبينما أنا ذات ليلة إذ اتنتي عجوز من عجائزنا فذكرت لي أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه، ويراهم وتراها، وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب فيسمع غناءها ويبكي شغفاً وحباً، فراعيت ذلك الوقت الذي قالت عليه العجوز، فإذا به قد أقبل مقنماً رأسه، وقعد مستخفياً فلم أدع بها في تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمه ويكلمها، ولم أر بينهما إلا عتياً. ولم يزالا كذلك حتى ابيض الصبح فدعوت بها وقلت: لقيمة الجواري أصلحي فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزيتها، فلما جاءت قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجنّت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً، فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هي هبة مني إليك، فدهش الفتى ول يجنبي فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببيعتك فقم وانصرف بها إلى متزلك، فلم يردّ جواباً فحركته فإذا هو ميت. فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره. قال عبد الملك: لقد جنتني بعجب، فما صنعت الجارية؟ قلت: ماتت والله بعد بأيام بعد نحول عظيم وتعليل، وماتت كمدماً ووجدت على الغلام.

وقيل: إن عبد الله بن عجلان الهندي رأى أثر كف عشيقته في ثوب زوجها فمات. وذكر محمد بن واسع الهيثمي أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسّر لي ثلاث جوار مولدات أبقاراً يكون إليهنّ المنتهى في الجمال، واكتب لي بصفة كل جارية منهنّ، ومبلغ ثمنها من المال. فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالخاصين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالفرس، وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كلّ الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلا يزالوا من بلد، إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالفرس ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهنّ مثل. قال وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهنّ ومبلغ ثمنها فوجدهنّ لا يقام لهنّ بقيمة، وأن ثمنهنّ ثمن واحدة منهنّ. ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل: وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أن أشترى له ثلاث جوار مولدات أبقاراً، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهنّ وثمنها. فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فإنها جارية عيطاء السوالف<sup>(١)</sup>، عظيمة الروادف، كحلاء العينين،

(١) عيطاء السوالف: مرتفعة السوالف.

حمرء الوجتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذها كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج كأنها فضة قد شابتها ذهب

وثنمها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم وأما الثانية فإنها جارية فاتقة في الجمال معتدلة القد والكمال تشفي السقيم بكلامها الرخيم، وثنمها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف، لطيفة الكف عيمة<sup>(١)</sup> الردف شاكرة للقليل، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال، وثنمها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أظن في الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين، فقال أحد النخاسين أيد الله الأمير. إني رجل كبير ضعيف عن السفر، ولي ولد ينوب عني أفأذن لي في ذلك قال نعم فتجهزوا وخرجوا فقي بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت الجواري فهبت الريح فانكشفت بطن إحداهن وهي الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم، فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته فأثامها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أمكتوم، عيني لا تملُّ من البكا وقلبي بأسهام الأسي يترشُّق

أمكتوم كم من عاشقٍ قتل الهوى وقلبي رهينٌ كيف لا أتعشُّق

فأجابته تقول:

لو كان حقاً ما تقولُ لزرتنا ليلاً إذا هجعت عيونُ الحنِّد

قال: فلما، جنَّ الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه، وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب فظن به أصحابه فأخذوه وكثفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان، فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجواري، ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه، وما هذا الاصفرار الذي بها والاتحال؟ فقالوا يا أمير المؤمنين تقول ولنا الأمان. قال: إن صدقتم أمتم، وإن كذبتم هلكتم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد<sup>(٢)</sup> بالحديد، فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاءً شديداً وأيقن بالعذاب، ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيتُ رغماً وقد شُدَّتْ إلى عتقي يدياً

مقرراً بالقليح وسوء فعلي ولستُ بما رميْتُ به برياً

فإن تقتلُ فسوق القتلِ ذنبي وإن تعفُو فمِن جودِ علياً

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت، استخفاف بنا، أم هوى الجارية؟ قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك، ما هو إلا هوى الجارية. فقال: هي لك بما أعدتته لها. فأخذها الغلام بكل ما أعدته لها أمير المؤمنين من الحلبي والحلل، وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهله، حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً

(١) عيمة: غليظة.

(٢) مصفد: به الأصفاد وهي القيود.

فتماثقا وناما، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نيهوما فوجدوهما ميتين. فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك.

ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ، أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومي رضي الله تعالى عنه إلى مشركي خزاعة. قال خالد: فأخرجني إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس، قال فجذبنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبير فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً، حتى تعالى النهار، وطار الشرار، وهاجت الفرسان، وتلاحمت الأفران، فلولا أن الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمته منه فهزمتهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً، ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه، ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا، فلما هدا القتال والنهب أمرت أصحابي بجمع السبايا لتقدم بهن على رسول الله ﷺ، فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم، ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة، فقلنا له يا غلام انزل عن النساء، فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا، فوالله لقد قتل منا في بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فرأيت أصحابي قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه، فملك منهم جواداً وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد، قال: فبرزت إليه بنفسي بعد أن أنشدت شعراً، فوالله لم يمهلني حتى أتم شعري بل حمل علي فتطاعنا حتى تكسرت القنا، وتضاربنا بالسيوف حتى تفلتت، فوالله لقد اقتحمت الأهوال، ومارست الأبطال، فما رأيت أشد من حملته، ولا أسرع من هجماته، فبينما نحن نعتك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه، فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له اقد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنا أردك من حيث جئت. قال: يا خالد ما أنصفتني اتركني حتى أجد من نفسي القوة قال خالد: فتركه وقلت لعله أن يسلم ثم شدته وثاقاً، وصدفته بالحديد وأنا أبكي إشفاقاً على حسن شبابه، ثم أوثقته على بعير لي، فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمي على ناقة أخرى إلى جانبي، قال خالد: فأخذتها وشدتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح وسرنا، فلما استقامت مطاياهم جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار، ويكيان إلى آخر الليل فسمعت يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذمر أن لا يسلم أبداً. فأخذت السيف وضربت فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة. فأبركنا الأباغر وحفرنا ودفناهما. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدته بمعجب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدثنوني شيئاً أنا أحدثكم به، فقلنا: مَنْ أعلمك به يا رسول الله؟ قال: أخبرني جبريل عليه السلام. وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما، وموافقة أجلهما.

ومن ذلك ما حكاه الثوري قال: حدثني جبلة بن الأسود وما رأيت شيخاً أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت في طلب إبل لي ضلت فما زلت في طلبها إلى أن أظلم الظلام، وخضيت الطريق فصرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدها. فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً ويكاه شديداً فشحجاني حتى كدت أن أسقط عن فرسي، فقلت: لأطلبين الصوت ولو تلفت نفسي، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً، فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو يشد وترنم:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها      أرى الأرضَ تطوى لي ويلنو بعيدُها  
من الخفرياتِ اليبسى ودَّ جليها      إذا ما انقضتْ أحداثُ لو تعيدُها

قال: فدنوت منه وسلمت عليه، فردَّ عليّ السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به المسالك أتاك يستجير

يك ويستعينك. قال: مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندي وطاء وطيء، و طعام غير بطيء، فنزلت، فنزع شملك<sup>(١)</sup> ووسطها تحتي. ثم أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز، ثم قال: اعذرني في هذا الوقت، فقلت والله إن هذا لخير كثير، فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلفه. فلما أكلت تروضأت وصليت، واتكأت فإني لبين النائم واليقظان إذ سمعت حراً شيء، وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادي فضحت الشمس حسناً، فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلما يتحادثان. فقلت: هذا رجل عربي ولعلها حرمة له، فتناومت وما بي نوم، فما زال في أحسن حديث، ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهمن أحدهما لصاحبه بقيق. فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء ويكى ويكت، ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطلني عني كما أبطلت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أنني أتخطر الواشين والرقباء حتى يناموا، ثم ودعته وسارت وكل واحد منهما يلصق نحو الآخر ويكي. فبكت رحمة لهما وقلت في نفسي: والله لا أنصرف حتى استضيضه الليلة وانظر ما يكون من أمرهما، فلما أصبحنا قلت له: جعلني الله فداك، الأعمال بخواتيمها، وقد نالني أمس تعب شديد، فأحب الراحة عندك اليوم فقال: على الرحب والسعة، لو أقمتم عندي بقية عمرك ما وجدتنني إلا كما تحب، ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلي، فأكلت وأكل معي، إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معه نهاري ذلك، ولم أر أشفق منه على غنمه، ولا لغير جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان، ولم أعلمه بشيء ما رأيت. فلما أقبل الليل وطأت وطأتي فصليت وأعلمته أنني أريد الهجوع لما مرّ بي من التعب بالأمس. فقال لي: نم هنيئاً فأظهرت النوم ولم أتم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل، فأبطلت عليه فلما حان وقت مجيئها قلقاً شديداً، وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوي فحركني فأوهمت أنني نائم، فقال: يا أخي هل رأيت الجارية التي كانت تتعهدني وجاءتني البارحة قلت قد رأيتها قالت فتلك ابنة عمي، وأعز الناس علي، وإني لها محب، ولها عاشق وهي أيضاً محبة لي أكثر من محبتي لها، وقد منعني أبوها من تزويجها لي لتفري وفاقتي وتكبره علي فصرت راعياً بسبيها، فكانت تزورني في كل ليلة وقد حان وقتها الذي تأتي فيه واشتغل قلبي عليها وتحذنتني نفسي أن الأسد قد افترسها ثم أنشأ يقول:

ما بال مَيَّةَ لا تأتي كعادتها  
أعاقها طرب أم صلها شغل  
نفسى فداؤك قد أحللت بي سقماً<sup>(٢)</sup>  
تكاد من حره الأعضاء تفصل

قال: ثم انطلق فقاب عني ساعة وأتى بشيء فطرحة بين يدي فإذا هي الجارية قد قتلها الأسد، وأكل أعضائها، وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطل هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحة ثم أنشأ يقول:

ألا أيها اللبث المدلُّ بغضه  
هلكت لقد جريت حقاً لك الشرا  
وخلفتني فرداً وقد كنت أنساً  
وقد عادت الأيام من بعدها غيرا

ثم قال: بالله يا أخي إلا ما قبلت ما أقول لك، فإني أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة، فإذا أنا مت فخذ عبادتي هذه فكفني فيها وضم هذا الجسد الذي بقي منها معي وادفنا في قبر واحد وخذ شويهاتي هذه. وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هي والذتي فأعطها عصاي هذه، وثيابي وشويهاتي وقل لها: مات ولدك كمداً بالحب فإنها

(١) شملك: العيادة.

(٢) سقماً: مرضاً.

تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا مني السلام. قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ووضع يده على صدره ومات لساعته. فقلت: والله لأصنعن له ما أوصاني به. فغسلته وكفنته في عباة وصلبت عليه ودفنته ودفنت باقي جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزيناً. فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولهاة فقالت لي: هل رأيت شاباً يرضى غمناً فقلت لها: نعم. وجعلت أتلف بها ثم حدثها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا الأطفها إلى أن أقبل الليل، وما زالت تبكي بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هي منكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد، ولا جارحة تتحرك. فحركتها فإذا هي ميتة. فغسلتها وصلبت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشدت فرسي وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهرُ يجمعنا      والشملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ  
فمزق الدهرُ بالتفريق ألفتنا      وصار يجمعنا في بطنها الكفنُ

قال: فأخذت الغنم، ومضيت إلى الحي لبني عمهم فأعطيتهم الغنم، وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحي بكاء شديداً، ثم مضيت إلى أهلي وأنا متعجب مما رأيت في طريقي.

ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخبر فقال والله لأحجن لعملي أفوز من عزة بنظرة. قال فبينما الناس في الطواف إذ نظر كثير لعزة وقد مضت إلى جملة فحيته ومسحت بين عينيه وقالت حييت يا جمل فبادر ليلحقها فقاتته فوقف على الجمل وقال:

حَيْثُكَ عَزَّةٌ بَعْدَ الْحَجِّ وَانصَرَفْتُ      فحَيَّ وَيَحْكُ مِنْ حَيْثُكَ يَا جَمْلُ  
لَوْ كُنْتُ حَيِّتُهَا مَا كُنْتُ ذَا مَرْفُ      عِنْدِي وَلَا مَسَّكَ الْإِدْلَاجُ وَالْعَمَلُ

قال فسمعه الفرزدق فبسم وقال له: من تكون يرحمك الله قال أنا كثير عزة فمن أنت يرحمك الله قال أنا الفرزدق بن غالب التميمي قال: أنت القاتل:

رَحَلْتُ جَمَالَهُمْ بِكُلِّ أَسِيلَةٍ      تَرَكْتُ فَوَادِي هَائِمًا مَجْبُولًا  
لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُهُمْ إِذَا لَمْ يَرْحَلُوا      حَتَّى أَرُدَّعَ قَلْبِي الْمَتَبُولًا  
سَارُوا بِقَلْبِي فِي الْحُدُوجِ وَغَادَرُوا      جَسْمِي يَعَالِجُ زَفْرَةَ وَعَوِيلًا

فقال الفرزدق: نعم. قال كثير، والله لولا أنني بالبيت الحرام، لأصيحن صيحة أفزع بها هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه. فقال الفرزدق والله لأعرفن بذلك هشاماً ثم توادعا وافترقا. فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كثير. فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لتطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها. فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانه وهو يفلي نفسه وريشة يتساقط فاصفر لونه، وارتاع من ذلك وجد في السير، ثم إنه مال ليسي راحلته من حي بني فهد وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحي فقال: يا ابن أخي أرايت في طريقك شيئاً فراعك؟ قال نعم يا عم رأيت غراباً على بانه يغلي ويتف ريشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب، والبانة بين، والتغلي فرقة فازداد كثير حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجد في السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على

جنازة فتزل وصلى معهم فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كُثَيِّر عن هذا اليوم فقال ما هذا اليوم يا سيدي فقال إن هذه عَزَّةٌ قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه فلما أفاق أنشأ يقول:

فما أعرفَ الفهْدِيَّ لا دَرَّ دَرَهُ      وأزجره للطير لا عز ناصرُهُ  
رأيت غراباً قد علا فوقَ بانهِ      يتفُّ أعلى ريشه ويطايرُهُ  
فقال غرابٌ واغتراب من النوى      وبانه بين من حبيبِ تعاشرُهُ

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا، ومات من ساعته، ودفن مع عَزَّةٍ في يوم واحد.

وحكى الأصمعي قال: بينما أنا أسير في البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أيا معشرَ العشاقِ باللهِ خَبِّروا      إذ حلَّ عشقٌ بالفتى كيف يصنَعُ  
فكُتبت تحته:

يداري هواهُ ثم يكتُمُ سرَّهُ      ويخشعُ في كلِّ الأمورِ ويخضعُ  
ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته:  
فكيف يداري والهوى قاتلُ الفتى      وفي كلِّ يومٍ قلبه يتقطَعُ  
فكُتبت تحته:

إذا لم يجد صبراً لكتمانِ سرِّهِ      فليس له شيء سوى الموتِ أنفعُ

ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً، فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقد كتب قبل موته:

سمعنا أظننا ثم متنا فبلغوا      سلامي على مَنْ كان للوصلِ يمنعُ

وحكى أيضاً عن الأصمعي رحمه الله تعالى أنه قال: بينما أنا نائم في بعض مقابر البصرة إذا رأيت جارية على قبر تنذب وتقول:

بروحي فتى أوفى البرية كلها      وأقواهم في الحبِّ صبراً على الحبِّ

قال: فقلت لها: يا جارية بم كان أوفى البرية، وبم كان أقواها؟ فقالت: يا هذا إنه ابن عمي هوني فهويته، فكان إن أباح عَنفوه، وإن كتم لاموه، فأنشد بيتي شعر، وما زال يكرّرها إلى أن مات، والله لأندبته حتى أصير مثله في قبر إلى جانبه، فقلت لها يا جارية فما اليتان؟ قالت:

يقولون لي إن بحثَ قد غرَّك الهوى      وإن لم أبخ بالحب قالوا تصبرا  
فما لامريء يهوى ويكتم أمره      من الحبِّ إلا أن يموت فيعلرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت زوجها الدنيا رحمة الله تعالى عليها.

والحكايات في ذلك كثيرة، وفي الكتب مشهورة، ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا في هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



الباب الثاني والسبعون: في ذكر رقائق الشعر والموالي والدوبيت  
وكان كان والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز  
ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك  
وفيه فصول

الفصل الأول: في الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام: مرقص كقول أبي جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمسُ لا تشربُ خمراً الندي      في الروضِ إلا من كؤوس الشقيئِ<sup>(١)</sup>  
ومطرب كقول زهير:

نراهُ إذا ما جتَّه متهللاً      كأنك تعطيه الذي أنت سائلةُ  
ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً      ويأتيك بالأخبار من لم تزود  
ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجّه<sup>(٢)</sup> الطبع كقول ابن المعتز:

سقى المطيرة ذات الظلِّ والشجر      ودير عبدون هطال من المطر  
ومتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع كقول الشاعر:<sup>(٣)</sup>

تقلقت بالهم الذي قلقل الحشا      قلائل همّ كلهنّ قلائلُ

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوب أبو تمام في الحماسة. وقال عبد العزيز بن أبي الأصبح الذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشرة فناً وهي: غزل، ووصف، وفخر، ومدح، وهجاء، وعتاب، واعتذار، وأدب، وزهد، وخمريات، ونمراة، وبشارة، وتهان، ووعيد، وتحليل، وتحريض، وملح، وياب مفرد للسؤال والجواب، ولذا ذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار، ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل

(١) كؤوس الشقيئ: شقائق النعمان.

(٢) يمجّه: يرفضه.

(٣) هذا البيت لأبي الطيب المعتبي وقد عابه أتوام ومدحه آخرون بكثرة جناسه على اختلاف مشاربهم.

ابن نباتة:

وأقمارٌ تَمَّ ما تَضُمُّ الغلائلُ  
وسمراً دفاقٌ أم قلدودٌ قواتلُ  
لها هلف مني الحشا والمقاتلُ  
غدوتُ وسي شغلٌ من الوجودِ شاغلُ  
يجورُ علينا قلَّةٌ وهو عادلُ  
وناظره الفئانُ في القلبِ عاملُ  
فوقَّعَ يجري فهو في الخدِّ سائلُ  
وجدتُ بقلبي جُبه وهو هازلُ  
مديدٌ التجني واقترُ الحسنِ كاملُ (١)  
فيئدو وللاعرابٍ فيه دلائلُ  
وينصبُ هجري عامداً وهو فاعلُ (٢)  
خييراً بأحكامِ الخلافِ يجادلُ  
بوصيلك فافعلُ بي كما أنت فاعلُ  
بمثنيك لا أصغي وإن قالَ قائلُ (٣)

أغصانٌ بانٍ ما أرى أم شمائلُ  
ويضنُّ رفاقٌ أم جفونٌ فواترُ  
وتلك نبالٌ أم لحاظٌ رواشقُ  
بروحي أفدي شاديناً قد ألفتُهُ  
أميرُ جمالٍ والملاحُ جنودهُ  
له حاجبٌ عن مقلتي حجبُ الكرى  
رفعتُ إليه قصَّةَ الدمعِ شاكياً  
شكوتُ فما ألوى وقلتُ فما صغى  
طويلُ الثَّوانِي دله متواترُ  
أطارحُه بالنحو يوماً تملأُ  
ويرفَعُ وُضلي وهو مفعولٌ في الهوى  
تفقهتُ في عشقي له مثلُ ما غدا  
فيا مألوكي ما ضرَّ لو كنتَ شافعي  
فإنني حينفِي الهوى مَحَنِبِلُ

كمال الدين بن النيه:

كما تحتَ لمةٍ ذا التركي من عَجَبِ  
والخدُّ يجمعُ بين الماءِ واللَّهَبِ  
واقترُ بسمةُ الشهدِي عن حَبِ  
بل في جنَى فمه أو ريقه الشنبِ  
بدرٌ زَمَى عن هلالِ الأفقِ بالشهبِ  
والهائمِ الصبِّ منها غيرُ مقترِبِ  
فمي ويلثمها سهمٌ من الخشبِ  
لا عن رضاً معرضٌ عني بلا غضبِ  
وليسَ لي في قيامِ العُدْرِ من سبِ  
كما تميلُ رماحُ الخطِّ بالعذِبِ  
بمعصمِ شِعاعِ الكأسِ مختضبِ  
في حجرةِ الدنِّ أو في قشرةِ العنَبِ

الله أكبرُ كلُّ الحسنِ في العَرَبِ  
صبحُ الجيينِ بلبلِ الشعرِ منعقدُ  
تفصتُ عن عيبِ الراحِ ريقُهُ  
لا في العذيبِ ولا في بارقِ غزلي  
كانه حينَ يرمي عن حنيتِهِ  
يا جاذبِ القوسِ تقريباً لوجتِهِ  
أليسَ مِن نكيدِ الأيامِ يحرمُها  
من لي بأغيدِ قاسيِ القلبِ مبتمِ  
فكم له في وجودِ الذنبِ من سبِ  
تميلُ أعطافه تيهاً بطرَبِهِ  
أشارَ نحوِي وجنحُ الليلِ معتكِرُ  
بكرٌ جلاها أبوها قبلَ ما جليَتْ

(١) كامل: يوري بأسماء بحور الشعر.

(٢) فاعل: يستخدم اصطلاحات النحو.

(٣) البيتان اشتملا على قهه المذاهب الأربعة الأئمة.

بكرٌ جلاها أبوها قبل ما جليت  
البهاء زهير:

بما هدني لا خاتني ثم ينكت  
وذلك دأبي لا يزال دأبه<sup>(١)</sup>  
أقول له صلني يقول نعم غداً  
وما ضرَّ بعضُ الناسِ لو كان زارني  
أمولاي إني في هواك معذبٌ  
فخذ مرةً روحي تُرخني ولا أرى  
فإنني لهذا الضيم منك لحاملٌ  
أعيذك من هذا الجفاء الذي بدا  
تردد ظنِّ الناسِ في فأكثروا  
وقد كرمت في الحب مني شمائلٌ

النايلسي:

ما كنت أعلم والضمائر تصدق  
حتى سمعتُ بذكركم فهويتكم  
ولقد قنعت من اللقاء ساعة  
قد يمش العطشان بلة ريقه  
فمسي عيوني أن ترى لك سيدي

أبو الحسن الجزار:

في خده من بقايا اللحم تخميش  
ظبي من الترك اغته لواحظه  
إذا تنسى قلب الغصن منكسر  
يا عاذلي إن تكن عن حسن صورتي  
كم ليلة بات يسقيني المدام على  
والغيث كالجيش يرتج الوجود له  
في مجلس ضحكك أرجاؤه طلباً

في حجرة الدن أو في قشرة العنب

وأحلف لا كلبته ثم أحنك  
فيا معشر العشايق عنا تحدثوا  
ويكسر جفناً هازناً بي ويعبث  
وكنا خلونا ساعةً نتحدث  
وحمام أبقى في الغرام وأمكث  
أموت مراراً في النهار وأبعث  
ومتظراً لطفاً من الله يحدث  
خلاتك الحنسى أرق وأدمت  
أحاديث فيها ما يطيب ويخبث  
ويسال عني من أراد ويبحث

أن المسامح كالنواظر تعشق  
وكذلك أسباب المحبة تعلق  
إن لم يكن لي للدوام تطرق  
وينص بالماء الكثير ويشرق<sup>(٢)</sup>  
وجهاً يكاد الحسن فيه ينطق

وبي لتشويش ذاك الصدغ تشويش<sup>(٣)</sup>  
عما حوته من النبل الترايش<sup>(٤)</sup>  
وإن تبلئ فطرف البدر مدهوش  
أعمى فلاني عما قلت أطروش  
روض له بيب الغيم ترقيش  
والبرق رأيت والرعد جاويش<sup>(٥)</sup>  
لأنه يسديع الزهر مفروش

(١) الدأب: العادة والديدن.

(٢) الشرق: الفصص.

(٣) تشويش: تخليط.

(٤) الترايش: الكنانات.

(٥) جاويش: لفظة تركية ربما اشتقاقها من جيش.

من قلبه بجبالِ الشعرِ مرتبطُ  
فقلتُ خيرُ الأمورِ الأنسبُ الوسطُ  
فقلتُ هذا علي ضعفي هو الشططُ  
والقلبُ متبعثُ الآمالِ منبسطُ  
رمانها فيه، قلبي أمرُه فرطُ  
قبل الفواتِ فأوقاتُ الهنا غلطُ

تَرَى متى مِن فتورِ اللحظِ يتشطُ  
قد رَق لي خصرُه المفضي فناسبتني  
وقد خفي الردفُ عني من تَأَقُلِهِ  
وصلدُه الرحبُ قد عاققتُه سحرأ  
وفيه تلكِ النهودُ المشتهأُ ترى  
إنَّ الصوابَ لتعجيلُ السرورِ ققم

القاضي مجد الدين بن مكناس:

أفديه من قمرِ بدا في سعديه  
وترددت فضلاته في خده  
نيرانُ أحشائي عليه ووجديه  
روتِ العوالي عن مثقفِ فده  
عيناك فوقَ الردفِ مسبلَ جمديه  
وعلمتَ أن ضلاله في رشديه  
وحياةٍ مبسمه الشهوي ويرديه  
خلعَ القلوبِ يبرقه ويرعديه  
ألقاهُ من جورِ الحبيبِ وبُعديه  
خبري فبصفتُ فعلَ الغرامِ وأبديه

أهدى تحيته وجادَ بوعديه  
بلدٌ جرى ماءُ الحياةِ بغيره  
أسكتُه قلبي فأوقدَ خده  
من لي بهِ حلوُ الشمائلِ أهيفُ  
يا عاذلي في حبه لو أبصرتُ  
لمذرتُ كلَّ ميثمٍ في حبه  
فوحقُّ موتي في هواه صبايةُ  
ما جادَ غيثُ الدمعِ إلا عمن هوى  
فمَ يا رسولَ وأبلغِ العشاقِ ما  
وإذا سألتك أن تؤدِّي في الهوى

عز الدين الموصلبي: والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها في ديوانه.

بأي ذنبٍ وقاك الله قد تلتت  
ما قدمت من أسى قلبي وما عملت  
والسحرُ يوهمُ طرفي أنها كسلت  
في الأفقِ وضلَّ دجا الظلماءِ لاتصلت  
أما تراها إلى كلِّ القلوبِ حلت  
وكم ثيابِ ضنى حاكثٍ وكم غزلت  
هذي محاسنها تزهر وذي ذبلت  
حتى المراشفُ منه باللمى كحلَّت  
وكلما رمتُ تجديدَ الوصالِ قلتُ  
إلى الملامِ ولا والله ما قبلتُ

نفسٌ عن الحبِّ ما أغفتُ وما غفلت  
دعها ومدمعها الجاري لقد لقيت  
أفديك من ناشطِ الإحضانِ في تلقى  
وأوضحَ الحسنُ لو شاعت ذوابه  
معسَلٌ بتعاسرٍ فسي لواحظه  
من لي بالحافظِ ظبي يدعي كلاً  
وحمرة فوق خديه ومرشقه  
أما كفاني تكحيلُ الجفونِ أسى  
أستودعُ الله أعطافاً شوتُ كبدي  
ومهجؤِ لي كم ألقُت بسمعها

وغيره للفاضل:

والعمرُ في كلفِ بكم قضيتُهُ

شرخ الشبابِ بجمكم أفيئتُهُ

داعٍ وكنتُ بحضرتي يُسْتَعَدُّ  
حُبًّا بأيامِ الشبابِ شريفةً  
بـزِدادٍ نكساً كلما داورتُهُ  
قاسٍ على العشاقِ قلتُ فديتُهُ  
لا والذي بطحاهُ مَكَّةَ يَتُّهُ  
من لَفِّهِ الذكري به سَيِّئُهُ

وأنا الذي لو مرَّ بي من نحوكم  
كيف التعرَّضُ للسلوِّ وحُجُومِ  
له داءٌ في الفؤادِ أجنسه  
قالوا حييُّك في التجني سُرفِ  
الرؤمُ من كلفني عليه تخلُّصاً  
ولو استعلتُ بكلِّ اسمٍ في الوري

وللشيخ بدر الدين الدماميني:

مذ تصلَّى جلاءَ رحمتُ قتيلا  
وهو ما زالَ من قديمِ عيللا<sup>(١)</sup>  
فأزاتنا مع الخفيفِ قتيلا  
بالهوى نحوَ وَضِلْنَا لن يميلا  
فيه يا عاذلي مديداً طويلا  
أتلِفَ العاشقينَ إلا قتيلا  
فاترُ اللحظِ بكرةً وأصيلا  
من سيلٍ قالَ لي مَلِّ سيلا

سَلَّ سيفاً من الجفونِ صقيلا  
صعَّ عن جفنيهِ حديثُ فتورِ  
مَنْ أبدي لنا من الخضرِ رذفاً  
ذو قوامٍ كأنهُ الفصنُ لكن  
كاملُ الحُسنِ وافرُ الظلِّ، وجدي  
فاتكُ الجفنِ ذو جمالٍ كثيرِ  
قلتُ إذ لاح طرفُهُ ولماءُ  
كيف حالي وهل لصبِّ إليه

وقال آخر:

ما بثُّ من ألمِ الجوى أتألمُ  
مِنْ ناظرينكُ وفي فؤادي أسهمُ  
مَاءٌ يرقُّ عليه نارٌ تضرُّمُ  
فعلامَ يَكْبُرُ عنلما تتكلمُ  
والدهرُ سَنَحٌ والحوادثُ نُومُ

لو أن قلبكُ لي يرقُّ ويرحمُ  
ومن العجائبِ أنسي لا سَهَمُ لي  
يا جامعَ الضئيلينِ في وجناتِهِ  
عجبي لطرفكُ وهو ماخرٍ لم يزلْ  
ومن المروءةِ أن توامِلَ ملنفاً

وقال آخر:

وزوَّدَ فؤادي نظرةً فهو راجلُ  
وحبُّك معنومٌ لتيبه المائلُ  
وظلُّ عذائزِهِ الدجا والأصائلُ<sup>(٢)</sup>  
ومآتيكُ للبدنِ المنيرِ منازلُ  
فهلأ رفعتَ الهجرَ والهجرُ فاعلُ

تَصَدَّقْ بوعدي إن دمعِي سائلُ  
فخلُّك موجودٌ به التبرُّ دائماً  
أيما قمرأ مَنْ شمسٌ طلعتْ وجهِهِ  
تَقَلَّتْ من طَرْفِ لقلبٍ مَعَ الهوى  
جَعَلْتَكُ للتمييزِ نصباً لخاطري

وقال ابن صابر:

(١) عيللا: (صح - عليل) ألفاظ ومصطلحات محدثين. (والشاعر محدث).

(٢) الأصائل: الوقت من المصير إلى المغرب.

خجلاً ومالاً بعطفه الميَّاسِ  
عَرَّقَ يُحَاكِي الطَّلَّ فَوْقَ الْأَسِ  
بمصاعِدِ الرَّقَرَاتِ مِنْ أَنْفَاسِي

قَبْلَتْ وَجَيْتَهُ فَأَلْفَتْ جِيْدَهُ  
فَانهَلَّ مِنْ خَدَيْهِ فَوْقَ عِذارِهِ  
فَكَأَنِّي اسْتَعطَرْتُ وَرْدَ خَدُوْدِهِ

وقال آخر:

بِهلالٍ أَوْ يَسْدِرِ ظِلْمَنة  
قَدْ تَمَدَّيْتُ وَأَسْرَفْتُ فَمَنة

وَعِزالٍ كُلِّ مَنْ شَبَّهَنة  
قال إِذْ قَبْلَتْ وَهَمَّأَ فَمَنة

وقال آخر:

مُنْذُ جَدَّ لِي بَسْلامِيهِ وَكَلَامِيهِ  
أَبْداً وَصَدِغَ ما رَأَيْتُ كَلَامِيهِ<sup>(١)</sup>

بأبِي غلامٍ لَسْتُ غَيْرَ غَلامِيهِ  
ذو حَاجِبٍ ما إِنْ رَأَيْتُ كُتُونِيهِ

وقال جمال الدين بن مطروح:

صَبَّ عَلَيَّ عَرَشِي الْغَرَامِ قَدِ اسْتَوَى  
مَهْمَا جَرَى ذَكَرُ الْعَقِيْقِ مَعَ اللَّوَى  
فَهناكَ يَنْشُرُ مِنْ هِواءِ ما انْطَوَى  
ما ضَلَّ فِي شَرِيحِ الْغَرَامِ وما عَوَى  
فِيهِ المِلامُ وَقَدْ حَوَى ما قَدْ حَوَى  
وَقَتورُ عَيْنِيهِ وَهَلْ مَوْتِي سَوَى  
خَجْلاً وَلا غِصْنُ النِّقا إِلا التَّوَى  
يا طيِّبَ ما نَقَلَ الأَراكُ وما رَوَى

ذَكَرَ الجَمِيَّ فَصَبَّا وَكانَ قَدِ اذْعَوَى  
تَجْرِي مَدامِعُهُ وَيَخْفِقُ قَلْبُهُ  
وَإِذا تَأَلَّقَ بَارِقٌ مِنْ بَارِقِ  
فَعُذُوا أَحاديثَ الهَوَى عَنِ صادِقِ  
وَبمُهِجَتِي رِشْأُ أَطالَتْ عُدْلِي  
فأَلُوا أَيْهِ سَوَى رِشاقِ قَدِهِ  
ما أَبْصَرْتَهُ الشَّمْسُ إِلا وَاكَتَتْ  
بِروِي الأَراكُ مَحاسِناً عَنِ نَقْرِهِ

وقال آخر:

وَسَرَى الحِياهُ بِخَلْدِهِ فَتَوَرَّدَا  
لِما غَدَا بِجَمالِهِ مَمَرَّدَا  
تالاه قَدْ ظَلَمَ المَثْبُةَ وَااعتدى  
وَتِراهُ أَحْسَنَ ما يَكُونُ مَجْرَدَا

عَبَتْ النِّسيمُ بِقَلْدِهِ فَتَأَوَّدَا  
رِشْأُ نَقْرَدَ فِيهِ قَلْبِي بِالهَوَى  
فاسُوه بِالْفُصْمِ الرطِيبِ جِهادِةً  
حُننُ الفُصْمِونِ إِذا اكَتَتْ أوراْفُها

وقال غيره:

إِلَى قَلوبِ فِي الهَوَى مُتَعَبِة  
صَفْحَةَ خَدِّ بِالسَّنَا مَلْعَبِة  
مِنْهُ وَقَدْ أَسْعَفِي عَقْرَبِة<sup>(٢)</sup>

يا حِناً ما لَكَ لِمَ تَحْمِنِ  
رَقِمْتَ بِالوَرْدِ وَبِالسَّوسِنِ  
وقَدْ أبى خَلْدُكَ أَنْ أَجْتَبِي

(١) كلامه: مثل لامة.

(٢) عقرب الصدغ: سالفه.

وَمَا لَذَاكَ اللَّفْظُ مَا أَعْدَبَنِي  
وَكُلُّ أَلْفَاظِكَ مُنْتَعَدَبَنِي  
وَمَذَرَانِي مَيْتاً أَعْجَبَنِي

وقال:

وَجُئِبَهُ إِسَائِي قَدْ أُنْعِمَنِي  
قَتَلِي لَهُ لَمْ أَنْزِرْ مَا أَوْجَبَنِي

وَيَخْجَلُ بَدْرُ التَّمِّ عِنْدَ شُرُوقِهِ  
وَمَا فِيهِ شَيْءٌ بَارِدٌ غَيْرُ رِيْقِهِ

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ تَنَى عَطْفَهُ دَلَالاً<sup>(١)</sup>  
وَأَقْبَلَنِي صَبْرًا وَأَعْلَنَتْنِي عَقْلًا  
وَأَعْرَضَ مَزُورًا فَسَلَّ الْحِشَاءَ سَلًّا  
يُنَادِيهِ فَرَطُ الْعَجَبِ مِنْ عَطْفِهِ كَلًّا

بَيْنَ الْمُذْنِبِ وَبَيْنَ شَطَطِي بَارِقِ  
فَأَجَابَتْنِي عَنْهَا بِوَعْدِ صَادِقِ  
وَمِنَ النُّجُومِ الزُّهْرِ تَحْتَ شُرَائِقِ  
صَهْبَاءَ كَالْمَسْكِ الذِّكِّيِّ لِنَاشِقِ<sup>(٢)</sup>  
وَذَوَابِتَاهُ حَمَاتِلُ فِي عَائِقِي  
زَحْرَخْتُهُ عَنِّي وَكَانَ مُعَاتِقِي  
كَيْ لَا يَنَامَ عَلَيَّ فِرَاشِ خَائِقِي  
قَدْ شَابَ فِي لَمَسٍ لِي وَمَفَارِقِي  
صَغْبُ عَلَيَّ بِأَنَّ أَرَاكَ مَفَارِقِي

فَمَا أَنهَى الْغَزَالَ وَالْغَزَالَ

يَا حَسَنَةً إِذَا قَالَ مَا أَحْسَنِي  
قَلْتُ لَهُ كُلُّكَ عِنْدِي سَنًا  
فَقَرَّقَ التَّهْمَ<sup>(١)</sup> وَلَمْ يَخْطِنِي

كَمْ مِنْ عَائِشَةٍ حَبْنِي  
يَرْحُمُهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْتِي

وقال آخر:

مَلِيحٌ يَغَارُ الْفَصْنُ عِنْدَ اهْتِزَاؤِهِ  
فَمَا فِيهِ مَعْنَى نَاقِصٌ غَيْرُ خَصِيرِهِ

وقال يحيى بن أكرم:

دَنَاهَا جَرَى نَخْوِي بِمَقْلَبِهِ الْكَلَاحِ  
فَيَجْمَعُنِي شَوْقًا وَأَنْحَلُنِي أَسَى  
شَكْوَتْ فَمَا أَلْوَى وَوَلَّى وَمَا لَوْى  
إِذَا مَا دَعَا فَرَطُ شَقْمِي لَزُورَةٍ

وقال أيضاً:

بِأَبِي غَزَالًا غَارَلْتَهُ مَقَاتِي  
وَسَأَلْتُ مِنْهُ زُورَةً تَشْفِي الْجَوَى  
بِتَنَا وَنَحْنُ مِنَ اللَّجَا فِي خِيَمَةٍ  
عَائِشَتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ  
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ<sup>(٤)</sup> لَسَيْفِهِ  
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكَرَى  
أَبْعَدْتُهُ عَنْ أَضْلَعِ تَشْتَاقِهِ  
لَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَخْرَجَ عُنُقِهِ  
وَدَغِغْتُ مَنْ أَمْوَى وَقَلْتُ تَأْتِفُنَا

وقال ابن نباتة:

بَدَا وَرَنَتْ لِرَاحِظَتِهِ دَلَالًا

(١) السهم: أعله وبراء.

(٢) دلًا: تلالًا.

(٣) لناشق: مستشق - شام.

(٤) الكمي: الفارس الشجاع.

ولكن قد وجدت به الضللا  
سواد العين فيه فخال خالا  
وجدت له من الألفاظ لا  
لنا ذرا وقد سکن الزلا  
أبت على سواقه نمالا  
وقد أهدي إلى قلبي الوالا  
وأشكر من صنائعه الجمالا

أسفر عن منا فمر ثير  
صقل الخد أبصر من رآه  
وممنوع الوصال إذا تبلى  
عجبت لغيره البسام أبدي  
شهدت بشهد ريقه لأنى  
فيا عجبا لحنن قد حواه  
سأشكر الحسن ما بقيت حياتي

القاضي فخر الدين بن مكناس:

حملتني في هواك مالا  
حُبك رب السما تعالي

يا غصنا في الرياض مالا  
يا رائحا بعد أن سباني

وله أيضاً:

مما ألقى عداً وحُذ  
تعد سقماً بكى وعد

أجازك الله قد رثت لي  
وعاذلي منذ رأى ضلوعي

ابن رفاعه:

ومتاكم المطلوب قلنا لهم منا  
يحاكى إذا ما اهتز، قلنا لهم غصنا

يقولون هل من الحبيب بزور  
فقالوا لنا غوصوا على قده وما

الشيخ برهان الدين القيراطي:

مشايخ علم البحر عن لفظه زووا  
من المسك فوق الجلنار قد اتوا  
عليها قلوب الماشقين قد اكثروا  
لقوله حسود والعواذل إذا عروا  
فكيف وأحشائي على حبه انظروا

ووردي خد نرجسي لواحظ  
وواوات صدغيه حكين عقارياً  
ووجش الخنرا تلوح كجمرة  
وودي له باقو ولسث سامع  
ووالله ما أسلوا ولو صرث رمة

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضاً:

من لقتلي بين الأنام استحلاً  
حلنا دون ذلك حاشى وكلاً

شب السيف والسنان يثبي  
فأبى السيف والسنان وقالوا

وله أيضاً:

حسد الأسمر المثقف قلده  
كلمتني سيوفهن محله

بأبي أهيف المعاطن لذن  
ذو جفون مد رمت منها كلاماً

وقال آخر:

من الهندي معول اللمي أهيف القد

تملك رقي شادن قد هوته



أقول لصخبي حين يزنو بطرفه  
خذوا حذرکم قد سل صارمة الهندي

ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري:

وطيفها عن عياني غير محتجب  
والقلب ما زال عنها غير منقلب  
ولا لواطر خلبي بات يلعب بي  
ومر هجرانها أخلني من الضرب  
تثيب فيه الليالي وهو لم يشب  
وغير طاعته في الحب لم يجب

خيال سلمى عن الأضغان لم يغب  
وذكرها أنس روعي وهي نائية  
لم أضغ فيها لإلاج راح يذلني  
علاؤها في الهوى عذب الأذ به  
فإن نأت أو دنت وجددي كما علمت  
دفعها فامر هوى المحبوب متبع

وقال عفا الله عنه:

وحياة من دمعي مذاب وجايد  
وأرض نأت عنها قفار جلامد  
ولو كدرت منها علي الموارد  
وظللت لياليه بلمى تساعد  
ويظنان طرف الين عني راقد  
وأوقائنا بالوصل خضر أماليد<sup>(١)</sup>  
ونحن كأننا في الحقيقة واحد  
ولم يطرد فينا من الين طارد  
تليوخ علينا للغرام شواهد  
ولم نحسب الأيام فينا ثعابيد  
كما كنت لي أم حاد بالقلب حائد  
على عادة الأيام منك العوائد  
وأناك حفظ الود هذا التباعد  
وقولك لا عاش الخون المعاهد  
وهل أنت أحلت الذي أنا عاهد  
وفيك يقيني بالوقا منك شاهد  
ولا اختلفت فيما علمت العوائد  
وكيف سلوي والحيب مباعد  
فودي طريف في هواك وتالد<sup>(٢)</sup>

سقى طلالا حلت سلمى معاهد  
فزنح به سلمى مصيف ومرع  
وحيث ثوت أرضاً فأعذب مورد  
رعى الله دهرأ سالتني صروفه  
وقد غفل الواشون عني ولم أزل  
وأبائنا بالقرب يفض أزامر  
وأرواحننا ممزوجة وقلوبنا  
وكم قد مرجتنا في مروج صباو  
تجر ذبول اللهم في قمص الهوى  
ولم يخطر الضريق منا بخاطر  
فهل أنت يا سلمى وقد حكمت الهوى  
وهل وذننا بساقو وإلا تقيرت  
وهل ميجت آثار رسم حديثنا  
وهل تذكرين العهد إذ نحن باللوى  
وهل أنت غيرت الذي أنا حافظ  
وهل بدلت منك المودة بالجفا  
واني وما بدلت عهدك في الهوى  
ولا بك سرورا وعيبك ليلة  
فإن كنت جبل الود صرمت طرفه

(١) أماليد: ملى.

(٢) طريف وتالد: حديث وعتيق.

وإن قلت إن الحبَّ عَيْسَرُهُ النَّوَى  
وإن أوردوا يوماً صباية عاشق  
فما شئت كوني إنني بك مُدنفٌ  
ومنك تساوى عندي الوصلُ والجفا  
ولو رمث أروي عن هواك أعيتي  
نصبت شراك الحبِّ صلت حشايتي  
بعدتُ وقلتُ الينُّ يسلي أخوا الهوى  
وما غيرُ الضريقِ ما تهديتُهُ  
وجلُّ مناي القربُ منك وإنما

وقال عفا الله عنه:

تَهَلَّدُنِي بِبَرِيحٍ وَيَسِّنُ  
وتحلفُ لي لتلبسني سقاماً  
وترويني بنبيلٍ من جفونٍ  
وتحرقني بنارِ الصَّدِّ حَتَّى  
قلقتُ لها ودمعي في انكبابٍ  
ومَن لي أن يقالَ قَتِيلٌ وجِدٍ

وقال عفا الله عنه:

سَلَوِي عَنْكَ شَيْءٌ لَيْسَ يُرَوَى  
ولم يمرزُ سواك على ضميري  
وما لك عن سوادِ العينِ يوماً  
وما اخضرتُ دواعي الشوقِ إلا

وقال عفا الله عنه:

قَمَّا بَيْتِكَ دَاراً شَطَطاً عَنَا مَزَارُهَا  
وعوجاً بأطلالٍ مَحْتَهَا يَدُ النَّوَى  
فقلنا بها ريماً من الإنس إن رنتُ  
تصيدُ قلوبِ العاشقين أنيسةً  
ويهزأ بالأغصانِ لِينُ قَوَائِمِهَا

لَعَمْرِي وَجَلِي بِالْحَشَاشَةِ وَقَدُّ<sup>(١)</sup>  
فبي يُضَرِّبُ الْأَمْشَالَ مَنْ هُوَ وَارِدٌ  
صبورٌ على البَلْوَى شكورٌ وحامدٌ  
وفيك لقد هانت علي الشدائدُ  
لقاد زمامي نحو جَبِّكَ قائدُ  
فكيف خلاصي والهوى منك صائدُ  
وهل يسلي ذا الأشجانِ هذا التباعدُ  
وسوقُ سَلَوِي في المحيين كاسدُ  
إذا عظمَ المطلوبُ قلَّ الماعدُ

وَتَوَعَّدُنِي بِتَضْرِيحٍ وَصَدِّ<sup>(٢)</sup>  
تَهِي<sup>(٣)</sup> جَلِي بِهِ وَتُذِيبُ جَلِي  
تُضْمِنُنِي وَتُضْمِنُنِي وَتُرْزِي  
تذيبُ حشايتي كمداً وحبلي  
يفيضُ دماً على صفحاتِ خدي  
واذكرُ من هواك ولو بصلي

وَجَبِي فِيكَ سَارَ مَعَ الرِّكَابِ  
ووجلي فيك أسره غداً بي  
وما لسوادِ قلبي من حجابٍ  
هزرتُ إليك أجنحةَ الصَّابِي

وأنحلنا بعد البعاد اذكارها<sup>(٣)</sup>  
فاظلم بالنأي المئيتُ نهارها  
بمقلتها يوصي القلوبِ احورارها  
ويحسن منها صلها ونفارها  
إذا مأل فوق الغصن منها خمارها

(١) واقد: مُدَّ في قلبي.

(٢) تهى: تضعف.

(٣) اذكرها: تذكرها.

وليس لبدنِ التَّمِّ قامَةٌ قَدَّهَا  
منازلُها مني الفؤادُ وإن نأى  
يمثلُها بالوفِّمِ فكري لناظري  
وهيَّجَ دَمْعِي حَرَّ نارِ صَبَابَتِي  
وساعَدَنِي بِالْأَيْكِ لِيلاً حَمَائِمٌ  
بَكَيْنَ وَلَمْ تَسْفَحْ لَهَنٌ مدامِعُ

وما هو إلا جِجَلُها وَسِوَاؤُها  
عَنِ العَيْنِ مَنَواها قُضِيَ القَلْبِ دارُها  
وأكثُرُ ما يُضْني النُفوسَ اِفتِكاؤُها  
وما خمدتُ بالدمعِ مني نارُها  
تَهاتِفُ شَجواً لا يقرُّ قَرارُها<sup>(١)</sup>  
وعيني فاضتُ بالدموعِ بِجَارُها

ولمؤلفه رحمه الله تعالى وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله متر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه.

نسيمُ الصبا بَلَّغَ سُليْمِي رسائلي  
فقد صارَ بالأسقامِ صِبا مُعذَّباً  
صبوراً على حَرِّ الغرامِ وَيَزِدُهُ  
يبسُّ على جَنرِ الغُضِيِّ مقلِّباً  
ألا يا سُليْمِي قد أضربَ بي الهوى  
رُميْتُ بهمٍ من لحاظِكِ قاتلِ  
كمتُ غرامي في هواكِ ولم أُبخ  
سُليْمِي سَلِي ما قد جَزَى لي من النوى  
لعلَّ تَجُودِي للكَيْبِ وتَسْمِجِي  
عَسَى تَطْفِي بالوعدِ نارِي وأشضي  
خفيْتُ عن العواذِ لولا تأوُّهِي  
فَرُقِّي قد رَقَّتْ عِبادِي لِدَلَّتِي  
قَطَعَتْ زَماني في عَسَى ولعلَّها  
فما آن أن ترضي عليَّ وترحمي  
توسَّلْتُ بالمخنارِ في جَمعِ شَمِلنا

بلطفِ وقل عن حالِ صَبِكِ سائلي  
قريحَ جفونٍ من دموعِ هَوايِلِ  
حليفَ القَنِي لم يُضغِ يوماً لعاذلِ  
يترُّ غراماً فارحِيهِ وواصلي  
وماجَّتْ بتريحِ الغرامِ بلابلي  
فلم يَحْطُ قَلْبِي والحشا ومقاتلي  
بسرِّ فباحَتِ أدمعي برسائلي  
فقد عادَ لي حالٌ له رِقٌّ عاذلي  
بوعدِ وبعَدِ الوعدِ إن شئتِ ماطلي  
فبالسقمِ أعضائي وَهَتِ ومفاصلي  
وعظُمُ أُنْبِي لا يراني مسائلي  
وفاضتُ على حالي عيونُ عواذلي  
وما فزتُ في الأيامِ منكِ بطائلِ  
ضَنَى جسدي فالوجدُ لا شكَّ قاتلي  
نبيَّ له فضلٌ على كلِّ فاضلِ

وله رحمه الله تعالى:

يا رِيَّةَ الحَسَنِ مَنْ بالصدِّ أَوْصاكِ  
ويا فتاةً بفتانِ القوامِ سَبَّتِ  
لقد جنتُ غراماً مُدْ رأى نظري  
ومد رآه جفاً طيبُ المنامِ وقد  
علبتني بالتجنِّي وهو يغلب لي

حتى قلتِ بفرطِ الهَجْرِ مُفَنَّاكِ  
مَنْ في الوري يا ثرى بالقتلِ أفتاكِ  
في النومِ طيفَ خيالٍ من مجيباكِ  
أضحى عليلاً حزيناً لم يزل باكي  
فهل ترى تَسْمِحي يوماً بزواياكِ

فالله يعلمُ أننا ما نَسَيْتَاكِ  
أضحى فؤادي أسيراً لحظ عيناكِ  
ولا عذابَ نفوسٍ قبل أهواكِ  
أمسى أسيراً سوى في حُسنِ معنكِ  
ولا تُطيليني بحسبِ الله جفواكِ  
ومهجةً تَلَفَّتْ يا هندُ أقماكِ  
وأنتِ يا هندُ لا ترثني لمضناكِ  
ولو فنيثُ غراماً لستُ أنساكِ

إن كنتِ لم تذكرينا بعدَ فرقتنا  
ما أن أن تعطيني جوداً عليّ فقد  
ما كنتِ أحبُّ أن العشقَ فيه ضني  
حتى تولعَ قلبي بالغرامِ فما  
رقي لمبيدكِ جوداً واعطيني وذري  
يا هندُ رفقاً بقلبِ ذابِ فيكِ أسى  
رق العذولُ لحالي في الهوى ورثي  
والله لو متُّ ما أسلاكِ يا أملي

وقال آخر:

يسيرُ أمامِ العيسرِ وهو ذليلُ  
فؤادي سرى في الركبِ وهو عجولُ  
لتعلم ما هذا إليه يؤولُ  
فمن بابِ أُولى أن يجدَ رحيلُ  
وما زال ليلُ العاشقينَ طويلُ  
فقالَتْ وجسمُ العاشقينَ نجيلُ  
بيومٍ وداعٍ ما إليه سيبُلُ  
لكيلا أرى يوماً عليّ تقبلُ

كأنَّ فؤادي يومَ سررتُ دليلُ  
فسرتُ عقيبَ الظاعنينَ لكي أرى  
وقائلو لي كيفَ حالُكِ بعدنا  
فقلتُ لها قد متُّ قبلَ ترخلي  
وقلتُ فلئلي طالَ همّاً فأنشدتُ  
فقلتُ وجسمي لم يزلُ مترجفاً  
فقلتُ لها لو كنتُ أدري فراقنا  
فلمتُ لعيني في هواكِ بأصبعي

وقال الواواء الدمشقي عفا الله عنه:

ما لي، وما لكِ قد أطلتِ سهادي  
أبعذتني ولقد سكتتِ فؤادي  
رُوحِي وقلبي والحشا وقِيادي  
قلبي أسيراً ما له من فادي  
فلكم صرغتي بها من الآسادِ  
والحسنُ منها عاكفٌ في بادي  
ودعي السيوفَ تقمُّ في الأغمادِ  
فبميمٍ مسمكٍ شفاءُ الصادي  
ولقد فني صبري وعاش سهادي  
يا حبذا لأراكِ من فؤادي  
من حنكِ المتفرقِ الوقادِ  
ما لي سواكِ ولو حرمتِ مرادي  
وبه سألقى الله يومَ معادي

يا مَنْ نَفَتْ عني لذيذَ رُفادي  
فبأيِّ ذنبي أم بأيِّ حالو  
وصدّدتِ عني حينَ قد ملكَ الهوى  
ملكْتَ لحاظكِ مُهجتي حتى غدا  
لا غرو أن قتلتِ عيونكِ مُغرماً  
يا مَنْ حوتَ كلَّ المحاسنِ في الوري  
رفقاً بمن أسرتِ عيونكِ قلبه  
وتعطيني جوداً عليّ بقبلي  
ماتتِ أطالَ الله عُمرَكَ سلوتي  
ومن العنى لو دامَ لي فيكِ الضنى  
وأجبلُ منكِ نواظري في ناضِرِ  
وأولُ ما شئتِ اصنعني يا منيتي  
إلا مديحُ المصطفى هو عمدتي

وقال البهاء زهير:

أنوحُ كما نأح الحمام المطوقُ  
وتحتي بحاراً بالجوى تدفقُ  
تفكُّ الأسارى دونهُ وهو موثقُ  
ولا أنا ممنونٌ عليه فيعتقُ

إذا جُنَّ ليلي هامَ قلبي بذكركم  
وفوقي سحابٌ يطرُّ الهمُّ والأسى  
سلوا أم عمرو كيف باتَ أسيرُها  
فلا أنا مقتولٌ ففي القتلِ راحةٌ

وقال مجنون ليلي:

ليلي إذا ما لليل ألقى المراسيا  
فما للثوى يرمي بليلى المراسيا  
وقد عشتُ دهرًا لا أعدُّ اللياليا  
أحدثُ عنك النفسَ بالليل خاليا  
علينا فقد أمسى هوانا يمانيا  
شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا  
أثيين صئبتُ الضحى أم ثمانيا  
إذا علم من أرض ليلي بدًا ليا  
فقسى الله في ليلي ولا ما قسما ليا  
فهلأ بشيء غير ليلي ابتلائيا  
وداري بأعلى خضرموت افتلئيا  
يزاد لها في عمرها من حياتيا  
وأخلص منه لا علي ولا ليا  
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا  
وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وقد خبروني أن تيماء منزلٌ  
فهذي شهرٌ الصيف عنا قد انقضت  
أعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة  
وأخرج من بين البيوت لعنني  
ألا أيها الركبُ اليمانون عرجوا  
يميناً إذا كانت يميناً فإن تكن  
أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها  
خيليني لا والله لا أملك الهوى  
خيليني لا والله لا أملك الذي  
قساها لغيري وابتلاتني بجهها  
ولو أن واث باليمامة داره  
وددت على حبي الحياة لو أنه  
على أنني راضي بأن أحمل الهوى  
إذا ما شكوتُ الحب قالت كذبتني  
فلا حب حتى يلمس الجلد بالحشا

وقال آخر:

بالله صفة ولا تقصص ولا تزدد  
وقلت قف عن ورود الماء لم يرد  
يا برد ذلك الذي قالت على كبلي

قالت لطيف خيال زارني ومضى  
فقال خلفته لو مات من ظمراً  
قالت عهدت الوفا والصدق شيمته

كمال الدين بن النبيه:

وسمرة مسكة اللمس اللثهي  
عليه طوالع الند الثلي  
خشيت عليه من ثقل الحلبي  
وأخطني ومالك بعد ربي

أما ويصاض مبيك النقي  
ورمان من الكافور تغلر  
وقد كالفقيب إذا تقي  
لقد أسقمت بالهجران جسمي

يسوخ بمضمير السر الخفي  
فويل للشجي من الخلي

إلى كم أكنم البلوى ودمعي  
وكم أشكو للافية غرامي

صفي الدين الحلبي:

وَأَتَّكَ نَحْتَ مَدَارِجِ الظُّلَمَاءِ  
وَكَلِمَا الدُّوَاءِ يَكُونُ بَعْدَ الدَّاءِ  
فَضُنْتُ بِهَا قَقْضَتْ عَلَى الأَحْيَاءِ  
دَلٌّ يِبَاطِنِ خِيَمَةِ زُرْقَاءِ  
عَتَبْتُ غَيْثُ بِهِ عَنِ الصَّهْبَاءِ  
مَنْ بَعْدِهَا فِيهِ يَدُ البُرْحَاءِ (١)  
جَزَعاً وَمَا نَظَرْتُ جِرَاحِ احْتَائِي  
مَا أَخْطَأْتَهُ أَسِنَّةُ الأَعْدَاءِ  
أَضْعَافَ مَا عَائِنْتُ فِي الأَعْضَاءِ  
نَجْلَاءِ أَوْ مِنْ مَقْلَةِ نَجْلَاءِ

أَبَتِ الوَصَالَ مَخَافَةَ الرِّقَابِ  
أَصْفَتَكَ مِنْ بَعْدِ الصَّدُودِ مَوْدَةً  
أَحْيَتْ بِزُورَتِهَا الضُّوْسَ وَطَالَمَا  
أَمَسَتْ بِلِيلِ والنَّجْمِ كَأَنَّهَا  
أَمَسَتْ تُعَاطِيَنِي المَدَامَ وَيَتَنَا  
أَبَتْ إِلى جِسْدِي لِتَنْظُرَ مَا انْتَهَتْ  
أَلْفَتْ بِهِ وَقَعَ الصَّفَاحُ فِرَاعَهَا  
أَمْصِيَةً مِنْهَا بِنَيْلِ لِحَاطِظِهَا  
أَعْجَبْتَ مَا قَدِ رَأَيْتَ وَفِي الحِشَاءِ  
أَمْسِي وَلَسْتُ بِسَالِمٍ مِنْ طَعْنِهِ

وله رحمه الله تعالى:

فَمَا أَنَا مَنْ يَجِي إِلى حِينَ نَلْظِي  
وَتَشِبْتُ وَمَا حَلَّ اليَاسُ بِمَفْرَقِي  
وَلَمْ تَفْرَقِي بَيْنَ المَنْعَمِ والشَّقِي  
وَمَزَّقْتُ شَمْلَ الوَصْلِ كُلَّ مَمزَّقِ  
وَأَحْبَبْتُ قَوْلَ الهَجْرِ مِنْ غَيْرِ مَشْفِقِ  
عَشِيَةً زَمْتُ لِلتَّرْحَلِ أَيُّقِي (٢)  
وَلَا تَلْمِئِي أفعالَهُ وَتَرْقِئِي

قَفِي وَدَعِينَا قَبْلَ وَشِكِ التَّضْرُقِ  
قَضَيْتُ وَمَا أَرَدَى الجِمَامُ بِمَهْجَتِي  
قَمَعْتُ أَنَا بِالدَّلِّ فِي مَلْهَبِ الهَوَى  
قَرَنْتُ الرِّضَا بِالسَّخِطِ والقَرَبِ بِالنَوَى  
قَبَلْتُ وَصَايَا الهَجْرِ مِنْ غَيْرِ نَاصِحِ  
قَطَعْتُ زَمَانِي بِالمُتَدَوِّدِ وَزَرْتَنِي  
قَضَى الدَّهْرُ بِالتَّضْرِيقِ فَاصْطَبِرِي لَهُ

وقال عفا الله عنه:

فَعَطَّرَتْ سَائِرَ الأَرْجَاءِ بِالأَرْجِ  
فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ اغْتَنَّا عَنِ السَّرِجِ  
بِحَارِسِ فِي نِبَالِ الفَنجِ وَالدَّمْعِ (٣)  
فَكَانَ غَفْرَانُهَا يُغْنِي عَنِ الحَجَجِ  
فَمَا عَلَيَّ إِذَا أَذْنِبْتُ مِنْ حَرَجِ

جَامَتِ لِتَنْظُرَ مَا أَبَقْتُ مِنَ المَهْجِ  
جَلَسْتُ عَلَيْنَا مَجِيلاً لَوْ جَلَسَتْ لَنَا  
جَوْرِيَّةُ الخَدِّ تَحْمِي وَرَدَّ وَجَّتِهَا  
جَزَتْ إِسَاءَةَ أفعالِي بِمَغْفَرَةٍ  
جَادَتْ لِعِرْفَانِهَا أَنِّي المَرِيضُ بِهَا

(١) البرحاء: الضنى.

(٢) أيقي: تهيأت النوق للرحيل.

(٣) الفنج: الدل. والدمع: وساعة في العين.

كُفِّي فذاك جوى لولأك لم يهج  
ولذّة الحبّ حورُ الناظرِ الغنّجِ

جَسَّتْ يدي ل ترى ما بي قللتُ لها  
جَسَوْتَنِي فرايتُ العبيرَ أجملَ بي

وقال ابن نباتة:

وأقبلتُ في اللّجى تسمى على حذرٍ  
وكان أبخلَ من تموزَ بالمطرِ  
فلم تبقَ من قلبي ولم تنرِ  
والبدرُ ساهٍ إليها سهوً معتذرٍ  
في ظلّ جنّحينِ من ليلٍ ومن شعرٍ  
إذا نهتسي إليها نسمةُ السّحرِ  
من يرشف الراحَ قلبي من فمِ القمرِ  
في ليلةِ الوصلِ بل في غرةِ القمرِ

رَقْتُ لنا حين همّ الشُّنُفُ بالشُّفْرِ  
راضٍ الهوى قلبها القاسي فجادَ لنا  
رأتُ غداةَ النوى نارَ الكليمِ وقد شبت  
رشيقَةً لو تراها عندما سَفَرَتْ  
رأيتُ بَدْرَيْنِ من وجوهٍ ومن قمرِ  
رَشَفْتُ دُرَّ الحُكَيْمِا من مُقْبَلِها  
رَنَتْ نجومُ الدجى نحوي فما نظرت  
راقَ العتابِ وأبدتُ لي سرائرُها

وقال ابن الساعاتي:

فوجدتُ نارَ صبابؤ في كوثِرِ  
رضوانها المرجوُّ شربَ المسكرِ

قَبَلْتُها ورشفتُ خمرةَ ريقِها  
ودخلتُ جنةً وجهها فأباحني

وقال آخر:

بكاءُ المحبِّ لبعدِ الديارِ  
بقيةُ طلِّ على جَنَّارِ

بَكَتُ للفراقِ وَقَد راعَها  
كانَ الدموعُ على خَدِها

وقال الواواء دمشقي (تضمنين):

إما غدا زعموا أو لا قَبَعَدَ غدا  
ورداً وعَضَّتْ على العنابِ بالبرِّدِ

قالت متى الظمنُ يا هذا قللتُ لها  
فأمطرتُ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتُ

ولابن نباتة:

على غداةٍ مثلِ البدرِ تَمَّما  
ولي أذنُّ عن الفحشاءِ صَمَّما

عدولي لستُ أسمعُ منه قولاً  
له طرفٌ ضريزٌ عن سَنَماها

وقال آخر:

أراعي نجومَ الليلِ فيها إلى الفجرِ  
رويئتُ أحاديثَ السهادِ عن الزهري

وربَّ ليلالٍ في هَواها سهرتُها  
حدبشي عالٍ في السهادِ لأنني

السراج الوراق:

أسرَفَتَ في اللّؤمِ جهلاً  
ولا الصبابةُ إلا

يا لايبي في هَواها  
ما يعلمُ الشوقُ إلا

وقال آخر:

وَأَنْتَ فِي النَّهَارِ تَسْحَبُ ذَيْلًا  
كَيْفَ صَدَقْتَ أَنْ تَرَى الشَّمْسَ لَيْلًا

وَعَدْتِ أَنْ تَزُورَ لَيْلًا فَالْوَرْتُ  
قَلْتُ هَلَا صَدَقْتِ فِي الْوَعْدِ قَالَتْ

لمز الدين الموصلي:

ذَاتِ وَجْهِ بِهَا الْجَمَالُ تَفْتَنُ  
وَدَفَعْنَا بِالسِّيِّئِ هِيَ أَحْسَنُ

قَدْ سَلَوْنَا عَنِ الْغَزَالِ بِخُودِ  
وَرَجَعْنَا عَنِ التَّهْتُوكِ فِيهِ

وقال آخر:

سَادَ بِقِيَّتِهَا عَلَى الْأَرَاكِ  
قَلْتُ لَهَا ذَاقَهُ سَوَاكِي

قَالَتْ وَنَاوَلْتِهَا سَوَاكَا  
سَوَايَ مَا ذَاقَ ظَعْمَ رِيْقِي

وقال آخر:

قَالَتْ مُحِبٌّ دَعَاهُ يَعْنُرُ  
وَأَحْسَنُ السُّكْرِ الْمَكْرُرُ

سَأَلْتِهَا أَنْ تَعِيدَ لَفْظًا  
حَدِيثُهَا سَكْرٌ شَهِيٌّ

ابن نباتة:

أَثَرَ السَّقَامِ بِجَسَمِي الْمَنَاضِ  
أَنَا بِالسَّقَامِ وَأَنْتِ بِالْإِعْرَاضِ

وَمَلُولَةٌ فِي الْحَبِّ لَمَّا أَنْ رَأَتْ  
قَالَتْ تَغَيَّرْنَا قَلْتُ لَهَا نَعَمْ

وقال أبو الطيب المتنبي:

الْبَلْبَسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِيَا  
وَجَنَاتِهِنَّ النَّاهِبَاتُ النَّاهِبَا  
تُ الْمَبْدِيَّاتُ مِنَ الدَّلَالِ غَرَابِيَا  
فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ فَوْقَ تَرَابِيَا  
مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي فَكُنْتُ الذَّابِيَا  
وَإِذْ لَكُنْتُ بِهِ الْغَزَالَةَ كَاعِيَا  
مِنْ بَعْدِ أَنْ أَشْبَنَ فِيَّ مَخَالِيَا

بِأَبِي الشَّمْسِ الْجَانِحَاتُ غَوَارِيَا  
النَّاهِبَاتُ عِيُونَنَا وَقَلُوبَنَا  
النَّاعِمَاتُ الْقَاتِلَاتُ الْمَحِيَا  
حَاوَلْنَ تَفْدِيَتِي وَخَفْنَ مَرَاقِبَا  
وَسَمْنَ عَنِ بَرْدِ خَشِيَّتِ أَدْيَبِهَا  
يَا حَبِّذَا الْمُتَحَمِّلُونَ وَحَبِّذَا  
كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الْخَطُوبِ تَخَلُّصَا

وله أيضاً من جملة قصيدة:

غَفُولَانِ عَنَا ظَلْتُ أَبْكِي وَتَيْسُمُ  
وَلَمْ تَرَ قَلْبِي مَيْتاً يَتَكَلَّمُ

وَلَمَّا التَّقِينَا وَالنَّسْوَى وَرَقِينَا  
فَلَمْ أَرِ بَدْرًا ضَاحِكًا قَبْلَ وَجْهِهَا

الشريف الرضي:

وَمَعْنِبِرٍ وَمَمْسُوكِ وَمَصْنَدِلِي  
قَالَتْ رَوَادِفُهَا أَعْمَدِي وَتَمَهَّلِي

وَتَيْسِ يَبْنَ مَزْعَفِرٍ وَمَعْصِفِرٍ  
هَيْئَةً إِنْ قَالَ الشَّبَابُ لَهَا أَنَهْضِي



وإذا سألتَ الوصلَ قالَ جمالها  
ابن إسرائيل:

وَعَدَّتْ بِوَضَلٍ وَالزَّمَانَ مَسْوُوفٌ  
نَشْوَانَةٌ خَصْبَاءُ مِنْهُلُ قَنْبَرَهَا  
وَتَخَالَ يَبِينُ الْبَدْرِ مِنْهَا وَالنَّقَا  
لَا تَحْبِرُنُ الْخَلْفَ شَيْمَةً مِثْلَهَا  
يَا بَانَةً قَدْ أَطْلَقَتْ أَغْصَانَهَا  
وَعِزَالَةً يَحْكِي الْغِزَالَةَ وَجْهَهَا  
مَا تَأْمُرِينَ لِمَغْرَمٍ تَسْطُو بِهِ  
قَسْماً بِوَجْهِكَ وَهُوَ صَبْحٌ مَشْرِقٌ  
وَيَهْرٌ غَضَنُ الْبَانِ مِنْكَ عَلَى النِّقَا

ولنذكر إن شاء الله في هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس الدين بن البديري:

ولما نأت سلمى وشطاً بها النوى  
علقت بأخرى غيرها متلاهما  
وكان هيامي والهوى وصبابتي  
وله في المعنى:

تَلَامَيْتُ عَنْهَا فِي الْغِرَامِ بغيرِهَا  
وَقُلْتُ فَأَمَا مَبِرداً لصبابتي  
فَكُنْتُ كَمَنْ أهرى ريقاً بليجؤ  
وقال أيضاً:

سألت القلب هل ميلٌ لليلى  
فقال الآن لا لكن تنأى  
فإن الحب يهجم بعد يأس  
فلا تظهر لها يوماً سلواً  
وترمي بالصدود وبالتنجني

- (١) فرق: بقية خمر.  
(٢) الأوطف: كيف شعر الحاجين.  
(٣) سدق: مظلم.

فَمَا يُغْنِيكَ إِنْ فَاتَ الْفَوَاتُ

دَنَتْ بِكَ أَرْضٌ نَحْوَهَا وَسَمَا  
إِذَا هُوَ لَمْ يُوَصَّلْ إِلَيْهِ سِوَاهُ

حَيًّا آخَرَ نَحِيًّا سَعِيدًا  
وَخَانَ فَكَيْفَ آمَنُ الْجَدِيدَا

وَوَجْهَهَا مَشْرُقٌ فِي حَنَمِ الظَّلَمِ  
لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السَّرَّ مِنْ نَدَمِ

قَلَقًا أَبْلُ مَلَابِسِي بِدُمُوعِي  
وَأَيْتُ مِنْكَ بَلِيلَةُ الْمَلُوعِ

وَقَعْتُ فَمَا لِي مِنْ يَدَيْهِ خَلَاصٌ  
بِعَيْتِهِ قَلْبِي وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ

وَأَرَى الْمُحِبَّ وَمَا يَقُولُ فَاعْجَبُ  
مَنْ كَانَ يَتَّهَمُ الْهَوَى فَيَجْرَبُ

عَشْرًا وَمَا زَادَ يَكُونُ احْتِصَابُ  
غَلَطْتُ فِي الْعَدِّ وَضَاعَ الْحِصَابُ

سَوَادٌ حَظِّي مِنْ سَوَادِ عَيُونِهِ  
وَالْيَوْمُ أَتَنَعُ بِالْخَيَالِ وَدَوْنِهِ

تَهْزِي بِقَدْرِي أَوْ تَرِيدُ مُزَاحَا  
حَتَّى تَوْهَمْتُ الْمَاءَ صَبَاحَا

فَكُنْ جَلْدًا وَلَا تَكُ ذَا لَجَاجٍ

وقال البيطار:

يَقُولُونَ هَذَا أُمُّ عَمْرٍو قَرِيْبَةً  
أَلَا إِنَّمَا قَرُبُ الْحَيِّبِ وَبَعْدَهُ

وقال غيره:

وَقَالُوا بَغِ حَيِّبِكَ وَابْغِ عَنْهُ  
إِذَا كَانَ الْقَدِيمُ هُوَ الْمَصَافِي

وقال آخر:

لَمْ أُنْسَ إِذَا قَلْتُ مِنْ وَجْدِي لَهَا غَلَطَا  
سَلَوْتُ عَنْكَ فَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ

وقال آخر:

أَمِنَ الْمَرْوَةَ أَنْ آيَتَ مَسْهَدَا  
وَتِيْتُ رِيَانَ الْجَمُونِ مِنَ الْكَرَى

وقال آخر:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو جَوْرَ أَهِيْفَ شَادِنِ  
جَرَحْتُ بَعِيْنِي خَدَّهُ وَهُوَ جَارِحٌ

وقال أيضاً:

قَدْ كُنْتُ اسْتَعُ بِالْهَوَى فَاكْذَبُ  
حَتَّى رَمَيْتُ بِحَلْوِهِ وَبِمَرِّهِ

فقال آخر:

سَأَلْتُهَا التَّخْيِيلَ مِنْ خَدَّهَا  
فَمُذُ تَلَاقَيْنَا وَقَبْلَتُهَا

وقال آخر:

يَا مَنْ سُقَامِي مِنْ سُقَامِ جَفُونِهِ  
قَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى الْوَصَالَ وَفَوْقَهُ

وقال آخر:

صَبَّخْتُهُ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالَ لِي  
فَأَجَبْتُهُ إِشْرَاقُ وَجْهِكَ عَرْنِي

أبو عبد الله الغزالي:

قامر القلب هواه فقمير  
وهواه غير مقلوب قمر<sup>(١)</sup>

من عذيري من عدولي في رشا  
قمر لم يبق مني حسنه

وقال آخر:

من فوق خذ مثل قلب العقرب  
وتسرت عني بقلب العقرب<sup>(٢)</sup>

جاذبتها والريح تجذب برعماً  
وظفقت أثم نقرها فتحجبت

وقال آخر:

مدامعي بدم من كثرة الشهر  
عيني لغير محيا وجهك القمر

لومث من كثرة الأشواق وانبدلت  
ما اخترت عنك سلواً لا ولا نظرت

إبراهيم بن العباس:

وسرع قلبي إذ يهبُ هبوبها  
هوى كل نفس أين حل حبيبها

تمر الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا  
قريبة عهد بالحبيب وإنما

وقال النوفلي:

فدام لعيني ما حيث اختلاجها  
فأشربته إلا ودعني مزاجها

إذا اختلجت عيني رأيت من تجب  
وما ذقت كأساً مذ علفت بحبها

وقال آخر رحمه الله تعالى:

كأنه مقبض ناراً  
ما ضره لو دخل الدار

يا ذا الذي زار وما زار  
قام يباب الدار من تيه

وقال آخر:

وأبحث مني ظاهري لجليبي  
وحيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ولقد جعلت في الفؤاد محدثي  
فالكل مني للجليس مؤانس

وقال ابن نباتة:

فيقسم هذا لا يكون إلى الحشر  
فوالعصر إن العاشقين لقي خسر

أناسه الرحمن في جمع شملنا  
إذا ما عدا مثل الحديد فؤاده

وقال أمين الدين بن أبي الوفاء:

ومين العجائب نازلاً في زاجل  
وسكتة والنار مشوى القاتل

يا نازلاً مني فؤاداً راحلاً  
أضرمت قلب ميثم أهلكته

وقال آخر:

(١) مقلوب قمر: لم يبق منه غير «قمر».

(٢) قلب العقرب: بالبرقع.

إِذَا بَدَا كَيْفَ أُنْشِئُوا  
وَكَلَّمَا مَرًّا يَحُلُّو

يَا عَاذِلِي فِي هَوَاهُ  
يَمْرُؤُ بَسِي كُلِّ وَقْتِ

وقال الحاجبي:

أَمِيلُ إِلَيْهِ وَهُوَ كَالظَّبْيِ رَاتِعٌ<sup>(١)</sup>  
سَوَاهُ قَالِ الْقَلْبُ مَا أَنَا فَارِعٌ

مَلَأْتُ فُؤَادِي مِنْ مَحَبَّةِ فَاتِنِ  
وَقَلْتُ لِقَلْبِي قُمْ لَتَعَشِقَ شَاوِنَا

وقال ديك الجن:

بَكَفَّ عَدُوُّ مَا يَرِيدُ سَرَاحَهَا  
عَلَى ظَمْرٍ وَرَدَا فَهَزَّتْ جَنَاحَهَا

وَلِي كِبْدٌ حَرِيٌّ وَنَفْسٌ كَأَنَّهَا  
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي قِطْعَةً تَدُكَّرَتْ

وقال عبد الله بن طاهر:

كَلَانَا بَعْدَ صَاحِبِهِ غَرِيبُ  
مَحَبِّ قَدْ نَأَى عَنْهُ الْحَيْبُ

أَقَامَ بِيَلَدَةٍ وَرَحَلْتُ عَنْهُ  
أَقْلُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا سُرُورَا

وقال آخر:

وَاللَّهِ لَا مَلْسَلًا وَلَا لَتَجُنَّبِي  
فَيَقَالُ أَنْتَ قَتَلْتَهُ فَمَقَادَ بَسِي

مَا اخْتَرْتُ تَرْكَ وَدَاعِكُمْ يَوْمَ النَّوَى  
لَكِنْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ صَبَابَةً

وقال ابن المعتز:

وَأَنْفٍ عَنْهَا سَهَادَةٌ<sup>(٢)</sup>  
كُنْتُ فِيهَا سَوَادَةً  
كُنْتُ دَهْرًا فَسَادَةً

هَبِّ لِعَيْنِي رِقَادَةً  
وَارْحِمِ الْمُقْلَةَ التَّسِي  
كُنْ صَاحِبًا لَهَا كَمَا

وقال آخر:

وَنَمَّ فَاللَّيْلِ مُسَوِّدُ الْجَنَاحِ  
أَفْرَقَ يَيْنَ لَيْلِي وَالْمَبَاحِ

وَقَالُوا دَخَّ مِرَاقِبَةَ الثُّرَيَّا  
قَلْتُ وَهَلْ أَفَاقَ الْقَلْبُ حَتَّى

وقال آخر:

طَارَ اشْتِيَاقًا إِلَى لَقِيَا مَعْدِيهِ  
أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ فَدَاكَ بِهِ

وَلِي الْفُؤَادُ إِذَا طَالَ النِّزَاعُ بِهِ  
يَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ صَبٌّ لَوْ يَكُونُ لَهُ

وقال آخر:

قَلَّتْكَ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيحَتَا  
بِقَوْلِي إِذَا مَا جِئْتُ هَذَا حَيِّهَاتَا

وَمَا هَجَرْتُكَ النَّفْسُ يَا مَيِّ إِنَّهَا  
وَلَكِنَّهُمْ يَا أَحْسَنَ النَّاسِ أَوْلِعُوا

(١) راتع: مائل عنى، متبعد.

(٢) سهادها: قلة النوم.

وقال المحاربي:

إذا أنتَ لم توقنْ بما صنَعَ الهوى  
ترى حرقاتٍ يلدغُ القلبَ حرُّها

وقال الأقرع بن معاذ:

أقول لِمُنْتِ ذَاتَ يَوْمٍ لِقِيَّه  
بحقِّكَ أَحْبَرْتَنِي أَمَا تَأْنَمُ الَّتِي  
فقال بلى والله أو سيصيها  
فقلتُ ولم أملكِ سوابقَ عبْرَةٍ  
عَمَّا اللهُ عَنْهَا كُلَّ ذَنْبٍ وَلَقِيْتُ

وقال آخر:

بالله رثُكُما عوجًا على سَكَنِي  
وَعَرَضًا بي وَقُولًا في حديتُكُما  
فإن تَبَّمَ قَوْلًا عن مِلاطِفَةٍ  
وإن بَدَا لَكُما من سِلي غَضَبٍ

وقال عبد الله بن أبي الشيص:

ومُعْرَضَةٌ تظنُّ الهَجَرَ فَرْضًا  
كَأَنِّي قد قَتَلْتُ لَهَا قَبِيلاً

وقال الحسين بن الضحاك:

بِنُضِي بِنَارِ الهَجْرِ ماتَ حَرِيْقًا  
لم يَشْكُ عَشْقًا عَاشِقٌ فَسَمِعْتُهُ

وقال آخر:

وأجِيلُ فِكْرِي في هِوَا  
أدعو عليكِ بحرقَةٍ

وقال آخر:

يا وَيْحَ مَنْ خَبَلَ الأَجْبَةَ قَلْبُهُ  
عزُّوا ومالَ بِهِ الهَوَى فاذلَّهُ  
انظُرْ إلى جَدِّ أَضْرُ بِهِ الجوى  
مَنْ كانَ خلواً من تباريحِ الهوى

وقال أحمد بن طاهر:

بأهلِ الهوى فاقنُد حيباً وجربِ  
بأنضجَ من كِيِّ القَصَى المتلهبِ

بمكةَ والأَنْضَاءِ ملقى رِحَالُهَا  
أضْرُ بِجِمْيٍ منذُ مرَّ خيالُهَا  
منَ اللهُ بلسوى في التزمانِ تالُهَا  
سريعَ على جَنِبِ القميصِ انهماهُمَا  
شامًا وإن كانتَ قَلِيلاً نوالُهَا

وعائِئاهُ لعلَّ العُتْبَ يعطفُهُ  
ما ضَرَّ لو بوصالٍ منكَ تَعَفُّهُ  
ما بالَ عبيكِ بالهجرانِ تُثْلِفُهُ  
ففالطَّاهِ وَقَوْلًا ليسَ نَعْرِفُهُ

تخالُ لحاظُها للضعفِ مَرَضِي  
فما يَنْسِي بغيرِ الهَجْرِ تَرَضِي

والبعضُ أضْحَى باللموعِ غريقًا  
إلا ظنُّكَ ذلكَ المعشوقِ

كِ بلا لسانِ ناطقِي  
من غيرِ قلبِ صادقِ

حسى إذا ظفروا به قتلوه  
إنَّ العزیزَ حَلَى اللیلِ بيبه  
لولا تَقَلُّبُ طَرْفِهِ دَفَنُوهُ  
فأنا الهوى وحليفُهُ وأخوه

وداؤِ عَلَيَّكَ صَبْرَكَ بِاللُّهُرِّ  
أَلَذُّ مِنَ الشَّمَاتَةِ بِالْعَدُوِّ

وبالهِجْرَانِ قَبْلَكُمْ بَدَأْتُ  
عَلَيَّ إِذَا أَسَاتِ كَمَا أَسَاتُ

ووالله ما أدري لهم كيف أنعمتُ  
ونومٌ عليّ عيني قليلٌ مفوتٌ  
له وضعٌ كَفَيَّ فوقَ خَدَيَّ وأسكتُ

أَكْنَسِي بِأُخْرَى أَسْمِيهَا وَأَعْيُنِي  
أَوْ سَهْبَمَ غَيْرَانَ يَرْمِينِي وَيَرْمِيكَ  
قَبَّلْتُ فَأَيْكَ وَقَلْتُ النَّفْسُ تَفْدِيكَ  
إِلَّا شَهَادَةَ أَطْرَافِ الْمَاوِيكَ  
بِاللَّهِ لَا تَجْعَلِيهَا بِيضَةَ الْيَدِيكَ

أَجْبُكَ حَبًّا مَسْتَكِنًا وَبِأَيْدِيَا  
مِنَ النَّاسِ أَعْدَاءِ لَجَرِّ التَّصَافِيَا

يَصِيدُ بِطَرْفِهِ قَلْبَ الْكَمِيِّ  
فَأَدَّ زَكَاةَ مَنْظَرِكَ الْبِهِيِّ  
بِرَشْفٍ مِنْ مَقْبَلِكَ الشَّهِيِّ  
يَرَى أَنْ لَا زَكَاةَ عَلَيَّ الصَّبِيِّ

وَنَعْرُ الْهَنَا فِي رَوْضَةِ الْحَسَنِ ضَاكُ  
وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالْجَفُونَ سَوَافِكُ

أَظَلُّ إِذَا لَمْ أَسْتَقِ رَيْكَ صَايِدَا  
مِنَ الْوَجْدِ أَسْتَبْكِي الْعَمَامَ بَكِّي لِيَا

تَقُولُ الْعَاذِلَاتُ تَسَلُّ عَنْهَا  
فَكَيْفَ وَنَظْرَةٌ مِنْهَا اخْتِلَاسًا

وقال إسحاق بن مولى المهلب:

هَيْبِنِي يَا مُعَذِّبِي أَسَاتُ  
فَأَيْنَ الْفَضْلُ مِنْكَ قَدَتِكَ نَفْسِي

وقال أبو العتاهية:

يَقُولُ أَنَسٌ لَوْ نَعَتْنَا لَنَا الْهَوَى  
سَقَامٌ عَلَيَّ جَسْمِي كَثِيرٌ مَوْسَعٌ  
إِذَا اشْتَدَّ مَا بِي كَانَ أَفْضَلَ حَيْتِي

وقال بشار:

يَا قِرَّةَ الْعَيْنِ إِنِّي لَا أَسْتُمِيكَ  
أَخَشَى عَلَيْكَ مِنَ الْجَارَاتِ حَاسِدَةٌ  
لَوْلَا الرَّقِيَّانِ إِذَا وَدَعْتُ غَادِيَةً  
يَا أَطْيَبَ النَّاسِ رَيْقًا غَيْرَ مَخْبِرٍ  
قَدْ زُرْتَنَا مَرَّةً فِي الدَّهْرِ وَاحِدَةً

وقال آخر:

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أَحْسَنَ النَّاسِ أَنِّي  
أَجْبُكَ مَا لَوْ كَانَ بَيْنَ قَبَائِلِ

وقال آخر:

أَقُولُ لَشَادِنِ فِي الْحَسَنِ أَضْحَى  
مَلَكَتِ الْحُسْنَ أَجْمَعَ فِي نَصَابِ  
وَذَلِكَ بِأَنْ تَجُودَ لِمَتَّهَامِ  
أَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ لِي إِمَامِ

وقال آخر:

سَقَى اللَّهُ رِعْمًا كُنْتُ أَخْلُو بِوَجْهِكُمْ  
أَقَعْنَا زَمَانًا وَالْعِيُونَ قَرِيرَةً

وقال آخر:

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَالِبَةَ الْمَاءِ أَنِّي  
وَمَا زِلْتُ بِي يَا بَيْنَ حَتَّى لَوْ إِنِّي

وقال أبو العباس الشهير بالنفيس:

يا راحلاً وجميلاً الصبرِ يتبعه  
ما أنصفتك جفوني وهي دامية

هل من سيلٍ إلى أفيك يتفق  
ولا وقى لك قلبي وهو يحترق

وقال الوزير ظهير الدين الملقب بأبي شجاع:

لأَعْلَبَنَّ العَيْنَ غَيْرَ مَفْكَرٍ  
ولأَهْجَرَنَّ مِنَ الرِّقَادِ لَذِيذُهُ  
هي أَوْعَتَنِي فِي حَائِلِ فِتْنَةٍ  
سَفَكْتُ دَمِي فَلَسَفَحَنَّ دَمَوْعَهَا

فيها بَكَتْ بالدمعِ أو فاضتْ دَمًا  
حتى يعودَ على الجفونِ محرماً  
لو لم تكن نظرتَ لكنتِ مُسلماً  
وهي التي بدأتَ فكانتِ أَظْلَمًا

وقال العتيبي:

أضحتُ بخدي للدموعِ رسومٍ  
والصبرُ يحمدُ في المواطنِ كلُّها

أسفاً عليكِ وفي الفؤادِ كلُّومٍ  
إلا عليكِ فإنه مذمومٌ

وقال الرِّفَاءُ الأندلسي:

ومفهِفٍ كالمُضَيِّبِ إلا أَنَّهُ  
أضحى ينامُ وقد تكَلَّلَ خُلَّةُ

تَحَجَّرُ الأبَابُ عِنْدَ لِقَائِهِ  
عرقاً قَلَّتْ الوردُ رَشٌّ بِمَائِهِ

وقال آخر:

أخضرَ واصفَرَ لاعتلالِ  
كأنَّ نسرِينَ وجتِيهِ  
يرشِّحُ منه الجيينُ ماءً

فصارَ كالنرجسِ المضغفِ  
بشغبرِ أصداغِهِ مغلفِ  
كأنهُ لؤلؤٌ منصفِ

وقال آخر:

ما زالَ ينهلُ من صرفِ العُلا<sup>(١)</sup> قَمَرِي  
وقامَ يخطرُ والأردافُ تُعَمِّدُهُ  
فعاثِلُ فَعَلتُ فِعْلَ الشمولِ بِهِ  
جاذِبُهُ لِعِنَاقِي فائِسِي خَجَلًا  
وقالَ لي بفتورٍ من لَوَاحِظِهِ

حتى غَدتْ وجتاهُ اليضُ كالشَّفَقِ  
طوراً وحاولَ أن يَنعَمِي فَلَم يَطِقِ  
فعلَ النسيمِ بغصنِ البانَةِ الورقِ  
وكَلَلتُ وجتاهُ الحُمُرُ بالعَرَقِ  
إنَّ العناقَ حرامٌ قلتُ في عُنُقِي

وقال آخر:

بأركانِ هذا البيتِ إنِّي لَطَائِفُ  
رَعَى اللهُ أياماً وناساً عهدتُهُمْ  
وبي ذهبِي اللونِ صِبغٌ لمحتي

وفي الكونِ أسرارٌ وفيه لطائفُ  
جِباداً ولكنَّ اللياليَ صارفُ  
يريدُ امتحاناتي وما أنا زائفُ

يُذِيبِ فُوَادًا وَهَوَ لَا غَشَّ عِنْدَهُ

وقال آخر:

أَسْنَى لِيَالِي الدُّغْرِ عَنِّي لَيْلَةً  
فَرَّقْتَ فِيهَا بَيْنَ جَنَفِي وَالْكَرَى

ومما قيل في الرقباء:

لَوْ أَنَّ لِي فِي الحَبِّ أَمْرًا نَافِذًا  
لَقَطَعْتُ أَلْسِنَةَ العَوَازِلِ كُلِّهَا

وقال أعرابي:

بِسْتَهْمِ الحَبِّ كَلِمٌ فِي فُوَادِي  
تَمَكَّنَ نَاطِرَاهُ بِهِ وَأَضْحَى  
وَمَنْ حَنَرَ الرَّقِيبَ إِذَا التَّقِينَا  
وَلَوْلَاهُ تَشَاكَيْتُنَا جَمِيعًا

وقال آخر:

مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ حَيِّبٍ  
عَيْنُ الرَّقِيبِ غَرَقَتْ فِي بَحْرِ العَمَى  
وَأَنَا الغَرِيبُ فَلَا أَمَّ عَلَى البِكََا

وقال أحمد بن أبي سلمة:

يَعْلَنْتَنِي فِيهِ جَمِيعُ السُّورَى  
تَظُنُّنَّ نَفْسِي لَوْ تَعَثَّقَتْهَا

وقال آخر:

وَمَا فَارَقْتُ سَعْدِي عَنِ قِلَابِي  
بِكَيْتٍ نَعَمَ بِكَيْتٍ وَكُلُّ الإِنْفِ

وقال آخر:

وَقَاتِلُوا مَا بَالُ دَمْعِكُ أَيُّضُ  
أَلَمْ تَعَلَّمَنِي طَالَ عَمْرُؤُ  
وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا دَمْسُوعَ وَلَا دَمَاءُ

وقال آخر:

فِيَا ذَهَبِي اللُّوْنِ إِنَّكَ حَائِفٌ<sup>(١)</sup>

لَمْ أُخْلَرْ فِيهَا الكَاسَ مِنْ أَعْمَالِي  
وَجَمَعْتُ بَيْنَ القَرِطِ وَالخُلْخَالِ<sup>(٢)</sup>

وَمَلَكَتُ بَسَطَ الأَمْرِ فِي التَّعْذِيبِ  
وَلَكِنْتُ أَقْلَعُ عَيْنَ كُلِّ رَقِيبٍ

وَلَا كَالكَلِمِ مِنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ  
مَكَانَ الكَاتِبِينَ مِنَ الذُّنُوبِ  
نُسَلِّمُ كَالغَرِيبِ عَلَى الغَرِيبِ  
كَمَا يَشْكُو المَحَبُّ إِلَى الحَيِّبِ

فَحِيَاؤُهُ فِيهَا حَيَاةُ غَرِيبٍ  
لَا أَنْتَ لَا بَلَّ عَيْنُ كُلِّ رَقِيبٍ  
إِنَّ البِكََا حَسَنٌ بِكُلِّ غَرِيبٍ

كَأَنْتَنِي جِئْتُ بِأَمْرِ عَجِيبٍ  
بَلَيْتٌ فِيهَا بِمَلَامِ الرَّقِيبِ

وَلَكِنِ شَفْوَةٌ بَلَّغَتْ مَدَاهَا  
إِذَا بَانَتْ حَيِّثُ بَكَاهَا

قَلَلْتُ لَهَا يَا عَلُو هَذَا الذِّي بَقِيَ  
فَشَابَتْ دُمُوعِي عِنْدَمَا شَابَ مَفْرُقِي  
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَوْهَتِي وَتَحَرُّقِي

(١) حائف: ظالم جائر.

(٢) القرط: ما يوضع بالأذن. الخلخال: يلبس بالقدم.



عليه لأنَّ الليلَ بعشْقَهُ مَعِي  
من الوجدِ حتى ابيضَ من فَيْضِ أَدْمَعِي

وكَيْفَ لِي بهجوعِ  
والمرسلاتِ دُمُوعِي

فقد بكيْتُ لفرطِ النازحينِ دَمًا  
كَيْفَ وهي التي لم تبلغِ الحُلَمَا

وابمَتْ خيالَكَ في الكرى  
عن خالها يا ما جرى

فرايتُ من هجرانِكُم ما لا أرى  
يجري به دَمْعِي دَمًا وكذا جَرَى

بأمرُ الشهدِ في كراهها وينهى  
لا تَتَلَّ ما جرى على الخدِّ منها

بنارِ أسَى من حَبْوِ القلبِ تَلدُخُ  
فكلُّ وعاءٍ بالذي فيه يَنْفُخُ

بدمِ على عيشِ تَصَرَّمٍ وانقَصَى  
لما تصاعَدَ صارَ يقطرُ أيضًا

لقلتُ مُتَعَبِّي بِاللهِ زِدْنِي  
أغارُ عليكِ منكِ فكَيْفَ مِنِّي

ومنكِ ومن مَكَائِكَ والزمانِ  
إلى يومِ القيامةِ ما كَفَّانِي

ولم أر مثلي غارَ من طولِ ليلِهِ  
وما زلتُ أبكي في دُجَى الليلِ صَبُوءَ

وقال آخر:

رجوتُ طيفَ خيالِ  
والندارياتِ جنونِي

وقال آخر:

يا نازحِ الطيفِ من نومي يُعاودني  
أوجبتُ غملاً على عيني بأدمعِها

وقال آخر:

ارتحمتُ رُجُنتَ لِلوَعْنِي  
ودموعِ عيني لا تَتَلَّ

وقال آخر:

أُملتُ إن تَمَطَّقُوا بِوَصالِكُم  
وعلمتُ أنَّ فراقَكُم لا بَدُّ أن

وقال آخر:

إن عيني مُذْ غابَ شخصُك عنها  
بدموعِ كأنهنَّ القَوادي

وقال آخر:

يقولون لي والدمعُ قَرَحَ مقلتي  
أدمعُك جمرٌ قلتُ لا تَتَعَجَّبُوا

وقال البدر اللهي:

قالوا تباكِي بالدموعِ وما بكِي  
فأجبتُهُم هوَ مِن دَمِي لَكُنْ

قال ابن مطروح في الغيرة:

ولو أمسي على تَلْفِي مصراً  
ولا تَمَسَّخْ بِوَصيلِكَ لي فإني

وقال آخر:

أغارُ عليكِ مِن نَظري ومِنِّي  
ولو أنِّي خَبَّاتُكَ في جُنُونِي

وقال المظفر بن عمر الأملني:

قولِي لَمَنْ قَدْ جَفَوْنِي إِذَا لَهَجْتُ بِهِمْ  
أُحِبُّكُمْ وَهَلَكَ فِي فِي مَحَبَّتِكُمْ

وقال غيره:

لَمْ أَنْسَ أَيَّامَ الصَّبَا وَالْهَوَى  
ذَاكَ زَمَانًا مُرًّا حُلُوَ الْجَنَى

الشريف الرضي:

عَلَّانِي بِذِكْرِكُمْ وَأَسْتَيْبَانِي  
وَعُدَا النَوْمُ مِنْ جَفَوْنِي فَنَانِي

وقال آخر:

قَالُوا أَتَزُقُّدُ مَذَّ غَيْبِنَا قُلْتُ لَهُمْ  
مَا حَقُّ طَرْفِهِ هِدَانِي نَحْوِ حُنَيْنِكُمْ

وقال عز الدين الموصلبي:

فَسَلِّتْ لَطُولَ بَعَادِكُمْ أَحْلَامِنَا<sup>(١)</sup>  
وَالطَّيْفُ قَدْ وَعَدَ الْجَفُونَ بِزُورَةٍ

ومما قيل في السهر وطول الليل ونحو ذلك: قال الشاعر:

رَبِّ لَيْلٍ سَهْرِنَاءُ وَقَدْ طَلَعَتْ  
كَأَنَّمَا أَدَهْمُ الظُّلَمَاءِ حِينَ نَجَا

وقال آخر:

لَيْلُ الْمُحَيِّينَ مَطْوِيٌّ جَوَائِئُهُ  
مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الصَّبْحَ نَمَّ بِنَا

وقال غيره:

فَلَمْ أَرْ مِثْلَ لَيْلِ ذَوِي النَّصَابِي  
فِي شُكْرِ طَوْلِهِ أَهْلُ النَّجَافِي

وقال آخر:

لَيْسِي وَلَيْسِي سَوَاءٌ فِي اخْتِلَافِهِمَا

دُونَ الْأَنَامِ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ  
كَمَابِدِ النَّارِ يَهْوَاهَا وَتَحْرِقُهُ

لَلَّهِ أَيَّامُ النَّجَا وَالنَّجَاحِ  
ظَفَرْتُ فِيهِ بِحَيِّبِ رِوَاغِ

وَأَمْرُجَا لِي دَعْوِي بِكَاسِ دُهَاقِ  
قَدْ خَلَعْتُ الْكَرَى عَلَى الْعِشَاقِ

نَعَمْ وَأَشْفَقُ مِنْ دَعْوِي عَلَى بَصْرِي  
أَنِّي أَعْدَبُهُ بِاللُّنْعِ وَالشُّهْرِ

وَعَقُوبَتُنَا وَجَفَا الْجَفُونَ مِنْهَا<sup>(٢)</sup>  
يَا حَبْلًا إِنْ صَحَّتِ الْأَحْلَامُ

بَقِيَّةُ الْبَدْرِ فِي أَوْلَى تَسَائِيرِهِ<sup>(٣)</sup>  
مِنْ أَشْهَبِ الصَّبْحِ الْقَى نَعْلَ حَافِرِهِ

مَشَمَّرُ الذَّيْلِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقِصْرِ  
فَأَطْلَعَ الشَّمْسَ مِنْ غَيْظِ عَلَى الْقَمَرِ

وَكُلُّ يَشْتَكِيهِ بِكُلِّ حَالِ  
وَيَشْكُو قِضْرَةَ أَهْلِ الْوِصَالِ

قَدْ صَيَّرَانِي جَمِيعًا فِي الْهَوَى مَثَلَا

(١) أحلامنا: المعنى: طاشت عقولنا.

(٢) منام: المعنى: أرقنا.

(٣) تسائيره: ستيه.

يجودُ بالطُّول لَيْليَ كلما بَخَلتُ  
وقال آخر:

إنَّ اللَّياليَ لِلأَنامِ مَنامُ  
فَقَصَّارُهُنَّ مَعَ الهَمومِ طويلاً  
وقال غيره:

رُبَّ ليلٍ لَم أَذُقْ فِيهِ الكَوى  
كلما هَيَّجَ ليلي حرقى  
وقال آخر:

يا ليلُ طُنْ أو لا تَطُنْ  
لو باتَ عِندي قَمَري  
وقال بشار بن برد:

خِلييَ ما بالُ اللَّجى لا يَزحزح  
أضلُّ إليها المَستيرُ طَريقَهُ  
وقال آخر:

كَانَ الثَّرياَ راحَةً تَثيرُ اللَّجى  
فِليسي تَراهُ يَبنَ شَرقاً ومَغرباً  
وقال ابن منقذ:

لَمَّا رايَتُ النُّجمَ ساهَ طَرفُهُ  
وَبناتُ نَعرَ في الحدادِ سَوافِرُ  
وقال آخر في ليلة ممطرة:

أقولُ واللَّيلُ في ائْتِدادِ  
أظنُّ لَيْلي بَغيرِ شَكِّ  
ومما جاء في الأشعار الخمرية، قول صفي الدين الحلبي:

بَدتُ لَنا الرَاحَ في تاجِ مِنَ الحَببِ  
يَكُرُّ إذا زُوجتُ بالماءِ أولَنا  
بَقيَّةٌ مِنَ بَقايا قومِ نوحِ إذ  
بَعيدةُ المَهدِ بالمعصارِ لو نَطقتُ  
بَأكزَّتْها بِرفاقٍ قد ذَعلتُ بِهِم  
بَكلِّ مَشيحٍ بِالْفَضلِ مُؤتَزِرِ  
فخرتُ حلةَ الظلِّماءِ باللَّهبِ  
أطفالُ دُرِّ عَلي مَهدي مِنَ الذَّهبِ  
لأحَتِ جَلتُ ظَلَمَ الأحزانِ والكُربِ  
لحدَّثنا بِما في سالفِ الحَقبِ  
قَبلَ السلافِ سلافِ العَلمِ والأدبِ  
كَأَنَّ في لَفظِهِ ضَرباً مِنَ الضَّربِ

تَقَضُّ فِيهِ كُؤُوسُ الرِّاحِ كَالشُّهُبِ (١)  
أَزُوجُ ابْنِ سَحَابٍ بِابْنَةِ الْعَنْبِ (٢)  
يَعِيدُ أرواحَنَا مِنْ شِدَّةِ الطَّرِبِ  
مِنْ نَفْحَةِ الصُّورِ أَمْ مِنْ نَفْحَةِ القَصَبِ  
وَالزَّهْرُ مَبْتَسِمٌ عَنِ نَفْرِ الشَّنْبِ

بَلِ رَبِّ لَيْلٍ عَدَا فِي أَهْبَةِ وَعَدَتْ  
بذَلْتُ عَقْلِي صِدَاقًا حِينَ بَيْتٌ بِهِ  
بِتْنَا بِكَاسَاتِهَا صَزَعَى وَمَطْرُبًا  
بَعَثَ أَلَمٌ فَلَمْ نَعْلَمْ لَفَرَحَتِنَا  
بِروضةٍ طُلَّ فِيهَا العُلُّ أدمَعَةً

وقال أيضاً:

وَاعْتَمَ لذيذَ العَيْشِ قَبْلَ فَوَاتِ  
نَسْتَدْرِكُ المَاضِي بِنَهْسِ الآتِي  
فِي روضةٍ مَظْلُولةِ الزَّهْرَاتِ  
وَالكَاسُ دائِرَةٌ بِكَفِّ سُقَاةِ  
وَفِرَاعُ راحَتِي عَلَى الرِّاحَاتِ  
مَنْ ذَا أَحَقُّ بِهَا مِنَ الكَاسَاتِ  
وَالكَاسُ مَحْمَدٌ كَخَدِّ قَتَاةِ  
وَاعْجَبْ لِمَا فِيهَا مِنَ الآيَاتِ  
عِنْدَ الكِرَامِ تَمَيُّةُ اللِّذَاتِ

تَابَ الزَّمَانُ مِنَ الذَّنُوبِ فَوَاتِ (٣)  
تَمَّ السُّرُورُ قُفْمٌ بِنَا يَا صَاحِبِي  
تَوَجَّ بِكَاسَاتِ العُلَّا هَامَ الرُّبَا  
تَفَدُّ سِلَافَ القَطْرِ دائِرَةٌ بِهَا  
تَلَفُ النُّضَارِ عَلَى العُقَارِ غِيَمَتِي  
تَرَكِي لِأَكْيَاسِ النُّضَارِ جِهَالَةً  
تَبَّتْ يَدَا مَنْ تَابَ عِنَ رَشْفِ العُلَّا  
تَابِعْ إِلَى أوقَاتِهَا دَاعِي الصُّبَا  
تَمَّ بِهَا نَقْصَ السُّرُورِ فَلِإِنِّهَا

وقال أيضاً:

وَاطْرَرْ بِكَاسِكَ جِلَّةَ الأَفْرَاحِ  
فِيهَا المِدامُ شَرِيكَةَ الأَروَاحِ  
ظَنَنْتُ قَتَادِي وَهَمِي عَيْنُ صَلاحِي  
أَغْنَى نالِزُّها عَنِ المِصْبَاحِ  
خَصَرُ الفَتَاةِ مَنطِقُ بِوِشَاحِ  
شَفَقَ تَلَهَّبَ تَحْتَ ذَيْلِ صَبَاحِ  
يَا صَاحِ لا تَقْنَعْ بِأَنَّكَ صَاحِي

حَيِّ الرِّفَاقِ وَطَفَّ بِكَاسِ الرِّاحِ  
حُكَّ الكُؤُوسِ عَلَى جُؤُومِ أَصْبَحَتْ  
حَاشِ الأَنامِ وَعَاطِنِي مَشْمُولَةً  
حَمْرَاءَ لَوْ تَرَكَ الثُّقَاةُ مِزَاجِهَا  
حَبَّبَ تَظَلُّ بِه الكُؤُوسُ كَأَنَّهَا  
حَجَبَ الحِجَابِ شِعاةَها فَكَأَنَّهُ  
حَكَمَ الزَّمَانُ وَغَضَّ عَنَّا طَرَفُهُ

وقال آخر:

دَارَتْ عَلَيْهِ بِالمِدامِ الأَكُؤُوسُ  
نَأْيِكَ بِاسْمَةٍ وَأَنْتَ تَعْمِيسُ

قَدِ قَلْتُ إِذْ أَضْحَى يَعْجَسُ كَلِّمَا  
نَالَهُ ما أَنْصَفَتْهَا يَا سَيِّدِي

عز الدين الموصلي:

(١) الشهاب: ما يسقط من السماء من أجرام.

(٢) العنب: هي الخمر.

(٣) فوات: ف: استثنائية: وات: فعل أمر: اقدم.

فقد مالَ بالثنيه عن صيغَةِ الأدبِ  
فمَيَّزَ ما قد حَلَّتِ الكأسُ بالذهبِ

وظلَّعَتْهَا السَّاقِي وَمَغْرِبَهَا فَمِي  
وَسَاقٍ كَبْدِرٍ مَعَ نَدَامِي كَأَنْجُمِ

وكاسَاتِنَا فِي الرُّوضِ تَعْلَى وَتَشْرِبُ  
وَنُورٌ وَنُورًا وَشَرْقٌ وَمَغْرِبُ

إِذْ قَامَ يَجْلُوهَا عَلَى النَّدَمَاءِ  
بَدْرُ النُّجَى بِكَوَاكِبِ الْجُوزَاءِ

خَمْرَةٌ تَتْرُكُ الحَلِيمَ سَفِيهَا  
هِيَ فِي الكَاسِ أَمْ هُوَ الكَاسُ فِيهَا

فَالدِيكَ قَدْ صَدَعَ الدَجَى لِمَا صَدَخَ  
مَا ضَلَّ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ قَدَحِ القَدَخِ  
لَمَقَطَسِ إِلَّا تَهَلَّلَ وَأَنْشَرَخَ  
لَكِنَّهُ مَرْجَ المِسْرَةِ بِالنَّفَرِخِ  
سَرَّالَهَا فِي بَاخِلٍ إِلَّا سَمَخَ  
عَدْرٌ لَمَنْ خَلَعَ العَدَارَ أَوْ افْتَضَخَ

حَسَنًا وَلِهَوَا وَأَنَسَا  
بِهَا وَأَشْهَدُ شَمَسَا

فَأُولُهَا شَمْسٌ وَأَخْرَعَهَا بَدْرُ  
فَإِنْ جَاءَهَا جَاءَ التَّبَسُّمُ وَالبُشْرُ  
مِنَ العَشْرِ حَتَّى المَاءِ بِعَشْقَةِ الخَمْرِ

لَيْسَ شَبَّةَ السَّاقِي المَدَامَ بَعَسَجِدِ  
وَلَكِنْ رَأَى جَوْهَرًا يُبَيِّثُ طِلَا

يزيد بن معاوية:

وَشَمْسَةٌ كَرَمَ بِرُجُهَا قَعْرُ دَنُهَا  
مَدَامٌ كَثِيرٌ فِي إِتَاءِ كَفْضُوهَا

وقال آخر:

كَأَنَّ النَّدَامَى وَالسَّقَاةَ وَدَنَنَا  
شَمُوسٌ وَأَقْمَارٌ وَفَلَكَ وَأَنْجُمٌ

وقال آخر:

فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ حَامِلَ كَأْسِهَا  
شَمْسُ الشُّبْحَى رَفَعَتْ نَقْطَ وَجْهَهَا

وقال كشاجم:

صَدَخَ الدِيكَ فِي الدُّجَى فَاسْتَقْنِيهَا  
لَسْتُ أَدْرِي مِنْ رَقْوٍ وَصَفَاءِ

كمال الدين بن النيه:

فَمَ يَا غِلَامُ وَدَخَ مَقَالَةَ مَنْ نَفَخَ  
خَفِيَّتَ تَبَاشِيرِ الصَّبَاحِ فَاسْقِنِي  
صُهْبَاءَ مَا لَمَعَتْ بِكَفِّ مُدِيرِهَا  
تَاللهِ مَا مَزَجَ المَدَامَ بِمَائِهَا  
هِيَ صَفْوَةُ الكَرَمِ الكَرِيمِ فَمَا سَرَتْ  
مِنْ كَفِّ فَتَانِ اللِّحَاطِ بِوَجْهِهِ

وقال غيره:

وَلِيْلِيَّةٌ أَوْسَعْتَنِي  
مَا زَلْتُ أَلْتَمُّ بِدِرَا

عبد الله بن العطار. وقيل يزيد بن معاوية:

وَكَاسٍ يُرِينَا آيَةَ الصَّبْحِ فِي الدُّجَى  
مَقْطَبَةٌ مَا لَمْ يَزُزْهَا مَزَاجُهَا  
فِيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ لَمْ يُخَلِّ مَهْجَةً

وقال ابن تميم:

راحاً تسلُّ شبابي من يدِ الهَرَمِ  
غزاةً المبعجِ ترعى نرجسَ الظلمِ

وليلو بئُ أسقى من غيَاهِيهَا  
ما زلتُ أشربها حتى نظرتُ إلى

ابن مكناس:

وتوالى تجلُّداً  
فأجلُ كأسِي على التدى

نزلَ الطلُّ بكرةً  
والندامى تجمُّوا

الشيخ شهاب الدين الحجازي:

جليت بين الندامى  
فقتننا بالندامى

كأئنا ياصاخ صرفاً  
لم نجد ماءً لمزج

صفي الدين الحلبي:

وهي سلطان سائر المسكرات  
بين ماء الحيا وماء الممات

كيف لا تخضعُ العقولُ لذبيها  
أفوا في الكؤوس إذا مزجوها

غيره:

غلبت ضوء السراج  
فطفاها بالمزاج

صبها في الكأس صزفاً  
ظنها في الكأس ناراً

مجد الدين بن تميم:

سوى الصرف فهو الهني  
ولا تمني مع ذني

نسدمني لا تمني  
ودع كأنها أطلأ

تقي الدين بن حجة:

مشرقة باسمه كالقنبر  
قلت انقيها يا إمام العصر

حيا بها عاصرها في كأسها  
وقال هذي تحفة في عصرنا

أبو العيب المتني:

كما يضيء لنا من أقبها الفسق  
أخشى عليه من السلاء يحرق  
في فيه كلبه في وجهه الشفق

يا صاحبي امزجاً كأس المدام لنا  
خمراً إذا ما نديمي هم يشربها  
لو راح يحلف أن الشمس ما حررت

وقال آخر:

وأماؤها بتوس بالقدم  
ونلهم من جور مظلوم حكم

بنت كرم يئموها أئها  
ثم دأروا حكموها فيهم

وقال آخر:

حكى منظومها عند اللالي

عنايد على قفس نذلت

إذا عَصِرَتْ بَدَا فِي الكَاسِ مِنْهَا

برهان الدين بن المعمار:

بَاكِرٌ لِكَرَمِ العَنَبِ المَجْتَنِي  
وَاعْصُرُهُ وَاسْتَخْرِجْ لَنَا مَاءَهُ

جولان العاذلي:

إِذَا مَا الخَمْرُ فِي الكَاسَاتِ صُبَّتْ  
وَإِنْ جَلِيَتْ عَلَى النَّدْمَانِ يَوْمًا

وقال في الشراب المطبوخ:

يَا مَنْ يَعْدُبُ مَاءَ الكَرَمِ بِحَرْقِهِ  
إِنْ التِي طَبَخْتَهَا الشَّمْسُ أَنْقَعُ لِي

وقال أيضاً:

وَعتِيقَةٌ رَقَّتْ وَرَاقَ مَزَاجُهَا  
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ نُورٍ سَاطِعٍ  
تَرْنُو إِلَيْكَ مِنَ الحِجَابِ<sup>(١)</sup> بِأَعْيُنِ

وقال غيره:

لَا تَعَصِّرَنَّ زَيْبًا وَاعْتَصِمِزْ عِنبًا  
هَذَا مِنَ الحَيِّ لِلأَحْيَاءِ مَعَصِّرٌ

وقال غيره:

عَابُيُوا عَلَيَّ مَدَامًا  
وَاسْتَكْرُوهُمَا وَقَالُوا

وقال آخر في الشراب على الرعد والبرق:

أَمَا تَرَى الرَعْدَ بَكَى فَاسْتَكَى  
فَاشْرَبْ عَلَى غَيْمٍ كَصَبْغِ اللُّجَى  
وَانظُرْ لِمَاءِ النَيْلِ فِي مَدَى

وقال آخر:

يَا لَيْلَةً جَمَعَتْ لَنَا الأَحْيَاءَ

دَوَالِي قَدْ تَرَكْتُ فِي دَوَالِي

وَاسْتَخْنِيهِ مِنْ عِنْدِ عَنَابِهِ  
لِكِي تَزِيلَ الهَمِّ عَنَابِهِ

رَأَيْتَ لَهَا شَمُوسًا فِي بَرُوجِ  
تَزَاخَمَتِ الهَمُومُ عَلَى الخُرُوجِ

بِالنَّارِ فِي أَيِّ شَيْءٍ تَظَلَّمُ العِنَابُ  
وَلَسْتُ أُخَسِرُ لَا قَدْرًا وَلَا حَطْبًا

لُطْفًا وَأَنْحَلَهَا الزَّمَانَ الفَابِرُ  
لَا يَسْتَطِيعُ بِجَوْلٍ فِيهِ النَّاطِرُ  
خَلَقْتُ وَلَمْ تَخْلُقْ لَهُنَّ مُحَاجِرُ

فِيَنَ هَذَيْنِ فَرَقْنَا بِمَصْرِحِ  
وَذَاكَ بِمَصْرُ مِنْ جِسْمِ بِلَا رُوحِ

أَخْرَجْتَهَا لِصَبُوحِي  
تَحَلَّلْتُ<sup>(٢)</sup>، قَلْتُ رُوحِي

وَالْبَرْقُ قَدْ أَوْمَضَ فَاسْتَضَحَا  
أَضْحَكَ وَجَهَ الرُّوحِ لِمَا بَكَى  
كَأَنَّهُ صَنَدَلٌ أَوْ مِصطَكَا<sup>(٣)</sup>

لَوْ شِئْتَ دَامَ لَنَا النِّعِيمُ وَطَابَا

(١) الحجاب: ما يعلو الخمر من رغوة.

(٢) تحللت: فسلت.

(٣) مصطكا: علكة!

يَلْدُرُ الصَّحِيحَ بِعَقْلِهِ مَرْتَابَا  
مَنْ فَضُوْةٌ قَدْ قَمَعَتْ عَنَابَا

بِتَابَا بِهَا نُفَى سُلَافَا قَرْقَا  
مِنْ كَفْ غَايُوْةٍ كَأَنَّ بِنَانَهَا

وقال غيره:

وَالأَرْضَ تَضْحَكُ وَالأَزْهَارُ فِي فَرْحٍ  
مِنَ الزَّمَانِ وَمَا نَلَقَى إِلَى الْقَدْحِ

أَمَا تَرَى الْغَيْثَ كَالْبَاكِي بِأَدْمِعِهِ  
قُمْ فَدَيْتُكَ نَشْكُو مَا نَكَابِدُهُ

ابن نباتة:

وَعَارِضُ الْفَجْرِ بِالإِشْرَاقِ قَدْ طَلَعَا  
وَكَأَنَّهُا خَدُّ رِيْمٍ رِيْمٍ فَامْتَعَا<sup>(١)</sup>

أَمَا تَرَى اللَّيْلَ قَدْ وُلَّتْ غِيَابُهُ  
فَأَشْرَبَ عَلَيَّ وَرْدِيَّ وَرَدِيَّ قَدَمَتْ

ومن شعر عضد الدولة:

وَشَرِبَ الرَّاحِ وَالغَرِيرِ الْمَلَاحِ  
وَنَارِي يَيِّنُ نَارَنْجِي وَرَاحِي  
وَتَلْجِي وَالصَّبَاخُ مَعَ الصَّبَاخِ  
صَبَاخٌ فِي صَبَاخٍ فِي صَبَاخِ

طَرِبْتُ إِلَى الصَّبُوحِ مَعَ الصَّبَاخِ  
وَكَانَ التَّلْجُ كَالْكَافُورِ نَشْرَا  
فَمَشُومِي وَمَشْرُومِي وَنَارِي  
لَهَيْبٍ فِي لَهَيْبٍ فِي لَهَيْبِ

ابن وكيع:

فِرَاقٌ عَدُوٌّ أَوْ لِقَاءٌ صَدِيْقِي  
كَوَاكِبُ دُرٍّ فِي سَمَاءِ عَقِيْقِي  
قَمِيصَ بَهَارٍ مِّنْ قَمِيصِي شَقِيْقِي

وَصَفْرَاءُ مِّنْ مَّاءِ الْكُرُومِ كَأَنَّهَا  
كَأَنَّ الْجَبَابَ الْمُسْتَدِيرَ بِطَوَقِهَا  
صَبِيْتُ عَلَيْهَا الْمَاءَ حَتَّى تَعْوَضَتْ

وقال آخر:

أَتَتْ بَيْنَ ثَوْبِي نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِي  
عَلَيْهَا مَزَاجاً فَكَتَّتْ لَوْنَ عَاشِقِي

وَحَمْرَاءُ قَبْلَ الْمَرْجِ صَفْرَاءُ بَعْدَهُ  
حَكَّتْ وَجَنَةَ الْمَعشُوقِ صِرْفَاً فَسَلَطُوا

وقال آخر:

وَحَلَّ الْبَدْرُ فِي بَرَجِ الْكَمَالِ  
تَمَرُّ بِهِ الْجَنُوبُ مَعَ الشَّمَالِ  
قَدُودٌ سُقَاتِنَا فِي كُلِّ حَالِ  
أَبَادُ لَدُنِّي قَبْلَ ارْتِحَالِي  
يَفْرُقُ بَيْنَهُمْ صَرْفُ اللَّيَالِي<sup>(٢)</sup>

إِذَا الْكُرُوانُ صَاخَ عَلَيَّ الرَّمَالِ  
وَجَعَّدَ وَجَةَ بَرْكِنِنَا هَبُوبِ  
وَحَرَّكَتِ الْغُصُونُ فُشَايَهُنَّهَا  
فَهَاتِ الْكَأْسَ مَتْرَعَةً وَدَغْنِي  
فَكُلُّ جَمَاعَةٍ لَا شَكَّ يَوْمًا

وقال آخر في الشراب على الغيم:

(١) امتعا: أي زوود عن نفسه.

(٢) الليالي: نوازلها.



ويوشك أن يوافقنا بهطل  
فتشربته وتدعو لي برطل

أرى غيماً تولفته جنوب  
فوجه الرأي أن تدعو برطل

وقال آخر:

تُنز بيكور باكرتك بها بكرة<sup>(١)</sup>  
دواة خمار الخمر من داتها الخمر<sup>(٢)</sup>

فيا بكر بأكز بكرة بكر كرموة  
وداو خمار الخمر بالخمر إنما

وقال الصنوبري:

ولا على منزل أقوى<sup>(٣)</sup> من التكن  
تغني الهموم ولا تبقي على الحزن  
تبدو فتخبرنا عن سالف الزمن  
كأنما مُزجت من طرفك الوين  
في ثغره فليج ينمي إلى اليمن  
في شبه ميل أزي على الغصن  
في طرفه حوز برنو فيجرخني  
يهدي لرايقه صنفاً من الشجن  
كأنها فرشت من وجه الحن  
والعود ينعدنا مع منشد لسن

لا تبكين على الأطلال والدمن  
وقم بنا نصطبغ صباء صافية  
بكرة معتقة عنده واضحة  
حمرًا مروة صفراء فاقمة  
ينعى بها غنج في خده صرج  
في ريقه عسل قلبي به جبل  
كأنه قمر ما مثله بشر  
سبحان خالق يا ونح عاشق  
في روضة زمرت بالنبت قد حسنت  
يا طيب مجلسنا والطيء يطربنا

كما الدين بن النيه:

واشرب هنيئاً يا أخوا اللذات  
والدهر سنج والحيب مواتي  
بكواكب طلعت من الكاسات  
فعجبت لليران في الجنات  
والدرد مجتلب من الظلمات  
منديل عنزتها بكف سقا  
خنت الشمائل شاطر الحركات  
مكتبة كأساود الحيات  
عدل الزمان على ذوي الحاجات

طاب الصبوح لنا فهالك وهات  
كم ذا التواني والزمان ماعد  
قم واغتب من شمس كاسك واضطج  
حمر صافية توفد نورها  
ينسل في قار الظروف جباها  
عنده واقمها المزاج أما ترى  
ينعى بها جبل الروادف أهيء  
يهوي فتسبغ ذواته شغره  
لو قسنت أراقتنا يمينه

وقال أيضاً:

- (١) تجنيس كثير: بكر: شخص باكر: اغلو. بكر: علماء، بكور: خمر صباحية.  
(٢) الخمار البرقع، الخمر: الخبطاء.  
(٣) منزل أقوى: خلا وأصفر.

قد ترنم فوق الأيك طائرُهُ  
 كالروضِ تطفو على نهرِ أزهْرُهُ  
 ملحق تملأ الدتيا بشائِرُهُ  
 تنوب عن ثغرٍ من تهوى جواهرُهُ  
 فهل جناها من العقودِ عاصِرُهُ  
 فايض خداه واسودت غدائرُهُ  
 نفس نواظرُهُ حُزْم أساورُهُ  
 مؤنث الجفنِ فعل اللحظِ شاطرُهُ  
 مخضِر الخصرِ عبِل الردفِ وافرُهُ  
 وزوّرت سحر عينيهِ جاذرُهُ  
 ورُجبت فوق صدغَيْهِ محاجرُهُ  
 كبرى لآمن بعد الكفرِ ساحرُهُ  
 وأنت ناه لهذا الدهرِ أميرُهُ  
 لكُنه زُئِمَا مَرث أواخرُهُ  
 عظيم ذنِبِك إن الله غافرُهُ

باكر صبوحك أهني العيشِ باكرُهُ  
 والليل تجري الدارِي في مجرَّتِهِ  
 وكوكبُ الصبحِ نجابٌ على يديه  
 فانهبض إلى ذؤبِ ياقوتِ لها حَبُّ  
 حمراء من وجنوة الساقِي لها شَبَّة  
 ساقٍ تكون من صُبْح ومن غَسقِ  
 ييض سوائفُهُ لُغس مرثفُهُ  
 مفلج الثغرِ معسول اللمي غنجُ  
 مهفهُ القدُّ يدي جسمهُ ترفاً  
 تعلمت بانة الوادي شمائلُهُ  
 كأنهُ بسوادِ اللحظِ مكجَلُ  
 فلو رأت مقلتا هاروت آيتُهُ الـ  
 حُذ من زمانِك ما أعطاك مغتماً  
 فالعمرُ كالكَاسِ تُتخلى أوائلُهُ  
 واجسُر على فُرصِ اللذاتِ محقرأ

وقال آخر:

نعلل بالكؤوس وبالقناني  
 لساقها أذرها بالدنان

شربنا بالبواطي ثم رُخنا  
 ولولا ضيقة الأجرام قلنا

برهان الدين القيراطي:

عزت وبالإفلاسِ حالي عجيبُ  
 احمل إلينا جرّة كي نطيبُ  
 خمراً فإن الكل مني قريبُ  
 في جرّة عشرين قلنا الزيبُ

أرى جرازِ الخمرِ تغلّو وقد  
 جئنا لخمّارٍ وقلنا له  
 قال زيباً تريبون أم  
 قلنا له خمراً فتأدى زنوا

وقال أيضاً:

نعن على نغمه طيبي  
 أن أخلط الهَمّ بالزيبِ

صرف الزيبِ لصرفِ همّي  
 أهأ على سكرة لعلّي

وقال:

لا تمتد الحرامَ حدّا  
 وطالبُ القوتِ ما تعدى

قالوا اترك الخمر واجتنبها  
 قلت أراها للسروح قوتاً

ومما قيل في شرب الفقهاء:

علماً بتصرفِ أحوالٍ وتحقيقٍ  
تحت الظلامِ بأفواه الأباريقِ

في مجلسِ الشربِ كاساتٍ بطاساتٍ  
حكايةً عرضها عَرَضَ السمواتِ

بدا في بَنَدْلِ مالٍ فيه ضناً  
ويأكلُ كَفَهَ في الصُّخْرِ حُزناً

أعازتُهُ الشجاعةُ باللسانِ  
إذا اشتدَّ اللقاءُ يومَ الطعانِ

وقد شربَ الصهباءَ هل من مبارزِ  
أناقلُ فيها كلِّ لبتٍ مناهزِ  
لَعْمَرِي إني لستُ فيها بعاجزِ  
وفي الصحوِّ تلقاءُ كبعضِ العجائزِ

وعيشهم ما فيه تكديرُ  
يسقي وذا بالشربِ مسرودُ

به وله صفو الزمانِ ماعدُ  
وخامسهم هم على الكلِّ زائدُ

أو سبعةً وعلى الكثيرِ ثمانية  
وتكثرت بين الرجالِ الآتية  
ولئن أتيتَ به فأئك زاتية

جعلتُ حُضُورَنا فيه وداعاً  
ووقيتُ النبي بغتِ الذراعاً

يحمون بالفقه عرضَ الدين من سفهِ  
وبعضهم يكرغُ الصهباءَ مقتماً

ومما قيل فيمن يطيل الحديث والكأس في يده:  
وشادنٍ نطقه جارٍ إذا شَفَعَتْ  
يظلُّ يحكي وكأسُ الراح في يده

ومما قيل في كريم السكر لثيم الصحو:  
إذا هزَّ اللثيمَ السكرُ يوماً  
يجودُ بماله في الشربِ سكرأ

ومما قيل في شجاع السكر:  
إذا شربَ الجبانُ الخمرَ يوماً  
وعندَ الصحوِّ تلقاهُ جزوعاً  
وفيه أيضاً:

يقولُ جبانُ القومِ في حالِ سكرِهِ  
وأين الخيولُ والأعوجيات في الوغى  
ومن لي بحربٍ ليس تخمدُ نازها  
ففي السكرِ قيسٌ وابن معدّي وعامرُ

وقال في شرب الثلاثة:

ثلاثةً في مجلسٍ طيبِ  
هذا يُغني ذاً وهذا النبي

وقيل في شرب الأربعة:

ألا إنما خيرُ المجالسِ مجلسُ  
فناةٍ وساقٍ والمغني وصاحبُ

وقيل في شرب الستة:

خيرُ المجالسِ خمسةٌ أو ستةٌ  
فإذا تعلّى صارَ شغلاً شاغلاً  
فاهرب إذا ما كنتَ تاسعَ مجلسِ

ومما قيل في الشرب مع التجار:

شربتُ مع التجارِ وكان يوماً  
فذاك يقولُ كم أطلقتَ بيعاً

ولكن لا أبيع ولا أباعا  
فتكسب من مجالسهم صداعا

بغير الأكل إرتعدت يداه  
فلا يبقى على شيء يراه

مهنأ فأضحى في المجالس حاكما  
قصار لجنات النعيم ملازما

محمد بن جعفر الأنصاري يستدعي بعض أصدقائه إلى الشراب:

وزهرُ الروض وشيء أو حريز  
لقد عادت لدينا وهي نور  
إذا العيشُ الهنيء هو السرور  
وَجُوهُكُمْ شَمُوسٌ أو بدور  
بغير القطب فيه رَحَى تدور  
عليك وقد دَعَاكَ له الحضور

وامنأ بعيش حديد غير مضموم  
طافت علينا فرث كل مهموم  
أكارع النمل أو نقش الخواتيم  
ولم تَرِدِ الفنا حُمَرَ الخياشيم  
فإن خَلَقَ الفتي عندي من اللوم

فقام وفي أجزائه سنة الغمض  
فما بين مقص علينا ومغض  
على الخود كنا والحواشي على الأرضي  
على أحمر في أخضر تحت مبيض  
مصبغة والبعض أقصر من بعضي

عند المنام ولا والله ما وصلا  
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً

وهذا قال عندي كل شيء  
فلا تجعلهم أبدا ندماي

ومما قيل فيمن أكل على الشراب:

وندمان إذا ما الكأس دارت  
نديم دأبه في السكر أكل

وقيل في قلدح:

غرامي ووجدي بالذي كان في الثرى  
قضى ما عليه من ورود جهنم

بساط الأرض مسك أو عير  
وقد صفى الدنان الخمر حتى  
ومن يرِدُ السرور يعيش هنيأ  
وعندي اليوم فتيان كرام  
وقطب الأمر أنت وهل لأمر  
فرايك في الحضور فحق يومي

وقال آخر:

باكر صبوحك واشربها مشعنة  
حمراء من بعد ما احمرت مؤودة  
كأن في كأسها والماء يقرعها  
لا صاحبتني يد لم تمن ألف يد  
بايز بجودك بايز قبل عاقبه

سيف الدولة بن حمدان في ساق:

وساق صبيح للصبوح دعوته  
يطوف بكاسات العقار كأنجم  
وقد نشرت أيدي النجوم مطارفا  
يطررهما قوس السماء بأصفر  
كأذيال خود أبلت في غلائل

ابن نباتة:

سقى وواعلني وصلأ الد به  
قيل الله من ساق مواعيد

وقال آخر في ساق:

وساقو كالهلال سَعَى بكأس  
قللتُ تأملوا بلداً منيراً

وفيه لابن النيه:

ساقٍ صحيفةً خدّه ما سوّدت  
جمد الذي يمينه في خدّه

في جارية ساقية:

نديمتي جاريةً ساقيةً  
جاريةً أعينها جنةً

فيمن حبس الكأس في يده:

قالوا الذي تهواه يجسُّ كأسه  
فأجبتهم كموا الملام فأنه

وقال آخر في مجلس أنس:

ومجلس راقٍ من واشٍ يكثّره  
ما فيه ساعٍ سوى الساقبي وليس له

صفي الدين الحلبي في هود:

وعودٍ به عاد السورور لأنه  
يفرب في تفريده فكانه

وقال آخر في زامرة:

وناطقوةً بالنفخ عن روح ربهما  
سكتنا وقالت للقلوب فاطرت

ومما قيل في فانوس لابن تميم:

انظُرْ إلى الفانوسِ تَلَقَّ منيماً  
يُدو تَلهُبُ جسيمه لَنُكُولِه

وفيه لابن قزل:

(١) ساقية جارية: غدير جاري.

(٢) أعينها جارية: يتابعها.

(٣) نعام: واشٍ.

ذَنِفَ بَرَاهِ شَوْقُهُ وَسَهَادُهُ  
وَجَرَتْ مَدَامَعُهُ وَذَابَ فَوْادُهُ

وَكأنَمَا الفَانوسُ فِي غَسَقِ الدُّجَى  
أضْلَاعُهُ خَفِيَتْ وَرَقٌّ أَدِيمُهُ

ولبعضهم في شمعته:

وَإِنْ كُنْتُ صَبَّأً دُونَهَا مَتَوَجِّعًا  
وَصَبْرًا وَصَمْتًا وَاحْتِرَاقًا وَأَدَمًا

حَكَّتَنِي وَقَدْ أودَى بِي السَّقَمُ، شَمْعَةٌ  
ضَنَى وَسَهَادًا وَاصْفِرَارًا وَرَقَّةً

ومما قيل في الربيع والرياض والبساتين والمياه والتواهير ونحو ذلك، قال الشاعر:

مَتَجَاوَبٌ فِي أَيِّكَهِ أَطْيَارُهُ  
وَالرَّوْدُ يَضْحَكُ بَيْنَهَا وَبِهَارُهُ  
هَذَا هَوَاكَ وَهَذِهِ آثَارُهُ

هَذَا الرِّيبُوعُ وَهَذِهِ إِزْهَارُهُ  
وَبَدَا البُنْضُجُ وَالثَّقَائِقُ مَوْنَقُ  
فَاشْرَبَ عَلَيَّ وَجْهَ الحَيِّبِ وَغَنُّ لِي

قال غيره:

سَحِيرًا وَأودَاجُ الأَبَارِيقِ تَسْفِكُ  
مِنَ النُّورِ يَجْرِي دَمْعُهُ وَهُوَ يَضْحَكُ

غَدُونًا عَلَيَّ الرُّوْحِي الَّذِي طَلَهُ النَّدَى  
فَلَمْ نَرَ شَيْئًا كَانَ أَحْسَنَ مَنظَرًا

وقال آخر:

بِخَضْرَوَةٍ وَاكْتَسَى بِالثُّورِ عَارِيهَا  
وَالرِّيبُوعِ ابْتِسَامٌ فِي نَوَاجِحِهَا

أَمَا تَرَى الأَرْضَ قَدْ أعطَتْكَ زَهْرَتَهَا  
فَلِلسَّمَاءِ بِكَاءٌ فِي جَوَانِحِهَا

وقال غيره:

لَمْ تَضْحَكِ الأَرْضُ عَن شَيْءٍ مِّنَ الزَّهْرِ  
إِلَّا إِذَا زَكَدَتْ مِّنَ سَلْوَةِ المَطَرِ

إِنَّ السَّمَاءَ إِذَا لَمْ تَبْكِ مُغْلَّتْهَا  
وَالأَرْضُ لَا تَنْجَلِي أَنْوَارَهَا أَبَدًا

وقال ابن قرناص:

جَنُونِي فَنُونًا بِأَفْئَانِهَا  
لِتَقْيِلَ أَقْدَامِ اغْضَانِهَا

أَيَا حُسْنَهَا مِّنَ رِيَاضِي غَدَا  
مَشَى المَاءُ فِيهَا عَلَيَّ رَأْسِي

وقال آخر:

وَتَفَارَقْتَ بَعْدَ التَّعَانُقِ رَجَعَا  
فَرَأَى المَرَاقِبَ فَانْتَشَى مَتَوَجِّعَا

انظُرْ إِلَى الأَغْصَانِ كَيْفَ تَعَانَقْتَ  
كَالمَصْبِ حَاوِلَ قَبْلَةَ مَنِ الإِقْبَةِ

وقال ابن تميم:

طَرَفِي بِرَوْنِقِ حُسْنِهَا مَدْمُوشُ  
فَكأنَمَا هُوَ مَعْصَمٌ مَتَمُوشُ

وَحَدِيقَةُ يَنَابُ فِيهَا جَدُولُ  
يَبْدُو خِيَالُ غُضُونِهَا فِي مَائِهِ

وقال أيضاً عفا الله عنه:

وَاطْلُ مِنْهَا تَحْتَ ظِلِّ ضَافِي

لِمَ لَا أَهْبِمُ إِلَى الرِيَاضِ وَحُسْنِهَا

والماء وافاني بقلب صافي

والزهرة جاني بشعر باسم

وقال آخر:

قد حَبَانَا بِاللَطْفِ وَالْإِكْرَامِ  
أَخْرَجَتْهَا لَنَا مِنَ الْأَكْمَامِ

قَدْ سَعَيْنَا نِغْيَ زِيَارَةِ دَوْحِ  
نَاوَلْتَنَا أَيْدِي الْعَصَوْنِ ثَمَاراً

ومما قيل في الأزهار والثمار. قال بعضهم في الورد:

فِي رَوْضَةِ الْقَصْفِ وَالْأَطْيَازِ تَتَحَبُّ  
فَهَاتِيهَا قَهْوَةً فِي الْكَاسِ تَلْتَهَبُ  
يَجُودُ بِالْوَصْلِ شَهراً ثُمَّ يَخْتَجِبُ

يَا رَاقِداً وَنَسِيمُ الصَّبْحِ مَتَبَةً  
الْوَرْدُ ضَيْفٌ فَلَا تَجْهَلْ كِرَامَتَهُ  
سَقِيأَ لَهُ زَائِراً تَحِيَا النُّفُوسُ بِهِ

وقال آخر فيه:

مَا دَامَ لِلْوَرْدِ أَنْوَارٌ وَأَزْهَارٌ  
لَا طَوْلَتْ لِلنَّاسِ أَعْمَارٌ

طَابَ الزَّمَانُ وَجَاءَ الْوَرْدُ فَاضْطَبِحَا  
وَاسْتَجْبِلَا عَيْنَنَا بِالْكَاسِ مَرَعَةً

وقال آخر:

شَهراً وَعَشْراً وَخَمْساً بَعْدَهَا عَدَاً  
فَلَسْتُ تَأْمَنُ صَرْفُ الْحَادِثَاتِ عَدَاً<sup>(١)</sup>

أَشْرَبْتُ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ صَافِيَةٍ  
وَاسْتَوَفِ بِالْكَاسِ مِنْ لَهْوٍ وَمِنْ طَرْبٍ

وقال آخر:

أَيَّامُ وَرْدٍ وَالصَّبْوُحُ يَطِيبُ  
حَمْرَاءَ جَادَ بِهَا عَلَيْكَ حَيْبُ

أَشْرَبْتُ عَلَى وَرْدِ الْخُدُودِ فَلِئِنَّهَا  
مَا الْوَرْدُ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ مِنْ وَجْنَةٍ

وقال بعضهم:

وَيَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْبَنْسَجِ يَحْنُقُ  
مِنْ بَيْنِكُمْ فَهَوَ الْعَدُوُّ الْأَزْرَقُ

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْوَرْدَ يَلْطَمُ خَدَّهُ  
لَا تَقْرَبُوهُ وَإِنْ تَضَوَّعَ نَشْرَهُ

ومما قيل في البنسج. قال ابن المعتز:

بَيْنَ الرِّيَاضِ عَلَى زَرْقِ الْبِوَاقِيَتِ  
أَوَائِلِ النَّارِ فِي أَطْرَافِ كَبْرِيتِ

وَلَا زُورِدِيَّةَ وَأَفْتِ بِزُرُوزَتَيْهَا  
كَأَنَّهَا فَوْقَ طَاقَاتِ صَفْفِنَ بِهَا

وقال آخر:

تَهْدِي السَّرُورَ لِكُلِّ صَبٍّ مَكْمَدِ  
أَوْ أَعْيَنَ زَرْقٍ كَحَلَنْ بِأَنْمَدِ<sup>(٢)</sup>

أَشْرَبْتُ عَلَى زَهْرِ الْبَنْسَجِ قَهْوَةً  
فَكَأَنَّهُ قَرَصٌ بِخَدِّ مَهْفَهْفٍ

(١) غدا: نوازل الأيام.

(٢) بأنمد: حجر يكحل به.

ولبعضهم في الورد:

أَنْ البُضَيْجِ أَزْكَى مِنْهُ فِي الْمَهْجِ  
أَتَارُ قَرَصِي يَدِي فِي خَدِّي غَنَجِ

لِلوَرْدِ فَضْلٌ عَلَى زَهْرِ الرَّيِّحِ سَوِي  
كَأَنَّهُ وَعِيونُ النَّاسِ تَرْمُقُهُ

وقال آخر:

يَرْتاحُ صَدْرِي لَهُ وَيَشْرَحُ  
بِأَنَّ ضَيْقَ الْأُمُورِ يَنْفَسِحُ

يَا مَهْدِيًّا لِي بِفَسْجَاءِ أَرْجَاءِ  
بِشْرَنِي عَاجِلًا مَصْحُفُهُ

وقال غيره في النرجس:

عِيونٌ لَمْ تَكُنْ طَعَمَ الْيَمَاضِ  
فَنَكَتِ الرَّؤُوسَ إِلَى الرَّيَاضِ

وَقَضِبِ زَمْرِدٍ تَعْلُو عَلَيْهَا  
تَوَهَّمَتِ الْغَمَامَ لَهَا رَقِيًّا

وقال آخر فيه:

لِزَهْوِ الْأَرْضِ سَتُّ  
أَنَّ أَوْراقَكَ سَتُّ

أَنْتَ يَا نَرْجِسُ رَوْضُ  
وَدَلِيلُ الْقَوْلِ فِيكَ

وقال آخر:

إِلَيَّ وَلِلنَّعَامِ حَوْلِي الْمَاءُ  
عَلَيْنَا وَحَتَّى فِي الرَّيَاحِينِ نَعَامُ

أَقُولُ وَطَرَفُ النَّرْجِسِ الْغَضُّ شَاخِصُ  
أَيَا رَبِّ حَتَّى فِي الْحَدَائِقِ أَعِينُ

وقال أيضاً فيه:

وَرِاحٌ مِنْ إِعْجَابِهِ بِرَأْسِ  
وَاصْفَرُّ مِنْ غَيْظِهِ بِهِ النَّرْجِسُ

لَمَّا تَمَادَى الْوَرْدُ فِي زَهْرِهِ  
تَلَوْنَ الْمَثُورُ مَعَا بِهِ

ومما قيل في اللينوفر لابن المعز المصري:

نَيْمُهُ يَشْبَهُ نَشْرَ الْحَيْبِ  
حَتَّى إِذَا الشَّمْسُ دَنَتْ لِلْمَغِيبِ  
وَغَاصَ فِي الْبَرْكَةِ خَوْفَ الرَّقِيبِ

وَبَرْكَةٌ تَزْهُو بِلَيْنُوفِرٍ  
مَفْتَحُ الْأَجْفَانِ فِي نَوْمِهِ  
أَطْبَقَ جَفَّتَيْهِ عَلَى خَدِّهِ

وقال تميم بن المعز المصري:

قَلْتُ مَا شَأْنُكَ وَسَطَ الْبَرْكِ  
وَمَآذَنِي ظَبْيُ الْفَلَا بِالشَّرْكَ  
فِيكَ وَمَا هَذَا الَّذِي غَيَّرَكَ  
صَفْرًا وَلَوْ ذَقْتَ الْهَوَى صَفْرَكَ

رَأَيْتُ فِي الْبَرْكَةِ لَيْنُوفِرًا  
قَالَ لِي غَرَقْتُ فِي أَدْمُومِي  
قَلْتُ مَا بَالُ اصْفِرَارِ بَدَا  
قَالَ لِي الْوَأْنُ أَهْلُ الْهَوَى

ومما قيل في البان:

وَعَنْ قَلِيلٍ تَأْمُ الْحَرًّا

قَدْ أَتَبَلَ الصَّيْفُ وَوَلَّى الشِّتَا



أما ترى البان بأغصانِهِ      قد قلبَ الفرو إليّ برًا  
وقال آخر فيه:

أما ترى البان الذي يزهر على      كلّ الغصون بقده المياس  
وافي يشرُّ بالريبع وقربهِ      يختال في السجاب والبرطاس  
وقال في الشقيق:

حَيَّيْتُه بشقائقي في مجلسِ      ورأى الرقيبَ فشقَّ ذاك عليه  
فاحمرَّ من خجلٍ فأبَّتْ خُدُّهُ      أضعافَ ما حملتْ يداي إليه  
وقال آخر:

لو لم أعانقَ مَنْ أحبُّ بروضِهُ      أحداقُ نرجسِها إلينا تنظرُ  
ما انشقَّ جيبُ شقيقِها حسداً ولا      باتَ النسيمُ بذيلِهِ يتعثرُ  
وقيل إن ابن الرومي الشاعر زار قبر أخيه يوماً فوجد الشقائق قد نبتت على قبره فأشده يقول:  
قالتْ شقائقُ قبرِهِ      وألربُّ أخرمَ ناطقُ  
فارتفته ولزمتُهُ      فأنا الشقيقُ الصادقُ

ومما قيل في المشور:

تخال مشورَها في الدوحِ مشيراً      كأنما صيغَ مِن دُرٍّ وعيانِ  
والطيرُ يشدُّ في أغصانِهِ سحراً      هذا هو العيشُ إلا أنه فاني  
وقال آخر:

قد أقبلَ المشورُ يا سيدي      كالدرِّ والياقوتِ في نظمه  
تذاك لا زال كأنفاسه      ومخَّ مَنْ يشناك مثل اسمه  
ولبعضهم فيه:

ولقد خلوت مع الأجرة مرةً      في روضةٍ للزهر فيها معركُ  
ما بين مشورٍ أقامَ ونرجسٍ      مع أقحوانٍ وصفه لا يُنركُ  
هذا يشيرُ بأصبعٍ وعيونُ ذا      ترنو إليه وتغرُّ هذا يضحكُ  
ومما قيل في الياسمين:

والأرضُ تيسمُ عن ثغورِ رياضِها      والأفقُ يفرُّ تارةً ويقطبُ  
وكانَ مخضراً الرياضِ ملاءةً      والياسمينُ لها طرازُ مذهبُ  
وقال آخر:

رأيتُ الفألَ بشرني بخيرٍ      وقد أهلى إليّ الياسمينِ  
فلا تعزَّنْ فإنَّ الحزنَ شينُ      ولا تياسْ فإنَّ اليأسَ ميينِ

ومما قيل في السوسن: للاخطل الأهوازي:

بعد الهدوء بها قرعُ النواقيسِ  
على الميادين أذئابُ الطواويسِ

سقياً لأرضي إذا ما نمتُ بُهني  
كانَ سوسنَها في كلِّ شارقةٍ

ومما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي:

بأفحوانٍ يحاكي ثغر ميسم  
لثماً وأرشفُ من ريقٍ له شيم<sup>(١)</sup>

أفدي الذي زازني سررتُ فأتحفني  
فبتُّ من فرحي أنفي مقبله

ولبعضهم فيه:

بثغرِ جُكِّ واستولتِ به الطربُ  
لقد حكيت ولكن فاتك الشنبُ

إن فاة ثغرُ الأقاحي في تشبهه  
فقل له عند ما يحكيه مبتسماً

ومما قيل في الجلنار:

على أعالي شجرة  
أحمره وأصفرة  
في خرقه معصفرة

وجلنارٍ مشرق  
كان في غصنه  
قراضة<sup>(٢)</sup> من ذهب

ومما قيل في الآس:

غصناً نضيراً ناعماً من آس  
وكانما تحكيه في الأنفاس

أهديثٍ مثبه قنك المياس  
فكانما يحكيك في حركاته

ومما قيل في الريحان:

نما بين غصني نرجسٍ وشقائق  
شمائلٍ معشوقٍ وذلة عاشقٍ

وغصني من الريحانٍ أخضرٍ ناضرٍ  
يريك إذا كف المبا عبت به

وفيه أيضاً:

يلدُ بشميه شرب الكؤوس  
وقد قاموا مكاشيف الرؤوس

وريحانٍ يمسُّ بمسني قلد  
كسودانٍ لينن ثياب حزر

وقال آخر:

إذ ما بدأ للعين لون الزبرجد  
عذاراً تبلى في سواف أغيد

فضيب من الريحانٍ شاكل لونه  
فتبته لما بدأ متجعداً

ومما قيل في الفواكه والثمار على اختلافهما. قال ابن الرومي في الأترج:

(١) شيم: بارد.

(٢) قراضة: كله حريري وأطلاه أسود.

تَشَابَهَتْ مِنْكُمْ الْأَخْلَاقُ وَالْخَلِيقُ  
حَمَلًا وَنَشْرًا وَطَابَ الْعَوْدُ وَالْوَرَقُ

كُلُّ الْخِلَالِ الَّتِي فِيكُمْ مَحَاسِنُكُمْ  
كَأَنْكُمْ شَجَرُ الْأَنْجَرِ طَابَ مَعَا

ولبعضهم فيه:

نَاعِمَةٌ مَقْدُودَةٌ غَضَّةٌ  
وَجَسْمُهَا النَّاعِمُ مِنْ فَضَّةٍ

حَيَّاكَ مِنْ تَهْوَى بِأَنْجَرٍ  
فَجَلَدُهَا مِنْ ذَهَبٍ أَصْفَرٍ

وقال آخر:

تَحَدَّثَ لِلنَّعْسِ الطَّرَبُ  
لَهَا غِشَاءٌ مِنْ ذَهَبٍ

بِأَجْبَدَا أَنْجَرِجَةٍ  
كَأَنَّهَا كَافُورَةٌ

في الليمون قال أبي الحسن رئيس الرؤساء:

حَلَوُ الْمَقْبَلِ الْمَيِّ بَارِدُ الشَّنْبِ  
وَاسْتَوْدَعُوهَا غِلَافًا صَيِّغٌ مِنْ ذَهَبٍ

بِأَحْسَنَ لَيْمُونَةٍ حَيَّا بِهَا قَمَرٌ  
كَأَنَّهَا أَكْرَةٌ<sup>(١)</sup> مِنْ فَضَّةٍ خَرَطَتْ

وفيه أيضاً:

وَالطَّيْرُ لَمْ يَفْرُدِ  
تَرْضَى بِعَيْشِهِ نَكِيدِ  
مَنْ كَفَّ سَاقِ أَغْيَدِ  
مَنْ خَلَدَ الْمَوْرِدِ  
لِنَدَا يَوْمٍ لَفِيدِ  
عُضُنِي مِنَ الزَّبْرِجِدِ  
مَلْسُومَةٌ مَسْنِ عَجِيدِ

وَصَاحِبِ نَادِيَتِهِ  
أَنْهَضَ إِلَى الرَّاحِ وَلَا  
وَأَشْرَبَ سَلَافًا قَرَقَفَا  
قَدْ أَكْتَسَتْ تَلْهُبَا  
وَلَا تَدْعُ مَجْتَهِدَا  
أَمَا تَرَى اللَّيْمُونَ فِي  
كَأَكْرَةٍ مِنْ فَضَّةٍ

في التارنج لعبد الله بن المعتز:

كَجَمْرَةٍ نَارٍ وَهِيَ بَارِدَةٌ لِلْمَسْرِ  
فَقَبِيحَتُهُمَا الْمَرِيخُ فِي دَارَةِ الشَّمْسِ

نَظَرْتُ إِلَى نَارِ نَجْوَةٍ فِي يَمِينِي  
قَبِيحَتُهُمَا مِنْ خَلْدِهِ فَتَأَلَّفْتُ

وقال آخر:

عَلَى غِصْنِي رَطْبٍ كَقَامَةِ أَغْيَدِ  
بَدَلَتْ ذَهَبًا فِي صَوْلَجَانِ زَبْرِجِدِ

وَنَارِ نَجْوَةٍ بَيْنَ الرِّيَاضِ نَظَرْتُهُمَا  
إِذَا مَجَلَّتْهَا الرِّيحُ مَالَتْ كَأَكْرَةٍ

وقال آخر:

وَمِنْهُ مَا نَرَى كَالصَوْلَجَانِ

وَنَارِ نَجْوَةٍ يَلُوحُ عَلَى غِصُونِ

أشبهها تدياً ناهدات<sup>(١)</sup>

وقال آخر:

وأشجار نارنج كأن ثمارها  
فطالمها بين الغصون كأنها  
أتت كل مشتاق برئاً حبيب

في الضاح لبعضهم:

ولما بدأ الضاح أحمر مشرقاً  
وقلت لساقيها أذرها فنعدنا

وقال آخر في تفاحة:

وتفاحة من سندس صيغ نصفها  
كأن الهوى قد ضم من بعد فرقة

ولبعضهم فيه:

تفاحة كبيت لوتين خلتهما  
تعاقبا فبدأ واش فراعهما

وقال آخر:

وتفاح ووردية ذهيو  
كأن سلاف الخمر زوى أديمها  
تذكرني شكل الحبيب وحسنه

وقال آخر:

حمره الضاح في خضرتيه  
فعلى الضاح فاشرب قهوة

وفيه أيضاً:

أهدى لنا الضاح من كفه  
وخط بالمسك على بعضها

ومما قيل في السفرجل:

حاز السفرجل لذات الورى فقدا  
كالراح طعماً وشم المسك رائحة

غلائلها صيفن بزعفران

حفاق عقيق قد ملئن من الدر  
قدود عذارى في ملاجفها الخضر  
فهاجت له الأشجان من حيث لا يدري

دعوت بكاسي وهي ملأى من الشفق  
خدود الأغاني قد جُمعن على طبق

ومن جناز نصفها وشقائق  
بها خد معشوق إلى خد عاشق

خلتي محب ومحب قد التصقا  
فاحمر ذا خجلاً واصفر ذا فرقاً

تجلى عن المهموم ليل هموميه  
بخمر فجاءت باحمرار أديميه  
وتوريد خلتيه وطيب نسيمه

أشبه الألوان من قوس قزح  
واسقنيها بنشاط وفرح

من لم يزل يجنيه من خده  
قد عطف المولى على عبده

على الفواكه بالفضيل مشهوراً  
والتبر لونا وشكل البدر تدويراً

وقال آخر:

سفرجلة صفراء تحكي بلونها  
إذا شمَّها المشتاقُ شَبَّهَ ريحها  
وطيِّبَةً عندَ المذاقِ فطعمُها

وقال آخر:

سفرجلة جمعتُ أربعاً  
صفاً النصارِ وطعمَ العقارِ

وقيل في الكمشى:

وكمشى لذيدُ الطعمِ حلوى  
مناقيرُ الطيورِ إذا اقتلنا

ابن برغش متغزلاً:

وكمشى سباني منه طعمٌ  
لذيدٌ خلقه لما أتانا

ما قيل في المشمش:

بدا ممشُ الأشجارِ يلذكو شهابه  
حكى وحكَّتْ أشجارُه في اخضرارِه

ما قيل من الإحاص:

انظُرْ إلى شجرِ الإحاصِ قد حملتْ  
تراه في أخضرِ الأوراقِ مستتراً

ما قيل في الخوخ:

أهدى إلى الصديقِ خوخاً  
من كلِّ مخصوصٍ بحسنِ  
حمراءِ صفراءِ مستعيرٍ  
كوجنةٍ مئها خلوقٍ

ما قيل في الفتق:

تفكرتُ في معنى الثمارِ فلم أجِدْ  
سوى الفتقِ الرطبِ الجنِّيِّ فإنه  
غلاةٌ مرجانٍ على جسمِ فضوٍ

ما قيل في البنلق:

فكانَ لها كلُّ معنى عجيبي  
ولونِ المحبِّ وريحِ الحبيبِ

شهيبي جاء من دوح الجنانِ  
مغبرةً بلونِ الزعفرانِ

كطعمِ الشهدِ شيبَ بماءِ وردٍ  
نهودُ المرِّ في معنىٍ وقد

على غصنِ أخصانِ من الروضِ مُجدي  
جلاجلَ تبرِّ في قبابِ زرجدي

أغصانُهُ ثمرأ ناهيك من ثمرِ  
كما اختبى الزنجُ في خضِرِ من الأزردِ

منظرةً منظراً أنيقاً  
معناه في مثلها ديقاً  
بهجتها التبرُّ والعقيقُ  
فزالَ عن بعضها الخلقُ

لها ثمرأ يندو بحسنِ مجردِ  
زفاً بمعانٍ زينت بتجردِ  
وأحشاءُ ياقوتٍ وقلبُ زرجدي

حمراء صافيةً بغير مزاج  
شبهتهُ بينادقٍ من عاج  
قد لفتُ فيه بنادقٍ من عاج

ومما قيل في النبق:

من حُنها في فنون  
وقد حلا في العيون  
قد علقت في الفنون

ولقد شربتُ مع الحبيبِ مدامةً  
ففضّلَ الطبّيُّ البهيُّ يندلقُ  
فكرتهُ فوجدتُ ثوباً أحمرًا

وسدرةٌ كلُّ يوم  
كانتُما النبقُ فيها  
جلاجلٌ من نصار

ومما قيل في اللوز:

لمبرها قليني فيها تلاصقا  
على رقبتي في مجلسِ قمانقا

ومهدِ إلينا لوزةً قد تَمَنَّنْتَ  
كأنهما جبان فاذا بخلوة

في العنب لبعضهم:

نغمَ الهديةِ إذ أقتك من يديه  
كأن طيهما من طيبٍ محتديه  
وأسود العينِ يحكي لونَ أسوده

هديةً شرفتنا من أخ تقو  
نوعان من عنبٍ جاء على طبق  
فأبيضُ العينِ يحكي لونَ أبيه

في فصب السكر:

بل لأكلٍ ومضٍ لبٌّ ورغيف  
باعتهالٍ وحسنٌ قد ولطف

ورماحٍ لغيرِ طعنٍ وضرب  
كملتُ في استوائها واستماتت

ومما قيل في البطيخ الأصفر:

ببطيخٍ صفراء في لونِ عاشق  
من الشمس ما بينَ النجوم يبارق

أنا غلامٌ فاقَ حسناً على الورى  
فشبهتهُ بدرًا يقد أهلة

وقال آخر:

إلنا غلامٌ فاقَ كلَّ غلامٍ  
يقطعها بالبرقِ بلدرُ تمام

وبطبخٍ وأسى بها فوق كفه  
فخيل لي شمنُ الأصيلِ أهلة

ومما قيل في البطيخ الأخضر:

وقد لاح في خديهِ شبهُ شقيق  
وفرقتها ما بينَ كلِّ صديق  
وقد عملتُ فيهم كدوسٍ رحيق  
مرصعةً فيه فصوصُ عقيق

وطبّي أتى في الكفِّ منه بمديّة  
فمال إلى بطيخٍ ثم شقّها  
فشبهتها لما بدت في أظهِم  
صفائحُ بلورٍ بدت في زرجد

وقال آخر:

أنا بها فارتاح ذو الهمةً وابتهج  
فَرَى طرفه الساجي القلوب مع المهج

من الزمرد خضراً ما لها ورق  
وصار في عكسه أني بكم أنق

أو كازه خملُ الريح المبكر  
فاستودعته حواصل من عنبر

نوراً من الشمس في حافاتها طلعا  
شهد بسماءه فارتجج والتعاعا  
كف الكمي إلى ضرب الكماة سعى

والآناس إذا لاحت معانيها  
قالت هي الصرح تمثيلاً وتثيها  
من السبائك تجري في مجاريها  
مثل الجواشن مصقولا حواشيها  
وريق الغيث أحياناً يساجيها  
ليلاً حبت سماء رُجبت فيها

في غاية الحسن والصفاء  
في الأرض جزء من السماء

وعليه من صبغ الأصيل طراز  
عكن الخصور تهزها الأعجاز

ولكل وقت مَرَوِّ قَصْر  
وكانما دارائه سرور

وبطيخة خضراء في كف أغيد  
وأقبل يفريها بمدية وقد

ومما قيل في القناء:

انظر إليها أنايماً منقصة  
إذا قلبت اسمها بانث ملاحظها

ومما قيل في الباذنجان:

وكانما الأبلنج سود حمام  
نقرت مناقره الزمرد سماماً

ومما قيل في الأنهار والبرك والنواير:

أما ترى البركة الغراء قد كسيت  
والنهر من فوقه يلهيك منظره  
كانه السيف مصقولاً بقلبه

وقال البحرني في البركة:

يا من يرى البركة الحسناء رؤيتها  
فلو نمر بها بلقيس عن عرض  
كانها الفضة البيضاء سائلة  
إذا علتها الصبا أبدت لها حيكاً  
فحاجب الشمس أحياناً يضاجكها  
إذا النجوم تراءت في جوانبها

وقال آخر:

وبركة للعيون تبسو  
كانها إذ صفت وراقبت

وقال محمد بن سارة المغربي:

النهر قد زقت غلالة صبيغ  
تترقق الأمواج فيه كأنها

وقال آخر:

يوم لقا بالنيل مختصراً  
فكانما أمواجهُ عكن

وقال آخر في نهر يسبح فيه الغلمان:

ولكن فيه للرائي مسرة  
كانهم نجوم في المجرة

خليج كالحمام له صفال  
رايت به الملاح تجيد عوما

وقال آخر في النيل:

إذ قال ملء ساميبي  
عم البلاد منافيبي  
قلنتها بأصايببي

النيل قال وقولهُ  
في غيظ من طلب العلا  
وعيونهم بعد الوفا

وقال آخر:

لما يبدو لعين الناس منه  
ويمضي حين يستغنون عنه

كان النيل ذو فهم ولب  
ياتي عند حاجتهم إليه

وقال آخر فيه:

وطنت وطانت في البلاد  
ما ذي أصابع ذي أيادي

وقنت أصابع نيلنا  
واتنت بكل مسرة

وقال آخر:

طرا فكل قد غدا مسرورا  
عنه البشائر إذ غدا مكورا

سد الخليج بكسره جبر الوري  
والماء سلطان فكيف تواترت

وقال آخر:

غدت طوعا له في كل امر  
إليه بها فاحذها ويجري

ونهر خالف الأهواء حتى  
إذا عصفت على الأغصان ألت

وقال آخر في ناعورة:

فغدت تنوب عن الغمام الهامح<sup>(١)</sup>  
ومسير مشتاق وأنو جازع

وكريمة سقت الرياض بدورها  
بلسان محزون وملمع عاشق

وقال آخر:

وأضلها كانت تعد من السقم  
وأما دموعي فهي تجري على جسبي

وناعورة قالت وقد حال لونها  
أدور على قلبي لأنني قننته

وفيها أيضا:

يفيض لها دمع كمشير العقيد<sup>(٢)</sup>  
فليس لنا من ذلك الفعل من بد

وحنانة من غير شوق ولا وجد  
أحر إذا حنت وأبكي إذا بكث

(١) الهامح: الهاطل.

(٢) العقيد: تتأثر الدموع لسماح شجرها.



وأبكي بأفراط الصباية والوجد  
ودمعي من عيني يفرض على خدي

فَارَقْتُه قَدِ عَدَّتْ لِي تَحْكِ  
وعلى إلهها تدور وتبكي

وَدَمَعُهُمَا بَيْنَ الرِّيَاضِ غَدِيرُ  
قَاصِبِحِ ذَا يَجْرِي وَذَاكَ يَدُورُ

ولكنها تبكي بغير صباية  
وأدمعها من جدول مستعارة

وفيها أيضاً قال الخطيري:

رُبُّ نَاعُورَةٍ كَأَنَّ حَيَّيَا  
أَبْدَأُ هَكَذَا تَنْزِلُ بِشَجْوٍ

ابن تميم:

تَأْتِلُ إِلَى الدُّوَلَابِ وَالنَّهْرِ إِذْ جَرَى  
كَأَنَّ نَيْمَ الجَوِّ قَدْ ضَاعَ مِنْهُمَا

### فصل: في ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف في قاض مليح:

يُعْرَبُ عَنْ مَنْطِقٍ لَذِيذٍ  
قَلْنَا لَهُ دَائِمُ النَّوْذِ

وَرَبُّ قَاضٍ لَنَا مَلِيحٍ  
إِذَا رَنَا لِي بِهِمْ لِحْظِ

وقال في قبه مليح:

وَهُوَ المَهْتَبُ فِي الرِّشَاقَةِ وَالحَنُوزِ  
لَكِنْ وَجِيرُ الخَصْرِ مِنْهُ المَخْتَصِرُ

وَمِهْجَتِي ظِلِّي غَدَا مَغْفَهَا  
أَمْسَى بِسَيْطِ الشَّعْرِ مِنْهُ مَطْوَلَا

وقال في محدث مليح:

شَرَّدَ عَن جَفْنِي الوَسْنِ  
كَلَامَا عِنْدِي حَسَنِ

عَلَّقْتَهُ مَحْدَثَا  
حَدِيثُهُ وَوَجْهُهُ

وقال في إمام:

يَخْجَلُ البَدْرُ فِي لِيَالِي السَّعُودِ  
حِينَ يَوْمِي بِوَجْهِهِ لِلسَّجُودِ

جَاءَ يَسْمَى إِلَى الصَّلَاةِ بِوَجْهِ  
فَتَمَيَّتُ أَنْ وَجْهِي أَرْضُ

ابن الرومي في عروضي وأجاد:

مَوْتَتِي فِيهِ حَيَاةُ  
فَاعِلَاتُ فَاعِلَاتُ

فِي عَرُوفَتِي مَلِيحِ  
عَاذَاتِي فِي هَوَاهِ

في مؤذن مليح:

لَكُنْتُ بِالمَوْصِلِ أَيْ شَجِيحِ  
مَنْ بَعْدَ ذَاكَ أَعِشُ بِالمَتَّيِّحِ

وَمَوْذَنُ أَحْسَى كَرِيمَا وَجْهُهُ  
أَبْدَأُ أَمُوثَ بِهِجْرِهِ لَكُنْتِي

لابن عربي:

لَمْ يُفْئِدْنِي شَكْوَى الْغَرَامِ إِلَيْهِ  
وَاضْهِعْ أَصْبَحِيهِ فِي أَذْنِيهِ

مَجْبَأً فِي الزَّوَايَا  
فَقِي الزَّوَايَا خَبَايَا

بَسْنَا وَجْهَ مَنِيرٍ  
فَقَرَامِي بِالْفَقِيرِ

وَجَدْتُ يُذَيِّبُ الْجَوَارِحَ  
حُتَّتْ إِلَيْهِ الْجَوَارِحَ

وَعَدَا يَلِينُ لِحَسْنِهِ الْجَلْمُودُ  
وَإِذَا شَدَا فَكَأَنَّهُ دَاوُدُ

أَمَسَى بِهِ قَلْبِي الْمَضْنِي عَلَى خَطَرِ  
فَرَاخَتِ الرُّوحُ بَيْنَ السَّهْمِ وَالرُّوتِرِ

بَدِيحاً مَا رَأَيْتَا مِنْهُ أَجْمَلُ  
بِوَجْهِهِ عَدَا دَمْعِي مَسْلَلُ

فِيهِ تَزَايِدُ عُشْقِي  
لِكَأَنَّ مَالِكَ رُقِي

قَدْ رَاقَ فِي التَّقْيِيلِ عِنْدَ وَرَقِي  
مَا أَحْسَنَ الْأَغْصَانَ بَيْنَ الْوَرَقِي

لَمَطْلِكِ بِالْوَصَالِ يَكَادُ يَلَى  
مَحَبَّةً يَسْأَلُ الْوَرَقَ وَصَلَا

وَبِنْفِيسٍ مُؤَدَّدٌ قَدْ سَبَّانِي  
كَيْفَ أَصْنَفِي لَمَّا يَقُولُ حَيْبُ

وَقَالَ آخِرُ فِي مَرِيدٍ:

مَرَادُ قَلْبِي مَرِيدُ  
وَلَيْسَ ذَا بَعْجِي بِ

وَفِي قَبْرِ مَلِيحٍ:

بِي قَبِيرٌ يَتَغَنَّى  
لَا تَلُنُنِي فِي انْتِصَاحِي

فِي أَمِيرِ شَكَارِ لَابِنِ دَانِيَالِ:

بِي مِنْ أَمِيرِ شَكَارِ  
لَمَّا حَكَى الظُّبْيَ حَسَا

فِي مَلِيحِ مَغْنٍ:

أَضْحَى يَخْرُ لُوجْهَهُ قَمْرُ الدَّجَى  
فَلِإِذَا بَدَا فَكَأَنَّمَا هُوَ يَوْسُفُ

فِي مَلِيحِ عَوَادٍ:

غَنَى عَلَى الْعُودِ ظَبْيٍ سَهْمٌ نَاطِرِهِ  
دَنَا إِلَيَّ وَجِئْتُ كَفَّةً وَتَرَا

فِي مَلِيحِ كَاتِبٍ:

بِرُوحِي كَاتِباً كَالْبَدْرِ حَسَا  
عَلَى رِيحَانٍ عَارِضِهِ الْمَفْدَى

وَقَالَ غَيْرُهُ:

وَرَأَقْنَا ذَا الْمَفْدَى  
فَلَوْ يَجُودُ بِوَصْلِ

وَفِيهِ أَيْضاً:

بِأَحْسَنَ وَرَاقٍ أَرَى خَلْدَهُ  
تَمِيلُ فِي الدِّكَانِ اعْطَافُهُ

لِلسَّيِّدِ الشَّرِيفِ صِلَاحِ الدِّينِ الْأَسْبُوطِيِّ فِيهِ أَيْضاً:

فَدَيْتُكَ أَهْمَا الْوَرَقَ قَلْبِي  
وَقَدْ طَلَبَ الْوَفَاءَ وَغَيْرَ بَدْعِ

وفي مליح صيرفي:

أَمْسى بَعِيدَ الدَّارِ فَاقْدِ إِلَيْهِ  
قَدْ مِتُّ مِنْ جَوْرِ الزَّمَانِ وَصَرْفِهِ

يَا سَائِلًا عَنْ حَالِي مَا حَالُ مَنْ  
بِي صِيرْفِي لَا يَرْقُ لِحَالِي

في مليح بخاتمي:

وَلَا يَرْضَى بِيَدِ التَّمِّ نَائِبُ  
وَأَصْبَحَ رَاكِبًا تَحْتَ الْعَصَائِبِ

تَسْلُطَنَّ فِي الْمَلَاخِ بَخَاتَمِي  
وَقَدْ صَفَّتْ لَهُ الْأَتْرَاكُ جُنْدًا

في مليح فراء:

وَزَادَ صَدًّا وَطَالَ هَجْرًا  
فَقَالَ لِمَا عَشَقْتَ فَرَا

قَلْتُ لَفَرَا فَرَى أَدِيمِي  
قَدْ فَرَّ نَوْمِي وَفَرَّ صَبْرِي

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء في مزين:

بَعْدَ الْبِعَادِ بِشَطْئِ  
بِكَأْسِ رَاحٍ وَيَطْئِ

حَبِي الْمَزِينُ وَاقِي  
وَمَهْرٌ دَمَلْ قَلْبِي

في مليح قصاص:

بِالْهَجْرِ وَالصَّدِّ أَنْوَاعًا مِنَ الْغَضَمِ  
أَيْضًا تَقْصُرُ عَلَيْنَا أَحْسَنَ الْقَصَمِ

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ قَصَاصًا يَجْرُعُنِي  
إِنْ تَحْسَنَ الْقَصَمُ يَمْنَاهُ فَمَقَاتُهُ

في مليح صياد:

يَمْلَأُهَا وَشِرَاكِ  
تَصِيدُ قَالَ كِرَاكِي

وَمَوْلِجٍ بِفَخَاخِ  
قَالَتْ لَهُ الْعَيْنُ مَاذَا

في مليح رامى بندق:

طَائِرُ قَلْبِي عَلَيْهِ وَاجِبُ  
يُرْمِي إِلَى الْبَدْرِ بِالْكَوَاكِبِ

وَأَمِينُ الْقَدِيدِ ذِي دَلَالِ  
كَالشَّمْسِ فِي كَفِّهِ هَلَالِ

وقال آخر في راع:

قَوَائِمُهُ فِائِقُ الْغَصُونِ الرَّشَاقِ  
مَا الْقَصْدُ يَا مَوْلَايَ إِلَّا الْعَنَاقِ<sup>(١)</sup>

أَفْذِيهِ مِنْ رَاعٍ كِبِدْرِ الدَّجَى  
ضَيْخِنِي بِالْجِدِّي نَادِيَتِهِ

القيراطي في مليح طحان:

بِلِحَاظٍ وَيَقْسَامَةِ  
يَجْمَلُ الْغَمَزَ عِلَامَةَ

حَسَنُ طَحَانٍ سَبَانِي  
خَافَ مِنْ وَاشٍ فَأَضْحَى

(١) العناق: تورية عن الغم بالمواشي.

القاضي بدر الدين البلقيني في تَرْاب:

أورث القلب عذابا  
ليتي كنت تُراباً<sup>(١)</sup>

رب تَرَابٍ مَلِيحٍ  
قلتُ لما أن بدأ لي

وقال آخر في مَلِيحِ عَوَام:

يخلُ بالوَضَلِ لمن هاما  
يُبرِهِمُ الأردافَ إن عاماً

يا حسنَ عَوَامِ كفصنِ النقا  
وتفنعُ العشاقُ منه بأن

ابن نباتة في مَلِيحِ حِشِي:

دنا ووفى بعدَ التجنُّبِ والسخطِ  
فقبَّلتُه ألقاً على ذلك الشرطِ

بروحِي مشروطاً على الخدِّ أسمراً  
وقال على اللثمِ اشتَرَطْنَا فلا تَزِدْ

وله أيضاً:

ونشركَ كافورَ وذكركَ عنبرُ  
وخلقكَ ربحانُ ولفظكَ جوهراً

ومن عجبٍ تدعى للطفك سنبلاً  
وسعدك إقبالُ وحسبك مرشداً

وقال آخر فيمن به صفرة:

قلتُ ما ذاك من عيبٍ به نزلاً  
فلسك تلقاهُ إلا خائفاً وجِلاً

قالوا به صفرةٌ شانتُ محاسنةُ  
عيناهُ مطلوبةٌ في نارٍ من قتلتُ

للشيخ شهاب الدين بن حجر في مَلِيحِ اسمه زائر:

للطرفِ يا طرفُ شاهدُ  
تِهياً عليّ بزائيدُ

وزائرٍ قالَ قلبي  
مدخُتُهُ فتجَنَّى

وقال آخر في مَلِيحِ أَرَمَد:

لواحظُهُ من الفتكاتِ فينا  
قلتُ نَعَمْ لَقَتَلِ العاشقينَا

شكا رمداً قلتُ الآنَ كلتُ  
وقالوا سيفُ مقلتيهِ تصدَّى

لمجد الدين بن مكناس فيه:

وباتَ يشكو لهيبَ القلبِ والألما  
فيا له من حيبٍ قد شكا ورما

تورمت مقلَةُ المَحبوبِ من رَمَدٍ  
وباتَ يرمي محييهُ بأسهمِهِ

لابن أبي حجلة في أعور:

مقلوعةٌ بمحاسنِ متزايدهُ  
ما ظلَّ ينظرُهُم بعينٍ واحدةُ

ما شانَ من أهواهِ عينُ أصبحتُ  
لولا استخفَّ العالمينَ بأسرِهِم

وقال آخر في مליح راهب:

رَأَيْتَهُ يَضْرِبُ النَّاقُوسَ قَلْتُ لَهُ  
وَقَلْتُ لِلنَّاسِ أَيُّ الضَّرْبِ يُوْلِمُكَ

مَنْ عَلَّمَ الْبَدْرَ ضَرْباً بِالنَّوَاقِيسِ  
ضَرْبُ النَّوَاقِيسِ أَمْ ضَرْبُ النَّوَى قَيْسِي

القيراطي في مليح اسمه بدر:

سَمَّوْهُ بِبَدْرٍ وَذَاكَ لِمَا  
وَأَجْمَعَ النَّاسَ إِذْ رَأَوْهُ

أَنْ فَبَاقَ فِي حَيْبِهِ وَتَمَّا  
بِأَنَّهُ اسْمٌ عَلَى مَسْمَى

وآخر في مليح اسمه حمزة:

مَتَى يَبْدُو لِحَمْرَةَ مَا بَقْلِي  
وَأَشْفِي بِالْمَبْرَدِ مَنْ لَمَاءِ

وَبِرْثِي لِي وَيَنْظُرُ فِي بِلَاتِي  
وَأَجْمَعُ بَيْنَ حَمْرَةَ وَالْكَسَائِي (١)

وقال آخر:

كَلَفْتُ بِهِ وَلَسِمَ أَبْلُغُ مَرَادِي  
فَتَصْحِيفُ اسْمَهُ فِي وَجْتِيهِ

غَزَالٌ قَدْ تَحَكَّمُ فِي قِيَادِي  
وَفِي مَعْسُولٍ فِيهِ وَفِي فَوَادِي (٢)

في مليح سروجي:

فَتَتُّ بِهِ سَرُوجِيًّا بَدِيعاً  
إِذَا جَذَبَ الْفَرَامَ لَهُ عَنَانِي

بِهِ قَدْ ذَبْتُ وَجَدّاً مِنْ ضَجِيجِي  
يَلْدُ لِي الرُّكُوبُ عَلَى الشُّرُوجِ

وقال آخر في مليح محموم:

قَالُوا حَيِّيكَ مَحْمُومٌ قَلْتُ لَهُمْ  
عَانَقْتَهُ وَلَهَيْبُ النَّارِ فِي كَبْدِي

أَنَا الَّذِي كُنْتُ فِي حَمَائِهِ السِّيَا  
فَأَثَرْتُ فِيهِ تِلْكَ النَّارَ فَالْتِهِيَا

لأبي النّوَّاسِ فِي مَلِيحِ الثَّلْجِ:

وَمَهْفَهْفٍ دَنَفِ الصَّبَا ذِي لَثْفَةٍ (٣)  
قَبْلْتُ فَاءَ قَالِ لِي مَتَخَوِّفَا

تَصْبُؤْ إِلَيْهِ ذُو الْعُقُولِ الرَّجِجِ  
مَنْ كَاشِحٌ (٤) مَتَدَلَّلُ بِأَلَا ائْتَحِي

وقال في مليح خباز:

إِنْ خَبَّازَتْنَا الْمَلِيحَ الْمَفْسُئِي  
خِلْتُ دَكَانَهُ الْبَدِيعَ سَمَاءِ

فِي حِشَا الصَّبِّ مِنْ جَفَاءِ كَلُومٍ  
وَهُوَ بَدْرٌ وَالْخَبْزُ فِيهِ نَجُومٌ

وقال في مليح حائك:

(١) الكسائي: تورية باستخدام أحلام النحويين.

(٢) فوادي: أي حمرة فيه.

(٣) ذي لثفة: نطق الحروف بشكل طفولي.

(٤) كاشح: معاد.

كالبدر في كفيه ماسورة  
عائت في كفيه ماسورة<sup>(١)</sup>

رشاقة الأغصان من قده  
والشم الشامات من خده

فنادمني حتى سكرت من الوجدي  
تدور على الشامات وهي على الخدي

بديع حسن فريد شكلي  
لما جفاني وكف خللي

له طلعة أبهى ضياء من الشمس  
فتضم حقاً أنه آية الكرسي

وجاء لقلع ضربك بالمحال  
وسأط كلبتين على غزال

به قوم وعدهم الضلال  
وقالوا إن معجزة محال  
إلي وقيل كلمه الغزال

بقوس رمى في القع وحشا بأسهم  
هلال رمى لي الليل جنا بأنجم

شاد تجمعت المحاسن فيه  
وكان ما يميزه في فيه

وحائك يا صاح أبصرته  
فلم أرح إلا وروحي لما

وقال في مريح لاحب شطرنج:

لعبت بالشطرنج مع أهيف  
أحل عقد البند من سميه

وقيه أيضاً قال:

تلاعبت بالشطرنج مع من أجه  
وأشذني ما لي أراك مفكراً

في مريح خياط:

خياطنا الفاتن المفدى  
فصل للجسم ثوب سقم

وقال غيره:

فتنت بخياط بديع ملاحه  
تراء على الكرسي للثوب خائطاً

الصفى الحلبي في مريح قلع ضره:

لحا الله الطيب لقد تعدى  
أعاق الطبي في كتنا يدي

وقال في مريح سلم عليه:

تبأ فيك قلبي فاسترابت  
وصدّهم الهوى أن يؤمنوا بي  
ومذ سلمت سلمت البرايا

وقال في مريح يرمي بالسهم:

وظبي يشعر فوق طرف مفوق  
كبدر بأفق فوق برق بكفه

وقال في مريح يضرب بالعود:

فمن الأنام بموده وشذوه  
حتى كأن لسانه يميزه

(١) كفيه ماسوره: تخفيف ماسورة.

وقال أيضاً فيه:

نغمأ أصحُّ به القلوبَ وأمراضا  
نالَ الرفاقُ بسخطها عينُ الرضا

وأغن<sup>(١)</sup> قد أبدى لنا من عوده  
يبدُ إذا سخطت على أوتاره

وقال في مليح مشب<sup>(٢)</sup>:

من رقدتِ السكرِ لا من رقدتِ الحضرِ  
فكان فيك مرادُ السَّمعِ والبَصَرِ  
ضمَّنتِ نايكُ نايَ الهمِّ والفكرِ<sup>(٣)</sup>  
إذ جئتِ في اللفظِ والمعنى على قدرِ

يا نافخَ الصورِ بل يا باعثَ الصورِ  
قرنتِ حسنكُ بالإحسانِ فيه لنا  
ضمَّنتِ للمحبِّ إقبالَ السرورِ كما  
صوتُ بسيطُ به أرواحنا اتبسطتِ

قال في مليح ساق:

أثيهُ بهِ على جَمعِ الرفاقِ  
وأفديهِ بعيني وهو ساقِي

وساقِي من بني الأتراكِ طفلي  
أملكهُ قيادي وهو رقي

وقال أيضاً في رسول مليح أناه من عند من يحبه:

كان الجوابُ قبولهُ  
جاءَ الصباخُ دليلهُ  
إلا ارتقبَتِ وصولهُ  
بلُ الفؤادُ غليلهُ

مَنْ كنتِ أنتِ رسولهُ  
يا طلعةَ الشمسِ السلي  
لم يبدُ وجهكُ قبلهُ  
فلذاكِ إذ واجهتني

في مليح قارىء:

يومَ الزيارة قارئاً في المصحفِ  
تسبي وتضني كل صبِّ مدنفِ  
وجلاً محيياً مثل صورةِ يوسفِ

نفسِي الفداء لشادني شاهدُهُ  
فتنَ الأنامَ بيهجةً وبلهجةً  
فتلا ملياً جلَّ سورةِ يوسفِ

وقال آخر في مليح مكتمل العذار:

فصَلَّني وأزورُ من قبَلتني  
وأنتِ ما تقكُر في لحتني

وكمالِ العارضي قبَلتُهُ  
وقال كم أنهاك عن مثل ذا

وقال آخر في مليح حجام:

فقدًا على سَفكِ الدماءِ يواطِي  
منه اللحاظُ كليليةَ المشراطِ

كلفتُ بحجامِ تحكُّمِ طرفه  
أضحى كثيرَ الأشتراطِ ولم تكن

(١) أغن: غزال مصوت.

(٢) يعزف على الشبابة.

(٣) الشطر الثاني مختل الوزن.

## فصل: في الأغاز

في غزال:

اسم مَنْ قد هويته  
فإذا زالَ ريعُهُ  
ظاهراً في صروفه  
زال باقي حروفه

في كوز ققاع:

ومحبوس بلا ذنب جناهُ  
إذ أطلقته وتبَّ ارتفاعاً  
له في السجن ثوبٌ من رصاصي  
يقبَلُ فاك من فرح الخلاصي

في زر موزة:

مطيةً فارستها راجلُ  
واقفةً بالبابِ مزبولةً  
تحمُّله وهو لها حاملُ  
لا تشربُ الدهرَ ولا تأكلُ

وقال في طاحون:

ومسرعةً في سيرها طولَ دهرها  
وفي سيرها ما تقطعُ الأكلَ ساعةً  
وتأكلُ مع طولِ المدى وهي لا تشربُ  
ولا تلتُ ثمنٍ من ذراعٍ ولا أقربُ

في دواة:

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم  
وفي بطنها السكينُ والثدي رأسها  
لها لبنٌ ما لذَّ قطُّ لشاربٍ  
وأولادها مدخورةٌ للنوائبِ

في دواة أيضاً:

وما أمُّ يجامعُها بنوها  
كأنهم إذا ولجوا حشاها  
وليس عليهم تجبُّ الحدودُ  
أنعاصي في أماكنها رفودُ

في قلم:

وأهيفٌ مذبوحٍ على صدرٍ غيره  
تراهُ قصيراً كلما طأه عمرهُ  
يترجمُ عن ذي منطوقٍ وهو أبكمُ  
ويضحى بليغاً وهو لا يتكلمُ

وفيه أيضاً:

بصير بما يوحي إليه وما له  
كان ضميرَ القلبِ باخٍ بسرهِ  
لسانٌ ولا قلبٌ ولا هو سامعُ  
إليه إذا ما حركتَهُ الأصابعُ

وفيه أيضاً:

وأصفر عار أنحل السقمُ جسمهُ  
يشئتُ شملَ الخطبِ وهو جموعُ



به الأسد في الغابات وهو رضيع

حمى الجيش مفطوماً كما كان تختمي

وفيه أيضاً:

أعمى بصير دمعته جاري  
مجهتد في طاعة الباري

وفي نحو لو راعع ساجد  
ملازم الخمس لأوقاتها

في مرملة:

حزينة ما تراها قط تبتم  
تبكي دماء على ما سطر القلم

ممشوقة لذوات العز قد صنعت  
كأنها من صروف الدهر خاتمة

في كتاب:

بسر وذو الوجهين للسر يظهر  
فتسمها بالعين ما دمت تبصر

وفي أوجده لکنه غير بائع  
تناسيك بالأسرار أسرار وجهه

في سلطان حسن لابن أبي حجلة:

حسن الحروف يجود بالإحسان  
صحفت أحرفه بحسن يان

ما اسم مجب للقلوب لأنه  
تصحيقه أمسى حيباً كلما  
لو جاد لي يوماً برؤية وجهه

في شباة:

نزينها النضارة والشباب  
متبقة وليس لها نقاب  
أحاديث تلذ وتستطاب  
وليس لاسعاد ولا الريباب

وما صفراء شاحبة ولكن  
مكتبة وليس لها بنان  
تصيح لها إذا قبلت فاما  
ويحلو المدح والتثيب فيها

وفيها أيضاً:

تناعت عن الأهلين أسقمها بعد  
ولا حرج كلا ولا وجب الحد  
يلين إليها القلب لو أنه صلد

ومقروحة الأضغان مثلي شجيو  
تزوجها عشر وذاك محرم  
إذا ما وطها القوم تصرخ صرخة

وفيها أيضاً:

يزودها لثماً وينظرها شزرا  
إذا شئت في اليمن وأن شئت في اليسرى

متبقة مهما خلعت مع مجبها  
وتصيحها في كف حاملها قتل

في دملج:

وعندهن يوجد  
والقلب منه جلد

إلى النساء يلتجى  
الجسم منه فقة

في خلخال:

يئة بكلام قط في ساعة الضرب  
على أنه أضكى يدور على الكعب

أيا عجباً من صابر صامت ولم  
أقام ولم يرخ مكانا ثوى به

وفي شعر اللحية:

جميل على كل الملاح له حو  
وفي قلب هارون له الهلك والمحق

وذي عديد كالرمل سام محله  
يحاذر من موسى ويهرب باسمه

في التين:

ناعم اللبس وإن  
وهو في التصحيف ين

أي شيء لذ طعاما  
كيف لا يدو وضوحاً

في الموز:

تلقاء عند الناس موزونا  
واوا ونوناً صار موزونا

ما اسم لشيء حسن شكله  
تراه معدوداً فإن زدته

في حمزة:

أزرى بغصن البان لينة قده  
ويقلب عاشقه لشدة صده

من لي بمعتدل القوام مهفهف  
في فيه تصحيف اسمه ويخذه

وفيه أيضاً:

وطول دهري أخسى من تجيبه  
يدو وفي خده أيضاً وفي فيه

اسم الذي أنا أهواه وأعشقه  
تصحيفه في فؤادي دائماً أبداً

في ساقية:

أشامها تجري وليس لها رجل  
وليس لها ثدي وليس لها بعل

وجارية لولا الحوافر ما جرت  
وترضع أطفالاً ولا هي أنهم

وفيها أيضاً:

بلا ألم فيها ولا ضرب ضارب  
وما كان شق القوم إلا بواجب

وجارية تبكي إذا الليل جئها  
عليها رجال شقوا بعد حرقتهم

في زر وعروة:

وليس عليهما فيه جناح  
وفي أعناقهم ذلك النكاح

وما أخت يجامعها أخوها  
تري بجوازه الحكام طرا

في راوية<sup>(١)</sup>:

(١) إناء جلدي يوضع فيه الماء.

وإن شئت تسقيك من فرد يد  
وتتياهما واحد في العمد  
وفي ساعة يضعان الولد

وسوداء تشرب من رأسها  
ولون لها مثل لون أختها  
وتجبل في الوقت هي وأختها

في الشطرنج:

يحار فيها الذهن والفكر  
ثلاثة منها له شطر

يا ذا النهى ما اسم له حالة  
له حروف خمسة إنما

في فيل:

وهو ذو أربع تعالي الإله  
لم يكن عند جوعه يرعاه  
رمت عكسا يكون لي ثلثاه

أما اسم تربيته من ثلاث  
حيوان والقلب منه نبات  
فيك تصحيفه ولكن إذا ما

في جمع:

يلوح للناس عجب  
والعين منه في الذنب

ما طائر في قلبه  
مقارؤه في بطنه

في نار:

له طلعة تغني عن الشمس والقمر  
وليس له سنع وليس له بصير  
ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكز  
ويأكل ما يلقى من النبات والشجر  
والا فتم عنها وبكها لها عمز

وما اسم ثلاثي به النفع والضرر  
وليس له وجه وليس له قفا  
يمد لساناً يختشي الرمخ بأسه  
يموت إذا ما قمت تسقيه عابدا  
فيا قارىء الأبيات دونك شرحها

وفيها أيضاً:

لها الأشجار والحيوان قوت  
وإن أسقيتها ماء تموت

وأكله بغير فم ويطن  
إذا أطعمتها انعمت وعاشت

في يد الهاون:

مصعب القامة طول الزمان  
مفشل الرأس قوتي الجنان  
ويظهر الصفق بأعلى مكان

قل لي فما شيء يرى ناعماً  
أطول من شبر له حزة  
يسمخ في القعر له رنة

وفيه أيضاً:

أوسع ما فيه فمه  
يرفئه ويلكمه

خبروني أي شيء  
وابنه في بطنه

وقد علا صياحه

في خشخاش:

وما قبةً مبيئةً فوقَ شاهقِ  
وأولادها في بطنها في جماعه  
ويأخذها الطفلُ الصغيرُ بجهله

في كوز زير:

وذئ أذنٍ بلا سَفْعِ  
إذا استولى على صبِّ

في اسم علي:

اسم الذي أعشقه  
إن فاتتني أوله

في موسى للمصفي:

وما شيءٌ له حدٌّ وحدُّ  
وكلَّ حلقه من تحتِ رأسي

في حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى:

ما بلدةٌ بالشام قلبُ اسمها  
وثلثه إن زال من قلبه

وقال في سمرقند:

وما اسم سداسيٌّ إذا ما لمحتهُ  
له ثلثٌ يأتي به الموت فجأة  
وثلث رعاك الله يا صاحبي له  
وفي نصفه لما تحركتُ بعضهُ  
وفي نصفه الثاني إذا ما أخذتُهُ  
ففسر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجي

وقال في كمون:

يا أيها العطارُ أعربْ لنا  
تراه بالعين في يظنُّ

وقال في قالب الطوب:

وما أكل في قعدِ ألفَ لقمه

ولم يجد مَنْ يرحمه

لها علم يحكي الملاحه بالظرف  
يكونون ألقاً أو يزيدون عن ألف  
ويقلبها عنفاً على راحه الكف

له قلبٌ بلا لبِّ  
قلُّ ما شئت في الصبِّ

أزله في ناظره  
فإن لي في آخره

يلكم من يلامسه بحضه  
وهذا الرأسُ صارت تحت حلقه

تصحيفه أخرى بأرض العجم  
وجدته طيراً شجي النغم

ترى فيه أجزاء تلم وتشكرُ  
وثلث مع الكتاب يطوى ونشرُ  
على مد الأيام نشر معطرُ  
حديث شهى في الليالي يذكرُ  
إلى النارٍ للتخليل والعقد سكرُ  
فليس على ذي العقل لغزٌ معرُ

عن اسم شيء قل في سومك  
كما ترى بالقلب في نومك

ولقمتُه أضعافٍ أضعافٍ وزنه

إذا أنزلَ المأكولَ جَبِيهَ لم يُقْمِ      سوى لحظّةٍ أو لحظتين يبطنه

في العين:

وباسطة بلا عصب جناحا      وتسبق ما يطير ولا تطير

إذا أقمّتها الحجر اطمانت      وتجزع أن ياشرها الحرير

ويكفي من ذلك ما أشرت إليه، وما نهت من هذا الفنّ عليه، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فنّ الشعر القريض، وما فيه من الفنون المتقدّم ذكرها.

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار. والفنون السبعة المذكورة عند الناس، هي: الشعر القريض، والموشح، والدويب، والزجل، والكان وكان، والقوما، ومنهم من جعل الحماق من السبعة، وفي ذلك اختلاف. وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبداً، لا يغتفر اللحن فيها، وهي الشعر القريض، والموشح والدويب، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً، وهي الزجل والكان وكان، والقوما. منها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهي المواليا، وقيل لا يكون البيت من بعض ألفاظه معربة، وبعضها ملحونة فإن هذا من أقبح العيوب التي لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده، ويكون الملحون فيه ملحوناً، لا يدخله إلا الإعراب، وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلّي في ديوانه وسماه بالعاطل الحالي، المرخص الغالي، ولو بسطت المقال لا تسع المجال، وكثر القول، ولكن الاختصار يذهب الأوجال والحمد لله رب العالمين على كل حال.

### فصل: في بيان الفن الثاني وهو الموشح

لابن مبارك:

قد أنحل الجسم أسمر أكحل      وأوحل القلب فيه مذ حلّ

دور:

أميل له فلا يميل      يحول وعنه لا أحول

أقول إذا زادني النحول

أما حل عقد الصدود ينحل      ويرحل عن نجم المزحل

دور:

كم أبعدوكم آيت مكمد      ويعمد بهجره لأفقد

وأجهد لارتصاد من قد      تحمل والحاسدون رحل

تمحل والوعد منه ما حل

دور:

متوّج بالحسن هذا الأبلج      مديح عذاره البنفسج  
مفلح وطرفه ذا الأدهج      مكحيل وثغره منحل  
مخلخل بعنبر معجل

دور:

بزغم من يستحل ظلمي      ويرمي بحرته لنلمي  
وجمي من التزام سقمي      منحل وقد غدا مرحل  
فمن حلّ سفك دمي وما حل

دور:

قلاتي واشتط ذا القلاني      غزاتي بطرفه اليماني  
تراني أنشد لمن يراني      قد أنحل الجسم أسمر أكحل  
وأرحل القلب فيه مذ حل

لابن سناء الملك:

كللي يا سحب تيجان التريا بالحلي      واجعلي سوارك منعطف الجدول

دور:

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما      كلما أخفيت نجما أظهرت أنجما  
وهي ما تهطل إلا بالطللى والدماء

فاهطلي على قطوف الكرم كي تمتلي      واتقلي للبدن طعم الشهد والقرنفل

دور:

تغد كالكوكب الدرّي للمرتعد      يعتمد فيها المنجوسي بما يعتمد  
فاتند يا ساقى الراح بها واعتمده

وأمل لي حتى تراني عنك في معزل      قل لي فالزاح كالعشق إن يزد يقتل

دور:

لا أليم في شرب صهبا وفي عشق ريم      فالتعيم عيش جديد ومدام قديم  
لا أهييم إلا بهذين قسم يا نديم

واجل لي من أكوس صبرت من فوفل      الذلي من نكهة العنبر والمندل

دور:

خذهني واعطني كاسي مثل كأسك هني وأشقني على رضاب الفطن الملسن  
والهني يبعض ما صيخ من الألسن

لو تلى مدح سناه مع رشا أكحل لذ لي على سنا الصبياء والسلسل

دور:

أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت أصدرت بزورة المحبوب إذا بشرت  
أخرت ققلت للظلماء مذ قصرت

طولى يا ليلة الوصل ولا تبخلي وأسبلي سترك فالمحبوب في منزلي

دور:

من ظلم في دولة الحسن إذا ما حكّم فالألم يجول في باطنه والندم  
والقلم يكتب فيه عن لسان الأمام

من ولي في دولة الحسن ولم يعدل يعزى لألحاظ الرشا الأكحل

وله أيضاً:

ترى هل يشغني منك الغليل ويشغني من صبايته العليل

دور:

لقد أسرفت في هجري وصدي بلا سبب سوى كفي ووجدي  
وماذا في سلو عنك يجدي

خضاب الوجد ليس له نصول وأسياف الهوى فينا نصول

دور:

لئن شحيت عني بالسلام وطيفيك قد جفا لجفا المنام  
فقد جادت بأربعة سجام

جفون بالكا كادت تحول على خد أسف به النحول

دور:

لقد أرسلت في طي النسيم حديث هوى عن الوجد القديم  
فعدت وهي عاطرة الشميم

تخبر أن ظعنهم نزول بندار لا يلزم لها نزيل

دور:

تلقته الموالي والموالي      بألحاظ وزرق من نصال  
وأعطاف وسمر من عوالي

فكم بطل هناك وكم قتيل      بسيف من لوحظه قتيل

وله أيضاً:

شمس المجيا أم القمر      أم بارق الثغر يا بشر  
أم البها حقه الخفر      بطرز خديك مطر

سلسلة:

قم تباها بما تباها ولا تلاها

قفلة:

فكل أحببنا حضروا      والعود يشجيك والوتر

الدور:

أفديك بالسمع والبصر      يا أهيف وصله وطري  
بدر بدا في دجى الشعر      قد لذقي حبه سهري

سلسلة:

إذا تجلى وقد تحلى عليك يجلى

قفلة:

تجير في وصفه الفكر      والعقل والسمع والنظر

الدور:

فهاك حلت عن الطرب      وعن سلاف ابنة العنب  
إذا سقاها مع الفرب      بدر بأفق الجمال ربي

سلسلة:

في ظل بان على المثاني<sup>(١)</sup> من غير ثاني

قفلة:

إلا الندامى إذا سكروا      والروض والماء والشجر

(١) المثاني: ثناها الوادي.



وقال رحمه الله تعالى:

وانسيم السحر هبل لك خبير  
فارقوني ولم أفض الوطر  
قلت يا قلب صبرا ما صبر  
ما كتمت الهوى إلا ظهر

دور:

ليش تمنع وصالك يا حبيب  
راقب الله وراجع من قريب  
لست ألقى لدائي من طيب  
لو رأى حالي العاذل عنر

دور:

يا قمر فوق غصن من نقا  
يا رعى الله لويلات اللقا  
ليلة السعد ما فيها شقا  
صفوها لا يمازجه كدر

غيره:

حملت مذ سارت الحمول  
وجدا مضى العمر وهو باقي

دور:

ساروا وسار الفؤاد لكن  
جمي مقيم على المساكن  
وعني الحب صار ظاعن

مالي إلى وصله وصول  
لو سرت بالبرق والبراق

دور:

وغادة كالقضيبي قدا  
والورد والياسمين خدنا

كأنها البلر إذا تبتي

وشعرها أسود طويل  
كأنه ليلة الفراق

(١) عريب: أحدهم أو هي «عريب».

(٢) عنا: ذل وخضوع.

(٣) الضنى: السقم.

دور:

هوننا أتنا تميّل بيلا      سحابة كالسحاب ذيلا

فقلت شمس تزور ليلا

وما درى كاشح عدول      فذاك من أعجب اتفاق

دور:

وسدتها ساعدي لعدي      ويست أرعى رياض وردي

وخمر ريق كلوب شهد

لو ذاقها مدنف عليل      لعاش والروح في التراقي

دور:

لما رأنتي أذوب سقما      ومن ورد النرضاب أظما

فالت كلمت الخدود لثما

ما يشغني منك ذا الغليل      بغير نومي وشيل ساقبي

## فصل: في الفن الثالث وهو الدوبيت

لسيدي شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى:

أهوى قمر له المعاني رِق      من صبح جينه أضاء الشرق

أتدري بالله ما يقول البرق      ما بين ثناياه وبين فرق<sup>(١)</sup>

وقال أيضاً:

أهوى رشاً كل الأسي لي بعثا      مدعائنه تصبري ما لبنا

ناديت وقد فكرت في خلقته      سبحاتك ما خلقت هذا عبثا

وقال أيضاً:

عرج بطولج<sup>(٢)</sup> فلي تم هوى      وأذكر جبر الغرام واسنده إلي

واقصص قصصي عليهم وابك علي      قل مات ولم يحظ من الوصل بشي

وقال أيضاً:

(١) فرق: أي لا فرق بين أسنانه والسنّ.

(٢) طولج: موضع.

يا مؤنس وحدتي إذا الليل هدا  
لا أسفر بعد ذلك صبح أبدا

روحي لك يا زائراً في الليل فدا  
إن كان فراقنا مع الصبح بدا

وقال آخر:

ساعات وصالك كلها أفراح  
ماتوا كمدا وبالهرى ما باحوا

يا شمس ضحى جينه وضاح  
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم

وقال آخر:

كالبدر يجلّ حسنه عن وصف  
يا رب عسى تكون واو العطف<sup>(١)</sup>

أهواه مهفهفا تقيّل الردف  
ما أحس واو صدغه حين بدت

وقال التلمغري:

ما الصبر على عبادكم عادته  
لا كان فراقكم ولا ساعته

قلبي ذهبت لبعدكم راحته  
بتم فرثى لما به شامته

وقال المنشد:

لا أذكر بعد خالقي إلاه  
مولاي خليفتي عليك الله

إحسانك طول الدهر لا أنساه  
إن أبعذك الزمان عني حدا

وقال آخر:

فاذكر ولهي وما جناه البعد  
يا ليتهم عادوا وعاد الصد

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجد  
وقد كنت أناسي الصّد حتى رحلوا

## فصل: في الفن الرابع وهو الزجل

حمل للغباري:

قل لغزلان وادي مصر والشام يقصر وإذا الفار  
لهم اجمل حشاشتي مرعى وفؤادي قفار

دور:

مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود

وذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود  
وذا بدر الكمال قد ظهر في الليل وذا شمس النهار

وذا أبيض وذا أحمر وذا ملبح أسمر لو عيون نجل سود  
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقد الأغصان جهاز

دور:

(١) واو العطف: الجمع بيني وبينه.

تدر بالله أيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود

قد سمينا بصحة الأبدان واعتدال القدود  
وتخضب نفاحنا الأحمر فوق بياض الخدود  
وأنتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار  
أنتم التفاح وما تقصد منكم إلا الخيار

دور:

وملاح مصر قالت إحنا أصحاب الوجوه الملاح

والحلاوة وطيبة الأخلاق في الخلائق مباح  
إحنا أقمار وإحنا بدور الليل وشموس الصباح  
وفي الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حد صار  
وورثنا الحسن من يوسف واكسبنا الفخار

دور:

حسن حبي الفراجي فرحه بدر في السعد لاح

فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح  
كلما أعمل على رضاه يفسد بجفاه الصلاح  
ومن البيضة قد خرج نافر رد جفني بنار  
وجفاني وخذ بياض جسمي خلطوا بالصفار

دور:

وقع الطل خط بالأبيض في اخضرار الطروس

قم يا ساتي على بساط زهري تحت ظلّ الغروس  
هاتها شمس راح شمول قرقف بكر عذار عروس  
عروس لها صفو النسيم ولطف اللمي وابتهاج الثمار  
قد جلوها في كأس زجاج أبيض فاكسي باحمرار

دور:

خمر فيه سرّ لو جعل أشياف ردّ الأعمى بصير

أقطع القطف أسود يحاكي الليل شفق أحمر يصير  
يا ترى ذا السرّ في كرمه أو يكون في العصير  
وترى النور دا عليه يلمح ذاك من أيش استنار  
وكذا الكأس يحاكي يا سمير من كساء جلتار

دور:

فهو عطار عنده شراب هندي ويراني جفاه

كلّ من مصّ م لسانو ريقو يلتقي فيه شفاه  
ورد خلدو وحبتو سودا شبه خال في صفاه  
جبل آس عارضوا أسر قلبي والكبار والصفار  
في المحب غاروا على حسنو وكل من حبّ غار

دور:

دوروني الملاح على كمي ونصوا نصوص

بلا دعوى التّف لفّ اليسير في هواهم خصوص  
وعليا صار نقشهم قاعد مثل نقش الفصوص  
والبساط انطوى حين ما رأوا حلف له همه ولو اصطبار  
قمروني في عشق هذا القمر والمحبة قمار

دور:

لحبيبي نغر من جوهر والشفيفات عقيق

وعوارض ما ضرّهم عارض غير نبات الشقيق  
وخدود ورد من غير نمش ووصفنا عن حقيق

يحرس الورد خال عنبر تحت أهذاب غزار  
في صفاء وجهه أنزه طرفي عند خلع العذار  
دور:

في رياض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف  
كيف لا ترقص والنسيم بها موصول ورقها دفوف  
والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار  
واعجب من النهر إذا صفق لو من الموج كصوف  
باختلاف الألحان سحر في الروض صاح على عود طار  
دور:

أشرف الخلق بين الإسلام والهدى والضلال  
والشرائع حق والباطل والحرام والحلال  
ولو أن النبات جميعه أقلام والمداد والبحار  
نبي من يبين أصابعه تحقيق نبع المار الزلال  
والخلائق تكتب مديحو تاه كل كاتب وحرار  
دور:

أستاذ في الفن ما ينطاق ذاق عده المتون  
ما يعيوا في الفن غير ناقص عقل زايد جنون  
باتضعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار  
شيخ مصدر ليبس قيم في جميع الفنون  
وأهل الفنون تجري وما تلحق للغباري غبار  
دور:

\* \* \*

غيره لناصر الغيطي:

كتر روضي طالبوا يسعد يا خليع قم في دجى الأسحار  
تلتقي در الندى يرهج فوق فصوص غرائب النوار  
دور:

كتر روضي نزهة الطالب جوهر وبين الندى يرهج  
ولجين الما يتكسر يا خليع هيا تعا اتفرج  
وامش في عرض الرياض وارتع بين أغصان وما وأطيار  
بين عنابر تلتقي الخلع كل حد مع إلقو يدرج  
فوق بساط زمرد وقضبان كل ورده أحكت لنا دينار  
دور:

وترى الياسمين بحال فضه ضريت لأهل التزه صلبان  
والشحارير لابسين أسود وقلاتس كتهم رهبان  
وانجلت بين القسوس في ألحان وعلينا دارها الخمار  
وكذا الكتان وهو أصفر بعماتم زرق للناس بان  
والقطيع الراهبي يحكي الشماس لابس الزنار  
دور:

الفراق نار والوصال جنة والخلائق بعضهم يشق  
دا حبيب قلبو عليه راضي ودا محبوبو عليه يشق  
والمليح عندي وأنا مطمئن وسط روضا زهرها معطار  
ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشقق  
في نعيم مع حور ومع ولدان والعذول مسكين صبح في نار  
دور:

وعمل في الروض سماع باكر بين الأغصان والزهور أنغام

والنسيم شبب والغدير صفق والخليع من كثر وجدو هام  
والعصافير شيخهم زيق لو طريق بين الأزاهر طار  
والنخيل بأكامها ترقص وأقبل الريحان بحال أعجام  
والبلبل بالغنا يشجي فكأنو ناي أو مزمار

\* \* \*

دور ناصر الغيطي:

يا خلايا صحبت إنسان أنكر الصحبة وعاداني

وبغضني حين بقيت مسمى والإله بالفضل أسماني  
والشجيع الشاطر المذكور في جميع الأرض لو تذكار  
في بلاد قبلي وأرض الشام يشكروني ساير أقراني  
والبلط يوقع لو تعلق ما يحصل شيء مع الشطار

\* \* \*

للغباري:

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد  
لو عدل عشت بو سرور ويكون الرشيد

دور:

أقلع القلب في هوى العشاق والدموع في انحدار

ويحور الهوى إذا هاجت ليس لها من قرار  
صحت لما وحلت يا محبوب بحر عشقك يزيد  
كنت أحسب قلبي معور بس غرتو ذا البحار  
خفت فيه الغرق فقال أفرح من غرق مات شهيد

دور:

أنا يوم في الغبوق باتفرج على شط الغدير

إذ رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير  
قلت يا عين إن غرك الصياد بالجمال المصيد  
نظرت مقلتي إلى منظر ما لحسنو نظير  
يوقعك في فخاخ شباك عشقو وكراكي يصيد

دور:

من نحو جديد حبيب قلبي يوم صدقتو صدف

قلت لين يا قاسي لمن دموعو سال وحالو وقف  
قال علينا يكتب ومن يسمع ذا الكلام يستفيد  
دار وقال لي ما الاسم بالانجيل قلت اسمي خلف  
في الحقيقة من لا يكون داود ما يلين لو الحديد

دور:

لك عوارض في الخد مرقومه ليس لها من مثال

وجفاك صار حماق وباب وصلك كان وكان يا غزال  
ولك ألفاظ صارت مواليا بالزجل والنشيد  
وأنت دويت موشح القاما يا عزيز الدلال  
وشعرك متوج القاما وأنت بيت القصيد

دور:

عن محمر شرابنا ضمنا ونفطر بالشمار

حين وجدنا سفرجل البستان يذهب الاصفرار  
في ربيع حين رأى الثمر قاعد فيه تعاليق عقيد  
وغنا الطير به الجماد يطرب وكذا الجلنار  
حسب الروض النص من شعبان صار يقيد فيه وقيد  
دور:

من لهيب مدمعي جرى الطوفان للهب ما طفي  
وأنا هوى الغباري في العشاق ما جرى لي كفى  
حين عليا بالصدّ والهجران والبعاد والجفا  
جار حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجرد أو يزيد  
لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد  
غيره:

حين سكنت القلب يا عيسى أمسى من بعدك الحزين فرحان  
وتقلّس بك ولكن ما جرت فيه يا ابن عين سلوان

دور:

عارضو لم عشق خدو غرت من وجدني بقيت حاير  
جيت إلى طرفو وناديت لو أحرسو وكون عليه ناظر  
بعد حين نظرت في خدو التقي العارض وهو داير  
وعليه قد دب بالسرقة جيت لطرفو قلت يا كسلان  
هكذا في عادة الحراس قال لي اعذرني أنا نعبان  
دور:

بدر شعبان منيتي لما في بروج السعد لاح نجومو  
فقلت لو أنضي بغيض دمعي أطلقوا واجراه على رسمو  
قلت لو دام الله إطلاقتك فالحزين قلبو المشوم قسمو  
ايش قد أذنب حين قطرتوا دا بمغلظ قول بالبهتان  
قالني صوم عن الوصال ناديت ليش أصوم يا بدر في شعبان  
دور:

حين تدبح احمرار خدو باخضرار العارض أسباني  
ضحك فابيض واتبسم واسوداد شعري وأبكاني  
وحين أضحيت باصفار لوني أشعت أغبر في هواه عاني  
قال لي لونك قد صبح حايل وقد أبصر مدمعي طوفان  
ذقت تبريح الغرام ناديت في هواك ذقت الهوان ألوان  
دور:

قلت لو حين عني تخلف لله كن لي يا رشيد مهدي  
قد تلون دمعي من بعدك وتجري اليوم على خدي  
دار إلى إنسان مقلتي قال لو أنت ما عنك نظر بعدي  
ما ترى ما قد جرى منك على الخلود قال يا فتان  
جرى الماء تحت من بعدك راقب الله قيا يا إنسان  
دور:

ذا الغزال النافر الأنسي للغزاة قد أعار النور

كسر قلبي كبير جفتو فاعجبوا للكاسر المكسور  
وبخمر الدن قد عريد وادعى أنني أنا المخمور  
صحت يا قلبي صفا وردك أنت ما بين النقا والبان  
وبتسم لي عن نقا نغرو وخطر والبشر قيا بان

للصفي الحلبي .

أنا يا قبلة الكرام  
الله يعطيك فوق ذا المقام  
زينة المال والبنين  
ويعيدك على السنين

دور:

أنت يا شاما بين الأنام الله يحرس شمايلك

وزيدك بالدوام كي نعيش في فواضلك  
ونهنك لكل عام والخلاص تقول آمين  
ما يظوي ذكر الكرام لما تشر فضائلك  
قد بقينا بك في أمان الله يحييك طول السنين

دور:

ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم

كل من جا ليسالك ليس تقول له سوى نعم  
أنت في الجود كالغمام وسمك فوق ماردين  
أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم  
در غيثك في انسجام عم كل السائلين

دور:

لا عدنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا

حتى تقضي ذا الصيام ولبه باقي السنين  
وغيره:  
كل ليلة وكل يوم ينشر الذكر والثنا  
الله يحييك من خير قوم بالغ القصد والمعنى  
وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

خال عبد الرحيم نقطة جبر من غير قاف  
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم  
مليح ما رأيت مثله ظا ويا ويا  
ذقت من صدود حبي غين وصاد وصاد  
النوم من جفون عيني خا ولام وصاد  
قلت يوم لمن كان لي سين ونون ودال  
ولا تهجر العشاق با وعين ودال  
ولام وميم ثغر معشوقي الفتان نون وعين وعين وميم  
دا للي قد هواه قلبي صاد ويا ويا  
ما أحلاه عنلما يلبي قاف ويا ويا  
ولما رأيت صبري نون وقاف وصاد  
وأصبحت وجود فكري عين ودال وميم  
أهدل في النبي صبر ونون وفا ودال  
ما أفلح قط يا ناس من ظا ولام وميم

جمل في الألفاظ المطلع في العين

وما طير أكلو الحجر يا كرام  
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام  
وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح  
يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

دور في السراج:

وما بحر ما هو ما وفي الليل يزيد  
وفيه شيء صفات حية بلا وكر استفيد  
ويخفى ويظهر كل يوم عن حقيق  
بلا شك ينظره القريب والبعيد



تشوفو يضيء بين الوجوه الضبايح  
قتيل الهوى بين الربا والبطاح

يغيب في النهار لكن إذا جا الظلام  
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام

دور في جوزة الكتافة:

وما مثل ذاك فسر لنا يا خير  
وتحمل وتوضع كل يوم في السعير  
يشيلو أودها الكبير والصغير  
يجادي سراها في المجي والروح

وما هي التي تركب على ستين ألف  
مليحة وقصفة وتلبس ترف  
لها عشرة أعوان حالهم مختلف  
لها فحل يخدمها عليه السلام

وأكثر تعبها في ليالي الصيام

ولا يعتلم ضوء الظلام والضيا  
وميت وهو يحيي أصول الحيا  
ولا حدّ يعوض موضعه لو عيا  
مكابد عجاجه في المسا والصباح

دور في الغريال:  
وما هو الذي يا سعد كله عيون  
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفتون  
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون  
وكم من رقيص في صنعه باهتمام

ويحتاج له الناس كل يوم في الدوام

### فصل: في الفن الخامس في المواليا

وله وزن واحد وأربع قوافي، فمن تلك الأربعة واحد لصفي الدين الحلبي:

والمخصب الريح والأمواه قد غارت  
والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت  
هواطل السحب من كفيك قد غارت

وقال أيضاً:

ومرشفيك من رشف منها سلاسلها  
كم من أسود ضواري في سلاسلها

سل مقلتيك الكحال عمن سلاسلها  
وعارضيك التي ملّت سلاسلها

وقال آخر:

في ظلّ بستان حاقف بالتمر نخلو  
ومن كلام الأعادي قط ما نخلو

قد أوعدونا القضايا أنا نخلو  
والطلّ من فوقنا قد بلنا نخلو

وقال آخر:

ومن أمرنا بمسجدها وجامعها  
كان افتتن في محاسنها وجامعها

قسماً وبالله مفرّقتها وجامعها  
لو حل مع بنيتي عايد وجامعها

ومن اثنين واثنين قال آخر:

أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو

قوم اسقني ما تبقى في أباريقو

مع شادن كلما دارت سفاريقو  
وقال:

البارجة ريت بعيني في الدجاجيين  
ناديتهم فين كتسم يا خفاجيين  
وقال:

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك  
يكفيك بهجر تكدر قلب من حبك  
غيره خمري عاطل:

كاس الطلا لطلاها طال لما سار  
مدام لو طعم كله حلو ما هو مر  
غيره حربي:

لك يا امام الوغى في كل موقع حرب  
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب  
الصفى الحلي في المدح:

أغنت وأنت كفوفك في الندى والحرب  
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب  
وقال أيضاً:

من قال جودة كفوفك والحيثا مثلين  
ما جدت إلا وثغرك مبتسم يا زين  
وقال في التهته:

رأيت ذا العيد أول يوم في عصرك  
وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك  
في المعاتبه:

عني تسليت وأسياف الجفا سليت  
لما تمليت بالأعمال لي مليت  
وقال أيضاً:

يا قلب إن غلدروا فاغدر وإن خانوا  
فلن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا  
وقال آخر:

حلف علياً جكاره أن يقاطعني

سقى المداما وإن عزت سقى ريقو

اثنين مثل البدوره في الدجى جيين  
قالوا لمن قد وعدنا في الخفاجيين

وارحم خضوعي وخف في قتلتي ريك  
ما ظن في الناس أقى قلب من قلبك

وصار لما حوزى حمزاه مكلل در  
ما حل مملوك إلا صار ملك حر

سماح يطرب له السامع وينفي الكرب  
سيوف تغنى وكفك لا يمل الضرب

في القرب والبعد في شرقها والغرب  
ذا الكرب فرج وهذا وقد رمى في الكرب

أخطأ القياس وفي قوله جمع ضدين  
وذاك ما جاد إلا وهو باكي العين

وريت ذا اليوم مع ذا الشهر في نصرك  
والكل بالكل أول مبتدا عمرك

ومذ توليت عن طرق الوفا وليت  
إذا تخليت تعرف قدر من خليت

فخن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانوا  
وكن لي معاهم كيفما كانوا

وصدّ عني وأقسم ما يطاوعني

كم ذا يصدّ وكم يرجع يصدّ عني  
وقال آخر هجواً:

قطع قفا ابن أخت خالك وابن أخو عمك  
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك

وقال آخر:

إن ردت تسلّم بطول الدهر ما تبرح  
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح

وقال آخر:

إن كنت عاقل وريك بالتقى برّك  
وإن تعدّى حسودك والحسد ضرّك

وقال آخر:

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر  
واستعمل الصبر دائم للعدا تهر

### فصل: في الفن السادس كان وكان

وله وزن واحد وقافية. ولكن الشعر الأول من البيت أطول من الثاني فمته هذه الوعظيات:

يا قاسي القلب مالك	تسمع وما عندك خبر	ومن حرارة وعظي	قد لانت الأحجار
أفنيّت مالك وحالك	في كلّ ما لا يتفكك	ليتك عليّ ذي الحالة	تقلع عن الإصرار
تحضّر ولكن قلبك	غائب وذهنك مشتغل	فكيف يا متخلف	تحسب من الحضار
ويحك تنبه فتى	وافهم مقالي واستمع	ففي المجالس محاسن	تحجب عن الأبصار
يحصى دقائق فعلك	وغمز لحظتك يعلمه	وكيف تعزب عنه	غوامض الأسرار
تلوت قولتي ونصحي	لمن تدبر واستمع	ما في النصيحة فضيحة	كلا ولا وإنكار

وقال أيضاً:

صرّح بذكر المحبة ما في المعنى فائدة  
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر  
من أين للبدر حسن يحيكه أو شمس الضحى  
إن غبت فهو أنيسي  
وإن شرّبت مدامي  
فمنه روحسي وراحسي  
وفيه عزي وذلي  
قولوا لمن يلحانسي

وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه  
أنا عاشق لحيب كلّ المعاني فيه  
حاشا لذكّ المحيا من مشبه يحكيه  
وإن حضرت نديمي  
فالكأس هو ساقيه  
إذا سكّرت وراحتسي  
بمهجّتي أندييه  
في الحب قصر واعتبر

قد حار وصفني فيه

وقمت حتى أنصب شرك  
يفرح الصيد  
لو ردت مثله ما حصل  
وأنا عليه معتاد  
لبرج غيري ما عرف  
جينا على ميعاد  
يجيء ويدخل قصوري  
خائف عليه يصاد

أمر من طعم الهوى  
على الذي يهواه  
حال الجلادة والقوى  
على أليم جفاه  
لو لكون وطعم وريحة  
وما أقل وفاه  
وكل ما أحسن لو يسيء  
ما كنت قط أراه

وهم نزول بخاطري  
في سائر الأوقات  
وأنسكم في خاطري  
والعين في ظلمات  
وما بقي فيا رمق  
من بعدكم هيات  
يلوح كالشبح الخفي  
وأنا مع الأموات  
والقلب يتبع ركبكم  
من جملة التيمات  
يقول لي من فرحته  
وتسكب العبرات

هذا الذي قد عشقته

الصفحة الحلبي:

شاهدت في الليل طيري  
ما كل صيد يحصل  
طيري الذي كان إلفي  
وهو عليّ معزود  
قد كان شرطي وخلقني  
كأننا في الصحبة  
من قلبي ما أبصص له  
وأنا أرصده في مطاره

وقال آخر:

ما ذقت عمري جرعة  
الله يصبّر قلبي  
الناس تعلم مني  
وما أطيق التجلّد  
لي حبّ مثل الخوخة  
ما أكثر مغابن حبيبي  
أنا عزّتو حظي  
لو كنت أعشق ظلي

وله في الفراقيات:

يا سادة هجروني  
لا أوحش الله منكم  
أوحشتهم العيون مني  
والقلب في نور منكم  
قد انتهى الصبر مني  
هيات أني أحيّا  
لم يبق غير خيالي  
أعدّ بين الأحيّا  
ودعتموني وسرتهم  
ايش ضر لو كان جسمي  
ما مرّ ما ريت ضلّي  
هنا تشقّ المراير

لو لم أسلي روعي	وأرض نفسي بالمنى
لكان قلبي تقطع	من بمدكم حمرات
وقفت لما رحلتكم	حيران بين أظفانكم
أخض جناح المذلة	وأرفح الأصوات
طول الليل أسامر	كني أريد الكيمياء
أقطر السمع مني	وأحد الزفران
ما أطول ليالي جفاكم	ساعتها مثل السنة
وما أقصر أيام وصلي	كأنها ساعات
ما لي أرى حسناتي	بالسيئات تبدلت
وسيئات الأعادي	اتبذلت حسنات
خالتموني وعمري	ما زلت أتبع أمركم
كذا العيب تدابع	أوامر السادات
أسكت وأصبر عنكمو	يفعل الله ما يشاء
والدهر من عاداته	يقليب الحنات

### فصل: في الفن السابع في القوما

قيل: أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر، والصحيح أنه مخترع من قبله، لا وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر في نظم القوما، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه فتعذر عليه ذلك فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق فأصغى الخليفة إليه وطرب له فكان أول ما قاله قوله:

يا سيد السادات	لك بالكرم عادات
أنا بنى ابن نقطة	تعيش أبوسا مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفي ما كان لأبيه.  
ومنها للصفى الحلبي:

من كان يهوى البدر	ووصل يبيض الخدور
باليبيض والصفير يسخو	وقد جلس في الصدر
من حب يبيض الخدور	ورام لزوم الصدر
يسمح وإلا فبقي	من بينهم مهذور
كم بين سجع الخدور	من عاشق مصدور
يرعى الكواكب تعلقو	يرى جمال البدر
بين الحلل والخدور	وجسوه مثل البدر

وغروبها في الصدور  
بين الظبا والبدور  
خيامهم والحدود  
مثل الكواكب تدور  
يقضي بضيق الصدور  
وأنا عليكم أذور  
من بينهم مهذور

إشراقها في المعاجز  
قد كنت فوق الصدور  
فصرت أحمد من أبصر  
نوائب المقذور  
من بعد طيب الخواطر  
غيري يلازم الصدور  
وأصطلي الصد وأنا

وقال أيضاً:

يريد جلد صبور  
يقى من أهل القبور  
يحظى برفع التور  
يمحي من التور  
أموال مثل البحور  
ولذاتهم والحدور  
وفي العطا لا تجور  
قلوب مثل الصخور  
من عاشق مغذور  
دموعها وتدور  
هو في الهوى معذور  
قصده ويوفي النذور  
ولا تبيت مغرور  
لأجفان عينك دروز  
كم بينها معذور  
على سواد الشعور  
في حبّ يفض الثغور  
مدامعه ما تغور  
كالظبي أنس تغور  
إيش ما عمل مغفور

حال الهوى مخبور  
يصون سوره وإلا  
من كان هواء مستور  
ومن هتك سرّ جو  
أبذل لبيض النحور  
إن أردت تملك وتظفر  
قم فابذل الخضور  
تريد هنيء المجبة  
كم حول تلك الخذور  
مثل الدواليب تجزي  
من يركب المحذور  
يظفر بحبه ويبلغ  
كن بالهوى مسرور  
واجعل تراب أعتابهم  
طرق المجبة وعور  
من فتك يفض السوالف  
كم عاشق مذعور  
يفار قلبه ولكن  
كم بينهم يعفور  
من أهل بلد فديته

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء في رمضان:

فانتم وجدك سعيد  
بكل صنوم ومعيد

لا زال سعيدك جديد  
ولا برحمت مهنا

في الدهر أنت الفريد  
والخلق شعير متح  
يا من جنابه شديد  
ومن يلاقني الشدايد  
لا زلت في تأييد  
ولا برحمت مهنا  
نحن لذكرك نشيد  
ونبعث أوصاف مدحك  
ظللك علينا مديد  
وكم غمرت بفضلك  
لا زلت في كل عيد  
عمرك طويل وقدرك  
لا زال قدرك مجيد  
ولا برحمت موقى  
ما زال برك يزيد  
وما برح جودك فك  
لا زال برك مزيد  
ولا عدنا نوالك

ومما قيل في فن الحمام:

أنا ما عبوري الحمام  
إلا لسمع جاري  
وديبك المجاري تجري  
تقول الأنعام في الحمام

وقال آخر:

نرى كل من نعشقر  
فاسلاه واترك هواه  
وإن زاد علي عشيقر  
تركوا ولو كان يحيى  
علينا يقيم أنفسه  
وسد الطريق خلفه  
وزاد بي الهوى والذل  
لأهل القبور الكل

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة، وذكرت منها ما تبهج به النفوس، وتقر به العيون، واختصرت ذلك إلى الغاية، فجاء بتوفيق الله في الحسن نهاية، وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه والمزيد من برّه ونعمه وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثالث والسبعون: في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

### الفصل الأول: في النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَانكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثَىٰ وِثْلَ خُبْرٍ﴾<sup>(١)</sup> الآية وقال تعالى: ﴿وَانكُحُوا الْاَيَامِي  
مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ  
فِي أَنْفُسِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> الآية وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر،  
وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»<sup>(٤)</sup> وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن  
عواد عندكم». وقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «سوداء  
ولود، خير من حسناء عقيم». وقال رسول الله ﷺ: «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً، وأرخصهن مهراً».

فينبغي للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب في ذات الدين، وأن يختار الشرف والحسب. كما حكي أن نوح بن  
مريم قاضي مرو أراد أن يزوج ابته فاستشار جاراً له مجوسياً فقال: سبحان الله الناس يستغنونك وأنت تستغني. قال  
لا بد أن تشير علي. قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال، ورئيس القوم قيصر كان يختار الجمال، والعرب كانت  
تختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين. فانظر أنت بأيهم تقتدي. وقال رجل للحسن: إن لي ابنة  
فمن ترى أن أزوجه لها. قال: زوجه ممن يتقي الله عز وجل، فإن أحبها أكرمها، وأن أبغضها لم يظلمها. وقيل لرجل  
من الحكماء: فلان يخطب فلانة فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها. ويستحب البكر  
لقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فانهن أطيب أفواهاً وأنتق أرحاماً»<sup>(٥)</sup> وقالوا: أشهى المطي ما لم يركب، وأحب اللآلئ ما  
لم يقب، وأنشد بعضهم:

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم  
أشهى المطي إلي ما لم يُركب

- (١) سورة: النساء، الآية: ٣.
- (٢) سورة: النور، الآية: ٣٢.
- (٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٥.
- (٤) وجاء: حفظ وحماية.
- (٥) أنتق أرحاماً: أكثر أولاداً.



كَمْ بَيْنَ حَبَّةٍ لَوْلُوٍ مَضْرُوبَةٍ  
نُظِّمَتْ وَحَبَّةٍ لَوْلُوٍ لَمْ تُنْقَبِ  
فَأَجَابَتْهُ امْرَأَةٌ:

إِنَّ الْمَعْلِيَّةَ لَا يَلْدُ رَكْوِيَّهَا  
وَالدُّ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابُهُ  
حَتَّى تَذَلَّ بِالزَّمَامِ وَتُرْجَبَا  
حَتَّى يُوْلَفَ بِالنِّظَامِ وَيُنْقَبَا

قال خالد بن صفوان:

عَلَيْكَ إِذَا مَا كُنْتَ فِي النَّاسِ نَاكِحاً  
بِذَاتِ الشَّيْبِ الْغَرِّ وَالْأَعْيُنِ النَّجْلِ

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام في الترويح، فقال له: سل سليمان وأخبرني بجوابه. فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راجياً قصبة. فسأله. فقال: عليك بالذهب الأحمر، أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضر بك، فلم يفهم الرجل ذلك فقال له داود عليه الصلاة والسلام: «الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاء الثيب الشابة ومن وراءهما كالفرس الجموح، وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم» وقال ﷺ: «انظر في أي شيء تضع ولدك، فإن العرق دساس» وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء» وأنشدوا فيه:

إِذَا تَزَوَّجْتَ فَكُنْ حَاذِقاً  
وَأَسْأَلُ عَنِ الْفَصْنِ وَعَنْ مَنِيهِ  
وَأَوَّلُ خَبَثِ الْمَاءِ خَبَثُ تَرَابِهِ  
وَأَوَّلُ خَبَثِ الْقَوْمِ خَبَثُ الْمَنَاكِحِ

وقال بعضهم:

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: قال: «لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدي». وقيل إن جعفر بن سليمان بن علي عاب يوماً على أولاده وأنهم ليسوا كما يجب فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة، وإمام الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ثم تريد أن يتجنبن، وإنما نحن كصاحبات الحجاز هلا فعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها فزوجها منك، وأنشدوا:

صَفَاتٌ مَنْ يَسْتَحِبُّ الشَّرْعَ خَطْبَتُهَا  
صَيِّئَةٌ ذَاتُ دَيْبِنٍ زَانَةٌ أَدْبُ  
بِكْرٌ وَلَوْ دُ حَكَّتْ فِي نَفْسِهَا الْقَمْرَا  
غَرِيْبَةٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ خَاطِبِهَا  
تِلْكَ الصَّفَاتُ الَّتِي أَجْلُو لِمَنْ نَظَرَا  
فِيهَا أَحَادِيثُ جَاءَتْ وَهِيَ ثَابِتَةٌ  
أَحَاطَ عِلْمًا بِهَا مَنْ فِي الْعُلُومِ قَرَا

وقال آخر:

مَطِيَّاتُ السَّرُورِ فَوَيْقُ عَشْرِ  
فَإِنَّ جِزْتَ الْمَسِيرَ فَيَسِّرْ قَلِيلاً  
إِلَى الْعَشْرِينَ ثُمَّ قِفِ الْمَطَايَا  
وَبِنْتُ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الرِّزَايَا<sup>(١)</sup>

وقال آخر:

فِيَاكَ إِيَّاكَ الْعَجُوزُ وَوِطْأُهَا  
فَمَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ سَمِ الْأَرَاقِمِ<sup>(٢)</sup>

(١) الرزايا: المصائب.

(٢) الأرقام: سم الأفاعي.

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى عشرتها، ولا تقرّ العيون برؤيتها. وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفهية تهدمه. وروي أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وعنصر مضر، وجعلنا حصنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به رجل من فريش إلا رجح به برأ وفضلاً وكرماً ومجداً ونبلاً، فإن كان في المال قلّ فالمال ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وأجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما خطب عمر بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيباني ابته أم إياس وأجابته إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أي بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فكوني له أمة ليكون لك عبداً، واخفظي لي خصلاً عشراً يكر لك ذخراً، فأما الأولى والثانية فالرضا والقناعة، وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابع فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه وأنه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه فإن شدة الجوع ملهبة وتنغيض النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة فالإحراز لما له والارعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشر فلا تمصي له أمراً ولا تنشي له سرّاً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أنشيت سرّه لم تأمني غدره، وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذ كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. فقبلت وصية أمها فأنجبت له الحارث بن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر.

وعن الهشم بن عدي الطائي عن الشعبي قال: لقيني شريح فقال لي: يا شعبي عليك بنساء بني تميم فإني رأيت لهن عقولاً، فقلت وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهراً فمررت بدورهن وإذا أنا بمعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري فعدلت إليها واستسقيت وما بي عطش. فقال لي: أي الشراب أحب إليك؟ قلت ما تيسر. قالت: ويحك يا جارية اتّيه بلين فإني أظنّ الرجل غريباً، فقلت للمعجوز ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت هي زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة، قلت هي فارغة أم مشغولة، قالت: بل فارغة قلت أتزوجينيها؟ قالت إن كنت كفاه ولم تقل كفواً، وهي لغة بني تميم فتركها ومضيت إلى منزل لأقيل<sup>(١)</sup> فيها فامتعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف علقمة، والأسود، والمسيب، ومضيت أريد عمها فاستقبلنا وقال ما شأنك أبا أمية قلت زينب ابنة أخيك. قال ما بها عنك رغبة فزوجنيها، فلما صارت في حالي ندمت وقلت أي شيء صنعت بنساء بني تميم، وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت أطلقها. ثم قلت ولكن أدخل بها فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت عليّ فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين، ويسأل الله تعالى من خيرها، ويتعوذ من شرّها، فتوضأت فإذا هي تتوضأ بوضوئي وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي. فلما قضيت صلاتي أتتني جواريها فأخذن ثيابي والبستي ملحفة

(١) لأقيل: أنام القيلولة.

قد صبغت بالزعفران. فلما خلا البيت ذنوت منها فمددت يدي إلى ناصيتها. فقالت: على رسلك أبا أمية، ثم قالت الحمد لله أحمدته وأستعينه وأصلي على محمد وآله، أما بعد فأني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فيكُن لي ما تحب فأتيه، وما تكره فأجتنبه فإنه قد كان لك منكح<sup>(١)</sup> في قومك، ولي في قومي مثل ذلك. ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالى به، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أقول قولِي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين. قال فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت الحمد لله أحمدته وأستعينه وأصلي على محمد وآله. أما بعد فإنك قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك خطأ لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك أحب كذا وأكره كذا وما رأيت من حسنة فابشئها وما رأيت من سيئة فاسترئها. فقالت كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت ما أحب أن يملني أصهارِي. قالت فمن تحب من جيرائك يدخل دارك أذن له، ومن تكرهه أكرهه. قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال؛ فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة ومكثت معي حولاً لا أرى منها إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهاي قلت: من هذه؟ قالوا: فلاة أم حليلتك. قلت: مرحباً وأهلاً وسهلاً. فلما جلست أقبلت العجوز فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت: وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً. قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، وأوفق قرية، لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة فجزاك الله خيراً. فقالت: يا أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها في حالتين. قلت: وما هما؟ قالت: إذا ولدت غلاماً، أو خطيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشراً من الروعاء المدللة. فقلت: والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة. قالت: كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاموا، فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية، فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيء. وكان لي جار من كندة يفرع امرأة ويضربها فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءَهُم	فشلت يعيني يومَ تُضربُ زينبُ
أضربها من غيرِ ذنبٍ أتت به	فما العدلُ مني ضربُ مَنْ ليس يُذنبُ
فزينبُ شمسٌ والنساءُ كواكبُ	إذا طلعتْ لم يَبدُ منهنَّ كوكبُ

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابته أم كلثوم على النبي ألف في السر، وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب. فقال له الوليد: لكنك أنت لا مرحباً بك، ولا أهلاً. قال: مهلاً يا ابن أخي فلت أهلاً لهذه المقالة منك. قال: بلى والله وبشر منها، قال: وفيه ذلك؟ قال: لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها لعبد ثقيف يتخذها. قال: وفي هذا عبت علي يا ابن أخي؟ قال: نعم.. فقال عبد الله: والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا إلا أنت وأبوك، لأن من كان قبلكم من الولاة يصلون رحمي ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعماني رفدكما حتى ركبني الدين. أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه، إنما فديت بها رقبتي، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك. فقال: ما لك يا أبا العباس؟ قال: إنك

سلطت عبد ثقيف ومملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيره فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل. قال: ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة، يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا، وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات. وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكي أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمية مترهبة فاستأذن عليها، قالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت: وما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: إنك لم تكن جتني لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تشرف في محافل العرب فتزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأني خير في اجتماع عمية وأعور.

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً، وأبرهم بوالديه فلما دخل بها غلبت على عقله وأجها جأً شديداً، فنقل ذلك على أبيه فمر به أبو بكر يوماً وهو في غرفة له فقال يا بني: إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك. فقال: أنسمت عليك إلا ما طلقها! فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها فجزع عليها جزعاً شديداً وامتنع عن الطعام والشراب، فقيل لأبي بكر: أهلك عبد الرحمن؟ فمرج به يوماً وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس ويقول هذه الآيات:

فوالله لا أنساك ما ذرَّ شارقٌ  
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها  
لها خلقٌ عفّ ودينٌ ومحتدٌ  
وما نأخ قمرئ الحمائم المطوقُ  
ولا مثلها في غير شيء يطلقُ  
وخلقٌ سوى في الحياء ومنطقُ

فسمعه أبوه فرق له وقال له: راجعها، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول الله ﷺ، وأصابه سهم فقتله فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

فأليت لا تنفك نفسي حزينةً  
فتى طول عمري ما أرى مثله فتى  
إذا شرعت فيه الأسنان خاضها  
عليك ولا ينفك جلدي أغبرا  
أكر وأحمى في الهياج وأصبرا  
إلى القرن<sup>(١)</sup> حتى يترك الرمح أحمر<sup>(٢)</sup>

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ودعا الناس إلى وليته فأتوه، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أئذن لي في كلام عاتكة حتى أهنئها وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح فائذن له يا أمير المؤمنين. فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق فقال لها: يا عاتكة ألسنت القائلة:

فأليت لا تنفك نفسي حزينة

عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

(١) القرن: البند.

(٢) الرمح أحمر: يضرجه بالدم.

وقيل: إنَّ عمر لما قتل عنها جرعت عليه جزعاً شديداً، وتزوجت بعده الزبير بن العوام وكان رجلاً غيوراً. وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها فشق ذلك عليه، وكان يكره أن ينهاتها عن الخروج إلى الصلاة، لحديث رسول الله ﷺ: «ولا تمنعوا إماء الله مساجد الله» فعرض لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه فضرب يده عجيزتها ثم انصرف. فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد. وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذا الناس ناس، وما بهم من باس وأما الآن فلا. ثم قتل عنها الزبير، قتله عمرو بن جرموز بوادي السباع وهو نائم. ثم تزوجها بعده محمد بن أبي بكر فقتل عنها بمصر. فقالت: لا أتزوج بعده أبداً، إني لأحسبني أني لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكي عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أترى أني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم. قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي. قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده فوجدناه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطباً. قال: لست هناك فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضباً. فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك فلم تعطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال ذلك سيد العرب الحارث بن عوف. فقالت: فما لك لا تستتره. قال: إنه استهجنني<sup>(١)</sup> قالت: وكيف؟ قال لأنه جاءني خاطباً. قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب؟ قال: نعم، قالت: إذا لم تزوج سيد العرب في زمانه فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدرك ما كان منك، قال: فماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف وقد فرط مني إليه ما فرط؟ قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط مني فارجع ولك عندي كل ما طلبت. قال: فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني الثمالة فرأيت. فقلت للحارث وهو ما يكلمني هذا أوس في أثرنا فقال: ما أصنع به؟ فلما رأنا لا تقف قال: يا حارث أربع علي فوقنا له وكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً. قال خارجة بن سنان فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلاثة أكبر بناته فأته. فقال لها: أي بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطباً وقد أردت أن أزوجهك منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت لأن في خلقي رداة وفي لساني حدة، ولست بابه عمه فيراعي رحمي، ولا هو بجار لك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي بذلك مسبة. قال لها: قومي بارك الله فيك. ثم دعا بته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها. فأجابته بمثل جوابها. فقال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهن سناً. فقال لها مثل ما قال لأختها فقالت له أنت وذلك. فقال لها إني عرضت ذلك على أختك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما. فقالت له: والله إني الجميلة وجهاً، الرفيعة خلقاً، الحسنة رأياً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك. ثم خرج إليه، فقال لزوجتك يا حارث ابتي هيسة. قال: قد قبلت نكاحها. وأمر أمها أن تهيئها له وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه، ثم بعثها إليه فلما دخلت عليه لبث هنية ثم خرج إلي فقلت له: أفرغت من شأنك قال: لا والله. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما مدت يدي إليها قالت: مه، أعند أبي وإخوتي هذا؟ والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله. ثم قال لي تقدم فتقدمت فعدلت عن الطريق فما

لبث أن لحقني فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال لا والله. قلت ولم؟ قال: قلت تفعل بي كما يفعل بالأمة السيئة الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي. فقلت: والله إني لأرى همة وعقلا، فقال صدقت. قال وأرجو الله أن تكون المرأة النجبية فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلي، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت ولم ذلك؟ قال: دخلت عليها أريدها فقلت لها قد أحضرت من المال ما تريدن. قالت والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك. قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتسخرخ لنكاح النساء، والعرب يقتل بعضها بعضاً. وكان ذلك في أيام حرب قيس وذيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: أخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد. فقلت: والله إني لأرى عقلاً ورأياً سديداً. قال: فأخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى، ثم تؤخذ الدية فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها فقالت له: أما الآن فنعم. فأقامت عنده في اللد عيش وأطيه وولدت له بنين وبنات. وكان من أمرهما ما كان والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبي قال: حدثنا بعض أصحابنا أن رجلاً من بني سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك. ثم اتبعها رسولاً يسألها، أها زوج ويذكره لها، وكان جميلاً فقالت للرسول: وما حرفته. فأبلغه الرسول ذلك فقال ارجع إليها وقل لها:

مقارعة الأبطال في كل شارق <sup>(١)</sup>	ومائلو ما حرفتي قلتُ حرفتي
أمام رجيل الخيل أحمي حقاقي <sup>(٢)</sup>	إذا عرضتُ خيلٌ لخيلٍ رأيتني
على ألم البيض الرقاق البوارق <sup>(٣)</sup>	أصبرُ نفسي حينَ لم أرَ صابراً

فلحقها الرسول فأنشدها ما قال. فقالت له: ارجع إليه وقل له: أنت أسد، فاطلب لك لبوة فليست من نساتك وأنشدته تقول:

كريمأ مجياه كثير الصدائق	ألا إنما أبغى جواداً بماله
يعانقها في الليل فوق النمارق	فتى همة مذ كان خود خريده

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة، فكانت الجارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وأخرى رمى فيها الزمان فسلت	وما يستوي الرجلان: رجلٌ صحيحة
	ثم تعود وتقول:

(١) في كل مكان والشارق: الشمس.

(٢) حقاقي: راياتي.

(٣) البوارق: السيف.

وما يستوي الثويان: ثوبٌ به البلى  
فمرت الجارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت: (١)  
تقل فؤادك ما استطعت من الهوى  
كم منزل في الأرض يألؤه الفتى  
وقال عمرو بن العلاء وكان أعلم الناس بالنساء: (٢)

فإن تسألوني بالنساء فإنني  
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله  
بصيرة بأدواء النساء طيب  
فليس له في ودهن نصيب

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مواساة، والغرائب أنجب، وما ضرب روؤس الأقران مثل ابن السوداء. وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية. ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية. قال الشاعر:

لا تشتمن امرأ ممن يكون له  
فإنما أمهات القوم أوعية  
أم من الروم أو سوداء عجماء  
مستودعات ولأنساب آباء

وقال الأصمعي: أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها فقلت: يا ابن أخي أقصيرة النسب أم طويلة؟ فلم يفهم عني، فقلت: يا ابن أخي أما القصيرة النسب فالتى إذا ذكرت أباه اكتفت به، والطويلة النسب فهي التي لا تعرف حتى تطيل في نسبها. فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نسبك فيهم. وخرج رجل من أهل الكوفة في غزوة فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه فكتب إليها يعيرها ويقول:

ألا بلغوا أم البين بأننا  
يعيد مناظ المنكيين إذا جرى  
غنيا وأغتنا الغطرفة النجد  
لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فما ورد عليها كتابه وقرأته قالت: يا غلام هات الدواة. وكتبت جوابه تقول:

ألا فأقره مني السلام وقل له  
إذا شئت أغناني غلام مرجل  
غنيا وأغتنا غطرفة المردي  
ونازعته في ماء معصر الورد  
وإن شاء منهم ناشيء مد كفه  
فما كتتم تقضون حاجة أهلكم  
شهوداً فقضوها على النأي والبعد  
منا ولا ندعو لك الله بالرد  
فلا قل الجند الذي أنت فيهم

(١) البيان لأبي تمام.

(٢) وهذه الأبيات معروفة لعلقمة الفحل وهو شاعر جاهلي.

(٣) عكن: ثانياً من البداة.

(٤) نهدي: عجز سمين.

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه . فكان أزل شيء بدأها به بعد السلام أن قال لها: بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك؟ فقالت له: الله في قلبي أعظم وأجل، وأنت في عيني أذل وأحقر من أن أعصي الله فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة، فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة، والله تعالى أعلم بالصواب.

## الفصل الثاني: في صفات النساء المحموده

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن أخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مؤاتية لبعليها. فكتب إليه: قد أصبتها لولا عظم نديها، فكتب إليه: لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم نديها فتدفع الضجيع وتروي الرضيع، وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان. صف لي أحسن النساء. قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء الكعيبين، ناعمة الساقين، ضخماء الزكبتين، لقاء الفخذين، ضخمة الذارعين رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلأ العينين، زجأء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العينين، شنباء الثغرى، محلولة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك وأين توجد هذه؟ قال تجدها في خالص العرب، وفي خالص فارس. وقال حكيم: عليكم من تربت في النعيم ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدبها الفقر. وقال رجل لخاطب: ابغ لي امرأة لا تؤنس جاراً، ولا توطن داراً، يعني لا تدخل على الجيران، ولا تدخل الجيران عليها. وفي مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلف  
عيطاء غامضة الكعيبين معطار<sup>(١)</sup>  
خود من الخضرات البيض لم يرها  
بساحة الدار لا بعلى ولا جاز

وقال الأعشى:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل  
ولم ترَ الشمسَ إلا دونها الكلل<sup>(٢)</sup>

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً، وكان هو من أقيح الناس وجهاً فقال لها يوماً: أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالى، فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنني أعطيتُ مثلك فشكرتُ، وأعطيتُ مثلي فصبرتِ، والصابر والشاكر في الجنة. وقال بعضهم: رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً، فقعدت أنظر إليها وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير فأخذ برداتها وسار بها ومضى، فلقيتها مرة أخرى فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت زوجي، قلت: كيف يرضى مثلك بمثله، فأنشدت:

أيا عجباً للخود يجري وشاؤها  
تُرَفُّ إلى شيخ بأقبح تمثال  
دعاني إليه أنه ذو قرابو  
يعزُّ علينا من بني العم والخال

وسمع بعضهم قائلًا يقول شعراً:

(١) معطار: علة يفوح منها العطر.

(٢) الكلل: السائر.



ومن لا يُرد مدحي فإنْ مدأتحي  
توافق عند المشتري الحمد بالندی  
توافق عند الأكرمين توامي<sup>(١)</sup>  
نفاق بنات الحرث بن هشام

فقال: يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحرث بن هشام. قال: كنّ من أجمل الناس وجوهاً، وكان أبوهن إذا زوّجهن يسوقهن ومهورهن إلى بعولتهن، فقال: يا ابن أخي لو فعل هذا إليّ لئن كنت من الملائكة المقربون. وقال عبد الملك لابن أبي الرقاع: كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم الناس بهنّ وجعل يقول:

قضاءيئة الكعيبين كندية الحشا  
خزاعيئة الأطراف طايئة الفم  
لها حكّم لقمان، وصورة يوسف  
ومنطق داود وعفة مريم

وقالوا: الوجه الحسن أحمر وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن، والتضخم بالطيب. وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمر، وإذا فرق يصفر. ومنه قولهم: دياج الوجه يريدون تلونه من رفته. قال علي بن زيد في وصفه:

حمرة خلط صفرة في يياض  
مثل ما حاك حائك دياجا

وقال علي بن عبد ربه:

بيضاء يحمرُّ خدّها إذا خجلت  
كما جرى ذهبٌ في صفحتي ورق

وقالوا: إن الجارية الحسنة تلوّن بتلوّن الشمس، فهي بالضحى بيضاء، وبالعشي صفراء فقال ذو الرمة:

بيضاء صفراء قد تازعها  
لونان من فؤادٍ ومن ذهبٍ

قالوا: ليس المرأة الجميلة التي تأخذها بصرک جملة على بعد، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التي كلما كررت بصرک فيها زادتك حسنا. وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ثم قع عليها. قال الشاعر:

ممن حملن به وهنّ عواقد  
حملت به في ليلة مزورة  
حك النطاق معاش غير مهبل  
كرهاً وعقد نطاقها لم يحلل

### الفصل الثالث: في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة داود عليه السلام: إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضي الله تعالى عنه، وقيل: المرأة السوء غلّ يلقى الله تعالى في عتق من يشاء من عباده. وقيل لأعرابي كان ذا تجربة للنساء: صف لنا شر النساء، فقال: شرهن النحيقة الجسم، القليلة اللحم، المحياض المراض، المصفرة الميشومة، العسرة الميشومة السلطة البطرة، النفرة، السريعة الوثبة، كأن لسانها حرية، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء، وأست في الماء، عرقوبها حديد، متسخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات وتنفي السيئات، تعين الزمان على بعلمها، ولا تعين بعلمها على الزمان، ليس في قلبها عليه رافة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة

الإرعاء، تأكل لثماً، وتوسع ذمًا، ضيعة الباع، مهتوكه القناع، صبيها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجمع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دعمها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور. ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورثته، وإن كانت محبة له لا تطلع عن النظر إليه. قال بعضهم:

لقد كنتُ محتاجاً إلى موت زوجتي      ولكن قرينَ السوء باقٍ معمرُ  
فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلاً      وعذبتهَا فيه نكيرٌ ومنكرُ

وقال زيد بن عمير:

أعاتبها حتى إذا قلت أفعلت<sup>(١)</sup>      أبى الله إلا خزيتها فتعودُ  
فإن طمشت قادت وإن طهرت زنت      فهاتيك تزني دائماً وتعودُ

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعلمها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كاللجج المرصع بالذهب كلما رآها قررت عينه برؤيتها، والله أعلم.

### الفصل الرابع: في مكر النساء وغلدهن وذمهن ومخالفتهن

في حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت في الرجال واحداً في ألف، ولم أجد واحدة في جميع النساء. وقيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله فقال: أحمل تجارة وأطلب مشتريين، فقال: ما أحدها؟ قال الجور. قال: من يشتريه؟ قال السلاطين. قال: فما الثاني؟ قال الحسد، قال: فمن يشتريه؟ قال العلماء. قال: فما الثالث؟ قال الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال التجار. قال: فما الرابع؟ قال الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال النساء. وقال حكيم: النساء شر كلهن، وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن. وقالت الحكماء: لا تتق بامرأة ولا تغتر بمال وإن كثر. وقيل النساء حبايل الشيطان. قال الشاعر:

تمنَّع بها ما ساعفتك<sup>(٢)</sup> ولا تكُنْ      جزوعاً إذا بانَّتْ فسوف تبيِّنْ  
وخنتها وإن كانت نفي لك إنها      على قدم الأيام سوف تخونُ  
وإن هي أعطتك اللبانَ فإنها      لغيرك من طلابها ستلينُ  
وإن خلقت أن ليس تنقض عهدها      فليس لمخضوب البنان يمين<sup>(٣)</sup>  
وإن سكبت يومَ الفراقِ دموعها      فليس لعمير الله ذاك يقينُ

وقال ابن بشار:

رأيتُ مواعيدَ النساءِ كأنها      سرابٌ لمرتادِ المناهلِ حافلُ

(١) أفعلت: أفلت.

(٢) ساعفتك: أتت.

(٣) البنان يمين: ليس للنساء يمين!

ومتظرُ الموعودِ منهنَ كالنبي يؤملُ يوماً أن تليين الجنادلُ

وقال بعض الحكماء: لم ته المرأة عن شيء قط إلا فعلته. وقال الغنوي:

إنَّ النساءَ متى يهينَ عن خلقٍ فإنه واقعٌ لا بدَّ مفعولُ

وقال النخعي: من اقترب الساعة طاعة النساء. ويقال: من أطاع عرسه فقد اضاع نفسه. وقال علي رضي الله تعالى عنه: إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى آفن، وعزمهن إلى وهن، اكفف أبصارهن بالحجاب فإن شدة الحجاب خيرٌ لهن من الارتياب، وليس خروجهن بأضرَّ من دخول من لا يوثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل. قال السمعاني:

لا تأمننَّ على النساءِ ولو أخأ

لا بدَّ أن ينظروا سيخونُ

وقال غيره:

لا تركننَّ إلى النساءِ ولا تثقُ بهنَّ ودهنُ

فرضاوهنَّ جميعهنَّ معلقٌ بفرجهنَّ

وقال علي رضي الله تعالى عنه: لا تطلعوا النساء على حال ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تزكّن وما يُردنَّ أوردنَّ المهالك وأفسدنَّ الممالك، ينسين الخير، ويحفظن الشر، يتهاقن في البهتان، ويتماذبن في الطغيان. وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ذلٌّ من أسند أمره إلى المرأة. وقيل إن صياداً أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حسننها وسمنها فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته شيرين زوجته فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت له: إذا جاءك فقل له أذكراً كانت أم أنثى؟ فإن قال لك ذلك فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك أنثى، فاطلب منه الذكر، فلما أتاه سأله فقال: كانت أنثى. فقال: انتني بذكرها. فقال عمر الله الملك كانت بكرأ لم تزوج، فقال: زه، وأمر له بثمانية آلاف درهم. وقال اكتبوا في الحكمة: الغدر ومطاعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل. وقال حكيم: اعص النساء وهواك وافعل ما شئت. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أكثروا لهن من قول لا، فإن نعم تغريهن على المسألة. وقال: استعينوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر.

ومما قيل في الباءة: ذكر الجماع عن الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: هو نور وجهك، ومنع ساقك، فأقلل منه أو أكثر. وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت نهما في النساء إلا عرفت ذلك في وجهه. وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال: ما أوسع حرك. فأنشأت تقول:

أنتَ الفداء لمن قد كان يملؤه ويشتكى الضيقَ منه حين يلقاه

وقال آخر:

شفاءُ الحبِّ قبيلاً ولمن

ورَهزُ تَلدُفِ العِينانِ منه وأخذُ بالمناكِبِ والقرونِ

وقالت امرأة من أهل الكوفة: دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها فقيل هي مع زوجها في القيطون

فسمعت شهيقاً وشخيراً لم أسمع مثله. ثم خرجت إليّ وجيئها يصعب عرفاً، فقلت لها: ما ظننت حرّة تفعل هذا بنفسها! فقالت: إن الخيل تشرب بالصفيّر. وعاتبّت امرأة زوجها قلة إتيانها فأجابها يقول:

أنا شيخٌ ولي امرأةٌ عجوزٌ      تراودني على ما لا يجوزُ  
وقالَتْ رَقِيٌّ (...) (١) مذ كبرنا      فقلت: بلى قد اتسع القفيز (٢)

وكان لرجل امرأةٌ تخصمه، وكلما خاصمه قام إليها فواقمها، فقالت: ويحك كلما تخصمني تأتيني بشفيح لا أقدر على ردّه. وأتى رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقال: إن لي امرأةً كلما غشيها تقول قتلتي، فقال: اقتلها بهذه القتلّة وعليّ إثمها. وقالوا: من قلّ جماعه فهو أصحّ بدنأً وأنقى جلدأً وأطول عمراً، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان وذلك أنه ليس في الحيوان أطول أعماراً من البغال، ولا أقصر أعماراً من العصافير وهي أكثرها سفاذاً، والله تعالى أعلم بالصواب.

### الفصل الخامس: في الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخي الأصمعي قال: قال عمي للرشيّد في بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلاً من العرب طلق في يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك؟ وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة. قال: يا أمير المؤمنين كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهم يوماً فوجدهم متنازعات وكان شريراً، فقال: إلى متى هذا التزاع ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة اذهبي فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصحح، فقال لها: وأنت أيضاً طالق. فقالت له الثالثة: قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محستين. فقال لها: وأنت أيضاً أينما المعدّدة أيديهما (٣) طالق. فقالت الرابعة وكانت هلالية: ضاق صدرك إلا أن تؤدّب نساءك بالطلاق فقال لها: وأنت طالق أيضاً. فسمعت جارة له فأشرفت عليه وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم، ووجدوه فيكم أبيت إلا طلاق نساءك في ساعة واحدة. فقال لها وأنت أيها المتكلمة فيما لا يعينك طالق، إن أجازني بملك. فأجابها زوجها: قد أجزت لك ذلك فعجب الرشيّد من ذلك.

وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها: اسمعي وليسمع من حضر إنني والله اعتمدتك برغبة، وعاشرتك بمحبة، ولم أجد منك زلة، ولم يدخلني عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً. فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيراً، فما استقلت خيرك، ولا شكوت ضميرك، ولا تمنيت غيرك، ولا أجد لك في الرجال شيبهاً، وليس لقضاء الله مدفع، ولا من حكمه علينا مننع. وقال رجل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فتبعها نفسه، قال الهيثم بن عدي: كانت تحت ابن الغريان بن الأسود بنت عمّ فطلقها فتبعها نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول:

(١) ذكر الرجل.

(٢) القفيز: فرج الأثني.

(٣) أيديهما: نعمهما.

إن كنتَ ذا حاجةٍ فاطلُبْ لها بدلا  
إنَّ الغزال الذي ضيعت مشغولُ

فكتب إليها يقول:

إن كانَ ذا شغلٍ فالله يكلِّوه  
وقد قضينا من استظرافه وطراً  
وقد لهوننا به والحبل موصولُ  
وفي الليالي وفي أيامها طولُ

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدى عني رسالة ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: أفضئها. فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات رسالتك قال: اتها فأنشدنا:

أسعدى هل إليك لنا سبيلُ  
بلى ولعل دهرأ أن يوثقي  
ولا حتى القيامة من تلاقٍ  
بموتٍ من خليلك أو فراقٍ

قال: فاتأها أشعب فاستأذن عليها فأذنت له فدخل. فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدتي أرسلني إليك الوليد برسالة، ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواربها: عليكن بهذا الخبيث فقال: يا سيدتي إنه دفع لي عشرة آلاف درهم فهي لك وأعتقني لوجه الله، فقالت: والله لا أعتقتك أو تبلغ إليه ما أقول لك. قال: يا سيدتي فاجعلي لي جعلاً. قالت: لك بساطي هذا. قال: قومي عنه. فقامت فأخذته وألقاه على ظهره وقال: هات رسالتك فقالت:

أتبكي على سعدى وأنت تركتها  
فقد ذهبَت سعدى فما أنت صانعُ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة، فقال لأشعب: اختر مني إحدى ثلاث، إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر، وإما أن ألقيك إلى هذه السباع ففتترسك. فتحير أشعب وأطرق ملياً، ثم قال: يا سيدي ما كنت لتعذب عينا نظرت إلى سعدى، فتبسم وخلقى سبيله... وممن طلق فتبعها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار ثم ندم على طلاقها وقال:

ندمتُ ندامة الكعبي لما  
فأصبحتُ الغداة ألوم نفسي  
وكانت جتي فخرجتُ منها  
ولو أني ملكتُ بها يميني  
غدت مني مطلقاً نوازُ  
بأمرٍ ليس لي فيه اختيارُ  
كأدم حين أخرجت الضراؤ  
لكان علي للقدر الخيأُ

وممن طلق امرأته فتبعها نفسه فندم قيس بن ذريح وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشد يقول:

فني صبري وعادوني رداعي  
تكفني الوشاة فأزعجونني  
فأصبحتُ الغداة ألوم نفسي  
كمغبونٍ يعضُّ على يديهِ  
وكان فراقُ لبي كالأخداع  
فيا للناسِ للوشاشي المطاع  
على أمرٍ وليس بمستطاع  
تبيِّن غبنه عند الياع

وحدث العتيبي قال: جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة فقال إن امرأتي هذه شجتي. فسألها عبد الرحمن فقالت: نعم يا مولاي غير متعملة لذلك، كنت أعالج طيباً فوق الفهر من

يدي على رأسه وليس عندي علم، ولا يقوى بلني على القصاص. فقال للرجل: علام تمسكها وقد فعلت بك ما أرى. فقال: يا مولاي إن صداقها علي أربعة آلاف درهم ولا تطيب نفسي بفراقها. قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها؟ قال: نعم. قال: هي لك. قال: فهي إذن طالق. فقال لها عبد الرحمن: احبسي علينا نفسك وأنشأ يقول:

يا شيخُ يا شيخُ من دلاك بالغزل      قد كنتَ يا شيخُ عن هذا ببعتر  
رضيت الصعابَ فلم تحسن رياضتها      فاعمد لنفسك نحو القرع النلر

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الرابع والسبعون: في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها

قد أنزل الله تعالى في الخمر ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمرِ والميسرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾<sup>(١)</sup> الآية فكان من المسلمين من شارب ومن تارك إلى أن شرب فدخل في الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾<sup>(٢)</sup> فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضي الله تعالى عنه فأخذ بلحي بعير وشجَّ به رأس عبد الرحمن بن عوف، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكائن بالقلبي <sup>(٣)</sup> قلبٍ بدرٍ	ومن الفتيان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة إن سخيا	وكيف حياة أصداء وهام
أيعجز أن يرد الموت عني	وينشرنني إذ بلئت عظامي
ألا من مبلغ الرحمن عني	بأنني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعي شرابي	وقل لله يمنعي طعامي

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه فرقع شيئاً كان في يده فضربه به. فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله: فأنزل الله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون﴾<sup>(٤)</sup> فقال عمر رضي الله تعالى عنه: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها في تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر» وقوله ﷺ: «أول ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحة الرجال». ومن تركها في الجاهلية عبد الله بن جدعان وكان جواداً من سادات قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي فضربه على عينه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب. فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فسكت. فألح عليه فقال: ألسنت ضاريتها بالأمس؟ فقال: أو بلغ مني الشراب ما أبلغ معه إلى هذا؟ لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم. وقال: الخمر علي حرام، لا أذوقها بعد اليوم أبداً.

ومن حرّمها في الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم. وذلك أنه سكر. ذات ليلة فقام لابته أو لأخته فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر بالقصة فحرم الخمر على نفسه. ومن حرّمها في الجاهلية أيضاً العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة فجعل يتناول القمر ويقول والله لا

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٤٣.

(٣) البئر: مدفن قتلى المشركين.

(٤) سورة: المائدة، الآية: ٩١.

أبرح حتى أنزله ثم شب الوثبة بعد الوثبة، ويقع على وجهه فلما أصبح وأفاق قال: ما لي هكذا؟ فأخبروه بالقصة فقال: والله لا أشربها أبداً. وقيل للعباس بن مرداس: لم تركت الشراب وهو يزيد في سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومي وأسي سفيهم.

ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده فأعجبه إنشاده وشعره ووصله ثم دعا بالطعام فطعم منه فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال يا أمير المؤمنين جلدي أسود، وخلقي مشوه، ووجهي قبيح وتكفني مجالستك ومؤاكلتك ولم يوصلني إلى ذلك إلا عقلي وأنا أكره أن يدخل عليه ما يقصه. فأعجبه كلامه ووصله. وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وقدحا عليه: هل لك في الشراب؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا خلاف لما أمرت، ولكن أنا أمتنع أهل عملي منه، وأكره أن أمتنع عن شيء ولا أمتنع منه وقد قال الله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾<sup>(٢)</sup> وقيل لأعرابي لم لا تشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلي. وقال الضحّاك بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامي. قال: أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر. وقال ابن أبي أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا يا لقومي ليس في الخمر رفعةً      فلا تقربوا منها فليست بفاعل  
فإنني رأيت الخمر شيئاً ولم يزل      أخو الخمر دخالاً لشر المنازل

وقال الحسن: لو كان العقل يشتري لتغالي الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده. وقال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء حبات الشيطان، والخمر داعية إلى كل شر» وقال بعضهم: بلوت<sup>(٣)</sup> نبيذ الخمر في كل بلدة إذا دارت الأبطال أرضوك بالمنى وإن قدوها فالرجوه غلاظ

وقال حكيم: إياك وإخوان النبيذ، بينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم، إذ زلت بك القدم فجزوك على شوك السلم فاحفظ قول القائل فيه:

وكل أناس يحفظون حريمهم      وليس لأصحاب النبيذ حريم  
فإن قلت هذا لم أقل عن جهال      ولكتني بالفاسقين عليهم  
ولالأعرج الطائي:

تركت الشعر واستبدلت منه      إذا داعي صلاة الصبح قاما  
كتاب الله ليس له شريك      وودعت المدامة والندامي

وقال الصفدي:

دع الخمر فالراحات في ترك راحها      وفي كأسها للمرء كوة عار

(١) سورة: هود، الآية: ٨٨.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) بلوت: اختبرت.

(٤) حفاظ: كرامة وأثقة.



وكم ألبست نفس الفتى بعد نورها مدارعَ قازٍ في مدارٍ عقارٍ

نكتة: اجتمع نصراني ومحدث في سفينة فصب النصراني خمرأ من زق كان معه في شربة وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصراني: جعلت فداك إنما هي خمر. قال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامي من يهودي وحلف أنها خمر. فشربها المحدث على عجل وقال للنصراني: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة، وي زيد بن هارون، أفنصَلق نصرانياً عن غلامه، عن يهودي والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد. ومن المجون في ذلك ما حكى أن سكراناً استلقى على طريق فجاء كلب فلحس شفتيه فقال: خدحك بتوك ولا عديموك. فبال على وجهه فقال: وماء حار أيضاً بارك الله فيك. وقيل: حالة السكرى ثلاثة: فرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارث فنبج، وحية زويت فنامت. ومرَّ عقاب الناسك بمرداس بن خدام الأسدي فاستسقاها لبناً فصبَّ له خمرأ وعلاه بلبين فشربه وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام، فقال:

سقيت عقالا بالعشيّة شربة فمالت بعقل الكاهلي عقالي  
قرعتُ بأم الخلِّ جبةً قلبه فلم يتمش منها ثلاث ليالي

ويقال: الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور. اللهم تب علينا وعلى العصاة والمننيين برحمتك يا أرحم

الراحمين آمين.

## الباب الخامس والسبعون: في المزاح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه، والبسط والتنعم وفيه فصول

### الفصل الأول: في النهي عن المزاح

قال رسول الله ﷺ: «المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى». وعن عليّ: ما مزح أحد إلا مجّ<sup>(١)</sup> من عقله مجة. وعنه: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً، وإن حكيت ذلك عن غيرك. وكتب عمر رضي الله تعالى عنه إلى عماله: امنعوا الناس من المزاح فإن يذهب المروءة ويوغر الصدور. وقال بعض الحكماء: تجنب سوء المزاح، ونكد الهزل، فإنهما بابان إذا فتحا لم يفلقا إلا بعد غم. وقال آخر: لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح. وعن محمد بن المنكدر قال: قالت لي أمي لا تمازح الصبيان تهن عندهم. وخرج أعرابي بالليل فإذا بجارية جميلة، فراودها، فقالت أما لك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك؟ فقال والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت له يا هذا وأين مكوكبها، فأخجله كلامها فقال لها: إنما كنت مازحاً، فقالت:

فإِيَّاكَ إِذَاكَ الْمَزَاحَ فَإِنَّهُ      يُجْرِي<sup>(٢)</sup> عَلَيْكَ الطُّفْلَ وَالرَّجُلَ النَّذْلَا  
وَيُذْهِبُ مَاءَ الْوَجْهِ بَعْدَ بَهَائِهِ      وَيُورِثُ بَعْدَ الْعِزِّ صَاحِبَهُ ذَلَا

وقال الأحنف: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به. ومما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم: أنهم كانوا يتحادثون ويتشادون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم<sup>(٣)</sup> كأنهم لم يعرفوا أحداً.

### الفصل الثاني: في الترخيص في المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفهاً والله تعالى وعد في اللمم بالتجاوز والعفو فقال: «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم»<sup>(٤)</sup> وقيل أن يحيى بن زكريا لقي عيسى عليهما الصلاة والسلام فقال: ما لي أراك لاهياً كأنك آمن، فقال له عيسى: ما لي أراك عابساً كأنك آيس، فقالا: لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي. فأوحى الله إليهما أن

(١) مجّ: اغترف.

(٢) يُجْرِي: يُجْرِيء.

(٣) الحملاق: باطن الجفن.

(٤) سورة: الشورى، الآية: ٣٧.

أحبكما إليّ أحسنكما ظناً بي... ويروى أن أحبكما إليّ أطلق البسام. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لجارية: خلقتي خالق الخير وخلقك خالق الشر فبكت الجارية. فقال عمر: لا بأس عليك فإن الله خالق الخير والشر. قال الشاعر:

إن الصديقَ يريدُ بسطك مازحاً      فإذا رأى منك الملالةَ يقصرُ  
وترى العدوَّ إذا تيقن أنه      يؤذيك بالمزح العنيفِ يكثرُ

وكان رسول الله ﷺ يمزح، ولا يقول إلا حقاً. فمن مزحه ﷺ أنه جاءه رجل فقال يا رسول الله: احملني على جمل، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أحملك إلا على ولد الناقة، فقال: يا رسول الله، إنه لا يطيقني، فقال له الناس: ويحك هل الجمل إلا ولد الناقة. وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقي زوجك فقي عينه يياض. فسمعت إلى زوجها مرعوبة فقال لها: ما دهاك؟ قالت: إن النبي ﷺ قال لي إن في عينك يياضاً. فقال نعم والله وسواداً. وأتته أيضاً عجوز أنصارية فقالت: يا رسول الله، ادع الله لي أن يدخلني الجنة. فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز. فولت المرأة تبكي، فبسم ﷺ وقال لها: «أما قرأت قوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهم إنشأً \* فجعلناهم أبقاراً \* عرباً أتراباً﴾<sup>(١)</sup>. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: سأبت رسول الله ﷺ فبقت له لحمي سابقته فسبقتني فضرب بكفي وقال: هذه بتلك. وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويجاتي ولا يعيب عليّ.

وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي. وكان نعيمان الصحابي من أولع الناس بالمزاح والضحك. قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك. فمن مزحه أنه مر يوماً بمخرمة بن نوفل الزهري وهو ضرير فقال له: قدني حتى أبول فأخذ بيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه في مؤخره، فصاح به الناس: إنك في المسجد. فقال: من قادي؟ قالوا: نعيمان. قال لله عليّ نذر أن أضربه بعصاي هذه إن وجدته. فبلغ ذلك نعيمان فجاء إليه وقال له: يا أبا المنور هل لك في نعيمان؟ قال: نعم. قال: ها هو قائم يصلي، وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلي: وقال هذا نعيمان فعلاه بعصاه فصاح الناس: أمير المؤمنين. فقال: من قادي؟ قالوا: نعيمان، فقال: والله لا تعرضت له بسوء بعدها.

وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى ييكتنا، وربما لم يقم حتى يضحكنا وكان رجل يسمى تاج الوعظ، يعظ الناس، ويقص عليهم حتى ييكتهم، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويسط آمالهم. فمن لطافته أنه حكى يوماً بعد ما فرغ من ميعاده قال: سمعت الناس يتكلمون في التصحيف وكنت لا أعرفه، فوقع في قلبي أن أتعلمه فدخلت في سوق الكتيبة واشترت كتاباً في التصحيف فأزل ما تصفحته وجدت في سكباج تصحيفه شك تاج، فرميت الكتاب من يدي، وحلفت أنني لا أشتغل به أبداً فضحك الناس حتى غشي عليهم.

ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان فوجده يتأوه، فقال: يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب، ويبسطك استرحت، فقال: لست بصاحب لهو. فقال: ما الذي تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: حاج بي عرق النسا في ليلتي هذه فبلغ مني ما ترى، فقال: إن بديحا مولاي أرقى الخلق منه، فأمر بإحضاره. فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح ارق رجلي، فقال: يا مولاي أنا أرقى الناس لها، ثم وضع يده عليها

وجعل يقول ما لا يسمع، فقال عبد الملك: قد وجدت راحة بهذه الرقية أين فلانة اتنوني بها تكتبها لثلا يهيج بي الوجد بالليل فقال بديح: الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعميل جاترتي، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جاترتي إلى بيتي قال: ربيت تحمل فحملت. فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال:

ألا إن ليلى العامرية أصبحت على البعد مني ذنب غير تقم

فقال: ويلك ما تقول، فقال: الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها، فقال: اكتبها علي، فقال: كيف وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر، فضحك حتى فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط.

وروي أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر:

أثبتت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

ومما جاء في الشطرنج واللعب به والنهي عنه والترخيص فيه: أما النهي عنه فقد قيل إن علياً كرم الله وجهه مرّ يقوم يلعبون الشطرنج. فقال لهم: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. وكان أبو القاسم الكسروي يقول: لا ترى شطرنجياً غنياً إلا بخيلاً، ولا فقيراً إلا طفلياً، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج. واحتضر شطرنجي فصار يقول شاه مات، شاه مات، مكان الشهادتين حتى مات. وأما الترخيص فيه فقد سئل الشعبي عن اللعب بالشطرنج، فقال لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل وقال بعضهم: كنا في السجن مع ابن سيرين فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج فيقوم فيأتي ويقول أرفع الفرس: أرفع كذا، أرفع كذا، ولا يعيب علينا. وعن سعيد بن المسيب قال: كنت ألعب بالشطرنج مع صديقي في بيته حين خفت الحجاج. وما قيل لعلي بن الجهم في الشطرنج، وقيل للمأمون:

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين حرين معروفين بالكرم  
تذكر الحرب فاحتالا لها فطنا من غير أن يأتيا فيها بسفك دم  
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم  
فانظر إلى همم جاشت بمعركة في عسكرين بلا طبل ولا علم

قالوا: إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال، فإذا تنازع ملكان في كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج، فيأخذها الغالب من غير قتال، وقيل إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر، القطعة منه بثلاثة آلاف دينار.

ومما جاء في لعب الغلمان ما حكى أن غلاماً من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد فوقعت الكرة على صدره فأخذها فجعلوا يطلبونها منه فأبى. فقال غلام منهم سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا فأبى لعنه الله وسب رسول الله ﷺ، فأقبلوا عليه بصوالجهم فما زالوا يخطونه حتى مات لعنة الله عليه، فرفع ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه. فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمه كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف وقال: الآن عز الإسلام، إن أطفالاً صغاراً شتم نبيهم، فغضبوا له وانتصروا، وأهدر دم الأسقف.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب السادس والسبعون: في النوادر وفيه فصول

### الفصل الأول: في نوادر العرب

خرج المهدي بتصيد فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي هل من قرى؟ فأخرج له قرص شعير فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنييد في ركوة فسقاه، فلما شرب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا! قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: بارك الله في موضعك، ثم سقاه مرة أخرى فشرّب فقال: يا أعرابي أتدري من أنا؟ فقال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: لا أنا من قواد أمير المؤمنين. قال رحبت ببلادك وطال مرادك، ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال: يا أعرابي أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين. قال: لا ولكنني أمير المؤمنين قال: فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها<sup>(١)</sup> وقال: إليك عني فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله. فضحك المهدي حتى غشي عليه. ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف. فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك ولا خوف، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل.

ووجد أعرابي يأكل ويتفوط ويغلي ثوبه، فقيل له في ذلك فقال: أخرج عتيقاً وأدخل جديداً وأقتل عدواً. وقيل لبعض الأعراب إن شهر رمضان قدم فقال: والله لأبدين شمله بالأسفار. وسمع أعرابي قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً﴾<sup>(٢)</sup> فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾<sup>(٣)</sup>. فقال: لا بأس هجا ومدح هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زهيراً ثم إنسي ملحتي وما زالت الأشراف تهجني وتُمدح

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن يزيد فقال لأصحابه: أفرجوا لأخيكم. فقال الأعرابي: لا حاجة لي بأفراجكم إن أطناي طوال - يعني سواعده - فلما مد يده ضرط، فضحك يزيد فقال: يا أبا العرب أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع.

ورؤي أعرابي يغطس في البحر ومعه خيط، وكلما غطس غطسة عقد عقدة، فقيل له ما هذا؟ قال: جنابات الشتاء أفضيها في الصيف.

(١) فوكأها: أغلقها.

(٢) سورة: التوبة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة: التوبة، الآية: ٩٩.

وسرق أعرابي غاشية<sup>(١)</sup> من على سرج ثم دخل المسجد يصلي، فقرأ الإمام: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾<sup>(٢)</sup> قال: يا فقيه لا تدخل في الفضول. فلما قرأ ﴿وجوه يومئذٍ خاشعة﴾<sup>(٣)</sup> قال: خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها، ثم رماها من يده وخرج.

وحضر أعرابي مجلس قوم فتذكروا قيام الليل فقيل له: يا أبا أمامة أتقوم الليل؟ فقال: نعم. قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنا.

وسرق أعرابي صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد يصلي وكان اسمه موسى فقرأ الإمام: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾<sup>(٤)</sup> فقال الأعرابي: والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج.

وحكى الأصمعي قال: ضلت لي إبل فخرجت في طلبها وكان البرد شديداً، فالتجأت إلى حي من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون ويقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد ويشد:

أيا ربَّ إنَّ البردَ أصبحَ كالحأ  
وانت بحالي يا إلهي أعلمُ  
فإن كنتَ يوماً في جهنم مدخلي  
ففي مثل هذا اليوم طابَتْ جهنمُ

قال الأصمعي: فتعجبت من فصاحته وقلت له: يا شيخ ما تستحي. تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير فأشد يقول:

أيطمع ربي أن أصلي عارياً  
ويكسو غيري كسوة البرد والحري  
فوالله لا صليت ما عشت عارياً  
عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر  
ولا الصبح إلا يومَ شمسٍ دفينو  
وإن غيمت فالويل للظهر والمصر  
وإن يكسني ربي قميصاً وجبّة  
أصلي له مهما أعيثُ من العمر

قال: فأعجبتني شعره وفصاحته فترعت قميصاً وجبة كانا عليّ ودفعتهما إليه وقلت له: البسهما وقم فصل. فاستقبل القبلة وصلى جالساً وجعل يقول:

إليك اعتذاري من صلاتي جالساً  
على غير طهرٍ موبياً نحو قبلي  
فما لي يبرد الماء يا ربّ طاقة  
ورجلاني لا تقوى على نسي ركبتي  
ولكنني أستغفرُ الله شاتياً  
وأفضيها يا ربّ في وجهي صيفتي  
وإن أنا لم أفعلْ فأنتَ محكم  
بما شئت من صفعي ومن تفتي لحيتي

قال: فعجبت من فصاحته وضحكت عليه وانصرفت.

وصلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام: ﴿قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا﴾<sup>(٥)</sup> فقال الأعرابي: أهلكك الله وحلك إيش كان ذنب الدين معك، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك.

- (١) غاشية: غطاء السرج.
- (٢) سورة: الغاشية، الآية: ١.
- (٣) سورة: الغاشية، الآية: ٢.
- (٤) سورة: طه، الآية: ١٧.
- (٥) سورة: الملك، الآية: ٢٨.

وقيل: دخلت أعرابية على قوم يصلون فقرأ الإمام: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾<sup>(١)</sup> وجعل يردها، فجعلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت: يا أختاه ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليّ.

وصلى أعرابي خلف إمام فقرأ الإمام: ﴿ألم نهلك الأولين﴾ وكان في الصف الأول فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: ﴿ثم تنبهم الآخرين﴾ فتأخر. فقرأ ﴿كذلك تفعل بالمجرمين﴾<sup>(٢)</sup> وكان اسم البدوي مجرماً، فترك الصلاة وخرج هارباً وهو يقول: والله ما المطلوب غيري، فوجده بعض الأعراب، فقال له: ما لك يا مجرم؟ فقال: إن الإمام أهلك الأولين، والآخرين، وأراد أن يهلكني في الجملة والله لا رأيته بعد اليوم.

وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء فدلوه عليه، فلما دخل جعل يضرب ضراطاً شنيعاً فضحوا عليه فأنشد يقول:

إذا ما خلا الإنسان في بيت غائبٍ      تراخت بلا شك مصارعُ قححته<sup>(٣)</sup>  
فمن كان ذا عقلٍ فيعذر ضراطاً      ومن كان ذا جهلٍ قفي وسط لحيته

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزوان، فظهر له من الملك جفوة، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب، وعوي الذئب، ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، وصوت البغال. ثم احتال حتى دخل موضعاً يقرب خلوة الملك وأخفى أمره، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب، فلم يشك الملك في أنه كلب، فقال: انظروا ما هذا؟ فعوى عواء الذئب، فتزل الملك عن سريره، فهنق نهيق الحمير، فمضى الملك هارباً ومضت الغلمان يتبعون الصوت، فلما دنوا منه سهل سهيل الخيل فاتتحموا عليه وأخرجوه عرياناً. فما وصلوا به إلى الملك ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكاً شديداً وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن الله عز وجل مسخني كلباً، وذئباً، وحماراً وفرساً، لما غضب عليّ الملك: قال: فأمر الملك أن يخلع عليه، وأن يرد إلى مرتبته الأولى. ومن الملح قول بعض الشعراء:

أيا من فاق حسناً واعتدالا      وولج في عطية البابا  
أما في مالٍ ردفك من زكاةٍ      فتدخل فيه لي هذا الصابا

وحكى الأصمعي أن عجزوا من الأعراب جلست في طريق مكة إلى تيان يشربون نبيذاً فسقوها قذحاً فظابت نفسها فتبسمت فسقوها قذحاً آخر، فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها ثالثاً فقالت: خبروني عن نساتكم بالعراق أيشربون النبيذ؟ قالوا: نعم. قالت: زين ورب الكعبة، والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه.

وصلى أعرابي خلف إمام فقرأ: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾<sup>(٤)</sup> ثم وقف وجعل يردها فقال الأعرابي: أرسل

(١) سورة: النساء، الآية: ٣.

(٢) سورة: المرسلات، الآيات: ١٦ - ١٧.

(٣) قححته: دبره.

(٤) سورة: نوح، الآية: ١.

غيره يرحمك الله وأرحنا وأرح نفسك. وصلى آخر خلف إمام فقراً: «فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي»<sup>(١)</sup> ووقف وجعل يردد ما فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل وقوفاً إلى الصباح ثم تركه وانصرف.

ولزم أعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان: يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه عليه الصلاة والسلام إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء. وحديث عائشة أيضاً ليس من البر الصوم في السفر.

وقيل لأعرابية ما صفة الأيد عندكم، قالت: عصبه ينفخ فيها الشيطان فلا يرُدُّ أمرها.

وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى فإذا هو بشيخ الأعراب على حمار، وهو رطب العينين فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك. قال: خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصيره في قشر بيض الذرِّ واكحل به ينفعك فانحنى الشيخ وضرب ضرباً قوياً، وقال: خذ هذه في لحيتك أجرة وصفتك، وإن زدت زدناك، فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته.

وخرج معن بن زائدة في جماعة من خواصه للصيد فاعترضهم قطع طباء ففترقوا في طلبه وانفرد معن خلف ظمي حتى انقطع عن أصحابه. فلما ظفر به نزل فلبحه فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه فقال: من أين وإلى أين؟ قال: أتيت من أرض لها عشرون سنة مجلبة، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها مقناة<sup>(٢)</sup> فطرح في غير وقتها فجمعت منها ما استحسنته وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور وفضله المشهور ومعروفه المأثور وإحسانه الموفور. قال: وكم أملت منه؟ قال: ألف دينار. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: خمسمائة. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: ثلثمائة. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: مائة. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: خمسين. قال: فإن قال لك كثير. قال: فلا أقل من الثلاثين. قال: فإن قال لك كثير؟ قال أدخل قوائم حماري في حر أمه وأرجع إلى أهلي خائباً، فضحك معن منه وشاق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل في منزله وقال لحاجبه إذا أتاك شيخ على حمار بقاء فادخل به علي. فأتى بعد ساعة فلما دخل عليه لم يعرفه لهيته، وجلالته وكثرة حشمه وخدمه، وهو متصدر في دسه والخلم والحفلة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال: ما الذي أتى بك يا أبا العرب؟ قال: أملت الأمير وأتيت بقاء في غير أوان فقال: كم أملت فينا؟ قال: ألف دينار. قال: كثير فقال: والله لقد كان ذلك الرجل ميسوماً علي، قال: خمسمائة دينار. قال: كثير. فما زال إلى أن قال: خمسين ديناراً. فقال له: كثير. فقال: لا أقل من الثلاثين. فضحك معن فعلم الأعرابي أنه صاحبه فقال: يا سيدي إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب، وها معن جالس. فضحك معن حتى استلقى على فراشه ثم دعا بوكيله فقال: أعطه ألف دينار، وخمسمائة دينار، وثلثمائة دينار، ومائة دينار، وخمسين ديناراً، وثلثين ديناراً، ودع الحمار مكانه فسلم الأعرابي المال وانصرف.

(١) سورة: يوسف، الآية: ٨٠.

(٢) مقناة: أي قناه الحمار (قته).



## الفصل الثاني: في نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا في دهليز عثمان بن شيبة فخرج إلينا فقال: ن والقلم في أي سورة؟ ومر بعضهم بقارئ يقرأ: ألم غلبت الترك في أدنى الأرض، فقال له: الروم، فقال له كلهم أعداؤنا قاتلهم الله. وكان جماعة يجلسون إلى أبي العيناء وفيهم رجل لا يتكلم فليل له يوماً: كيف علمك بكتاب الله قال: أنا عالم به فليل له هذه الآية في أي سورة الحمد لله لا شريك له فقال له: في سورة الحمد فضحكوا عليه. وجاء رجل إلى فقيه فقال: أفطرت يوماً في رمضان فقال: اقض يوماً مكانه، قال: قضيت. وأتيت أهلي وقد عملوا مأمونية فسبقتني يدي إليها فأكلت منها. فقال: اقض يوماً آخر مكانه. قال: قضيت. وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة فسبقتني يدي إليها. فقال: أرى أن تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك. وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له: أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل، واني توضأت وصليت فيبينما أنا في الصلاة إذا أحسست ببلل في سراويلي يتلذق فشممته فإذا رائحته خبيثة قال الفقيه: عافاك الله: خريت باجماع المذاهب. وجاء رجل إلى فقيه قال: أنا رجل أسوأ في ثيابي حتى تفوح روائحي فهل يجوز أن أصلي في ثيابي؟ قال: نعم، لكن لا كثر الله في المسلمين مثلك. ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهلك في عمش عينيه، وقد ساقه، وضعف ركبتيه، وتنن إبطيه، ويخر فيه، وجمود كفيه. فقال له الأعمش: قم قبحك الله فقد أريتها من عيوب ما لم تكن تعرفه. وسكن بعض الفقهاء في بيت سقفه يقرقع في كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة فقال له: أصلح السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح الله تعالى. قال: أخشى أن تدركه رقة فيسجد.

## الفصل الثالث: في نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة قرأ يوماً في المصحف «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها»<sup>(١)</sup> فقال لغلامه أطلق البغلة ورزقها على الله فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكُل من قشور الباذنجان، وقشور الرمان، وقشور البطيخ، وقمامات الطريق فماتت. فأمر الغلام باحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها، وقالوا: ليس لنا شيء نرتزق منه إلا من مثل هذا وسيدنا رجل غني وله أشياء كثيرة العدالة والترويح والمقود والوراقة والسجن والإطلاق وحاكمية الحكم وأجرة اليمين والتدريس والأوقاف. فقال لهم القاضي: ألمثلي يقال هذا؟ وأنتم لكم اثنا عشر باباً من أبواب المنافع: منها الوسخ، والزفر، والهلع والولع، وبيت النبذة، وشركة النفوس، وجباية الأسواق، وحرق النار، وسلب الشطار، ولكم الصياح وثمان الإصلاح وما تروحوها من هذه البغلة بلا شيء، جلدها للذباغين، وذئبها للفرابلية، ومعرفتها للشعار وتطبيقها للبطار. قال: فقدم أحدهم إليه وقال: بحق مَنْ تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشيء ولا تدعنا نروح بلاش. تفسير هذه الألفاظ، الزفر النساء والزنايات، والوسخ المراحض، والهلع جباية الأسواق. والولع القمار، وبيت النبذة محل المزرة، وشركة النفوس كل من حمل ميتاً، ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه، وسلب الشطار كل من شتقوه لهم سلبه.

وروي يحيى بن أكثم قاضياً على أهل جبلة فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة فقال لأهل جبلة إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير فوعده بذلك فلما جاء الرشيد تقاعدوا<sup>(١)</sup> عنه فسرح القاضي لحيته، وكبر عمته وخرج فرأى الرشيد في الحراقة ومعه أبو يوسف القاضي فقال: يا أمير المؤمنين نِعَمَ القاضي قاضي جبلة عدل فينا وفعل كذا وكذا وجعل يثني على نفسه. فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك فقال له الرشيد: ممّ تضحك؟ فقال: يا أمير المؤمنين المثني على القاضي هو القاضي. فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ثم أمر بعزله فعزل. وأحضر رجل ولده إلى القاضي فقال: يا مولانا إن ولدي هذا يشرب الخمر ولا يصلي. فأنكر ولده ذلك فقال أبوه: يا سيدي أفتكون صلاة بغير قراءة، فقال الولد: إني أقرأ القرآن. فقال له القاضي: اقرأ حتى أسمع فقال:

علق القلب الربابا      بعد ما شابت وشابا  
إن دين الله حقيق      لا أرى فيه ارتيابا

فقال أبوه: إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه. فقال القاضي: وأنا الآخر أحفظ آية منها وهي:

فارحمي مضمي كئيبا      قد رأى الهجر عذابا

ثم قال القاضي: قاتلك الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به.

وتقدم اثنان إلى أبي صمصامة القاضي فادعى أحدهما على الآخر طنبوراً، فأنكر فقال للمدعي: ألك بيته؟ فقال: لي شاهدان فاحضر رجلين شهدا له. فقال المدعي عليه: سلهما يا سيدي عن صناعتهما. فأخبر أحدهما أنه نباد، وقال الآخر إنه قواد. فالتفت القاضي إلى المدعى عليه وقال: أتريد على طنبور أعدل من هذين إدفع إليه طنبوره.

وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبي يوسف القاضي في الفالودج واللوزنج أيهما أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب، فأمر الرشيد باحضارهما وقدم بين يدي أبي يوسف فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين، ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته.

وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال: يا سيدي، إن أمراتي قحبانا، فقال له القاضي: طلقناها. فقال عشقانا فقال: قودناها. وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدّين فجعل القاضي يميل إليها بالحكم فقال الرجل: أصلح الله القاضي، حجتي أوضح من هذا النهار. فقال له القاضي: اسكت يا عدو الله فإن الشمس أوضح من النهار قم لا حق لك عليها. فقالت المرأة: جزاك الله عن ضعفي خيراً فقد قويته. فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتي خيراً فقد أوهيتها.

ورفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغي الفرقة، وزعمت أنه يبول في الفراش كل ليلة فقال الرجل للقاضي: يا سيدي لا تعجل عليّ حتى أقص عليك قصتي إني أرى في منامي كأنني في جزيرة في البحر، وفيها قصر عال، وفوق القصر قبة عالية، وفوق القبة جمل، وأنا على ظهر الجمل، وأن الجمل يطأطأ برأسه ليشرب من البحر، فإذا رأيت

ذلك بليت من شدة الخوف. فلما سمع القاضي ذلك بال في فراشه وثيابه وقال: يا هذه أنا قد أخذني البول من هول حديثه فكيف بمن يرى الأمر عياناً؟

وحكي أن تاجراً عبر إلى حمص فسمع مؤذناً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمداً رسول الله فقال: والله لأمضين إلى الإمام وأسأله. فجاء إليه فراه قد أقام الصلاة وهو يصلي على رجل، ورجله الأخرى ملوثة بالعدرة فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر فسأل عنه فقيل إنه في الجامع الفلاني يبيع الخمرة فمضى إليه فوجده جالساً؛ وفي حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمراً وهو يحلف للناس بحق المصحف إن الخمر صرف ليس فيها ماء وقد ازدحمت الناس عليه وهو يبيع فقال: والله لأمضين إلى القاضي وأخبره فجاء إلى القاضي فدفق الباب فانفتح فوجد القاضي نائماً على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة فقال التاجر: قلب الله حمص. فقال القاضي: لم تقول هذا؟ فأخبره بجميع ما رأى فقال: يا جاهل أما المؤذن فإن مؤذناً مرض فاستأجرنا يهودياً صيتاً يؤذن مكانه فهو يقول ما سمعت، وأما الإمام فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعاً فتلوثت رجله بالعدرة، وضاق الوقت فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى ولما فرغ غسلها، وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم، وعنه ما يؤكل فهو يعصره خمراً ويبيعه ويصرف ثمنه في مصالح الجامع، وأما الغلام الذي رأيته فإن أباه مات وخلف مالا كثيراً وهو تحت الحجر وقد كبر وجاءه جماعة شهدوا عندي أنه بلغ فأنا أمتحنه. فخرج التاجر من البلد وحلف أنه لا يعود إليها أبداً.

### الفصل الرابع: في نوادر النحاة

وقف نحوي على بيع يبيع أرزا بمسل، ويقلا بخل، فقال بكم الأرز بالاعسل. والأخلل وبالأقبل؟ فقال: بالأصنع في الأروس والأضرط في الأذقن. ووقع نحوي في كنيف فجاء كناس ليخرجه فصاح به الكناس ليعلم أهو حي أم لا، فقال له النحوي: أطلب لي حبلاً دقيقاً، وشدني شداً وثيقاً، واجنبي جذباً رقيقاً. فقال له الكناس: امرأتي طالق إن أخرجتك منه ثم تركه وانصرف.

وكان لبعضهم ولد نحوي يتعمر في كلامه فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت فاجتمع عليه أولاده وقالوا له: ندعو لك فلاناً أخانا؟ قال: لا، إن جاءني قتلني. فقالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلم. فدعوه فلما دخل عليه قال له: يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل الجنة وتفوز من النار، يا أبت والله ما أشغلتني عنك إلا فلان فإنه دعاني بالأمس فأهرس، وأعدس، واستبذج، وسكيج وطهيج وأفرج، ودجج، وأبصل، وأمضر ولوزج، وافلوزج، فصاح أبوه: غمضوني فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحي.

وجاء نحوي يعود مريضاً فطرق بابه فخرج إليه ولده، فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم ورمت رجله. قال: لا تلحن، قل رجلاه ثم ماذا؟ قال: ثم وصل الورم إلى ركبته. قال: لا تلحن قل إلى ركبته، ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله الله في بظر عيالك وعيال سيويه ونقطويه وجحشويه. وعاد بعضهم نحويّاً فقال: ما الذي تشكوه قال: حمى جاسية، نارها حامية منها الأعضاء واهية، والعظام بالية. فقال له: لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية.

## الفصل الخامس: في نوادر المعلمين

قال الجاحظ مرتت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة، وعصا قصيرة، وصولجان، وكرة، وطبل، وبوق، فقلت: ما هذه؟ فقال: عندي صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي بضربة فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه فتقوم إلي الصغار كلهم بالألواح فاجعل الطبل في عتقي، والبوق في فمي، وأضرب الطبل وأنفخ في البوق، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم.

وحكى الجاحظ أيضاً قال: مرتت على خربة فإذا بها معلم وهو ينيح ينيح الكلاب. فوفقت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار قبض عليه المعلم وجعل يلطمه ويسبّه. فقلت: عرّفني خبره. فقالت: هذا صبيّ لثيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتي ظنّ أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه.

وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه. فقال له: إما أن تنتهي وإلا فعلت بأمك. فقالت: يا معلم هذا صبي ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينه ويتوب. فقام وفعل بها أمام ولدها.

وقال الجاحظ رأيت معلماً في الكتاب وحده فسألته فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون. فقلت: أحب أن أراهم. فقال: ما أشير عليك بذلك. فقلت: لا بد. قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لثلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمي.

وقال بعضهم: رأيت معلماً وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما: هذا عضّ أذني. فقال الآخر: لا والله يا سيدنا هو الذي عضّ أذن نفسه. فقال المعلم: يا ابن الزانية هو كان جمل بعض أذن نفسه.

وقال بعضهم: رأيت معلماً وهو يصلي العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذي عملت، وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة.

حكى عن الجاحظ أنه قال: ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من التفغل ثم رجعت عن ذلك، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب. فدخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة فسلمت عليه فرد عليّ أحسن ردّ، ورحب بي فجلست عنده، وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المتقول وأشعار العرب فإذا هو كامل الآداب. فقلت هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره. فجئت يوماً لزيارته فإذا بالكتاب مغلق ولم أجده. فسألته عنه فقيل مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء. فذهبت إلى بيته وطرقت الباب فخرجت إليّ جارية. وقالت: ما تريد؟ قلت: سيدك. فدخلت وخرجت وقالت: باسم الله. فدخلت إليه وإذا به جالس فقلت: عظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت فعليك بالصبر. ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: فأخوك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا، فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيتي. فقلت في نفسي: هذه أوّل المناحس. فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها. فقال: أنظنّ أني رأيته؟ قالت: وهذه منحة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت

من لم تر؟ فقال: اعلم أنني كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول: (١)

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة  
لا تأخذين فؤادي تلعين به  
ردّي عليّ فؤادي أينما كانا  
فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت في نفسي لولا أنّ أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو  
فلا رجعت ولا رجعت الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار. فقلت: يا هذا إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إيقائه وأول ما أبدأ بك إن شاء الله تعالى.

### الفصل السادس: في نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد فلما مثل بين يديه قال له: ما الذي يقال عنك؟ قال: إني نبي كريم. قال: فأني شيء يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت. قال: أريد أن تجعل هذه الممالك المرد القيام الساعة يلحى، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد يلحى، وأغير هذه الصورة الحسنة؟ وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مرداً في لحظة واحدة. فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة.

وتنبأ إنسان فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة. فقال: أطرح لكم حصة في الماء فتذوب قالوا: رضينا. فأخرج حصة معه وطرحها في الماء فذابت. فقالوا: هذه حيلة ولكن نعطيك حصة من عندنا ودعها تذوب. فقال: لستم أجل من فرعون، ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعباناً فضحك المأمون وأجازه.

وتنبأ رجل في أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: وإلى من بعثت؟ قال إليك. قال: أشهد أنك لسفيه أحمق. قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشيء.

وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى أنه إبراهيم الخليل. فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين. قال: وما براهينه؟ قال: أضرمت له نار وألقي فيها فصارت برداً وسلاماً، ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمناً بك. قال: أريد واحدة أخف من هذه قال: فبراهين موسى. قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى، وضرب بها البحر فانفلق وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء. قال: وهذه عليّ أصعب من الأولى. قال: فبراهين عيسى: قال: وما هي؟ قال إحياء الموتى. قال مكانك قد وصلت. أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكرم وأحييه لكم الساعة. فقال يحيى: أنا أول من آمن بك وصدق.

وتبأ آخر في زمن المأمون، فقال المأمون: أريد منك بطيخاً في هذه الساعة، قال: أمهلني ثلاثة أيام، قال: ما أريده إلا الساعة، قال: ما أنصفتني يا أمير المؤمنين، إذا كان الله تعالى الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجها إلا في ثلاثة أشهر، فما تصبر أنت عليّ ثلاثة أيام فضحك منه ووصله.

وتبأ آخر في زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له: من أنت؟ قال أنا أحمد النبي، قال: لقد ادعيت زوراً. فلما رأى الأعوان قد أحاطت به، وهو ذاهب معهم، قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي فهل تلمه أنت؟ فضحك المأمون منه وخلقى سبيله.

وتبأ آخر في زمن المتوكل فلما حضر بين يديه قال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: فيما الدليل على صحة نبوتك؟ قال: القرآن العزيز يشهد بنبوتي في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾<sup>(١)</sup> وأنا أسمي نصر الله. قال: فما معجزتك؟ قال: اتنوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي. فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى: أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته. فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبي الله وإنما يعطي زوجته من لا يؤمن به فضحك المتوكل وأطلقه.

وادعى رجل النبوة في زمن خالد بن عبد الله القسري وعارض القرآن فأتى به إلى خالد، فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن. قال: بماذا؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثِرَ﴾ الآية، وقلت: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجَاهِرَ، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر. فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب. فتمر به خلف بن خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة وقال: إنا: أعطيناك العود، فصل لربك من قومود، وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأتى المأمون برجل ادعى النبوة فقال له: ألك علامة؟ قال: علامتي إني أعلم ما في نفسك. قال: وما في نفسي. قال: في نفسك أنني كاذب. قال: صدقت. ثم أمر به إلى السجن. فأقام فيه أياماً ثم أخرجه، فقال له: أوحى إليك بشيء؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الجبوس. فضحك منه وخلقى سبيله.

وأتى بامرأة تنبأت في أيام المتوكل فقال لها: أنت نبية. قالت: نعم. قال: أتؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم. قال: فإنه ﷺ قال لا نبي بعدي. قالت: فهل قال لا نبية بعدي؟ فضحك المتوكل وأطلقها.

وتبأ رجل يسمى نوحاً وكان له صديق نهاء فلم يقبل، فأمر السلطان بقتله، فصلب، فمر به صديقه فقال له: يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصاري<sup>(٢)</sup>.

## الفصل السابع: في نوادر السؤال

وقف أعرابي بباب يسأل فقال له صغير: من بباب الدار بورك فيك؟ فقال: قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيراً. ووقف سائل على باب فقال: يا أصحاب المنزل. فيادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال: فتح الله عليك، فقال السائل: يا قرنان كنت تصبر لعلمي جئت أعودك إلى وليمة.

(١) سورة: النصر، الآية: ١.

(٢) الصاري: عمود السفينة.

وقال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل بقوم فقال: إني جائع. فقالوا له: كذبت. فقال: جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم.

ووقف سائل على باب فقالوا: يفتح الله لك. فقال: كسرة، فقالوا: ما تقدر عليها، قال: فقليل من بر، أو فول، أو شعير. قالوا: لا تقدر عليه. قال: فقطعة دهن، أو قليل زيت، أو لبن، قالوا: لا نجد، قال: فشربة ماء. قالوا: وليس عندنا ماء. قال: فما جلوسكم ههنا، قوموا فاسألوا فأنتم أحق مني بالسؤال.

### الفصل الثامن: في نوادر المؤذنين

قبل لمؤذن: ما نسمع أذانك فلو رفعت صوتك. فقال: أني أسمع صوتي من مسيرة ميل. وقال بعضهم: رأيت مؤذناً أذن ثم غدا يهرول. فقلت له: إلى أين؟ فقال: أحب أن أسمع أذاني أين يبلغ.

واختصم رجلان في جارية فأودعاها عند مؤذن فلما أصبح وفرغ من الأذان قال: لا إله إلا الله ذهب الأمانة من الناس. فقالوا له: كيف ذهب الأمانة من الناس؟ قال: هذه الجارية التي وضعت عندي قيل إنها بكر، فلما أتيتها وجدتها ثيباً.

وسمع مؤذن حمص في سحور رمضان: تسحروا فقد أمرتكم، وعجلوا في أكلكم قبل أن أؤذن فيسخم الله وجوهكم. وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة، فقبل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضي. فأتوه فقالوا: السلام عليكم. فأخرج دفترأً وتصفحها وقال: عليكم السلام فعدلوا المؤذن.

وسمعت امرأة مؤذناً يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول: الصلاة خير من النوم. فقالت: النوم خير من هذه الصلاة. ومر سكران بمؤذن رديه الصوت فجلد به الأرض، وجعل يدوس بطنه، فاجتمع إليه الناس فقال: والله ما بي رداة صوته ولكنه شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين.

### الفصل التاسع: في نوادر النواتية

حكى أن بعض النواتية تولى أحد الكراسي السلطانية لما ساعده الزمان، فبينما هو جالس في داره إذ سمع صوتاً وراء الباب فقال لزوجه: إن أسمع غاغة في البرّ حلي قلوعي واعلمي أسفيري على جاموري، وقدمي إليّ أسفالة الرجل، وقيميني بملدة<sup>(١)</sup>. فامتثلت كلامه فتزل وجلس على مصطبه، وقد علت مرتبته، واصطفت المقدمون بين يديه، ووقفت الحيرتية حواله وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة، وعمامته في حلقه، والدم نازل من أنفه، وهو يصيح بصوت عال: أنا بالله وبإلوهي. فقال له: تعالى يا شيخ ما لي أرى أرطمونك في حلقك، وشورتك مكسورة، وأنت بتزلع ماء متغير، وتقيم الهليليا في الساحل دخل عليك شرد غربي، وإلا دخلت على بواجي. فقال الشيخ: والله يا سيدي بعض نواتية البحر عمل بي هذا. فقال: يا أولاد، جيبوا غريمه ويخسوا عدته، وقشطوا ظهره، وجروه على

(١) ملدة: يغرب في ألفاظ حرفته (البحارة).

مقدمه . فامتثلوا كلام الأمير، وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له: ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر، أنت الذي قطعت الفلوس وخرجت في الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته، وكسرت اسقائه لو انصلح كنت عملتك في بدرأوة، وعقلك في الصاري. فلما سمع الرجل كلام الوالي علم أنه من أولاد المعيشة. فقال له بهمتره النواتية: والله يا خوند هو كارزني في معاشي اجصطن على الوحسة، وأنا عايم في الليل إلا وشرد جاني من الشرق كابس هز أطرافي، وكسر شابورتني، وقطع لباني وما هو بحمد الله على وير السلامة، وإن كان انصلح فيه شيء فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلقاط أسد فتحه، وأعيد له وسقه، وأخليه يروح في طريقه. فقال له الوالي: أنت بتقذف في وجهي، وتطرح مقاديفك حتى نعب على الحجر، يا رجالة الصاري سلسلوا أطرافه، وعروا مقاديفه، ويلوا شبيئة اللبان، وانزلوا عليه وأوسقوه الجنين والظهر حتى تلعب الميه على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برا وجنب جوا قدام الخن وراء الصاري. فأكل علقه من كعبه إلى أذنه. فقالت النواتية: يا خوندا هو خضست عليه الطمية البحرية. قال: مدارتين وقيموه. فلما أقاموه باس يد الأمير وقال: يا خوند سألتك بهبوب الرياح، وطيب النسيم، الرب لا ييليك بجر اللبان في الحلافي وأنت حافي في الصيافي ويكفيك شر الأربعينات. قال: فرق عليه قلب الأمير وقال له: وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد، وعياط الركاب عند قيام الموجة، وبعد البر في أيام النيل، لولا شفاعة الركاب لكنت أهد أسقالتك، وأعد في زوايدك، حتى أخلي ظهرك جيفة. فقال له: والله يا خوند ما بقي جنبي يحمل هذا الوثق العظيم، ولكن إن عدت أعير لهذا الوجه أخسف من أضلاعي، لوح وغرقني بالقائم. فقال له الأمير: أحمد الله على السلامة، وأخرج في دي الطيابة وكتاب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية النواتية الله لك الله لي يا عملات على أبوس<sup>(١)</sup>.

### الفصل العاشر: في نوادر جامعة

سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة فصامت إلى الظهر، ثم أفطرت. وقالت: يكفيني كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان. وأسلم مجوسي في شهر رمضان فقتل عليه الصيام فترل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه، فقال: من هذا؟ فقال: أبوك الشقي يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس. وسئل بعض القصاص عن نصراني قال لا إله إلا الله لا غير إذا مات أين يدفن؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذنباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وأهدي إلى سالم القصاص خاتم بلا فص فقال: إن صاحب هذا الخاتم يعطي في الجنة غرفة بلا سقف. وبنى بعض المغفلين نصف دار، وبنى رجل آخر النصف الآخر فقال المغفل يوماً: قد عولت على بيع النصف الذي لي، وأشتري به النصف الآخر لتكمل لي الدار كلها. وسئل جامع الصيدلاني عن عمر ابته فقال: لا أدري إن أمها ذكرت أنها ولدت في أيام البراغيث. وقيل لطيفلي: أي سورة تعجبك في القرآن؟ قال: المائدة. قيل: فأي آية؟ قال: ﴿فزرهم يأكلوا ويمتعوا﴾. قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿آتنا خدائنا﴾، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾. قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿وما هم بمخرجين﴾. وقيل لعثمان بن دراج الطفيلي يوماً: كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها؟ قال أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك فيدخلوني. وقيل له: أتعرف بستان فلان؟

(١) أبوس: لم نستطع متابته بالشرح لغزارة الحوشي من الكلام حيث تعمد تبجه والإغراب فيه.



قال: إي والله إنه الجنة الحاضرة في الدنيا، قيل: لم لا تدخله وتأكل من ثماره، وتستظل بأشجاره، وتسبح في أنهاره؟ قال: لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال. وقيل له يوماً: ما هذه الصفرة التي في لونك؟ قال: من الفترة بين الصحنين. وقال: مرت بنا جنازة يوماً ومعى ابني، ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه، ولا غطاء ولا وطاء، ولا خبز ولا ماء فقال ابني: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

وحكي عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقاً شديداً فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: إنني أرقت في هذه الليلة، وضاق صدري، ولم أعرف ما أصنع. وكان خادمه مسرور واقفاً أمامه فضحك فقال له: ما يضحكك استهزاء بي، أم استخفافاً؟ فقال: وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمداً، ولكن خرجت بالأمس أتمشي بظاهر القصر إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلاً واقفاً يضحك الناس يقال له ابن المغازلي فتكورت الآن في شيء من حديثه وكلامه فضحكك والعفو يا أمير المؤمنين. فقال له الرشيد: انتهي الساعة به. فخرج مسروراً إلى أن جاء إلى ابن المغازلي فقال له: أجب أمير المؤمنين. فقال: سمعاً وطاعة. فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشيء يكون لك منه الربع والبقية لي. فقال له: بل اجعل لي النصف، ولك النصف. فأبى، فقال: الثلث، ولك الثلثان. فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم. فلما دخل على الرشيد سلم فأبغ، وترجم فأحسن، ووقف بين يديه فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحكنتي أعطيتك خمسمائة دينار، وإن لم تضحكني أضربك بهذه الجراب ثلاث ضربات. فقال ابن المغازلي في نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب وظن في نفسه أن الجراب فارغ. فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالاً عجيبية تضحك الجلمود فلم يضحك الرشيد ولم يتسم. فتمعجب ابن المغازلي وضجر وخاف فقال له الرشيد: الآن استحقيت الضرب ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان فضربه، فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور. فقال: العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين. قال: قل ما بدا لك. قال: إن مسروراً شرط عليّ شرطاً، واتفقت أنا وإياه على مصلحة، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان، ولي فيه الثلث وما أجاني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم، وقد شرط عليّ أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصبي منها واحدة، ونصبي اثنتان وقد أخذت نصبي، وبقي نصبي. قال: فضحك الرشيد ودعا مسروراً فضربه، وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقي فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار فأخذ كل واحد منهما خمسمائة. ورجع ابن المغازلي شاكرًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب السابع والسبعون: في الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

### الفصل الأول: في الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ﴾<sup>(١)</sup> اختلف في سبب نزولها فقال مقاتل: إن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء في رمضان فندم على ذلك ويكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع مغتماً وكان ذلك قبل الرخصة فنزل هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود: كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: إن قوماً قالوا للنبي ﷺ: اقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فتناديه، فنزلت هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ أي أقبل عبادة من عبدني فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول. وقال قوم إن الله تعالى يجيب كل الدعاء فيما أن يجعل الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عن الداعي، وإما أن يدخر له في الآخرة، لما رواه أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها ثلاثاً: إما أن يجعل له دعوته، وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يكف عنه من سوء بمثلها».

وروي أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة في الجنة، فبينما العبد المؤمن في قصره، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله فيقول ما هذا، أليس الله قد أنعم عليّ وأكرمني. فيقولون ألسنت كنت تدعو الله في الدنيا، هذا دعاؤك الذي كنت تدعوه قد أدخره<sup>(٢)</sup> لك. واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط، فشرط الداعي أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط في قبضته ومسخره بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب. فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه، وأن يكون متجنباً لكل الحرام، ولا يمل من الدعاء. ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً كما قال عليه الصلاة والسلام: ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم فيدخل في الإثم كل ما يإثم به من الذنوب، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. قال ابن عطاء الله: وإن للدعاء أركاناً، وأجنحة، وأسباباً وأوقاناً، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء، وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقفه الأسحار، وأسبابه الصلاة على النبي ﷺ، ومن شروط الدعاء أن يكون سليماً من اللحن كما قال بعضهم:

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) أدخره: أحفظه.

ينادي ربه باللحن ليثُ كذاك إذا دعاه لا يجاب

وقيل: إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف، ولا شرطي، ولا جاب، ولا عشار، ولا صاحب عرطة وهي الطنبور، ولا صاحب كوبة وهي الطبل الكبير الضيق الوسط. ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعي مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه لما روي عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ريكم حي كريم ليستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً<sup>(١)</sup> وأن يسمح بهما وجهه بعد الدعاء». لما روي عن عمر قال كان رسول الله ﷺ: إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يسمح بهما وجهه، وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ ليستبين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو ليخطفن الله أبصارهم، وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء لقوله تعالى: ﴿أدعوا ريكم تضرعاً وخفية﴾<sup>(٢)</sup> وعن أبي عبد الرحمن الهمداني قال صليت مع أبي إسحاق الغداة فسمع رجلاً يجهر في الدعاء فقال: كن كزكريا ﴿إذا نادى ربه نداء خفياً﴾<sup>(٣)</sup> وينبغي للداعي أن لا يتكلف، وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع لقوله ﷺ: إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول وعمل. وقيل ادعوا بلسان الذلة والاحترار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها كما في آخر سورة البقرة.

وعن سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس إذ قال: ﴿أنظرنني إلى يوم يعثون﴾<sup>(٤)</sup> وعن النبي ﷺ: «إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة، فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ومن أبطأ عليه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال». وعن سلمة بن الأكوع قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال: «سبحان ربي الأعلى الوهاب». وعن أبي سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ، وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء، وأن يكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً. وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة وذلك وقت السحر، ووقت الفطر وما بين الأذان والإقامة، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي الثلث الأخير من الليل، لما جاء في الحديث: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه» وفي حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء، وأوقات الاضطراب، وحالة السفر والمرض هذا كله جاءت به الآثار.

قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: دعا رسول الله ﷺ في مسجد الفتح ثلاثة أيام يوم الاثنين ويوم الثلاثاء واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور في وجهه. قال جابر: ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة. وفي بعض الكتب المنزلة يا عبدي إذا سألت فاسألني فإني غني، وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي، وإذا أفشيت شرك فافشه إلي، فإني وفي، وإذا أقرضاً فأقرضني فإني ملي، وإذا دعوت

(١) صفراً: خلواً.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٥٥.

(٣) سورة: مريم، الآية: ٣.

(٤) سورة: الأعراف، الآية: ١٤.

فادعني فإني حفي. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفر فأغفر له».

وقال وهب بن منبه: بلغني أن موسى مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً. فقال موسى: يا رب أما تستجيب لعبدك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له. قال: يا رب لم ذلك؟ قال: لأن في بطنه الحرام. ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا يا أبا إسحاق ما لها ندعو فلا يستجاب لنا، قال لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء، الأول: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه. الثاني: زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سته. الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به. الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها. الخامس: قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه. السادس: قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها. السابع: قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها. الثامن: قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له. التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس، وتركتم عيوبكم. العاشر: دفتم موتاكم ولم تعتبروا بهم. وكان يحيى ابن معاذ يقول: من آثر الله بأسائه جاد الله عليه بمغفرته، ومن لم يمت على الله بطاعته أوصله إلى جته ومن أخلص لله في دعوته من الله عليه بإجابته. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء. وعن أنس رضي الله تعالى عنه يرفعه: «ألا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد».

## الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمة الله تعالى: اللهم إني أسألك الجنة، بلا عمل عملك، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته. ودعت أعرابية عند البيت فقالت: إلهي لك أذلّ عليك أدل. وكان من دعاء بعض الصالحين: اللهم إن كنا عصيانك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك، وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك. ومن دعاء سلام بن مطيع: اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة يبلاء فبلغنيها بالعافية. وقيل لفتح الموصلي ادع الله لنا. فقال: اللهم هبنا عطاءك، ولا تكشف عنا غطاءك. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي فإن لم تقبل تعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصاب على مصيبيته. اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع. وقال الحسن من دخل المقابر فقال: اللهم رب الأرواح الفانية، والأجساد البالية، والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخل عليها روحاً من عندك وسلاماً منك، كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسناً. وحكي عن معروف القاضي أن الحجيج كانوا يجتهدون في الدعاء وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو فخشع قلبه وبكى فقال بلغته: اللهم إنك تعلم أنني لا أحسن شيئاً من الدعاء فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا فرأى بعض الصالحين في منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركماني لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة. وقال الأصمعي: حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت وهي: اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني. وركب إبراهيم بن أدهم في سفينة فهاجت الرياح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك وكان إبراهيم نائماً في كساء فاستوى جالساً وقال: أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك، فذهب الريح وسكن البحر.

وقال الثوري: كان من دعاء السلف: اللهم زهدنا في الدنيا، ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها. وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال: قال اللهم إني أكثر بكل ما كفر به محمد، وأؤمن بكل ما آمن به ثم يضع رأسه. وسمعت بدوية تقول في دعائها: يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم. فزجرها رجل فقالت: دعني أصف ربي، وأمجّد إلهي بما تستحسنه العرب. وقال الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار»: سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليماني: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والتزاهة على القبيح على طريق الاستعارة، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم، وأبي المكارم ولا بين الجواد، والعريض الجفنة، ولا بين المتزه والأبيض الوجه. وقيل لأعرابي: أتحنن أن تدعو ربك؟ قال: نعم، ثم قال: اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك.

وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى فيدعو فتبلىء عنه الإجابة، فقال: بلغني أن الله تعالى يقول: «كيف أرحمه من شيء به أرحمه» وقال طاوس: بينما أنا في الحجر ذات ليلة إذ دخل عليّ علي بن الحسين فقلت رجل صالح من أهل بيت الخير لاسمعن دعاه فسمعت يقول: «عُيْدُكَ بِفَنَّاكَ مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، فما دعوت بهما في كرب إلا فرج عني. ودعا أعرابي فقال: اللهم إنا نبات نعمتك. وقال ابن المسيب: سمعت من يدعو بين القبر والمنبر: اللهم إني أسألك عملاً باراً ورزقاً داراً، وعيشاً قاراً، فدعوت به فما وجدت إلا خيراً. ودعت أعرابية بالموقف فقالت: أسألك سترك الذي لا تزيله الرياح، ولا تخرقه الرماح. وقيل: اتقوا مجانيق الضعفاء، أي دعواتهم. ودعا أعرابي فقال: اللهم امح ما في قلبي من كذب وخيانة، واجعل مكانه صدقاً وأمانة. وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك ويادر القيام ف جذب ثوبه وقال: أما لك إلى ربك حاجة؟ وقال سفيان الثوري: سمعت أعرابياً يقول: اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان بعيداً فقربه وإن كان قريباً فيسره، وإن كان قليلاً فكثره، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه، وقال أبو نواس:

أحييتُ من شعرِ بشارٍ وكلمتُهُ  
يتأ لهجتُ به في شعرِ بشارٍ  
يا رحمةَ الله حلّي في منازلنا  
وجاورينا فدتك النفس من جارٍ

وكان بشار يعني بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتنزل فيها، ونعني بها هنا رحمة الله التي وسعت كل شيء. وسمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً يقول وهو متعلق بأستار الكعبة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا ييرمه إلحاح الملحّين أذقني برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. فقال علي: والذي نفسي بيده لو قلتها عليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك. ومن دعائه رضي الله عنه: اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبدل جاهي بالأقار فاسترزق طامعاً رزقك من غيرك، وأستمطف شرار خلقك، وأبتلي بحمد من أعطاني وأقتن بدم من منعتني، وأنت من وراء ذلك كله وليّ الإجابة والمنع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ما انتهيت إلى الركن اليماني قط إلا وجدت جبريل قد سبقني إليه يقول: قل يا محمد اللهم أني أعوذ بك من الكفر، والفقر، والفاقة. وهي من مواقف الخزي.

وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك: قل يا كثير الخير يا دائم المعروف رد عليّ ابني. فقالها فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك. وكان أبو مسلم الخرساني إذا نابه أمر، قال: يا

مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. وقال جعفر بن محمد: ما المبتلي الذي اشتد بلاؤه بأحق الدعاء من المعافي الذي لا يأمن وقوع البلاء. وكان الزهري يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول: اللهم إني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة. وعن عقبة بن عبد الغافر: دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية. واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات. وعن أبي الدرداء قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتاً. فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: من الداعي على الكلب أنفأ؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: لقد دعوت الله باسمه إذا دعيت به أجاب، وإذا سئل به أعطى، قال: كيف دعوت الله؟ قال: قلت اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام.

وقيل: إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصة فمالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صمائه فأنى إلى رجل من أصحاب الحسن فشكا له ما أصابه من الحصة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمي وهو: يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم. قال الراوي: فما برحنا حتى خرجت الحصة من أذنه ولها طنين حتى ضربت الحائط. وعن أنس: إذا قال العبد يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل لييك عبدي. وعنه قال: مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول يا أرحم الراحمين فقال له رسول الله ﷺ: «سل حاجتك فقد نظر الله إليك». وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر، فإن الله يستجيب له». وروي عن علي بن زفر عن أخ له وكان فاضلاً صالحاً فقال: دعوت الله أن يريني الاسم الأعظم الذي إذا دعيت به أجاب فقممت ليلة أصلي فسمعت قعقة في سقف البيت ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهي وإذا مكتوب بالنور فقرأته: يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام. ومن دعاء الكرب ما روي عن وهب أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: هل تجد فيما قرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال: نعم. اللهم إني أسألك يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين فإن لكل مسألة منك سمعاً حاضراً، وجواباً عتيداً، ولكل صامت منك علماً ناطقاً محيطاً، أسألك بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة أن تفعل بي كذا وكذا. فقال ابن عباس هذا دعاء علمته في النوم ما كنت أرى أن أحداً يحسنه. وعن وهب أيضاً قال: لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة فهبط إليه جبريل وقال: يا آدم هل أعلمك شيئاً تنفع به في الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال: اللهم أتمم النعمة حتى تهنيي المعيشة. اللهم اختم لي بخير حتى لا تضرنني ذنوبي، اللهم اكفني مؤنة الدنيا، وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة معافي.

وعن معروف الكرخي قال: اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام يزعمهم وأهبط الله تعالى عليه جبريل، وفي باطن جناحه مكتوب: اللهم إني أدعوك باسمك العظيم الوتر، وأدعوك اللهم باسمك... الأجل الأعز وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالي الذي ملأ الأركان كلها أن تكشف عني ضر ما أصبحت وأمسيت فيه. فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن أرفع عبدي إلي. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: عليكم بهذا الدعاء ولا تستبطئوا الإجابة، فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. اسناد هذا متصل إلى معروف الكرخي ثم هو منقطع ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافياً في قوله والعمل به.

حدث عبد الله بن أبان الثقفي رضي الله عنه قال: وجهني الحجاج بن يوسف في طلب أنس بن مالك فظننت أنه يتوارى عني فأتيته بخيلي ورجلي فإذا هو جالس على باب داره ماداً رجله، قلت له: أجب الأمير. فقال: أي

الأمراء؟ فقلت: أبو محمد الحجاج. فقال غير مكترث به: قد أذله الله، ما أراني أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله، والذليل من ذل بمعصية الله وصاحبك قد بغى وطفى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة والله ليقسم الله منه. فقلت له: أقصر عن الكلام وأجب الأمير. فقام معنا حتى حضر بين يدي الحجاج فقال له: أنت أنس بن مالك؟ قال: نعم. قال: أنت الذي تدعو علينا وتسبنا؟ قال: نعم. قال: ومم ذاك؟ قال: لأنك عاص لربك، مخالف لسنة نبيك تعز أعداء الله، وتذل أولياء الله. فقال له: أتدري ما أريد أن أفعل بك؟ قال: لا. قال أريد أن أقتلك شر قتلة. قال أنس: لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله. قال الحجاج: ولم ذاك؟ قال: لأن رسول الله ﷺ علمني دعاء وقال من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل وقد دعوت به في صباحي هذا، فقال الحجاج: علمنيه. فقال: معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت في الحياة. فقال الحجاج: خلوا سبيله. فقال الحجاج: أيها الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه فكيف نخلي سبيله؟ قال: رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواهما. ثم إن أنساً رضي الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه أذى، باسم الله الكافي، باسم الله المعافي، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، باسم الله على نفسي ودينني، وباسم الله على أهلي ومالي، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر، الله ربي لا أشرك به شيئاً عز جارك وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك، ولا إله غيرك اللهم إني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد وشیطان مرید ومن شر قضاء السوء ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم.

وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل تركناه لطوله وهو: اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وسواس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقياد كل شيء لعظمتك، وخضوع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لي من كل هم وغم أصيحت أو أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً إنك على كل شيء قدير اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي ومترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجه منك مما قضيت لي أَدعوك أماناً وأسألك متأنساً لا خائفاً، ولا وجلاً لأنك أنت المحسن إليّ، وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إليّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع افتقاري إليك فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لثيم مثلي، لكن الثقة بك حملتني على الجراءة على الذنوب. فأسألك بجدوك وكرمك وإحسانك وطولك أن تصلي على محمد وآله وأن تفتح لي باب الفرج بطولك، وتحبس عني باب الهم بقدرتك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأعجز، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروى الحافظ بإسناده عن الزهري عن أبي مسلمة عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول في سجوده: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلي فأيا عبد من عبادك، أو أمة من أمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه من مال أو بدن أو عرض، علمتها أو لم أعلمها ولم أستطع أن أتحللها فأسألك أن ترضيه عني بما شئت وكيف شئت ثم تهبها لي من لذنك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله. يا رب ما تصنع بعذابي ورحمتك وسعت كل شيء فلتسعني رحمتك فإني لا شيء. وأسألك يا رب أن تكرمني برحمتك ولا تهني ببنوحي وما عليك أن تعطيني الذي سألتك يا رب يا الله. فقال رسول الله ﷺ: ارفع رأسك فقد غفر الله لك، إن هذا دعاء أخي

شعيب عليه السلام. وقال صالح المزني: قال لي قاتل في منامي: إذا أحببت أن يستجاب لك فقل: اللهم إني أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطاهر المطهر المقدس. فما دعوت بها في شيء إلا تعرفت الإجابة. وقيل إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك بالعزة التي لا ترام، والملك الذي لا يضام، والعين التي لا تنام، والنور الذي لا يطفأ، وبالوجه الذي لا يبلى، وبالديمومة التي لا تفتنى، وبالحياة التي لا تموت وبالصمدية التي لا تقهر، وبالربوبية التي لا تستذل أن تجعل لنا في أمورنا فرجاً ومخرجاً حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين.

وقال سعيد بن المسيب: دخلت المسجد في ليلة مقمرة وأظن أنني قد أصبحت وإذا الليل على حاله فقممت أصلي وجلست أدعو، وإذا بهاتف يهض من خلفي: يا عبد الله قل. قلت: ما أقول؟ قال اللهم إني أسألك بأنك ملك، وأنت على كل شيء قدير، وما تشاء من أمر يكون. قال سعيد: فما دعوت به قط في شيء إلا رأيت نجحه. وعن الشيخ كمال الدين الدميري قال: روي عن قاضي القضاة عز الدين بن جماعة قال: أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزاري خطيب دمشق قال: أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسي بقراءتي عليه قال: أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبي محمد بن الحافظ أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه وأنا أسمع قال: رويت بالإسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعي الجليل محمد بن سيرين قال: نزلنا بنهر تيرا فأنانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا ارحلوا فإنه لم يتزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه، فرحل أصحابي وتخلفت فلما أمسينا قرأت آيات فما تمت حتى رأيت أقواماً قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتي أكثر من ثلاثين نفرأ وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلي، فما أصبحت رحلت فلقبني شيخ على فرس ومعه قوس عربية فقال لي: يا هذا إنسي أنت أم جني؟ فقلت: بل أنا من بني آدم. قال: فما بالك لقد أتيناك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفي كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد. قلت: حدثني ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ في ليلة ثلاثاً وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار، ولا سبغ ضار وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح. فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله تعالى عهداً أن لا يعود لهذا الأمر. وهذه الآيات وهي أن تقرأ بعد الفاتحة ألم ذلك الكتاب، إلى قوله المفلحون وآية الكرسي إلى قوله وهم فيها خالدون، وآمن الرسول إلى آخر السورة وإن ريكم الله الذي إلى قوله المحسنين، وقل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن إلى آخر السورة، والصفات صفأ إلى قوله لا زب، ويا معشر الجن والانس إن استطعتم إلى قوله فلا تتصرون. لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأته خاشعاً. إلى آخرها، وأنه تعالى جد ربنا إلى قوله شططا. زاد البوني إلى قوله شهاباً رصداً، والله من ورائهم محيط إلى قوله محفوظ. قال محمد بن سيرين: فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب فقال: كنا نسميها آيات الحرز. ويقال إن فيها شفاء من مئة داء وعدوا منها الجذام وغير ذلك. قال محمد بن علي قرأها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى عنه ذلك الفالج. قال البوني هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور، لا ينكرها إلا غبي أو غيور وقد جربها المشايخ وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ، وقد راسخ، وهي على ما رويناها ما رأيناها أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات.

وقال أبو العباس أحمد القسطلاني: سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول: سمع أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار: إن من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار. فعملت ذلك رجاء بركة الوعد فعملت منها



لأهلي، وعملت أعمالاً ادخرتها لنفسي، وكان إذ ذاك بيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه وكان في قلبي منه شيء فاتفق أن استدعانا بعض الأخوان إلى منزله فنحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكراً واجتمع في نفسه وهو يقول يا عم هذه أمي في النار ويصبح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر، فلما رأيت ما به من الإزعاج قلت اليوم أجرب صدقه فألهمني الله تعالى السبعين ألفاً ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى. فقلت في نفسي الأثر حق والذين رووه لنا صادقون، اللهم إن هذه السبعين ألفاً فداء أم هذا الشاب من النار فما استتمت هذا الخاطر في نفسي أن قال يا عم هذه أمي أخرجت من النار والحمد لله، فحصل عندي فائدتان امتحاني لصدق الأثر، وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه.

ومن خاف إنساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب ويقول: يا شديد المحال يا عزيز أذلت بعزتك جميع من خلفت صل على محمد وآله، واكفني فلاناً بما شئت كفاه الله تعالى شره. وروى الثقيفي رحمه الله تعالى بإسناده إلى محمد بن علي بن الحسين تعالى عنه أنه كان يقول لولده: يا بني من أصابته مصيبة في الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين، فإذا انصرف من صلاته يقول يا موضع كل شكوى، ويا سامع كل نجوى، ويا شاهد كل بلوى، ويا منجي موسى والمصطفى محمد، والخليل إبراهيم عليهم السلام أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، وضعفت حركته، وقلت حيلته دعاء الغريب الفقير الذي لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. قال علي بن الحسين رضي الله عنهما: لا يدعوه مبتلى إلا فرج الله عنه.

وقيل: الإسم الأعظم هو باسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد، يا قريباً غير بعيد يا شاهداً غير غائب يا غالباً غير مغلوب، يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام أسألك باسمك باسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أسألك باسمك باسم الله الرحمن الرحيم الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلت له القلوب أن تصلي على محمد وعلى آله وأن تعطيني كذا وكذا إنك على كل شيء قدير. وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البوني، قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهي هذه:

إنسي لأرجو عطفة الله ولا	أقول إن قيل متى ذلك متى
لا بد أن ينشر ما كان طوى	جواداً وإن يمطر ما كان خوى
وربما ينشر ما كان زوى	وربما قنر ما كان لوى
وكل شسيء إلى مدى	والشيء يرجى كشفه إذا انتهى
لطائف الله وإن طال المدى	كلمحة الطرف إذا الطرف رمى
كم فرج بعد إياس قد أتى	وكم سرور قد أتى بعد الأسى
من لا بالله نجاً فيمن نجاً	ومن كل ما يخشى ونال ما رجا
سبحان من نهفو ويعفو دائماً	ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطي الذي يخطي ولا يمنعه	جلاله من العطا لذي الخطا

ومن المنظوم أيضاً:

أنت المعذُّ لكلِّ ما يتوقَّعُ  
يا مَنْ إليه المشتكى والمفزعُ  
أمنُّ فإنَّ الخيرَ عندك أجمعُ  
فبالإفتقار إليك فقري أدفعُ  
فكئن رددت فأبي باب أقرعُ  
وإن كان فضلك عن فقيرك يمنعُ  
الفضلُ اجزُلُ والمواهب أوسعُ  
خير الأنام ومن به يتشَفَّعُ

قد قال في محكم التنزيل ادعوني  
يا جاعلَ الأمرِ بين الكاف والنون<sup>(١)</sup>  
بصبرِ أيوب يا ذا اللطفِ نجيني  
نجيت من ظلمات البحرِ ذا النونِ

يا مَنْ يرى ما في الضمير ويسمع  
يا مَنْ يُرجى للشدائد كلها  
يا مَنْ خزائنُ رزقه في قول كن  
مالي سوى فقري إليك وسيلة  
مالي سوى قرعي لبابك حيلة  
ومن ذا الذي أدعو وأهتف باسمه  
حائساً لجودك أن تقنط عاصياً  
ثم الصلاةُ على النبي وآله

وقال آخر:

يا خالقَ الخلقِ يا ربَّ العبادِ وَمَنْ  
إنسي دعوتك مضطراً فخذُ بيدي  
نَجَّيتَ أيوبَ من بلواه حين دعا  
واطلقُ سراحِي وامنن بالخلاص كما

ثم يقرأ ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين﴾<sup>(٢)</sup> قال بعضهم:

وقد تجدد بي ما أنت تعلمه  
فمن سواك لهذا العبد يرحمه

يا ربِّ ما زال لطفُ منك يشملي  
فاصرفه عني كما عودتني كرما

وقال آخر:

عقد النوائب والشدائد  
وإليه أمرُ الخلق عائد  
صمد تنزهه عن مضادد  
وَأنت في الملكوت واحد  
عك والمئذُّ لكلِّ جاحد  
وم جيوشها نحوي تطارد  
يا مَنْ له حسنُ العوائد  
نُ به على الزمنِ المعاند  
ب والمسؤول والمساعِد  
يأ يا إلهي لا تباعد

يا مَنْ تُحلُّ بذكره  
يا مَنْ إليه المشتكى  
يا حيُّ يا قَيُّومُ يا  
أنت الرقيبُ على العبا  
أنت المعزُّ لمن أطا  
إنسي دعوتك والهم  
فافرَج بحولك كرنتي  
فخضِي لطفك يستعا  
أنت الميسر والميسر  
يسر لنا فرجاً قر

(١) الكاف والنون: أي من أمره (كن).

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٧.

كن راحمي فلقد يشئت      من الأقارب والأباعد  
ثم الصلاة على النبي      وآله الفُـرُّ الأماجد  
وعلى الصحابة كلهم      ما خسر للرحمن ساجد

### دعاء عظيم مأثور

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلمي، إلى بغيض يتهمني، أو إلى قوتي ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بي غضبك، أو يزل سخطك، فلك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين.

### ومما جاء في أذية الناس بعضهم لبعض

دعا رجل لآخر فقال: سرك بما ساءك، ولا ساءك فيما سرك. ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق. ودعا أعرابي لآخر فقال: رحب واديك، وعز ناديك، ولا ألم بك ألم، ولا طاف بك عدم، وسلمك الله ولا أسلمك. وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول: سلمك الله تعالى من الرهق والوهق<sup>(١)</sup> وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل<sup>(٢)</sup>، وسلمك الله تعالى من الشاردات والواردات<sup>(٣)</sup>، وسلمك الله بين الأعتة والأسنة<sup>(٤)</sup>. ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال: لا ابتلاك الله تعالى ببلاد يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار وتناسخت الظلم والأنوار. ودعا بعضهم لآخر فقال: زدك الله تعالى الأمن في مسيرك، والسعد في مصيرك، ولا أخلاك من شر تستجده، وخير من الله تستمده. وعزى شبيب بن شبة يهودياً فقال أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحداً من أهل ملتك.

ومما جاء في الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم، دعا أعرابي على ظالم فقال: لا ترك الله لك شفراً ولا ظفراً أي عيناً ولا يداً. ومن دعاء العرب: فته الله فتاً، وحتة حثاً، وجعل أمره شتى. وخرج أعرابي إلى سفر وكانت له امرأة تكرهه فأتبعته نواة، وقالت: شط نواك، ونأى سفرك ثم أتبعته روثة وقالت رثك أهلك، وورث خيرك، ثم أتبعته حصة وقالت حاص رزقك وحص أثرك. ودعا أعرابي على آخر فقال: أطفأ الله ناره وخلع نعليه. أي جعله أعمى مقعداً. ودعا أعرابي على آخر فقال: سقاء الله دم جوفه أي قتل ابنه، وأخذ دينه، فشرب لبنها. ودعا أعرابي على آخر فقال: بعث الله عليه سنة فاشورة تحلقه كما يحلق الشعر بالنورة. ودعا رجل على أمير فقال:

أزال الله دولته سريعاً      فقد قللت على عنق الليالي

وقالت امرأة من بني ضبة في زوجها:

- (١) الوهق: التعب والوهق الحيل.
- (٢) الزحل: التعثر والإزاحة.
- (٣) الواردات: المصائب.
- (٤) الأسنة: في الحرب.

وما دعوتُ عليه حينَ ألغنه      إلا وأخسرُ يتلوه بآمين  
فليتِه كان أرضُ الرومِ منزله      وليتِي قبله قد صرت للصين

وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم الأحزاب: اللهم كلِّ سلاحهم، واضرب وجوههم، وفزقهم في البلاد تمزيق الرياح للجراد. ودعا رجل فقال: اللهم أكفنا أعدائنا ومن أرادنا بسوء فلتخط به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولايد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب القيل وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو: اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك إلهي إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت، والعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم وأنت بالخال أعلم إلهي ما عصيتك جهلاً بعقابك، ولا تعرضاً لعذابك ولكن سؤلتها نفوسنا وأعاتتنا شقوتنا وغرنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك برك بنا. فالآن من عذابك من يقصدنا، ويحيل من نعصم إن قطعت حبلك عنا، وأخجلناه غداً من الوقوف بين يديك، وأفضيحتنا إن عرضت فعالنا القبيحة عليك اللهم اغفر ما علمت، ولا تهتك ما سترت. إلهي إن كنا عصيتك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر لنا ولا يبالي. إلهي لا تحرق بالنار وجهاً كان لك مصلياً، ولساناً كان لك ذاكراً وداعياً، لا بالذي دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك، كما أن منزله لديك أشرف المنازل، سيد خلقك، ومعدن أسرارك، صل يا رب على محمد وآله وأصحابه وارحم عباداً غرهم طول إمهالك، وأطمعهم كثرة إفضالك فقد ذلوا لعزك وجلالك، ومدوا أكفهم لطلب نوالك ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك. اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثامن والسبعون: في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون، خير وشر، ونفع وضر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه، ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تنن بعوضة، ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة، كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فتيسيره. فمن رام أمراً<sup>(١)</sup> من الأمور ليس الطريق في تحصيله أنه يفتلق بابه عليه، ويفوض أمره لربه، ويتنظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه الله له فيه وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين، واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لامة الحرب ويهيم الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم واسترقي وأمر بالرقية، وتداوي وأمر بالمداواة، وقال: الذي أنزل الداء أنزل الدواء. فإن قيل قد روي إن النبي ﷺ قال: من استرقى أو اكتوى فهو بريء من التوكل. قلنا ليس قد قال: إعتقلها وتوكل. فإن قيل فما الجمع بين ذلك، قلنا معناه من استرقى أو اكتوى متكللاً على الرقية أو الكمي وأن البرء من قبلهما خاصة فهذا يخرج عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله، وقد أمرنا بالكسب والتسبب ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾<sup>(٢)</sup> فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم      وهزي إليك الجذع يساقط الرطب  
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها      جتته ولكن كل شيء له سبب

وقد تقدم هذا الشعر في باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها. طلبها بالغدو والرواح وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا إنهما كالعديلين على ظهر الدابة إن حمل في واحد منهما أرجح مما في الآخر سقط حمله، وتعب ظهره، وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره، ونجح سفره، وتمت بغيته. وضربوا به مثلاً عجبياً فقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر، لا قائد للأعمى، ولا حامل للمقعد وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتساباً بالله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياماً، واشتد

(١) رام أمراً: طلب.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٢٥.

جوعهما، وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد، فيدله المقعد على الطريق يبصره. فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق، وأهل القرية يتصدقون عليهما فتنجح أمرهما، ولولا ذلك لهلكا. فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد في بيته لم يظأ زوجته ولم يبذر أرضه معتمداً في ذلك على الله واتقأ به أن تلد امرأته من غير موافقة، وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجاً ولأمر الله كارهاً، قال الغزالي: أما المعيل فلا يخرج عن حل التوكل بادخار قوت سنة لعياله جيراً لضعفهم، وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تتأخر شيئاً. وقال: أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا. وقال عبد الله بن الفرج: أطلعت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه وإذا بحية في فمها باقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى انتبه. فحسبك توكلٌ يؤدي إلى هذا. وعن عبد الله الهروي قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قيس، فقال: لو أن رجلاً صدق في توكله على الله، ثم قال لهذا الجبل اهتر لاهتر، فوالله لقد رأيت الجبل اهتر وتحرك. فقال له الفضيل رحمه الله تعالى: لم أعنك رحمك الله فسكن.

وفي الإسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله في ذلك، وقال له: تمهل عليّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإن لي مالا أتيك به وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا فقال له هذا غرر. فأنا ما أعطيك مالي إلا أن تجعل لي كفيلاً، إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: الله كفيل بمالك وشاهد عليّ، أن لا أغفل عن وفائك فإن رضيت فافعل. فدخل الرجل خشية الله تعالى وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذي ذكره. فلما قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر في البحر ففسر عليه وجود مركب. ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار وجعلها في خشبة وسمر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها وقد تعذر عليّ وجود مركب وعزمت على طرحها في البحر وتوكلت عليك في إيصالها إليه. ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال طرحها في البحر بيده، وأقام في البلد مدة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فاسافر فيها إلى صاحب المال فابتدأه، وقال: أنت سيرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت، وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم. قال: قد أوصلها الله تعالى إليّ، والله نعم الكفيل. فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك فوقت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إليّ، ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليجعلها حطاً، فلما كسرهما وجد ما فيها، فأخبرني بذلك فقرأت ما عليها، فعلمت أن الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل.

وقيل إن سبب بداية ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنه طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى فيبينما هو يتذكر في أمر ذلك الطائر فإذا هو بسكرجين برزتا من الأرض إحداهما ذهب، والأخرى فضة، هذه فيها ماء، والأخرى فيها قمع فلقط القمع وشرب الماء، ثم غاب بعد ذلك فذهل ذو النون وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت.

وحكي أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد في صناعة الصياغة، وكان أوجد أهل زمانه فساء حاله وافتر بعد غناه، ففكرة الإقامة في بلده فانتقل إلى بلد آخر فسأل عن سوق الصاغة فوجد دكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صناع

كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة وله سعادة ظاهرة ما بين ممالك وخدم وقماش وغير ذلك فتوصل الصانع الغريب إلى أن بقي من أحد الصنائع الذين في دكان هذا المعلم، وأقام يعمل عنده مدة وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة وتكون أجره عمله تساوي عشرة دراهم فيكسب عليه ثمانية دراهم في كل يوم. فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفضوص في غاية من الحسن قد عملت في غير بلاده، كانت في يد إحدى محاطيه<sup>(١)</sup> فانكسرت فقال له الحمها فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه في عملها فلم أخذها وأراها للصنائع الذين عنده، وعند غيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها فإزداد المعلم لذلك غمًا ومضت مدة وهي عنده لا يعلم ما يصنع. فاشتد الملك على إحضارها وقال هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة، ولا يحسن أن يلحم سوارًا، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال في نفسه: هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذ به بخله عليّ، وعدم إنصافه، ولعله يحسن إليّ بعد ذلك فحط يده في درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها فعادت أحسن ما كانت فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسنتها وادعى المعلم أنها صنعه فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة سنية فجاء وجلس مكانه فبقي الصانع يرجو مكافأته عما عامله به، فما التفت إليه المعلم ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً. فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة فطلب المعلم ورسوم له بكل ما يحتاج إليه، وأكد عليه في تحسين الصنعة وسرعة العمل فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك فامثل مرسومه، ولم يزل متصباً إلى أن عمل الزوجين وهو لا يزيد شيئاً على الدرهمين في كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير، ولا يتجمل معه فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك فنقش في باطن إحداهما هذه الأبيات نقشاً خفيفاً يقول:

مصائبُ الدهرِ كُفِّي	إن لم تكفني ففني
خرجتُ أطلبُ رزقي	وجدتُ رزقي توفِّي
فلا برزقي أحظي	ولا بصنعة كفي
كم جاهل في الثريا	وعالم متخفي

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم لشرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان سبب توصله إلى الملك ثم لقيهما في قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ولما سبق له في القضاء فأخذها المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك وقدمهما إليه فلم يشك الملك في أنهما صنعه، فخلع عليه وشكره ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده في آخر النهار شيئاً على الدرهمين، فلما كان اليوم الثاني خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التي عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما في يدها فأخذهما ليعيد نظره فيهما، وفي حسن صنعهما قرأ الأبيات فتعجب وقال هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب ففضب عند ذلك وأمر بإحضار المعلم فلما حضر قال له من عمل هذين السوارين قال: أنا أيها الملك قال فما سبب نقش هذه الأبيات قال لم يكن عليهما أبيات قال كذبت ثم أراه النقش وقال إن لم تصدقني الحق لأضربن عتقك فأصدقه الحق فأمر الملك بإحضار الصانع فلما حضر سأله عن حاله فحكى له قصته وما جرى له مع المعلم فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته

(١) المحظية: الجارية المملوكة ذات المكاة.

وتعطى للصانع وأن يكون عوضاً عنه في الخدمة، ثم خلع عليه خلعة سنية وصار مقدماً سعيداً فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تطف به حتى رضي عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر ورحم الله من قال:

إذ كان سعدُ المرءِ في الدهر مقبلاً  
وقال آخر:

ما سلمَ الله هو السالم  
تجري المقاديرُ التي قدرت

وقال كعب بن زهير:

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبني  
يسعى الفتى لأمرٍ ليس يدركها  
والمرءُ ما عاشَ ممدوداً له أملٌ  
سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ  
والنفسُ واحدةٌ والهَمُّ متشُرُّ  
لا يتهي ذاك حتى يتهي العمرُ

وروي في الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفتح منصوب، وإذا بطائر قريب منه فقال له الطائر: يا نبي الله هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به، وأنا أنظر إليه. قال: فذهب عنه ذلك النبي عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر في الفخ، فقال له: عجباً لك ألت القاتل كذا وكذا أنفأ. فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروي أن رجلاً قال لبرزجمهر: تعالي نتناظر في القدر. قال: وما تصنع بالمناظرة؟ قال: رأيت شيئاً ظاهراً استدلت به على الباطن، رأيت جاهلاً مبروراً، وعالماً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس للعباد. ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يد سليمان؟ فقال: إن الهدد ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة ويصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم،<sup>(١)</sup> ثم ينصب له أهل الصبي الفخ بالدودة، أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا في ذلك:

وإذا خشيتَ من الأمور مقدرًا  
وقال آخر:

أقامَ على الميسرِ وقد أنيختَ  
وقال أخافُ عاديةَ الليالي  
مشيهاها خطأ كُيِّتْ علينا  
ومن كانت ميَّته بأرضي  
مطايهاه وغرَّد حاديهاها  
على نفسي وأن ألقى رداها  
ومن كُتبت عليه خطأ مشاها  
فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد في منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً، فالحرص باطل. وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثمة بكل أحد عجز وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. وقال ابن عباس

(١) التخوم: الحد الفاصل بين أرضين وهي أيضاً المعالم التي يُهتدى بها في الطريق.



وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾<sup>(١)</sup> إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يففل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وحكى الطرطوشي رحمة الله تعالى في كتابه سراج الملوك قال: من عجيب ما اتفق بالاسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياماً، فقي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر، والمدينة إذ ذاك مسرودة بسرداب يمشي الماشي فيه قائماً. فما زال الرجل يمشي إلى أن لاحت له بئر مضيئة فطلع منه فإذا البئر في دار النائب فلما طلع أمسكه النائب وأدبه فكان فيه المثل السائر: الفار من القضاء الغالب، كالمقلب في يد الطالب، وأنشدوا فيه:

فَالْوَا تَقِيْمُ وَقَدْ أَحَا	ط بِكَ الْعِدُوُّ وَلَا تَفْرُ
لَا نَلَسْتُ خَيْرًا إِنْ بَقِي	تٌ وَلَا عِدَاتِي السُّدْرُ شُرُ
إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنْ غِي	رَ اللَّهُ يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ

## الباب التاسع والسبعون: في التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾<sup>(١)</sup> ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾<sup>(٢)</sup> وفتح باب الرجاء فقال: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾<sup>(٣)</sup> وروي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإني أتوب إلى الله تعالى في اليوم مائة مرة».

روى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم»، فقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة، أو قال بضجعة. فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغره»<sup>(٤)</sup>.

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الله أفرح بتوبة عبده، من رجل نزل بآرض دوية مهلكة معه راحلته فنام واستيقظ وقد ذهب راحلته فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال أرجع إلى المكان الذي ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ، وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخاري. وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويسطر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»<sup>(٥)</sup> رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» رواه مسلم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأثابه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا قتلته وكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم

- (١) سورة: النور، الآية: ٣١.
- (٢) سورة: الشورى، الآية: ٢٥.
- (٣) سورة: الزمر، الآية: ٥٣.
- (٤) الغرغرة: تردد الروح في الحلق.
- (٥) هي علامة يوم القيامة.

أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال نعم ومن يحل بينك وبين التوبة انطلق كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. فقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكموه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو أقرب لها فقساموه فوجدوه أدنى إلى الأرض. التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة. متفق عليه. وفي الصحيحين: فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشير فجعل من أهلها.

وعن أبي نجيذ بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنه. أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبْتُ حداثاً فأقمه عليّ فدعا نبي الله ﷺ فشددت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت. ثم صلى عليها. فقال عمر يا رسول الله تصلي عليها وقد زنت قال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت أفضل ممن حادت بنفسها لله عز وجل<sup>(١)</sup>. رواه مسلم. وعن أبي نضرة قال: لقيت مولى لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له: سمعت من أبي بكر شيئاً قال نعم سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصرّ من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة».

وحكي أن نهبان التمار وكنيته أبو مقبل أته امرأة حسناء تشتري تمرأ فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾<sup>(٢)</sup> إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثاً يفتني الله منه بما شاء يفتني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته وإنه حديثي أبو بكر وصلى أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له» وروي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أذنب العبد ذنباً فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به فغفر له، ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنباً آخر فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء». وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول: القرآن يدلكم على دوائكم ودوائكم أما دواؤكم فالاستغفار، وأما دواؤكم فالذنوب. وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقال رسول الله ﷺ: «من قال عشرين مرة يصبح، وحين يمسي استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج. ومن قال: سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت مثل ديب النمل». وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر، وزيد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار وهو هذا: اللهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي، ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل

(١) الحديث رواه مسلم بغير هذا اللفظ وزيادة في الرواية حيث تبعدت الرواية هاهنا.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٥.

عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك. يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفركم يا ملائكتي أشهدكم يا ملائكتي أني عد غفرت له. وقال بشر الحافي: بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين: ترققوا عليه سبع ساعات فإن استغفركم فلا تكتبوها وإن لم يستغفركم فاكتبوها.

نكتة: قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات، وهلك الحيوان فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام فلم تمطر لهم فقال موسى: اللهم أنت القاتل ادعوني أستجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غداؤه حرام، وفيهم من ييسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا نمام، ولكن موسى، تبوا كلكم بقلوب خالصة فساهم يتوبوا معكم فأجود بأنعامي عليكم. فنادى منادي موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه، والعصاة يذرفون فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جنتك من أوزارنا هارين، ورجعنا إلى بابك طالبين، فارحنا يا أرحم الراحمين فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين. أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ، وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين عليّ. ولقد أحسن من قال:

أسىء فيجزى بالإساءة إفضالاً	وأعصي فيوليني برأ وإمهالاً
فحتى متى أجفوه وهو يرني	وأبعد عنه وهو يبدل إيصالاً
وكم مرة زغت عن نهج طاعة	ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا الباب والله أعلم بالصواب.

## الباب الثمانون: في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

### الفصل الأول: في الأمراض والعلل وما جاء في ذلك من الأجر والثواب

روي عن عبد الله بن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم، فقالوا كلنا يا رسول الله. قال أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات، والذي بعثني بالحق نبياً، إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله، فيبتليه الله تعالى ليلبغ درجة لا يبلغها بعمله». وقال ﷺ: «ما من مسلم يمرض مرضاً إلا حط الله من خطاياهم كما تحط الشجرة ورقها». وكان يقول: لا تزال الأوصاب<sup>(١)</sup> والمصائب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة. قيل إن الناس قد حُتوا في فتح خير، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض وقطعة من النار، فإذا وجدتم ذلك فإردوا لها الماء في الشنان<sup>(٢)</sup> ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء، ففعلوا ذلك فزالت عنهم». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك فقال أرجو الله، وأخاف ذنوبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «هما لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف». وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى أنها سمعت رجلاً يقول ما أشد العمى على من كان بصيراً. فقالت له يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا، والله لوددت أن الله وهب لي كنه معرفته ولم يبق مني جارحة إلا أخذها. وكتب مبارك لأخيه سفيان الثوري يشكو إليه ذهاب بصره فكتب إليه: أما بعد فقد فهمت كتابك فيه شكاية ريك، فأذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام. وقيل لعطاء في مرضه: ما تشتهي؟ قال: ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعاً للشهوة. وأصاب ابن أدهم بطن فتوضأ في ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابي في مرضه: ما تشتهي؟ قال: الجنة. فقيل: أفلا ندعو طبيياً؟ قال: طيبني هو الذي أمرضني.

### الفصل الثاني: في ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم

والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة

قيل: تسارر أبخر وأصم فقال له الأصم: قد فهمت ثم فارقه. فسأله رجل فقال والله لا أدري غير أنه فسا في

(١) الأوصاب: الأسماق.

(٢) الشنان: القرية.

أذني. وقيل إن عبد الملك بن مروان كان أبخر فعرض يوماً على فتاحة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين فقال ما تصنعين بها؟ قالت أميط الأذى عنها، فشق عليه ذلك منها فطلقها. وسارر أبو الأسود الدؤلي سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر، فستر سليمان أنفه بكمه فمير أبو الأسود وهو يقول: لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البحر. وقيل طول انطباق القم يورث البحر، وكل رطب سائل للعباب سالم منه. وقيل إن الزنج أطيب الناس أفواهاً. والسباع موصوفة بالبحر، والمثل مضروب بالأسد والصقر في البحر، والكلب من بينهما طيب النفس وليس في البهائم أطيب أفواهاً من الطباء:

وحكي أن أبخر تزوج بامرأة فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها ثم أنشدت تقول:

يا حب والرحمن إن فاكأ      أهلكني فولئني قفاكا  
إذا غدوت فاتخذ مساواكأ      من عرفط إن لم تجد أراكأ  
لا تقريني بالذي سواكا      إنني أراك ماضعاً خراكا

وفي ديوان المشور: كم من ذي عرج في درج المعالي عرج، وكم من صحيح قدم ليس له في الخير قدم. وقيل إن من الصم من يسمع السر، فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه. ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب. ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشي. وقيل إن طريفاً الشاعر مدح عمرو بن هذاب وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله: «أبرص فياض اليدين مهذب» صاح به الناس وقالوا: قطع الله لسانك. فقال عمرو: مه إن البرص مما تتفاخر به العرب. أما سمعتم قول سهل حيث قال:

أيشتمني زيدٌ بأن كنت أبرصاً      وكل كريم لا أبالك أبرص  
وقال:

كفى حزناً أني أعاشر معشراً      يخوضون في بعض الحديث وأمسك  
وما ذاك من عي ولا من جهالة      ولكنه ما في للصوت مسلك  
فإن سد مني السمع فالله قادرٌ      على فتحه الله للبعد أملك

ومما جاء في العمى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: من علم إحدى كريمته ضمنت له على الله الجنة. وكان أبو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يطعم الطعام وكان أعور، فجعل أعرايي يطيل النظر إليه حابساً نفسه عن طعامه، فكلمه المغيرة في ذلك فقال له: والله إنني ليعجبني طعامك وتريني عينك. قال: فما يريك من عيني؟ قال: أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال فقيل له: إن عينه أصيبت في فتح الروم فقال: إن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله. وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار. وقال علي كرم الله وجهه: ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده. وقال أبو علس البصير:

لئن كان يهديني الغلامٌ لوجهتي      ويقتادني في السير إذ أنا راكبُ  
لقد يستضيء القومُ بي في وجوههم      ويخبو ضياء العين والقلبُ ثاقبُ

وقال:

إذا علمت طلبة العلم ما لها      من العلم إلا ما تسطر في الكتُب

غدوتُ بتشميرٍ وجدُّ عليهمُ  
ومجبرتي سَمْعِي وها دفترِي قلبي  
وقال:

إن يأخذِ من عينيَّ نورهما  
فهمي ذكي وقلبي غير ذي غفل  
وقال:

عزاءك إيها العين السكوب  
وكنت كبريتي وسراج وجهي  
على الدنيا السلام فما لشيخ  
يموت المرء وهو يعدُّ حيا  
إذا ما مات بعضك فإبك بعضا  
وحقك إنها نوب تنوب  
وكانت لي بك الدنيا تطيب  
ضرير العين في الدنيا نصيب  
ويخلف ظنه الأمل الكذوب  
فإن البعض من بعض قريب

وحكي أن ربيعا رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول:

عينا ربيعة رمدواون فاحتسبي  
إن تكتحل بك عينا فلا رمد  
بنظرة منك تشفيه من الرمد  
على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال: «داء الأنبياء الفالج والقوة». قال الجاحظ: ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام وأكثر ما يعترى المتوسطين من الناس، لأن الشباب كثير الحرارة والشيخ كثير اليس. وقيل إن أبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلاً، فكانت الناس تقول لا رماك الله بفالج ابن عثمان. وكان معاوية ألق، وعبد الملك بن مروان أبخر، وحسان أعمى، وابن سيرين أصم. وممن فلج ابن أبي دؤاد قاضي قضاة المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه. قال الشاعر في رجل ضرب غلامه:

أضرب مثله بالسوط عشراً  
ضربت بفالج ابن أبي دؤاد

وشجه عبد الحميد كانت مثلاً في الحسن وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم، وكان بارعاً في الحسن والجمال فزادته حسناً إلى حسنه، حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد. وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بني أمية. وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر في جبهته. قال أصبغ: الله أكبر هذا أشج بني أمية يملأ الأرض عدلاً. وقال أعور لأبي الأسود: ما الشيء ونصف الشيء ولا شيء. فقال: أما الشيء فالبصير كأنا، وأما لا شيء فالأعمى، وأما نصف الشيء فأنث يا أعور. اللهم أكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين.

### الفصل الثالث: في التداوي من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ: «تداؤوا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء». وقال ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفه من عرفه، وجهله من جهله». وستل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقي هل يردان شيئاً من قضاء الله تعالى قال هما من قدر الله تعالى. وقال عبد الله بن عكرمة عجب لمن يحتمي من الطعام خوف الداء، ولا يحتمي من الذنوب خوف النار. وقيل

إن الربيع بن خيثم لما مرض قالوا له: ألا ندعو لك طبيباً. فقال لهم إن مرضي من الطبيب وأنه متى أراد عافاني ولا حاجة لي بطبيكم وأنشد:

فأصبحت لا أدعو طبيباً لطفه      ولكنني أدعوك يا منزل القطر  
وعاد الفرزدق مريضاً فقال:

يا طالب الطب من داء تخوفه      إن الطبيب الذي أبلاك بالبداء  
فهو الطبيب الذي يرجى لمافية      لا من يذيب لك الترياق بالماء

قال ولما مرض بشر الحافي رحمه الله تعالى قالوا ندعو لك طبيباً فقال إني بعين الطبيب يفعل بي ما يريد. فألح عليه أهله وقالوا لا بد أن ندفع ماءك إلى الطبيب. فقال لأخته: إدفعي إليهم الماء في قارورة. وكان بالقرب منهم رجل ذمي وكان حاذقاً في الطب فأتوه بمائه في القارورة. فلما رآه قال: حرركوه، فحرركوه ثم قال ضعوه، ثم قال ارفعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا. قال: ويم وصفت لكم؟ قالوا بالحقق والمعرفة، قال: هو كما تقولون. غير أن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو راهب قد فتت كبده العبادة، وإن كان مسلماً فهو ماء بشر الحافي فإنه أرحم أهل زمانه في السلوك مع الله تعالى. قالوا: هو ماء بشر الحافي فأسلم النصراني وقطع زناره. فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب. فقالوا: ومن أعلمك؟ قال: لما خرجتم من عندي هتف بي هاتف، وقال: يا بشر بركة مائك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة. وفلج الربيع بن خيثم فقيل له: هلا تداويت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع كثيرة، والأطباء أكثر فلم يبق المداوي ولا المداوي وقد أبادهم الموت ثم قال هذا المفرد:

هلك المداوي والمداوي والذي      جلب الدواء وباعه والمشتري

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة: أما تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء من الأرض وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المربوب. ومَرَّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات متطيبات وهم من أجمل الناس فأحبوا أن يروهن فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ثم قصدوهن فقالوا هذا جريح مريض فهل من طبيب فخرجت صفراهن وهي كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية، فإذا طلعت الشمس مات فكان الأمر كما قالت. وقيل: دواء كل مريض بمقاير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهواتها. وقالوا: من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله في مائها وشربه لم يمرض فيها وعوفي من وبائها. واحتسب أحمد بن المعدل لعله أصابته فبريء فقال: الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض ولأهل الآخرة تبرئهم من النار. وقيل إن الأبدان المعتادة بالحمية أفتها التخليط، والمعتادة بالتخليط أفتها الحمية لأن الحكماء تقول عودوا كل جسد بما اعتاد. وكان كسرى أنو شروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهك عليه. ويقول تركنا ما نجه نستغني عن العلاج بما نكرهه. وقال لقمان لا تطيلوا الجلوس على الخلاء فإنه يورث الباسور. وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوش: أي الكنف. وقيل كفى بالمرء عاراً أن يكون صريعاً<sup>(١)</sup> مأكله وقتل أنامله.

فكم أكلة أكلت نفس حر      وكم أكلة جلبت كل ضر



وقيل: من غرس الطعام أثمره الأسقام. وعن بعض أهل البيت النبوي عليهم السلام أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئاً وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبْرُكاً﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾<sup>(٢)</sup>. وقال عليه الصلاة والسلام: «ماء زمزم لما شرب له» وقال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾<sup>(٣)</sup> فمن جمع بين ما بورك فيه وبين ما فيه شفاء وبين الهنيء والمريء يوشك أن يلقى العافية وقيل خمسة من المهلكات: دخول الحمام على الشيع، والمجماعة على الشيع، وأكل القديد وشرب الماء البارد على الريق، ومجماعة المرأة العجوز. وقال لا تتكح العجوز ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجها. وقال الإمام علي رضي الله عنه:

توقُّ مدى الأيام إدخال مطعم	على مطعم من قبل هضم المطاعم
وكلُّ طعام يعجز السنُّ مضغَه	فلا تقرينه فهو شرٌّ لطاعم
ووقَّز على الجسمِ الدماءَ فإنها	لقوةِ جسمِ المرءِ خيرُ الدعائم
وإيَّاكَ أن تتكح طواعن سنَّهم	فإن لها سمّاً كسمِّ الأرقام
وفي كلِّ أسبوعٍ عليك بقيتُه	تكن آمناً من شر كلِّ البلاغم

ومما يورث الهزال، النوم على غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت. وقال النظم رحمه الله تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر في المرأة، وكثرة الضحك، والنظر إلى النجوم. وفي الحديث: احتجم رسول الله ﷺ في أم مغيث، وهي وسط الرأس، وكان النبي ﷺ يحتجم في الأخبعين، ونهى عن الحجامة في نقر القفا فإنها تورث النسيان، وأمر بالإستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور. وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال فقال في آخر خطبته: من كان يشكو سعالاً فليتناو بالخل ففعلوا فمافاهم الله. وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر في عين أرمد، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيديك فرب شظية حقيرة قلعت عيناً خطيرة. وقيل كانت: الأدوية تنبت في محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء يا نبي الله أنا دواء لكذا وكذا. وقال جالينوس: البطنة تقتل الرجل وتورث الفالج، والإسهال النريع، وصنفاً من الجذام، يقال له الفهد لا يسمع صاحبه ولا يبصر. نسأل الله العفو والعافية. وقيل البطنة تورث الصداع، والكمنة في العينين، والضربان في الأذنين والقولنج في البطن. فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى، واتق الليل وطعامه جهدك.

وقال جالينوس: الغم المفرط يمت القلب ويجمد الدم في العروق فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الجسم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه. وقيل إنه وضع على مائدة المأمون في يوم عيد أكثر من ثلاثين لونا فكان يصف وهو على المائدة منقعة كل لون ومضرتة فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته، أو في النجوم فأنت هرمس في صناعته، أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب رضي

(١) سورة: ق، الآية: ٩.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٦٢.

(٣) سورة: النساء، الآية: ٤.

الله تعالى عنه في علمه، أو في السخاء، فأنت حاتم في كرمه، أو في الحديث فأنت أبو ذر في صدق لهجته، أو في الوفاء فأنت السموأل بن عادياه في وفاته. فسر بكلامه وقال: يا أبا محمد إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل، ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء. وقال طيب الهند: إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام. وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر. وقيل الشرب في آنية الرصاص أمان من القولنج، وعرض رجل على طيب قارورته فقال له: ما هي قارورتك لأنه ماء ميت، وأنت حي تكلمني، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتاً. وقيل: إن ملكاً من الملوك حصل عنده صداع في رأسه فأحضر الطيب فأمر أن يضع قدميه في الماء الحار وكان عنده خصي فقال: أين القدماء من الرأس؟ فقال له الطيب: وأين وجهك من خصيتك نزعنا فذهبت لحيتك.

وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس فأحضر طبيباً كان عنده فلم ينفعه علاجه فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له: بلغني صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء، ثم إنه أحضر رجلاً به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به، فتعجب المأمون، ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة الله تعالى في عرق ساكن، وغير ساكن حمسق لا يصدعون عنها ولا يتزفون من كلام الرحمن. خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال علي رضي الله عنه: ادهنوا بالبنفسج فإنه حار في الشتاء بارد في الصيف. وقال أيضاً رضي الله عنه: عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ويشد العصب، ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم. وعنه رضي الله عنه: إن لم يكن في شيء شفاء ففي شرطة حاجم أو شربة من عسل. وقال الحجاج لطيبه: أخبرنا بجوامع الطب فقال: لا تنكح إلا فتاة. ولا تأكل من اللحم إلا فتياً، وإذا تغذيت فتم، وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخل بطنك طعاماً حتى تستمريه ما فيه، ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء وكل الفاكة في إقبالها، وذرها في إدبارها. وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت فقال: إياك أن تدخل طعاماً على طعام، ولا تمش حتى تعيا، ولا تجامع عجوزاً ولا تدخل حماماً على شبع. وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء، وعليك في أسبوع بقية ولا تأكل الفاكة إلا في أوان فضجها ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغذيت فتم وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة. ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينضم ما فيها وتستريح الكبد من حرارة المعدة ولا تنم على يمينك فيطء الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج واقعد على الطعام وأنت تشتيه وقم عنه وأنت تشتيه. قال بعضهم:

فتموّدوا من كل نفس تشرة  
نال الغنى إلا رأى ما يكره

شره النوس على الجسوم بليّة  
ما من فتى شرهت له نفس وإن

وقال أبو الفيض القضاعي يمدح الفضل وقد فسد:

لأصبح وجه الأرض أخضر زاهياً  
لكان من الأسقام للناس شافياً

أرقت دماً لو تسكب المزن مثله  
دماً طيباً لو يطلق الشرع شرته

## الفصل الرابع: في العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة في ظل العرش: عائد المريض، ومشيع الموتى، وطائع والديه». وفي رواية: ومعزي الثكلى. ومن السنة تخفيف الجلوس في العيادة، مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنه فقال: المريض يعاد، والصحيح يزار. قال الشاعر:

يعدن مريضاً هن هيجن داهه      إلا إنما بعض العوائد دايها

وقيل: إذا دخل العواد على الملك فتحهم أن لا يسلموا عليه فيحجوه إلى رد السلام، ويتعبوه، فإذا علموا أنه لاحظهم دعوا له وانصرفوا. قيل: مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله عنك ما بك من السقم، وطهرك بالعملة من الخطايا، وتمتلك بأس العافية وأعقبك دوام الصحة. ومرض إنسان فكتب إليه صديقه:

بإخوانك الأدينين<sup>(١)</sup> لا بك كلُّ ما      شكوت إلى القيام من ألم الورد  
فكلُّ امرئٍ منهم بقدر احتماله      وإن عجزوا عنه تحمَّلتُهُ وحدي  
وقال آخر:

بي سوءٍ والمكروه لا بك كلما      أراك كانا بي وكان لك الأجرُ  
وقال عبد الله بن مصعب:

ما لي مرضتُ فلم يعدني عائدٌ      منكم ويمرضُ كلِّكم فأعودُ  
فسمي بعد ذلك عائد الكلاب. وعاد مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه بعض المرضى فقال:  
عادني مالكُ فلست أبالي      بُعدَ مَنْ عادني ومَنْ لم يعدني  
وقال علي بن الجهم:

أراقَد الليل مسروراً عدمت إذا      عيشي، وأحمد يرعى ليله وصبا<sup>(٢)</sup>  
الله يعلمُ أنني قد نلرتُ له      صيام شهرٍ إذا ما أحمدُ ركبا  
وقال آخر:

إذا مرضتم أتيانكم نعودكمو      وتسنبون فتأتيكم ونعتذرُ  
وقال آخر:

أعاذك الله من أشياء أربعة      الموت والعشق والإفلاس والجرب

وقيل: إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

(١) الأدينين: الأقربون.

(٢) وصبا: مرضاً.

قَالَتْ مَرَضْتُ فَعَدَّتْهَا فَتَبَرَّأَتْ  
وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا

وعلى الثاني قول بعضهم:

جِئْتُ الْعِيَادَةَ يَوْمَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ  
لَا تَبْرَمَنْ عَلِيًّا فِي مَسْأَلَةٍ

وَجَلَسَةً مِثْلُ خَلْسِ اللَّحِظِ بِالْمِئِنِ  
يَكْفِيكَ مِنْ ذَلِكَ تَسْأَلُ بِحَرْفَيْنِ

وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الأمور. وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب.

## الباب الحادي والثمانون: في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روي ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات لأحدكم ميت فاحسنوا كفته، وعجلوا إنجاز وصيته، وأعمقوا له في قبره وجنبوه جار السوء». قيل يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح في الآخرة؟ قال وهل ينفع في الدنيا؟ قالوا نعم. قال: وكذلك في الآخرة. ومن وصية علي رضي الله عنه لأبي ذر: زر القبور تذكر بها الآخرة، ولا تررها في الليل، وغسل الموتى يتحرك قلبك، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين في ظل الله تعالى. ويقال جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك. ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد. ودخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية في مرضه مرضها. فقال له: أعائدت أنت أم شامت فقال له عمرو لم تقول هذا؟ والله ما كلفتي<sup>(١)</sup> رهناءً، ولا أصدعتني زلقاً ولا جرعتي<sup>(٢)</sup> علقاً، فلم أسطل حياتك ولم أستطع. وفاتك فأنشد معاوية يقول:

فهل من خالدين إذا هلكننا      وهل في الموت بين الناس عار

لما مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لي فراشاً، وأسدنوني، وأوسعوا رأسي دهاناً ثم اكحلوا عيني بالأنثد ثم أئذنوا للناس يدخلوا ويسلموا عليّ قياماً، ولا تجلسوا عندي أحداً ففعلوا ذلك فلما خرجوا من عنده أنشد يقول<sup>(٣)</sup>:

وتجلدي للشامتين أريهم      أني لرئب الدهر لا أتضعضُ  
وإذا الميئة أنشبت أظفارها      أقيت كل تيمو لا تنفعُ

وقيل لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموت لا منجي من الموت والذي      نحاذرُ بعد الموت أدهى وأفظعُ

قال: ثم رفع يديه وقال: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وعد بحلمك علي من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك فإنك واسع المغفرة وليس لذي خطيئة منك مهرب ومات رحمة الله تعالى. وذكر أبو العباس الشيباني قال: وفد على أبي دلف عشرة من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العلة التي مات فيها فأقاموا بياها شهراً لا يؤذن لهم لشدة العلة التي أصيب بها، ثم أفاق فقال لخادمه: بشر إن قلبي يحدثني أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فافتح الباب

(١) كلفتي: تيمأ.

(٢) جرعتي: شرب الدم الغليظ اليابس.

(٣) يمثل بأبيات أبي ذؤيب الهذلي.

ولا تمنعن أحداً. قال فكان أول من دخل، آل علي رضي الله عنه فسلموا عليه، ثم ابتداء الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال: أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب، وأجحفت بنا التواب، فإن رأيت أن تجبر كسيراً، وتغني فقيراً لا يملك قطميراً فافعل فقال لخادمه: خذ بيدي وأجلسني ثم أقبل معتدراً إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال: ليكتب كل منكم بيده أنه قبض مني ألف دينار قالوا: فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه: عليّ بالمال فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع في كفتي فإذا لقيت محمداً ﷺ في القيامة كانت حجة لي أنني قد أغنيت عشرة من ولده، ثم قال يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف درهم يتفقها في طريقه حتى لا يتفق من الألف دينار شيئاً حتى يصل موضعه قال: فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله. لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء فوجدوا بردة مكتوب فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار) وقيل لأعرابي: إنك تموت قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه.

ويكى الخولاني عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ابكي لطول السفر وقلة الزاد وقد سلكت عقبة، ولا أدري إلى أين أهبط، وإلى أي مكان أسقط. ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا يهاب الملوك، ولا تمتع منه القصور، ولا يقبل الرشا. فقال: إذن أنت ملك الموت وإني لم أسمع بعد، فقال له: يا داود أين فلان جارك؟ أين فلان قريك؟ قال: ماتا قال: أما كان لك في موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ثم قبضه عليه السلام. وفي الخير من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: إن الملائكة تكتف العبد وتحبسه ولولا ذلك لكان يعدو في الصحراء والبراري من شدة سكرات الموت. وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم، فليكن المرء على أهبة من ذلك. وقيل: بينما حسان جالس وفي حجره صبي يطعمه الزبد بالعسل إذ شرق الصبي فمات فقال:

إِعْمَلْ وَأَنْتَ صَاحِبٌ مُطْلَقٌ فَرَحٌ      مَا دَمْتَ وَيْحَكَ يَا مَغْرُورٌ فِي مَهْلٍ  
يَرْجُو الْحَيَاةَ صَاحِبٌ رِمَا كَمَنْتَ      لَهُ الْمَيِّتَةُ بَيْنَ الزَّبْدِ وَالْعَسَلِ

وقيل: إن المأمون لما قريت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابة وسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول: يا من لا يزول ملكه أرحم من زال ملكه. ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بطل وقيد، وقال: ألبسوني إياهما فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن التوبة مقبولة ما لم يفرغ ابن آدم بنفسه ثم استقبل القبلة وقال: اللهم إنك أمرتنا فصينا، ونهيتنا فارتكبنا وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فانت أهل العفو، وإن تعاقب فيما قدمت يداي، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. ثم مات وهو مغلول مقيد فبلغ ذلك الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما فقال: استسلم الشيخ ولعلها تنفمه. لما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال: هان على النظارة ما يمر بظهر المجلود<sup>(١)</sup>. سمع أبو الدرداء رجلاً في الجنائز يقول: من هذا؟ فقال: أنت فإن كرهت فأنا. وقيل: مات عكرمة مولى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وكثير عزة في يوم واحد فقال رجل: اللهم كما جمعتهم في زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم الشور، فما بقي في المدينة أحد إلا استحسّن كلامه. ولما احتضر إبراهيم الخليل

(١) مجلود: مثل يقابل (من يأكل العصي ليس كمن يمدّها).

عليه الصلاة والسلام قال: هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله، فأوحى الله إليه هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله قال: فأقبض روحي الساعة. وقيل: إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها. وقال بعضهم:

إذا ما حمام المرء كان ببلدة      دعته إليها حاجة فيطير

حكى أن شاباً تقياً من بني إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه فينما هو عند سليمان في مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه، فلما رآه الشاب أصفر لونه وارتعدت فرائضه وقال: يا نبي الله إني خفت من هذا الرجل فَمَرَّ الرِّيحَ أن تذهب بي إلى الهند. فأمر سليمان الرِّيحَ فذهبت به فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب، فقال له سليمان: مما تعجب؟ قال: أعجب أنني أمرت بقبض روح الشاب الذي كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك فصرت متعجباً، ثم توجهت إلى الهند فرأيت هناك وقبضت روحه فهذا عجبي، فقال له سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب مني أن تحمله الرِّيحَ إلى الهند فأمرتها فحملته وفي ذلك المعنى قال محمد بن الحسن:

ومتعب الروح مرتاح إلى بلد      والموت يطلبه في ذلك البلد

وقيل: إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة، وضيء ساطع، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم. وقيل إن الرشيد مات له جارية وكانت من خواص محاضيه فجزع عليها جزعاً شديداً فقال لبعض أصدقائه: أما ترى ما بليت به ما أحببت أحداً إلا مات، فقال: يا أمير المؤمنين أحببني فقال: ويحك إن الحب ليس هو الشيء يصنع، إنما هو شيء يقع في القلب تسوقه الأسباب فقال: قل أنا أحبك. قال: نعم أنا أحبك قال: فحُمٌّ من وقته ومات. وفي الحديث المرفوع: كسر عظم الميت ككسره في حياته. وقال يزيد بن أسلم: لقد كان يمضي في الزمن الأول أربعمئة سنة ما يسمع فيها بجنائز. وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس رضي الله عنه بالطائف، فلما وضع ليصلي عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكتافه ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده، ولما سويتنا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿يا أيها النفس المطمئنة \* إرجعي إلى ربك﴾<sup>(١)</sup> الآية. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بنى. وقال عطاء: بلغني أن قبره تحت المنارة التي وسط الخيف. وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لا ييكبه عند ذكر الجنة والنار. فقيل له في ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منازل الآخرة فإن نجا العبد منه فما بعده أسر منه». وعن معاذ بن رفاعة الزرقني قال: أخبرني رجل من رجال قومي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال: يا محمد مَنْ هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فوجهه قد قبض. وقال الحسن رضي الله عنه: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات فمن رآه على لهو، ولعب، أو معصية أو ضاحكاً حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراد به ثم يقول له: اعمل ما شئت فإن لي فيك غمزة أقطع بها وتينك.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوة: يا رجاء إذا وضعت في لحدي فاكشف الثوب عن

وجهي فإن رأيت خيراً فاحمد الله، وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك، قال رجاء: فلما دفناه كشفت عن وجهه فرأيت نوراً ساطعاً فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير. وقال أيضاً: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر فقال: يا رجاء إنني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان وهو يقلب طرفه يميناً وشمالاً ثم رفع يده فقال: اللهم أنت أمرتني فقصرت. ونهيتني فعصيت فإن غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت. ألا إنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمد عبدك ورسولك المصطفى، ونيك المرتضى بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ثم قضى نجه رحمه الله. وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد ما ضربه ابن ملجم إذ شفق شفقة بعد أن أغمي عليه ثم أفاق وقال: مرحباً الحمد لله الذي صدقتنا وعده، وأورثنا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء، فقيل له: ما ترى؟ قال: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أخي جعفر، وعمي حمزة وأبواب السماء مفتحة والملائكة يتزلون عليّ يبشرونني بالجنة، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصفائها من الحور العين وهذه منازل لي مثل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد: إذا أنا مت إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء، لكن اتزر وشمر والبس جلد النمر وضعني في حفرتي، وخلني وشأني، وعليك شأنك، وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا، قتل له بسيفك هكذا. ثم بعث إلى محمد وخالد ابني يزيد بن معاوية فقال: هل عندكما ندامة في بيعة الوليد فقالوا لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة، فقال: أما أنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذي فيه أعينكما، ثم رفع كئار فراشه فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه. كل هذا وروحه تردد في حنجرتة وهو يقول: الحمد لله الذي لا ياليه، أصغيراً أخذ، أم كبيراً لا إله إلا الله محمد رسول الله بعد ساعة نقلت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بناته ليكون فتمثل بقول الشاعر:

ومستخبرات والعيون سواكب

ومستخبر عنا يريد بنا الردى

وقال محمد بن هارون:

يهيلون فوقني والعيون دما تجري

كأنني بإخواني على جنب حفرتي

ستعرض في يومين عني وعن ذكري

فيا أيها المنزري عليّ دموعه

أزار فلا أدري وأجفسي فلا أدري

عفا الله عني أنزل القبر ثاويأ

وكان يزيد الرقاشي يقول: من كان الموت موعده، والقبر بيته، والثرى مسكنه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حالته، ثم يبكي حتى يغمى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل، ولا يفتن بالأمل فإن من عاش مات، ومن مات فات وكل ما هو آت آت. نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوقتنا لاتباع أوامره، واجتنب نواهيه، وأن يجعل الموت خيراً غائب نتظره، وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته. إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



## الباب الثاني والثمانون: في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك وفيه فصول

### الفصل الأول: في الصبر

قال الله تعالى: ﴿ويشر الصابرين \* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾<sup>(١)</sup> وقال ﷺ: ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدا فأحدث استرجاعاً؛ إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها. وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزياً، أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله، ومن تواضع لغني سأله ما في يده أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار أبعد الله عن رحمته، لأنه هو الذي فعل ذاك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن». وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لم يلج النار إلا تحلة القسم». يعني قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾<sup>(٢)</sup>. وعن أبي سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي، وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك».

وروى أنه لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ذرفت عيناه فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والتدب، ولكن هذه الرحمة جعلها الله تعالى في قلوبنا، ومن لا يرحم لا يرحم فإن القلب يخشع، والعين تدمع وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. ولا تقول إلا ما يرضي الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي، مَنْ استسلم لقضائي، وصبر على بلائي وشكر نعماتي، كتبه صديقاً وبعثه مع الصديقين. وَمَنْ لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعماتي فليتحذر بأسواتي. وقال ابن المبارك إن المصيبة واحدة فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان، لأن إحداهما المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة.

وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة. فقال: لا تبكي يا بنتاه قولني إذا مت إنا لله وإنا إليه راجعون فإن لكل إنسان مصيبة معوضة. قالت: ومنك يا رسول الله قال ومني. وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال النبي ﷺ: «من أصابته مصيبة، فليذكر مصيبتيه فإنها أعظم المصائب». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى

(١) سورة: البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٧١.

عنه أنه قال: «من أخذت حبيته يعني عينه، فصبر واحسب أدخله الله الجنة». وقيل إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت له: لو دعوت الله تعالى أن يشفيك. فقال لها ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها. فلم يلبث إلا يسيراً أن عوفي. وقيل الصبر مفتاح الظر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل عنه، من لم يلتق نوابث الدهر بالصبر طال عبه عليه. وقيل إن معاوية رضي الله تعالى عنه، خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبي وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب فقال له معاوية: يا عبد العزيز أتاني نبي سيد شباب العرب. فقال له ابني أبو ابنك. قال بل ابنتك. قال للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ولا مفزعاً إلا إليه. وقال سويد السدوسي:

فأوصيكما يا ابني سدوس كلاكما      بتقوى الذي أعطاكمما وبراكما  
بشكرٍ إذا ما أحدث الله نعمَةً      وصبرٍ لأمرٍ الله فيما ابتلاكما

وقال:

أيا صاحبي إن رمت أن تكسب العلا      وترقى إلى العلياء غير مزاحم  
عليك بحسن الصبر في كل حالو      فما صابرٌ فيما يروم بنادم

وقال آخر:

هو الدهر قد جريته وبلوته      فصبراً على مكروهه وتجلدا

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقالت: نصر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للعالم مدلاً بإدبارك عنها، وللآخرة مزمراً بإقبالك عليها، ولكن كان رزوك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ، وأكبر الأحداث بعده فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له في الصبر فأقول إنا لله وإنا إليه راجعون ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك، ولا رازمة على القضاء فيك. ولما مات ذر الهمداني جاء أبوه فوجده ميتاً وكان موته فجأة وحياله يكون عليه فقال: ما لكم والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق، ولا أصبنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا في مثله. ولما وضعه في حفرة قال: رحمك الله يا بني وجعل أجري فيك لك، والله ما بكيت عليك، وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً ولي نافعاً وكنت لك محبباً وما بي إليك من وحشة، وما بي إلى أحد غير الله من فاقة وما ذهبت لنا بعزة، وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك، عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلع لتمنيت ما صرت إليه. فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك. اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذر صلة مني فلا تعزمني ولا تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه فإنك رحيم بي وبه. اللهم قد وهبت لك أسأته لي فهب لي إساءته إليك فإنك أجود مني وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً، وجعلت لي عليه حقاً قرنته بحقك فقلت ﴿اشكُرْ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنَّ الْمَصِيرُ﴾<sup>(١)</sup> اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حقي فاغفر له ما قصر فيه من حقك فإنك أولى بالجوهر والكرم فلما أراد الإنصراف قال: يا ذر قد انصرفنا وتركتناك، ولو أقمتنا عندك ما نفعناك.

وفي الحديث: إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة ماذا قال عبيدي عند قبض روح ولده، وثمرة فؤاده؟ فيقولون إلهنا حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أنني بنيت له بيتاً في الجنة وسميته بيت الحمد. وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه دفن إبناً له وضحك عند قبره، فقيل له أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان. فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة. وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها واحتسب وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُوتَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُوتَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> الآية. اللهم رضينا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين.

## الفصل الثاني: في التعازي والتأسي

روى الترمذي في كتاب السنن للبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «قال من عزى مصاباً فله مثل أجره» وروينا في كتاب الترمذي أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ: «من عزى ثكلى كُسي برداء في الجنة». وروينا في سنن ابن ماجه والبيهقي بإسناد حسن عن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلال الكرامة يوم القيامة». واعلم أن التعزية هي التصبر، وذكر ما يسلي صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته وهي مستحبة. فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي أيضاً داخلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾<sup>(٣)</sup> وهي من أحسن ما يستدل به في التعزية. وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه». واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده. وتكره بعد ثلاثة أيام لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين، وهما إذا كان المعزي أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة. وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه، فبأي لفظ عزاه حصلت. واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم عظم الله أجرك وأحسن عزاءك وغفر لميتك. وفي المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وفي الكافر بالكافر: أخلف الله عليك، ولا تقص لك عدداً. روي أن النبي ﷺ قد بعض أصحابه فسأل عنه، فقالوا يا رسول الله بئيه الذي رأته هلك. فلقبه النبي ﷺ فسأل عن بئيه فقال يا رسول الله هلك فمراه فيه. ثم قال يا فلان أيما كان أحب إليك إن تمتع به عمرك أولاً تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتح لك. فقال: يا رسول الله سَبَقَهُ إِلَى باب الجنة أحب إليّ من التمتع به في دار الدنيا قال: ذلك لك.

وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمهما الله أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن

(١) سورة: محمد، الآية: ٣١.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٢.

فجزع عليه جزعاً شديداً فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول: يا أخي عزّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقيح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمّصّ المصائب فقد سرور وحرمان أجر فكيف إذا اجتمعاً مع اكتساب ووزر ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً. وروي عن ابن المبارك قال: مات لي ابن فمر بي مجوسي، وقال: ينبغي للماقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال اكتوبها منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: مات لي ابن فكتب إلي رسول الله ﷺ: من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل سلام عليكم فإني أحمد الله الملك، الذي لا إله إلا هو، أما بعد فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأمورنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية، وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم. ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة، متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت فاصبر واحتسب واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزناً. وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان إذا عزي مرزأ قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك. وعزي الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه صديقاً له فقال:

إِنَّا نُعَزِّبُكَ لَا إِنَّا عَلَى ثِقَةٍ      مِنَ الْحَيَاةِ وَلَكِنْ سِنَّةُ الدِّينِ  
فَمَا الْمَعَزِّيُّ يَبِاقُ بَعْدَ مَيْتِهِ      وَلَا الْمَعَزَّى لَوْ عَاشَ إِلَى حِينِ

وكتب بعضهم إلى أخ له يعزيه: أنت يا أخي أعزك الله، عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء، وأنها لم تعط إلا أخذت، ولم تسر إلا أحزنت، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون. وعزي رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول:

تَعَزَّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ      لَمَا قَدْ تَرَى يَغْدُو الصَّغِيرَ وَيُولَدُ  
هَلِ الْإِبْنُ إِلَّا مِنْ سَلَالَةِ آدَمَ      لِكُلِّ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَةِ مَوْرَدُ  
وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:  
الموت أخفى سوءاً للبنات      ودفنها يروي من المكرمات  
أما رأيت الله سبحانه      وقد وضع النعش بجانب البنات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه وسليه: ما تصنع يا أخي والقضاء نازل، والموت حكم شامل وإن لم تُلد بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم أن نوابغ الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة، والدمعة الساكبة، حاجباً من فضلك، وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومانعاً من يقينك. فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر فصبراً صبراً فحقول الرجال لا تستغزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزّز عليّ أن أخاطب مولاي معزياً، وأكاتبه مسلماً عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو يتمي إلى جملة، فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم، والركن الأشد، والسهم الأسود، والشهاب الأسطع، والحسام الأقطع. لكن التعزية سيرة سائرة وسنة ماضية غابرة، وقدّر الله هو المقدر، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع، والتعزية يستوي فيها الأشرف والأرضع، لأجلت مولاي أن أفاتحه معزياً، وأخاطبه

مسلياً، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم، والسابق لا يتقدم، فمولاي يقتدى في الصبر على النوائب، وينوره يهتدى في مشكلات المذاهب، وكل ما كان من الردى أرجع كان الأجر عليه أوسع، جعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة وعظم أجره وجعل الجنة نصيبه. وعزى رجل فنى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال: يا بني سوء الخلف أضر علينا من فقد السلف.

ومات لبعض ملوك كتلة ابنة فوضع بين يديه بكرة من المال وقال: من بالغ في تعزيتي فهي له. فدخل عليه إعرابي وقال عظم الله أجر الملك كفتت المؤنة، وسترت العورة ونعم الصهر القبر. فقال قد أبلغت وأرجزت ثم دفعها له. وعزت أعرابية قوماً فقالت: جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وأجركم ورحمه. وكان لعلي بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً فعزاه علي بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال: يا ابن رسول الله، إن ابني كان مسرفاً على نفسه فقال لا تجزع. فإن من ورائه ثلاث خلال أولهن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله. والثانية شفاعة جدي ﷺ، والثالثة رحمة الله التي وسعت كل شيء فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال؟

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنة لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة. فقال عمر اذكر الله يا أمير المؤمنين عليك بالصبر فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته. فقال رجاء أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس لقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنة إبراهيم. وقال إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا تقول ما يسخط الرب، وأنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم وقال لولا أن تزفت هذه العبرة لانصدع كبدي ثم إنه لم ييك بعدها. وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك وأعدني لهم طعاماً، ووكلي بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة، في أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد ففعلت. فلم يدخل إليها أحد ففعلت لأن الإسكندر عزاها في نفسه. ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال لها: أماه، لا تحزني على الفضل فأنا خلف منه. فقالت كيف لا أحزن على ولد عوضني عنه خليفة مثلك، فعجب المأمون من جوابها وكان يقول: ما سمعت قط أحسن منه، ولا أجلب للقلوب. فقال لها عليك بالصبر فإن فيه مزيد الأجر. وممن جزع على ولده جعفر بن علي لما قتله الحرث قام نساء الحي ليكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقاة فنبحه وألقاها بين أيديهن وقال لهن ابكين معي على جعفر فما زالت النوق ترغو، والشياه تيعر والنساء يصرخن ويبكين، وهو ييكي معهن فلم ير ماتم كان أوجع منه. وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن، والتهتة بعد سنة تجدد الفرح. ومما قيل في التأسي والتسلي بالخلف عن السلف: قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية في والده فقال:

اصبرْ يزيدُ فقد فارقت ذائقه      واشكُرْ إلهك مَنْ بالملك حاباكَا  
لا رزه أصبح في الأيام نعرفه      كما رزئت ولا عقبى كعقباكَا

وقال آخر:

لا بدُّ من قَدِّ ومن فاقِدِ      هيهات ما في الناس من خالِدِ

وقال آخر:

تبصّر فلو أن البكاره هالكا  
وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم في والدهم فقال:

فلو كان فيضُ الدمع ينفع باكيا  
لعلمت غرب الدمع كيف يبيلُ  
فإن غاب بدرٌ فالنجوم طوالعُ  
ثوابت لا يقضى لهن أفسولُ  
يفث بها في ظلمة الليل حائرُ  
ويسري عليها بالفراق دليلُ

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له في تلك الليلة ولد، فقال: سر ك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سر ك، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر. وقال بعضهم:

أليس لهذا صار آخر أمرنا  
فلا كانت الدنيا القليل سرورها  
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه  
فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعي عن قول الخنساء في نعيها صخرأ حين مات ونعتة فقالت:

يذكرني طلوع الشمس صخرأ  
وأندبه لكل غروب شمس

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان. فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يثير على أعدائه ويتحيد بضيقه. وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا يا نفس لا تنبيه حتى  
ولولا كثرة الباكين حولي  
وما يكون مثل أخِي ولكن  
أسلي النفسَ عنه بالتأسِي

وقال آخر:

ولولا الأسي ما عشتُ في الناس ساعةً  
ولكن إذا ناديت جاوني مثلي

وقال آخر:

وهوّن وجلدي عن خليلي أنسي  
إذا شئتُ لاقيتُ النبي أنا صاحبه

وقال آخر:

ومما يؤدبني إلى الصبر والعزّا  
تردد فكري في عموم المصائب

### الفصل الثالث: في المراثي

لما توفي رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه، وآله بمرث كثيرة. منها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فإنه كان أقرب الناس إليه وهو أول من رثاه فقال:

(١) قبري والمعنى أنه قد مات.

ضاقَتْ عليَّ بعرضهن الدورُ  
والعظمُ مني ما حيت كثيرُ  
والصبرُ عندك ما بقيت يسرُ  
غيبت في لحد عليه صخورُ  
تعيًا بهنَّ جواناتٍ وصدورُ

لما رأيتُ نينا متجدلاً<sup>(١)</sup>  
فارتاع عند ذاك لموته  
أعتيق ويحك إن خُلِكَ قد ثوى  
يا ليتني من قبلك مُهلكٍ صاحبي  
فلتجدثن بدائع من بعده

وقال آخر:

كان يغدو به النبات زكياً  
وصراطاً يهدي الأنام سويًا  
ونينا مؤيداً عريتيًا  
عائداً بالنوال برًا قتيًا  
كحورت<sup>(٢)</sup> شمسه وكنن خليًا  
دائم الدهر بكرة وعشيًا

قعدتُ أرضنا هناك نيباً  
خلقنا عاليًا وديننا كريمًا  
وسراجاً يجلو الظلام منيرا  
حازماً عازماً حلماً كريمًا  
إن يوماً أتى عليك ليوم  
فعليك السلام منا جميعاً

ورثاه رحمه الله أبو سفيان بن الحرث قال:

وليل أخى المصيبة فيه طولُ  
أصيب المسلمون به قليلُ  
عشية قيل قد قبض الرسولُ  
تكاد بنا جواناتها تعيلُ  
يروح به ويغدو جبرئيلُ  
نفوس الناس أو كادت تيلُ  
بما يوحي إليه وما يقولُ  
علينا والرسولُ لنا دليلُ  
وإن لم تجزعي فهو السيلُ  
وفيه سيّدُ الناس الرسولُ

أرقتُ فبات ليلي لا يزولُ  
وأعدنني البكاء وذاك فيما  
لقد عظمت مصيبتنا وجلت  
وأضححت أرضنا مما عراها  
فقدنا الوحي والتنزيلُ فينا  
وذاك أحقُّ ما سألت عليه  
نبيٌّ كان يجلو الشك عنا  
ويهدينا فلا نخشى ملاماً  
أفاطم إن جزعتِ فذاك عنزُ  
قبرُ أيك سيّدُ كل قبر

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه قال:

فعلبك يا دنيا السلامُ  
فالعيش بعلمهم حرامُ  
والطفل يؤلمه القطامُ

ذهب الذين أُجِبُّهم  
لا تذكرين العيش لي  
إنني رضيع ومالهم

(١) فوّه الجنادل: الصخور.

(٢) كورت: حورت.

ورثي بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:  
سألت الندى والجود ما لي أراكما  
وما بال ركن المجد أمسى مهتماً  
قللتُ فهلاً مئماً بعد موته  
قال أقمنا كي نعزي بفقده

وقال آخر:

ولا أرتجي في الموت بعدك طائلاً  
وفي المعنى لبعضهم:

لقد أمنت نفسي المصائب بعده  
فما أتقي للدهر بعدك نكبة  
ورثي أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال:

مضى ابنٌ سعيدٍ حيث لم يبقَ مشرقٌ  
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفه  
وأصبحُ في لحدٍ من الأرض مينا  
سأبكيك ما فاضتْ دموعي فإن توفض  
وما أنا من رزه، وإن جلتْ جازع  
لئن حسنت فيك المرثي بذكرها

وقال آخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني  
أخلاي لو غير الحمام أصابكم

وقال العباس بن الأحنف:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا  
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه

وقال آخر يرثي صديقه:

خيلني ما أزداد إلا صباباً  
خيلني لو نفس فلدت نفس ميتٍ  
وقد كنت أرجو أن تعيش وإن أمت

تبدلتما عزاً بلذٌ مؤيدٍ  
قالا أصبنا بابن يحيى محمدٍ  
وقد كتما عبديه في كل مشهدٍ  
سافةً يومٍ ثم تلووه في غدٍ

ولا أتقي للدهر بعدك من خطبٍ

فأصبحت منها أماناً أن أروعا  
ولا أرتجي للعيش بعدك مرتعا

ولا مفرّبٌ إلا له فيه مادحٌ  
على الناس حتى غيثنُ الصفائحُ  
وكان به حياً تضيّقُ الصحاصحُ<sup>(١)</sup>  
فحسبُك مني ما تكلُّ الجوانحُ  
ولا بسرورٍ بعدك قفدك فارحُ  
قد حسنت من قبلُ فيك المدائحُ

أرى الأرض تبقى والأخلاء<sup>(٢)</sup> تذهبُ  
عتبت ولكن ما على الدهر معتبُ

أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر  
سيقى عليك الحزن ما بقي الدهر

إليك وما تزداد إلا تنائياً  
فديتك سروراً بنفسي وماليا  
فحال قضاء الله دون رجائياً

(١) الصحاصح: الأراضي المستوية.

(٢) الأخلاء: الأصحاب.



عليك من الأقدار كان حذاريا

يكفي عليك الناظرُ  
فعليكَ كنتَ أحاذرُ

فلما تقضى شطره عاد في شطري  
سبتك إذ كنا إلى غاية تجري  
فأصبحت لا يخشون نابي ولا ظفري

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء: أخبريني بأفضل بيت قلته في أخيك فقالت:  
فأنت علي من ماتَ بعمدك شاغله

ولأبي المحاسن الشواء في صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته:  
يدمون للأسف الأكف عضاضاً  
من حزنها لبت عليه يياضاً

ولكنه أصلاب قومٍ تَقَصُّفُوا<sup>(١)</sup>  
ولكنه ذاك الثناء المخلَّفُ

يتيماً صاعها الرحمن من شرفِ  
فردها عندما عزت إلى الصدفِ

بأبي وأمي وجهك المقبورُ  
والتبر منك مشيد معمورُ  
في كل بيت رنة وزفيرُ  
في جوفها جبلٌ أشم كبيرُ

ولبتُ حزن أبي الحسين جديدا  
فيه ألا بُغداً لئلك عيدا

ألا فليمت من شاء بعمدك إنما

أخذها بعضهم فقال:

كنت السوادَ لمقلنتي  
من شاء بعمدك فليمتُ

وقال آخر يرثي بعض أولاده:

وقاسمني دهري بني مشاطرا  
ألا لبتَ أمي لم تلذنتي وليتني  
وقد كنت ذا ناب وظفر على العدا

وكننت أعير الدمعَ قبلك من بكى

ولأبي المحاسن الشواء في صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته:  
لم أنسه وينو الملوك أمامه  
والثلج قد غطى الريا فكانها

وقال آخر:

وليس صريرُ الشمس ما تسمعونه  
وليس نسيمُ المسكِ ريا حنوطِهِ

وقال مقاتل بن عافية يرثي الوزير نظام الملك:  
كان الوزير نظامُ الملك لؤلؤةً  
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها

وقال آخر:

وقبرت وجهك وانصرفت مودعا  
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة<sup>(٢)</sup>  
فالناس كلهم لفقْدِك واجدُ  
عجبا لأربع أذرع في خمسة

وكان رجل توفي ولده يوم عيد فقال:

لبس الرجال جديدهم في عيدهم  
أيسرُني عيدٌ ولم أر وجهه

(١) تقصفوا: تكسروا.

(٢) قفرة: خلوية.

لا كان ذاك بقا ولا تخليدا  
 فهو الخوون مودةً وعهودا  
 من بعده ذا لوعة مكمودا  
 حنرا عليه وجفنها تسهدا  
 فييت مكلوماً بها مرصودا  
 لأبي الحسين وقد لظمن خدودا  
 لما رأيتُ جمالك المفقودا  
 وعلى فراقك لم أجد تجليدا  
 أجلا وإن لم أحصه معدودا  
 فهناك لا أتجاوز المحدودا  
 يوماً على هذا وذاك مزيدا  
 أصبحت بعك بالأسى مهدودا  
 وكذلك أنك لم تكن مولودا  
 بفراق من يهوى وكان سعيدا  
 فعليك جفني لم يزل محمودا  
 تسمى الأنام كـيـراً ولييدا  
 ولدأ له أو صاحباً مفقودا

فارتقه وبقيت أخلد بعده  
 من لم يمت جزعاً لفقدي حيبه  
 مت مع حبيك إن قدرت ولا تعش  
 ما أم خشف قد ملا أحشاءها  
 إن نام لم تهجع وطافقت حوله  
 مني بأوجع إذا رأيتُ نوائحا  
 ولقد عدمت أبا الحسين جلاذتي  
 كنت الجليد<sup>(١)</sup> على الرزايا كلها  
 ولكن بقيت وما هلكت فان لي  
 لا موت لي إلا إذا الأجل انتفضى  
 حزني عليك بقدر جك لا أرى  
 ما هد ركني بالسنين وإنما  
 يا ليت إنني لم أكن لك والدا  
 فلقد شقيتُ وربما شقي الفتى  
 من ذم جفناً باخلاً بدموعه  
 فلأنظمن مراثياً مشهورة  
 وجميع من نظم القريض مُفارقاً

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري:

لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه  
 بإحسانه إخوانه وأقاربه

سألت رسوم القبر عن ثوى به  
 أنسال عن عاش بعد وفاته

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم:

لذي الأبواب إذا فقد الشهابُ  
 كنوزاً نحوها يسمي الركابُ  
 فكم علم له ضم الترابُ  
 ثناها وهي عاصية صعبُ  
 شهاب الدين ما فيه ارتيابُ  
 له من كل رضوان رضابُ

مصائب ليس يشبهه مصاب  
 إمام قد حوى من كل علم  
 ليكفي كل ذي علم عليه  
 وكلم كلم موانع قد أته  
 فسلطان البلاغ بغير شك  
 سقى الله الكريم ثراه صوبا

وقال الصديقي:

الله يوليك غفراناً وإحساناً

يا غائباً في الثرى تلى محاسنه

إن كنت جرعت كأس الموت واحدة  
وقال محمد بن عبد الله العتيبي يرثي ابناً له:

أضحكت بخدي للدموع رسوم  
والصبرُ يحمد في المواطن كلها

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بتاً له فقال:

عجياً للمنون كيف أتها  
شمتنا مصيبتان جميعاً

وله يرثي الأمير يلبغا:

ألا إنما الدنيا غرور وباطل  
وما عجبني إلا لمن بات واقفاً

وقال آخر:

إلى الله أشكو أن كل قبيلة

وقال رجل يرثي صديقاً له توفي وكان من الكرماء:

ما درى نعشه ولا حاملوه

ولبعض الكتاب في ابن مقلة:

استشعر الكتاب فقلبك سالفاً  
فلذاك سؤدت الدواة كآبة

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى:

هلمنا إلى معن وقولا لقبره  
فيا قبر معن كنت أزل حفرة

ويا قبر معن كيف وارت جوده  
بلى قد وسعت الجود والجود ميت

فتى عاش في معرفه بعد موته  
ولما مضى معن مضى الجود كله

وقال آخر:

عجبت لصبري بعله وهو ميت

وقال آخر:

فديتك لم أصبر ولي فيك حيلة

وقالت ربيعة بنت عاصم:

ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر

وقفت فأبكتني ديار عشيرتي      على رزتهن الباقيات الحواسر  
 غدوا كسيوف الهند وراد حومة      من الموت أعياء ودهن المصادر  
 فوارس حماموا عن حريمي وحافظوا      بدار المنشأ والقنا متشاجر  
 ولو أن سلمى نالها مثل رزتنا      لهدت ولكن محمل الرزه عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكان أبوه قائماً يصلي. فقال له محمد أوجز فأوجز وسلم، فلما أتاه وضع الرأس في حجره، فقال أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾<sup>(١)</sup> ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول:

فتى كان يحميه من العار سيفه      ويكفيه سواك الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع: قل لصاحبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعمتك أيام، والملقى غداً بين يدي الله تعالى. فكان ذلك فألا على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة. وقيل لحسان: ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ قال: لم أر شيئاً إلا رأيت يقصر عنه.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾<sup>(١)</sup> فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً. ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾<sup>(٣)</sup> فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة تغني بحياة كثيرة كما قال ابن عياض: لو كانت الدنيا ذهباً يفتنى والآخرة خزناً يقي، لوجب علينا أن نختار ما يقي على ما يفتنى. ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتي سليمان عليه الصلاة والسلام، حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن، وسخر له الريح، والطير، والوحوش ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾<sup>(٤)</sup> فوالله ما عدنا نعمة مثل ما عدتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليولني أشكر أم أكفر﴾<sup>(٥)</sup>. وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا: ﴿فوبرك لسائلهم أجمعين \* عما كانوا يعملون﴾<sup>(٦)</sup> وقال تعالى: ﴿وإن كان مقال حبة من خردك أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾<sup>(٧)</sup> وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أريك الدنيا بما فيها. قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أدوية المدينة، فإذا مزيلة فيها رؤوس الناس، وعذرات، وخرق بالية وعظام البهائم فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهي اليوم صارت عظماً بلا جلد ثم هي صائرة عظماً رميمياً، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها في الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها<sup>(٨)</sup>، وهذه العظام دوابهم التي كانوا يتجمعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكياً على الدنيا فليكن. قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير من الليف. وقد أثر الشريط في جنبه فبكى عمر رضي الله تعالى عنه فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه

- (١) سورة: النساء، الآية: ٧٧.
- (٢) سورة: الحديد، الآية: ٢٠.
- (٣) سورة: العنكبوت، الآية: ٦٤.
- (٤) سورة: ص، الآية: ٣٩.
- (٥) سورة: النمل، الآية: ٤٠.
- (٦) سورة: الحجر، الآيات: ٩٢ - ٩٣.
- (٧) سورة: الأنبياء، الآية: ٤٧.
- (٨) تصفقها: تلاعب بها.

من سعة الدنيا، وأنت رسول الله وقد أثر الشريط بجنبك. فقال عليه السلام: هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة. وروي عن الضحاك قال: لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدنا ريح الدنيا وفقدنا ريح الجنة غشي عليهما أربعين يوماً من نتن الدنيا. وعن ابن معاذ قال: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا، وهم عدو، وحسد أخ، وحب شرف. وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي: (يا علي أربع خصال من الشقاء جمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا). وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين، أنيابها بادية، مشوهة الخلق، لا يراها أحد إلا هرب منها فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم أتعرفون هذه؟ فيقولون لا نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها. وعن الفضيل بن عياض أنه قال: جعل الخير كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا، وجعل الشر كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه حب الدنيا. وقيل إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فرّ وإن تركته تبعك وفيه قال بعضهم:

يشبهُ الظلُّ الذي يمشي معَكَ  
وهسو وإن وُلِّيتَ عنه تَبَعَكَ

إنما الرزقُ الذي تطلبه  
أنت لا تدركُـه متبعاً

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

لمن كان في علم الحقائق راقياً  
لبعض وأشكالاً بغير وفاق  
وتفنى جميعاً والمحرك باقي

رأيتُ خيالَ الظلِّ أعظم عبرةً  
شخصاً وأصواتاً يخالف بعضها  
تجيء وتمضي بابة بعد بابة

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

بنعمة أوفى من العاقبة  
فإنه في عيشة راضية  
على الفتى لكنه عارضة  
مع حسنها غدارة فائبة

ما أنعم الله على عبده  
وكل من عوفي في جسمه  
والمال حلو حن جيد  
ما أحسن الدنيا ولكنه

وتوفي رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات:

أن الجمام بكم علينا قادم  
أن المفراط في التزود نادم  
تبنون والموت المفروق هادم  
حيث المختم واحد والخادم

يا واقبين ألم تكونوا تعلموا  
لو تنزلون بشعبنا لمعرفتمو  
لا تستمزوا بالحياة فإنكم  
ساوي الردى ما بيننا في حفرة

وقال آخر:

وتقول الرفاق هذا فلان  
وجفاه الأصحاب والخلان

عن قليل أصير كوم تراب  
صار تحت التراب عظماً ريماً

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

فلا كانت الدنيا القليل سرورها  
فكل أمور الناس هذا مصيرها

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا  
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه  
وقال شرف الدين بن أسد:

حَمَلْتُ نَفْسَكَ آثَاماً وَأَوْزَاراً  
إِلا كَطِيفِ خَيْالٍ فِي الْكِرَا زَاراً

يا من تَمَلَّكَ ملكاً لا بقاء له  
هل الحياة بنى الدنيا وإن عذبت  
وقال بعضهم:

ويعقبها الأحزان والهم والنلم  
ورحمة رب الناس والجود والكرم

وغاية هندي الدار لئنة ساعة  
وهاتيك دار الأمن والعز والتقوى  
وقال غيره:

ولم تَخَفْ سوء ما يأتي به القدر  
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

حَسُنْتَ فَتَمَّكَ بالأيام إذا حسنت  
وسالمتك الليالي فاغتررت بها  
وقال آخر:

بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن

أين آدم أين الأولون والآخرون. أين نوح شيخ المرسلين. أين إدريس رفيع رب العالمين. أين إبراهيم خليل الرحمن. أين موسى الكليم من بين سائر النبيين. أين عيسى روح الله الزاهدين وإمام الساتحين. أين محمد خاتم النبيين. أين أصحابه الأبرار، أين الأمم الماضية. أين الملوك السالفة. أين القرون الخالية. أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان. أين الذين قهروا الأبطال والشجعان. أين الذين دانت لهم المشارق والمغرب، أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب. أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً وعتياً. أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشياً. أين الذين اغتروا بالأجناد. أين أصحاب الوزراء والقواد. أين أصحاب السطوة والأعوان. أين أصحاب الإمرة والسطان. أين أصحاب الأعمال والولايات. أين الذين خفتت على رؤوسهم الألوية والرايات. أين الذين قادوا الجيوش والعساكر. أين الذين عمروا القصور والديساكر. أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف. أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف. أين الذين ملؤوا ما بين الخاقين فخراً وعزاً. أين الذين فرشوا القصور حريراً وقزاً. أين الذين تضعضت لهم الأرض هيبة وعزاً. هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً. أفنأهم الله مفني الأمم، وأبادهم مييد الرمم، وأخرجهم من سمة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور. فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم لم يفهمهم ما جمعوا ولا أغنى ما اكتسبوا، أسلمهم الأحياء والأولياء وهجوهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء لو نظقوا لأشدوا:

وأهلني راحلون بكل واد  
ولا كانوا الأجنة في السواد  
فأوموا بالسلام على البعاد

مقيم بالحجوم رهين رمس  
كأنني لم أكن لهمو حياً  
فموجوا بالسلام فإن أيتهم

وقالوا لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين: قدر يغلي، وكنيف يملئ وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم      فتبسمت عجباً ولم تبد  
حتى مررت على الكنيف فقال لي      أموالهم ونوالهم عندي

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال الرشيد لما قال له عظمي وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبت عنك هذه الشربة أكنت تغديها بملكك؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبت عن الخروج أكنت تغديها بملكك؟ قال: نعم. فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرماً لم تنفعه الموعظة. وروي أن أبا العتاهية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيرها      ما لم يكن منها لها زاجر

فقال: لمن هذا البيت. فقيل: لأبي نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال، وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لي بنصف شعري. وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ لما زهد الدنيا، زهد في ثمانين سريراً. قال ابن بشار سألت إبراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا؟ فقال كان أبي من ملوك خراسان، وكان قد حجب إلي الصيد فيينا أنا راكب فرسي، وكلي معي إذ رأيت ثعلباً أو أرنباً فحركت فرسي نحوه فسمعت نداء من ورائي يا إبراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. فوقت أنظر يمينه ويسرة فلم أر أحداً فقلت لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسي فسمعت نداء أعلى من الأول يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقت أنظر يمينه ويسرة فلم أر شيئاً فقلت لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت النداء من قريوس سرجي يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. فوقت وقلت هيهات جانبي التنذير من رب العالمين والله لا عصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا. فتوجهت إلى أهلي، وخلفت فرسي، وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت جبهه وكساءه، وألقيت إليه ثيابي، فلم أزل أرض تقلني، وأرض تضعني حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياماً، فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال. فقال: عليك بالشام قال فانصرفت إلى بلد يقال لها المنصورية، فعملت بها أياماً فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ. فقال: إن أردت الحلال فعليك بطرسوس، فإن المباحات بها والعمل فيها كثير فانصرفت إليها. قال فيينا أنا قاعد على باب البحر، إذ جانبي رجل فآكراني أنظر له بستاناً، فتوجهت معه فأقمت في البستان أياماً كثيرة، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرت له فقعده في مجلسه ثم قال يا ناطورنا فأجبته. قال اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيه، فأبتيه برمان فكسر الخادم واحدة فوجدها حامضة فقال يا ناطورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماتنا ولا تعرف الحلو من الحامض، فقلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً، ولا أعرف الحلو من الحامض. قال فغمز الخادم أصحابه وقال ألا تعجبون من هذا، ثم قال لي لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهله الصفة. قال: ثم تحدث الناس بذلك وجاؤوا إلى البستان. فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم. وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين، ويعمل في



الطين فيينا هو يوماً يحرس كرمأ إذ مر به جندي فقال: اعطنا من هذا العنب فقال له: إن صاحبه لم يأذن لي فضره بالسوط فطأ رأسه وقال اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدي الجندي. فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسبح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك تملكك ألف عام وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي، والحجر وسادي فمن رأي فلا تغره الدنيا كما غرتني. وقال وهب بن منبه خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا يا نبي الله إنا جياع. فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم فأذن لهم ففترقوا في الزرع يفركون ويأكلون فيينا هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول زرعي، وأرضي ورتتها من أبي وجدي فيأذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال فدعا عيسى ربه أن يعث جميع من ملكها من لادن آدم إلى تلك الساعة فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون أرضنا ورتناها عن آباتنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه. فلما عرفه قال معذرة إليك يا نبي الله إني لم أعرفك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك هؤلاء كلهم ورتوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك أرض ولا مال. ولما مات اسكندر قال أرسطاطاليس أيها الملك: لقد حركتنا بسكونك. وقال بعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس. أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزنأ بـدفنك ثم إنـي  
وكانت في حياتك لي عـظـات

وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعة  
ولم أر مثل الموت حتى كأنه  
وما أفتح الضريط في زمن العبا  
ترحل من الدنيا بزاد من التقى  
فأيماننا تطوى وهن مراحل  
إذا ما تخطته الأمانتي باطل  
فكيف به والشيب في الرأس شاعل  
فعمرك أيام تعد قلائل

وقال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حجاجاً فإذا أنا برجل من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة فجمعتني وإياه الطريق فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلتني<sup>(١)</sup>، فإن معي فضلاً من راحلتي فجزاني خيراً وقال لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم أنس إليّ فجعل يحدثني. فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة، ومال كثير وولد زائد، فأمرت خادماً لي أن يحشوا لي فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير ففعل. فإني لثائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم فقامت إليه فأوجعته ضرباً ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة، فأتاني آت في منامي في صورة فظيماً فهزني وقال أفق من غشيتك واتبه من رفدتك ثم أنشأ يقول:

(١) تعادلتني: تساوتني.

يا خل إنك أن توسد لنا  
فامهد لنفسك صالحاً تسعد به

وسدت بعد اليوم صم الجندل<sup>(١)</sup>  
فلتدمن غداً إذا لم تفعل

فانتبهت مرعوباً وخرجت من ساعتى هارباً إلى ربي كما تراني ثم أنشأ يقول:

من كان يعلم أن الموت يدركه  
وأنه بين جنات مزخرفة  
فكل شيء سوى التصوى به سمج  
ترى النبي اتخذ الدنيا له وطناً

والقبر مكانه والبعث يخرجه  
يوم القيامة أو نار ستضججه  
ومن أقام عليه منه اسمجه  
لم يدرك أن المنايا سوف تزعجه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندي<sup>(٢)</sup> فترجم بالعربي فإذا هي آيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الآيات:

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم  
واستزلوا من أعالي عز مقلهم  
ناداهمو صارخ من بعدها دفنوا  
أين الوجوه التي كانت محجبة  
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم  
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا

غلب الرجال فلم تفهمهم القلل  
فأسكنوا حضرة يا بش ما نزلوا  
أين الأسرة والتيجان والحلل  
وكان من دونها الأستار والكلل  
تلك الوجوه عليها الدود يقتل  
فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية وأعطاه ما يشتري به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعده ينتظر انصراف عيسى من الصلاة فأبطأ عليه فأكل رغيفاً، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين. فقال له أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين فأكلاهما ثم مرا على وجوههم حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها فجاءه فذكاه وأكلاه منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية فأنطق الله له لينة فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد وصاحبه يتعجب مما رأى فقال له عيسى بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه الصلاة والسلام بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كان إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها كوني ذهباً ياذن الله فكانت فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى: نعم واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث. فقال

(١) الجندل: الحبر في القبر.

(٢) القلم المسندي: خط عربي قديم عرف في نواحي اليمن.

الرجل أنا صاحب الرغيف الثالث. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام هي لك كلها ثم فارقه عيسى. وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه فقال اثنان منهما للثالث انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه، واقتسما المال بيننا فقال الآخر نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام، فإنه أضرر لصاحبه سوء. وقال أجعل لهما في الطعام سماً فإذا أكله ماتا وأخذ المال لنفسه، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا. فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصرعون حولها. فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

وقال الهيثم بن عدي: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من الذهب أيضاً مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر وعشت بعده دهنراً طويلاً ورأيت عجباً كثيراً، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبائه، ويعلم أنه صائر إليهم ثم لا يتوب وقد علمت أن الأجلاف الجفافة يستترلونني عن سريري، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان، ويتأس الصبيان. فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً. وعن عمرو بن ميمون أنه قال افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشاً، وأقساهم قلباً، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذلت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفتدي به من الموت إذ نزل بي. ويروى في الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله في أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم. فمن سمع قصتي فلا يفتخر بالدنيا، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشي عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه، وبأد أهله، وأظلمت نوحه هذه الأبيات:

هذه منازل أقوام عهدتكم      يوفون بالعهد مذ كانوا وبالنم  
تبكي عليهم ديار كان يطربها      ترنم المجد بين الجود والكرم

وقيل في المعنى:

بالله ربك كم قصر مررت به      قد كان أعمار باللذات والطرب  
نادى غراب المنايا في جوانبه      وصاح من بعده بالويل والخرب

وفيه:

أيها الرافع البناء رويداً      لا يبرد المنون عنك البناء

وحكي أن رجلين تنازعا في أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة ثم صرت رميمًا ألف سنة، ثم أخذني خراف وعملي إناه، فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت تراباً، فأخذني وعملي لبناً وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلم تنازعا في هذه الأرض، وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها متقلبون. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وروي أن ملكاً بنى قصرأ، وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه فقال رجل أرى فيه عيبين: فقالوا له وما هما. قال يموت الملك، ويخرب القصر. قال صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا.

وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته، وقطعه للقفار والقلوات<sup>(١)</sup>، فقال: أعجب شيء رأيته أنني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها. فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر أبائنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله. وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت أين المدينة التي ها هنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر أبائنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا مدينة. ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية. فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر هنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر أبائنا ولا أجدادنا، إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان، فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض<sup>(٢)</sup> ماؤه، وإذا مكانه غيضة وصيدون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار. فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان هنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر أبائنا ولا أجدادنا أنه كان هنا بحر فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك فإذا هو بالمدينة على الحالة الأولى، والحصون، والقصور والأسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التي كانت هنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله لم يذكر أبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت فإذا عاليها سافلها، وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسألته أين المدينة قال: سبحان الله لم يذكر أبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد، ووارث الأرض ومن عليها وياعث من خلق منها بعد رده إليه. ولبعضهم:

ف بالديار فهذه آثارهم	تبكي الأجنة حسرة وتشوقاً
كم قد وقفت بها أسائل أهلها	عن حالها مترحماً أو مشفقاً
فأجابني داعي الهوى في رسمها	فأرقت من تهوى وعزّ الملتقى

ولبعضهم:

أيها الريح الذي قد دثرا	كان عيناً ثم أضحى أثرا
أين سكانك ماذا فعلوا	خبرن عنهم سقيت المطررا
فلقد نادى منادي دارهم	رحلوا واستودعوني عبرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى الله إلى الدنيا من خدمتي فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا، مرى على أوليائي ولا تحلي لهم فتعتيهم. وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح، كلما ازداد صاحبها شرباً ازداد عطشاً، أو كالكأس من عسل وفي أسفله سم فللذائق منه حلاوة عاجلة، وفي أسفله الموت، أو كحلم النائم يفرح في منامه فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضيء قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذي ضرب به المثل تام فيه فسمع قائلأ يقول:

(١) الفلوات: مفرد ما فلاة: المفازة.

(٢) غاض: نشف.

بقاؤك فيها إن عقلت قليلاً  
لمن كان يوم يقتضيه رحيل

أتبني بناء الخالدين وإنما  
لقد كان في ظل الأراك كفاية  
قال: فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال:

على الماء خائته فزوج الأصابع

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض  
ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

في خفض عيش نفيس ما له خطر  
إلى القبور فلا عين ولا أثر

هذي منازل أقوام عهدتكم  
صاحت بهم نائبات الدهر فاتقلبوا

ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وذو نسب في الهالكين عريق  
له عن عدوّ في ثياب صديق

وما الناس إلا هالك وابن هالك  
إذا امتحن الدنيا ليب تكشففت

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً. فقال قبر من هذا؟ فقالوا قبر خباب بن الأرت فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه آخراً إلا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، ويكم عما قليل لاحقون. اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى، ثم قال يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا فما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما أنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

## الباب الرابع والثمانون: في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ.

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ صلت عليه الملائكة، ومن صلت عليه الملائكة صلى الله عليه، ومن صلى الله عليه لم يبق شيء في السموات ولا في الأرض إلا صلى عليه».

الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتب عليه ذنباً ثلاثة أيام».

الحديث الثالث: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان، جناح بالشرق، وجناح بالمغرب، رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول اللهم صل على عبدك ما دام يصلي على نبيك».

الحديث الرابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشراً، ومن صلى عليّ عشراً صلى الله عليه مائة، ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه بها ألفاً ومن صلى عليّ ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مرة كتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله ﷺ: «أنا نبي جبريل يوماً قال يا محمد جئت بك بشارة لم آت بها أحداً قبلك، وهي أن الله تعالى يقول لك: «من صلى عليك من أمك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد، وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم»، فعند ذلك خر ساجداً لله شاكراً».

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في الصباح عشراً محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، ووكل الله به ملكاً حين يدفن في قبره يشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية».

الحديث العاشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في يوم مائة مرة قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادي عشر: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني مجلساً أكثركم عليّ صلاة».

الحديث الثاني عشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ألف مرة بشر بالجنة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عليه السلام وقال لي يا رسول الله لا يصلي عليك أحد إلا ويصلي عليه سبعون ألفاً من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة عليّ لا يرد».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عليّ نور على الصراط». وقال عليه الصلاة والسلام «لا يلج النار من يصلي عليّ».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله ﷺ: «من جعل عبادته الصلاة عليّ قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عليّ أخطأ طريق الجنة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكة في الهواء، بأيديهم قراطيس من نور، لا يكتبون إلا الصلاة عليّ وعلى أهل بيتي».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبداً جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا، ولم تكن فيها الصلاة عليّ ردت عليه ولم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة».

الحديث الحادي والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما لم يندرس اسمي من ذلك الكتاب».

الحديث الثاني والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغونني الصلاة عليّ من أمّي فأستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل عليّ فأنا بريء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق. قالوا يا رسول الله ولم ذاك؟ قال: سمعوا اسمي ولم يصلوا عليّ».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول ردوه إلى الميزان فأضع له شيئاً كالأنملة معي في ميزانه وهو الصلاة عليّ فيرجع ميزانه وينادي سعد فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في مجلس ولم يصل عليّ فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى وكل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلي عليّ أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال يا رسول الله: «إن فلان ابن فلانة صلى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: الصلاة على النبي ﷺ أمحي للذنوب من الماء لسواد اللوح.

الحديث التاسع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك، ومن روحك لجسدك، فأكثر من الصلاة على النبي الأمي ﷺ».

الحديث الثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «إن ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك، ولم يبادر إلى اقتلاعها فغضب الله عليه، وكسر أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله، فسأل الله فيه، فأمره أن يصلي على النبي ﷺ فصلى عليه فغفر الله له، وردَّ عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبي ﷺ».

الحديث الحادي والثلاثون: عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى، تقبل صلاته، وتقضى حاجته، ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثاني والثلاثون: عن زيد بن حارثة قال: سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ: «صلوا علي واجتهدوا في الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال تعالى: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علي فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم وأسألوا الله الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدي أن النبي ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يصل على نبيي ﷺ».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ».

الحديث السادس والثلاثون: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من قال جزى الله عنا محمداً خيراً وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله فقد أتعب كاتبه».

الحديث السابع والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يصلي عليّ إلا رد الله روحي حتى أردَّ عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني منزلة يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الدميري رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبي ﷺ قال: «من سره أن يلقى الله وهو عليه راضي فليكثر من الصلاة عليّ فإنه من صلى عليّ في كل يوم خمسمائة مرة لم يفتر أبداً، وهدمت ذنوبه، ومحيت خطايا، ودام سروره، واستجيب دعاؤه، وأعطى أمه، وأعني على عدوه وعلى أسباب الخير، وكان ممن يرافق نبيي في الجنان» اللهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين الذي أنزل عليه في محكم الكتاب العزيز تعظيماً له، وتوقيراً. «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \* وداعياً



إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً \* وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴿١١﴾ فهذا خطاب خاص الخاص، ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولاً بالرسالة، إلا سيد خلقه محمداً ﷺ فإن الله تعالى نادى أبا البشر: ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ﴿١٢﴾، ﴿ويا نوح اهبط بسلام منا﴾ ﴿١٣﴾، ﴿ويا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ ﴿١٤﴾، ﴿ويا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ ﴿١٥﴾، ﴿ويا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك﴾ ﴿١٦﴾ وقال لمحمد ﷺ: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ ﴿١٧﴾. ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك﴾ ﴿١٨﴾. ﴿يا أيها النبي حسبك الله \* يا أيها النبي حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ ﴿١٩﴾. ﴿يا أيها النبي جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾. ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ ﴿٢١﴾. ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ ﴿٢٢﴾. ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ ﴿٢٣﴾. ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \* وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ ﴿٢٤﴾. وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا في أربعة مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ، الأول قوله عز وجل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ ﴿٢٥﴾ لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد، وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو قال وما رسولي لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمد. الثاني قوله عز وجل: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ ﴿٢٦﴾. الثالث قوله عز وجل: ﴿الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله أضل أمثالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد﴾ ﴿٢٧﴾ فلو قال وآمنوا مما نزل على رسولي لقال الأعداء ليس هو فعرفه باسم محمد ﷺ. الرابع قوله عز وجل: ﴿محمد رسول الله﴾ ﴿٢٨﴾ والحكمة في ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ ﴿٢٩﴾ فكان من

- (١) سورة: الأحزاب، الآيات: ٤٥ - ٤٧.
- (٢) سورة: البقرة، الآية: ٣٥.
- (٣) سورة: هود، الآية: ٤٨.
- (٤) سورة: هود، الآية: ٧٦.
- (٥) سورة: ص، الآية: ٢٦.
- (٦) سورة: المائدة، الآية: ١١٠.
- (٧) سورة: المائدة، الآية: ٦٧.
- (٨) سورة: المائدة، الآية: ٤١.
- (٩) سورة: الأنفال، الآيات: ٦٤ - ٦٥.
- (١٠) سورة: التوبة، الآية: ٧٣.
- (١١) سورة: الطلاق، الآية: ١.
- (١٢) سورة: التحريم، الآية: ١.
- (١٣) سورة: الأحزاب، الآية: ١.
- (١٤) سورة: الأحزاب، الآيات: ٤٥ - ٤٦.
- (١٥) سورة: آل عمران، الآية: ١٤٤.
- (١٦) سورة: الأحزاب، الآية: ٤٠.
- (١٧) سورة: محمد، الآيات: ١ - ٢.
- (١٨) سورة: الفتح، الآية: ٢٩.
- (١٩) سورة: الفتح، الآية: ٢٨.

الأعداء من يقول: من هو رسوله الذي أرسله فعرّفه باسمه فقال: محمد رسول الله وسماه تعالى باسمه أحمد في موضع واحد وله حكمة، وهي أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بني إسرائيل ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾<sup>(١)</sup> لأنهم كانوا يعرفونه في التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد وإنما ذكر ذلك إعلاماً به، وتعريفاً له، وما ناده إلا بالنبوة والرسالة فقال: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \* وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾<sup>(٢)</sup> أي شاهداً بالإيمان للمؤمنين، ومبشراً لأهل التمجيد، ونذيراً لأهل التمجيد، وقيل شاهداً لأهل القرآن، ومبشراً لهم بالغفران، ونذيراً لأهل الكفر والمعصيان، وقيل شاهداً لأمتك، ومبشراً بشفاعتك، ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك وقيل شاهداً بالمنة، ومبشراً بالجنة. وقوله ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي يدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله قال تعالى: وأنه لما قام عبد الله يدعوه وسمى رسول الله ﷺ نفسه داعياً فقال أنا الداعي إلى الله وقوله تعالى ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي يهتدى به كما يهتدى بالسراج في ظلمة الليل.

فإن قلت: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿وسراجاً منيراً﴾ ولم يقل قمراً منيراً.

فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر، لأن المراد بالسراج هنا الشمس. قال تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾<sup>(٣)</sup> والشمس أعم نفعاً ونوراً من القمر وقيل المراد بقوله تعالى ﴿وسراجاً منيراً﴾ السراج الذي يقتبس منه، لأن القمر لا تصل إليه الأيدي حتى يقتبس منه، والسراج إذا كان في بلد يملأ ذلك البلد نوراً، لأن كل ما جاء يقتبس منه. والقمر ليس كذلك، ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلاماً، فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الشباب علي، ومن الموالى زيد، ومن العبيد بلال رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وجاء سلمان من أرض فارس فاقبّس، وصهيب من الروم، وبلال من الحبشة، ووفد الوفود واقتبسوا وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاريها حتى امتلأت الأرض من نور سراجهم، فهو ﷺ أعظم الأنبياء، وأكرم المرسلين، وسيد الخلق أجمعين لم يخلق الله أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أفصح ولا أرجح ولا أسمح ولا أصبح ولا أجل ولا أعظم ولا أسخى ولا أكرم ولا أبهى ولا أنصف ولا أعدل منه ﷺ. فلو أن البحار مداد، والنبات أقلام، وجميع الخلق تكتب معجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نوره من معجزاته ﷺ.

اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا في زمرة، وأتينا على محبته، ولا تخالف بنا عن ملته ولا عن جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

(١) سورة: الصف، الآية: ٦.

(٢) سورة: الأحزاب، الآيتان: ٤٥ - ٤٦.

(٣) سورة: نوح، الآية: ١٦.

## المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - أحكام النساء لابن الجوزي، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٣ - أخبار النحويين البصرين، للسيرافي الحسن بن عبد الله، أبي الحسن، المطبعة الكاثوليكية تحقيق د. فريتش كرنكو ١٩٣٦ م.
- ٤ - أخبار النساء لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٥ - الأدب النبوي، للخولي، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي، دار الحياة ومكتبة أسامة بن زيد، حلب الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٦ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر تحقيق محمد علي البجاري القاهرة.
- ٧ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب، القاهرة.
- ٨ - الإصابات في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٩ - الأسمعيات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف مصر ١٩٥٥ م.
- ١٠ - الأعلام، للزركلي الطبعة السادسة عام ١٩٨٤ م.
- ١١ - الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة المصرية العامة للكتاب.
- ١٢ - الأمالي لأبي علي القالي، تقديم عبد الجواد الأصمعي، دار الكتاب العربي بيروت، مصوره عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م.
- ١٣ - إنباه الرواة على أنباء النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٠ م.
- ١٤ - الأنساب للسمعاني، تقديم وتعليق عمر البارودي، دار الجنان بيروت ١٩٨٨ م.
- ١٥ - البخلاء، للجاحظ تحقيق طه الحاجري دار المعارف، مصر.
- ١٦ - البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي، دار المعرفة بيروت.
- ١٧ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت.
- ١٨ - البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٤٨ م.
- ١٩ - تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج الكويت عام ١٩٦٥ م.
- ٢٠ - تاريخ بغداد، للمخطيب البغدادي، محمد سعيد العرفي، مكتبة الخانجي، مصر.
- ٢١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد رياض الحلبي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٢٢ - تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة الطبعة الرابعة.

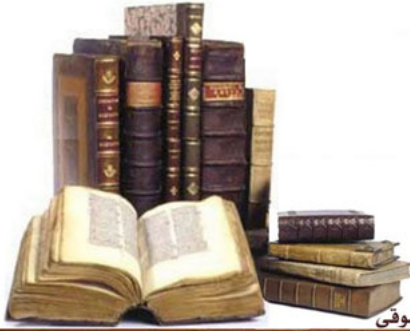
- ٢٣ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٢٤ - تهذيب التهذيب لابن حجر المسقلاني، دار إحياء التراث.
- ٢٥ - تهذيب اللغة للأزهري تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي القاهرة.
- ٢٦ - الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، نشر وتصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٧ - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي تحقيق محمد علي الهاشمي، دار القلم دمشق ١٩٨٦ م.
- ٢٨ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي القاهرة.
- ٢٩ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٨ م.
- ٣٠ - الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت.
- ٣١ - خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي.
- ٣٢ - الدارس في أخبار المدارس للنعمي تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٠ م.
- ٣٣ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر المسقلاني تصوير دار إحياء التراث العربي.
- ٣٤ - رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن دار المعارف مصر ١٩٦٩ م.
- ٣٥ - زهر الآداب وثمر الألباء للمحصري تحقيق محمد علي الجاوي مصر ١٩٥٣ م.
- ٣٦ - سنن ابن ماجه، تحقيق خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م دار المعرفة بيروت.
- ٣٧ - سنن النسائي، تحقيق خليل مأمون شيحا، الطبعة الثالثة ١٩٩٤ دار المعرفة بيروت.
- ٣٨ - سير أعلام النبلاء، للنهبي إشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٢ م.
- ٣٩ - السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة بيروت.
- ٤٠ - السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة بيروت.
- ٤١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤٢ - شرح أدب الكاتب لجواليقي، دار الكتاب العربي بيروت د.ت.
- ٤٣ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة ١٩٦٠ م.
- ٤٤ - صبح الأعشر في صناعة الإنشاء، للقلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩١٩ م.
- ٤٥ - صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق خليل مأمون شيحا الطبعة الأولى ١٩٩٤ م دار المعرفة بيروت.
- ٤٦ - صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمن اللادقي وحياة شيحا اللادقي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.
- ٤٧ - طبقات الشعراء، لابن سلام الجمحي، دراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت.
- ٤٨ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، شرح محمود شاكر، دار المعارف مصر ١٩٥٢ م.

- ٤٩ - الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر بيروت ١٩٦٠ م.
- ٥٠ - العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق د. عزم تلمري، دار الكتاب العربي بيروت.
- ٥١ - العملة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني تحقيق د. محمد قرقران، الطبعة الأولى، دار المعرفة بيروت ١٩٨٨ م.
- ٥٢ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، لابن سيد الناس، مكتبة القلبي القادسي.
- ٥٣ - عيون الأخبار، لابن قتيبة، دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م.
- ٥٤ - الفهرس لابن النديم، دار المعرفة بيروت.
- ٥٥ - فوات الوفيات للكتبي، تحقيق د. حسان عباس دار صادر بيروت.
- ٥٦ - القاموس المحيط للفيروز آبادي الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٥٧ - الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر بيروت ١٩٦٥ م.
- ٥٨ - الكامل في اللغة والأدب للمرير، تحقيق د. محمد أحمد العرابي مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣.
- ٥٩ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٦٠ - لباب الآداب لابن منقذ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر ١٩٣٥ م.
- ٦١ - لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٦٢ - المحاسن والأضداد، المنسوب للجاحظ، الجمالية ١٣٣٠ هـ.
- ٦٣ - مراتب النحويين، لأبي الطيب النبوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعها، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٥ م.
- ٦٤ - المستدرک على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار المعرفة بيروت.
- ٦٥ - المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ٦٦ - معجم الأدياء، لياقوت الحموي، مصر نشر وتصوير، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٦٧ - معجم البلدان، لياقوت الحموي تصحيح محمد أمين الخانجي الطبعة الأولى.
- ٦٨ - معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مطبعة الترقى بدمشق ١٩٦١ م.
- ٦٩ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف دار المعارف القاهرة ١٩٥٣ م.
- ٧٠ - الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق أ. مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٣ م.
- ٧١ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، تحقيق محمد علي الجاوي دار المعرفة بيروت.
- ٧٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تفرج بردي، دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م.
- ٧٣ - زهرة الألباء في طبقات الأدياء، لابن الأنباري تحقيق د. إبراهيم السامرائي مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٩ م.
- ٧٤ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني تحقيق د. حسان عباس بيروت ١٩٦٨ م.
- ٧٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناحي القاهرة.
- ٧٦ - الوافي بالوفيات، للصفدي، اعتناء هلموت ريتز وآخرون، نشر المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت.

فهرس موضوعات

كتاب المستطرف في كل فن مستظرف

الجزءين الأول والثاني



أ. علاء الدين شوقي

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

## فهرس الموضوعات

### الجزء الأول

٥	مقدمة الناشر
٧	مقدمة الإبيهي لكتاب «المستطرف»
١٣	الباب الأول: في مباني الإسلام وفيه خمسة فصول
١٣	الفصل الأول: في الإخلاص لله تعالى والثناء عليه
١٤	الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها
١٧	الفصل الثالث: في الزكاة وفضلها
٢٠	الفصل الرابع: في الصوم وفضله
٢١	الفصل الخامس: في الحج وفضله
٢٤	الباب الثاني: في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك
٢٩	الباب الثالث: في القرآن وفضله وحرمة
٣٣	الباب الرابع: في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم
٤٠	الباب الخامس: في الآداب والحكم وما أشبه ذلك
٤٤	الباب السادس: في الأمثال السائرة وفيه فصول
٤٤	الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم
٤٦	الفصل الثاني: في أمثال العرب
٤٨	الفصل الثالث: في أمثال العامة والمولدين
٤٨	الفصل الرابع: في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم
٥٦	الفصل الخامس: في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم
٦٦	الباب السابع: في البيان والبلاغة والفصاحة وغيرها، وفيه ثلاثة فصول
٦٦	الفصل الأول: في البيان والبلاغة
٦٧	الفصل الثاني: في الفصاحة
٧٤	الفصل الثالث: في ذكر الفصحاء من الرجال
٨٣	ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن
٩٠	الباب الثامن: في الأجوبة المسكنة والمستحسنة ورشقات اللسان



٩٤	الباب التاسع: في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء
٩٥	فصل في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم
١٠٢	الباب العاشر: في التوكل على الله تعالى إلخ، وفيه ثلاثة فصول
١٠٢	الفصل الأول: في التوكل على الله تعالى .....
١٠٦	الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى
١١٠	الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل
١١٣	الباب الحادي عشر: في المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب
١١٩	الباب الثاني عشر: في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك
١٢٥	الباب الثالث عشر: في الصمت وحبون اللسان إلخ، وفيه ثلاثة فصول
١٢٥	الفصل الأول: في الصمت .....
١٢٦	الفصل الثاني: في تحريم الغيبة
١٢٨	الفصل الثالث: في تحريم السعاية بالنميمة .....
١٣٣	الباب الرابع عشر: في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام إلخ
١٣٦	الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان إلخ
١٣٩	الباب السادس عشر: في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك
١٤١	الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرور والخطر
١٤٧	الباب الثامن عشر: فيما جاء في القضاء، إلخ وفيه ثلاثة فصول
١٤٧	الفصل الأول: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم
١٥٠	الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الدينون
١٥١	الفصل الثالث: في ذكر القصاص والمتصوفة، وما جاء في الرياء ونحو ذلك
١٥٣	الباب التاسع عشر: في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك .....
١٥٧	الباب العشرون: في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك
١٦٣	الباب الحادي والعشرون: في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وفيه فصلان
١٦٣	الفصل الأول: في سيرة السلطان في استجباء الخراج، وسيرة العمال
١٦٦	الفصل الثاني: في أحكام أهل الذمة
١٦٩	الباب الثاني والعشرون: في اصطناع المعروف وإغاة الملهوف إلخ
١٧٢	الباب الثالث والعشرون: في محاسن الأخلاق ومساوئها
١٧٧	الباب الرابع والعشرون: في حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة .....
١٨٧	الباب الخامس والعشرون: في الشفقة على خلق الله تعالى إلخ، وفيه فصلان
١٨٧	الفصل الأول: في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

- ١٨٨ الفصل الثاني: في الشفاعة وإصلاح ذات البين
- ١٩٠ الباب السادس والعشرون: في الحياء والتواضع ولين الجانب، إلخ، وفيه فصلان .....
- ١٩٠ الفصل الأول: في الحياء
- ١٩٠ الفصل الثاني: في التواضع ولين الجانب وخفض الجناح
- ١٩٢ الباب السابع والعشرون: في العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك .....
- ١٩٤ الباب الثامن والعشرون: في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت .....
- ٢٠٢ الباب التاسع والعشرون: في الشرف والسؤدد وعلو الهمة
- ٢٠٥ الباب الثلاثون: في الخير والصلاح وذكر الصحابة والأولياء والصالحين
- ٢١٧ الباب الحادي والثلاثون: في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء
- ٢٢٨ الباب الثاني والثلاثون: في ذكر الأشرار والفجار إلخ
- ٢٣١ الباب الثالث والثلاثون: في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق إلخ
- ٢٤٩ الباب الرابع والثلاثون: في البخل والشح، والبخل، وأخبارهم
- ٢٥٧ الباب الخامس والثلاثون: في الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف إلخ .....
- ٢٧٠ الباب السادس والثلاثون: في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار إلخ
- ٢٨٤ الباب السابع والثلاثون: في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية النزم
- ٢٩٥ الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه
- ٢٩٨ الباب التاسع والثلاثون: في الغدر والخيانة إلخ، وفيه أربعة فصول
- ٢٩٨ الفصل الأول: في الغدر والخيانة
- ٣٠١ الفصل الثاني: في السرقة والتراق
- ٣٠٢ الفصل الثالث: في العداوة والبغضاء
- ٣٠٤ الفصل الرابع: في الحسد .....
- ٣٠٧ الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتليبيرها، إلخ وفيه فصلان
- ٣٠٧ الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله وشدته البأس
- ٣٠٨ الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتليبيرها
- ٣١٤ الباب الحادي والأربعون: في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال، وذكر الجبناء وأخبارهم
- ٣٢٥ الباب الثاني والأربعون: في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة، وفيه ثلاثة فصول .....
- ٣٢٥ الفصل الأول: في المدح والثناء .....
- ٣٣٤ الفصل الثاني: في شكر النعمة
- ٣٣٨ الفصل الثالث: في المكافأة

## الجزء الثاني

- ٣٤٥ الباب الثالث والأربعون: في الهجاء ومقدماته
- ٣٥٣ ..... الباب الرابع والأربعون: في الصدق والكذب وفيه فصلان
- ٣٥٣ الفصل الأول: في الصدق
- ٣٥٤ الفصل الثاني: في الكذب وما جاء فيه
- الباب الخامس والأربعون: في بر الوالدين وذم العقوق، والأولاد، وصلة الرحم، والتقربيات
- ٣٥٦ وفيه ثلاثة فصول
- ٣٥٦ ..... الفصل الأول: في بر الوالدين وذم العقوق
- ٣٥٧ الفصل الثاني: في الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء وغيرهم
- ٣٦٠ الفصل الثالث: في ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة
- ٣٦٢ الباب السادس والأربعون: في الخلق وصفاتهم وأحوالهم، والحسن والقيح، وفيه فصول
- ٣٦٢ الفصل الأول: في الحسن ومحاسن الأخلاق
- ٣٨٨ الباب السابع والأربعون: في التختم والحلي والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك
- ٣٩١ الباب الثامن والأربعون: في الشباب والشيب والصحة وأخبار المعمرين وفيه فصول
- ٣٩١ ..... الفصل الأول: في الشباب وفضله
- ٣٩١ الفصل الثاني: في الشيب وفضله
- ٣٩٥ الفصل الثالث: في العافية والصحة
- ٣٩٦ الفصل الرابع: في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام
- ٣٩٧ الباب التاسع والأربعون: في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنت منها
- ٤٠٣ الباب الخمسون: في الأسفار والاعتراب وما قيل في الوداع والفراق وغيرها
- ٤١١ الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه
- ٤١٩ الباب الثاني والخمسون: في ذكر الفقر ومدحه
- ٤٢١ ..... الباب الثالث والخمسون: في ذكر التلطف في السؤال وذكر ما سئل فجاد
- ٤٢٨ الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك
- ٤٣١ الباب الخامس والخمسون: في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك
- ٤٣٦ الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان وانقلابه، وفيه ثلاثة فصول
- ٤٣٦ الفصل الأول: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله
- ٤٤٠ الفصل الثاني: في الصبر على المكروه ومدح الثبت وذم الجزع
- ٤٤٨ ..... الفصل الثالث: في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر
- ٤٥١ الباب السابع والخمسون: في اليسر بعد العسر، الفرج بعد الشدة

- ٤٥٩ الباب الثامن والخمسون: في ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان
- ٤٥٩ الفصل الأول: في مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً
- ٤٦٠ الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم
- ٤٦٢ الباب التاسع والخمسون: في أخبار العرب الجاهلية وأبدهم، وذكر غرائب من عوائلهم
- ٤٦٧ الباب الستون: في الكهانة والقيافة والزجر والعراقة والفأل وغيرها
- ٤٧٨ الباب الحادي والستون: في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصّر
- ٤٨٦ ..... الباب الثاني والستون: في ذكر الدواب والوحوش والطيور والهوام والحشرات وغيرها
- ٥٢٥ فصل: في خواص الطير والحيوان على الإجمال
- ٥٢٦ الباب الثالث والستون: في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم
- ٥٣١ الباب الرابع والستون: في خلق الجن وصفاتهم
- ٥٣٢ فصل: في مكايده لعنه الله
- ٥٣٢ فصل: في المشيطة وهم أنواع كثيرة
- ٥٣٥ الباب الخامس والستون: في ذكر البحار وما فيها من العجائب إلخ، وفيه فصول
- ٥٣٥ الفصل الأول: في ذكر البحار
- ٥٣٩ الفصل الثاني: في ذكر الأنهار والآبار والعيون
- ٥٤٠ الفصل الثالث: في ذكر الآبار
- ٥٤٢ ..... الباب السادس والستون: في ذكر عجائب الأرض، وما فيها من الجبال والبلدان إلخ، وفيه فصول
- ٥٤٢ الفصل الأول: في ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب
- ٥٤٢ الفصل الثاني: في ذكر الجبال
- ٥٤٣ الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها
- ٥٤٧ الباب السابع والستون: في ذكر المعادن والأحجار وخواصها
- ٥٥١ الباب الثامن والستون: في الأصوات والألحان وذكر الغناء وغيرها
- ٥٥١ فصل: في الصوت الحسن
- ٥٥٧ الباب التاسع والستون: في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم وغيرها
- ٥٦٣ الباب السبعون: في ذكر القينات والأغاني
- ٥٧٠ الباب الحادي والسبعون: في ذكر العشق ومن بلي به، وفيه فصول
- ٥٧٠ الفصل الأول: في وصف العشق
- ٥٧٢ الفصل الثاني: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف
- ٥٧٧ الفصل الثالث: في ذكر من مات بالحب والعشق
- ٥٨٤ ..... الباب الثاني والسبعون: في ذكر رقائق الشعر والمواليا والدويت وكان وكان، وفيه فصول

٥٨٤	الفصل الأول: في الشعر
٦٣٢	فصل في ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك
٦٣٩	فصل في الألفاظ
٦٤٤	فصل في بيان الفن الثاني وهو الموشح
٦٤٩	فصل في الفن الثالث وهو الدوييت
٦٥٠	فصل في الفن الرابع وهو الزجل
٦٥٦	الفن الخامس: في المواليا
٦٥٨	الفن السادس: كان وكان
٦٦٠	الفن السابع: في القوما
٦٦٣	الباب الثالث والسبعون: في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن، وفيه فصول
٦٦٣	الفصل الأول: في النكاح وفضله والترغيب فيه
٦٧١	الفصل الثاني: في صفات النساء المحمودة
٦٧٢	الفصل الثالث: في صفة المرأة السوء تعود بالله تعالى منها
٦٧٣	الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن
٦٧٥	الفصل الخامس: في الطلاق وما جاء فيه
٦٧٨	الباب الرابع والسبعون: في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها
٦٨١	الباب الخامس والسبعون: في المزاح والنهي عنه، وفيه فصول
٦٨١	الفصل الأول: في النهي عن المزاح
٦٨١	الفصل الثاني: في الترخيص في المزاح والبسط والتعم
٦٨٤	الباب السادس والسبعون: في النوادر والحكايات، وفيه عشرة فصول
٦٨٤	الفصل الأول: في نوادر القراء العرب
٦٨٨	الفصل الثاني: في نوادر القراء والفقهاء
٦٨٨	الفصل الثالث: في نوادر القضاة
٦٩٠	الفصل الرابع: في نوادر النحاة
٦٩١	الفصل الخامس: في نوادر المعلمين
٦٩٢	الفصل السادس: في نوادر المتنبئين
٦٩٣	الفصل السابع: في نوادر السؤال
٦٩٤	الفصل الثامن: في نوادر المؤذنين
٦٩٤	الفصل التاسع: في نوادر النواتية
٦٩٥	الفصل العاشر: في نوادر جامعة

٦٩٧	الباب السابع والسبعون: في الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصلان
٦٩٧	الفصل الأول: في الدعاء وآدابه
٦٩٩	الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها
٧٠٨	الباب الثامن والسبعون: في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل
٧١٣	الباب التاسع والسبعون: في التوبة والاستغفار
٧١٦	الباب الثمانون: في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وغيرها، وفيه فصول
٧١٦	الفصل الأول: في الأمراض والعلل، وما جاء في ذلك من الأجر والثواب
٧١٦	الفصل الثاني: في ذكر العلل كالبخر والعرج وغيرها
٧١٨	الفصل الثالث: في التداوي من الأمراض والطب .....
٧٢٢	الفصل الرابع: في العيادة وفضلها
٧٢٤	الباب الحادي والثمانون: في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله
٧٢٨	الباب الثاني والثمانون: في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي وغيرها. وفيه فصول
٧٢٨	الفصل الأول: في الصبر
٧٣٠	الفصل الثاني: في التعازي والتأسي
٧٣٣	الفصل الثالث: في المراثي
٧٤٠	الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا، وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها
٧٤٩	الباب الرابع والثمانون: فيما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ
٧٥٤	المصادر والمراجع
٧٥٧	فهرس الموضوعات

